السيرة النبوية الشريفة

بسم الله الرحمن الرحيم

السيرة النبوية الشريفة

تأليف

أ. د. محمّد سهيل طقّوش

أستاذ التاريخ الإسلامي في جامعة الإمام الأوزاعي

كلية الدراسات الإسلامية

دار النفائس

السيرة النبوية الشريفة

تاليف: أ.د. محمد سهيل طقوش

الطبعة الأولى: 1433هـ ـ 2012م

ISBN 978 - 9953 - 18 - 488 - 3

نشر

دار النفائس
للطباعة والنشر والتوزيع
شارع فردان ـ بناية الصباح
وصفي الدين ـ ص.ب 5152 ـ 14
الرمز البريدي: 2020 ـ 1105
فاكس: 009611861367
هاتف: 009611810194 ـ 803152
بيروت ـ لبنان

ublisher

DAR AN-NAFAES
ıting-Publishing-distribution
dun Str - Safiedine bldg.
Box 14-5152
code 1105-2020
:009611 861367
00961 1 803152 - 810194.
ut - Lebanon

Web Site: WWW.alnafaes.com

il: alnafaes@yahoo.com

المقدمة

الحمد لله رب العالمين، والصلاة والسلام على سيِّد المرسلين محمد بن عبد الله، خاتم النبيين، وعلى آله وأصحابه أجمعين، ومن دعا بدعوته إلى يوم الدين، وبعد:

تتناول هذه الدراسة السيرة النبوية الشريفة. ولئن كان عصر الرسالة قد وضع الأُسس العقدية للدين الإسلامي، وحدَّد النهج، ووحَّد مناطق الجزيرة العربية تحت قيادة سياسية واحدة؛ فإن سيرة الرسول ﷺ تبقى غنية بمعطياتها، وهي أهدى سبيل يُتَّبع؛ ففيها من الكمال ما ينبغي أن يُلقِّنها الآباء للأبناء، بل هي المثل الأعلى للكمال الإنساني في كل ما تتسع له طاقة الإنسان. فحياته ﷺ السامية تُعدُّ نموذجاً للشباب المستقيم في سلوكه، الأمين مع قومه وأصحابه كما هي نموذج رائع للإنسان الداعي إلى الله بالحكمة والموعظة الحسنة، وتُحقِّق أهدافاً عدة أهمها: وجوب الاقتداء برسول الله ﷺ من واقع شخصيته وأعماله وأفعاله وتقريراته، وتكسب المسلم محبَّته، وتطلعه على حياة الصحابة الذين جاهدوا معه، ما يدعو إلى الاقتداء بهم والسير على نهجهم.

وتُبيِّن السيرة النبوية حياة الرسول ﷺ بدقائقها وتفاصيلها، منذ ولادته حتى موته، وتظهره بوضوح: زوجاً وأباً وقائداً محارباً وحاكماً سياسياً ومربياً وراعياً وزاهداً وقاضياً، ويجد فيها المسلم النهج الصحيح، والتصرف السليم، والطريق إلى الهدى.

لقد ترك الرسول محمد ﷺ، من خلال سيرته، تراثاً مهماً، وصالحاً تقتدي به كل شرائح المجتمع، فيوظف الداعي مبادىء هذا التراث، بعد أن يقف على مراحل حياته ﷺ المتسلسلة ووسائل كل مرحلة من مراحلها؛ في اتصاله مع الناس ودعوتهم إلى الإسلام.

ويجد القائد العسكري في التراث النبوي نظاماً محكماً ومنهجاً دقيقاً في فنون قيادة الجيوش، كالتخطيط السليم، ودقة التنفيذ، والحرص على سلامة القوات، وإقامة قواعد الشورى بين الجند والأمراء، والراعي والرعية في قيادة الأُمة.

ويتعلم الرجل السياسي من التراث النبوي كيفية التعامل مع أقرانه كما مع خصومه السياسيين.

ويجد العالِم في التراث النبوي ما يعينه على فهم كتاب الله بوصفه المفسِّر للقرآن الكريم، مثل أسباب النزول، تفسير آيات قرآنية كثيرة تُعينه على فهمه، ويستنبط منها ويستخرج أحكامها الشرعية وأصول السياسة الشرعية.

ويجد الزاهد في التراث النبوي، معاني الزهد وحقيقته وغايته.

ويستقي التاجر من هذا التراث أهداف التجارة وأنظمتها وأساليبها.

إن الانعطافة الفاصلة في تاريخ العرب هي مجيء الإسلام بنزول الوحي في مكة ما يُعدُّ أساساً لكل التطورات اللاحقة، إلا أن الهجرة إلى المدينة والاستقرار فيها شكَّلا بداية تكوُّن الدولة التي ستحمي كل الإنجازات والتوجُّهات، وأظهر مجرى الأحداث في العهد المكي أن الدعوة على سموِّ رسالتها وسلامة مبادئها لا تتوطَّد من دون كيان سياسي يدعمها ويصونها.

والحقيقة أن الإسلام حقَّق بعد الهجرة بناء الدولة السياسي، وأتمَّ في مدة قصيرة إنجازات وضَّحت معالم الإسلام، وثبَّتته في النفوس، ووسَّعت دولته بعد تذليله كثيراً من العقبات، ويعود الفضل في صياغة هذه الحقيقة إلى الرسول ﷺ، فقد كان لرسالته التي اختاره الله ليُبلِّغها، ونظرته الثاقبة، وإدراكه الفذ، وسجاياه المميزة؛ الأثر الكبير في إقامتها على الأسس التي كفلت لها الاستقرار والثبات عبر الأزمان وإلى يوم القيامة.

ولا شك بأن أروع مظاهر شخصيته ﷺ، إدراكه الصائب لأوضاع المجتمع ونظرته النفَّاذة إلى ما تجب معالجته لتحقيق المُثل التي دعت إلى تطبيقها الرسالة الإسلامية، فدوره ﷺ لا ينحصر في تبليغ الرسالة فقط، وإنما يمتد إلى جهوده في تحقيقها عملياً وتأصيلها في نفوس الناس بما يضمن لها الديمومة

والواقع أن الإنسان مهما بحث عن مثل أعلى في أي ناحية من نواحي حياته لا يجده إلا في حياة الرسول ﷺ، على أعظم ما يكون من الوضوح والكمال، ولذا جعله الله قدوة للإنسانية كافة، يقول ﷻ: ﴿لَّقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ ٱللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ﴾ [الأحزاب/ ٢١].

إن دراسة السيرة النبوية تعين المسلم على تجميع أكبر قدر من الثقافة والمعارف الإسلامية الصحيحة، سواء ما كان متعلقاً منها بالعقيدة أو بالأحكام أو بالأخلاق، إذ إن حياته ﷺ إنما هي صورة مجسَّدة نيِّرة لمجموع مبادئ الإسلام وأحكامه، وتشمل كل النواحي الإنسانية.

يُقدم هذا الكتاب صورة عامة لأحداث عصر الرسالة، وكثير من المعلومات التي وردت فيه معروفة في ما نُشر من كتب ودراسات سابقة لكن برؤى مختلفة، إذ لكل

باحث منهجه وأسلوبه وطريقة عرضه للموضوع، وقد راعيت في عرضي للأحداث إبراز ما ترك منها أثراً، ثم عمدت إلى ربط الأحداث المنفردة بالأوضاع العامة ما يساعد على استيعاب أفضل لمكانتها وأهميتها ومساراتها، وبيَّنت الأحكام الفقهية المستنبطة منها.

اعتمدت في هذه الدراسة على مصادر أساسية ومراجع متنوعة مبيَّنة في ثبت المصادر والمراجع، وآمل بما اعتمدت عليه أن يُجلي الحقيقة التاريخية.

أما تشكيل الموضوعات التي يراها القارىء بعناوينها، فقد قسَّمتها إلى ثمانية عشر فصلاً موزَّعة على بابين:

تضمَّن الباب الأول حياة النبي ﷺ في مكة.

وتضمَّن الباب الثاني حياة النبي ﷺ في المدينة، وقسمته إلى ثلاثة أقسام، عالجت في القسم الأول علاقته ﷺ مع قريش، وبحثت في القسم الثاني علاقته ﷺ مع اليهود، وجاء القسم الثالث سجلاً لعلاقته ﷺ مع الروم البيزنطيين.

وأنا على ثقة بأن القارىء سيجد في هذه الدراسة الفوائد والعِبَر والدروس التي تُعينه في دنياه وآخرته.

وأسأل الله أن يجعلها خالصة لوجهه الكريم، وأن ينفع بها القارىء العربي والمسلم، إنه سميع مجيب.

أ. د محمد سهيل طقوش

[illegible]

... يوم القيامة.

ويمثل ... [illegible] شخصيته ﷺ إدراكه الشامل لأوضاع المجتمع وقضاياه المختلفة ... [illegible] معالجته لمشكلات الحال التي دعت إلى تطبيقها الرسالة الإسلامية، بصورة ﷺ لا يتقدم في تبليغ الرسالة فقط، وإنما يمتد إلى جوهره في تطبيقها ... وأصحابها في نفوس الناس ... المنشودة.

والواقع أن الإنسان مهما بحث عن مثل أعلى في أي ناحية من نواحي حياته لا يجده إلا في حياة الرسول ﷺ، على أعظم ما يكون من الوضوح والكمال، ولهذا جعله الله قدوة للإنسانية كافة بقوله تعالى: ﴿لَّقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ اللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ﴾ (الأحزاب: ٢١).

إن دراسة السيرة النبوية تعين المسلم على تحصيل أكبر قدر من الثقافة والمعارف الإسلامية [illegible] سواء ما كان منها متعلقاً بالعقيدة أو بالأحكام أو بالأخلاق، إذ السيرة [illegible] هي صورة مجسدة حية لمجموع مبادئ الإسلام وأحكامه، وتشمل كل نواحي الإنسانية.

يقدم هذا الكتاب صورة كاملة لأحداث عصر الرسالة، وكثير من المعلومات [illegible] ورد فيه معروفة في ما صدر من كتب ودراسات سابقة لكن برؤية مختلفة، إذ [illegible]

تمهيد

العصر الجاهلي[1]

أوضاع العرب العامة قبل الإسلام

من المفيد، قبل أن نبدأ بدراسة السيرة النبوية الشريفة، أن نلمَّ بإيجاز بتاريخ العصر الجاهلي السابق لعصر الرسالة؛ لأنه يتضمن الجذور التاريخية للشعوب العربية قبل أن يوحِّدها الإسلام، ونتعرف كذلك على أوضاع الدولتين المجاورتين للجزيرة العربية، وأعني بهما الدولة الفارسية والدولة البيزنطية (الروم)، لتقاطع تاريخهما مع تاريخ الإسلام بعد ظهوره.

وإذا كنا نُدخل عصر الجاهلية في موضوع دراستنا كنقطة ابتداء، فإن المنطلق المباشر لذلك هو محاولة استجلاء الأصول الأولية للأشكال التي عبَّر بها سكان الجزيرة العربية والشعوب المجاورة لهم عن تصوُّراتهم في مختلف مجالات الحياة، بفعل أن تلك الأصول عوامل لمسار التطور التاريخي لهؤلاء السكان والشعوب.

لقد قسَّم المؤرخون والمفسرون الإسلاميون الجاهلية إلى جاهلية أولى، وهي التي وُلد فيها النبيُّ إبراهيم الخليل ﷺ، وجاهلية ثانية لا تمتد في المدى الزمني إلى ما قبل القرنين الخامس والسادس الميلاديين، وهي التي وُلد فيها النبيُّ محمّد ﷺ.

ولما كانت الأُصول الأولية للأشكال والظاهرات التي تجلَّت بها مرتبطة ارتباطاً عضوياً بأوضاع العرب قبل الإسلام، لذلك لا بدَّ لنا من الإلمام بهذه الأوضاع.

---

(١) إن تسمية عصر ما قبل الإسلام بالعصر الجاهلي هي تسمية إسلامية مستحدثة استندت إلى الآية: ﴿إِذْ جَعَلَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ فِى قُلُوبِهِمُ ٱلْحَمِيَّةَ حَمِيَّةَ ٱلْجَٰهِلِيَّةِ﴾ [الفتح/٢٦]. وتشير كلمة الجاهلية، استناداً لهذه الآية، إلى مضمون أخلاقي سلوكي، فليس المقصود بها معنى الجهل المضاد للمعرفة، بدليل ما ورد عن النبي ﷺ من أن أبا ذر عيَّر أمامه رجلاً بأُمه، فقال ـ أي: النبيُّ لأبي ذر ـ (**إنك امرؤ فيك جاهلية**).

الوضع الجغرافي

ترتبط الأصول الأولية لأشكال السلوك البشري للعرب الجاهليين ارتباطاً عضوياً بالبيئة الجغرافية التي وُلدت ونشأت فيها. وأدَّت البيئة الجغرافية للجزيرة العربية دوراً بارزاً في تطور مسار التاريخ الجاهلي من خلال تأثيرها على الجغرافية البشرية لسكان الجزيرة، فالإنسان دائماً وليد بيئته، وإذا كانت بيئته تختلف اختلافاً بيِّناً من مكان إلى آخر، نتج عن ذلك بالضرورة اختلاف في تطوره في المناطق المختلفة، وسنحاول الإلمام في الفقرات التالية بجغرافية الجزيرة العربية وأقسامها الطبيعية من حيث الوضع الجغرافي، التركيب والبنية، الوضع الطبيعي والطبقات السكانية.

تُشكِّل شبه الجزيرة العربية رقعة جغرافية مترامية الأطراف، تقع في القسم الجنوبي الغربي من قارة آسيا، تبلغ مساحتها ثلاثة ملايين كيلومتراً مربعاً، وتُعدُّ أكبر شبه جزيرة في العالم، ويُطلق العلماء العرب عليها اسم جزيرة العرب تجوزاً، وذلك بفعل عاملين:

الأول: إحاطة الأنهار والبحار بها من جميع جهاتها، فصارت فيها في مثل الجزيرة من جزائر البحر[١].

الثاني: أن المنطقة تشبه جزيرة بشرية يتحدث سكانها اللغة العربية، وتحدُّها من الشمال مجموعات بشرية يتحدث سكانها بلغات أخرى ما دفع أحد هؤلاء العلماء إلى القول: إن المنطقة «تُسمى جزيرة العرب لأن اللسان العربي فيها شائع وإن تفاضل»[٢].

يحدُّ الجزيرة العربية الخليج العربي من الشرق، والمحيط الهندي من الجنوب، والبحر الأحمر من الغرب، أما حدها الشمالي فهو خط يمتد من خليج العقبة حتى مصب شط العرب، ويُكوِّن الحدود التي تفصلها عن الهلال الخصيب[٣].

تتكوَّن معظم أراضي الجزيرة العربية، من بوادٍ وسهول غلبت عليها الطبيعة الصحراوية مع اختلاف طبيعة سطحها؛ إذ أن بعضه مُغطَّى بالكثبان الرملية، وبعضه الآخر عبارة عن جبال وآكام وأغوار منخفضة، بالإضافة إلى نجد مرتفع. وتُطلعنا الدراسة الجغرافية من حيث التركيب والبنية أن الجزيرة العربية تنقسم إلى الأنواع التالية:

---

(١) الهمداني، الحسن بن أحمد بن يعقوب: **صفة جزيرة العرب**، ص٨٥. الحميري، شهاب الدين أبو عبد الله ياقوت: **معجم البلدان**، جـ٢ ص١٣٧.

(٢) الهمداني، ص٣٩. (٣) الحموي، جـ٢ ص١٣٧.

النفود: امتداد صحراوي واسع تكوَّن بفعل تفتت أحجار الغرانيت، يقع في شمالي الجزيرة العربية بين نجد وبادية الشام، وبين نجد والأحساء(١).

الحرار: الحرة هضبة بركانية تغطيها أحجار سوداء. تقع حرار الجزيرة العربية على امتداد المنطقة الغربية، كما توجد في بعض المناطق الوسطى والشرقية والجنوبية من نجد، بالإضافة إلى المناطق الجنوبية في الربع الخالي نذكر منها: حرة تبوك، حرة النار قرب خيبر(١)، علماً بأن المدينة المنورة تقع بين حرتين.

الدهناء: إنها مساحات من الأراضي ذات رمال حمراء تمتد من النفود في الشمال إلى حضرموت ومهرة في الجنوب واليمن في الغرب وعُمان في الشرق، وتُسمَّى الأقسام الجنوبية منها بالربع الخالي، ويُطلق على القسم الغربي منها اسم الأحقاف(٢).

الدارات: إنها أرض سهلة على شيء من الاستدارة تحيط بها التلال، وتحتوي على قدر من المياه الجوفية. تنبت فيها الأعشاب والنباتات الصحراوية(٣)، وتكثر في بادية السماوة غربي العراق وبادية الشام شرقي بلاد الشام.

الجبال: ترتفع الجبال وراء السهول الساحلية وتشكل العمود الفقري للجزيرة العربية. تمتد من جنوبي بلاد الشام في الشمال إلى اليمن في الجنوب موازية لساحل البحر الأحمر وقريبة منه. وتمتد في محاذاة السواحل الجنوبية سلاسل جبلية تتفرع من جبال اليمن ثم تتجه شرقاً إلى عُمان. نذكر من بين أشهر الجبال: جبال السراة المطلة على البحر الأحمر، جبل دباغ، جبل شيبان والجبل الأخضر.

السهول: يلف الجزيرة العربية شريط من السهول الضيقة تفصل بين البحر والسلاسل الجبلية، أشهرها سهول: تهامة، حضرموت وأراضي عُمان الساحلية.

الهضاب: تقع الهضاب وراء الجبال، أشهرها هضبة نجد، تتكوَّن من الغرانيت، يقال لها جبل شُمَّر، وتتألف من سلسلتين يقال لإحداها: أجأ، وللأخرى سلمى، وهما من منازل طيء، وعُرفت قديماً بجبلي طيء.

الأنهار والأودية: لا يوجد في الجزيرة العربية أنهار كبيرة بالمعنى المعروف ولا بحيرات، لذلك تتميز بوجه عام بأنها إقليم حار جاف وناري، وأضحت بقاعها صحراوية قليلة السكان، غير أنها كثيرة الأودية التي تمتلىء بالسيول عند سقوط الأمطار.

الأمطار: الغالب على جو الجزيرة العربية الجفاف، فالأمطار قليلة على الرغم من

---

(١) علي، جواد: **المفصل في تاريخ العرب قبل الإسلام**، جـ ١ ص١٥٢، ١٥٣.

(٢) Philby, H: **The Empty Quarter in the Geographical Journal**, 81. pp. 1 - 26.

(٣) علي: جـ ١ ص١٥٥، ١٥٦.

أن الماء يحيط بها من ثلاث جهات، إلا أن كلاً من البحر الأحمر والخليج العربي لا يساعدان، لضيقهما، على أن يحدا من قوة الجفاف. أما المحيط الهندي، فإن رطوبته تساعد على سقوط الأمطار الموسمية في الصيف بانتظام في الأماكن القريبة من الشاطىء. أما الأقسام الوسطى، فيسقط المطر من الغيوم المتبخرة في الخليج العربي، ويكثر في أعالي جبل شمر. ويشهد الحجاز مواسم جفاف قد تستمر ثلاث سنوات، ومع ذلك قد ينهمر المطر على مكة والمدينة في فصل الشتاء، فيشكل سيولاً تنحدر من الجبال إلى الوديان والشعاب، وكثيراً ما جرف الكعبة.

نتيجة لتوزع الأمطار على هذا النحو، نشأت بعض عوامل التمييز بين سكان الجزيرة العربية. ففي الشمال، حيث الأمطار غير منتظمة، لم تتولد حياة زراعية مستقرة وإنما تنبت فيها المراعي التي يعيش عليها أهل البادية، فتميزت الحياة فيها بالرعي والتنقل. أما في الجنوب، فقد نشأت مجتمعات مستقرة اعتمدت على الزراعة نظراً لانتظام سقوط الأمطار.

المناخ: مناخ الجزيرة العربية شديد الحرارة بعامة، وتكثر في نجد رياح السموم التي تهب صيفاً، وألطف رياحها الشرقية، ويسمونها الصَّبا. أما الرياح الشمالية، فباردة وبخاصة في الشرق؛ إذ تتحول إلى صقيع في كثير من الأحيان.

تعرَّفت دول وشعوب العالم القديم على الجزيرة العربية من خلال ملامحها الجغرافية، وحاولوا تقسيمها بما يتفق مع اهتماماتهم السياسية والاقتصادية ومعلوماتهم الجغرافية. فقسَّمها جغرافيو اليونان والرومان إلى ثلاثة أقسام، هي:

- **العربية السعيدة**: وتشمل الحجاز واليمن ونجد.
- **العربية الصخرية**: وتشمل شبه جزيرة سيناء والمملكة النبطية.
- **العربية الصحراوية**: وتشمل بادية الشام.

أما الجغرافيون المسلمون، فقد انطلقوا من الوضع الطبيعي المحض، عاكسين تصور سكان الجزيرة العربية لهذا التقسيم في العصر السابق للإسلام، فقسَّموا الجزيرة العربية إلى خمسة أقسام، هي[1]:

تهامة: تشمل المنطقة الساحلية الضيقة والمنخفضة الموازية لامتداد البحر الأحمر، وتقع بين اليمن جنوباً وينبع شمالاً، ويُقال لتهامة الواقعة في اليمن؛ تهامة اليمن، وسُمِّيت نسبة إلى التهم وهو شدة الحر وركود الريح، وذلك نظراً لشدة حرها وركود ريحها أو لتغيُّر هوائها.

الحجاز: هو المنطقة الجبلية الممتدة من شرقي تهامة من الشمال إلى الجنوب

(١) الحموي: جـ٢ ص١٣٥ ـ ١٣٨. علي: جـ١ ص١٦٣ ـ ١٨١.

مشكِّلة سلسلة جبال السراة وفاصلة بين تهامة وهضبة نجد. ويمتد إقليم الحجاز حتى حدود الشام عند العقبة، وسمي حجازاً لأنه يحجز بين تهامة ونجد، أو لأنه يحجز بين الغور والشام وبين جبال السراة ونجد. وتكثر في هذا الإقليم الأودية والأراضي البركانية والحرات، وإذا توفرت المياه (آبار، ينابيع) قامت القرى الكبيرة مثل يثرب (المدينة) ووادي القرى، ويجعل بعض المؤرخين المسلمين مكة من تهامة[1].

نجد: ينبسط الحجاز شرقاً في هضبة نجد الواسعة التي تكوِّن قلب الجزيرة العربية، وتنحدر من الغرب إلى الشرق حتى تتصل بأرض العروض، وتقع بين بادية السماوة في الشمال والدهناء في الجنوب وأطراف العراق شرقاً والحجاز غرباً، وهي أوسع أقاليم الجزيرة العربية. يتكوَّن سطح الهضبة من أودية وتلال ترتفع عن سطحها بضع مئات من الأقدام، وتتألف حجارتها في الغالب من صخور كلسية ورملية وغرانيتية. وتقع في شمال نجد، صحراء النفود التي تبتدىء من واحة تيماء وتمتد شرقاً نحو ثلاثمائة ميل، وتزخر بالكثبان الرملية، وتتخللها مراعٍ واسعة.

العروض: إنه الإقليم الواقع على ساحل بحر الخليج، ويشمل اليمامة والبحرين وما يتبعهما. وعدَّ ياقوت اليمامة من نجد[2].

اليمن: يُطلق على جنوبي الجزيرة العربية كله، ويشمل حضرموت ومهرة والشحر، وقد يُطلق على الزاوية الجنوبية الغربية من الجزيرة، وهو المشهور الآن. ويتألف اليمن من ثلاثة أقسام طبيعية هي:

- ساحل ضيق خصب هو تهامة اليمن.
- جبال موازية للساحل هي امتداد لسلسلة جبال السراة.
- هضبة تؤدي إلى نجد والربع الخالي.

وفي اليمن أودية كثيرة وسهول غنية بالزراعة. وسُمِّي اليمن بهذا الاسم لتيامن العرب إليه؛ لأنه أيمن الأرض بالنسبة للشخص الذي يقف وظهره إلى البحر ونظره على امتداد الجزيرة[3].

الوضع الاقتصادي

يتأثر الوضع الاقتصادي عادة بطبيعة الإقليم؛ إذ أن للطبيعة أثراً كبيراً في تحديد خيرات الإقليم وإنتاجه الزراعي والصناعي والحيواني. وقد أثَّرت طبيعة الجزيرة العربية في تكييف اقتصاد العرب الجاهليين في العصر السابق لظهور الإسلام وفي

---

(١) الحموي: جـ٢ ص١٣.   (٢) المصدر نفسه: جـ٥ ص٣٩٣.

(٣) الهمداني: ص٩٠، ٩١. الحموي: جـ٥ ص٤٤٧. علي: جـ١ ص١٧٠، ١٧١.

تحديد موارده وفي توجيه العرب الاقتصادي. فاعتمد سكان المناطق الصحراوية بشكل رئيس على الرعي المتنقل لأنعامهم ومواشيهم، وعلى التجارة، في حين اعتمد سكان المناطق الخصبة على الزراعة، ولم يهملوا التجارة، كما كان عندهم إلمام بالصناعة، فكانوا أوفر حظاً من البدو.

وتبرز في الوضع الاقتصادي للجزيرة العربية، ظاهرة واضحة هي تنوُّع الموارد، وذلك نتيجة عاملين:

الأول: تنوُّع طبيعة الأرض والمناخ، وانعكس ذلك في:

ـ المناطق الصحراوية التي لا تصلح إلا للرعي المتنقل.

ـ مناطق أقل قسوة في طبيعتها، حيث يكثر العشب، ويستمر مدة طويلة نسبياً، ومن ثَمَّ يقترب أهل البادية من الرعاة إلى صفة الإقامة الثابتة في المناطق التي توجد فيها مراعيهم، مثل المناطق الواقعة على حافة الهلال الخصيب

ـ مناطق تكثر فيها الواحات التي احتوت على بعض الينابيع التي تسمح بقدر من الزراعة، مثل بعض الواحات الموجودة في نجد والحجاز.

ـ مناطق حظيت بتربة خصبة نتيجة هطول الأمطار الموسمية بغزارة وانتظام، مثل القسم الجنوبي من الجزيرة العربية.

الثاني: الموقع الجغرافي للجزيرة العربية براً وبحراً بين مناطق الشرقين الأدنى والأقصى من جهة، وبين المناطق المطلة على البحر الأبيض المتوسط في الغرب من جهة أخرى، والتي تجعل منها معبراً ومنطلقاً لقوافل التجارة البرية والبحرية بين المنطقتين

انطلاقاً من الظروف الطبيعية والسكانية، ينقسم سكان الجزيرة العربية في مرحلة الجاهلية الأخيرة إلى ثلاث فئات:

ـ فئة غير مستقرة تطلب العيش بالترحال والرعي.

ـ فئة مستقرة تعمل في الزراعة.

ـ فئة بين الاستقرار والترحال.

وقد نتج عن هذا التقسيم نشوء ظواهر عدة، لعلَّ أهمها:

الرعي: شكل الرعي، بنوعيه الثابت والمتنقل، المورد الاقتصادي الأساس لرعاة البادية في القسم الأكبر من الجزيرة العربية، وذلك بفعل الطبيعة الجغرافية للمنطقة، وأساسه رعي الإبل؛ لأن الجمل يتمتع بصفات تلائم الحياة في هذه الطبيعة الجغرافية أكثر من غيره. أما المناطق الغنية بالعشب، فيكثر فيها رعي الغنم والخيول. وأراضي الرعي مشاع بين القبيلة، لكن ذلك لم يمنع من وجود أراضٍ

تدخل في نطاق الملكية الفردية التي يتوقف استمرارها على وجود الماء والعشب.

الغزو: واعتمد الرعاة على مصدر آخر عماده التمر الذي ينتجه النخيل في الواحات، وذلك عن طريق الغزو.

عائدات مرور القوافل: استفاد البدو من مرور القوافل التجارية في أراضيهم، فتحصل القبيلة على أجر معلوم لقاء إرشادها، وتقديم الخدمات لها على طول الطريق الذي يقع عبر أراضيها.

الوساطة: كان الرعاة يقومون بالوساطة بين البادية والحضر، وبخاصة في المناطق التي تتاخم الأراضي السهلية، كما في وادي الرافدين والمنطقة السورية، وذلك لقاء أجر، كما كان يُسمح لهؤلاء البدو القيام بنوع من التبادل التجاري مع المدن الحدودية

الزراعة: شكَّلت الزراعة مصدراً أساسياً آخر للعرب، فهي عماد ثروة اليمن والأماكن التي تتوفر فيها المياه. وتتعدَّد أنواع المحاصيل الزراعية من فواكه وحبوب وخضراوات. واشتهرت منها ثلاثة أنواع، هي: النخيل والأعناب والحبوب، هذا إلى جانب المحاصيل الطبيعية من توابل وطيوب. ففي الجنوب والشرق، وقرى الحجاز واليمامة، كثرت الزروع والثمار وبعض الفواكه. واشتهرت اليمن بأشجار اللبان والطيب والبخور، والطائف بالكرمة، والنخيل أهم الأشجار في الجزيرة العربية.

التجارة: أدَّت التجارة دوراً أساسياً في حياة العرب الاقتصادية، وذلك لتداخلها مع الحياة الاجتماعية والسياسية والدينية، وارتكزت تجارة العرب على:

- الطيوب والتوابل التي تنبت في جنوبي الجزيرة العربية، وكانت تُصدَّر إلى الخارج.

- موقع الجزيرة العربية بين الشرق والغرب حيث تخترقه الخطوط التجارية البرية، وتمر بسواحله الطرق البحرية عبر البحر الأحمر، ما جعل الجزيرة العربية بعامَّة والحجاز بخاصة جسراً يربط بلاد الشام وحوض البحر الأبيض المتوسط الشرقي، باليمن والحبشة والصومال والسواحل المطلة على المحيط الهندي. واستفادت المناطق التي تقع على هذه الخطوط التجارية مادياً، ونشأت عليها قرى كبيرة مثل مكة وعدن جعلت منها سُبُلاً عامة سلكها التجار والمسافرون، وأضحت بلاد العرب ملتقى أهم طرق التجارة العالمية التي تربط الشرق بالغرب.

استتبع العمل التجاري والصناعي قيام أسواق موسمية تُعقد في مواسم معينة أشهرها أسواق: عكاظ وذي المجنة وذي المجاز، وأسواق ثابتة في أماكن السكن.

الوضع الاجتماعي

تكوَّن المجتمع العربي من بدو وحضر. فالبدو هم سكان البادية يعيشون على ألبان الإبل ولحومها منتجعين منابت الكلأ وينابيع المياه. أما الحضر، فهم سكان الحواضر والقرى، يعيشون على الزراعة والتجارة والصناعة وغيرها، ويعرفون البيوت والمساكن الثابتة. والحد الفاصل بين البداوة والحضارة هو طراز الحياة ونوعها(١).

ولما كانت طبيعة الجفاف هي الغالبة على جزيرة العرب، غلبت البداوة على الاستقرار وأثَّرت في النظم الاقتصادية والاجتماعية والسياسية وغيرها. واشترك المجتمعان البدوي والحضري في عاملين هما: عامل الوحدة وعامل الانقسام الطبقي(٢).

فقد حفل المجتمع العربي بظواهر اجتماعية معينة ساعدت على توحيد أفراده ضمن القبيلة الواحدة، ودفعت القبائل إلى نوع من التفكير باتجاه الوحدة والتماسك على صعيد العلاقات القبلية، نذكر منها:

العصبية والثأر، اللذان أدَّيا في مناسبات كثيرة إلى الصراع العسكري بين القبائل فيما عُرف بأيام العرب، أشهرها: حرب البسوس(٣)، حرب داحس والغبراء(٤)، وحروب الفجار(٥).

ومن جهة أخرى، قامت العصبية على أساس رابطة النسب أو الدم، وكانت وسيلة للتكتل وجمع الشتات في ظل غياب وسائل أخرى تدعو إلى ذلك. فالقبيلة عماد الحياة في البادية، يحتمي الأعرابي بها للدفاع عن نفسه وماله، كما يفديها بماله ودمه. ولم يفهم العربي الدولة إلا على أنها دولة القبيلة. ويرتبط بالقبيلة حاجة الأعراب إلى الأحلاف بفعل تفاوت قدرة القبائل على دفع الغزو، وحماية النفس، والمال، وكبح جماح المعتدين، فتشكَّلت الأحلاف، نذكر منها: حلف المطيبين(٦)،

---

(١) علي: جـ٤ ص٢٧٠.

(٢) يحيى، لطفي عبد الوهاب: **العرب في العصور القديمة**، ص٣٧١.

(٣) **حرب البسوس**: نشبت بين بكر وتغلب ودامت أربعين سنة، وسببها مقتل ناقة تملكها امرأة من بكر تُدعى البسوس.

(٤) **حرب داحس والغبراء**: نشبت بين عبس وذبيان، ودامت أربعين سنة، وسببها السباق المشهور بين داحس، وهي فرس لقيس بن زهير، والغبراء، وهي فرس لحذيفة بن بدر.

(٥) **حروب الفِجار**: وقعت في الأشهر الحرم، ومن أجل ذلك سُمِّيت فجاراً، نشبت بين بعض القبائل العربية واشتركت قريش فيها، وكانت هذه الحروب أربعاً آخرها فجار البراض المشهور.

(٦) **عُقد حلف المطيبين** في مكة بين بني أسد بن عبد العزى وبني زهرة بن كلاب وبني تيم بن =

وحلف الأحلاف[1]، وحلف الرباب[2]، وحلف الفضول[3]. أما الحضر، فاحتموا بأراضيهم، وفي طبيعة الحياة التي يعيشونها ما خفَّف من حاجتهم إلى الأحلاف.

المشاعية: لقد فرضت ظروف البادية على المجتمع العربي، من حيث هو ضرورة اقتصادية، الاشتراك في الماء والكلأ، وهي ذات قيمة حيوية للقبيلة، تدفع أفرادها إلى التكتل والتضامن والالتفاف بعضهم حول بعض.

وعرف المجتمع العربي بعض جوانب من الحياة الاقتصادية التي تدفعه إلى التماسك، منها: الملكية الجماعية، بين أفراد الأسرة الواحدة على الأقل.

وحصلت في مرحلة الجاهلية الأخيرة بعض الأحداث السياسية والعسكرية التي ساعدت على التفكير في تغيير الواقع الاجتماعي نحو الوحدة، ونذكر في هذا السياق حادثين تاريخيين شهدتهما الجزيرة العربية في زمنين متقاربين سبقا ظهور الإسلام

أولهما: الصراع السياسي في اليمن الذي اتخذ، بعد حملة أبرهة الفاشلة على مكة، مضموناً تاريخياً حدَّد وجهته كصراع بين القوى صاحبة البلاد وقوى خارجية تحتل البلاد (الأحباش) أو تطمع في احتلالها (الفرس). وقد خلق هذا الصراع شعوراً عربياً مشتركاً، ويُذكر أن عبد المطلب بن هاشم وفد في ركب من قريش على سيف بن ذي يزن الحِميري بعد انتصاره على الحبشة، للتهنئة بهذا النصر، كما أنشد

= مرة وبني الحارث بن فهر وبني عبد مناف؛ بهدف المطالبة بإعادة توزيع المرافق الاقتصادية في مكة بين جميع عشائرها. وقد أتى بنو عبد مناف بوعاء فيه طيب ووضعوه عند الكعبة، فتحالفوا وتعاقدوا ثم غمسوا أيديهم في وعاء الطِّيب. ابن هشام، عبد الملك بن هشام بن أيوب: **السيرة النبوية على متن الروض الأنف**، للسهيلي، جـ١ ص١٥٣.

(١) عُقد حلف **الأحلاف**، أو لعقة الدم، في مكة بين طائفة من عشائر قريش هي: بنو عبد الدار بن مخزوم وبنو جمح وبنو سهم وبنو عدي، وجاءوا بوعاء مملوء دم بقرة، وأدخلوا أيديهم فيه، فسموا لعقة الدم. اليعقوبي، أحمد بن أبي يعقوب: **تاريخ اليعقوبي**، جـ١ ص٣٣٨.

(٢) **حلف الرباب**: عُقد هذا الحلف بين قبائل تيم وعدي وثور وعُكل وضبة، وإنما سُمُّوا بالرباب لأنهم غمسوا أيديهم في الرُّب حيث تعاقدوا وتعاهدوا، ولعلهم اختاروا الرُّب لأن لونه أحمر كالدم.

(٣) **حلف الفضول**: عُقِد في مكة، في دار عبد الله بن جدعان، بين طائفة من عشائر قريش هي: بنو هاشم وبنو المطلب وأسد بن عبد العزى وزهرة بن كلاب وتيم بن مرة، فتعاهدوا وتعاقدوا على ألَّا يجدوا في مكة مظلوماً من أهلها أو من غيرهم ممن يفد إليها، إلا قاموا معه وكانوا على ظلمه حتى تُرد منه مظلمته، ثم عمدوا إلى وضع ماء من زمزم فجعلوه في جفنة ثم بعثوا به إلى البيت الحرام فغسلت به أركانه، ثم أتوا به فشربوه. ابن هشام: جـ١ ص١٥٥.

الشعراء العرب، مثل أبو الصلت بن أبي ربيعة الثقفي، وفي رواية أمية بن أبي الصلت، وعدي بن زيد، شعراً بهذه المناسبة[١].

ثانيهما: معركة ذي قار المشهورة (٦٠٩م)، وكانت التعبير الناضج عن ذلك الشعور المشترك بالحاجة إلى نمط جديد في العلاقات بين مختلف القبائل في الجزيرة العربية، ولا سيما القبائل المتاخمة لمناطق الحدود بين الدولتين الفارسية والبيزنطية. وقد وصف النبي ﷺ هذا اليوم بأنه **(أول يوم انتصف العرب من العجم...)**[٢]. ويُضفي هذا التعبير الذي شكّل فيه كل من العرب والعجم فريقاً في المعركة؛ على أن للحادث معناه التاريخي الذي استمدَّه من طبيعة تلك المتغيرات على صعيد العلاقات الداخلية بين القبائل[٣].

ومن حيث عامل الانقسام، فقد وُجدت في المجتمع العربي، بنوعيه البدوي والحضري، عوامل انقسام داخل التكتلات الاجتماعية. ففي المجتمع القبلي تفاوت حماس بعض أفراد القبيلة للاستجابة لنداء العصبية، كما كان العُرف القبلي يضع حواجز بين بعض فئاته. فالعبيد الذين حُرِّروا لا يصبحون أبناء القبيلة وإنما يتحولون إلى موالٍ أو أتباع، وكذلك الغريب الذي يلجأ إلى القبيلة لسبب أو لآخر. وهكذا تتكوَّن داخل كل قبيلة فئة أو طبقة، لا تشعر بالانتماء الكامل إليها، ويمكن أن تصبح عامل انقسام[٤]. بالإضافة إلى ذلك، فقد انقسم المجتمع إلى طبقات على رأسها شيخ القبيلة، وهي لا تخرج على رأيه، يساعده مجلس من رجال القبيلة أكثر أعضائه من المسنين من ذوي الخبرة والتجربة. ونتيجة لهذا الانقسام الطبقي داخل القبيلة، فإن أفرادها الذين يُفترض بهم أن يكونوا متساوين لم يكونوا كلهم راضين عن معاملة القبيلة لهم، لشعور بعضهم بعدم المساواة.

وعرف المجتمع اليمني هذه الظاهرة من عدم المساواة بفعل التفاوت في توزيع الثروة. فهناك الأثرياء، وأبناء الطبقة الحاكمة الذين شكّلوا فئة متميزة احتكرت وظائف الدولة، كما كان هناك الفلاحون والحرفيون والعاملون في جمع الطيوب. وهذا التصنيف الطبقي ثابت لا يتغيَّر، يتوارثه الأبناء عن الآباء، ويتعذَّر على أحد الأفراد أن يُغيِّر مهنته وينتقل من فئة إلى أخرى

وشاعت في المجتمع الجاهلي بعض الآفات الاجتماعية، مثل شرب الخمر

---

(١) ابن هشام: جـ١ ص٨٣ ـ ٨٥، ١٦١، ١٦٢.

(٢) الطبري، أبو جعفر محمد بن جرير: **تاريخ الرسل والملوك**، جـ٢ ص١٩٣.

(٣) مروة، حسين: **النزعات المادية في الفلسفة العربية الإسلامية**، جـ١ ص٣١٤.

(٤) يحيى: ص٣٨٤ ـ ٣٨٧.

والميسر واستباحة النساء. والنساء نوعان: إماء وحرائر، والإماء كثيرات، وكُنَّ في منزلة وضيعة. وكان العربي إذا استولد أمة لا ينسب أولادها إلى نفسه إلا إذا أظهروا بسالة.

وأصاب المرأة ـ بشكل عام ـ حيف وغبن، فكانت تُفصل (تُمنع) بعد الطلاق من أن تنكح زوجاً ترضاه لنفسها. ومن جهة أخرى تمتعت المرأة، لا سيما الشريفة، بقسط وافر من الحرية، فكانت تُستشار في بعض الأمور، وتشارك الرجل في كثير من أعماله.

وكانت العلاقة الزوجية على درجة من الرقي، وللزواج نظام ثابت، فيقترن الرجل بالمرأة بعد رضاء أهلها وموافقتها، وهو الزواج الشرعي، ومع ذلك عرف العرب أنواعاً أخرى من النكاح لم يستحسنه جمهورهم مع ما عُرف عنهم من غيرة على الأهل ومحافظة على الشرف(١).

وانتشر الرقُّ عند العرب قبل الإسلام انتشاراً واسعاً، فلما جاء الإسلام وضع نظاماً يُحقِّق إلغاءه مع الزمن، فحرَّمه بين المسلمين، وشجَّع على العتق.

وتفشَّت في المجتمع الجاهلي عادة وأد البنات عند بعض القبائل، والتطير بهنَّ مخافة المذلة أو العار وخشية الفقر.

الوضع الديني

ظهور الشرك: كان العرب قبل الإسلام على دين واحد هو دين إبراهيم، دين الحنيفية ودين التوحيد الذي تجسَّد بالإسلام، إنما ضلوا الطريق، فتفشى الشرك فيهم بأشكال متعددة بفعل تطور واقعهم الاجتماعي وصلتهم بجيرانهم، فمنهم من:

- آمن بالله والتوحيد.
- آمن بالله وعبد الأصنام؛ إذ زعموا أنها تُقرِّبهم إليه وأنها تنفع وتضر.
- دان باليهودية أو النصرانية أو المجوسية.
- لم يعتقد بشيء وتوقف عند ذلك.
- آمن بتحكم الآلهة في الإنسان في هذه الحياة وبطلان كل شيء بعد الموت، فلا حساب ولا نشور ولا كتاب.

---

(١) من أنواع النكاح الذي عرفه العرب في العصر الجاهلي: نكاح الاستبضاع، ونكاح البغايا، ونكاح آخر يتمثل باجتماع الرهط دون العشرة، فيدخلون على المرأة، كلٌّ يصيبها، وبعد أن تضع حملها تجمعهم وتُحدِّد الوالد من بينهم، ونكاح الخدن والمتعة والبدل والشغار.
انظر: الآلوسي، محمود شكري: **بلوغ الأرب في معرفة أحوال العرب**، جـ٢ ص٣ ـ ٥.

وفي القرآن الكريم إشارات إلى أنواع الشرك الذي كان عليه الجاهليون، منها:

- عبادة الأصنام المصنوعة من الحجارة أو الخشب أو المعدن مما لا روح فيه، بالإضافة إلى أشجار محدَّدة اتخذوها أولياء من دون الله لتقربهم إلى الله زلفى[(١)]

- عبادة القوى الطبيعية، مثل الكواكب التي عرفتها العربية الجنوبية، في اليمن بوجه خاص، وهذه الكواكب هي الثالوث الذي يمثله القمر والشمس والزهرة.

- واعتقد بعض العرب بأن الجن شركاء الله[(٢)]، وكذلك الملائكة هم شركاؤه وبناته[(٣)].

- اتخاذ آلهة أخرى مع الله[(٤)].

- ومن العبادات ما اصطلح علماء الأديان على تسميتها بمسميات حديثة مثل: الطوطمية[(٥)]. إنها عقيدة بدائية رسخت في النفوس وفي القلوب، تقوم على أساس الجماعة أو القبيلة التي يرتبط أفرادها برباط ديني مقدس هو رباط الطوطم رمز الجماعة. فالعرب كانوا يتسمَّون بأسماء حيوانات مثل: بنو أسد، وأسماء حيوانات مائية مثل قريش، وأسماء نباتات مثل حنظلة، وأسماء طيور مثل نسر. وتشير هذه التسميات، وإن كانت من قبيل التفاؤل، إلى تقديس العرب للحيوانات والنباتات.

وهناك روايتان عن مصدر عبادة الأصنام:

الأولى: ترى أنها وافدة على يد عمرو بن لحي الخزاعي.

الثانية: تقول بأنها نشأة محلية نتيجة تطور حياة الجاهليين[(٦)].

الاتجاه نحو التوحيد: برزت في المرحلة القريبة من ظهور الإسلام، الوجهة التوحيدية بمفهومها اليهودي والنصراني الوافدة على المجتمع العربي في عصر الجاهلية. فانتشرت اليهودية في اليمن بوجه خاص في ظل المملكة الحِميرية الثانية، وفي وادي القرى وخيبر وتيماء ويثرب، في حين انتشرت النصرانية في قبائل تغلب وغسان وقضاعة في الشمال، وفي اليمن في الجنوب، وكانت منقسمة إلى مذاهب عدَّة، تسرَّب منها إلى الجزيرة العربية مذهبان هما: النسطوري واليعقوبي.

وظهر في غضون ذلك إلى جانب هذه المعبودات والديانات، ظاهرة الحنيفية. والواضح أن انتشار الديانتين اليهودية والنصرانية في الجزيرة العربية كان عاملاً مساعداً

---

(١) الزمر/٣.
(٢) الأنعام/١٠٠.
(٣) سبأ/٤٠.
(٤) الأنبياء/٢٤.
(٥) الطوطم: كائن تحترمه بعض القبائل الموغلة في البدائية، ويعتقد أفرادها بوجود صلة نسب بينه وبينهم ويسمونه طوطمهم. وقد يكون الطوطم حيواناً أو نباتاً.
(٦) ابن هشام: جـ١ ص٩٩ ـ ١٠١.

في تغيير الوعي الديني باتجاه النظر نحو الوجود والخلق والألوهية والقيامة والبعث، من خلال التعايش زمناً طويلاً مع المفاهيم الوثنية والأفكار اليهودية والنصرانية، ونتج عن ذلك ظهور جماعة من الناس في مجتمع الجاهلية بموقف متميز تجاه كل هذه المسائل، موقف ليس بوثني ولا يهودي ولا نصراني، بل رؤية تأملية متفردة.

قاد هذا الوعي الديني الجديد أُناس مستنيرون فطنوا إلى سوء أوضاعهم الدينية، فحاولوا الارتقاء إلى اعتقادات أرقى منها، وذلك بفعل اختلاطهم باليهود والنصارى، وعُرفوا باسم الأحناف، نذكر منهم: قس بن ساعدة الإيادي، وورقة بن نوفل، وأُمية بن أبي الصلت وعثمان بن الحويرث[1].

تميَّز هؤلاء الأحناف بالسمو العقلي والأخلاقي والحنكة السياسية والثقافة العالية نسبياً، غير أنهم لم يكونوا جميعاً متماثلين رأياً واعتقاداً، كما لم يكونوا على صلة ترابط وتلاق بينهم، وهذا يعني أن الجامع الوحيد بينهم ينحصر في مبدأ عام يلتقون عفوياً على الأخذ به هو رفض عبادة الأصنام وتعدد الآلهة، والإيمان بوجود إلٰه واحد، يضاف إلى ذلك أنهم اشتهروا بسلوك معين مثل تجنُّب الاختلاط بالناس، وطواف بعضهم في الأرض بحثاً عن دين إبراهيم الحنيف، كما كان من بينهم من قرأ الكتب اليهودية والنصرانية، ونادوا بنبذ العادات الجاهلية السيئة، كوأد البنات وشرب الخمر واستباحة النساء.

ترافق ذلك مع حدوث تغييرات متصلة بالحركة الدينية ذاتها، منها:

- اشتراك بعض القبائل في عبادة صنم واحد. نرى ذلك في اجتماع قبائل خثعم وبجيلة ودوس ومن كان ببلادهم من العرب بتبالة، على الصنم المعروف باسم «ذو الخلصة»[2].

- قيام تنظيم عملي لأداء الحج في مكة بعد أن انحصرت وظائف الرفادة والحجابة والسقاية وغيرها من الوظائف التنظيمية لشؤون الحج في قريش، ووُزِّعت بين الزعامات المكية، وشمل ذلك التزام مختلف القبائل بموجبات أداء مراسم الحج بصورة سلمية، والامتناع عن الحرب في الأشهر الحرم.

- انخراط تلك القبائل في عملية تداخل نتيجة الاجتماع الجماعي في الأسواق والحج ما أوجد تفاعلاً كان يتوجَّه نحو الوحدة.

الوضع الأدبي

الشائع بين كثير من الناس أن العرب قبل الإسلام كانوا في جهالة لا يقرأون ولا

(١) ابن هشام: جـ١ ص٢٥٣ ـ ٢٦٣.
(٢) المصدر نفسه: ص١٠٧.

يكتبون، وأن الكتابة كانت قليلة بينهم. والواقع أن تفسير الجاهلية بالجهل الذي هو ضد العلم، تفسير مغلوط، وأن المراد من الجاهلية: السَّفه والحمق والغلظة والغرور، وكانت تلك أبرز صفات المجتمع العربي قبل الإسلام.

والواضح أن التعليم في هذا العصر لم يكن منتشراً في بلاد العرب، وأخص بالذكر منطقة الحجاز؛ لأن العرب لم يكن لهم بالعلوم عهد باستثناء علوم الأثر والأنساب والأنواء، إلا أنهم تباينوا في ممارسة القراءة والكتابة تبايناً يختلف باختلاف أماكنهم وحاجاتهم. فانتشرت القراءة والكتابة بين أهل الحضر، ولم تنتشر بين أهل البادية، وإنما كان الرجل يشعر بالحاجة إليها فيتعلمها.

وكان لاجتماع الشعراء والأدباء في مكة وفي الأسواق الموسمية، أثر كبير في حياة العرب الأدبية، وبخاصة إذا علمنا أن هؤلاء كانوا يجوبون البلاد ويختلطون بالشعوب المجاورة كالفرس والروم، فيتأثرون بمظاهر حضارتهم، وقد انعكس ذلك في شعرهم وفي خطبهم وفي أقوال الحكماء.

والواقع أن عدم انتشار التعليم في بلاد العرب بعامة لم يحل دون قيام نهضة أدبية، بدليل ازدهار الشعر الذي تناول بمضمونه الحياة العادية والشؤون الحيوية للبدوي.

الوضع السياسي

لم يقتصر النظام السياسي الذي كوَّنه العرب لأنفسهم أي منهج منظم للإدارة أو القضاء بالمفهوم الذي نعرفه اليوم، إلا أن المجتمع العربي عرف بعض التكوينات السياسية؛ لعل أهمها:

التكوين القبلي: حيث تتصرف القبيلة بوصفها تكويناً سياسياً قائماً بذاته، سواء في أمورها الداخلية أو في علاقاتها الخارجية. وانتشر هذا النوع في البادية، وتُمثِّل مكة نوعاً خاصاً في هذا التكوين اعتمد أساساً على التجارة.

التكوين الإماراتي: إنه التكوين القائم على الإمارات أو الممالك الصغيرة التي قامت حول مراكز تجارية، أو عند نقطة توازن بين دولتين كبيرتين متصارعتين (الدولة الفارسية والدولة الرومانية الشرقية؛ البيزنطية) مثل مملكة الأنباط التي قامت في القسم الشمالي الغربي من الجزيرة العربية في القرن السادس قبل الميلاد حول عاصمتها البتراء، ومملكة تدمر التي قامت في الشمال بين العراق وبلاد الشام بالقرب من حمص، واشتهرت في القرن الأول الميلادي، أو على حدود هاتين الدولتين حيث تدخل في منطقة نفوذ كل منهما مثل مملكة الغساسنة التي خضعت للنفوذ البيزنطي ومملكة المناذرة التي خضعت للنفوذ الفارسي وعاصمة الأولى بصرى، وعاصمة الثانية الحيرة.

التكوين الملكي: الذي شكَّلته الممالك التي قامت في الجزء الجنوبي من الجزيرة

العربية، وتميَّز بأنه أكثر ثباتاً واستقراراً لاعتماده على مساحات من الأراضي الخصبة وقدراً كافياً من الأمطار الموسمية.

سأقصر بحثي على الإمارة في الحجاز بوصفه مهد الإسلام، ففيه ظهرت الدعوة ومنه انطلقت إلى داخل الجزيرة العربية وخارجها.

الحياة العامة في الحجاز

مكة: شهدت الأوضاع السياسية في الجزيرة العربية اختلافاً بين منطقة وأخرى فيما يختص بالشكل السياسي ونظام الحكم. ففي غربي الجزيرة العربية حيث يقع الحجاز وفيه أكبر مدنه وأهمها مكة، قلب الحجاز ونقطة المركز فيه، وملتقى أكبر شبكة للتجارة العالمية، وأكبر مركز ديني للوثنية في العصر الجاهلي.

تقع مكة في منتصف الطريق التجاري بين اليمن وبلاد الشام في وادٍ من أودية جبال السراة، تحفها الجبال الجرداء من كل جانب، وذكر القرآن الكريم أنها تقع ﴿بِوَادٍ غَيْرِ ذِي زَرْعٍ﴾ [إبراهيم/ ٣٧].

يُقسم تاريخ مكة في الامتداد الزمني ووضوح الرؤية التاريخية إلى قسمين: يتضمن القسم الأول المدة الزمنية المنقضية قبل ظهور قصي بن كلاب، في حين يشمل القسم الثاني المدة الزمنية بعد ظهوره.

وتشير كل المعالم التي تُلقي ضوءاً على تاريخها إلى أنها قديمة في الزمن، وأنها كانت تتمتع بمنزلة مقدسة بفضل وجود الكعبة، وأخذت تزدهر شيئاً فشيئاً بسبب موقعها الجغرافي كمحطة تجارية، وبفضل وجود الماء فيها (زمزم).

وتبدأ معلوماتنا عن تاريخها بالوضوح منذ أيام قصي في أوائل القرن الخامس الميلادي، فهو الذي جمَّع قريشاً ونظَّم شؤون المدينة بعد أن استولى على السلطة من قبيله خزاعة اليمنية(١).

والواضح أن وضعاً جديداً أخذ بالظهور على مسرح الحياة في مكة راح يفرض مبادىء وقيماً متميزة لتولي السلطة يقوم على كثرة المال الناتج عن نمو التجارة وعِظَم الشرف. وعليه، فإن انتقال الزعامة في مكة إلى قريش لم يستند إلى عُرف قبلي تقليدي، بل إلى عنصر جديد هو عنصر الثراء، وجاء نتيجة التطور الاقتصادي والاجتماعي الذي حدث في ذلك الوقت.

واستناداً إلى تنظيم قصي، انقسمت قريش اجتماعياً إلى قسمين يجمعهما نسب واحد، هما:

---

(١) ابن سعد، محمد: **كتاب الطبقات الكبير**، جـ١ ص٧٠، ٧١.

قريش البطاح، الذين أنزلهم قصي في بطحاء مكة، فانتشروا في الشِّعب بين جبليها وهم: هاشم وأمية ومخزوم وتيم وعدي وجمح وسهم ونوفل وزهرة. إنهم قلب قريش وأشرافها ومركز الثقل في مكة، بنوا البيوت واستقروا كالحضر، وانصرفوا إلى العمل التجاري وخدمة الكعبة، وملكوا الأرزاق والأملاك، فازدادت ثروتهم، وعاشوا حياة مترفة.

قريش الظواهر، هم الذين أنزلهم قصي في ظاهر مكة؛ أي: خارجها، ومعهم أخلاط من صعاليك العرب والحلفاء والموالي والعبيد، فعاشوا في أطرافها حياة أعرابية، ولم يبلغوا درجة قريش البطاح في الاستقرار والغنى[1].

مارس القرشيون العمل التجاري كوسطاء في بادىء الأمر ثم كتجار، وهيَّأ الصراع المستمر بين فارس وبيزنطية، أن تزدهر التجارة في مكة. فقد كانت الطريق بين العراق والشام مقفلة بسبب العمليات العسكرية، وكانت أكثر تجارة الشمال والجنوب تنزل فيها، وتسير القوافل التجارية آمنة مطمئنة حتى تصل إلى هدفها، وذلك بفعل عاملين:

الأول: الإيلاف، وهي اتفاقيات تُعقد مع رؤساء القبائل التي تمر قوافل القرشيين في أراضيها من أجل ضمان مرورها الآمن وإيصالها إلى المكان المقصود، ومع حكام الدول المجاورة التي تقصدها هذه القوافل.

الثاني: لأن العرب بعامة اعترفوا بالسيادة الدينية للقرشيين في مكة، فهم أهل حرم الله وولاة بيته.

ونظَّم القرشيون رحلتين تجاريتين في العام. ففي فصل الصيف تقصد قوافلهم بلاد الشام، حاملة بضائع الهند وتنزل في بصرى من أعمال دمشق وغزة وأيلة على ساحل البحر الأحمر، ثم تعود بعد أن تُنفذ عملية البيع والشراء محملة بالبضائع من جديد، ومنها: الحبوب والزيت والخمور والأسلحة والمنسوجات والجواري، وتقصد قوافلهم اليمن في فصل الشتاء. أما تجارتهم مع الحبشة على الشاطىء الغربي للبحر الأحمر، فكانت تجري عن طريق البحر.

استفاد القرشيون من التجارة بما فرضوا من المكوس على البضائع، والضرائب على القوافل المارَّة في أراضيهم، وقد شاركت طبقات المجتمع كافة في العمل التجاري، ومن لم يساهم بماله كان يعمل خفيراً أو دليلاً.

وأصاب بعض القرشيين ثروات طائلة من العمل التجاري، مثل: أبو سفيان بن حرب، والوليد بن المغيرة. ونتج عن العمل التجاري الربا الذي هو مظهر من مظاهر

---

(١) المسعودي: جـ٢ ص٣٢.

الحركة التجارية، والدَّيْن والرهن، وتطلَّب هذا العمل تعلم القراءة والكتابة لضبط الحسابات التجارية.

وترافق مع الحركة التجارية تطور تنظيمي آخر هو نتيجة حتمية لتنظيمات قصي وتفرد قريش بالزعامة السياسية والمكانة الدينية، وقد شكَّل القاعدة الأساس لحماية المكتسبات السياسية والاقتصادية، وأهم مقومات هذا التنظيم:

الملأ: ويُمثِّل المظهر الأول لتجلي سيطرة زعماء مكة السياسي، وتشكَّل من سادات مكة ووجوهها وأشرافها وأُولي الأمر فيها. لم يكونوا كلهم أثرياء، واعتلوا هذا المنصب إما لذكائهم ورجاحة عقلهم أو لحسبهم وشرفهم، ولا يمنع من وجود تنافس بينهم مع حرصهم على حماية مكتسباتهم. إنهم جماعة المحافظين لا يقبلون تجديداً ولا تطويراً.

الندوة: هي المظهر الثاني لتجلي سيطرة زعماء مكة السياسي من خلال ارتباط هذه الدار مع هيئة الملأ. إنها دار مشورة في السلم والحرب، تجري فيها المشاورات وجميع الشؤون العامة مثل عقد ألوية الحرب، خروج القوافل التجارية، إبرام عقود النكاح. إنها مقر للحكم المركزي أنشأها قصي ليُحكِم قبضته على زعامة مكة، ووضع شروطاً لدخولها والاشتراك في المناقشات، منها أن الندوة مفتوحة لكل بني قصي مهما بلغت أعمارهم، أما مَنْ عداهم من عامة قريش فلا يدخلها إلا من بلغ الأربعين عاماً من عمره، مع بعض الاستثناءات لهذه القاعدة[(١)].

الرفادة: إنها خرج تخرجه قريش في كل موسم، من أموالها، إلى قصي، فيصنع به طعاماً للحجاج[(٢)]. وبناء على ذلك، فقد اختصت بخدمة غير المكيين، وكانت وثيقة العلاقة بسعي قريش إلى جمع قبائل العرب حول حرمها.

السقاية: سقاية الحجاج، فرضها قصي على قريش مع الرفادة[(٣)]، وللأهداف نفسها.

الحجابة: هي السدانة أو حراسة الكعبة، ويتولى السادن حفظها ويحتفظ بمفاتيحها، وقد أخذها قصي من خزاعة، فأعاد تنظيمها وتوسيع نطاقها[(٤)].

اللواء: هو راية يلوونها على رمح وينصبونها علامة للعسكر إذا توجَّهوا إلى

---

(١) ابن هشام: جـ١ ص١٤٨، ١٤٩. دخل حكيم بن حزام دار الندوة وعمره خمس عشرة سنة تيمناً به واعترافاً ببركته؛ لأن أُمه ولدته في جوف الكعبة، ودخلها عمرو بن هشام (أبو جهل) وعمره ثلاثون سنة نظراً لحكمته وسداد رأيه.

(٢) البلاذري، أحمد بن يحيى بن جابر: **أنساب الأشراف**، جـ١ ص٥٨.

(٣) المصدر نفسه. ابن هشام: جـ١ ص١٤٨. (٤) البلاذري: المصدر نفسه، ص٦٠.

الحرب، فهو العلم الذي يُحمل في المعارك، وتدور المعركة حوله، وهو من عمل قصي[1].

القيادة: هي قيادة الجيش في المعارك يتولاها قصي أو من يُنيبه عنه.

ظهرت هذه المناصب في مكة، وتوزَّعت بين أبناء قصي لتكون تعبيراً سلطوياً عن سيطرة قريش الاقتصادية والسياسية على مقدرات مكة قبل الإسلام.

وعلى الرغم من ممارسة العمل التجاري وتنظيمه، ومع نمو العلاقات التجارية والاقتصادية في مكة؛ ظلَّ مجتمعها قبلياً لا يعدو اتحاد عشائر ارتبطت بعضها ببعض في حلف بهدف سدانة الكعبة من جهة والقيام بالعمل التجاري من جهة أخرى، ولا نفوذ لعشيرة على عشيرة، بل تتمتع كل عشيرة بالحرية التامة لكن تجمعهم مصلحة مشتركة، كما أن وجود الملأ لا ينقض هذه الحقيقة؛ إذ لم يكن عمله يعدو عمل مجالس القبائل. فقد كان في كل قبيلة مجلس يتكوَّن من رؤساء العشائر ينظر في شؤونها وفق العُرف والعادة، ولكنه لم يقض على حرية الأفراد. فقد كان كل فرد يتمتع بحريته مع شعوره بحقوق الجماعة أو حقوق القبيلة. إنه نظام مشيخي يتألف من عشرة شيوخ هم بمثابة الأشراف وأُولي الأمر، يشغلون المركز الأول في المدينة، ويُورِّثون مناصبهم إلى أكبر أبنائهم أو إلى زعيم العائلة، ويمكن تسميته بحكم دار الندوة أو حكم ندوة قريش، يقوم على أساس الجاه، إنه مجمع وجوه البلاد[2].

لكن هذا النظام ولَّد تنافساً سياسياً نرى أثره في مكة في قيام الأحلاف، ومنها التي ذكرناها. فقد شهدت هذه المدينة بعد وفاة قصي صراعاً حاداً بين عشائرها على السلطة واقتسام المناصب، ونشأت نتيجة ذلك الأحلاف، وكانت العشائر تنتقل من حلف إلى حلف وفقاً لتطور أوضاعها السياسية والاقتصادية. واستمرَّ هذا التنافس السياسي ناشطاً حتى ظهور الإسلام، وبرز بعد مدَّة وجيزة من وفاة النبي محمد ﷺ من واقع النزاع بين الحسين بن علي بن أبي طالب، وهو من بني هاشم، وبين الوليد بن عتبة وهو من بني عبد شمس وعامل معاوية بن أبي سفيان على المدينة، فهدَّده الأول باللجوء إلى حلف الفضول[3].

يثرب: تقع يثرب على بُعد ثلاثمائة ميل إلى الشمال من مكة، وتقوم في واد خصب محاط بمرتفعات يعلو بعضها بعضاً، تكثر فيه الآبار والينابيع، ما سمح بأن يُصبح واحة غنَّاء بالنخيل والأشجار والزرع مع الجو المعتدل نسبياً إلا في أوقات

---

(١) البلاذري: أنساب الأشراف جـ١ ص٦٠. (٢) علي: جـ٤ ص٤٨ ـ ٥٠.

(٣) ابن هشام: جـ١ ص١٥٣، ١٥٤.

الصيف؛ إذ تشتد الحرارة ولكنها لا تبلغ درجة حرارة مكة القاسية.

إن أول من سكن يثرب هم العماليق وفقاً لروايات الإخباريين، وظلوا بها حتى نزلها اليهود في القرن الثاني الميلادي على أثر اضطهاد الرومان لهم في فلسطين[١]. ثم وفدت عليهم قبيلتا الأوس والخزرج الأزديتان قادمتان من الجنوب على أثر حادثة سيل العرم في اليمن، فسيطرتا عليها وأضحتا سادتها، وكان أفرادهما وثنيين يحجون إلى مكة ويقدسون أصنامها، اعتمدوا على الزراعة بسبب خصوبة الأرض، لكن لم تختلف حياتهم في شيء عن حياة البدو مع أنهم سكنوا الآطام[٢]، ويبدو أن النصرانية كانت معروفة فيها.

وكان اليهود يعملون على الوقيعة بين هاتين القبيلتين كي يشغلوهما عنهم، فجرت بينهما حروب متطاولة وغدا كأنه من المستحيل عليهما أن تكفَّا عن هذه الأيام والحروب، لولا أن نزل الرسول بينهما فأصبحتا بنعمة الله إخواناً.

كان النظام القبلي هو السائد في يثرب، فسكن أفراد كل عشيرة معاً في منطقة واحدة تقع فيها مزارعهم، يشتركون في الدية ويتعاونون في الشدائد، ولم يكن التماسك العشائري قوياً، فقد حدثت زيجات بين أفراد من عشائر مختلفة ما كان له أثر في تخفيف أثر العزلة العشائرية. وذكرت المصادر أسماء عدد من ذوي النفوذ في عشائرهم، منهم البراء بن معرور وعبد الله بن عمرو بن حزام.

لم تذكر روايات الإخباريين وجود حكومة في يثرب تنظر في الشؤون العامة أو مؤسسات سياسية عامة، كما لم تذكر نوادي أو مراكز للعشائر إلا ما ذُكر عن سقيفة بني ساعدة، ولعل مرد ذلك يعود إلى سعة رقعتها وتباعد محلات سكن أهلها واشتغالهم بالزراعة من دون التجارة، وعزلتهم النسبية عن العالم الخارجي[٣].

لم يُكوِّن أهل يثرب علاقات سياسية وثيقة مع القبائل أو المدن الأخرى في الحجاز أو في غيرها كما فعل أهل مكة، وكان ضعف نشاطهم الاقتصادي سبباً في ذلك، ولم يكن الأمن مستتباً في يثرب، ولعل ذلك ناتج عن عدم وجود قوة مركزية

---

(١) لقد دمَّر القائد الروماني تيطس بيت المقدس في عام (٧٠م) على أثر الثورة اليهودية ضد الوجود الروماني في فلسطين، وحذا حذوه القائد الروماني هادريان سنة (١٣٥م) على أثر الثورات اليهودية المتجددة، فدمَّر البلاد، وشرَّد اليهود الذين انتشروا في البلدان المجاورة ومنها جزيرة العرب.

(٢) الآطام أو الأطم: بناء عال كان برجاً للمراقبة وحصناً للحماية؛ أي أن له علاقة وثيقة بالأمن، وأن امتلاك الأفراد للأطم هو مظهر لضعف التماسك القبلي ودليل على مكانة الفرد.

(٣) العلي، صالح أحمد: **دولة الرسول ﷺ في المدينة**، ص٢٦.

يلجأ الناس إليها للتحكيم وحل الخصومات، غير أنهم أدركوا أخيراً أهمية وجود مثل هذه السلطة، فحاولوا اختيار عبد الله بن أبيّ ليرأسهم، لكن ذلك لم يتحقق بسبب ضعفه وقصر نظره في الحقل السياسي وعمق الخلافات الداخلية ودخول الإسلام إليها.

الطائف: تقع الطائف إلى الجنوب الشرقي من مكة على بعد خمسة وسبعين ميلاً، وعلى ارتفاع يبلغ نحو ستة آلاف قدم، وسط بساتين تجعلها أشبه ما تكون بقطعة من أرض الشام، وأتاح لها هذا الارتفاع أن تكون طيِّبة الهواء فكان القرشيون يصطافون فيها، وجيدة التربة، فكانت تزوِّد تجارة الصادرات التي تخرج منها بسلع وفيرة، منها الخمر والحنطة والأخشاب، واشتهرت بصناعة الجلود، وهي حاضرة قبيلة ثقيف. وتُعد الطائف المدينة الثانية في الحجاز من حيث الأهمية الاقتصادية والدينية بعد مكة، وقرنهما القرآن الكريم بـ: ﴿ٱلْقَرْيَتَيْنِ﴾ [الزخرف/ ٣٠]، ما يوحي بوجود صلة ذات شأن بينهما.

انقسم أهل الطائف إلى فريقين متنافسين، هما: الأحلاف وبنو مالك.

الشعوب العربية

يُصنِّف علماء الأنساب والإخباريون الشعوب العربية قبل الإسلام، ثلاث طبقات هي:

- **العرب البائدة**، وهم القبائل القديمة التي بادت قبل الإسلام، وأشهرها: عاد وثمود وطسم وجديس والعماليق.
- **العرب العاربة**، وهم شعب قحطان وموطنهم الأصلي بلاد اليمن، وأشهر قبائلهم: جرهم ويعرب.
- **العرب المستعربة**، وهم العدنانيون، أبناء عدنان بن إسماعيل بن إبراهيم الخليل. وإسماعيل هو أول من نزل منهم جزيرة العرب، وسكن مكة، وقد سُمُّوا بهذا الاسم لأن إسماعيل كان يتكلم العبرانية أو السريانية، فلما نزلت قبيلة جرهم في مكة وسكن أفرادها مع إسماعيل وأُمه، تزوَّج إسماعيل منهم وتعلَّم العربية، وهم جمهور العرب من الحضر والبدو[(١)].

---

(١) المسعودي، أبو الحسن علي بن الحسين: **مروج الذهب ومعادن الجوهر**، جـ١ ص٢٦٢. ابن خلدون، عبد الرحمٰن بن محمد: **تاريخ ابن خلدون**، جـ٢ ص٤٦، ٤٧.

أوضاع الدولة الفارسية

الوضع السياسي

أسَّس أردشير بن بابك الدولة الساسانية في فارس في عام (٢٢٤م)، ووسَّع رقعتها في الاتجاهات كافة، واتخذ المدائن في العراق عاصمة له، وأطلق على نفسه لقب شاهنشاه؛ أي: ملك الملوك[١]، وتوفي في عام (٢٤١م)[٢]، بعد أن أقام الدولة على أساس وحدة الإقليم، وأخضع العروش الكثيرة التي تربَّع عليها ملوك الطوائف.

تعرَّضت الدولة الساسانية خلال مراحل تاريخها لصراعات حادة على السلطة بين أفراد البيت الساساني ما أدَّى إلى الإذلال وسقوط هيبة الحكم، وفَقَدَت هذه الدولة وحدتها منذ عام (٦٣١م)، حين انقسمت على نفسها. فقد بويع في الشرق لكسرى الثالث، وعيَّن الأشراف ورجال الدين في المدائن بوران دخت، بنت كسرى الثاني أبرويز، ثم تتابع على الحكم بعد وفاتها حكام ضعاف لم يكن معترفاً بهم إلا في بعض أجزاء البلاد، حتى تولى القائد رستم مقاليد الأمور في عهد الامبراطور يزدجرد الثالث.

والواقع أن التفكك والضعف بدءا يظهران على جسم الدولة في الأعوام المضطربة التي تلت وفاة كسرى الثاني أبرويز في عام (٦٢٨م) بفعل السياسة العسكرية التي نفَّذها كسرى الأول أنوشروان (٥٣١ ـ ٥٧٩م)، فمال الحكم شيئاً فشيئاً نحو التسلط العسكري. وقد كثرت محاولات اغتصاب السلطة من قِبل القادة العسكريين، وأضحى رستم الحاكم الفعلي لفارس، لكن جهوده التي بذلها في إعادة اللُّحمة والقوة إلى الدولة المتداعية، كانت فاشلة، ووجد نفسه عاجزاً عن وقف زحف المسلمين إلى بلاده.

---

(١) الطبري: جـ٢ ص٣٨، ٣٩. البلخي، أبو زيد أحمد بن سهل: **كتاب البدء والتاريخ**، جـ١ ص٢٨٧، ٢٨٨.

(٢) الطبري: المصدر نفسه، ص٤١، ٤٢.

الوضع الاجتماعي

قام المجتمع الفارسي على نظام ملزم للطبقات، وأفرزت الحياة العامة في فارس نظاماً سباعياً على أساس سبع طبقات، وقُسِّمت كل طبقة بدورها إلى أقسام عدة[1].

الطبقة الأولى: الملوك، وتشمل الأمراء وحكام الولايات، على رأس هؤلاء ملك فارس الذي يحكم وفق نظرية الحق الإلٰهي المقدس للملوك، ويدعى حاكم الولاية مرزبان، ويحمل لقب ملك (شاه).

الطبقة الثانية: الأشراف، ويشكل هؤلاء الطبقة القوية المكوَّنة من رؤساء الأسر السبع الممتازة، ويحق لهم وضع التيجان على رؤوسهم لأنهم كانوا متساوين أساساً وملك فارس، لكن تيجانهم أصغر حجماً، ويحتكرون بعض الوظائف العامة.

الطبقة الثالثة: رجال الدين، وهم أقسام عدة يرأسهم موبذان موبند.

الطبقة الرابعة: رجال الحرب يرأسهم إيران سپاهيد. ويتألف الجيش الفارسي من الفرسان والمشاة.

الطبقة الخامسة: الكتَّاب، وهم موظفو الدواوين.

الطبقة السادسة: الدهاقون، إنهم رؤساء القرى، يستمدون قوتهم من الملكية الوراثية للإدارة المحلية، فهم الرؤساء وملَّاك الأراضي والقرى ووظيفتهم الأساس استلام الضرائب، وتمويل الدولة.

الطبقة السابعة: عامة الشعب، وهم الفلاحون والصنَّاع والرعاة والتجار وأصحاب الحرف.

ضاق الفرد الفارسي بهذا النظام، فهو يُربي أولاده ويرعاهم حتى إذا شبُّوا وبدأوا يساعدونه على تحمل أعباء الحياة، جمعهم الأشراف ليقدموهم إلى ملك الملوك الذي يقذف بهم في أتون الحروب. واستهان ملك الملوك برؤساء الطبقات الرفيعة، وخلع رجال الدين لباس التقوى وتلهُّوا بجمع الأموال وتكديس الثروات، وأفسد رسالتهم الحرص على الدنيا، وهم في عداء سافر مع الأشراف.

أفقدت هذه الأوضاع الشاذة ثقة الفارسي بمجتمعه ووطنه، وتزعزع إيمانه بهذا النظام، ولم تقض إصلاحات كسرى الأول أنوشروان على ما في نفوس الناس من الشعور بالظلم.

---

(1) انظر: كريستنسن، أرثر: **إيران في عهد الساسانيين**، ص٩٨، ٩٣ ـ ٩٦، ١٠٣، ١١٨، ١١٩.

الوضع الديني

اتخذ الساسانيون منذ بداية عهدهم الزرادشتية[١] ديناً رسمياً لهم، ومن خصائص هذا الدين تقديس عناصر الطبيعة. وللشمس عندهم حرمة عظيمة، غير أن النار أعظم شأناً، لذلك دخلت كعامل رئيس في عباداتهم، وبيوت النار عندهم هي مراكز العبادة والتقديس.

يعتقد الزرادشتيون بوجود إله للخير والنور يسمونه أهورامزدا، وإله للشر والظلمة يسمونه أهرمان، والنزاع دائم بينهما، لكن النصر في النهاية سيكون لإله الخير، وذلك بما يبذله الإنسان من أعمال حسنة للتغلب على روح الشر، فالزرداشية إذن نحلة تقوم على الثنوية.

وابتُلي الساسانيون بنزاعات دينية بعد ظهور المانوية[٢] والمزدكية[٣] بفعل اختلاف فلسفاتها وعقائدها وتعاليمها. وكان تشجيع الأكاسرة لإحدى هذه النِّحل يدفع معتنقيها إلى اضطهاد مخالفيهم، وقد أضاع هذا التناحر البلاد حين وضعها في جو مشحون بالنزاعات.

الجيش الفارسي

أنشأت الدولة الساسانية جيشاً منظماً وقوياً قوامه الفرسان الدارعون الذين يُشكلون القوة الضاربة، وأن النصر يتوقف على مدى اندفاعهم وشجاعتهم في القتال وبخاصة الفرقة المعروفة بالخالدين، وهي مؤلفة من عشرة آلاف فارس يختارون من بين المجلِّين[٤].

وتتخذ الفيلة مكانها خلف الفرسان، وكأنها حصون، فتُشكل عامل رعب لخيل

---

(١) الزرداشتية: ديانة أسسها زرادشت بن يورشب في القرن السادس قبل الميلاد، وتُسمّى المجوسية؛ لأن قبيلة المجوس الفارسية هي أول من اعتنقها.

(٢) المانوية: نسبة إلى ماني الذي قام في بلاد فارس في أواسط القرن الثالث الميلادي أيام حكم سابور وادعى النبوَّة ويقوم مذهبه على الثنوية. كان ماني متأثراً بالروح النصرانية لذلك فرض على أتباعه الصوم والرهبنة والصلاة أربع مرات في اليوم والزكاة المقدرة بِعُشر الأموال والدعاء إلى الحق، وتجنب الكذب والقتل والسرقة والزنا والبخل والسحر؛ لأن من شأن ذلك الخلاص من الشر.

(٣) المزدكية: نسبة إلى مزدك الذي قاد حركة دينية في عهد كسرى قباذ بن فيروز في أواخر القرن الخامس الميلادي، ونادى بالشيوعية في الجنس والمال، وعلى المستوى التصوري عُدَّت المزدكية من العقائد الثنوية التي تعتقد بصراع النور والظلمة.

(٤) كريستنسن: ص١٩٨، ١٩٩.

العدو، وعامل ثقة لأفراد الجيش الفارسي، كما يُحمل عليها أبراج من الخشب مشحونة بالمقاتلين، ويقدمونها أحياناً أمامهم. تلتف حول كل فيل فرقة من الجيش، وإذا ذُعر فيل أثناء المعركة، وارتد على الجنود الفرس، يبادر الفيَّال إلى قتله[1].

شكَّل المشاة مؤخرة الجيش، يلبسون دروعاً من الخيزران المتشابك المغطى بجلد غير مدبوغ، وهم جنود غير مهرة عادة[2]. واعتمد الجيش الفارسي على المرتزقة أيضاً، وهم من الشعوب القاطنة في أطراف الدولة من الذين اشتهروا بالشدة في القتال

يقود ملك الملوك عادة الجيش في المعارك، ويُنصب العرش الملكي وسط الجيش ويحيط به خدمه وحاشيته وفرقة من الجند المكلفة بحراسته.

اقتبس الفرس بعض الفنون العسكرية من الرومان مثل عمليات حصارالقلاع واستعمال المجانيق والأبراج المتحركة وآلات الحصار الأخرى، كما نفَّذوا أسلوب البدو بإحراق المحاصيل الزراعية حتى لا يستفيد العدو منها، وفتح السدود في الأراضي التي يخصبها الري حتى يغرق الوادي ويعرقل تقدم العدو.

تعتمد الخطط العسكرية التي طبقها الساسانيون في القتال، على الصدمة بأفواج منظمة، من الفرسان الدارعين في صفوف كثيفة، كما طبقوا نظام التعبئة القائم على المقدمة والقلب والجناحين والمؤخرة، وهو نظام الزحف، وذلك من خلال تقسيم الجيش إلى كراديس[3].

ورث الساسانيون العداوة القديمة بين فارس واليونان مع اختلاف الخصم، بعد أن حلَّ الرومان في ربوع الشرق الأدنى. وكان التنازع على مناطق الأطراف وأهمية أرمينية لكلا الطرفين بالإضافة إلى السيطرة على طرق القوافل التجارية بين الشرق والغرب؛ من أهم أسباب النزاع.

واتصفت المعارك التي اندلعت بين الفرس والرومان ثم البيزنطيين على مدار القرنين الثالث والسابع الميلاديين بالتكافؤ، غير أن انتصار البيزنطيين بقيادة هرقل على الفرس في معركة نينوى عام (٦٢٨م) حطَّمت القوة الميدانية للجيش الفارسي، وفَقَدَت فارس ما كان لها من أهمية سياسية وعسكرية، في الوقت الذي كانت تعاني من الإفراط في الثقة بالنفس.

---

(١) كريستنسن: ص١٩٨، ١٩٩.

(٢) المرجع نفسه.

(٣) المرجع نفسه: ص٢٠٦، ٢٠٧.

أوضاع الامبراطورية البيزنطية

ورث البيزنطيون حضارة أوروبا الغربية، إلا أنهم انغمسوا في صراعات دينية مذهبية كان أشهرها في الشرق ثلاث طوائف، هي: اليعقوبية والنسطورية والملكانية. واستعانت هذه الطوائف بالفلسفة اليونانية لتدعيم وجهات نظرها المختلفة في العقيدة النصرانية، وبخاصة حول طبيعة المسيح. ومارست الدولة التي كانت تدين بالمذهب الملكاني مختلف أنواع الضغوط ضد الذين خرجوا على مذهبها، فقامت الفتن وأُريقت الدماء هدراً في الشوارع. ومما زاد الأمر سوءاً اختلاف العناصر السكانية التي تألفت منها الامبراطورية، وقد حاول الامبرطور هرقل التوفيق بينها ثم بين المذاهب المتناحرة، إلا أنه فشل في ذلك.

وإلى جانب هذا الصراع المذهبي، كان نظام الحكم فردياً، وقد جمع الامبراطور السلطات كافة في يده. وأرهقت الدولة رعاياها بالضرائب، وفسدت الإدارة، وانتشرت الرشوة. وتبنى الأباطرة مشاريع ضخمة كانت تجهد الخزانة، بالإضافة إلى مصاريف الحروب المدمرة مع الفرس.

أدَّى هذا الوضع المتدهور إلى تذمر السكان، فحقدوا على حكَّامهم وتمنوا الخلاص، بدليل ما رواه البلاذري عن موقف السكان في بلاد الشام الرافض للحكم البيزنطي والمرحب بالحكم الإسلامي والفتح الإسلامي لهذه البلاد. فقد حشد الامبراطور هرقل جيوشه في اليرموك لقتال المسلمين، فاضطر هؤلاء إلى الجلاء عن المدن الشامية المفتوحة لتجميع صفوف قواتهم استعداداً للقاء، وردوا عليهم ما كانوا أخذوه منهم من الجزية والخراج مقابل حمايتهم، وقالوا لأهل حمص: «قد شُغلنا عن نصرتكم والدفع عنكم، فأنتم على أمركم. فقال أهل حمص: لولايتكم وعدلكم أحب إلينا مما كنا فيه من الظلم والغشم، ولندفعن جند هرقل عن المدينة مع عاملكم. . .»[١].

---

(١) فتوح البلدان: ص١٤٣.

[illegible]

... من الشعوب القاطنة في أطراف القرية من [illegible] المشهورة [illegible]

[illegible]

[illegible]

[illegible]

[illegible]: ص ٩٤٢.

الباب الأول

النبي محمد ﷺ في مكة

ܕܘܟܪܢܐ ܚܠܝܠܐ

ܬܘܒ ܕܡܪܢ ܝܫܘܥ ܡܫܝܚܐ ܕܝܢܐ

الفَصْـلُ الأولـُ

من الميلاد إلى البعثة

إرهاصات النبوة المبكرة

حدثت قبل ميلاد النبي محمد ﷺ بعض الأحداث التي يمكن عدُّها إرهاصات لولادته ولمبعثه، وأكتفي بذكر حادثتين هما: حفر بئر زمزم، وحادثة أصحاب الفيل.

حفر بئر زمزم: كان الماء شحيحاً في مكة، وكان عبد المطلب بن هاشم متولياً أمر سقاية ورفادة الحجيج وعليه تأمين الماء لهم ولسكان مكة، فحفر بئر زمزم، وجاء ذلك نتيجة رؤيا منامية، علماً بأن جرهم كانت قد طمرت البئر قبل خروجها من مكة، وساعد عبد المطلب في عملية الحفر ابنه الوحيد، وهو الحارث[1].

وبفعل أهمية الماء في مكة، فقد نازعه زعماء قريش الذين خشوا احتكار بني هاشم الماء فيها، فنازعوا عبد المطلب، وأرادوا أن يقتسموا الماء معه، فرفض، فنذر عندئذ: لئن وُلد له عشرة بنين ثم بلغوا معه حتى يمنعوه، لينحرن أحدهم لله عند الكعبة. ثم رضي الطرفان أن يحتكما إلى كاهنة بأطراف الشام، وأثناء الرحلة نفد الماء منهم، فراحوا يبحثون عن مواضع الماء حتى اهتدى عبد المطلب إليه، فتنازلوا عندئذ عن ادعائهم بالمشاركة، واعترفوا بفضل عبد المطلب وخلُّوا له زمزم، فتفرَّد بالإشراف عليها.

حادثة أصحاب الفيل: هذه حادثة ثابتة بالقرآن الكريم والسُّنَّة النبوية، وفصَّلها أصحاب السِّير والمؤرخون، وذكرها المفسرون.

قال تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِأَصْحَٰبِ ٱلْفِيلِ ۞ أَلَمْ يَجْعَلْ كَيْدَهُمْ فِى تَضْلِيلٍ ۞ وَأَرْسَلَ عَلَيْهِمْ طَيْرًا أَبَابِيلَ ۞ تَرْمِيهِم بِحِجَارَةٍ مِّن سِجِّيلٍ ۞ فَجَعَلَهُمْ كَعَصْفٍ مَّأْكُولٍ﴾ [سورة الفيل].

وأشار الرسول ﷺ إلى هذا الحادث في غزوة الحديبية، فعندما سار إلى الحديبية حتى إذا كان بالثنية التي يهبط عليهم منها؛ بركت راحلته، فقال الناس: «حل حل[2]، فألحت[3]، فقالوا: خلأت القصواء. فقال النبي: **(ما خلأت القصواء، وما**

(١) ابن هشام: جـ١ ص١٣٣، ١٣٤.
(٢) حل: تقال للناقة إذا توقفت عن السير.
(٣) ألحت: تمادت.

ذاك لها بخلق، ولكن حبسها حابس الفيل)»[1].

قامت حملة أبرهة ضد مكة، وهي التي تُعرف بحادثة الفيل، ضمن الصراع المتنامي بين النصرانية واليهودية في العربية الجنوبية، واستعداد معتنقيهما للتمدد إلى الحجاز بعامة، وإلى مكة بخاصة، وهي أخطر ما تعرَّضت له مكة من أزمات خلال تاريخها، قادها أبرهة الأشرم، حاكم اليمن من قِبل الأحباش، لتحقيق هدفين: ديني وسياسي ـ تجاري، وقد مثَّل العقيدة النصرانية في صراعها مع يهودية حِمير، في حين ساندت دولة فارس، دولة حِمير.

وكانت غزوة أبرهة محاولة بيزنطية لدفع الحبشة وأبرهة للمساهمة في الجهد العسكري ضد الفرس في اليمن، وبخاصة بعد أن وصل نفوذ هؤلاء إلى الحجاز، وأخذوا يُهدِّدون الطرق التجارية التي كانت بيزنطية تعتمد عليها في غربي الجزيرة العربية والبحر الأحمر.

وتوافقت سياسة بيزنطية تجاه مكة مع تطلعات أبرهة الدينية والاقتصادية، وهو الذي خشي من تعاظم نفوذ مكة التجاري والمكاسب المالية الهائلة التي يجنيها القرشيون من التجارة، مدركاً في الوقت نفسه مدى مساهمة الحرم المكي في نجاحهم، وإذا كان لا بدَّ من تحجيم نفوذهم والقضاء على تجارتهم، وهي مصدر ثروتهم، فلا بدَّ من أن يستولي على طرق القوافل الشمالية وتحويل العرب للحج إلى حرم آخر بدلاً منه، ورأى أن كل أسباب صرف الحجاج العرب عن مكَّة إلى بلاده متوافرة لديه، فقد بنى كنيسة في صنعاء دعاها القُلَّيس من أجل هذه الغاية، ونقل إليها رفات بعض شهداء نجران مضفياً عليها صفة المزار[2]، كما أنه يمتلك قوة عسكرية ذات بأس.

وزحف أبرهة إلى مكة على رأس جيش تعداده عشرين ألفاً، ومعه الفيل لينفذ مشروعه «هدم الكعبة» وتغلَّب على المعارضة التي اعترضت طريق زحفه، وأفاضت روايات المصادر في وقائع الحملة[3]، إلا أنه فشل في تحقيق هدفه، وكانت نهايته وجيشه مفجعة، فقد أرسل الله جماعات من الطير ترميهم بحجارة من سجيل[4]،

---

(١) صحيح البخاري، كتاب الشروط، باب الشروط في الجهاد، رقم الحديث (٢٧٣١، ٢٧٣٢)، ص٤٩٩، ٥٠٠.

(٢) الأزرقي، أبو الوليد محمد: **أخبار مكة وما جاء فيها من الآثار**، جـ١ ص١٣٩.

(٣) المصدر نفسه: ص١٣٤ ـ ١٤٨. ابن هشام: جـ١ ص٦٤ ـ ٧٣. محمد بن حبيب: **المنمق في أخبار قريش**، ص٧٠ ـ ٧٧. تفسير ابن كثير: جـ٤ ص٥٤٨ ـ ٥٥٣.

(٤) سجيل: كلمة فارسية معناها: الطين والحجر.

فتتركهم كأوراق الشجر الجافة، فمات فوراً معظم أفراد الجيش، ورحل من بقي منهم وهم في حال ذعر شديد يتساقطون على الطريق بفعل إصابتهم، حاملين معهم قائدهم أبرهة وقد أصيب أيضاً، وما إن وصل إلى صنعاء حتى توفي بسبب إصابته.

تحليل حادثة أصحاب الفيل

ـ واجه أبرهة على طول طريقه إلى مكة زعماء وقبائل عربية، بغض النظر عن دوافعهم، مثل ذو نفر، وهو من أشراف حِمير، ودوافعه دينية وعنصرية، ونفيل بن حبيب الخثعمي ودوافعه تجارية وشخصية بفعل صداقته لعبد المطلب، القبائل التي شكّلت الحلف الذي قامت عليه كندة، والذي كان درعاً لليمن. وهادنت بعض القبائل العربية الأخرى أبرهة خشية أو رهبة أو معاداة لقريش.

ـ لقد همَّت كنانة وهذيل، حليفتا قريش، بالتصدي لزحف أبرهة، لكن عبد المطلب استدرك واقعهما، وأنهما لا طاقة لهما بقتاله، وخلّى بينه وبين البيت، فخرج مع أهله وسكان مكة إلى الجبال حتى يزول الكرب.

ـ لا شك بأن حادثة أصحاب الفيل التي فاقت شهرتها نطاق الجزيرة العربية، تُعدُّ دلالة واضحة على رعاية الله ﷻ لمكة التي اختارها لتكون مهبط النور الأخير وموطن العقيدة الجديدة، والبقعة التي تنطلق منها الدعوة الإلٰهية إلى أنحاء المعمورة لتغيِّر النظم والتقاليد البشرية المنحرفة، وهي إحدى آيات قدرة الله وأثر من سخطه على من تجرأ عليه بهتك حرمه.

ـ تُعدُّ حادثة أصحاب الفيل إرهاصاً لنبوة محمد ﷺ، وإعزازاً لأهل مكة، ومن أجل ذلك اعترفت لهم بقية القبائل بشرف السيادة وحمل التراث الإبراهيمي قائلين: «هم أهل الله، قاتل عنهم، وكفاهم مؤونة عدوهم».

ـ لقد أراد ﷻ لهذه البقعة أمراً، فحافظ عليها وحفظ أول بيت وُضع للناس للعبادة ليكون مثابة للناس وأمناً، ومن أجل ذلك لم يوكل أمر المحافظة عليه إلى المشركين، فتركهم يُهزمون أمام القوة الغازية، ثم تدخلت القدرة الإلٰهية لتدافع عنه حتى لا يكون لهم يد على هذا البيت ولا سابقة في حمايته بحميتهم الجاهلية. وقد جعل الله هذه الحادثة الإعجازية عبرة ظاهرة ومكشوفة لجميع الناس في جميع الأجيال

ـ تدلنا هذه الحادثة على أن العرب قبل الإسلام لم يكن لهم دور فاعل في المجال الدولي، ولا كيان يُدافعون عنه. فقد كانوا في الشمال والجنوب تحت السيطرة البيزنطية والفارسية والحبشية، وظلَّ قلب الجزيرة مُفكَّكاً وبعيداً عن الصراعات الدولية، لا قوة سياسية فاعلة له في ميدان العلاقات الدولية باستثناء عقود

الإيلاف، ولم تكن لقبائله المتفرقة والمتصارعة أبداً أي وزن يُذكر في حسابات الدول الكبيرة، وما حدث عام الفيل كان مقياساً لحقيقة هذه القوة عندما تتعرَّض لغزو أجنبي.

ـ كانت حادثة أصحاب الفيل انعطافة مهمة في التاريخ الجاهلي دفع العرب قبل الإسلام إلى اتخاذها مبدأ تاريخ لهم.

ـ تكشف لنا حادثة غزوة أبرهة عن الصراع السياسي الدولي على أرض الجزيرة العربية بين الدولتين الكبيرتين آنذاك، وهما الدولة الفارسية والدولة البيزنطية، للسيطرة على طرق القوافل التجارية، وكانت الاضطهادات الدينية التي تعرَّض لها النصارى في نجران باليمن ذريعة للتدخل الحبشي بإيعاز من البيزنطيين.

النسب والولادة

تحدَّر النبي محمد ﷺ من بيت عريق في قبيلة قريش، ويرجع نسب هذه القبيلة إلى عدنان ثم إلى إسماعيل بن إبراهيم الخليل. روى مسلم بسنده عن رسول الله ﷺ؛ أنه قال: (**إن الله اصطفى كنانة من ولد إسماعيل، واصطفى قريشاً من كنانة، واصطفى من قريش بني هاشم، واصطفاني من بني هاشم**)[1].

ويبدأ نسبه الشريف المتفق عليه من عدنان وصولاً إلى والده عبد الله بن عبد المطلب، وأمه آمنة بنت وهب سيد بني زهرة، وهي أفضل امرأة في قريش نسباً ومكانة. توفي والده وهو في بطن أمه، ودُفن عند أخواله في يثرب، وكان في تجارة له[2]، فاضطرب والده عبد المطلب لكنه واسى نفسه بفناء كل مولود على الأرض، وارتمت آمنة في أحضان حميها تبكيه بكاء مراً، وبللت عينيها الدموع فلن يُتاح لها أن تراه مدى الحياة، وواساها نساء بني هاشم.

وعندما حان موعد الوضع، وكان قد مرَّ خمسون يوماً على اندحار أبرهة عن مكة، وجاء شهر نيسان بحرارته اللافحة؛ وضعت آمنة ولداً ذكراً يوم الاثنين لاثنتي عشرة ليلة خلت من شهر ربيع الأول[3]، الموافق العشرين من شهر نيسان عام (٥٧٠م)، وكانت الولادة بالشِّعب، وقيل: بالدار عند الصفا[4]. وحرصت الوالدة

---

(١) صحيح مسلم على شرح النووي: كتاب الفضائل، باب فضل نسب النبي ﷺ، جـ١٥ ص٣٦.

(٢) ابن هشام: جـ١ ص١٨٠. ابن سيد الناس، فتح الدين أبو الفتح: **عيون الأثر في فنون المغازي والشمائل والسير**، جـ١ ص٢٦.

(٣) ابن هشام: جـ١ ص١٨١. البلاذري: جـ١ ص١٠٠، ويذكر يوم الاثنين لعشر ليال خلت من شهر ربيع الأول.

(٤) السهيلي: جـ١ ص١٨٤.

على ألا يراه أحد قبل جده، فأرسلت إليه أن وُلد لك غلام، فأْتِهِ فانظر إليه. وهرول الجد مسرعاً، فرحاً بما سمع، كيف لا وهو ابن عبد الله، أحب ولده إليه، والذي فداه بمائة من الإبل[1]، وما إن وصل حتى أخذ الطفل بين يديه، وقبَّله بين عينيه، وخرج به إلى الكعبة، فطاف بها ثم سمَّاه محمداً ليكون محموداً في السماء وعلى الأرض[2]. وجاء عن ابن عباس أن رسول الله ﷺ وُلد مسروراً؛ أي: مقطوع السرة، ومختوناً، ومكحولاً، ونظيفاً ما به قذر[3]. وعلى عادة العرب في الجاهلية كلما وُلد لهم ولد؛ ذُبحت الجِزْوَر في الليلة السابعة لميلاده، فدعا عبد المطلب زعماء قريش وسائر الناس إلى الطعام.

الواضح أن وفاة عبد الله، ومحمد ﷺ في بطن أُمه، لإيماءة ظاهرة تدل على كرامة الطفل عند ربِّه وفضله عليه، وإشارة إلى انتهاء مهمة الوالد في إنجاب الطفل السعيد. فوُلِد محمد ﷺ يتيم الأب، محروماً من رعايته وعطفه، غير أن جده كان له بمثابة الأب، فأعطاه حنانه وعطفه، لكن ما حاجته ﷺ إلى رعاية الأب وعطفه وهو في رعاية الله وحفظه، يربيه على عينه ويسهر على حاله؟.

الطفولة والفتوة

اعتاد الحضر من العرب أن يلتمسوا المراضع لأطفالهم في البادية للابتعاد بهم عن أمراض الحواضر، فتقوى أجسامهم، وتشتد أعصابهم بفعل صفاء الهواء ونقائه، كما ينشأ الطفل أفصح لساناً وأسلس عبارة.

---

(١) عندما نازعت قريش عبد المطلب باقتسام زمزم وكان لديه ولد وهو الحارث؛ نذر لئن وُلد له عشرة بنين ثم بلغوا معه حتى يمنعوه لينحرنَّ أحدهم لله عند الكعبة، فلما تحقق ذلك جمع أولاده وضرب عليهم بالقداح لاختيار أحدهم للوفاء بالنذر، فخرج القدح على عبد الله، وهو أصغرهم، فأخذه إلى إساف ونائلة ليذبحه. ضجت قريش وعارضت بشدة هذه الظاهرة خشية من تكريسها. وأشارت عليه عرَّافة بخيبر أن يفديه بعشر من الإبل، وهي نصاب الدية. ونفَّذ عبد المطلب وصية العرَّافة، فكان كلما ضرب بالقداح يخرج على عبد الله، فيزيد في عدد الإبل حتى أضحت مائة، فخرج عندئذ القدح على الإبل، فنحرها ولم يصدَّ عنها إنسان. ابن هشام: جـ١ ص١٧٦ ـ ١٧٨.

(٢) كان اسم محمد جديداً على العرب، ولا يُعرف من تسمَّى به إلا ثلاثة أطفال قبله طمع آباؤهم عندما علموا بأن نبياً سيبعث من العرب يُدعى محمد، بأن يكون ولداً لهم، وهؤلاء هم: محمد بن سفيان بن مجاشع، جدُّ الفرزدق الشاعر، ومحمد بن أُحيحة بن الجلَّاح بن الحريش ...بن مالك بن أوس، ومحمد بن حمران بن ربيعة. السهيلي: جـ١ ص١٨٢.

(٣) الحلبي، علي برهان الدين: **إنسان العيون في سيرة الأمين المأمون، المعروفة بالسيرة الحلبية**، جـ١ ص٥٨، ٥٩.

وكانت المراضع من نساء البادية يأتين إلى مكة مرتين في السنة، يلتمسن الرُّضَّع من الأطفال، وكن يتخيرن أطفال الأغنياء طمعاً في الأجر المرتفع، ويرفضن أطفال الفقراء والأيتام. وكانت من بين القادمات حليمة بنت أبي ذؤيب من بني سعد بن بكر، ورفضت في بادىء الأمر احتضان طفل يتيم، ولما لم تجد طلبها واستحيت أن تعود خالية الوفاض؛ رجعت إلى آمنة لتأخذ منها ابنها محمد. وأجمع رواة السير على أن البركة حلَّت في منازلها مع مقدمه معها. وكانت بادية بني سعد في تلك السنة تعاني من الجدب، وقد جفَّ الضرع ويبس الزرع، فامتنَّ الله عليها بخير مضاعف، فدرَّت الضروع وأخصبت الأرض ورغد العيش، وشعرت حليمة وزوجها بأن عودتها من مكة تكلَّلت باليُمن ما زاد في تعلُّقهما بالطفل وإعزازهما له[1]. ويُعدّ هذا الخير الذي عمَّ آل حليمة مكرمة من الله ﷺ لمن اختاره ليكون نبيَّه، وهذه دلالة على علوِّ شأن منزلة الطفل عند ربه بما سيحمله في المستقبل.

وعندما بلغ محمد ﷺ سن الفطام؛ أي: سنتين، أعادته حليمة إلى أُمه في مكة وهي تتمنى أن تُقنعها كي تتركه في حضانتها مدة أطول، ونجحت في ذلك، فعادت مع الطفل إلى مضاربها والفرح بادٍ على وجهها.

وتعلم محمد الطفل في بادية بني سعد اللسان العربي الفصيح، وأضحى فيما بعد أفصح الخلق، فقد قال له أبو بكر الصديق يوماً: «ما رأيت أفصح منك يا رسول الله»! فقال: (**وما يمنعني وأنا من قريش وأُرضعت في بني سعد**)[2]. ومن أجل ذلك كان أهل المدن يدفعون أطفالهم الرضع إلى المراضع الأعرابيات. وتمنَّت حليمة بعد أن رأت ما أصابها من الخير أن تكون قد حظيت بنسمة مباركة.

مكث النبي محمد ﷺ في مضارب بني سعد خمس سنوات، لا يُنتظر أن يحصل خلالها شيء يُذكر، غير أن رواة السير والسنن الصحاح سجلوا خلال هذه المدة ما عُرف بحادثة شق الصدر، فعن أنس أن رسول الله ﷺ «أتاه جبريل وهو يلعب مع الغلمان، فأخذه فصرعه، فشق عن قلبه، فاستخرجه، فاستخرج منه علقة، فقال: هذا حظ الشيطان منك، ثم غسله في طست من ذهب بماء زمزم ثم لَأَمَهُ ثم أعاده إلى مكانه. وجاء الغلمان يسعون إلى أمه ـ يعني: مرضعته ـ أن محمداً قد قُتل، فاستقبلوه وهو منتقع اللون»[3].

---

(١) ابن هشام: جـ١ ص١٨٣. البلاذري: جـ١ ص١٠١.

(٢) السهيلي: جـ١ ص١٨٨.

(٣) صحيح مسلم على شرح النووي: كتاب الإيمان، باب الإسراء برسول الله ﷺ، جـ٢ ص٢٠٦، ٢٠٧، وزاد في آخره، قال أنس: «وقد كنت أرى أثر ذلك المخيط في صدره». ابن هشام: جـ١ ص١٨٧.

تعدَّدت آراء الكتاب المسلمين وغير المسلمين، المحدثين بشأن هذه الحادثة بين تعليلهم لها بأنها حادثة روحية(١)، أو عملية تطهير معنوي، ومنهم من رفضها لافتقارها إلى الإثبات الحسي(٢).

وإذا كان لنا أن نُعقِّب على هذه الحادثة، نقول:

ـ لا بدَّ من التسليم بصحة هذه الحادثة؛ لأنها معجزة، علماً بأن المعجزة لا تخضع لمقاييس العقل المحدودة، ولا لقوانين الكون المتغيرة.

ـ لا بد من قبول هذه الحادثة بوصفها تهيئة لمحمد ﷺ، واستكمالاً لاستعداده النفسي منذ صغره لتحمُّل أعباء الرسالة العظمى في المستقبل، وإبعاداً لوسوسة الشيطان عنه، الذي لم يعد له نصيب في قلبه بدليل قوله ﷺ، فيما بعد في شيطانه: **(ألا إن الله قد أعانني عليه، فأسلم)**(٣).

ـ تعدُّ حادثة شق الصدر من إرهاصات النبوة ودلائل اختيار الله إياه لأمرٍ جلل.

ـ إن الله ﷻ أراد أمراً كان خافياً على الناس آنذاك، فأراد أن يُنقِّي قلب من اصطفاه، من كل شائبة قد تعوقه في تحمُّل أعباء الدعوة، ويُصفِّيه من الحقد والكراهية، ويُبعده عن مزالق الطبع الإنساني ومفاتن الحياة، فيتفرَّغ بذلك كلياً لهذه الأعباء.

ـ يمكن لهذه الحادثة أن تكون سرية بين الله ونبيِّه، إلا أنه ﷻ أراد أن تكون علنية، وأمام عين أخيه بالرضاعة، كي ينتشر الخبر وتُعرف كل خطوة يخطوها ﷺ نحو الرسالة، وإذا أراد الله أمراً فإنه يقول له كن فيكون.

يبدو أن حليمة السعدية خشيت على الطفل أن يصيبه مكروه، فأعادته إلى أُمه التي احتضنته، وقد سُرَّت بعودته بعد أن غاب عنها مدة خمس سنوات. وبعد عام ارتأت أن تخرج به إلى يثرب لزيارة قبر والده، ولتزيره أخواله بني النجار. وفي يثرب عرف محمد ﷺ لأول مرة معنى اليتم، ولما أنهت آمنة زيارتها كرَّت بولدها عائدة إلى مكة، فمرضت في الطريق وماتت بالأبواء(٤)، ودُفنت بعيدة عن قومها مُخلِّفة وراءها

---

(١) الغزالي، محمد: فقه السيرة، ص٥١.

(٢) Watt, M: Mohammed at Mecca, p. 33. Muir, Sir William: Life of Mohammed, pp. 6, 7. Canon, Sell: Life of Mohammed, p. 8.

(٣) **صحيح مسلم على شرح النووي**: كتاب صفة القيامة والجنة والنار، باب تحريش الشيطان وبعث سراياه، جـ١ ص١٥٧.

(٤) **الأبواء**: قرية من أعمال الفُرعْ من المدينة، بينها وبين الجحفة، مما يلي المدينة، عشرون ميلاً. الحموي: جـ١ ص٧٩.

غلاماً يتيماً في السادسة من عمره[1].

وشعر محمد ﷺ بشدَّة وطأة الحادثة عليه، وما كاد يعرف معنى اليتم في أبيه حتى عرفه في أُمه. وما كاد يرى قبر أبيه حتى رأى قبر أمه، إنه لم يعرف أباه أبداً ولم يستمتع بالحياة في أحضان أُمه، ولم يرها بالقدر الكافي، فعاد إلى قومه باكياً منتحباً ممتلئاً قلبه أسى وحسرة تحضنه أُم أيمن حانية عليه.

زاد هذا الحادث في إعزاز الجد لحفيده، ورعايته له، وحدبه عليه، حتى منحه أكثر قلبه، بل كان يُقدِّمه على أولاده، ويتفقده دائماً، ويلحظه في كل أحواله. وكان من الطبيعي أن يبادله محمد ﷺ هذه العاطفة، على أن هذا الحنان الذي مسح به جده جراحات يُتمه لم يدم طويلاً، فما أن بلغ محمد الثامنة من عمره حتى مات جدُّه عبد المطلب تاركاً إياه وحيداً في هذه الحياة القاسية. وحزن ﷺ على جده كحزنه على أبويه من قبل، وأدرك عِظَم المصيبة التي حلَّت به، فبكاه بكاء الحزين الذي لا يعلم ماذا سيكون مصيره، وكفله عمه أبو طالب بناء لوصية جدِّه[2].

وانتقل محمد ﷺ إلى بيت جديد يضنيه شعور بالغربة، على الرغم من حرص عمه عليه واحتفاء بني عمه به، لكنه ظل يشعر بالغربة حتى ألف الحياة مع أولاد عمه. كان أبو طالب مُقِلّاً في الرزق، ولا بد لمحمد ﷺ أن يعمل مع أولاد عمه، فعمل في رعي الغنم، فكان يخرج كل يوم مع الرعاة يلتمس الكلأ خارج مكة ثم يعود في الليل، وكذلك رعى عدد من الأنبياء الغنم من قبله تمهيداً لرعي البشر، وقال: (**كنت أرعاها على قراريط لأهل مكة**)[3]، ويتيح رعي الغنم لصاحبه التحلي بالصبر والتواضع والرحمة والعطف.

الواضح أن محمداً ﷺ عندما آنس من نفسه القدرة على الكسب أقبل يكتسب ويعمل لمساعدة عمِّه ما يدل على تمتُّعه بالذوق الرفيع والإحساس الدقيق والشعور مع الآخرين، وشهامة في الطبع؛ علماً بأن خير مال الإنسان ما يكتسبه بكدِّ يمينه[4]، وهذه من صفات الأنبياء والمصلحين.

وترعرع محمد ﷺ في أحضان مكة، وأخذ ذهنه يتفتَّح شيئاً فشيئاً على الحياة

---

(١) البلاذري: جـ١ ص١٠٣. (٢) ابن هشام: جـ١ ص١٩٥، ٢٠٤.

(٣) أخرجه البخاري، كتاب الإجارة، باب رعي الغنم، رقم الحديث (٢٢٦٢)، ص٤٠٣ من حديث أبي هريرة مرفوعاً بلفظ: (**ما بعث الله نبياً إلا رعى الغنم**)، فقال أصحابه: وأنت؟ فقال: (**نعم، كنت أرعاها على قراريط لأهل مكة**).

(٤) البوطي: ص٧٨.

فيها، فيرى حياة الأغنياء الماجنة، وحياة الفقراء الذين يخشون أن يطلع الصباح على أحدهم فتضطره الحاجة إلى أن يرتهن ابنته أو زوجته.

وعلم محمد ﷺ ذات يوم، وقد بلغ اثنتي عشرة سنة من عمره، أن عمه سيخرج في رحلة الصيف إلى الشام، فمال إليه كي يصحبه معه في هذه الرحلة، لكن عمه رفض ذلك بحجة أنه لا يزال صغيراً على الخروج مع القوافل، فجسمه لا يتحمل مشاق السفر الطويل في الصحراء. وتحلَّق حول عمه مرة أخرى راجياً ألا يتركه وحيداً بلا أُم تكفله ولا أحد يأويه، فرقَّ قلب العم ووافق على اصطحابه معه، ثم أردفه خلفه[1].

وتحركت القافلة خارجة من مكة قاصدة بلاد الشام، حتى وصلت إلى بصرى[2]، وهي المحطة التجارية للقوافل الذاهبة إلى بلاد الشام، وفيها يقايض التجار العرب بجلود الصحراء وشعير الطائف وفضة بني سُلَيْم، بالعطور والحلي والتوابل[3]، وبها راهب يُقال له بحيرا في صومعة له، وكان علماء النصارى يقيمون في تلك الصومعة ويتوارثونها، وكان بحيرا لا يكلم من يمرون به حتى كان ذلك العام، فمروا به فصنع لهم طعاماً ثم دعاهم؛ لأنه رآهم حين طلعوا وغمامة تُظلِّل رسول الله ﷺ من بين القوم، حتى نزلوا تحت الشجرة، فاخضلَّت أغصانها على النبي ﷺ حين استظلَّ تحتها، فلما رأى بحيرا ذلك نزل من صومعته، وأمر بذلك الطعام فأتي به، وأرسل إليهم بأن يحضروا ولا يتخلف منهم أحد، حتى حضر محمد ﷺ، فقام إليه فاحتضنه وراح يتفرَّس فيه، فرأى معالم النبوة في وجهه وبين كتفيه، فلما سأل أبا طالب: «ما هذا الغلام منك؟ قال: ابني. قال: ما ينبغي أن يكون أبوه حياً. قال: فإنه ابن أخي، مات أبوه وأمه حبلى به. قال: صدقت، ارجع به إلى بلدك واحذر عليه يهود، فوالله لئن رأوه وعرفوا منه ما عرفت ليبغنَّه شراً، فإنه كائن لابن أخيك هذا شأن عظيم. فأسرع به إلى بلاده»[4].

قد تكون هذه القصة صحيحة[5]، فإن البشارة بعد عيسى عليه السلام موجودة في العهدين

---

(١) طبقات ابن سعد: جـ١ ص١٢٠، ١٢١.

(٢) بصرى: بالشام من أعمال دمشق وهي قصبة كورة حوران. الحموي: جـ١ ص٤٤١.

(٣) بودلي: حياة محمد، ص٣٤.

(٤) ابن هشام: جـ١ ص٢٠٥، ٢٠٦. البلاذري: جـ١ ص١٠٦. الطبري: جـ٢ ص٢٧٧، ٢٧٨.

(٥) هذه القصة من حديث أبي موسى الأشعري، والجدير بالذكر أن علماء السنة يولون اهتماماً خاصاً بالأخبار الواردة من ناحيتي المتن والسند، فإذا لم تُفد علماً ثابتاً أو ظناً راجحاً لم يكترثوا بها، وقد دخلت أساطير كثيرة إلى سير المرسلين والأنبياء عندما تُعرض على القواعد المقرَّرة للأحاديث يظهر وهنها.

القديم والجديد، ويرقب اليهود مجيء هذا النبيِّ المنتظر منهم، لكن هذه القصة لم تترك أي أثر أو ذيول، فلا محمد ﷺ تطلَّع للنبوة أو استعدَّ لها، ولم يطمح أن يكون زعيماً في قومه متأثراً بكلام الراهب، ولا التجار أصحاب القافلة تذاكروها أو أشاروا إليها لدى عودتهم، فطُويَت كأنها لم تحدث، ولكنها وجَّهت الأنظار إليه، وألقت الأضواء عليه، ويذكرها الناس أبداً، وتُعدُّ ـ إن صحَّت ـ من إرهاصات النبوة، وتكريم الله ﷻ لنبيِّه ﷺ، ورعاية له في صغره وحفظه وحسن سيرته، وتمسَّك بها المستشرقون ليوهموا الناس أن محمداً ﷺ إنما أخذ علمه عن هذا الراهب.

ومهما يكن من أمر، عاد محمد ﷺ من هذه الرحلة ليستأنف حياة الكدح مع عمه، وكان طرازاً رفيعاً في تفكيره الصائب ونظره السديد، يعيش يقظ القلب في أعماق الصحراء، صاحياً بين السكارى والغافلين، لم يؤثِّر جو الجزيرة العربية الشديد الحرارة على نشاطه، وكان يستعين بصمته الطويل على التأمل الطويل، ولا شك بأن الله ﷻ أحاطه بما يحفظ عليه الانزلاق إلى مُتع الدنيا التافهة والرذائل التي كانت متفشية في المجتمع المكي، وما همَّ بشيء مما كان أهل الجاهلية يعملونه غير مرتين، كان ﷻ يحول بينه وبين ذلك، ويحفظه من دنسهما. ففي ذات يوم كان يرعى الغنم مع رفيق له خارج مكة، فطلب من رفيقه أن يسهر على غنمه حتى يدخل مكة ويسمر فيها، ولما وصل إلى أول بيت سمع عزفاً بالدفوف والمزامير ناتجاً عن حفلة فرح، وما إن جلس ينظر إلى سير الحفلة حتى أخذه النعاس فنام ولم يوقظه إلا حر الشمس، وأعاد الكرة في الليلة التالية، فنام أيضاً ولم يوقظه إلا حر الشمس، ولم يهمَّ بأمر من هذا النوع بعدها، حتى أكرمه الله بالرسالة[(١)].

وتقدم محمد ﷺ في السن، وما إن بلغ العشرين عاماً حتى اشتعلت حروب الفِجار بين قريش وكنانة من جهة، وبين قيس عيلان وهوازن من جهة أخرى، وسميت الفِجار لأنها وقعت في الأشهر الحرم، علماً بأن الفِجارات أربعة شهد محمد ﷺ الفِجار الرابع منها، بين قريش وكنانة من جهة، وبين هوازن من جهة أخرى، وقد هاجه البراض بن قيس بن رافع الضمري حليف حرب بن أمية[(٢)]،

---

(١) الطبري: جـ٢ ص٢٧٩.

(٢) اتخذ الفجار الرابع بُعداً إقليمياً من واقع محاولة الفرس، بعد سيطرتهم على اليمن، التحرر من سيطرة قريش على التجارة، فعزموا على تسيير قوافل تجارية لحسابهم وحساب حلفائهم ملوك الحيرة من دون أن تسلك الطريق التجاري التقليدي المار بمكة. فنهضت قريش للتصدي لهذا المشروع والإمساك بتجارة الشرق. استمرت حروب الفِجار الرابع أربعة عوام اشتبك الطرفان في خمسة أيام هي: يوم نخلة، يوم شمطة، يوم العبلاء قرب عكاظ، يوم شرب قرب مكة، ويوم الحريرة قرب نخلة. وقد شهد محمَّد ﷺ هذه الأيام باستثناء يوم نخلة.

فكان ﷺ ينبِّل على أعمامه؛ أي: يردُّ عنهم النبل، كما كان يناولهم إياها، ورمى فيها بأسهم. وسُئل يوماً عن ذلك، فقال: (**ما أحب أني لم أكن فعلت، فإنهم تعدوا على قومي، عرضوا عليهم أن يدفعوا إليهم البراض صاحبهم، فأبوا**)[١].

وشهد محمد ﷺ في هذه الأثناء أيضاً قيام حلف الفضول، وهو امتداد لحلف المطيبين، وقد اتخذ شعاراً له نصرة المظلوم، سواء كان من مكة أم من خارجها حتى يأخذ حقه[٢]. وكان من شدَّة إعجابه بمبادئه الإنسانية أن حدَّث أصحابه بعد البعثة قائلاً: (**لقد شهدت في دار عبد الله بن جدعان حلفاً ما أحب أن لي به حمر النَّعم، ولو أُدعى به في الإسلام لأجبت**)[٣].

الواضح أن محمداً ﷺ كان يُظهر اعتزازه بالمشاركة في تحقيق العدل ورفع الظلم قبل بعثته بعشرين عاماً، فالقيم الاجتماعية الإيجابية تستحق الإشادة بها، حتى لو صدرت من أهل جاهلية، وفي هذا الحلف ثلاث دلالات:

الأولى: أن شيوع الظلم والفساد في مجتمع ما، كمجتمع مكة، لا يعني خلوَّه من أي فضيلة أو رجال لا يُقرّون بالظلم، فالظلم مرفوض وقد حاربه الإسلام ووقف إلى جانب المظلوم، بغض النظر عن وضعه الاجتماعي.

الثانية: جواز التحالف والتعاقد على فعل الخير، على أن تُلحظ مصلحة الإسلام والمسلمين.

الثالثة: وفي قوله ﷺ: (**ما أحب أن لي به حمر النعم**) يدلُّ على ما يُحقِّق من عدل ويمنع الظلم مقابل حمر النعم، وفي قوله ﷺ: (**لو دعيت به في الإسلام لأجبت**) طالما يردع الظالم عن ظلمه[٤].

---

(١) الأصفهاني، أبوالفرج: **كتاب الأغاني**، جـ٢٢ ص٧٢، ٧٣. محمد بن حبيب: ص١٨٠.

(٢) مما لا شك فيه أن الصراع السياسي بين العشائر في مكة قد أدى دوراً بارزاً في قيام هذا الحلف، وقد استمر هذا الصراع بعد وفاة النبي محمَّد ﷺ بدليل النزاع الذي قام بين الحسين بن علي بن أبي طالب من بني هاشم، والوليد بن عتبة بن أبي سفيان من بني عبد شمس، وعامل معاوية على المدينة، وتهديد الأول باللجوء إلى حلف الفضول. انظر: البغدادي: **المنمق في أخبار قريش**، ص٤٥ ـ ٤٧.

(٣) رواه ابن إسحاق في السيرة كما في ابن هشام، جـ١ ص١٥٥. قال ابن زيد بن المهاجر منقذ التميمي؛ أنه سمع طلحة بن عبيد الله بن عوف الزهري يقول: قال رسول الله ﷺ، فذكره. قلت: وهذا سند صحيح لولا أنه مرسل، ورواه الحميدي بإسناد آخر مرسلاً أيضاً كما في البداية والنهاية، جـ١ ص٢٩١، وأخرجه الإمام أحمد من حديث عبد الرحمٰن بن عوف مرفوعاً دون قوله: (**لو دعيت به في الإسلام لأجبت**)، رقم الحديث (١٦٥٤)، جـ١ ص٢٣٥، ٢٣٦.

(٤) الصلَّابي، علي محمد: **السيرة النبوية**، جـ١ ص٦٤، ٦٥.

العمل في التجارة

وشبَّ محمد ﷺ في ربوع مكة، ولم يعد رعي الغنم يدرُّ عليه ما يقيم به أوده أو يساعد عمَّه الذي أضحى فقيراً، وبخاصة بعد السنوات العجاف التي شهدتها مكة آنذاك، وعزم على العمل بالتجارة. ولما دنا من الحياة العملية انكشفت له عيوب المجتمع المكي وما يعانيه من فساد، ووقف على سوء المعاملات التجارية القائمة على الغش، وشعر بحيل التجار لزيادة ثرواتهم، والمرابين يبتعدون عن الحقيقة ليتحكَّموا بالضعفاء، كما رأى الكاذبين ما زالوا يستطيعون رفع أصواتهم ويجدون من يسمع لهم ويطيعهم؛ لأنهم يملكون الثروات الطائلة والسلطة التي لا ترحم أحداً سواهم، أما الحق فلم يكن إلا حلم بعض الناس.

ولما كان محمد ﷺ لا يملك، هو أو عمه، مالاً يتاجر به التفت إلى العمل لحساب تاجر أمين يربح له من دون سرقة ولا غش، وينافس التجار، ويكون قدوة حسنة لهم، ولكن من عسى أن يستخدمه وهو ينتقد أساليبهم في العمل التجاري؟ وشجَّعه عمه على الاتصال بتاجرة من أشراف مكة تدعى خديجة بنت خويلد، «فلو جئتها فعرضت نفسك عليها لأسرعت إليك وفضَّلتك على غيرك مما يبلغها عنك من طهارتك»[1].

وعلمت خديجة بما دار بين محمد ﷺ وبين عمه، وكان قد بلغها من صدقه وأمانته وحسن سيرته وأخلاقه الحميدة ما دفعها إلى استخدامه، فعرضت عليه أن يترأس تجارتها إلى الشام، مقابل إعطائه ضعف ما تُعطي رجلاً من قومه. وصحبه غلامها ميسرة[2].

وتحرَّكت القافلة الكبيرة في رحلتها التاريخية حتى وصلت إلى الشام. وفي إحدى المحطات، جلس محمد ﷺ تحت ظل شجرة يستريح من عناء السفر، فشاهده راهب من صومعته[3]، فاستدعى ميسرة وسأله عن الرجل الجالس تحت الشجرة، فأجابه ميسرة: «هذا رجل من قريش من أهل الحرم. فقال الراهب: ما نزل تحت هذه الشجرة قط إلا نبي»[4].

---

(١) ابن سعد: جـ١ ص١٢٩، ١٣٠. (٢) المصدر نفسه.
(٣) ذُكر أن اسم الراهب نسطورا. السهيلي: جـ١ ص٢١٢.
(٤) ابن هشام: جـ١ ص٢١٢.

زواج محمد ﷺ من خديجة

وحالف محمد ﷺ التوفيق في تجارته هذه فربح كثيراً أدهش ميسرة، وعند الحساب حصلت خديجة على أضعاف ما كانت تربحه في تجاراتها السابقة، فأجزلت لمحمد العطاء. وحدَّث ميسرة سيدته بما رأى وبما سمع أثناء الرحلة، فتمنَّت لو يخطبها، وطمعت في أن يكون النبي المنتظر الذي طالما حدَّثها عنه ابن عمها ورقة بن نوفل(١)، ثم راحت تتقرَّب منه، وقد لاحظ محمد ﷺ ذلك، وأدرك غايتها، لكن حياءه وإباءه وارتفاع سنها عن سنِّه بشكل ملحوظ(٢)، ثم الفرق الشاسع بين غناها وفقره، كل ذلك منعه من محادثتها بهذا الموضوع. وأخيراً جاءت المبادرة من خديجة نفسها، عندما أرسلت إحدى فتياتها لتفاتحه بموضوع الزواج. وهكذا قُدِّر لمحمد ﷺ أن ينتقل إلى بيت جديد، علماً بأن خديجة تزوجت قبل زواجها برسول الله ﷺ برجلين، الأول: عتيق بن عائذ التميمي، والثاني: أبو هالة التميمي واسمه هند بن زرارة.

تعقيب على زواج محمد ﷺ من خديجة

- إن الأمانة والصدق هما من صفات التاجر الناجح، وما اتصف به محمد ﷺ من الخصال الحميدة؛ دفع خديجة أن تعطيه مالها ليتاجر به، فبارك الله لها في تجارتها.

- كانت التجارة مورد رزق محمد ﷺ قبل البعثة، وقد تدرب على فنونها.

- كان زواج محمد ﷺ من خديجة ثمرة هذه العلاقة التجارية الطيبة باختيار الله لنبيِّه زوجة تؤازره، وتعيش همومه، وتُخفِّف عنه تكاليف الحياة استعداداً للتفرغ للدعوة بعد مبعثه(٣).

- شكَّلت خديجة مَثَل المرأة الطيبة التي تكمل حياة الرجل العظيم، فأصحاب الرسالات يقاسون في سبيل الخير ونشر دعوتهم، لذلك فهم بحاجة إلى من يتعهد حياتهم الخاصة ويؤانسهم ويُرفِّه عنهم، وكانت خديجة خير من تحلَّت بهذه الخصال

- يتبين من زواج محمد ﷺ بخديجة عدم اهتمامه بأسباب المتعة الجسدية ومكملاتها، فلو كان مهتماً بذلك لطمع بمن هي أصغر منها سناً(٤).

- وفي هذا الزواج ردٌّ على المستشرقين ومن تأثَّر بهم الذين يُصوِّرون النبي

---

(١) ابن هشام: جـ١ ص٢١٣.

(٢) كان عمر محمَّد ﷺ آنذاك خمساً وعشرين سنة، وعمر خديجة أربعين سنة.

(٣) الصلَّابي: جـ١ ص٦٧. (٤) البوطي: ص٨٢.

محمد ﷺ بالرجل اللاهث وراء شهوته والغارق في لذاته، فقد عاش إلى الخامسة والعشرين من عمره عفيف النفس من دون أن ينساق وراء التيارات الفاسدة التي تموج حوله، كما أنه تزوج من امرأة لها ما يقارب ضعف عمره، وكانت قد تزوجت قبله مرتين، وعاش معها من دون أن تمتد عينه إلى شيء من حوله[1]، ولم يتزوج مرة ثانية في حياتها، ولم يفكر مطلقاً بأن يضم إليها مثلها من الإناث زوجة أو أمة، ولو شاء لوجد الزوجة والكثير من الإماء من دون أن يخالف بذلك عُرفاً، وذلك تقديراً منه لجهادها ونفثها روح الصمود في نفسه، بالإضافة إلى أنه لم تكن هناك حاجة للدعوة الإسلامية؛ لأن يُعدِّد رسول الله ﷺ الزوجات علماً بأن زيجاته التالية كان لكل واحدة منها قصة.

- ليس ثمة ما يقلق هذه الزيجة إلا ألم الزوجين لهلاك الذكور من بنيهما مع ما للذكور من منزلة خاصة في بيئة تئد البنات، ثم إن العرب كانت تُعيِّر رسول الله ﷺ بهذا، وأن انقطاع أثره وانتهاء ذكره بات قريباً.

الحياة الجديدة

كان زواج محمد ﷺ من خديجة انعطافة مهمة في حياته قبل البعثة، فقد دخل بيتاً جديداً وبيئة جديدة، ولم يعد يخشى الفقر، وليس له حاجة إلى رعي الغنم أو طلب الرزق، وعنده زوجة تؤثره بالحب والحنان، ترعاه حاضراً وغائباً، وتعطيه من متع الدنيا ما يروي به عطش الشباب، كما أهدت إليه الولد[2]، بالإضافة إلى أنه يتمتع بأجمل الصفات، وله في قومه المقام المكين حتى لقَّبوه بالأمين.

وأتاحت له هذه الحياة الخاصة أن ينصرف إلى التأمل والتفكير بكل وجدانه، يتأمل في السماوات والأرض وفي وجوه الرجال والنساء، وفي حياة المكيين وما أصبحوا عليه من جحود وعناد وتكبر. وبدأ يميل إلى الصمت وإلى السكون والابتعاد عن الاختلاط مع الناس، وأن من ينظر إليه يراه كأنه مُعذَّب مضني على الرغم من توفر أسباب الراحة له.

---

(١) الصلَّابي: جـ١ ص٦٨.

(٢) أنجبت خديجة لمحمَّد ﷺ كلَّ أولاده، عدا إبراهيم. لقد وُلدت له القاسم، وبه كان يُكنى، وقد مات طفلاً، وقيل: عاش إلى أن ركب الدابة، ثم زينب ورقية وأم كلثوم وفاطمة، وعبد الله الذي لُقِّب بالطيب والطاهر. وتوفي أولاده الذكور وهم صغار السن. أما البنات، فكلهنّ أدركن الإسلام، فأسلمن وهاجرن معه.

ابن قيم الجوزية، محمد بن أبي بكر شمس الدين أبو عبد الله: **زاد المعاد في هدي خير العباد**، جـ١ ص٢٥.

واتسمت حياة محمد ﷺ في هذه المرحلة بالخروج على مجتمعه في كل جانب من جوانب حياته، في إيمانه وشعائره وعبادته، وفي قيمه ومبادئه وأحاسيسه وسلوكه. لقد نشأ في بوتقة الشرك لكنها لم تُصهره، فلم يؤمن بالأوثان، ولم يسجد لصنم بل كان كارهاً لها، وترعرع في بيئة الكر والفر ولكنها لم تَمْحُ نفسه وظلَّ خارجاً عنها ينظر من بعيد إلى صراع الجاهليين فيها، وشبَّ محباً للسلام حريصاً عليه، فلم يُرْوَ أنه آذى أحداً من الناس، وعاش في بيئة المتاع الحسي، فلم تؤثِّر فيه الشهوات، وتخطى مرحلة الشباب العاصف في بيئة الإباحية والفساد، كما عاش في بيئة الكسب الحرام والربا الفاحش، فلم يكسب من ربا ولم يخادع لمنفعة أو لكسب، وعاش في بيئة لا تعرف الرحمة والشفقة على البائس الضعيف إلا بغرض التعالي والتكبر والعصبية، فكان قلبه يفيض رحمة على العجزة والأرامل والضعفاء، وعانى الكثير من أجل التخفيف عن البائسين والمحرومين، فأنفق كثيراً من ماله في سبيل ذلك، وعاش في بيئة لا تعرف العدل وتستبيح الدماء والأموال بالقوة، فشبَّ حريصاً على العدل والإنصاف والأمانة.

كانت الهوَّة عميقة بين بيته الطاهر وبين عالمه الخارجي الواسع، كما كان هناك تناقض بينهما ما جعل حياته تتأثر وتجنح نحو الاعتزال والتأمل، لكنه قاوم قدر استطاعته العيوب المتفشية في المجتمع المكي تساعده في ذلك زوجته خديجة، وأدرك أنه لا بد من تكوين مجتمع تسوده المثل العليا ويعلوه الوفاء والإخلاص والمحبة والأمانة ورعاية حق الناس من دون تمييز، ويُعاقب السارق ويجازى من يخون الأمانة، وتُصان فيه الأسرة، وتحفظ كرامة المرأة، ولا يتحقَّق ذلك إلا من واقع تغيير شامل للعادات والتقاليد والمفاهيم الاجتماعية، ومحو كل ما هو سيء وشاذ.

وصادق محمد ﷺ آنذاك أبا بكر بن أبي قحافة، وقد جمعتهما مصلحة مشتركة في الإصلاح والتغيير.

بروز محمد ﷺ على مسرح السياسة في مكة

أُتيح لمحمد ﷺ أن يبرز في مجتمعه ويتبوأ مكانة مرموقة عندما أعادت قريش بناء الكعبة. فعندما بلغ الخامسة والثلاثين من عمره حدث أن قرَّرت قريش إعادة بناء الكعبة بعد أن تصدَّعت جدرانها نتيجة الأمطار والسيول التي كانت تجتاح مكة سنة بعد سنة، كما لم تكن مسقوفة، ما جعل محتوياتها عُرضة للسرقة. وصدف آنذاك أن جنحت سفينة رومية محملة بالأخشاب كانت متوجهة إلى الحبشة، وتحطمت بالشعيبة[1]، فكان هذا

---

(١) الشعيبة: تقع جنوبي جدة وتبعد عنها مقدار مرحلتين، وكانت مرفأ مكة ومرسى سفنها قبل جدة. الحموي: جـ٣ ص٣٥٠، ٣٥١.

الحادث مشجعاً على الإسراع بعملية الهدم وإعادة البناء، فجاءت قريش بالأخشاب، وكان في مكة نجار قبطي يُدعى باقوم كلفته قريش ببناء السقف.

وجُزِّئت الكعبة إلى أربعة أقسام وُزِّعت بين العشائر القرشية، فهدمت كل جماعة قسمها الخاص بها ثم ابتدأت عملية البناء حتى بلغت موضع الحجر الأسود، فوقع الخلاف بينها، كلٌّ منها تريد أن يكون لها شرف رفعه إلى مكانه، وتطور هذا الخلاف إلى حد الاستعداد للقتال، فاقترح عندئذ أبو أمية بن المغيرة، للخروج من هذا المأزق، أن يُحكِّموا أول من يدخل عليهم من باب الصفا، فوافق الجميع على ذلك، ويشاء الله ﷻ أن يتم هذا الوفاق على يد من اصطفاه ليكون بشيراً ونذيراً، فيكتسب شرف تحكيم قومه له في أخطر قضية واجهتهم حتى ذلك الحين.

وكان محمد ﷺ أول من دخل عليهم من الباب المذكور، فصاح القوم بصوت واحد: «هذا الأمين، رضينا، هذا محمد». وأخذ محمد ﷺ يفكر بالأمر، وتوقع القوم أن يُنصف بينهم نظراً لعدالته وعدم انحيازه، ثم طلب منهم ثوباً، فأخذ الحجر الأسود ووضعه عليه، ودعا بفرد من كل عشيرة فأمسك بطرف منه، ورفعوا جميعاً الحجرالأسود من على الأرض، فحمله ووضعه في مكانه من الجدار. ورضي القوم بهذا الحكم الذكي العادل، ولمسوا بأيديهم مدى ما يتمتع به محمد ﷺ من حب للعدل والإنصاف[1].

وهكذا حلَّ الوفاق محل الشقاق، والوئام محل الشتات، وانتهت أخطر مشكلة واجهت القرشيين في ذلك الوقت.

تعقيب على حادثة إعادة بناء الكعبة

نورد في تعقيبنا على هذه الحادثة الحقائق التالية:

ـ أمانة محمد ﷺ هي الخُلق الذي جنَّب قريشاً كارثة القتال في الحرم، فقد ارتضاه الجميع حكماً ورضوا بحكمه، فهو الأمين الذي لا يظلم ولا يحابي ولا يفسد، وهو الأمين على البيت والأرواح والدماء.

ـ مدى حكمة محمد ﷺ في تدبير الأمور، وسياسة القضايا، وقطع دابر الخصومات.

ـ مكانة محمد ﷺ الأدبية في الوسط القرشي وسموُّ منزلته بين رجال قريش، على اختلاف درجاتهم وطبقاتهم، فقد كان مُلقَّباً عندهم بالأمين، محبوباً منهم لا يرتابون في صدقه إذا حدَّث، وفي كريم أخلاقه إذا عومل، وفي عظيم إخلاصه إذا استُعين به واعتُمد عليه.

---

(١) ابن هشام: جـ١ ص٢٢١ ـ ٢٢٨. البلاذري: جـ١ ص١٠٩، ١١٠.

ـ حاز محمد ﷺ من خلال هذه الحادثة شرفان: شرف فضّ الخصومة وتجنيب القوم القتال، وشرف وضع الحجر الأسود في موضعه من البيت.

ـ يدلنا الخلاف الذي نشب بين العشائر القرشية على انحلال السلطة في المجتمع المكي، وعدم وجود شخصية قوية تفرض سيطرتها كما في الماضي.

ـ أهمية الكعبة بعامة وما جعل الله لها من شرف وقداسة في الأرض، والحجر الأسود بخاصة، وهو مقدس في ذاته وله أهمية خاصة عند عرب الجاهلية بوصفه التراث المادي الوحيد الذي ورثوه عن إبراهيم الخليل بدون أن يتبدَّل، بمعنى أن الأجيال تناقلته بذاته منذ عهد إبراهيم الخليل. من هنا كانت أهميته، وحافظ النبي ﷺ على قدسيته بتقبيله إياه[١].

تحنُّث[٢] محمد ﷺ

ازداد شعور محمد ﷺ بالعزلة قبل ثلاث سنوات من البعثة، فكان ينصرف إلى غار حراء[٣] القريب من مكة يتحنَّث فيه شهراً في السنة، ينغمس في التفكير والتأمل، ولم يكن يحفل بخروجه أحد، وإن في تصرفه هذا لغرابة شديدة، فإن الذين خرجوا من قبله على أوضاع بلادهم كانوا يتيهون في البراري يبحثون عن الحقيقة، أما هو فقد انزوى في أعالي الجبال وفي المغاور والكهوف يتأمل على طريقته الخاصة بالتعبد. ولا شك بأن اختلاءه هذا كان عملاً كسبياً مقوياً لذلك الاستعداد الفطري، ولذلك الاستعداد السلبي من العزلة، وعدم مشاركة المشركين في شيء من عباداتهم، وإنما الباعث على هذا الاختلاء والتحنث؛ اشتداد الوحشة من سوء الأوضاع والهرب منها إلى الأنس بالله تعالى والرجاء في هدايته إلى المخرج منها[٤]. إنه رأى بلده تخرقه الثارات والنزاعات القبلية، والناس غارقون في بحر من الجهل، منهمكون في ممارسة الشعائر التعبدية المنحرفة، وقد تركوا الفضائل. فكانت الصورة أمام ناظريه مليئة بالكآبة، مظلمة موحشة، لذلك كان لا بد له من عزلة يخلو فيها إلى نفسه ويتخلَّص من زحمة الحياة وشواغلها ويفرغ لموحيات

---

(١) روى مسلم في صحيحه عن عبد الله بن سرجس قال: «رأيت الأصلع، يعني عمر بن الخطاب، يُقبل الحجر ويقول: والله لأقبلك وإني أعلم أنك حجر لا تضر ولا تنفع، ولولا أني رأيت رسول الله ﷺ قبَّلك ما قبَّلتك». صحيح مسلم على شرح النووي، كتاب الحج، باب استحباب استلام الركنين اليمانيين، جـ٩ ص١٥ ـ ١٧.

(٢) التحنث: التعبد.

(٣) حراء: جبل من جبال مكة على ثلاثة أميال. الحموي: جـ٢ ص٢٣٣.

(٤) رضا، الشيخ رشيد: تفسير القرآن العظيم المعروف بتفسير المنار: جـ١١ ص١٩٣.

الكون ودلائل إبداع الله تعالى في مخلوقاته، ويحاول اكتشاف أسرار العالم العلوي عن الخلق والموت والحياة والخير والشر، حتى يجد الحقيقة الكبيرة، فيتعامل معها بإدراك وفهم ويقود العالم إلى السعادة[1]، علماً بأن الاستغراق في واقع الحياة يجعل النفس تألفه وتميل إليه.

وهكذا دبَّر الله ﷻ لمحمد ﷺ، وهو يعدُّه لحمل الأمانة الكبيرة، هذه العزلة قبل تكليفه بالرسالة بثلاث سنوات ينطلق فيها شهراً من الزمان. ولم يكن هذا التصرف من عُرف البيئة ولا من تقاليدها المألوفة آنذاك، بل كان نوعاً جديداً من السلوك تمهيداً للوصول إلى الهدف المنشود.

وكان محمد ﷺ قد قارب الأربعين من عمره عندما اشتدَّت عزلته في غار حراء، فكأنه شعر بشيء داخل نفسه يدفعه إلى إمساك زمام البشر بعامَّة، وكان الحنفاء الذين خرجوا على أوضاعهم من قبله، قد تجاوز كل واحد منهم سن الأربعين، فهل سن الأربعين تصلح للخروج على أوضاع البيئة وتغييرها؟ علماً بأن الأربعين سن طاعنة تستقيم فيها شخصية صاحبها على ما اعتاده من حياة عاش فيها، وقد يصعب على الرجل في هذه السن أن يتغير حتى لو كانت هنالك ظواهر جديدة في حياته تستدعي ذلك. وسن الأربعين هي السن التي تعترف بها قريش لفتيانها بأنهم لم يعودوا صغاراً، فيصبح من حق الواحد منهم أن يدخل دار الندوة ويكون عضواً فعّالاً في المجتمع.

لم يؤثِّر هذا السلوك الجديد الذي انتهجه محمد ﷺ على مجرى حياته العادية، فكان يحيا حياة الناس، ويعيش كالبسطاء، ويشعر بشعورهم، ينزل إلى السوق يتبضع بنفسه ما يحتاج إليه، يبتسم دائماً للصغار كلما مرَّ بهم وهم يلعبون في شوارع مكة وأزقتها على غير ما ألف هؤلاء. وكان يصحب معه ابن عمه علي بن أبي طالب في معظم الأوقات، والمعروف أنه عندما أغدقت عليه الحياة أخذ ابن عمه علياً ليربيه في بيته ليخفِّف من عيال عمه، وكان الذي دفعه للقيام بذلك حصول أزمة اقتصادية خانقة في مكة في ذلك الوقت[2].

البعثة

عندما أراد الله كرامة محمد ﷺ، ورحمة العباد به، وكان قد هيَّأه لتلقي الرسالة والوحي، فكانت الرؤيا الصادقة في النوم أول ما بُديء به، فكان لا يرى رؤيا إلّا

(١) قطب، سيد: **في ظلال القرآن**، جـ٢٩ ص١٦٦.

(٢) ابن هشام: جـ١ ص٢٨٥. الطبري: جـ٢ ص٣١٣.

جاءت مثل فلق الصبح. وكانت هذه الرؤى التي دامت ستة أشهر تكشف له الحقائق الساطعة التي سيُحيي بها العالم، كما كانت تأنيساً لنفسه واستعداداً لاستقبال الكلام الإلٰهي حتى لا يُفاجأ بجبريل وبالنبوَّة، فلا تتحملها قواه الإنسانية الضعيفة، وحُبِّب إليه الخلاء، فلم يكن شيء أحبَّ إليه من أن يخلوَ وحده[١].

ولما انتهت مدة الرؤى، وكان قد بلغ الأربعين من عمره خرج كعادته في شهر رمضان من تلك السنة إلى غار حراء، وفي هذا الجو الساكن الهادىء بعيداً عن الميول والأهواء البشرية، وفي الوقت الذي كان فيه غارقاً في تأمله؛ جاءه جبريل بأمر الله، فذُعر من رجل ظهر أمامه فجأة قائلاً له: «إقرأ. قال: ما أنا بقارىء. قال: فأخذني فغطّني[٢] حتى بلغ مني الجهد، ثم أرسلني فقال: إقرأ. قال: قلت: ما أنا بقارىء. قال: فأخذني فغطني الثانية حتى بلغ مني الجهد ثم أرسلني، فقال: إقرأ، فقلت: ما أنا بقارىء، فأخذني فغطني الثالثة حتى بلغ مني الجهد ثم أرسلني، فقال: ﴿ٱقْرَأْ بِٱسْمِ رَبِّكَ ٱلَّذِى خَلَقَ ۝ خَلَقَ ٱلْإِنسَٰنَ مِنْ عَلَقٍ ۝ ٱقْرَأْ وَرَبُّكَ ٱلْأَكْرَمُ ۝ ٱلَّذِى عَلَّمَ بِٱلْقَلَمِ ۝ عَلَّمَ ٱلْإِنسَٰنَ مَا لَمْ يَعْلَمْ﴾ [القلم/١ ـ ٥]، فرجع بها رسول الله ﷺ ترجف بوادره، حتى دخل على خديجة فقال: (**زمِّلوني**[٣] **زمِّلوني**)، فزمَّلوه حتى ذهب عنه الروع. لقد داخل محمد ﷺ الخوف والرعب مما سمع ورأى، فخشي على نفسه أن يكون قد مسَّه طائف من الجن، لذلك أسرع بالعودة إلى بيته وقد تغيَّر لونه ويرتجف فؤاده، ثم قال لخديجة: (**أي خديجة! ما لي**)؟ وأخبرها الخبر، قال: (**لقد خشيت على نفسي**)، قالت له خديجة: كلا أبشر، فوالله لا يخزيك الله أبداً، إنك لتصل الرحم، وتصدق الحديث، وتحمل الكلَّ، وتُكسب المعدوم، وتُقري الضيف، وتُعين على نوائب الحق. فانطلقت به خديجة حتى أتت ورقة بن نوفل بن أسد بن عبد العزى، وهو ابن عمها، وكان امرءاً قد تنصر في الجاهلية... وكان شيخاً قد عمي، فقالت خديجة: أي عم! اسمع من ابن أخيك. قال ورقة بن نوفل: يا ابن أخي ماذا ترى؟ فأخبره رسول الله ﷺ خبر ما رآه، فقال له ورقة: هذا الناموس الذي أُنزل على موسى ﷺ[٤]،

---

(١) ابن هشام: جـ١ ص٢٦٦. السيرة الحلبية: جـ١ ص٢٥٧.

(٢) غطَّى الشيء: ستره وأخفاه، وهو الخنق والغَمُّ.

(٣) زمَّله بثوبه أو فيه: لفَّه.

(٤) ذكر ورقة بن نوفل موسى ولم يذكر عيسى وهو أقرب، والسبب في ذلك أن ورقة كان قد تنصَّر، والنصارى لا يقولون في عيسى أنه نبي يأتيه جبريل، إنما يقولون فيه أن أقنوماً من الأقانيم الثلاثة حلَّ بناسوت المسيح واتحد به على اختلاف بينهم في ذلك الحلول، وهو أقنوم الكلمة، والكلمة عندهم عبارة عن العلم، فلذلك كان المسيح عندهم يعلم الغيب ويخبر بما في غد، فلذلك عدل عن ذكر عيسى إلى ذكر موسى لاعتقاده أو لعلمه أن جبريل كان =

يا ليتني فيها جذعاً[1]، يا ليتني أكون حياً حين يخرجك قومك. قال رسول الله ﷺ: (**أوَمخرجي هم؟**) قال ورقة: نعم، لم يأتِ رجل قط بما جئت به إلا عُودِيَ، وإن يدركني يومك أنصرك نصراً مؤزراً»[2].

الواضح أن الإنسان ليشعر حقاً بضخامة الحدث، فقد كرَّم الله بني آدم باختيار واحد منهم ليكون خاتم أنبيائه ورسله إليهم، وهذه حقيقة تتكشَّف جوانب من عظمتها عندما يقف الإنسان على حقيقة الألوهية المطلقة والأزلية، ويتصور في المقابل في ظلها حقيقة العبودية المحدودة والفانية. أما دلالة الحدث، فإن الله ﷻ ذا الفضل الواسع والرحمة السابغة يفيض من عطائه ورحمته بلا سبب ولا علة، سوى أن الفيض والعطاء بعض صفاته الذاتية الكريمة. وفي المقابل، فقد أكرم ﷻ الإنسان لدرجة لا يكاد يتصورها ولا يملك أن يشكرها حتى لو قضى عمره راكعاً ساجداً. وتتجلَّى آثار هذا الحادث في تطلع البشر إلى العيش في كنف الله ورعايته وحفظه منذ تلك اللحظة وإلى هذه اللحظة وإلى أن يرث الله الأرض ومن عليها، إنه الحادث الذي انتهى به عهد وابتدأ به عهد آخر[3].

لقد اختار الله ﷻ محمداً نبياً ورسولاً ﴿مَّا كَانَ مُحَمَّدٌ أَبَآ أَحَدٍ مِّن رِّجَالِكُمْ وَلَٰكِن رَّسُولَ ٱللَّهِ وَخَاتَمَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ ۗ وَكَانَ ٱللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمًا﴾ [الأحزاب/ ٤٠]، وهذه ميزة امتاز بها على أكثر المرسلين والأنبياء[4]، وأرسله ربه رحمة للعالمين.

وآمنت خديجة برسالة زوجها، وصدَّقت بما جاء به من عند الله، وآزرته على أمره، وكانت أول من آمن به وصدَّقه، فخفَّف الله بذلك عنه؛ لا يسمع شيئاً مما

= ينزل على موسى. والناموس هو جبريل. السهيلي: جـ١ ص٢٧٣.

(١) جذعاً: شاباً.

(٢) **صحيح مسلم على شرح النووي**: كتاب الإيمان، باب بدء الوحي، جـ٢ ص١٩٧ ـ ٢٠٤. **صحيح البخاري**: كتاب بدء الوحي، رقم الحديث (٣)، ص١٣، ١٤. ابن هشام: جـ١ ص٢٦٨ ـ ٢٧٠.

(٣) قطب: جـ٣٠ ص١٩٨ ـ ٢٠١.

(٤) لقد بعث الله ﷻ عبر الأزمان رسلاً وأنبياء، كانت وظيفة كل منهم تختلف عن الآخر. فالرسول هو صاحب الدعوة من الأنبياء المأمور بإبلاغها للناس، والنبي لا يُكلف إبلاغ الناس دعوة، إنما هو في ذاته صاحب عقيدة يتلقاها من الله، فكل رسول نبي وليس كل نبي رسولاً. والنبيُّ في اللغة وصف من النبأ وهو الخبر المفيد لما له شأن مهم، ويصح فيه الفاعل والمفعول لأنه منبيء عن الله ومنبَّأ عنه أو هو من النبوة وهي الرفعة والشرف، ويُطلق عند أهل الكتاب على الملهم الذي يُخبر بشيء من أمور الغيب، وقيل: إن معنى أصل مادته في العبرية القديمة: المتكلم بصوت جهوري مطلقاً أو في الأمور التشريعية، وهو بمفهومنا: مَنْ أوحى الله إليه وحياً، فإن أمره بتبليغه فهو رسول. رضا، رشيد: **الوحي المحمَّدي**، ص٤١.

يكرهه، وقد جزاها الله لقاء ما كافحت في سبيل زوجها ودعوته، بيتاً من قصب في الجنة لا صخب فيه ولا نصب[١].

كانت بداية الوحي إشادة بالقلم والعلم، ودورهما معروف في ترقّي الشعوب والأمم، وفي ذلك إشارة واضحة بأن من خصائص الإنسان الأولى العلم والمعرفة، وتظهر في هذه الواقعة مكانة العلم ومنزلته في الإسلام، فأول كلمة يتلقاها محمد ﷺ من الوحي الإلٰهي هي الأمر بالقراءة، وما زال الإسلام يحث على العلم ويأمر به ويرفع أهله درجات، ولا شك بأن مصدر العلم من الله ﷻ، فهو الذي علّم بالقلم، وعلّم الإنسان ما لم يعلم، ومتى انحرف الإنسان عن هذا العلم الرباني ارتدَّ وبالاً عليه، وكان سبباً في إبادته[٢].

الوحي بين اليقين والشبهة

الواضح أن الوحي هو الأساس الذي تترتب عليه العقيدة الدينية والتشريع الإسلامي، وأن الإيمان به هو المدخل الذي لا بد منه إلى اليقين بسائر ما جاء به النبي محمد ﷺ من أخبار غيبية وأوامر تشريعية، من أجل ذلك عمد المستشرقون إلى التشكيك بالإسلام من خلال معالجة موضوع الوحي في حياة محمد ﷺ، وهم يبذلون جهداً فكرياً من أجل التشكيك في حقيقته والخلط بينه وبين الإلهام وحديث الروح والصرع، وما زال هذا التشكيك اعتقاداً راسخاً في المجتمعات اليهودية والنصرانية حتى يومنا هذا.

والواقع أن طبيعة الحقائق الدينية والأخبار الغيبية في ظاهرة الوحي تأبى الخضوع للسلوك الباطني اللاشعوري الذي جهد هؤلاء المستشرقون في تصويره بأنه نتيجة أحداث مرَّت بمحمد خلال حياته أثَّرت على تفكيره وسلوكه، فأكسبته من المعارف ما أجاد به واعتقد أنه نازل من السماء أو تمثَّل رجلاً يلقنه اعتقد بأنه ملك من عالم الغيب، وإنما كان يسمع ويرى ما يعتقده في اليقظة كما كان يسمع ويرى في المنام، وتذرَّعوا ببعض الأحداث كدليل على دعواهم؛ نذكر منها:

- إن محمداً ﷺ أخذ علمه عن الراهبين بحيرا ونسطورا، علماً بأنه لم يجتمع بالأول سوى مرة واحدة عندما رافق عمه أبا طالب في تجارته إلى الشام، وكان في الثانية عشرة من عمره، كما أن الثاني لم يشاهده سوى مرة واحدة من دون أن يجتمع به، وذلك أثناء رحلة محمد ﷺ بتجارة خديجة إلى الشام، وعمره خمسة

---

(١) ابن هشام: جـ١ ص٢٧٧. البلاذري: جـ١ ص١٢٤، ١٢٥.

(٢) الصلّابي: جـ١ ص٨٣.

وعشرين عاماً، علماً بأن التعلم يحتاج إلى سنين متطاولة، والراهبان يعيشان في الشام ومحمد في الحجاز مع بُعد المسافة بينهما.

ـ لقد تأثر محمد ﷺ بأفكار ورقة بن نوفل عن قرب ظهور نبيٍّ، والواقع أن الذي صحَّ من خبر ورقة بن نوفل هو ما ذكرناه آنفاً.

ـ لقد تأثر محمد ﷺ أيضاً برحلات قريش التجارية إلى اليمن والشام واجتماع التجار بالنصارى في كلٍّ منهما، وكان هؤلاء يتحدثون عن قرب ظهور نبي من العرب. والثابت أن العرب لم يكونوا يجتمعون خلال رحلاتهم التجارية بأحد من الرهبان أو الأحبار؛ لأن ذلك لم يكن من أهداف تجارتهم ولا غاياتها.

ـ ادعى المشككون بحقيقة الوحي أنه كانت تنتاب محمد ﷺ نوبات صرع أو حمَّى، والحقيقة أن محمداً ﷺ لم يكن يفقد وعيه أثناء تحنثه، وأن من يُصاب بالصرع لا يفيق منه وقد امتلأ ذهنه بأفكار لامعة، وأقوال بليغة، ويكون سليم الجسم.

وما إلى ذلك من ذرائع تتنافى مع الحقيقة التاريخية، وتبقى ظاهرة الوحي معجزة خارقة للسنن والقوانين الطبيعية.

انقطاع الوحي

وفتر الوحي بعد ذلك، وانقطع جبريل عن محمد ﷺ، فاستوحش قلبه وحُرِم من الزاد الذي طالما كان يزداد شوقاً إليه، واستبدَّ به القلق، وحزن حزناً شديداً، وراودته أفكار بإلقاء نفسه من أعالي الجبال كي يتخلَّص من العذاب النفسي، وضاقت عليه الدنيا بما رحبت، وخشي أن يكون ربه قد قلاه، إلى أن رأى جبريل ذات يوم، وبعد ثلاث سنوات كانت شديدة الوطأة عليه، وبذلك جاء الفرج ونزل الفيض من الرحمة والطمأنينة. فعندما كان يصعد إلى الجبل في إحدى المرات؛ تبدَّى له جبريل وقال له: «يا محمد! إنك نبي الله»، فكان هذا كافياً لتسكين جأشه، إلا أن الصوت قد تردَّد مرة أخرى، فرفع رأسه إلى السماء فرأى جبريل جالساً على كرسي بين السماء والأرض، فجزع وخاف، وعاد مسرعاً إلى بيته قائلاً لأهله: (زمِّلوني، زمِّلوني، فدثِّروني وصبوا عليَّ ماء بارداً)، فأنزل الله تبارك وتعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلْمُدَّثِّرُ ❁ قُمْ فَأَنذِرْ ❁ وَرَبَّكَ فَكَبِّرْ ❁ وَثِيَابَكَ فَطَهِّرْ ❁ وَٱلرُّجْزَ فَٱهْجُرْ﴾[1] [المزمل/١ ـ ٥].

الواضح أن فترة الوحي كانت مرحلة ضرورية في حياة محمد ﷺ؛ لأنه كان قد عانى من شدته أول مرة ما يعجز عن تحمله الإنسان العادي، فهو إذن بحاجة إلى فترة هدوء يرتاح خلالها ويزداد شوقه لملاقاته مرة ثانية.

---

(١) صحيح البخاري، كتاب بدء الوحي، رقم الحديث (٤)، ص١٤.

وأبطأ جبريل مرة أخرى، فلم يتنزل بشيء مدة أيام، فحزن محمد ﷺ لهذا الانقطاع أيضاً، خشية أن يكون ذلك من غضب أو قلى له من ربه بعد أن ذاق حلاوة الاتصال به، ولا ريب في أن يكون حزنه شديداً أيضاً هذه المرة، وبخاصة بعد أن راح القرشيون يعيِّرونه في ذلك، ومن ثمَّ نزلت سورة «الضحى» بكاملها حاملة أجمل البشرى، وملقية الطمأنينة في نفسه، وأن ربه ما تركه وما قلاه وما أخلاه من رحمته ورعايته وإيوائه(١).

وأدرك النبيُّ محمد ﷺ بعد نزول سورة «المدثر» أنه لم يعد هناك نوم، بل تكليف ثقيل وجهاد طويل، ونداء يلاحقه ولا يدعه ينام، فنهض يجاهد، وظل أكثر من عشرين عاماً لم يسترح خلالها، يحمل على عاتقه العبء الثقيل، عبء الأمانة والحياة والعقيدة والكفاح، فابتدأت بذلك مرحلة جديدة أخرى في حياته.

تعريف الوحي وأنواعه

لم يكن محمد ﷺ أول نبي خاطب الناس بوساطة الوحي، وحدَّثهم بحديث السماء، فمن لدن نوح اصطفى الله ﷻ أنبياء ورسلاً كلهم تلقَّى الوحي منه، فما جاؤوا بشيء من عندهم، وأرسلهم برسالة واحدة وبهدي واحد، للإنذار والتبشير. وكانت ظاهرة الوحي متماثلة عندهم جميعاً(٢)، ولم يكن محمد ﷺ بدعاً من الرسل ولا أولهم، ولكنه خاتم الرسل والأنبياء المكمل لهدايتهم.

وأصل الوحي في اللغة: الإعلام الخفي السريع بالإشارة والكتابة والرسالة والكلام الخفي. والوحي في الشرع هو الإعلام بشرع الله؛ أي: ما يوحيه الله إلى أنبيائه إما عن طريق الإلهام أو الرؤيا، أو أن يُنزِّل كتاباً أو صحفاً، وهو كلام الله المنزَّل على النبي ﷺ بواسطة أمين الوحي جبريل بطريقة تُفيد النبي أو الرسول العلم اليقيني القاطع بما أعلمه الله به. ومعنى السريع أن المعلومات المتلقَّاة لا تكون نتيجة لمقدمات تُبنى عليها تلك النتيجة، بل هي أشبه بالعلم الضروري الذي لا يتوقف على نظر واستدلال، وهو إيحاء إلى رسله وأنبيائه وإعلامهم بحكم شرعي ونحوه، إنه عرفان يجده الشخص من نفسه مع اليقين بأنه من الله.

والوحي والكتابة والرسالة والإلهام والإشارة والكلام الخفي، وكل ما يُلقى إلى الغير، ويقال:

- وحيت إليه الكلام وأوحيت، ووحى وحياً وأوحى؛ أي: كتب، والوحي: المكتوب والكتاب أيضاً.

---

(١) تفسير الطبري: جـ٣٠ ص١٤٨.

(٢) انظر: سورة النساء، الآية ١٦٣.

- وحى إليه وأوحى، كلَّمه بكلام يخفيه عن غيره.
- ومى إليه وأومى: أومأ. وأومى إليه؛ أي: أشار إليه.
- أوحيت إليه؛ أي: كلمته، ومنها ما يوحيه الله إلى رسله وأنبيائه، وسُمِّي وحياً لأن الملك أسرَّه على الخلق وخصَّ به الرسول أو النبي المبعوث.
- أوحى الرجل: إذا بعث برسول ثقة إلى عبد من عبيده ثقة، وأوحى أيضاً: إذا كلَّم عبده بلا رسول.

والإلهام وجدان تستيقنه النفس وتنساق إليه إلى ما طلب من غير شعور منها من أين يأتي، وهو أشبه بوجدان الجوع والعطش والحزن والسرور؛ أي أنه وجدان تعرفه النفس معرفة دون اليقين(1).

ويشمل هذا التعريف أنواع الوحي الثلاثة كما في قوله ﷻ: ﴿وَمَا كَانَ لِبَشَرٍ أَن يُكَلِّمَهُ ٱللَّهُ إِلَّا وَحْيًا أَوْ مِن وَرَآيِ حِجَابٍ أَوْ يُرْسِلَ رَسُولًا فَيُوحِىَ بِإِذْنِهِۦ مَا يَشَآءُ إِنَّهُۥ عَلِىٌّ حَكِيمٌ﴾ [الشورى/ ٥١].

فالوحي هنا إلقاء المعنى في القلب، وقد يُعبَّر عنه بالنفث في الروع، والكلام من وراء حجاب هو أن يسمع كلام الله من حيث لا يراه، كما سمع موسى النداء من وراء الشجرة، أما إرسال الرسول، فهو ما يلقيه ملك الوحي المرسل من الله إلى رسوله، فيراه متمثلاً بصورة رجل أو غير متمثل، ويسمعه منه أو يعيه بقلبه.

والإلهام على أنواع، هي:

- الإلهام الرمزي، وهو الإشارة السريعة لبعض الحواس كما في قوله ﷻ عن زكريا: ﴿فَخَرَجَ عَلَىٰ قَوْمِهِۦ مِنَ ٱلْمِحْرَابِ فَأَوْحَىٰٓ إِلَيْهِمْ أَن سَبِّحُوا۟ بُكْرَةً وَعَشِيًّا﴾ [مريم/ ١١].
- الإلهام الغريزي، كالوحي إلى النحل حيث قال تبارك وتعالى: ﴿وَأَوْحَىٰ رَبُّكَ إِلَى ٱلنَّحْلِ أَنِ ٱتَّخِذِى مِنَ ٱلْجِبَالِ بُيُوتًا وَمِنَ ٱلشَّجَرِ وَمِمَّا يَعْرِشُونَ ۝ ثُمَّ كُلِى مِن كُلِّ ٱلثَّمَرَٰتِ فَٱسْلُكِى سُبُلَ رَبِّكِ ذُلُلًا﴾ [النحل/ ٦٨، ٦٩].
- الإلهام الفطري، كالوحي إلى أُم موسى، فقال تبارك وتعالى: ﴿وَأَوْحَيْنَآ إِلَىٰٓ أُمِّ مُوسَىٰٓ أَنْ أَرْضِعِيهِ فَإِذَا خِفْتِ عَلَيْهِ فَأَلْقِيهِ فِى ٱلْيَمِّ وَلَا تَخَافِى وَلَا تَحْزَنِىٓ إِنَّا رَآدُّوهُ إِلَيْكِ وَجَاعِلُوهُ مِنَ ٱلْمُرْسَلِينَ﴾ [القصص/ ٧].
- ومن الإلهام ما هو وسوسة الشيطان، كما في قوله تعالى: ﴿وَلَا تَأْكُلُوا۟ مِمَّا لَمْ يُذْكَرِ ٱسْمُ ٱللَّهِ عَلَيْهِ وَإِنَّهُۥ لَفِسْقٌ وَإِنَّ ٱلشَّيَٰطِينَ لَيُوحُونَ إِلَىٰٓ أَوْلِيَآئِهِمْ لِيُجَٰدِلُوكُمْ وَإِنْ أَطَعْتُمُوهُمْ

---

(1) انظر: عبده، الشيخ محمد: **رسالة التوحيد**، ص١٠٨. الخضري، محمد: **تاريخ الأمم الإسلامية**، جـ١ ص٦٧. الصالح، الشيخ صبحي: **مباحث في علوم القرآن**، ص٢٦. رضا، الشيخ رشيد: **الوحي المحمَّدي**، ص٣٠، ٣١.

﴿إِنَّكُمْ لَمُشْرِكُونَ﴾ [الأنعام/ ١٢١]، وقال أيضاً: ﴿وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَا لِكُلِّ نَبِيٍّ عَدُوًّا شَيَٰطِينَ ٱلْإِنسِ وَٱلْجِنِّ يُوحِي بَعْضُهُمْ إِلَىٰ بَعْضٍ زُخْرُفَ ٱلْقَوْلِ غُرُورًا ۚ وَلَوْ شَآءَ رَبُّكَ مَا فَعَلُوهُ ۖ فَذَرْهُمْ وَمَا يَفْتَرُونَ﴾ [الأنعام/ ١١٢].

ـ والوحي إلى الملائكة بما يأمرهم بفعله، كقوله تبارك وتعالى: ﴿إِذْ يُوحِي رَبُّكَ إِلَى ٱلْمَلَٰٓئِكَةِ أَنِّي مَعَكُمْ فَثَبِّتُوا۟ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ۚ سَأُلْقِي فِي قُلُوبِ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ٱلرُّعْبَ فَٱضْرِبُوا۟ فَوْقَ ٱلْأَعْنَاقِ وَٱضْرِبُوا۟ مِنْهُمْ كُلَّ بَنَانٍ﴾ [الأنفال/ ١٢].

وللوحي معنى عام يُطلق على حالات عدة، كما وردت عن النبي ﷺ، وهي:

ـ الرؤيا الصادقة، وكانت مبدأ وحيه.

ـ ما كان يلقيه الملك في روعه وقلبه من غير أن يراه.

ـ أن يتمثل له الملك رجلاً فيخاطبه حتى يعي ما يقول.

ـ أن يأتيه مثل صلصلة الجرس وهو أشده عليه، حتى أن جبينه ليتصبَّب عرقاً في اليوم الشديد البرد.

ـ أن يتراءى له جبريل في صورته التي خلقه الله عليها.

ـ أن يكلمه من وراء حجاب إما في اليقظة، كما في ليلة الإسراء والمعراج، وهو فوق السماوات، وقد فرض عليه الصلوات الخمس وغيرها، أو في المنام[1].

---

(١) صحيح البخاري: كتاب بدء الوحي، رقم الحديث (٢)، ص١٣.

[illegible]

... من أو يجزيه بقلبه.

... كما في قوله تعالى ...

... (مريم/ ...).

... وتعالى: ...

[illegible]

... وتعالى: ...

[illegible]

... تعالى: ...

[illegible]

[illegible]

الفصل الثاني

الجهر بالدعوة وآثاره

السابقون الأولون

ابتدأت الدعوة إلى الدين الجديد سراً في بادىء الأمر، حتى لا ينكشف أمرها ومحمد ﷺ ليِّن العريكة بعد، فأخذ ﷺ يدعو من يثق بهم من أهله وأقاربه وجيرانه وأقرانه ما أدى إلى انتشارها بين أفراد قلائل، نذكر منهم: زوجته، خديجة بنت خويلد، وعلي بن أبي طالب، ومولاه زيد بن حارثة، وصديقه أبو بكر بن أبي قحافة، والزبير بن العوام[(١)]، وعثمان بن عفان، وعبد الرحمٰن بن عوف، وسعد بن أبي وقاص، وطلحة بن عبيد الله، وأبو عبيدة عامر بن الجراح، وأبو سلمة عبد الله بن عبد الأسد بن هلال، والأرقم بن أبي الأرقم، وعبيدة بن الحارث، وعثمان بن مطعون، وسعيد بن زيد، وهو ابن عم عمر بن الخطاب، وزوجته فاطمة بنت الخطاب، وعبد الله بن مسعود، وأسماء وعائشة، ابنتا أبي بكر، وخباب بن الأرت حليف بني زهرة، وعمير بن أبي وقاص أخو سعد، ومسعود بن القاري، وسليط بن عمرو وأخوه حاطب وامرأته أسماء، وحاطب بن الحارث وامرأته فاطمة بنت المجلَّل، وأخوه حطاب وامرأته رملة بنت أبي عوف، والنحام واسمه نُعيم بن عبد الله بن أسيد، وخالد بن سعيد بن العاص وامرأته أمينة، وخالد وعامر وعاقل وإياس بنو البكير بن عبد ياليل، وعمار بن ياسر حليف بني مخزوم، ووالده ياسر بن عامر وأمه سمية بنت خياط، وصهيب بن سنان، حليف بني زهرة، وحاطب بن عمرو بن عبد شمس، وواقد بن عبد الله بن عبد مناف، وبلال بن رباح، مولى أبي بكر، وغيرهم[(٢)].

وللوقوف على رد الفعل الأولي للدعوة يمكن تقسيم الرعيل الأول هذا إلى ثلاث فئات، من حيث المكانة الاجتماعية:

الأولى: تضم فتيان العائلات الكبيرة التي تتمتع باحترام واسع في المجتمع

(١) كان الزبير لا يزال صغيراً وعمره ثماني سنوات أو ستة عشر سنة.

(٢) ابن هشام: جـ١ ص٢٧٧، ٢٨٤، ٢٨٧ ـ ٢٩٤.

المكي، ويمثل هذه الفئة خالد بن سعيد وغيره ممن هم في مثل مركزه، وهذه العائلات هي الأكثر تأثيراً في المجتمع بحكم مكانة العشائر التي تنتمي إليها، علماً بأن الذين حملوا لواء المعارضة ضد الدعوة الإسلامية ينتمون إلى هذه الفئة.

الثانية: تضم فتيان العائلات المتوسطة التي تنتمي إلى العشائر الضعيفة نسبياً، كبني الحارث بن فهر وبني عمير، ولا يوجد فارق كبير بين الفئتين.

الثالثة: تضم الأشخاص الذين لا يرتبطون بأيٍّ من العشائر في المجتمع، إنهم خارج دائرة النظام العشائري، ويُلحقون اسمياً ببعض العشائر، والسبب في ذلك يعود إلى أمرين: إما أن العشيرة لا تعترف بهم كحلفاء لها، كما في حال خبَّاب بن الأرت؛ وإما أن العشيرة تكون ضعيفة لا تستطيع حمايتهم، كما في حال بني تيم. ويندرج ضمن هذه الفئة ما يُسمَّى بالمستضعفين، كصهيب الرومي وعمار بن ياسر وبلال الحبشي، ويمكن إطلاق هذه الصفة بشكل عام على الأشخاص من الفئتين الثانية والثالثة.

كانت الكثرة بين المسلمين الأوائل من الفقراء والمستضعفين الذين أقبلوا على الدين الجديد بشغف نظراً لمبادئه القريبة من الفطرة البشرية، وقد بعثت الأمل في نفوسهم للتحرر من العبودية؛ لأنها تدعو إلى المساواة بين الناس، وجعلت لهم حقاً معلوماً في مال الغني.

وكان النبي محمد ﷺ يستقبل أتباعه القلائل ببشاشة ويُسوِّي بينهم في التعامل، ويقف منهم جميعاً موقف الأخ الناصح. وكان هؤلاء بدورهم نموذجاً وقدوة للاحقين والأساس المتين الذي قام عليه صرح الإسلام، والدعائم التي استحكم عليها بناؤه.

استمر محمد ﷺ يدعو إلى الإسلام سراً كل من يثق به، وأصحابه يدعون بدعوته، فيستجيب لهم من هدى الله قلبه، فيزداد بذلك عدد المسلمين يوماً بعد يوم. وتسربت أنباء الدعوة إلى النوادي القرشية، ومن ثمَّ تناقلها القرشيون فيما بينهم، ولكنهم لم يعيروها التفاتة جدية؛ لأنها لم تكن تشكل خطراً عليهم بعد، ومع ذلك راحوا يراقبون تطورها مع مرور الأيام، وبخاصة أنهم شعروا بأن عدداً غير قليل من التجار والأغنياء آمنوا بها، إلى جانب أعداد كثيرة من الفقراء والمستضعفين.

وكان النبي ﷺ وهو يُعلِّم أتباعه مبادىء الدين الجديد، يُحذرهم من الجهر بها خشية رد الفعل القرشي، وهم لمَّا يزالوا ضعافاً، وكان يستخفي وإياهم في أحد شعاب مكة يعبدون الله سراً كلما خرجوا للصلاة[1].

---

(١) فُرضت الصلاة على رسول الله ﷺ في أول الدعوة وقبل الإسراء والمعراج ركعتين قبل غروب الشمس وركعتين قبل طلوعها. ابن هشام: جـ١ ص٢٨٢، ٢٨٣. السهيلي: جـ١ ص٢٨٢.

بعد أن جهَّز ﷻ نبيه وسلَّحه والمسلمين الذين آمنوا بدعوته بالإيمان الكامل، ورسم لهم المنهج الذي يجب أن ينهجوه؛ أمره بأن يصدع بما يؤمر به، وأن يعرض عن المشركين، فهو سيكفيه ظلمهم وعنادهم وتكذيبهم وسيساعده في تحمل أعباء الدعوة، وأمره أن يبدأ بعشيرته الأقربين ﴿وَأَنذِرْ عَشِيرَتَكَ ٱلْأَقْرَبِينَ ۞ وَٱخْفِضْ جَنَاحَكَ لِمَنِ ٱتَّبَعَكَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ [الشعراء/ ٢١٤، ٢١٥].

استجاب النبي محمد ﷺ لأمر ربه بعد ثلاث سنوات من السرية، فدعا بني عبد المطلب إلى طعام أعدَّه لهم في داره، فاستغل عمه أبو لهب هذا الاجتماع ليردعه أمام عشيرته، فلم يتمكَّن ﷺ من تحقيق غايته، واضطر إلى دعوتهم مرة ثانية، فأخبرهم بأنه رسول الله إليهم بخاصة، وإلى الناس بعامة، فعارضه عمه أبو لهب، وردَّ عليه أخوه عبد المطلب بحسم الموقف «والله لنمنعنَّه ما بقينا»، ثم التفت إلى ابن أخيه وخاطبه قائلاً: «فامض لما أُمرت به، فوالله لا أزال أحوطك وأمنعك، غير أن نفسي لا تطاوعني على فراق دين عبد المطلب»[1].

لم ييأس النبي محمد ﷺ من خذلان عشيرته له، فتوجَّه صوب المجتمع القرشي، فصعد على الصفا على عادة كل شخص يريد أن يقضي أمراً، ونادى عشائر قريش، فأسرع القرشيون الخطى ومن لم يستطع أرسل نائباً عنه، ودُهشوا عندما شاهدوا صاحب الصوت، وانتظروا ما سوف يعرض عليهم محمد ﷺ قبل أن يخاطبهم قائلاً: (**أرأيتم لو أخبرتكم بأن خيلاً بسفح الجبل تريد أن تغير عليكم، أكنتم مصدقي؟**) وأجابوا بصوت واحد: نعم، ما جربنا عليك كذباً قط. قال: (**فإني نذير لكم بين يدي عذاب شديد**)[2]. فعارضه عمه أبو لهب أيضاً، وقال له بحنق: «تباً لك يا محمد، ألهذا جمعتنا؟». فارتُجَّ عليه ونظر إلى عمه نظرة المستضعف الذي يرجو أن يكف عنه ليستطيع أن يخطب بالناس، ويدعوهم إلى الإسلام.

وجاء الرد من عند الله يبين مصير أبي لهب وامرأته التي ما فتئت تردُّ الناس عن دعوة الحق وتزرع الشوك في طريقه، وتُحرِّض العبيد والجواري أن يقذفوه بالنفايات، ونزلت سورة مُخصَّصة بحقهما: ﴿تَبَّتْ يَدَآ أَبِي لَهَبٍ وَتَبَّ ۞ مَآ أَغْنَىٰ عَنْهُ مَالُهُۥ وَمَا كَسَبَ ۞ سَيَصْلَىٰ نَارًا ذَاتَ لَهَبٍ ۞ وَٱمْرَأَتُهُۥ حَمَّالَةَ ٱلْحَطَبِ ۞ فِي جِيدِهَا حَبْلٌ مِّن مَّسَدٍ﴾ [سورة المسد]، وَصَمَتْ سمعتهما سائر حياتهما وإلى يوم القيامة. وقد أثار هذا التصوير المثير للسخرية لامرأة معجبة بنفسها مدلَّلة بحسبها ونسبها، غضبها، فراحت تهرول تُفتِّش عن محمد حتى تقتص منه، لكن الله أخذ ببصرها فلم تره[3].

---

(١) البلاذري: جـ١ ص١٣٤، ١٣٥. (٢) المصدر نفسه: ١٣٦، ١٣٧.

(٣) ابن هشام: جـ٢ ص١٠٤.

ولجأ أبو لهب إلى سلاح الأسرة يرفعه في وجه محمد ﷺ، فقد أمر ابنيه عتبة وعتيبة بطلاق زوجتيهما ابنتي محمد، رقية وأم كلثوم، علماً بأن عتيبة لم يكن قد دخل على أم كلثوم[1]، كما لازمه ليصدَّ الناس عن دعوته، ويعترضه في الطريق ويُغلظ له القول ويُسفهه أمام من يدعوهم إلى الدين الجديد[2].

وسلك النبي محمد ﷺ نهجاً جديداً بعد معارضة عشيرته بخاصة، وقريش بعامة، فراح يدعو كل من يلتقيه من سكان مكة على اختلاف قبائلهم وعشائرهم وبلدانهم، ويقصد الناس في أنديتهم ومجامعهم ومحافلهم وفي المواسم ومواقف الحج، ويدعو من يلتقيه من حُرٍّ وعبد وقوي وضعيف وغني وفقير، فعارضه قومه من قريش، ووقفوا في وجهه ولسان حالهم يقول: كيف يجرؤ على مطالبة أفذاذهم بالإيمان بدعوة ابتدعها وعقيدة يقول إنها من السماء وهو ليس كبيرهم ولا زعيم عشيرته. وكبر عليهم أن يدعوهم إلى إله لا يسمعونه ولا يُبصرونه، وما فضله عليهم حتى يُكلَّم من السماء من بينهم؟ ثم راح يهاجم آلهتهم ويُسَفِّه أحلامهم ويدعوهم إلى ترك عبادة الأصنام وإلى الكفر بما عبد آباؤهم الأولون، ويصف آباءهم بعدم التعقل، وجاء ذلك رداً على قولهم بأن عبادة الأصنام هي تقاليد آبائهم وأجدادهم، فأنكروا ذلك منه، وقرَّروا خلافه ومهاجمته.

الواقع أن النبي محمد ﷺ فاجأ قومه بالدعوة إلى الإسلام، وإلى عبادة إلٰه واحد لم يكونوا يتوقعونها أو يألفونها، نجد ذلك واضحاً في ردِّ عمه أبي لهب، ثم اتفاق المشركين كافة على معاداته، ثم إن الأمر الرباني بإنذار عشيرته الأقربين، قبل أن يأمره بعموم التبليغ ﴿فَٱصۡدَعۡ بِمَا تُؤۡمَرُ وَأَعۡرِضۡ عَنِ ٱلۡمُشۡرِكِينَ﴾ مرده إلى درجات المسؤولية، فالشخص مسؤول عن نفسه أولاً ثم عن أهله وذوي قرباه، ثم عن قومه وسائر الناس. وبالنتيجة كان النبي محمد ﷺ يتحمل المسؤولية تجاه نفسه بوصف كونه مُكلَّفاً، ويتحملها تجاه أسرته وأهله بوصف كونه رب أسرة وذا قربى، ويتحملها تجاه قومه والناس جميعاً بوصف كونه نبياً ورسولاً مرسلاً من الله ﷻ.

وعاب النبي ﷺ على قومه أن يكونوا أسرى التقاليد الموروثة عن الآباء والأجداد، من دون تفكُّر منهم في مدى صلاحها أو فسادها، ودعاهم إلى تحرير عقولهم من أسر الاتِّباع الأعمى وعصبية التقاليد التي لا تقوم على شيء من أساس الفكر والمنطق، وهذا دليل على أن أساس هذا الدين، بما فيه من عقائد وأحكام، إنما هو مبني على العقل والمنطق[3]، باستثناء ما هو في حكم المعجزات.

---

(١) طبقات ابن سعد: جـ٨ ص٣٧ ـ ٣٩. (٢) ابن هشام: جـ٢ ص١٣٣.

(٣) البوطي: ص١١٢ ـ ١١٧.

وتوجَّه القوم إلى أبي طالب لينصفهم من ابن أخيه، لكن هذا الشيخ أصرَّ على حمايته والدفاع عنه، وسانده بنو هاشم وبنو المطلب باستثناء عمه أبي لهب. وبهذا الموقف من جانب الأسرتين يكون أبو طالب قد اعتمد على أساس متين وقاعدة صلبة للوقوف في وجه قريش(١).

وجاء الموسم في تلك السنة من تاريخ الدعوة، فاجتمع المعارضون من قريش للتداول بشأن الخطوات التي من شأنها صد الأبواب في وجه محمد ﷺ، ومنعه من الاتصال بالحجاج، واقترح الوليد بن المغيرة على المجتمعين أن ينعتوه بالساحر، فهو يُفرِّق بين المرء وأبيه، وبين المرء وأخيه، وبين المرء وزوجته، وبين المرء وعشيرته، وأن يجلسوا بسبيل الناس لا يمر بهم أحد إلا حذَّروه منه(٢).

ونتيجة لتصرفاته المعادية وجَّه الله إليه [للوليد بن عتبة] تهديداً مباشراً وتولى حربه، فقال تعالى: ﴿ذَرْنِي وَمَنْ خَلَقْتُ وَحِيدًا * وَجَعَلْتُ لَهُ مَالًا مَّمْدُودًا * وَبَنِينَ شُهُودًا * وَمَهَّدتُّ لَهُ تَمْهِيدًا * ثُمَّ يَطْمَعُ أَنْ أَزِيدَ * كَلَّآ إِنَّهُ كَانَ لِآيَاتِنَا عَنِيدًا * سَأُرْهِقُهُ صَعُودًا * إِنَّهُ فَكَّرَ وَقَدَّرَ * فَقُتِلَ كَيْفَ قَدَّرَ * ثُمَّ قُتِلَ كَيْفَ قَدَّرَ * ثُمَّ نَظَرَ * ثُمَّ عَبَسَ وَبَسَرَ * ثُمَّ أَدْبَرَ وَاسْتَكْبَرَ * فَقَالَ إِنْ هَٰذَآ إِلَّا سِحْرٌ يُؤْثَرُ * إِنْ هَٰذَآ إِلَّا قَوْلُ الْبَشَرِ * سَأُصْلِيهِ سَقَرَ * وَمَآ أَدْرَاكَ مَا سَقَرُ * لَا تُبْقِي وَلَا تَذَرُ * لَوَّاحَةٌ لِّلْبَشَرِ * عَلَيْهَا تِسْعَةَ عَشَرَ﴾ [المدثر/١١ ـ ٣٠].

أهداف الموالين لمحمد ﷺ والمعارضين له

عندما أعلن محمد ﷺ أهدافه وجهر بدعوته، ودعا قومه إلى الإيمان بها؛ قامت المعارضة في وجهه، وتحرَّك زعماء قريش تبعاً لمصالحهم، وساندتهم عشائرهم. وإذا عدنا قليلاً إلى الوراء نرى أن أسباباً سياسية واقتصادية دفعت بالعشائر القرشية آنذاك إلى الانقسام وإقامة التحالفات والتكتلات السياسية، فنشأ حلف الفضول من بني هاشم وبني المطلب وبني زهرة وبني تيم وبني أسد، الذين انسحبوا فيما بعد وحلَّ محلهم بنو عدي، وفي المقابل قامت تكتلات معارضة لهذا الحلف تزعَّمها بنو عبد شمس وبنو مخزوم، وقد ربطتهما مصالح تجارية مشتركة، وشكَّلوا القوة المالية في مكة، فهم الأغنياء الذين هاجمهم النبي محمد ﷺ.

وهكذا استمرت العشائر القرشية في تناحرها منذ أيام الجاهلية، وزاد من حدَّتها بروز قوة جديدة في ميدان الصراع هي قوة محمد ﷺ، الذي تمسك به بنو هاشم وبنو المطلب مدفوعين بالأسباب التالية:

(١) ابن هشام: جـ٢ ص٤ ـ ٩.

(٢) البلاذري: جـ١ ص١٥٠، ١٥١.

ـ كان هؤلاء يأملون بأن يستعيدوا بواسطته ما فقدوه من قوة وسلطان وزعامة بعد موت هاشم وعبد مناف.

ـ أدَّت عصبية القرابة والدم دوراً بارزاً في ذلك، وهذه إحدى صفات القربى في العصر الجاهلي.

ـ إن عشيرة بني هاشم كانت آخذة في التدهور والضعف، وأن في تجاهل أفضل فتيانها والتفريط به كان سيُفقدها مزيداً من القوة ويجعلها أكثر ضعفاً، فتفقد بذلك ما تبقَّى لها من مكانة بين عشائر قريش.

وتزعم بنو عبد شمس وبنو مخزوم، ومَنْ والاهما من العشائر التي وقفت ضد حلف الفضول في الماضي، المعارِضة، في وجه محمد ﷺ ومن سانده، مدفوعين بالأسباب التالية:

ـ إن محمداً ﷺ قد هاجم عبادة الأصنام والشعائر الدينية الموروثة، وأن قدسية مكة مستمدة من قدسية الأصنام، فإذا سادت تعاليمه وأُزيلت الأصنام، فستزول قدسية مكة وتهجرهم العرب، وبذلك تضمحل مكانتهم وتُدمَّر تجارتهم. وينطبق هذا السبب على الطائف أيضاً نظراً لما كان للأغنياء في مكة من مصالح اقتصادية فيها بسبب وجود اللات.

ـ إن انتشار تعاليم الإسلام ستُمكِّن محمداً من السيطرة على المجتمع في مكة، وبذلك يُعيد لبني هاشم وبني المطلب مكانتهم السياسية والاقتصادية التي تراجعت، ويفقد المعارضون بذلك امتيازاتهم السياسية والاقتصادية التي اكتسبوها على حساب حلف الفضول. ويدل الحوار الذي جرى بين الأخنس بن شريق وأبي جهل عقب استماعهما سراً مع أبي سفيان بن حرب إلى قراءة القرآن أثناء صلاة محمد ﷺ ليلاً على هذا التوجه، فقد سأل الأخنس أبا جهل عن رأيه فيما سمع، فقال: «تنازعنا نحن وبنو عبد مناف الشرف، أطعموا فأطعمنا، وحملوا فحملنا، وأعطوا فأعطينا، حتى إذا تحاذينا على الركب وكنا كفرسي رهان قالوا: منا نبي يأتيه الوحي من السماء، فمتى ندرك مثل هذه، والله لا نؤمن به أبداً ولا نصدقه»[(١)].

ـ إن العادات القبلية تُحتِّم أن يترأس، غالباً، رئاسة القبيلة أكبر أفرادها سناً؛ لأنه يكون قد عركته الحياة، واكتسب حكمة وتروياً واحتراماً، ولم يتسن لمحمد ﷺ أن ترأس عشيرته ولا ساد قومه، فكيف ستُدار شؤون مكة إن هو تسلَّم زمام الأمور فيها؟ وكيف يقبل الزعماء من مختلف العشائر ممن هم أسنَّ منه وأعظم مكانة، أن يتلقوا التعليمات منه؟ لقد صعب عليهم أن يروا أحدثهم سناً يتمتع بأرفع مركز في مكَّة.

---

(١) ابن هشام: جـ٢ ص٦٦، ٦٧.

ـ إن تعاليم محمد ﷺ الاجتماعية والأخلاقية تتعارض تماماً مع القيم الجاهلية السائدة ومع ما كان منتشراً في مكة من مبادىء فاسدة، كالربا الفاحش والتسلط واستغلال الفقراء والضعفاء والعبيد والأجراء، فإذا انتشرت تعاليمه في التربة المكية فستلاقي، ولا شك، عطفاً من هؤلاء، فيسود بهم، وهذا من شأنه رفع مكانته ومكانة عشيرته.

ـ لقد حسد المعارضون محمداً ﷺ؛ لأن الله اختاره رسولاً ونبياً من بينهم، وهو ليس كبير قومه ولا يملك المال الوافر الذي يُمكِّنه من التأثير في حياة المجتمع، كما أنه لا يملك الأرزاق ولا العبيد ولا الأجراء ولا أي شيء.

أساليب القرشيين في محاربة الدعوة

لقد حزَّ في نفوس القرشيين ما حقَّقه محمد ﷺ من النصر في دعوته، وكبر عليهم ما يرون من دخول الناس تباعاً في دينه، فأخذتهم العزة، واشتدت بهم العصبية، وغضبوا لآلهتهم التي أُهينت ولكرامتهم التي ذُلَّت، فقرَّروا مناهضته والتشهير به بأساليب متنوعة، منها:

اعترضوا على الوحدانية: لقد عارض القرشيون فكرة التوحيد التي حملتها الدعوة في طياتها لأنها تُهدِّد وضعهم الاجتماعي وتمس امتيازاتهم التي اكتسبوها بوجود الكعبة والأصنام، وإلا فقد كانوا أذكى من أن يخفى عليهم ما في عقائدهم من وهن وما في الإسلام من تماسك، ولا يغيب عنهم ما في القرآن الكريم من سمو وامتياز، وهم الذين لم يكونوا يملكون أنفسهم عن الاستماع إليه والتأثر به، لكنهم كانوا يجاهدون ألا ترقَّ له قلوبهم ويمانعون فطرتهم أن تتأثر به، إنه الحسد الذي يدعو إلى العناد والمكابرة والشقاق. وعندما عرض الرسول ﷺ على القرشيين أن يؤمنوا بإله واحد، وهم لم يعتادوا على ذلك عجبوا أن جاءهم منذر منهم ينهاهم عن عبادة الأصنام ويدعوهم إلى عبادة الله، وتعجَّبوا كيف يجمع الآلهة في إله واحد، إنه لا شك ساحر، إنه كذاب اختلق هذه العقيدة، لذلك ينبغي محاربتها لأنها بدعة لا أصل لها في الملل السابقة: ﴿أَكَانَ لِلنَّاسِ عَجَبًا أَنْ أَوْحَيْنَآ إِلَىٰ رَجُلٍ مِّنْهُمْ أَنْ أَنذِرِ ٱلنَّاسَ وَبَشِّرِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَنَّ لَهُمْ قَدَمَ صِدْقٍ عِندَ رَبِّهِمْ ۗ قَالَ ٱلْكَٰفِرُونَ إِنَّ هَٰذَا لَسَٰحِرٌ مُّبِينٌ﴾ [يونس/ ٢]، ﴿وَعَجِبُوٓاْ أَن جَآءَهُم مُّنذِرٌ مِّنْهُمْ ۖ وَقَالَ ٱلْكَٰفِرُونَ هَٰذَا سَٰحِرٌ كَذَّابٌ ۞ أَجَعَلَ ٱلْءَالِهَةَ إِلَٰهًا وَٰحِدًا ۖ إِنَّ هَٰذَا لَشَىْءٌ عُجَابٌ﴾ [ص/ ٤، ٥].

كفروا باليوم الآخر: وأنكروا بعث الموتى، وقابلوا دعوة رسول الله ﷺ لهم بالإيمان باليوم الآخر بالسخرية والتكذيب، وأن هذه القضية أساطير الأولين. ﴿وَقَالُوٓاْ إِنْ هَٰذَآ إِلَّا سِحْرٌ مُّبِينٌ ۞ أَءِذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَابًا وَعِظَٰمًا أَءِنَّا لَمَبْعُوثُونَ ۞ أَوَ ءَابَآؤُنَا ٱلْأَوَّلُونَ﴾ [الصافات/ ١٥ ـ ١٧]، ﴿وَقَالُوٓاْ أَءِذَا كُنَّا عِظَٰمًا وَرُفَٰتًا أَءِنَّا لَمَبْعُوثُونَ خَلْقًا جَدِيدًا﴾ [الإسراء/ ٤٩].

«جاء أُبي بن خلف إلى رسول الله ﷺ بعظم بال قد ارفتَّ، فقال: يا محمد! أنت تزعم أن الله يبعث هذا بعدما أرمَّ. ثم فتَّه في يده ثم نفخه في الريح نحو رسول الله ﷺ». فقال رسول الله ﷺ: **(نعم أنا أقول ذلك يبعثه الله وإياك، بعدما تكونان هكذا، ثم يُدخلك الله النار)**»(١). وهكذا قابل القرشيون دعوة رسول الله ﷺ لهم بالإيمان باليوم الآخر بالسخرية والتكذيب. ولم يدرك القرشيون حقيقة النشأة الآخرة، وأنها ليست أعسر من النشأة الأولى، وأنه لا شيء أمام القدرة الإلٰهية أعسر من شيء، وأداة الخلق واحدة، وكانوا يتساءلون فيما بينهم ويسألون محمداً ﷺ عن اليوم الموعود هذا ﴿أَوَلَمْ يَرَ ٱلْإِنسَٰنُ أَنَّا خَلَقْنَٰهُ مِن نُّطْفَةٍ فَإِذَا هُوَ خَصِيمٌ مُّبِينٌ ۞ وَضَرَبَ لَنَا مَثَلًا وَنَسِىَ خَلْقَهُۥ قَالَ مَن يُحْىِ ٱلْعِظَٰمَ وَهِىَ رَمِيمٌ ۞ قُلْ يُحْيِيهَا ٱلَّذِىٓ أَنشَأَهَآ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَهُوَ بِكُلِّ خَلْقٍ عَلِيمٌ﴾ [يس/ ٧٧ ـ ٧٩].

وانقسم القرشيون على أنفسهم وسط ذهول ذهب بعقولهم عندما أدركوا أن القضية جديَّة، وأن محمداً جادٌّ فيما يدعو إليه وبما يبشر به، فمنهم من اتهمه بالجنون، ومنهم من اتهمه بالكذب فلم يصدقه، وأنكر عليه كل ما يتفوه به، ومنهم من ضاع وسط ذهوله فلم يدرِ كيف يتصرف، ومنهم من تلقى الدعوة بالدهشة البالغة وأنها لأمر عجيب غريب لا يتحدث بها إلا مجنون أصابه طائف من الجن أو كذاب مغتر يقول بما لا يكون ولا يمكن أن يكون: ﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ هَلْ نَدُلُّكُمْ عَلَىٰ رَجُلٍ يُنَبِّئُكُمْ إِذَا مُزِّقْتُمْ كُلَّ مُمَزَّقٍ إِنَّكُمْ لَفِى خَلْقٍ جَدِيدٍ ۞ أَفْتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا أَم بِهِۦ جِنَّةٌۢ بَلِ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱلْءَاخِرَةِ فِى ٱلْعَذَابِ وَٱلضَّلَٰلِ ٱلْبَعِيدِ﴾ [سبأ/ ٧، ٨].

وضرب القرآن الكريم الأمثلة للناس في إحياء الأرض بالنبات، وأن الذي أحيا الأرض بعد موتها قادر على إعادة الحياة إلى الجثث الهامدة والعظام البالية ﴿فَٱنظُرْ إِلَىٰٓ ءَاثَٰرِ رَحْمَتِ ٱللَّهِ كَيْفَ يُحْىِ ٱلْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَآ إِنَّ ذَٰلِكَ لَمُحْىِ ٱلْمَوْتَىٰ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ﴾ [الروم/ ٥٠]. وذكر الله في كتابه الكريم إحياء بعض الأموات في الحياة الدنيا مثل أهل الكهف ﴿ثُمَّ بَعَثْنَٰهُمْ لِنَعْلَمَ أَىُّ ٱلْحِزْبَيْنِ أَحْصَىٰ لِمَا لَبِثُوٓاْ أَمَدًا﴾ [الكهف/ ١٢]، ﴿وَكَذَٰلِكَ بَعَثْنَٰهُمْ لِيَتَسَآءَلُواْ بَيْنَهُمْ﴾ [الكهف/ ١٩]، ﴿أَوْ كَٱلَّذِى مَرَّ عَلَىٰ قَرْيَةٍ وَهِىَ خَاوِيَةٌ عَلَىٰ عُرُوشِهَا قَالَ أَنَّىٰ يُحْىِۦ هَٰذِهِ ٱللَّهُ بَعْدَ مَوْتِهَا فَأَمَاتَهُ ٱللَّهُ مِاْئَةَ عَامٍ ثُمَّ بَعَثَهُۥ قَالَ كَمْ لَبِثْتَ قَالَ لَبِثْتُ يَوْمًا أَوْ بَعْضَ يَوْمٍ قَالَ بَل لَّبِثْتَ مِاْئَةَ عَامٍ﴾ [البقرة/ ٢٥٩].

اعترضوا على شخص رسول الله ﷺ: فقد تصوَّروا أن الرسول لا يكون بشراً مثلهم، وأنه ينبغي أن يكون ملكاً تصحبه الملائكة ﴿وَمَا مَنَعَ ٱلنَّاسَ أَن يُؤْمِنُوٓاْ إِذْ جَآءَهُمُ ٱلْهُدَىٰٓ إِلَّآ أَن قَالُوٓاْ أَبَعَثَ ٱللَّهُ بَشَرًا رَّسُولًا﴾ [الإسراء/ ٩٤]، ﴿وَلَوْ جَعَلْنَٰهُ مَلَكًا لَّجَعَلْنَٰهُ

(١) ابن هشام: جـ٢ ص١٠٧.

﴿رَجُلًا وَلَلَبَسْنَا عَلَيْهِم مَّا يَلْبِسُونَ﴾ [الأنعام/ ٩]؛ أي: لو بعث الله إلى البشر رسولاً من الملائكة لكان على هيئة الرجل يُمكِّنهم من مخاطبته والأخذ عنه، ولو كان كذلك لالتبس عليهم الأمر كما هم يلبسون على أنفسهم في قبول رسالة البشر[1]. لقد أرادوا رسولاً لا يحتاج إلى طعام ولا يسعى في الأسواق ﴿وَقَالُوا۟ مَالِ هَٰذَا ٱلرَّسُولِ يَأْكُلُ ٱلطَّعَامَ وَيَمْشِى فِى ٱلْأَسْوَاقِ لَوْلَآ أُنزِلَ إِلَيْهِ مَلَكٌ فَيَكُونَ مَعَهُۥ نَذِيرًا ۞ أَوْ يُلْقَىٰٓ إِلَيْهِ كَنزٌ أَوْ تَكُونُ لَهُۥ جَنَّةٌ يَأْكُلُ مِنْهَا ۚ وَقَالَ ٱلظَّٰلِمُونَ إِن تَتَّبِعُونَ إِلَّا رَجُلًا مَّسْحُورًا﴾ [الفرقان/ ٧، ٨]. ونسبوا الجنون إلى الرسول ﷺ ﴿وَقَالُوا۟ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِى نُزِّلَ عَلَيْهِ ٱلذِّكْرُ إِنَّكَ لَمَجْنُونٌ ۞ لَّوْ مَا تَأْتِينَا بِٱلْمَلَٰٓئِكَةِ إِن كُنتَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ﴾ [الحجر/ ٦، ٧]، وردَّ الله عليهم بقوله: ﴿مَآ أَنتَ بِنِعْمَةِ رَبِّكَ بِمَجْنُونٍ﴾ [القلم/ ٣]. كما نسبوه إلى الكهانة والشعر ﴿فَذَكِّرْ فَمَآ أَنتَ بِنِعْمَتِ رَبِّكَ بِكَاهِنٍ وَلَا مَجْنُونٍ ۞ أَمْ يَقُولُونَ شَاعِرٌ نَّتَرَبَّصُ بِهِۦ رَيْبَ ٱلْمَنُونِ﴾ [الطور/ ٢٩، ٣٠]، هذا على الرغم من أن بعض زعماء مكة اعترفوا صراحة بأن محمداً ﷺ ليس بكذاب ولا ساحر ولا مجنون ولا كاهن. وقد ملأ هذا الاعتراف نوادي مكة عندما تحدث النضر بن الحارث، وكان ذا ثقافة: «يا معشر قريش! إنه والله قد نزل بكم أمر ما أتيتم له بحيلة بعد. قد كان محمد فيكم غلاماً حدثاً، أرضاكم فيكم وأصدقكم حديثاً وأعظمكم أمانة، حتى إذا رأيتم في صدغيه الشيب وجاءكم بما جاءكم قلتم ساحر، لا والله ما هو بساحر... وقلتم كاهن، لا والله ما هو بكاهن...، وقلتم شاعر، لا والله ما هو بشاعر، وقلتم مجنون، لا والله ما هو بمجنون...، يا معشر قريش! فانظروا في شأنكم، فإنه والله لقد نزل بكم أمر عظيم»[2]. وكيف يكون القرآن ضرباً من الشعر وقد ذمَّ الشعراء الذين يضلون الناس ﴿وَٱلشُّعَرَآءُ يَتَّبِعُهُمُ ٱلْغَاوُۥنَ ۞ أَلَمْ تَرَ أَنَّهُمْ فِى كُلِّ وَادٍ يَهِيمُونَ ۞ وَأَنَّهُمْ يَقُولُونَ مَا لَا يَفْعَلُونَ﴾ [الشعراء/ ٢٢٤ ـ ٢٢٦]. ويقول ﷻ: ﴿وَمَا عَلَّمْنَٰهُ ٱلشِّعْرَ وَمَا يَنۢبَغِى لَهُۥٓ ۚ إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ وَقُرْءَانٌ مُّبِينٌ ۞ لِّيُنذِرَ مَن كَانَ حَيًّا وَيَحِقَّ ٱلْقَوْلُ عَلَى ٱلْكَٰفِرِينَ﴾ [يس/ ٦٩، ٧٠].

ومن فرط تكذيبهم قالوا إن محمداً يتلقى تعاليمه وأخباره من رجل أعجمي في مكة، فكان يجتمع به ويكلمه، وتناسوا أن القرآن كله نزل بلغة عربية بليغة لا يقوى أي أعجمي، مهما بلغت به درجة الفصاحة، ومهما يكن متمكناً من اللغة العربية، أن يأتي ولو بسورة واحدة منه ﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ إِنْ هَٰذَآ إِلَّآ إِفْكٌ ٱفْتَرَىٰهُ وَأَعَانَهُۥ عَلَيْهِ

(١) تفسير ابن كثير: جـ٢ ص١٢٤.

(٢) ابن هشام: جـ٢ ص٣٨، ٣٩. إن السحر لا يتضمن من الحقائق الكونية والأرضية ما يقوم عليها مجتمع مدني ولا يرتكز عليها نظام متفرد، ولقد اختلط على بعض القرشيين بخاصة والعرب بعامة، الوحي بالسحر نظراً لاختلاط الدين بالسحر في الوثنيات القديمة كلها، فالسحر خداع وتخييل ما لا حقيقة له في الواقع.

قَوْمٌ ءَاخَرُونَ فَقَدْ جَآءُو ظُلْمًا وَزُورًا ۝ وَقَالُوٓا۟ أَسَٰطِيرُ ٱلْأَوَّلِينَ ٱكْتَتَبَهَا فَهِىَ تُمْلَىٰ عَلَيْهِ بُكْرَةً وَأَصِيلًا﴾ [الفرقان/ ٤ ـ ٥]، ﴿وَلَقَدْ نَعْلَمُ أَنَّهُمْ يَقُولُونَ إِنَّمَا يُعَلِّمُهُۥ بَشَرٌ لِّسَانُ ٱلَّذِى يُلْحِدُونَ إِلَيْهِ أَعْجَمِىٌّ وَهَٰذَا لِسَانٌ عَرَبِىٌّ مُّبِينٌ﴾[1] [النحل/١٠٣]. لقد علم القرشيون أن محمداً ﷺ على حق، وأدركوا أنه على صواب، وعرفوا أنه حقاً رسول الله ينزل عليه الوحي من السماء، لكن الحقد أعمى بصائرهم، والحسد أكل صدورهم. كانوا يريدون ما ناله ويتمنون لو أُنزل عليهم ما أُنزل عليه، أرادوا بذلك تكريس سيادتهم عن طريق الدين وإضفاء صفة الشرعية عليها، حتى لا يكون شرف النبوة في بني عبد مناف من دونهم ﴿بَلْ مَتَّعْتُ هَٰٓؤُلَآءِ وَءَابَآءَهُمْ حَتَّىٰ جَآءَهُمُ ٱلْحَقُّ وَرَسُولٌ مُّبِينٌ ۝ وَلَمَّا جَآءَهُمُ ٱلْحَقُّ قَالُوا۟ هَٰذَا سِحْرٌ وَإِنَّا بِهِۦ كَٰفِرُونَ ۝ وَقَالُوا۟ لَوْلَا نُزِّلَ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانُ عَلَىٰ رَجُلٍ مِّنَ ٱلْقَرْيَتَيْنِ عَظِيمٍ ۝ أَهُمْ يَقْسِمُونَ رَحْمَتَ رَبِّكَ نَحْنُ قَسَمْنَا بَيْنَهُم مَّعِيشَتَهُمْ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَرَفَعْنَا بَعْضَهُمْ فَوْقَ بَعْضٍ دَرَجَٰتٍ لِّيَتَّخِذَ بَعْضُهُم بَعْضًا سُخْرِيًّا وَرَحْمَتُ رَبِّكَ خَيْرٌ مِّمَّا يَجْمَعُونَ﴾[2] [الزخرف/ ٢٩ ـ ٣٢].

ورأى القرشيون أن الرسول الإلٰهي الصادق إما أن يكون ملكاً من الملائكة، وإما أن يكون بشراً يستطيع أن يفعل ما لا يفعله البشر، وراحوا نتيجة هذا التفكير القاصر يطلبون من محمد ﷺ خوارق مادية تدل على السذاجة العقلية ﴿وَقَالُوا۟ لَن نُّؤْمِنَ لَكَ حَتَّىٰ تَفْجُرَ لَنَا مِنَ ٱلْأَرْضِ يَنۢبُوعًا ۝ أَوْ تَكُونَ لَكَ جَنَّةٌ مِّن نَّخِيلٍ وَعِنَبٍ فَتُفَجِّرَ ٱلْأَنْهَٰرَ خِلَٰلَهَا تَفْجِيرًا ۝ أَوْ تُسْقِطَ ٱلسَّمَآءَ كَمَا زَعَمْتَ عَلَيْنَا كِسَفًا أَوْ تَأْتِىَ بِٱللَّهِ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةِ قَبِيلًا ۝ أَوْ يَكُونَ لَكَ بَيْتٌ مِّن زُخْرُفٍ أَوْ تَرْقَىٰ فِى ٱلسَّمَآءِ وَلَن نُّؤْمِنَ لِرُقِيِّكَ حَتَّىٰ تُنَزِّلَ عَلَيْنَا كِتَٰبًا نَّقْرَؤُهُۥ قُلْ سُبْحَانَ رَبِّى هَلْ كُنتُ إِلَّا بَشَرًا رَّسُولًا ۝ وَمَا مَنَعَ ٱلنَّاسَ أَن يُؤْمِنُوٓا۟ إِذْ جَآءَهُمُ ٱلْهُدَىٰٓ إِلَّآ أَن قَالُوٓا۟ أَبَعَثَ ٱللَّهُ بَشَرًا رَّسُولًا ۝ قُل لَّوْ كَانَ فِى ٱلْأَرْضِ مَلَٰٓئِكَةٌ يَمْشُونَ مُطْمَئِنِّينَ لَنَزَّلْنَا عَلَيْهِم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ مَلَكًا رَّسُولًا﴾ [الإسراء/ ٩٠ ـ ٩٥].

وضاقت قريش ذرعاً بالنبي محمد ﷺ، فاقترح نفر من القرشيين أن يسألوا عنه اليهود في يثرب، فهم أهل كتاب وعندهم علم بالأُمم الغابرة. إنه سلوك قاصر ينم عن الحال العقلية التي كانت تصبغ وجه المجتمع في مكة، والذي احتاج القرشيون معها الوقوف على مدى صدق محمد ﷺ في أحاديثه عن الأمم الغابرة وخبر السماء، وكان الأجدر أن يصدقوه لأنهم أعلم بحاله وبصدقه من أي قوم آخرين.

---

(١) المقصود بالأعجمي جبر النصراني، وكان عبداً لبني الحضرمي، أو بلعام، وهو عبد في مكة كان أعجمي اللسان. تفسير ابن كثير: جـ٢ ص٥٨٦.

(٢) حمل لواء هذه الفئة من المطالبين بالنبوة الوليد بن المغيرة الذي قال: «أينزل الوحي على محمَّد وأُترك أنا كبير قريش وسيدها، ويُترك أبو مسعود عمرو بن عمير الثقفي سيد ثقيف، ونحن عظيما القريتين، مكة والطائف؟». ابن هشام: جـ٢ ص١٠٧.

ومهما يكن من أمر، فقد ذهب وفد قرشي إلى يثرب واجتمع باليهود، فطلب هؤلاء من أعضاء الوفد أن يسألوا محمداً ﷺ عن ثلاث: عن فتية ذهبوا في الدهر الأول، ما كان من أمرهم؟ فإنه كان لهم حديث عجب، وعن رجل طوَّاف بلغ مشارق الأرض ومغاربها، ما كان نبؤه؟ وعن الروح. فإذا أخبركم بذلك فاتبعوه فإنه نبي، وإن لم يفعل فهو رجل مُتقوِّل[1]. إنها أسئلة تدل على المعرفة التي تمتَّع بها اليهود بفضل ما عندهم من الكتاب، وانكبابهم على العلم.

ونزل الجواب من السماء يقصُّ على محمد ﷺ خبر أصحاب الكهف[2]، وذي القرنين[3]، وأما الروح فهي من أمر الله ﷻ[4]، وما أوتي الإنسان من العلم إلا قليلاً.

ولكن هل استجاب القرشيون بعد تلك الأجوبة المقنعة، للدعوة التي وجَّهها إليهم محمد ﷺ، هل صدقوه وآمنوا برسالته بعد أن أعطاهم الجواب الشافي؟ هل أدركوا السرَّ الذي أعطاهم إياه يهود يثرب؟ «فإن أخبركم بهن فهو نبي مرسل، فاتبعوه» وهل اتَّبعوه؟

لا شك بأن الحسد حال دون إدراكهم الإيمان، ووقفت الكراهية حاجزاً بينهم وبين التصديق بالرسالة الخالدة، فاستمروا في غيِّهم وكيدهم للدعوة ولصاحبها. إنه لم يطلب الزعامة ولا سعى إليها، ولم يطلب مالاً ولا شرفاً ولا مُلكاً، ولكن الله بعثه إلى قريش بخاصة، وإلى العالمين بعامة؛ رسولاً وأنزل عليه كتاباً وأمره أن يكون لهم بشيراً ونذيراً.

سياسة التفاوض: رأت قريش، عقب إسلام حمزة بن عبد المطلب، أن تلجأ إلى سياسة التفاوض مع محمد ﷺ، فأرسلت إليه عتبة بن ربيعة من أجل هذه الغاية، وهو رجل رزين وهادىء ومحاور بارع، وفوَّضته أن يتحدث باسمها.

قصد عتبة محمداً ﷺ، واجتمع به وعرض عليه ما كانت قريش قد عرضته من قبل من مطالب واقتراحات رفضها النبي ﷺ، وقال له: «يا ابن أخي! إنك منا حيث قد علمت من الشطر في العشيرة والمكان في النسب، وإنك قد أتيت قومك بأمر عظيم فرَّقت به جماعتهم وسفَّهت أحلامهم، وعبت آلهتهم ودينهم، وكفَّرت به من مضى من آبائهم، فاسمع مني أعرض عليك أموراً تنظر فيها لعلك تقبل منا بعضها». فقال رسول الله ﷺ: **(قل يا أبا الوليد أسمع)**. قال: يا ابن أخي! إن كنت إنما تريد بما جئت به من هذا الأمر مالاً جمعنا لك من أموالنا حتى تكون أكثرنا مالاً، وإن كنت تريد به شرفاً سوَّدناك علينا حتى لا نقطع أمراً من دونك، وإن كنت تريد به مُلكاً ملَّكناك علينا، وإن كان هذا الذي يأتيك رِئياً تراه لا تستطيع رده من نفسك طلبنا لك

---

(١) ابن هشام: جـ٢ ص٣٩ ـ ٤٣.
(٢) انظر: سورة الكهف/ ٩ ـ ٣٦.
(٣) انظر: سورة الكهف/ ٨٣ ـ ٩٣.
(٤) انظر: سورة الإسراء/ ٨٥.

الطب وبذلنا أموالنا حتى نبرئك منه. ولما انتهى عتبة من عرضه، قال له محمد ﷺ: **(فاسمع مني يا أبا الوليد)**، ثم تلا عليه من آيات القرآن من سورة فصّلت: ﴿حمٓ ۝ تَنزِيلٌ مِّنَ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ ۝ كِتَٰبٌ فُصِّلَتْ ءَايَٰتُهُۥ قُرْءَانًا عَرَبِيًّا لِّقَوْمٍ يَعْلَمُونَ ۝ بَشِيرًا وَنَذِيرًا فَأَعْرَضَ أَكْثَرُهُمْ فَهُمْ لَا يَسْمَعُونَ ۝ وَقَالُوا۟ قُلُوبُنَا فِىٓ أَكِنَّةٍ مِّمَّا تَدْعُونَآ إِلَيْهِ وَفِىٓ ءَاذَانِنَا وَقْرٌ وَمِنۢ بَيْنِنَا وَبَيْنِكَ حِجَابٌ فَٱعْمَلْ إِنَّنَا عَٰمِلُونَ ۝ قُلْ إِنَّمَآ أَنَا۠ بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ يُوحَىٰٓ إِلَىَّ أَنَّمَآ إِلَٰهُكُمْ إِلَٰهٌ وَٰحِدٌ فَٱسْتَقِيمُوٓا۟ إِلَيْهِ وَٱسْتَغْفِرُوهُ ۗ وَوَيْلٌ لِّلْمُشْرِكِينَ ۝ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْتُونَ ٱلزَّكَوٰةَ وَهُم بِٱلْءَاخِرَةِ هُمْ كَٰفِرُونَ﴾ [فصلت/١ ـ ٧]، حتى إذا وصل إلى قوله تعالى: ﴿فَإِنْ أَعْرَضُوا۟ فَقُلْ أَنذَرْتُكُمْ صَٰعِقَةً مِّثْلَ صَٰعِقَةِ عَادٍ وَثَمُودَ﴾ [فصلت/١٣].

الواضح أن النبي ﷺ اختار هذه الآيات القرآنية ليُطلع محدثه على حقيقة الرسالة والرسول. إن محمداً ﷺ يحمل رسالة من الله إلى خلقه يهديهم من الضلال، وإن عتبة جاء باسم قريش، ليُقنع محمداً ﷺ بترك الدعوة إلى الله وإقامة العدالة بين الناس. الواقع أنه طلب غريب، لكن عتبة وعى ما قرأ عليه النبي ﷺ، وأدرك معناه ومغزاه، لذلك قام وكأن الصواعق تلاحقه، وعاد إلى قريش يقترح عليها أن تدع محمداً وشأنه «فوالله ليكونن لقوله الذي سمعت منه نبأ عظيم، فإن تصبه العرب فقد كفيتموه بغيركم، وإن يظهر على العرب فملكه ملككم وعزه عزكم وكنتم أسعد الناس به. فقالوا: سحرك والله يا أبا الوليد، قال: هذا رأيي فيه»(١).

لقد أخذ الحسد بمجامع قلوب القرشيين حتى لم يعودوا يُميِّزون بين الصواب والخطأ، وكلام الله والسحر، وأصمَّ الشرك آذانهم حتى لم يعودوا يُميِّزون بين روعة الكلام وجلاله والكلام العادي.

ولما فشلت هذه المحاولة في إقناع محمد ﷺ بالعدول عن موقفه وقبول بعض التنازلات؛ اهتدى القرشيون إلى فكرة أخرى: إنهم عرضوا عليه أن يعبدوا ما يعبد، ويعبد ما يعبدون، فيشتركون جميعاً في الأمر، وحجَّتهم في ذلك أنه إذا كان إلٰه محمد ﷺ خيراً من إلٰههم، فيكونوا قد أخذوا حظهم منه، وإذا كان ما يعبدون خيراً مما يعبد فيكون قد أخذ حظاً منه.

ويبدو أن التخبط العقدي من واقع اعترافهم بالله مع إشراك آلهة أخرى معه في العبادة، كان يُشعرهم بأن المسافة بينهم وبينه ضيقة يمكن ردمها بقسمة البلد بلدين، والالتقاء في منتصف الطريق مع بعض الترضيات الشخصية، لكن محمداً ﷺ حسم هذه الشبهة، وقطع الطريق على محاولتهم هذه، وأعلن مرة أخرى أن لا مساومة في شأن الدين، فإما التوحيد وإما الشرك.

---

(١) ابن هشام: جـ٢ ص٣٥، ٣٦. البلاذري: جـ١ ص١٧١.

وأنزل ﷻ سورة مخصَّصة كاملة لهذا التوجه القرشي، هي «سورة الكافرون».

تعذيب المسلمين

حان الوقت الذي يُمتحن فيه المؤمن ويُلقى به إلى الجوع والعذاب والألم، وأقبل العهد الذي يبدأ فيه الشهداء بملاقاة ربهم. ولقد اندفع القرشيون لمقاومة المد الإسلامي الزاحف عليهم غير متعظين بما أصاب الأمم الغابرة، فصبوا جام غضبهم على المستضعفين من المسلمين يسومونهم سوء العذاب، ثم امتدت أيديهم إلى كل من آمن بالدين الجديد، وتعرَّضوا أخيراً لصاحب الدعوة نفسه محمد ﷺ، فاضطهدوه وآذوه بكل ما يملكون من وسائل.

جرى ذلك بعد فشل المفاوضات ومحاولات الضغط على محمد ﷺ، فابتكر القرشيون هذا الأسلوب الجديد، فابتدأوا باضطهاد المستضعفين من المسلمين ممن لا سند لهم يمنعهم ويحميهم، وكان على كل عشيرة معارِضة لدعوة الإسلام أن تنبذ عنها مسلميها وتضطهدهم، واستعملت في ذلك أقسى أساليب العذاب التي تدل على الغيظ والحقد، منها الضرب المبرح والجوع والعطش والاستلقاء على رمضاء مكة وكي الأجسام بالنار والإغراق في الماء، فافتتن عن دينه من كان ضعيف الإيمان، فاقد الثقة بالنفس[١]، وجاهر البعض بالشرك وظلَّ قلبه مؤمناً[٢]، وصمد البعض الآخر للعذاب[٣]، ومات القليل تحت العذاب مفضلين الموت على الكفر[٤].

كانت مرحلة عمَّ فيها العذاب جميع المستضعفين، وتفاقم، ولم يستطع النبيُّ محمد ﷺ أن يُخفِّف عنهم أو ينتشلهم من العذاب إلا بمواساته لهم نظراً لقصر الحيلة، وتشجيعهم على الصبر بما يذكر لهم من سِيَر المؤمنين في الأمم الغابرة ومدى قوة احتمالهم، حتى أن بعضهم كان يُنْشَر بالمنشار وما يصرفه عن دينه شيء، ومؤكداً لهم أن نصر الله آتٍ لا ريب فيه، وأعتق أبو بكر بعضهم[٥].

وصبَّ القرشيون جام غضبهم على المسلمين من غير المستضعفين غير مكترثين بمكانة بعضهم ولا لنسبهم، فضُرب أبو بكر حتى شُجَّ رأسه وسال الدم منه، كما حثا بعض السفهاء التراب على رأسه[٦]. وعُذِّب عثمان بن عفان وأوثقه عمه بحبل

---

(١) مثل الحارث بن ربيعة بن الأسود، وابي قيس بن الوليد بن المغيرة، وعلي بن أُمية بن خلف، والعاص بن منبه بن الحجاج، وقد قُتلوا يوم بدر وهم على كفرهم.

(٢) مثل عمار بن ياسر. (٣) مثل بلال بن رباح الحبشي.

(٤) مثل عمار والد ياسر، وزوجته سمية أُم ياسر، وقد طعنها أبو جهل بحربة وهي تحت العذاب.

(٥) انظر عدوان المشركين على المستضعفين من المسلمين: ابن هشام، جـ٢ ص٦٧ ـ ٦٩.

(٦) ابن هشام: جـ٢ ص١٢٢.

متين[١]، وشجَّ عمر بن الخطاب رأس أخته فاطمة ورأس زوجها سعيد بن زيد[٢].

وساد مكة جوٌّ من الإرهاب العنيف انصبَّ على كل من آمن بالدعوة الإسلامية.

والواقع أن الصراع السياسي الذي كان دائراً آنذاك في مكة انعكس على المسلمين الأوائل، فأفرز هذه الاضطهادات العنيفة، والتي كانت سبباً للهجرة إلى الحبشة؛ لأن العشائر المعارضة للدعوة الإسلامية خشيت على مراكزها من منافسة بني هاشم وبني المطلب إن قوي محمد ﷺ وظهر عليهم، بمن كان ينضمُّ إليه من مختلف طبقات المجتمع المكي، علماً بأن العشائر الموالية لبني هاشم وبني المطلب لم تضْطَهِد مسلميها؛ لأن محمداً ﷺ كان من بينهم.

وازداد حقد القرشيين على محمد ﷺ بعد الهجرة إلى الحبشة التي صدَّعت استقرارهم وزلزلت أمنهم، فقد وجد المسلمون أرضاً آمنة، ولم يعد بالإمكان صليهم بالعذاب، ولم يبق في مكة سوى محمد ﷺ وبعض أتباعه ممن لهم قوة كبيرة تحميهم أو منعة في عشائرهم. لذلك توجَّهت أنظار القرشيين إلى محمد ﷺ، وبخاصة بعد موت عمِّه أبي طالب، فراحوا يصبون جام غضبهم عليه، آملين بأن يلين عوده تحت العذاب ويرضى ببعض التنازلات، فأثاروا الشبهات الكاذبة حوله، وتعرضوا له بألسنتهم وبأيديهم، فآذوه بالضرب والإهانة والمضايقة، وحثوا التراب على رأسه ووضعوا الفرث والدماء أمام بيته، وطرحوا عليه سلى جزور وهو يصلي، وبصقوا في وجهه، ووطئوا رقبته لخنقه، ولكن محمداً ﷺ صبر على الأذى حتى يأتي أمر الله[٣].

لقد تحمَّل النبي محمد ﷺ من قومه ما أضناه وأرهقه، ومع ذلك لم يلن لهم ولم يتزحزح عن موقفه قيد أنملة، ولقي من الإغراء ما كان حافزاً به أن يتحوَّل إلى المداهنة ومجاراة قومه؛ إذ عرضوا عليه كل ما يُرضي طموح الطامعين، ولكنه لم يفعل، وهو يعلم علم اليقين أن الله يرعاه ويحفظه ويمنعه ويعصمه، وأن قريشاً مهما تمادت في غيِّها لا تستطيع أن تنال منه، فكان يُبلِّغ رسالة ربِّه من دون أن يخشى بأسها، إلا أنه كان يحزن عليهم بفعل صدودهم عن دعوته، ويتحسَّر كلما رآهم يقفون منه موقف العناد. ونذكر من بين الذين آذوه أبو لهب وزوجته، أُمية بن خلف، أبو جهل، الأخنس بن شريق، الوليد بن المغيرة، عقبة بن أبي معيط، أُبي بن خلف، وغيرهم.

ولا بد للمرء أن يتساءل لماذا كان كل هذا العذاب الذي تعرَّض له النبي ﷺ وأتباعه، وهم على الحق؟.

---

(١) البلاذري: جـ٦ ص١٠٠. (٢) ابن هشام: جـ٢ ص٩٦.

(٣) انظر: ابن هشام: جـ٢ ص١٠٣ ـ ١٠٩.

الواضح أن هذا العذاب يعكس:

ـ حدَّة المنافسة التي كانت مستحكمة بين العشائر القرشية، كما ذكرنا.

ـ الصفة التي أعطاها الله للإنسان في هذه الحياة الدنيا، وهي التكليف والعبودية، وأمر الدعوة إلى الإسلام من أهم متعلقات التكليف، والتكليف من أهم لوازم العبودية لله تعالى. فقد استلزمت العبودية التكليف، واستلزم التكليف تحمل المشاق[(١)].

ـ إظهار صدق الصادقين وكذب الكاذبين، فلو تُرك الناس لدعوى الإسلام ومحبة الله على ألسنتهم فقط لاستوى الصادق والكاذب، ولكن الفتنة والابتلاء هما الميزان الذي يميِّزهما عن بعضهما[(٢)].

ـ لا شك بأن صاحب الدعوة، أي دعوة، يتعرض خلال حياته مع قومه للإهانة والضرب والطرد؛ لأن طبيعة الدعوة في معارضة الواقع المنحرف تتطلب تغييراً في المفاهيم والأُسس التي تعوَّد عليها الشعب، فيصعب عندئذ التخلص منها، لذلك لا بدَّ لكل صاحب دعوة من الصبر، ومحمد ﷺ صاحب دعوة قد تعرَّض للأذى وصبر صبراً جميلاً على ذلك حتى لم يعد يستطيع أن يتحمل المزيد؛ إذ راح يدعو قومه إلى غير ما ألفوا منه وتعوَّدوا.

الهجرة إلى الحبشة

كانت الهجرة إلى الحبشة سراً حتى لا تعلم قريش بالأمر فتحبطه، ولم تبدأ كذلك على نطاق واسع؛ إذ عندما رأى رسول الله ﷺ ما يصيب أصحابه من البلاء، وأنه لا يقدر على حمايتهم ومنعهم مما هم فيه، قال لهم: (**لو خرجتم إلى أرض الحبشة، فإنَّ بها ملكاً لا يُظلم عنده أحد، وهي أرض صدق، حتى يجعل الله لكم فرجاً مما أنتم فيه**)[(١)]. فخرج عند ذلك المسلمون إلى أرض الحبشة مخافة الفتنة وفراراً إلى الله بدينهم، فكانت أول هجرة في الإسلام. وكان في مقدمة المهاجرين عثمان بن عفان وزوجته رقية بنت رسول الله ﷺ، وأبو حذيفة وزوجته، والزبير بن العوام، ومصعب بن عمير، وعبد الرحمٰن بن عوف، وغيرهم حتى اجتمع في الحبشة من أصحابه ﷺ ثلاثة وثمانون رجلاً وثماني عشرة امرأة؛ إحدى عشر قرشيات وسبع غرباء[(٣)].

---

(١) البوطي: ص١١٨. (٢) المرجع نفسه: ص١٢٠.

(٣) ابن هشام: جـ٢ ص٦٩ ـ ٧٦.

ذكر ابن سعد في طبقاته، جـ١ ص٢٠٣ ـ ٢٠٨ أنه حدثت هجرتان إلى الحبشة، حصلت =

كان المهاجرون خليطاً من الأغنياء والفقراء، والتجار والمستضعفين، حيث لم يبال أحد من الأغنياء والتجار ممن خرج بما سيحدث لتجارته من كساد. أما المستضعفون والفقراء، فلم يكن وراءهم ما يتركونه سوى ذكريات مريرة عن العذاب. إلا أن الهجرة هي عذاب من نوع آخر، إنها عذاب فراق الوطن والأرض والأصدقاء والأعمال، إلا أنها كانت ضرورية في تلك المرحلة من تاريخ الدعوة لأنه إذا فُقد الدين أو غُلب عليه لم يُغن من ورائه الوطن والأرض والأصدقاء والمال، ولذا فإن من أسس الدعوة في الإسلام، التضحية بالوطن والمال والحياة في سبيله، فيضمن المسلمون بذلك المحافظة عليه.

وعندما علمت قريش بأمر الهجرة؛ عزَّ عليها أن يجد المهاجرون مأمناً لأنفسهم ولدينهم، ودفعت كراهية القرشيين للإسلام إلى أن يبعثوا بوفد إلى النجاشي ملك الحبشة مؤلف من اثنين، هما عمرو بن العاص وعبد الله بن أبي ربيعة، ليشرحا له وضع الذين لجأوا إليه، ويطلبان منه تسليمهم إلى حكومة مكة، وحملا معهما الهدايا الكثيرة للملك ولحاشيته وبطارقته.

واستعان عَضْوَا الوفد على النجاشي برجال حاشيته وببطارقته وزوَّداهم بالحجج التي تكفل طرد المسلمين، وقالا: «إن ناساً من سفهائنا فارقوا دين قومهم ولم يدخلوا في دين الملك، وجاؤوا بدين مبتدع لا نعرفه نحن ولا أنتم». واتفقا معهم على أن يشيروا على النجاشي بإخراجهم من بلاده.

وعندما عُرضت القضية على النجاشي وأُشير عليه بإبعاد المسلمين؛ رأى أنه لا بدَّ من سماع وجهة نظرهم، فأرسل إليهم فحضروا، وتكلم جعفر بن أبي طالب باسمهم، فأبدى وجهة نظره مبيناً ما كانت عليه حالهم قبل البعثة من التفكك والفوضى وفساد الأخلاق وسوء المعاملة وعبادة الأصنام، ثم شرح المبادىء التي جاء بها محمد ﷺ وعلَّمهم إياها، وهي تحارب ما كانوا منغمسين فيه من الفساد، وتأمر بترك عبادة الأصنام والرجوع إلى الله، والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، كما تدعو إلى مكارم الأخلاق والكفِّ عن المحارم والدماء وقول الزور وأكل مال اليتيم وقذف المحصنات. ولما صدَّقوه وآمنوا به عدا عليهم قومهم، فآذوهم

= الأولى في السنة الخامسة للبعثة وأن المهاجرين كانوا أحد عشر رجلاً وأربع نسوة برئاسة عثمان بن مظعون وقد مكثوا في الحبشة ثلاثة أشهر عادوا بعدها إلى مكة بعد أن سمعوا بخبر إسلام أهلها. وحصلت الهجرة الثانية بعد عودة مهاجري الدفعة الأولى واشتداد العذاب على المسلمين في مكة، وكانت بقيادة جعفر بن أبي طالب، وعدد المهاجرين كما ذكرنا في المتن.

واضطهدوهم حتى اضطروا إلى الهجرة، فخرجوا إلى بلاده لأنهم اختاروه على سواه، ورغبوا في جواره بناءً على نصيحة نبيهم[١].

وطلب النجاشي من جعفر أن يقرأ أمامه بعضاً مما جاء به محمد ﷺ، فقرأ شطراً من سورة مريم، فبكى وبكى بطارقته، وقال يخاطب عمرو بن العاص ورفيقه: «إن هذا والذي جاء به عيسى يخرج من مشكاة واحدة، انطلقا، والله لا أسلمهم إليكما أبداً. فخرجا من عنده».

لكن عمرو بن العاص لم يركن إلى قرار النجاشي، فدخل عليه في اليوم التالي وقال له: «إن هؤلاء يقولون في عيسى ابن مريم قولاً عظيماً». فأرسل النجاشي يسألهم عن قولهم في المسيح، فقال جعفر: «نقول فيه الذي جاءنا به نبينا ﷺ: هو عبد الله ورسوله وكلمته التي ألقاها إلى مريم العذراء البتول». فأخذ النجاشي عوداً من الأرض ثم قال: «ما عدا عيسى ابن مريم ما قال هذا العود... فتناخرت[٢] بطارقته حين قال ما قال، فقال: وإن نخرتم والله». ثم خاطب المسلمين قائلاً لهم: «إذهبوا فأنتم شيوم[٣] في أرضي، مَنْ سبَّكم غُرم». وردَّ هدايا الوفد القرشي، وأقام المسلمون عنده بخير دار، وعاد الوفد إلى مكة يجرُّ أذيال الخيبة[٤].

كان من مقتضى إيمان النجاشي أن لا يتحول عن دينه إلى ما يخالفه أو ينتصر لمن تختلف عقيدتهم الدينية عما جاء به الإنجيل وما بشَّر به عيسى ابن مريم، ويدل تصرفه على أمرين:

الأول: أن الأنبياء إنما جاؤوا بعقيدة واحدة لم يختلفوا فيها.

الثاني: ما كان بين الحبشة ومكة من استياء سياسي بسبب مساندة القرشيين لسيف بن ذي يزن في حربه ضد الأحباش وطردهم من اليمن، واحتكارهم تجارة الشرق، وصل إلى حدِّ القطيعة من جانب النجاشي عندما ردَّ الوفد خائباً مع هداياه، وكان هذا التصرف بمثابة إعلان الحرب بين الحبشة ومكة، وتصب حملة أبرهة ضد مكة في هذا التوجه.

وأخيراً ماذا نستقي من الهجرة إلى الحبشة من دروس وعِبَر؟.

- الواقع أن الهجرة كانت ضرورية في تلك المرحلة من تاريخ الدعوة، وفق ما ذكرنا.
- أظهرت الهجرة أن المسلمين مستعدون بأن يُضحّوا بكل عزيز لديهم في سبيل الدعوة، وأنهم مخلصون في إيمانهم.

---

(١) ابن هشام: جـ٢ ص٨٦ ـ ٨٨.
(٢) نخر الإنسان أو الحيوان: مدَّ النفس والصوت في أنفه.
(٣) شيوم؛ أي: آمنون.
(٤) ابن هشام: جـ٢ ص٨٨، ٨٩.

- أقنعت الهجرة قريشاً بإخلاص المسلمين لعقيدتهم وثباتهم على الحق، واستعدادهم لتحمل الصعاب في سبيل البقاء على الإيمان.

- إن استمرار قريش في التعرض لمواطنيها من المسلمين ومضايقتهم، وتحمُّل هؤلاء العذاب في سبيل الدعوة؛ من شأنه أن يُكسبهم العطف والحماية داخل الجزيرة العربية تماماً كما حصل لهم في خارجها (الحبشة)، وهذا ما مهَّد إلى الهجرة العامة إلى يثرب (المدينة).

- لفتت الهجرة إلى الحبشة الأنظار إلى تقرُّب النبيِّ محمد ﷺ إلى النصارى، ولو لم يجد ملجأ وحماية في المحيط العربي (يثرب)، لكان قد هاجر إلى الحبشة.

- الخروج من الوطن، وإن كان الوطن مكة على فضلها شرط أن يكون فراراً بدين الله.

- سُمِّي المهاجرون إلى الحبشة بأصحاب الهجرتين؛ لأنهم هاجروا إلى المدينة بعد عودتهم من هجرة الحبشة.

إسلام حمزة بن عبد المطلب

بعد ثلاثة أشهر من بدء الهجرة إلى الحبشة حدث تغيير كبير في حياة محمد ﷺ، والمسلمين في مكة بعث الأمل في إمكان نشر الدعوة فيها، فقد أسلم في تلك المدة حمزة بن عبد المطلب، عمُّ الرسول محمد ﷺ، عصبية لابن أخيه بعد أن سبَّه أبو جهل سباً قبيحاً ثم شرح الله صدره للإسلام. وكان حمزة أعزَّ فتيان قريش وأشدهم شكيمة، فلما دخل في الإسلام أدركت قريش أن رسول الله ﷺ قد عزَّ وامتنع، وأن عمَّه سيمنعه ويحميه، فكفوا عن بعض ما كانوا ينالون منه[١].

إسلام عمر بن الخطاب[٢]

ساد مكة بعد الهجرة إلى الحبشة جوٌّ كئيب من الوحشة؛ إذ كان الذين هاجروا من الكثرة بحيث تركوا فراغاً شعر به ذوو النفوس الحساسة والعواطف الرقيقة، وكان عمر بن الخطاب من بينهم، فقد انتابه قلق وانقباض حتى فارقه المرح الذي عُهِد منه.

وراح عمر يُفكِّر في الحال التي وصلت إليها مكة، ومرَّت به خواطر من الماضي عندما كان محمد ﷺ لا يزال صغيراً، وقد كبر الآن وخرج على قومه بتعاليم جديدة أراد أن يفرضها عليهم تتعارض مع عاداتهم وتقاليدهم ومفاهيمهم، فقرَّر أن يضع

---

(١) ابن هشام: جـ٢ ص٣٤.

(٢) المصدر نفسه: ص٩٥ ـ ٩٧.

حداً لتلك التعاليم الجديدة التي تجتاح مكة، والتي فرَّقت بين القرشيين من خلال القضاء على صاحبها، فتستريح مكة بموته وتستعيد أيامها الحلوة، ويهنأ القرشيون مرة أخرى برغد العيش.

وصدف أثناء عودته إلى بيته ليتجهَّز ويستعد لتنفيذ مشروعه؛ أنْ شاهد جارته زوجة عامر بن ربيعة قد جمعت متاعها ووقفت أمام بيتها تنتظر زوجها ليخرجا معاً إلى الحبشة، فاقترب منها وبادرها قائلاً: «إنه للانطلاق يا أم عبد الله»(١). ولم يكن في صوته حدة أو دليل عدوان. فأجابته: «نعم، والله لنخرجن في أرض الله، آذيتمونا وقهرتمونا حتى يجعل الله فرجاً»(٢). وسكت عمر وراح يفكر خلال صمته بجارته التي ستخرج أيضاً لتلتحق وزوجها بمن سبقهما، فازداد حزنه حتى رقَّ قلبه لهذا الفراق، وسرت الرقة في صوته وهو يحاورها ويقول لها: «صحبكم الله»، حتى طمعت في إسلامه لما تنبَّهت إلى تغير نبرة صوته واختلاف حركاته، فقال لها زوجها عندما أخبرته: «... فلا يسلم الذي رأيته حتى يسلم حمار الخطاب»(٣).

وتابع عمر طريقه إلى بيته ثم خرج منه بعد قليل متوشحاً سيفاً في طريقه إلى دار الأرقم عند الصفا، حيث يجتمع المسلمون ليقتل محمداً، وإن اعترضه حمزة فسوف يقتله هو الآخر حتى لا يجرؤ بعد ذلك على تهديد فرسان قريش. والتقى به وهو في الطريق نُعيم بن عبد الله النحام من بني عدي، وهو أحد أصدقائه، وكان قد اعتنق الإسلام سراً، فسأله عن وجهته، فأجابه عمر: «أريد محمداً، هذا الصابىء الذي فرَّق أمر قريش وسفَّه أحلامها وعاب دينها وسبَّ آلهتها، فأقتله»(٤). فقال له صاحبه وهو يحاوره، وقد خشي على محمد ﷺ غضبة عمر، فأراد أن يصرفه عما اعتزم عليه: «والله لقد غرَّتك نفسك من نفسك يا عمر، أترى بني عبد مناف تاركيك تمشي على الأرض وقد قتلت محمداً، أفلا ترجع إلى أهل بيتك فتقيم أمرهم»(٥). وأطرق عمر منصتاً وقد دُهش لما سمع «وأيُّ أهل بيتي؟». وأجابه نُعيم: «ختنك وابن عمِّك سعيد بن زيد وأختك فاطمة بنت الخطاب، فقد أسلما وتابعا محمداً على دينه، فعليك بهما».

غضب عمر لكلام نُعيم، فلم يكن يعلم بإسلام ختنه وأخته، فنسي غايته التي خرج من بيته لأجلها، وولَّى وجهه شطر بيت أخته وقد انتفخت أوداجه بنار الغضب. وما إن وصل إلى المنزل حتى سمع صوت هيمنة لرجل غريب يتلو، فقرع

---

(١) ابن هشام: جـ٢ ص٩٥.
(٢) المصدر نفسه.
(٣) المصدر نفسه.
(٤) المصدر نفسه.
(٥) المصدر نفسه.

الباب بشدة فزع لها مَنْ في الداخل، وسألوا: مَنْ بالباب؟ فأجاب: «أنا عمر». فارتجَّ عليهم عندما سمعوا صوته وارتبكوا، وأسرعوا يخفون ما كان من أمرهم. فاختبأ خبّاب بن الأرتّ الذي كان يُقرؤهما القرآن في بعض البيت، وأخذت فاطمة الصحيفة التي كان يقرأ منها فأخفتها خلفها، وقام زوجها ليفتح الباب.

ودخل عمر هائجاً يدور بعينيه في أرجاء الدار يبحث عن مصدر الصوت الذي سمعه، فلم ير أحداً غير أخته وزوجها، فسألهما بغضب: «ما هذه الهيمنة التي سمعت؟». فأنكرا خوفاً منه، ثم صرخ في وجههما: «لقد أُخبرت أنكما تبعتما محمداً على دينه». فتقدم إلى زوج أخته وضربه بمقبض سيفه فأسال دمه، وقامت أخته تدافع عن زوجها، فضربها عمر أيضاً فشجَّ رأسها. عند ذلك اعترفت له: «نعم، قد أسلمنا، فاصنع ما بدا لك»[1].

وعندما رأى عمر الدم يسيل من رأس أخته تخاذلت قواه، فهدأ وراح يحاسب نفسه حتى ندم على تصرفه، ثم وقع نظره على الصحيفة التي كان يقرأ منها خبَّاب، فطلب من أخته أن تطلعه عليها لينظر ما جاء به محمد، فأعطته إياها بعد أن طلبت منه أن يغتسل، ثم قرأ ما أذهله وملأ قلبه روعة، فقال: «ما أحسن هذا الكلام وأكرمه». وسمع خبَّاب وهو في مخبئه قول عمر، فخرج واندفع إليه قائلاً: «يا عمر! فإني أرجو أن يكون الله خصَّك بدعوة نبيه، فإني سمعته أمس يقول: (**اللهمَّ أيِّد الإسلام بأبي الحكم بن هشام أو بعمر بن الخطاب**)»[2].

وأسرع عمر من فوره إلى دار الأرقم، فقرع الباب بلهفة، ففتح له حمزة وتهيَّأ للقائه إن بدر منه شرٌّ. لكن النبيَّ ﷺ أراد أن يردع عمر بنفسه، فقام للقائه، وأمسكه بطرف ردائه، وجذبه بقوة ارتعد على إثرها عمر، وما أفاق حتى سمع محمد ﷺ يقول له: (**ما جاء بك يا ابن الخطاب؟ فوالله ما أرى أن تنتهي حتى ينزل الله بك قارعة**). فقال عمر: «يا رسول الله! جئتك لأؤمن بالله وبرسوله وبما جاء من عند الله. قال: فكبَّر رسول الله ﷺ تكبيرة عرف أهل البيت من أصحاب رسول الله ﷺ أن عمر قد أسلم، وكان عمره آنذاك تسعاً وعشرين سنة وأشهر[3].

وعارض عمر أسلوب استخفاء المسلمين، وأبى إلا أن يخرجوا إلى الكعبة ليؤدُّوا الصلاة فيها جهاراً أمام القرشيين، ووافق النبي ﷺ على الفكرة، وخرج المسلمون في اليوم التالي يمشون في طرقات مكة نحو الكعبة في صفَّين على أحدهما حمزة وعلى الآخر عمر، والقرشيون يتأملونهم بنظرات تملؤها الدهشة والغيظ، وسمَّى

---

(١) ابن هشام: جـ٢ ص٩٥، ٩٦. (٢) المصدر نفسه: ص٩٦.

(٣) المصدر نفسه. البلاذري: جـ١٠ ص٢٩٣.

النبيُّ عمراً منذ ذلك الوقت بـ«الفاروق»؛ لأنه فرَّق بين الحق والباطل[1].

دخل عمر في دين الله بالحمية نفسها التي حاربه بها من قبل؛ إذ ما لبث حين أسلم أن حرص على أن يُذيع إسلامه في قريش كلها، وشكَّل إسلامه وإسلام حمزة، من قبل، انعطافة مفصلية في تاريخ الدعوة الإسلامية، كانت عزَّة للمسلمين الذين شعروا بالمنعة والقوة، حتى قال عبد الله بن مسعود: «إن إسلام عمر كان فتحاً... ولقد كنا لا نصلي عند الكعبة حتى أسلم عمر، فلما أسلم قاتل قريشاً حتى صلَّى عند الكعبة، وصلينا معه»[2]، كما كان قهراً للمشركين.

سياسة الحصار والمقاطعة

راحت قريش تبحث عن أسلوب جديد لتقهر محمداً ﷺ وأتباعه من المسلمين، وتردَّ عليها اعتبارها بعد أن أُصيبت في الصميم، فألقت اللوم على بني هاشم في كل ما حصل، فلو أنهم ردعوا محمداً ﷺ منذ أن قام يدعو إلى عقيدته الإلٰهية لبقي كل شيء على حاله لم يتغير، لذلك ينبغي أن يلقوا جزاء ما اقترفوه، فاتفق أشراف قريش على مقاطعتهم وحصارهم في شِعَبهم اقتصادياً واجتماعياً، وكتبوا صحيفة بشأن ذلك وعلَّقوها على جدار الكعبة[3].

وهكذا ابتدأت سياسة الحصار والمقاطعة، وانحصر بنو هاشم في شِعب أبي طالب بأطراف مكة يواجهون مع بني المطلب تحدي قريش، لا يعامَلون ولا يعامِلون، ولا يستطيعون الخروج إلا في الأشهر الحرم[4].

وأظهرت هذه السياسة بشكل سافر العداء القديم المستحكم بين بني هاشم وبني المطلب وبين بني عبد شمس[5]. وتحمَّل المحاصَرون عذاب الجوع والحرمان والعزلة، وقد جهدوا حتى أكلوا الخبط[6] وورق السمر[7].

لم يكفَّ محمد ﷺ خلال مدة الحصار عن دعوة قومه والتجار الوافدين وسائر العرب في مكة، فكان يخرج إليهم في أسواقهم يدعوهم إلى عبادة الله وحده، ويبشرهم بالجزاء الحسن إن اتبعوه وآمنوا به، ويُنذرهم بالعقاب الشديد إذا أعرضوا عنه.

---

(١) البلاذري: جـ١٠ ص٢٩٧. (٢) ابن هشام: جـ٢ ص٩٥.

(٣) خرج من بني هاشم أبو لهب عبد العزى بن عبد المطلب، إلى قريش فظاهرهم. ابن هشام: جـ٢ ص١٠٢.

(٤) ابن هشام: جـ٢ ص١٠١، ١٠٢. البلاذري: جـ١ ص٢٦٦، ٢٧٠، ٢٧١.

(٥) الطبري: جـ٢ ص٢٥٢، ٢٥٣.

(٦) الخبط: ما سقط من ورق الشجر بعد أن يُخبط.

(٧) السمر: شجر كبير جيد الخشب.

وطال الحصارعلى بني هاشم وبني المطلب، واشتدَّ البلاء بهم، وبلغ منهم الجهد، إلا أنهم صبروا على الجوع والحرمان من دون أن يُفرِّطوا في أمر محمد ﷺ، وظل عمه يحميه ويعطف عليه ويرعاه. لكن محمداً ﷺ شعر بأنه يجرُّ على بني هاشم كثيراً من البلاء لم يكونوا بقادرين على احتماله، وبخاصة أنه لم يتبعه منهم إلا القليل، إلا أن الأمر قد خرج من يده. إن القضية قد خرجت عن نطاق دعوته، وإن المسألة لم تعد مسألة تسليمه بل أضحت إذلال بني هاشم وإهلاكهم ليرث بنو أُمية ومن يساندهم تجارتهم وأموالهم ومناصبهم في مكة.

وطال أمد الحصار أكثر من سنتين[1]، وانتشر خبره بين العرب، فراحوا يتساءلون عن كنه الدعوة التي أخرجت قريش عن هدوئها وألجأتها إلى فرض هذه العقوبة الشنيعة بحق بطن من بطونها، ويترصدون أخبارها ويتعرفون على حقيقتها وأهدافها، فانعكست بذلك إرادة قريش، وانتشر ما أرادت أن تخفيه، ولنا في قصة إسلام الطفيل الدوسي وقدوم أعشى بن قيس بن ثعلبة إلى مكة ليعلن إسلامه، وقدوم وفد النصارى من الحبشة الذين أسلموا؛ لأمثلة على ذلك[2].

تجاه هذا التطور الجديد كان لا بد من اتخاذ تدبير يُعيد هيبة قريش أمام العرب، بعد أن تداعت نتيجة ذلك التصرف الأحمق الذي قاده أبو سفيان بن حرب، ويحد في الوقت نفسه من طموح أبي جهل.

وأدرك بعض الزعماء ممن لم يرضوا عن سياسة الأخيريْن، وكانوا قد وقَّعوا الصحيفة؛ أن القضية قد خرجت عن نطاقها، وأن الأمر لم يعد الضغط على بني هاشم ليتخلَّوا عن محمد، وإنما أُريد بها هلاكهم وزوالهم من مكة، وأن سياسة الحصار عزَّزت مركز العشائر القوية التي زادت من سيطرتها على تجارة مكة، وأضعفت في المقابل مركز العشائر الأخرى، وأدَّت رابطة الدم دوراً آخر في العمل على نقض الصحيفة.

وهكذا تشكَّل تحالف ضمَّ هشام بن عمرو بن ربيعة، وكان ذا قرابة لبني هاشم، وزهير بن أبي أُمية بن المغيرة، من بني مخزوم، والمطعم بن عدي، من بني نوفل، وأبا البختري بن هشام، وزمعة بن الأسود، وكلاهما من بني أسد، هدفه نقض الصحيفة. فتصدَّع بذلك الجدار الذي أقامته قريش في وجه بني هاشم، وخرج المحاصَرون ليستأنفوا نشاطهم العادي، وخرج محمد ﷺ ليواصل دعوته وجهاده وهو أقوى مما كان من قبل، وأتاح فشل سياسة الحصار والمقاطعة على تحسن فرص الدعوة[3].

---

(١) يذكر ابن إسحاق أن المحاصَرين أقاموا على ذلك سنتين أو ثلاثاً. ابن هشام: جـ٢ ص١٠٣.

(٢) ابن هشام: جـ٢ ص١٣٠ ـ ١٣٣، ١٣٥.

(٣) البلاذري: جـ١ ص٢٧٢، ٢٧٣.

الفصل الثالث

التطلع إلى الخارج

عام الحزن

نُكب رسول الله ﷺ في السنة العاشرة من بعثته بوفاة كلٍّ من عمِّه أبي طالب وزوجته خديجة بنت خويلد، وكان لوفاتهما، متعاقبين، وقع أليم في نفسه، وأتاح لقريش أن تمعن في اضطهاده وتزيد ضغطها عليه.

توفي أبو طالب بعد مغادرة بني هاشم شِعبه[1]. وكانت قريش تحترمه، وعندما حضرته الوفاة دخل عليه كلٌّ من أبي جهل وعبد الله بن أبي أمية بن المغيرة، وحرَّضاه على التمسك بدين آبائه، وعدم الدخول في الإسلام. ومن جهته عرض النبي ﷺ عليه الإسلام، وطلب منه أن ينطق بالشهادتين ليشهد له بهما عند الله، فأجابه: «لولا تعيِّرني بها قريش، يقولون إنما حمله عليها الجزع لأقررتُ بها عينيك». وبذلك أخفق في هداية عمه، لكنه قال: **(لأستغفرن لك ما لم أُنْهَ عنك)**. فأنزل الله تعالى في هذه المناسبة: ﴿مَا كَانَ لِلنَّبِيِّ وَالَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَن يَسْتَغْفِرُواْ لِلْمُشْرِكِينَ وَلَوْ كَانُوٓاْ أُوْلِي قُرْبَىٰ مِنۢ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُمْ أَصْحَٰبُ ٱلْجَحِيمِ﴾ [التوبة/١١٣]، كما أنزل ﷻ في حق أبي طالب: ﴿إِنَّكَ لَا تَهْدِي مَنْ أَحْبَبْتَ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يَهْدِي مَن يَشَآءُ وَهُوَ أَعْلَمُ بِٱلْمُهْتَدِينَ﴾ [القصص/٥٦].

إن المرء ليقف أمام هذا الحدث مدهوشاً من صرامة هذا الدين واستقامته، فهذا أبو طالب، عمُّ النبي ﷺ وكافله وحاميه، لا يكتب الله له الإيمان على شدَّة حبه لابن أخيه وشدَّة حب محمد ﷺ له أن يؤمن؛ ذلك أنه حمى لعصبية القرابة وحب الأبوة ولم يحم للعقيدة الإسلامية، وقد علم ﷻ منه ذلك، فأخرج أمر الهداية من يد رسوله إلى إرادته.

ومات أبو طالب على الشرك مخلفاً وراءه ابن أخيه متحسراً على عدم إيمانه.

وتهدَّم الجدار القائم بينه وبين قريش، فسقط عن القرشيين حرج كبير، وانكشف

---

(١) **صحيح البخاري**، كتاب مناقب الأنصار، باب قصة أبي طالب، رقم الحديث (٣٨٨٣)، ص٧٠٣.

ظهر محمد ﷺ أمام قومه، ما أتاح لهم النفاذ إليه. ولكن الحماية إنما تأتي من الله، وما البشر إلا وسيلة لها، وقد تعهد ﷻ أن يعصم نبيه من المشركين ويحميه منهم.

وخلف أبو لهب أخاه أبا طالب في رئاسة عشيرة بني هاشم، وكان أول عمل قام به هو أنه اجتمع مع محمد ﷺ ووعده بالحماية تماماً كما كان يفعل أبو طالب، بغية تبليغ رسالة ربه. والواضح أن تصرفه هذا هو تصرف الرئيس المسؤول عن حماية أفراد العشيرة التي يرأسها، على الرغم من أنه يناقض ما كان عليه من عداء شديد لابن أخيه. لكن الحماية لم تستمر مدة طويلة؛ إذ تخلَّى عنها أبو لهب بتحريض من أعداء محمد ﷺ، عندما علم أن ابن أخيه قال إن عبد المطلب سيدخل النار هو وكل من يموت على مثل ما مات عليه، فردَّ عليه أبو لهب قائلاً: «لا برحت لك عدواً أبداً وأنت تزعم أن عبد المطلب في النار. فاشتدَّ عليه هو وسائر قريش»[(١)].

وما كاد محمد ﷺ يبكي عمه أبا طالب حتى مرضت زوجته خديجة وسقطت ميتة[(٢)]، وهي التي كانت تمسح دموعه وقد ذاقت معه مر الحياة، وأوْلته حبها وحنانها طوال سني وحيه وجهاده المضني، حتى وفاتها.

أعقب وفاة أبي طالب وخديجة تعثُّر محاولات نشر الدعوة، فسُدَّت السبل في وجه رسول الله ﷺ، وخلت الطريق أمام القرشيين لزيادة الضغط عليه والإمعان في اضطهاده، فراحوا يتبارون في إيذائه والنيل منه، وتجرَّأ أحدهم فنثر التراب على رأسه، وتشجع آخر فألقى عليه رحم شاة وهو يصلي، ووطىء عقبة بن أبي معيط على رقبته وهو ساجد حتى كادت عيناه تبرزان، ثم وضع ثوبه على عنقه ولفَّه به وخنقه خنقاً شديداً، فأقبل أبو بكر حتى أخذ بمنكبيه ودفعه عنه، وكان نصيبه الضرب، ولما قام قال: (**ما نالت مني قريش شيئاً أكرهه حتى مات أبو طالب**)[(٣)].

وقضى محمد ﷺ أياماً عدَّة على ذلك يتلقى الضربات ويرجع إلى البيت كل مساء مهموماً تنوح فيه ذكريات عمه وزوجته، وشقَّ على أتباعه القلائل في مكة ما كان يتعرض له ولا يستطيعون مساعدته، إلا أنهم نصحوه أن يتزوَّج من تُعوِّضه عن خديجة، وذُكرت له النساء المسلمات، منهن امرأة مسلمة، مات عنها زوجها وتركها وحيدة وهي ما برحت تشكو الحاجة. وقبلت سودة بنت زمعة الزواج منه[(٤)].

---

(١) طبقات ابن سعد: جـ١ ص٢١١.

(٢) المصدر نفسه. يذكر ابن سعد أن بين وفاة أبي طالب وخديجة شهراً وخمسة أيام، ويذكر ابن هشام أنهما هلكا في عام واحد. جـ٢ ص١٦٦.

(٣) ابن هشام: جـ٢ ص١٧٢. السيرة الحلبية: جـ١ ص٣٢٠.

(٤) طبقات ابن سعد: جـ٨ ص٥٣.

وكان ﷺ يُخفِّف عنه في كل مرة ما كان يشعر به من حزن ومن ضيق بما يلقي في نفسه من السكينة، وبما يقصُّ عليه من أنباء الذين سبقوه من الرسل والأنبياء مبيناً له ما كان من صبرهم على الأذى حتى أتاهم نصر الله، فكان يحثُّه على التأسي بهم.

وأدرك محمد ﷺ أخيراً أن لا أمل في استقطاب قريش إلى الإسلام، وأنه من الخير أن يجري التحول عنها والتوجه إلى غيرها من الناس.

الخروج إلى الطائف[1]

أدرك النبي محمد ﷺ أن القرشيين سيظلون على عدائهم له ولدعوته، ولن يؤمنوا بما جاء به من عند الله إلا بالقوة وهي غير متوفرة الآن، لذلك قرَّر الخروج إلى الطائف حيث تقطن ثقيف، يلتمس النصرة من الثقفيين والمنعة بهم آملاً أن يقبلوا منه ما جاءهم به من الله ﷺ، وقد أمل في استقطابهم. وقد شجعه على اختيار الطائف ما كانت له مع الثقفيين من صلة الرحم[2]، وما كان لعمه العباس من صداقة مع بعض زعماء ثقيف، وله فيها مزارع وعبيد وأُجراء يعملون لحسابه[3]، هذا على الرغم من علمه ما يربط الثقفيين والقرشيين من صلات وثيقة من المودة والمنفعة المتبادلة، وحرص الثقفيين على أن تظل وثيقة، ولم يكن هؤلاء بغافلين عما كان يجري في مكة من صراع بين محمد ﷺ والقرشيين، فخشوا أن تتأثر منزلة اللات بالدعوة الإسلامية.

توجَّه محمد ﷺ إلى الطائف جزيناً مكروباً تتنازعه آمال النجاح والإخفاق، ولما وصل إليها عرض دعوته على سادتها طالباً منهم الإيمان به والنصرة له، والقيام معه على مَنْ خالفه مِن قومه، إلا أنهم لم يستجيبوا لندائه ولم يحسنوا لقاءه، ورفضوا نصرته ولم يرضوا أن يكون في جوارهم، وأغروا عبيدهم وسفهاءهم بمطاردته بالحجارة حتى أدموا قدميه.

وكان أشد ما لقيه من أشراف ثقيف ما كان من تصرف أبناء عمرو بن عمير بن عوف، وهم عبد ياليل ومسعود وحبيب، وقد سخروا منه واستهزؤا به، فقال أحدهم: «أما وجد الله أحداً يرسله غيرك». وقال له الآخر متهكماً: «والله لا أكلمك أبداً، لئن كنت رسولاً من الله كما تقول لأنت أعظم خطراً من أن أردَّ عليك الكلام، وإن كنت تكذب على الله ما ينبغي لي أن أُكلمك». وتحدى الثالث بمرط[4] أستار الكعبة إن كان الله أرسله رسولاً. عندئذٍ أدرك أن لا أمل في إيمان ثقيف،

---

(١) تبعد الطائف عن مكة نحو خمسين ميلاً.

(٢) استرضع محمَّد ﷺ في بادية بني سعد التي هي جزء من الطائف.

(٣) البلاذري: فتوح البلدان، ص٦٨. (٤) يمرط: يهتك.

وخشي أن تعلم قريش بإخفاقه، فناشدهم أن يكتموا أمره، فأبوا عليه ذلك(١).

وعزَّت على محمد ﷺ نفسه، وشعر بالإخفاق يسري في عروقه، فراح يفكر في أمره ويستعرض ظروفه وأحواله، فبدا له الوضع أشد ما يكون قسوة وأحوج ما يكون إلى مدد من العون الإلٰهي، حتى وصل إلى بستان لعتبة بن ربيعة، وقد أنهكه التعب والجراح، فتوجَّه إلى خالقه يبتهل إليه ويرجو منه الغوث والرحمة، ويستعيذ من خواطر الضعف والفشل، فرفع يديه بالدعاء يقول: (**اللهمَّ إليك أشكو ضعف قوتي، وقِلَّة حيلتي، وهواني على الناس، يا أرحم الراحمين، أنت رب المستضعفين، أنت ربي، إلى من تكلني؟ إلى بعيد يتجهمني(٢) أم إلى عدوٍّ ملَّكته أمري؟ إن لم يكن بك عليَّ غضب فلا أُبالي، ولكن عافيتك أوسع لي، أعوذ بنور وجهك الذي أشرقت له الظلمات وصلح عليه أمر الدنيا والآخرة من أن تنزل بي غضبك أو تحل عليَّ سخطك، لك العتبى(٣) حتى ترضى، ولا حول ولا قوة إلا بك**)(٤).

لقد شعر محمد ﷺ، كما يشعر كل إنسان، بالضعف والحاجة إلى نصير، وتبيَّن من التجائه إلى ربه أنه يشكي إليه طمعاً في عافيته ومساعدته، ولعلَّه خشي أن يكون ما لاقاه وما يلاقيه إنما هو بسبب غضب الله عليه لأمرٍ ما، لذلك كان هذا الدعاء تنفيساً لكربه علماً بأن الشكوى إلى الله عبادة، والضراعة له والتذلُّل على بابه تقرُّب وطاعة، ثم إن المِحن والمصائب تقود صاحبها إلى باب الله تعالى. وسمع ﷻ شكواه، فواساه ثلاث مرات في هذه الرحلة:

الأولى: عندما تحركت عاطفة القرابة في قلبيّ ابني ربيعة، فدعوَا غلاماً لهما نصرانياً يدعى عدَّاس، وقالا له: «خذ قطفاً من العنب واذهب به إلى الرجل». فلما وضعه بين يدي رسول الله ﷺ، مدَّ يده إليه قائلاً: (**باسم الله**) ثم أكل. فقال عداس: «إن هذا الكلام لا يقوله أهل هذه البلاد». وسأله ﷺ: (**من أيِّ البلاد أنت؟**) قال عداس: نصراني من أهل نينوى(٥). فقال الرسول ﷺ: (**من قرية الرجل الصالح يونس بن متى**). وقال له عدَّاس: «وما يدريك ما يونس بن متى؟». قال ﷺ: (**ذاك أخي، كان نبياً وأنا نبيٌّ**). فقام عدَّاس وراح يقبل رأسه ويديه ورجليه، وابنا ربيعة ينظران إليه ويتعجبان من تصرفه. فلما عاد إليهما سألاه عن سبب تصرفه، فقال لهما: «لقد أخبرني بخبر لا يعلمه إلا نبيٌّ»(٦).

(١) ابن هشام: جـ٢ ص١٧٢.
(٢) يتجهمني: يلقاني بالغلظة والوجه الكريه. (٣) العتبى: الاسترضاء.
(٤) ابن هشام: جـ٢ ص١٧٢، ١٧٣. (٥) نينوى: قرية بالموصل في العراق.
(٦) البلاذري: **أنساب الأشراف**، جـ١ ص٢٧٣. ابن هشام: جـ٢ ص١٧٣.

كان عدَّاس بمثابة الاعتذار عما بدر من الثقفيين من سفاهة وشر، وكانت القبلات بعد كلمات العداء.

الثانية: لقد أرسل ﷻ إلى نبيه ﷺ جبريل، ومعه ملك الجبال، ليأمره بما شاء في أهل الطائف، وقال له ملك الجبال: «إن شئت أن أُطبق عليهم الأخشبين»[١]. فقال رسول الله ﷺ: (**بل أرجو أن يُخرج الله من أصلابهم من يعبد الله وحده ولا يشرك به شيئاً**)[٢]. وهذا دليل على أن المحنة التي تعرَّض لها على أيدي الثقفيين لم تترك في نفسه شيئاً من الحقد عليهم، وظل يتمنى لهم الهداية، وكان بوسعه أن ينتقم منهم.

الثالثة: غادر النبي محمد ﷺ الطائف بعد عشرة أيام من وصوله إليها وقد يئس من إيمان ثقيف، عائداً إلى مكة حتى إذا كان بنخلة قام من جوف الليل يصلي، فمرَّ به نفر من الجن فاستمعوا له، فلما فرغ من صلاته ولَّوا إلى قومهم منذرين، قد آمنوا وأجابوا لما سمعوا، وقد قصَّ ﷻ خبرهم في سورة الجنِّ.

ودخل النبي ﷺ مكة بعد أن أجاره المطعم بن عدي، واضطر القرشيون القبول بجواره لهم مكرهين. وبعد إخفاقه أمام ثقيف؛ أقدم محمد ﷺ على خطوة أخرى لاستقطاب الناس إلى دعوته، فقرَّر أن يعرضها على القبائل.

الإسراء[٣] والمعراج[٤]

خلاصة ما ورد في قصة الإسراء والمعراج أنه ﷺ أُتي بالبراق[٥]، فركبه حتى أتى بيت المقدس، فدخل المسجد الأقصى فصلّى فيه ركعتين. وفي رواية: جُمع له الأنبياء فصلَّى فيهم ركعتين، ثم أتاه جبريل بإناءٍ من خمر وإناء من لبن، فاختار

---

(١) **الأخشبان**: جبلان في مكة هما أبو قبيس وقعيقعان، وقيل: الجبل الأحمر الذي يقابل أبا قبيس المشرف على قعيقعان.

(٢) صحيح مسلم على شرح النووي: كتاب الجهاد والسير، جـ١٢ ص١٥٤، ١٥٥.

(٣) **الإسراء**: السير ليلاً، ويُقصد بحادثة الإسراء تلك الرحلة التي أكرم الله بها نبيَّه ﷺ من المسجد الحرام في مكة إلى المسجد الأقصى في بيت المقدس، وقد أشار القرآن الكريم إلى هذه الحادثة في سورة الإسراء، الآية الأولى.

(٤) **المعراج**: عرج في الشيء أو عليه: صعد، وعرج في السلم. ويُقصد بحادثة المعراج ما أعقب تلك الرحلة الليلية من ارتفاع في السماوات العلى مخترقاً ذلك العالم الغيبي المجهول لنا، حتى الوصول إلى سدرة المنتهى التي تنقطع عندها علوم الخلائق ثم العودة بعد ذلك إلى مكة، وقد أشار القرآن الكريم إلى هذه الحادثة في سورة النجم، الآيات ١ ـ ١٨.

(٥) **البراق**: دابة بيضاء اللون فوق الحمار ودون البغل يضع حافره عند منتهى طرفه، واسمه مشتق من البرق، ويدل على السرعة.

اللبن، فقال له جبريل: «اخترت الفطرة». ثم عُرج به إلى السماوات السبع ماراً في كل سماء بالأنبياء والرسل الذين بعثهم الله قبله حتى وصل إلى سدرة المنتهى، فعندئذ أوحى الله إليه ما أوحى، فأُعطي ثلاثاً: الصلوات الخمس، وخواتيم سورة البقرة، وغُفر لمن لم يشرك بالله من أُمته شيئاً المقحمات[1]، ثم عاد من ليلته إلى مكة. وفي صباح اليوم التالي قام ليخرج، فأخذت عمته أم هانىء بطرف ردائه وتشبثت به قائلة: «يا نبي الله! لا تحدث بهذا الناس فيكذبوك ويؤذوك. فأجابها وهو واثق من نفسه: (**والله لأحدثنهموه**)، وخرج إلى المسجد وحدَّث القرشيين بحديث الإسراء والمعراج، فتعجب الحاضرون وانقسموا بين مصدق ومنكر. وانطلق نفر منهم إلى أبي بكر يحدثونه بما سمعوا، فقال لهم: «لئن كان قد قاله فقد صدق، فما يعجبكم من ذلك؟ فوالله إنه ليخبرني أن الخبر ليأتيه من السماء إلى الأرض في ساعة من ليل أو نهار فأصدقه، فهذا أبعد مما تعجبون. ثم سعى إلى رسول الله ﷺ، واستوضح الأمر منه، ولما تأكد صدَّقه، عندئذ التفت النبي ﷺ إلى أبي بكر، وقال له: (**وأنت يا أبا بكر الصديق**)، فيومئذ سماه الصديق»[2].

تحليل حادثتي الإسراء والمعراج

ـ إن الإسراء والمعراج كانا بالروح والجسد، وكشفاً وتجلية للرسول ﷺ ومواساة له وبخاصة أنهما حدثتا عقب سلسلة من المآسي التي حلَّت به على يد قومه ويد ثقيف، ووفاة كل من عمِّه أبي طالب، الذي كان يدفع عنه أذى قريش، وزوجته خديجة بنت خويلد، التي كانت تنفخ فيه روح التصميم، ما احتاج معه إلى عون إلٰهي علماً بأن الله كان يتيح لرسله وأنبيائه عبر الأزمان فرص الاطِّلاع على مظاهر عظمته وقدرته حتى تستيقن نفوسهم وتمتلىء قلوبهم إيماناً، ولا يساورهم أدنى شك، وقد أجمل ﷻ هذه الرحلة في قوله عن الإسراء ﴿لِنُرِيَكَ مِنْ ءَايَٰتِنَا ٱلْكُبْرَىٰ﴾ [طه/٢٣]، كما أجملها في قوله عن المعراج: ﴿لَقَدْ رَأَىٰ مِنْ ءَايَٰتِ رَبِّهِ ٱلْكُبْرَىٰٓ﴾. فالحكمة إذن أن يشاهد محمد ﷺ ما شاء من آيات قدرته ﷻ، وعجائب صنعه، وعظم ملكه ليطمئن قلبه ويزداد يقينه ويكسب قوة دفع جديدة في سبيل الكفاح من أجل بثِّ الدعوة.

ـ إن الرسل والأنبياء، حتى مبعث النبي محمد ﷺ، كانوا غالباً من بني إسرائيل؛

---

(١) **المقحمات**: الذنوب العظام، ومعنى الكلام: من مات من هذه الأُمة غير مشرك بالله غُفر له المقحمات؛ أي: أنه لا يخلَّد في النار.

(٢) **صحيح مسلم على شرح النووي**: كتاب الإيمان، جـ٢ ص٢١٠ ـ ٢١٥، جـ٣ ص٢ ـ ٩. **صحيح البخاري**: كتاب مناقب الأنصار، باب حديث الإسراء وباب حديث المعراج، رقم الحديث (٣٨٨٦ و٣٨٨٧)، ص٧٠٣ ـ ٧٠٥. ابن هشام: جـ٢ ص١٤١ ـ ١٥٦.

ما يعني أن الله ﷻ خصَّهم بالنبوَّة والتقدم، وما تبقَّى من اليهودية والنصرانية التي عُدَّت إحدى الفرق اليهودية في بداية ظهورها على الأقل من مبادىء محرَّفة ومشوَّهة المعالم السماوية، أدَّى إلى انتزاع القيادة من الإسرائيليين ووضعها في أيدي أمة أخرى اختارها الله لحمل الأمانة[1]. ورد في إنجيل متى[2] «أقول لكم أن ملكوت الله سينزع منكم ويُعطى لأمة تُثمر ثمره». جاء هذا النص في معرض مهاجمة المسيح لعظماء الكهنة وشيوخ الشعب الإسرائيليين بعد دخوله الهيكل، علماً بأن النصارى لم يُشكلوا أُمة متفردة في ذلك الوقت.

ـ إن تقدُّم رسول الله ﷺ وصلاته بالرسل والأنبياء الذين بعثهم الله قبله، وإقرار هؤلاء على ذلك، واقتداءَهم به؛ هو تحوُّل ديني وسياسي جذري نُزعت به القيادة من أيدي بني إسرائيل وأُعطيت للأُمة العربية التي اختارها الله لحمل الأمانة، وهو المقصود بالآية المشار إليها آنفاً.

ـ إن اختيار النبي محمد ﷺ لإناء اللبن الذي يمثل الفطرة، وقول جبريل له: «هُديت للفطرة وهُديت أُمتك»؛ يعني أن النظم التي ستنزل عليه لتقيم دولة الإسلام على أساسها في الأرض وتحكم بين الناس، هي الفطرة التي لا يجد الناس حرجاً في الأخذ بها، فتأكدت بذلك الصفة الأولى لهذا الدين، وهي أنه دين الفطرة[3].

ـ يرمز الإسراء برسول الله ﷺ إلى بيت المقدس وصلاته فيه إماماً وعروجه منه إلى السماوات العلى إلى أمرين:

الأول: أن بيت المقدس هو من أراضي الدولة الإسلامية المرتقبة؛ لأن صاحب البيت هو صاحب الحق بالإمامة في الصلاة، وأن اقتداء الرسل والأنبياء به في الصلاة يدلُّ على إقرارهم بأن بيت المقدس بقعة من جملة البقاع الإسلامية[4].

الثاني: ربط بين ما بُعث به الرسل والأنبياء قبل محمد ﷺ، من لدن إبراهيم وإسماعيل مروراً بموسى وعيسى، بما جاء به محمد ﷺ، كما ربط بين الأماكن المقدسة لأتباع الرسل والأنبياء، وتدل دلالة واضحة أنه ورث بعد هذه الرحلة مقدساتهم، وأن رسالته شملت ما كانوا قد جاؤوا به، وظهر أنه مُرسل من السماء ليُكمِّل البنيان الذي تعهده من سبقه.

ـ وفُرضت الصلوات الخمس في هذه الرحلة وشُرعت في السماء لتكون معراجاً

---

(١) قلعه جي: ص٨٠.
(٢) الإصحاح ٢١، الآية ٤٣.
(٣) قلعه جي: ص٨٠.
(٤) المرجع نفسه: ص٨١.

يرقى بالناس كلما غرَّتهم الدنيا بزخرفها، فالصلاة هي الصلة الدائمة بين العبد وربّه، وهي لبُّ العبادة وجوهرها وعماد الدين وإحدى ركائزه، ولعلها كانت السر العظيم الذي أفضى به ﷻ إلى عبده ورسوله محمد ﷺ.

مع القبائل

عاد رسول الله ﷺ من رحلة الإسراء والمعراج، وهو مفعم بالعزيمة، وقرَّر أن يتبع أسلوباً آخر في الدعوة إلى الله يقوم على استقطاب قبائل العرب التي تفد إلى مكة للحج، وسيخرج هذه المرة إلى أسواق التجارة ليخطب في الحجيج، ويدعو الوفود، ويعرض دعوته على القبائل، ولا بد من أن يجد قبيلة من بينها تؤمن به، وركَّز على أمرين:

الأول: الإيمان بالله تعالى وحده، ونبذ ما سواه من الآلهة المزيفة والإيمان به.

الثاني: حمايته والدفاع عنه في وجه من عاداه حتى يُبلِّغ رسالة ربه.

وتراوحت ردود الفعل الأولية بين الرفض: كنده وكلب. والرفض مع الغلظة في الرد، بنو حنيفة. والتمهل في الرد: بنو شيبان. والمساومة: عامر بن صعصعة[1]. والواضح أن مطلب النصرة كان يقف حجر عثرة في وجه الاستجابة، فرأى ﷺ أن من حسن السياسة أن يتجاوز هذا المطلب مؤقتاً إلى أن تتشرب القلوب الإيمان، وأن يكتفي بالدعوة إلى الإيمان بوحدانية الله، والراجح أن لذلك علاقة بمدى صلات القبائل بمكة، فهي لا تستطيع معاداة قريش، فكانت تتحرك ضمن ظروفها السياسية وحياتها الاقتصادية والدينية، كما أنها كانت تعيش آمنة مطمئنة في ديارها دونما حاجة إلى التغيير الذي تتطلبه الدعوة الإسلامية، على الرغم من أن بعضها اعترف بصوابية المبادىء الإلٰهية.

التمهيد لبيعتيّ العقبة[2]

عندما جاء الوقت الذي وُجدت فيه التربة الصالحة لنمو المبادىء الإسلامية، كان المجتمع اليثربي بحاجة ماسة إلى تغيير جذري في مبادئه ومفاهيمه وأسس تركيبه وقواعد السلوك فيه، وهو يتطلع إلى هذا التغيير منذ زمن، حتى وجده في مبادىء هذه الدعوة، فاستجاب لنداء محمد ﷺ من دون تردد، غير مكترث لتحذيرات القرشيين.

ولا بد لنا من التساؤل في هذا المقام عن العوامل التي دفعت المجتمع اليثربي للإقدام على اعتناق الإسلام واحتضان الدعوة الإسلامية، وعن حاجة هذا المجتمع

---

(١) ابن هشام: جـ٢ ص١٧٣ ـ ١٧٥.

(٢) **العقبة**: منزل في طريق مكة بينها وبين منى، منها تُرمى جمرة العقبة.

إلى التغيير، والواضح أن العناصر المكونة لهذا المجتمع كانت أحد هذه العوامل.

كان المجتمع اليثربي يتألف من عنصرين: العنصر العربي وهو الغالب، والعنصر اليهودي، وكان يحتدم بينهما صراع دائم، كما كانت تسود كلا العنصرين نزاعات داخلية حادة على السلطة وحب الظهور.

ويتكوَّن العنصر العربي في يثرب من قبيلتين رئيستين هما: الأوس والخزرج، وأصلهما من أزد اليمن. ويتكوَّن العنصر اليهودي من ثلاث قبائل رئيسة، هي: بنو النضير، وبنو قريظة وبنو قينقاع، وقد عاشت في استقلال تام عن الأوس والخزرج، وشغلت مساحات واسعة من الأراضي الخصبة.

وعمد اليهود، على عادتهم، إلى العمل على تفريق العرب وشرذمتهم لتقوية قبضتهم على مقدرات يثرب، فراحوا يدسُّون بين الأوس والخزرج ويحيكون المؤامرات حتى استحكمت العداوة والبغضاء بينهما، واشتبكا في حروب طاحنة كان آخرها حرب حاطب، وكانت لهما أيام مشهورة آخرها يوم بُعاث قبل الهجرة بخمس سنوات، وكانت الغلبة فيه للأوس الذين أرادوا إبادة الخزرج لولا تدخل بعض الزعماء[١]. وكان اليهود أيضاً في صراع مستمر فيما بينهم، ويتوزعون التحالفات مع العرب وفقاً لمصلحة كل قبيلة[٢].

وكان اليهود يُعيِّرون العرب بوصفهم أُميين وأهل شرك، في حين أنهم أهل علم وكتاب، ويتهدَّدونهم قائلين: «إن نبياً مبعوث الآن قد أظلَّ زمانه، نتبعه فنقتلكم معه قتل عاد وإرم»[٣].

واستفاق العرب، بعد بُعاث، فهالهم ما مُنوا به من خسائر وتضعضُع، وأدركوا أنهم أضحوا ضعفاء، وإذا استمروا على ذلك فسيسود اليهود ويصبحون تبعاً لهم، لذلك تنادوا إلى الصلح واتفقوا على تعيين عبد الله بن أُبيٍّ بن سلول رئيساً عليهم، وقد اختاروه لشرفه وعِظم مكانته.

وأدَّت الأحوال الاقتصادية في يثرب دوراً بارزاً في زيادة حدة الصراع واستمراره، فقد كان عدد السكان في ازدياد مستمر، في الوقت الذي بقيت مساحات الأراضي المزروعة محدودة، فكانت الحرب هي الوسيلة للخروج من هذا المأزق؛ إذ كان المنتصر يستولي على أراضي الخاسر ويستغلها. وشُغل الناس بالحروب، فأهملوا تحسين الأراضي المزروعة كما لم يستصلحوا أراضٍ جديدة، ولم يعتنوا بالأشجار المثمرة ما أدّى إلى انكماش الأوضاع الزراعية.

---

(١) ابن الأثير: عز الدين أبو الحسن علي، **الكامل في التاريخ**، جـ١ ص٥٩٥ ـ ٦٠٤.

(٢) تفسير ابن كثير: جـ١ ص١٢٠، ١٢١. (٣) ابن هشام: جـ٢ ص١٧٦.

وكان للعادات والتقاليد الاجتماعية دور آخر في استمرار الصراع بين السكان في يثرب، فكما في مكة كذلك في يثرب، كان على كل قبيلة أن تحمي أتباعها وتدافع عنهم وعن ممتلكاتهم ضد أي اعتداء.

ولم تُتح الحياة الزراعية وتعدد العنصر السكاني لليثربيين بأن يتحدوا ويُثروا كما حدث في مكة.

نتيجة لذلك كانت بيئة يثرب مُهيَّأة لتقبُّل الدعوة الإسلامية، ووجد اليثربيون في شخص محمد ﷺ بارقة أمل في تحقيق السلام، واقتنعوا بأنه فعلاً نبي مرسل، فاستجابوا له عندما دعاهم، من دون تردد.

في السنة الحادية عشرة من البعثة عرض رسول الله ﷺ نفسه على القبائل، شأنه كل عام، فلقي رهطاً من الخزرج عند العقبة أراد الله بهم خيراً، فسألهم: **(من أنتم؟)** قالوا: نفرٌ من الخزرج. قال: **(أمن موالي يهود؟)** قالوا: نعم. قال: **(أفلا تجلسون أحدِّثكم؟)** قالوا: بلى. فجلسوا معه، فدعاهم إلى الله ﷻ وعرض عليهم الإسلام وتلا عليهم القرآن. فقال بعضهم لبعض: «يا قوم! تعلمون والله أنه للنبي الذي تتوعدكم به يهود، فلا يسبقنكم إليه». فأجابوه فيما دعاهم إليه فصدَّقوه وقبلوا ما عرضه عليهم من الإسلام، وقالوا: إنا قد تركنا قومنا ولا قوم بينهم من العداوة والشر ما بينهم، فعسى أن يجمعهم الله بك... وانصرف القوم عائدين إلى بلادهم وقد آمنوا وصدَّقوا، وعرضوا الأمر على قومهم ودعوهم إلى الإسلام حتى فشا فيهم، «فلم تبق دار من دور الأنصار إلا وفيها ذكر من رسول الله ﷺ»(١).

كان أولئك النفر طليعة للدعاية الموفقة للإسلام في يثرب، وقد أثمرت جهودهم على عجل، فلم تبق دار إلا دخلها الإسلام.

الواقع أن النبيَّ محمد ﷺ عانى كثيراً طوال عشر سنوات من دون راحة ولا استقرار تتربص به قريش في كل لحظة وتصب عليه ألواناً من العذاب والمحن والشدائد، فلا ينقص ذلك شيئاً من عزيمته ولا يضعف شيئاً من قوته، وكأني به يعيش حياة غربة مظلمة في بلده وبين قومه، حتى أينع الصبر والجهد وحان موعد القطاف، وكان من السهل على الله ﷻ أن يقيم دعائم المجتمع الإسلامي من دون ذلك كله، ولكن تلك هي سنَّة الله في عباده ليمحص الصادق من المنافق، وليميز الطيب من الخبيث(٢).

وجاءت الثمرة من خارج دائرة قريش ومن غير بيئته حتى لا يُظن بأن دعوته كانت

---

(١) ابن هشام: جـ٢ ص١٧٦، ١٧٧. ابن سعد: جـ١ ص٢١٥ ـ ٢١٩.

(٢) الصلَّابي: جـ١ ص٢٦٥.

دعوة قومية حاكتها رغبات قومه وظروف بيئته، وكان الله قد هيَّأ البيئة اليثربية لتقبُّل هذه الانعطافة المهمة، بفعل:

ـ ما طُبع عليه قبائل الأوس والخزرج من الرقَّة واللين وعدم المغالاة في الكبرياء، ويعود ذلك إلى الخصائص الدموية والسلالية، وهما ترجعان في أصليهما إلى اليمن؛ علماً بأن أجدادهما نزحوا منها في الزمن القديم، وقد أشار الرسول ﷺ إلى هاتين الخاصتين عندما جاءه وفد من اليمن، بقوله: (أتاكم أهل اليمن، هم أرق أفئدة وألْيَن قلوباً...)[1].

ـ النزاعات الدموية التي قامت بينهما، وقد أفنت كبار زعمائهما ممن كان نظراؤهم في مكة والطائف حجر عثرة في سبيل نشر الدعوة، ولم يبق إلا القيادات الشابة الجديدة المستعدة لقبول دعوة الحق، وكانت بحاجة إلى إعادة التكتل والائتلاف، فلمَّ النبي ﷺ شملهم. قالت السيدة عائشة رضي الله عنها: «كان يوم بُعاث يوماً قدمه الله تعالى لرسوله ﷺ، فقدم رسول الله ﷺ وقد افترق ملؤُهُم، وقُتلت سرواتهم[2]، وجُرِّحوا، فقدمه الله لرسوله ﷺ في دخولهم في الإسلام»[3].

ـ مجاورتهم لليهود ما جعلهم على علم بشكل نسبي بأمر الرسالات السماوية، وكانوا يعايشون هذه القضية يومياً في مجتمعهم، وكان اليهود يُهدِّدونهم بنبي قد أظلَّ زمانه سيتبعونه ويقتلونهم معه قتل عاد وإرم.

بيعة العقبة الأولى

جاء العام التالي يحمل في طياته تباشير الخير؛ إذ وافى الموسم اثنا عشر رجلاً من الأوس والخزرج، فاجتمعوا بمحمد ﷺ ليلاً عند العقبة، وبايعوه على بيعة النساء، وذلك قبل أن تُفرض الحرب، وعاهدوه بألا يُشركوا بالله شيئاً، ولا يسرقوا، ولا يزنوا، ولا يقتلوا أولادهم، ولا يأتوا ببهتان يفترونه من بين أيديهم وأرجلهم، ولا يعصوه في معروف[4].

وأرسل محمد ﷺ معهم مصعب بن عمير ليعلِّمهم القرآن والإسلام ويفقِّههم في

---

(١) صحيح البخاري، كتاب المغازي، باب قدوم الأشعريين وأهل اليمن، رقم الحديث (٤٣٨٨)، ص٧٩.

(٢) السروات: الأشراف.

(٣) صحيح البخاري، كتاب مناقب الأنصار، باب مناقب الأنصار وقوله ﷺ: ﴿وَالَّذِينَ ءَاوَوا وَنَصَرُوٓا﴾، رقم الحديث (٣٧٧٧)، ص٦٨٦، وباب القسامة في الجاهلية، رقم (٣٨٤٦)، صفحة ٦٩٧، ورقم (٣٩٣٠) ص٧١٤.

(٤) البلاذري، جـ١ ص٢٧٥ ـ ٢٧٧.

الدين؛ ذلك لأن الأوس والخزرج كانوا حديثي عهد بالحرب، فكره بعضهم أن يؤمه بعض[1]. وكان على مصعب أيضاً أن يوافي محمداً ﷺ بتقارير عن الأوضاع المستجدة.

نتائج بيعة العقبة الأولى

ـ تُعدُّ بيعة العقبة الأولى الخطوة الأولى في تأسيس قاعدة إسلامية في الجزيرة العربية، وهي القلعة الحصينة التي أراد النبي ﷺ أن يمتنع بها هو وأصحابه لينشر دعوته بين القبائل ويوصلها إلى الفرس والروم البيزنطيين، بل إلى العالمين.

ـ تمَّ نتيجة بيعة العقبة الأولى دخول عدد كبير من أهل يثرب في الإسلام، وكان إسلامهم بالقول والعمل، وما أخذه الرسول ﷺ منهم عند البيعة من الالتزام يُعدُّ من أهم معالم المجتمع الإسلامي الذي بُعث لإنشائه.

ـ لا شك بأن محمداً ﷺ هو المتكفل بعبء الدعوة إلى دين الله، بوصفه رسوله إلى الناس كافة، لكن ما دور أولئك الذين يدخلون في الإسلام؟ وما علاقتهم بالدعوة؟. الواقع أن مهمة الدعوة إلى الإسلام ليست وقفاً على الرسل والأنبياء وحدهم، بل هي مسؤولية كل مسلم أيضاً، بدليل أن النبي ﷺ بعث مصعب بن عمير مع الاثني عشر رجلاً إلى يثرب لتعليم أهلها القرآن[2].

ـ حضر بيعة العقبة اثنان من الأوس، وهذا تطور مهم لمصلحة الإسلام من خلال تجاوز القبيلتين قضية النزاعات الداخلية.

بيعة العقبة الثانية

جاء موسم الحج التالي وقد فشا الإسلام في يثرب، ورأى المسلمون أن ينصروا محمداً ﷺ ويؤووه ويمنعوه، وودُّوا لو نالوا شرف حمايته، وقد ساءهم أنه يُعذَّب في مكة وهو يطلب من قومه المنعة، فلا يحفل به أحد؛ لذلك قرَّروا الخروج إلى الحج ودعوته إلى بلدهم. وعاد مصعب بن عمير إلى مكة يحمل النبأ لمحمد ﷺ. وما إن وافت الأشهر الحرم حتى وفد إلى مكة عدد كبير من مسلمي يثرب ومشركيها، وفي نية المسلمين مبايعة محمد ﷺ فيما اعتزموا عليه.

وراح النبي ﷺ يستعد للخطوة الجديدة حتى يعقد بيعة أخرى مع مسلمي يثرب يضمن بموجبها لنفسه ولأصحابه ولدعوته المنعة والحماية والنصرة، وكان حريصاً أن يتم ذلك سراً خشية أن يتسرب الخبر إلى قريش، فواعد المسلمين اليثربيين شِعب

---

(١) ابن سعد: جـ١ ص٢٢٠.　　(٢) البوطي: ص١٧٦ ـ ١٧٨.

العقبة من أواسط أيام التشريق، على أن يكتموا الأمر على من معهم من المشركين، وأن يأتوا متفرقين بعد الثلث الأول من الليل، وأن لا ينتظروا غائباً ولا يوقظوا نائماً.

وتسلَّل في الليلة المحددة ثلاثة وسبعون رجلاً وامرأتان من المسلمين، وساروا مستخفين حتى أتوا العقبة، وبعد مدَّة وجيزة قدم محمد ﷺ ومعه عمُّه العباس، وكان لا يزال مشركاً إلا أنه حضر ليستوثق لابن أخيه من عهدهم الذي سيعاهدونه عليه. وافتتح الجلسة بقوله: «يا معشر الخزرج[1]! إن محمداً منا حيث قد علمتم، وقد منعناه من قومنا ممن هم على مثل رأينا فيه، فهو في عزٍّ في قومه ومنعة في بلده، وإنه أبى إلا الانحياز إليكم واللحوق بكم، فإن كنتم ترون أنكم وافون له فيما دعوتموه إليه، مانعوه ممن خالفه، فأنتم وما تحملتم من ذلك، وإن كنتم ترون أنكم مُسلِّموه وخاذلوه بعد خروجه إليكم، فدعوه من الآن فإنه في عز ومنعة من قومه وبلده».

وتكلم محمد ﷺ بعد عمه، فدعا القوم إلى الله ورغَّب في الإسلام، ثم قال: (**أُبايعكم على أن تمنعوني مما تمنعون منه نساءكم وأبناءكم**). فأكَّد مسلمو يثرب ذلك، لكن كانت هناك قضية أراد بعضهم أن يستجليها وهي بمثابة خط الرجعة لهم؛ إن بينهم وبين اليهود عهوداً ومواثيق، وإنهم يريدون أن يقطعوها بعد أن منَّ الله عليهم بالإسلام، «فهل عسيت يا محمد إن نحن فعلنا ذلك ثم أظهرك الله أن ترجع إلى قومك وتدعنا؟». فتبسَّم محمد ﷺ وقال: (**بل الدم الدم، والهدم الهدم، أنا منكم وأنتم مني، أحارب من حاربتم وأُسالم من سالمتم**). فاطمأنت قلوبهم.

وبسط محمد ﷺ يده إليهم، فبايعوه واحداً بعد آخر، ثم اختار من بينهم اثني عشر نقيباً ليكونوا كفلاء على قومهم ككفالة الحواريين لعيسى ابن مريم، في حين يكون هو كفيلاً على قومه.

وما كادت هذه المعاهدة غير المكتوبة تتم حتى اكتشفها أحد جواسيس مكة، الذين كانوا يترصدون تحركات محد ﷺ، ويراقبون تحركات أهل يثرب بعد أن علمت قريش ما كان من أمر العقبة الأولى في العام المنصرم، فصرخ هذا الشيطان يُنذر قريشاً، ثم انفضَّ الاجتماع وعاد القوم إلى رحالهم، ومحمد ﷺ إلى منزله.

وظنَّت قريش بأن أمراً ما قد تمَّ بين محمد ﷺ وأهل يثرب، فزار بعض زعمائها رحالهم في اليوم التالي، وخاطبوهم قائلين: «يا معشر الخزرج! إنه قد بلغنا أنكم جئتم إلى صاحبنا تستخرجونه من بين أظهرنا وتبايعونه على حربنا، وأنه والله ما من حيٍّ من العرب أبغض إلينا أن تنشب الحرب بيننا وبينهم منكم». فنفوا صحة الخبر،

(١) كان العرب يسمون هذا الحي من الأنصار الخزرج، خزرجها وأوسها.

وقال أحد زعمائهم البارزين وهو عبد الله بن أُبي بن سلول: «إن هذا لأمر جسيم، ما كان قومي ليتفوتوا عليَّ بمثل هذا وما علمته كان». لكن قريشاً تأكدت بعد أن تحرَّت أن بيعة الليل قد تمَّت فعلاً، وكان الحجيج قد نفروا من مِنى وغادر حجاج يثرب مكة عائدين إلى بلادهم، فطاردتهم قريش وتمكَّنت من إلقاء القبض على أحد المسلمين، وهو سعد بن عبادة سيد الخزرج، فعادوا به إلى مكة يسومونه ألواناً متعددة من العذاب حتى أجاره كل من جبير بن مطعم بن عدي والحارث بن أُمية؛ إذ كان يجير لهما تجارتهما إلى الشام أثناء مرورها بيثرب[1].

تحليل بيعة العقبة الثانية

- إن حضور العباس عم النبي ﷺ هذه البيعة هو تغطية لموقف بني هاشم المتخاذل تجاه محمد ﷺ بعد وفاة أبي طالب وتزعُّم أبي لهب لهذه العشيرة، علماً بأنه رفض حمايته واضطر عندما عاد من الطائف أن يدخل في جوار المطعم بن عدي من زعماء بني نوفل، وهي عشيرة معارِضة، ولم يدخل في جوار عشيرته. ونظراً إلى أن المصادر لم تتحدث بعد ذلك عن تغيير في هذه الإجارة، فإن ذلك يعني أنه بقي تحت حماية بني نوفل، يضاف إلى ذلك، فقد مدح العباس في كلامه الموجَّه إلى مسلمي يثرب ابن أخيه، وأظهر حرصه على منعه وحمايته من قومه، ما يتناقض مع ما أوضحناه من تراجع بني هاشم عن نصرته، كما أننا نلمس في رد مسلمي يثرب على كلام العباس أثناء عملية المبايعة أنهم أكثر حرصاً على حماية محمد ﷺ من عشيرته. وبناءً عليه، فإن حضور العباس لبيعة العقبة الثانية أمر قابل للمناقشة، ويمكن أن يكونَ من وضع أصحاب الدعاية العباسية.

- تمَّت بيعة العقبة الثانية في ليلة واحدة وبسرِّية تامة لإبعاد أنظار المشركين من أهل يثرب وأنظار قريش، ما يدل على عدم حدوث مناقشات أو خلافات في هذا الموضوع.

- توحي بيعة العقبة الثانية أن أهل يثرب بايعوا محمداً ﷺ على الحرب، ولم يكن قد فُرض القتال بعد، وهنا يكمن وجه التباين بينها وبين بيعة العقبة الأولى الخالية من الإشارة إلى الجهاد بالقوة، وقد أبدوا استعدادهم لاستقباله هو ومسلمي مكة في مدينتهم وحمايتهم جميعاً. ويبدو أنهم كانوا في شك من استمرار تزايد قوَّة قريش، نظراً لما تركته دعوة محمد ﷺ من أثر فيهم؛ ما دفعهم إلى تقييد أنفسهم في معاداة قريش، وبذلك قلبوا ظهر المجنِّ للقرشيين.

---

(١) انظر فيما يتعلق ببيعة العقبة الثانية: ابن هشام: جـ٢ ص١٨٦ ـ ١٩٣. البلاذري: جـ١ ص٢٧٧ ـ ٢٨٦. طبقات ابن سعد: جـ١ ص٢٢١ ـ ٢٢٣.

ـ تضمَّنت بيعة العقبة الثانية الأسس التي هاجر النبي ﷺ وأتباعه إلى يثرب بناءً عليها، وشملت المبادىء التي سيقوم عليها صرح الدولة الإسلامية فيها، ومنها: الجهاد والدفاع عن الدعوة وصاحبها، وأن أهل يثرب لم يرتقبوا من وراء بيعتهم شيئاً سوى الجنة، وقد علموا وأدركوا أنهم لم يبايعوا على أمر هيِّن، وأن قريشاً ومَنْ ورائها من العرب سوف يحاربونهم ولا يَدَعونهم في سلام، وكذلك اليهود الذين يعيشون بين ظهرانيهم.

ـ شكَّلت بيعة العقبة الثانية انعطافة كبيرة في مسيرة الدعوة الإسلامية نحو هدفها، فبعد أن عاش المسلمون في مكة، وهم قِلَّة، مستضعفون وتحت ضغط العذاب والمقاطعة؛ فُتِح أمامهم باب العمل بشكل واسع وبحرِّية تامة لإقامة شعائر الله في أرضه. وكانت المرحلة المكية، مرحلة إعداد وتربية النفس على الصبر والتجرد من الذات، والصبر على الأذى.

الوضع القانوني لبيعتي العقبة(١)

أُطلق على العلاقة القانونية بين النبيِّ محمد ﷺ وبين مسلمي يثرب اسم البيعة، وهي مشتقة من البيع الذي يتنازل فيه البائع عما يبيعه للمشتري مقابل الحصول على شيء، وأُطلقت زمن الرسول ﷺ على العقد الذي كان يجري بينه وبين من يعتنق الإسلام، ويتعهد فيه بتنفيذ شروط البيعة ومضمونها، وتمتدُّ آثاره إلى من عَهد إلى المشاركين فيه، غير أنه لا يُلزم غيرهم. فعندما جاء النبي ﷺ مع بعض الأنصار(٢) إلى عبد الله بن أُبيٍّ بن سلول، قال له ابن أُبيٍّ: «اذهب إلى الذين دعوك، فانزل عندهم»(٣).

تُعد بيعة العقبة الثانية عقداً رضائياً وافق عليه المشاركون فيه من أهل يثرب من مختلف العشائر، لذا فإنها كانت مُلزمة قانوناً وعرفاً وأدبياً، وقد نظَّمت علاقة النبيِّ محمد ﷺ بمسلمي يثرب في صفة قانونية محددة وواضحة، وهي تُعبِّر عن أثر الإسلام في يثرب في هذه المرحلة المبكرة، وتُظهر مدى ما حقَّقه الدين الجديد من انتشار، وما أحدثه من عمق في النفوس.

والبيعة فردية على الرجال والنساء، وهي مظهر من مظاهر الاستقلال التي تتمتع به المرأة، وتقتصر على الأحرار وللعبيد وضع خاص. وقد ورد أول ذكر لها في العقبة

---

(١) العلي: ص٧٤ ـ ٧٩.

(٢) سُمِّي أتباع النبي محمَّد ﷺ من مسلمي المدينة بالأنصار، لأنهم آووه ونصروه.

(٣) ابن هشام: جـ٢ ص٢١١. ابن سعد: جـ١ ص٢٢٥، ٢٢٦.

الأولى، ثم أضحى ذكرها يتكرَّر؛ غير أن شروطها تطورت، فقد أكَّدت بيعة العقبة الأولى على الجانب الأخلاقي والسلوكي، من دون الجانب العسكري أو السياسي، ولا يُشترط فيها أن تمس يد المبايع يد المبايَع له، وأُضيف إلى بيعة العقبة الثانية موضوع القتال. وحرص المبايعون فيها على تأمين مصالحهم السياسية، ويستوقفنا قول أبي الهيثم بن التيهان حول قطع العلاقة مع اليهود وطمأنة الرسول ﷺ له ولبقية المبايعين على حرب من يحاربون، وسلم من يُسالمون

إن شرط حماية النبي ﷺ يُوضِّح أنها كانت دفاعية، غير أن الحماية قد تتطلب قتالاً واسعاً ومستمراً، وبخاصة مع مشركي قريش الذين قد يواصلون محاولاتهم للقضاء على الإسلام، وقد أدرك سعد بن عبادة ما قد تجرُّه من التزامات، فقال: «إنكم تبايعونه على حرب الأحمر والأسود من الناس»(١).

لم تتضمَّن بيعة العقبة الثانية منح الرسول ﷺ سلطات واسعة، غير أن الإقرار بالإسلام لا بدَّ أن يُرتب مفاعيل واسعة.

بداية هجرة المسلمين إلى يثرب

عقدت حكومة مكة اجتماعاً طارئاً للنظر في التطورات الجديدة، وبعد مناقشات مستفيضة اتخذت قراراً يقضي بعزل محمد ﷺ عن أتباعه، وضربهم منفردين حتى تفنيهم عن آخرهم. عند ذلك نصح النبي ﷺ أتباعه بالهجرة إلى يثرب، فخرجوا أرسالاً وأيديهم فارغة تاركين وراءهم ما يملكون من مال ومتاع وتجارة(٢)، وقد غادروا الأرض التي خُلقوا فيها وترعرعوا في بيئتها، وشبُّوا في ربوعها، ليلتحقوا بإخوانٍ لهم في يثرب.

لم تشعر قريش في بادىء الأمر بأثر هذه الهجرة، إلا أنها بدأت تشعر بثقلها بعد أن اتسعت، وأحسَّت ببوادر الخطر يقترب منها، لذلك وقفت في وجه من بقي في مكة تحول بينهم وبين الهجرة، ثم أخذت تطالب أهل يثرب باستعادة المهاجرين، مستخدمة في ذلك وسائل الإغراء والوعيد، لكنها أخفقت في تحقيق أهدافها، عند ذلك شدَّدت الحصار على من بقي من المسلمين في مكة، وأقامت الحراس والفرسان على مداخلها وسيَّرت الدوريات تترقب كل خارج. وعلى الرغم من هذه التدابير المتخذة، فإن الهجرة لم تنقطع، فكان المهاجرون يخرجون مستخفين أو متأهبين للقتال إذا اعترضهم أحد، وقدَّم بعضهم تضحيات كثيرة وعزيزة عليهم، مثل

---

(١) ابن هشام: جـ٢ ص١٩١.

(٢) المصدر نفسه: ص٢١١. ابن سعد: جـ١ ص٢٢٥، ٢٢٦.

أبو سلمة الذي اضطر إلى ترك زوجته وولده في مكة وهاجر منفرداً، ولم يجتمع شمل العائلة إلا بعد مضيّ سنة عندما سُمح لأم سلمة وابنها باللحاق بزوجها[١]. وهاجر صهيب بما عليه من الثياب، وقد ترك للقرشيين كل ما يملك، وعندما علم النبي ﷺ بذلك قال: (**ربح صهيب، ربح صهيب**)[٢]. وخرج عمر بن الخطاب وهو متقلِّد سيفه وقال: «من أراد أن تثكله أُمه أو يوتِّم ولده أو تُرمَّل زوجته، فليلقني وراء هذا الوادي...»[٣]. وأرسل رسول الله ﷺ أهله إلى يثرب، فاطمة وأم كلثوم وزوجته سودة بنت زمعة، وكانت رقية مهاجرة إلى الحبشة، واحتبس أبو العاص بن الربيع زوجته زينب[٤].

وهكذا خلت مكة من المسلمين باستثناء من حُبس أو افتتن، فهُجرت بيوت، وغدت ميتة كأنها لم تكن من قبل. وبقي محمد ﷺ وأبو بكر ينتظران الأمر من الله بالخروج، وكذلك عليٌّ الذي كان ما يزال صغيراً.

وكان أبو بكر كثيراً ما يستأذن الرسول ﷺ في الهجرة، إلا أنه كان يحثُّه على الصبر ويقول له: (**لا تعجل، لعل الله يجعل لك صاحباً**)[٥] فعرف أبو بكر بأن هجرة النبي ﷺ باتت وشيكة، فطمع أن يكون صاحبه، وراح يتجهَّز من أجل ذلك.

وأخذ القرشيون يتساءلون فيما بينهم، أيهاجر محمد من مكة بعد أن صارت له شيعة وأصحاب من غير القرشيين خارجها، أم أنه سيبقى كما كان الحال في الهجرة إلى الحبشة؟ غير أنهم لم يقفوا عند حدِّ التساؤل، بل راحوا يُخططون لمؤامرة أخرى ومكيدة تكون رادعة تستهدف حياة محمد ﷺ، فلا يفلت كما أفلت أتباعه، وأقسموا أن مكة ستشهد أياماً عصيبة لم تعهدها من قبل. وهكذا استعدُّوا للمؤامرة الكبيرة، بعد أن وافق الجميع على ترتيباتها من دون معارضة.

محاولة اغتيال النبي ﷺ

أدركت قريش بفعل ما أصاب النبي ﷺ من شيعة خارج مكة أن الأمور لم تجر على نحو طيب، وشعر زعماؤها بأن الإسلام أضحى له دار يأوي إليها وحصن يحتمي به، وتوجَّست خيفة من عواقب هذه المرحلة من تاريخ الدعوة؛ لذلك حرصت على العمل على منعه من الخروج من مكة واللحاق بأتباعه؛ لأن من شأن

---

(١) ابن هشام: جـ٢ ص٢١١، ٢١٢.
(٢) المصدر نفسه: ص٢٢٠.
(٣) المصدر نفسه: ص٢١٩.
(٤) البلاذري: جـ١ ص٣١٧.
(٥) ابن هشام: جـ٢ ص٢٢٣.

ذلك أن يتيح له جمع أصحابه ومهاجمتهم، ثم لا بد من اتخاذ قرار يضع حدّاً له ولدعوته التي أقلقتهم وأقضَّت مضاجعهم.

وقرَّر زعماء مكة عقد جلسة طارئة في دار الندوة للتداول في هذه القضية واتخاذ القرار بشأنها، اشترك فيها زعماء العشائر المعارضة لبني هاشم وبني المطلب وحلفائهما. وساد الاجتماع جوٌّ من التوتر الشديد خوفاً من المستقبل الذي يتهدد تجارتهم وطرق قوافلهم وكعبتهم إذا نجح محمد ﷺ في الهجرة إلى يثرب وتأسيس قاعدة انطلاق له؛ إذ عند ذلك، ستزول سيادة قريش وتتضعضع مكانتها بين القبائل.

وتعدَّدت في هذا الاجتماع الاقتراحات المحمومة، فمن قائل «احبسوه في الحديد وأغلقوا عليه باباً ثم تربَّصوا به ما أصاب أشباهه من الشعراء الذين كانوا قبله... من هذا الموت حتى يصيبه ما أصابهم»[1]. واقترح آخر إخراجه ونفيه من البلاد[2] «فإذا خرج عنا فوالله ما نبالي أين ذهب ولا حيث وقع...»[3]. لكن المجتمعين لم يوافقوا على أيٍّ من هذين الاقتراحين؛ لأن أتباعه سوف يهاجمون مكة ويستخلصونه من الحبس، ثم إنه إذا خرج ولقي الأمن في أي بلد فإنه لا يلبث أن يجمع جموعه بما آتاه الله من قوة الحجة، وحلاوة المنطق، والتأثير في النفوس، ثم يهاجم بهم مكة.

وانتفض أبو جهل من بين المجتمعين، وعرض اقتراحاً وافق عليه المجتمعون بالإجماع، ويقضي باختيار فتى شاباً من كل قبيلة «جليداً نسيباً، وسيطاً فينا، ثم نُعطي كل فتى منهم سيفاً صارماً، ثم يعمدوا إليه، فيضربوه بها ضربة رجل واحد، فيقتلوه فنستريح منه، فإنهم إن فعلوا ذلك تفرَّق دمه في القبائل جميعاً، فلم يقدر بنو عبد مناف على حرب قومهم جميعاً، فرضوا منا بالعقل، فعقلناه لهم»[4]. كما اتفقوا على تنفيذ الخطة ليلاً كي لا يُثيروا الشبهات حولهم، ويعلم بنو عبد مناف بذلك فيحولوا دون تنفيذ الخطة.

وأوحى ﷻ لرسوله ﷺ بما اتفق عليه القرشيون وأذن له بالهجرة إلى يثرب، وأخبره جبريل بألَّا ينام تلك الليلة في فراشه، فندب ابن عمه علي بن أبي طالب للنوم في تلك الليلة في فراشه؛ لئلا يرتاب أحد من وجوده في بيته، وأخبره بما اعتزم عليه من الهجرة، وسلَّمه الودائع التي تركها الناس عنده، وكلَّفه أن يبقى في

---

(١) ابن هشام: جـ٢ ص٢٢٢. وكان صاحب هذا القول أبو البختري بن هشام.

(٢) كان صاحب هذا الاقتراح أبو الأسود ربيعة بن عمرو.

(٣) البلاذري: جـ١ ص٣٠٦. ابن هشام: جـ٢ ص٢٢٢.

(٤) ابن سعد: جـ١ ص٢٢٧.

مكة حتى يُسلِّمها إلى أصحابها، على الرغم مما حصل له مع قومه، فهو ما يزال بينهم بالأمين، وكان موضع ثقة التجار. إنه لتناقض عجيب حقاً!.

وجاء الليل في ذلك اليوم هادئاً على مكة، فتسلل الشبان الذين اختارهم الزعماء لقتل محمد ﷺ، واحداً إثر واحد حتى لا يثيروا الشبهة. إنهم يخشون عشيرة محمد ﷺ، فعلى الرغم من انكماشها النسبي عن حمايته بعد تولي أبي لهب لزعامتها، فإن أبناء العشيرة لا زالوا يحيطون به، فإذا استيقظوا وعرفوا ما خُطِّط له، فإنهم سيهبون جميعهم للدفاع عنه.

واجتمعوا أخيراً على بابه يتربَّصون به ليقتلوه وفق الخطة الموضوعة. وكان من عادة محمد ﷺ أن يخرج ليلاً، وفي الفجر، إلى الكعبة ليصلي، لكن لم يخرج أحد من البيت في تلك الليلة، ونظر القوم داخل البيت فرأوا شخصاً نائماً في الفراش، فلم يشكُّوا في أنه محمد ﷺ، وانتظروا حتى طلوع الشمس، ومع ذلك لم يخرج أحد من البيت، فراودتهم عندئذ فكرة اقتحام البيت وقتله في فراشه وهو نائم، لكن العُرف لا يسمح لهم بالدخول إلى البيت لقتل صاحبه، إنه لعار أن يتحدث الناس أنهم تسوَّروا الجدران ليدخلوا إلى البيت خلسة، وفجأة فُتح باب البيت، وقام النائم من فراش محمد ﷺ، فإذا هو علي بن أبي طالب[(١)].

وانطلق الفتية عبر شوارع مكة الضيقة يبحثون عن محمد ﷺ، وقد أخذهم الغضب، وهم متعبون نتيجة سهر الليل، ويتساءلون: أين محمد ﷺ؟ كيف خرج؟ إلى أين ذهب؟ أيكون قد تسلل من ثغرة وراء بيته أم تُرى عبر سطح الدار؟ وكيف عرف ما أعدُّوا له؟ ومن أبلغه؟.

أما النبيُّ محمد ﷺ، فقد خرج في تلك الليلة من بيته ومشى بين المتربصين به، وقد أخذ الله بأبصارهم فلم يروه، فقبض على بعض التراب وراح ينثره على رؤوسهم، وهو يتلو أول سورة يس[(٢)].

وأشار القرآن الكريم إلى تدبير هذه الجريمة بقوله: ﴿وَإِذْ يَمْكُرُ بِكَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لِيُثْبِتُوكَ أَوْ يَقْتُلُوكَ أَوْ يُخْرِجُوكَ وَيَمْكُرُونَ وَيَمْكُرُ ٱللَّهُ وَٱللَّهُ خَيْرُ ٱلْمَٰكِرِينَ﴾ [الأنفال/ ٣٠].

هجرة النبيِّ محمَّد ﷺ إلى يثرب

الواضح أن محمداً ﷺ لم ينصح أصحابه بالهجرة ويتخلَّف عنهم، لقد رسم الخطة التي يذهب من خلالها إلى يثرب، في الوقت الذي ندب المسلمين بالهجرة

---

(١) البلاذري: جـ١ ص٣٠٧. ابن هشام: جـ٢ ص٢٢٢.

(٢) ابن هشام: جـ٢ ص٢٢٣.

إليها. وعرَّج ظهر ذلك اليوم على بيت أبي بكر على غير عادته في مثل هذا الوقت، فاجتمع به وأخبره بأن الله أذن له بالهجرة، فقال أبو بكر: «الصحبة يا رسول الله». قال: (**الصحبة**)[1]. فخرجا على راحلتين ودليلهما عبد الله بن أريقط ـ أو أرقط ـ ووصلا إلى كهف قريب في جبل ثور، فاختبآ فيه حتى تخف حدَّة البحث عنهما وتيأس قريش من العثور عليهما، وكان عبد الله بن أبي بكر يأتيهما كل مساء بما يتناقله الناس، وابنته أسماء تأتيهما بالطعام، وذبح آل أبي بكر شاة وطبخوا لحمها ووضعوه في جراب، فشقَّت أسماء نطاقها باثنين، فعلَّقت السفرة بواحد، وانتطقت بالآخر، فقال رسول الله ﷺ: (**إن لها نطاقين في الجنة**)، فسُمِّيت ذات النطاقين، وكان مولاه عامر بن فهيرة يرعى غنمه نهاراً، ويأتيهما ليلاً ليحتلبا[1].

ازداد غضب فتيان قريش بعد أن أخفقوا في العثور على محمد ﷺ، فانطلقوا إلى بيت أبي بكر، فلم يجدوه، فرجعوا خائبين يجوبون طرقات مكة وشوارعها يبحثون عنه، ولكن من دون جدوى. وفي إحدى دورياتهم البحثية اقتفوا أثراً أوصلهم إلى الغار، فوجدوا بابه مسدوداً بخيوط العنكبوت، وأمامه حمامتان وحشيتان قد باضتا، ونبتت عليه شجرة الراءة، فحجبت عن الغار أعين أفراد الدورية[2]، ما أقنعهم بأن الغار مهجور وليس بداخله أحد؛ إذ لا سبيل إلى الدخول إليه من دون ترك أثر. وتُعدُّ هذه المعالم الثلاثة من جملة معجزاته ﷺ؛ إذ لم تكن موجودة قبل لجوئه إلى الغار.

وسمع أبو بكر وهو بداخل الغار دبيب أقدامهم إزاءه، فاشتدَّ خوفه على حياة محمد ﷺ، وبكى قائلاً: «لو أن أحدهم نظر إلى موضع قدميه لأبصرنا»، إلا أن محمداً ﷺ راح يطمئنه ويهدِّئ من روعه وقال له: (**لا تحزن، إن الله معنا، ما ظنك باثنين الله ثالثهما**)[3].

ويئست قريش من العثور على محمد ﷺ وصاحبه، بعد خطة التفتيش المحمومة التي استمرَّت ثلاثة أيام، فعقد زعماؤها اجتماعاً قرَّروا فيه منح مكافأة مقدارها مائة ناقة لمن يعثر على محمد ﷺ ويردُّه إلى مكة. وانتشر الخبر بين القبائل في أنحاء الجزيرة العربية، فأثار فرسانها.

---

(١) ابن سعد: جـ١ ص٢٢٩. ابن هشام: جـ٢ ص٢٢٤.

(٢) ابن سعد: المصدر نفسه. السهيلي: جـ٢ ص٢٣١، ٢٣٢. والراءة: شجرة معروفة من أغلاث الشجر، وتكون مثل قامة الإنسان، ولها خيطان وزهر أبيض تُحشى به المخاد، فيكون كالريش لخفته ولينه لأنه كالقطن.

(٣) **صحيح البخاري**، كتاب فضائل الصحابة، باب مناقب المهاجرين، رقم الحديث (٣٦٥٣)، ص٦٦٦.

وخرج رسول الله ﷺ من الغار مع صاحبه ويمَّم وجهه نحو يثرب، وألقى نظرة وداع على مكة تفيض أسى وحسرة على فراقه البلد الذي أحب[1]، وسلك الركب طريقاً غير مألوف للتمويه والابتعاد عن العيون.

ومرَّ الركب بعد بضعة أيام من السير على أُم معبد الخزاعية بقديد[2]، فتوقف للاستراحة والتزوُّد لما تبقَّى من الرحلة، إلا أن أُم معبد كانت تمر بأوضاع حياتية صعبة بفعل الجفاف والجدب، فلم يجد محمد ﷺ عندها شيئاً يأكله، وكان عندها شاة خلفها الجهد، فمسح ضرعها وحلبها، فشرب وشرب القوم وارتووا[3].

وسار الركب على طريق اليمن، ثم تحوَّل إلى طريق تهامة للتمويه، حتى إذا اقترب من البحر وابتعد عن الطريق المألوف، توجَّه شمالاً بمحاذاة الشاطىء، وفجأة ظهر خلفهم فارس على قمة صخرة ينظر إليهم ويتحرى وجهة سيرهم، إنه سراقة بن مالك بن جعشم جاء يتعقبهم طمعاً في المكافأة التي رصدتها قريش. ولما عرفهم انطلق منحدراً عبر الصخور والحجارة والسيف في يده، فتعثر به جواده ثلاث مرات متعاقبة وطرحه أرضاً، فأدرك سراقة عندئذ أن سبباً ما يحول بينه وبين محمد ﷺ، فتوقف ونادى بالأمان بعد أن عرَّف عن نفسه، وطلب كتاباً يكون له آية. فطلب النبي ﷺ من أبي بكر أن يكتب له كتاباً في عظم ودفعه إليه. ورجع سراقة إلى مكة، فلم يُخبر أحداً بما شاهد مطمئناً على سلامة محمد ﷺ وصحبه، وكان يصرف أنظار الطامعين فيهم[4].

وأخيراً وصل الركب إلى مناطق تسكنها قبائل حليفة، وأضحى قريباً من يثرب، ثم وصل إلى قباء، إحدى واحات يثرب، فاستقبله أهل يثرب مرحبين بمقدمه، ومكث في قباء ثلاثة أيام وأسس فيها مسجد قباء، وهو أول مسجد بُني في الإسلام[5]، ثم واصل رحلته إلى يثرب ودخلها وسط ترحيب سكانها يوم الاثنين (١٢ ربيع الأول/ ٢٤ أيلول ٦٢٢م)، وبركت ناقته أمام دار مالك بن النجار، وهو يومئذ لغلامين يتيمين هما سهل وسهيل بن غنم، وقد بنى في هذا الموضع مسجده وداره، بعد أن اشترى المكان من صاحبيه، ودفع أبو بكر ثمنه[6].

---

(١) السهيلي: جـ٢ ص٢٣١.

(٢) اسم أُم معبد: عاتكة بنت خالد، إحدى بني كعب بن خزاعة، وزوجها أبو معبد لا يُعرف اسمه. وقديد: اسم موضع قرب مكة.

(٣) البلاذري جـ١ ص٣٠٩، ٣١٠.

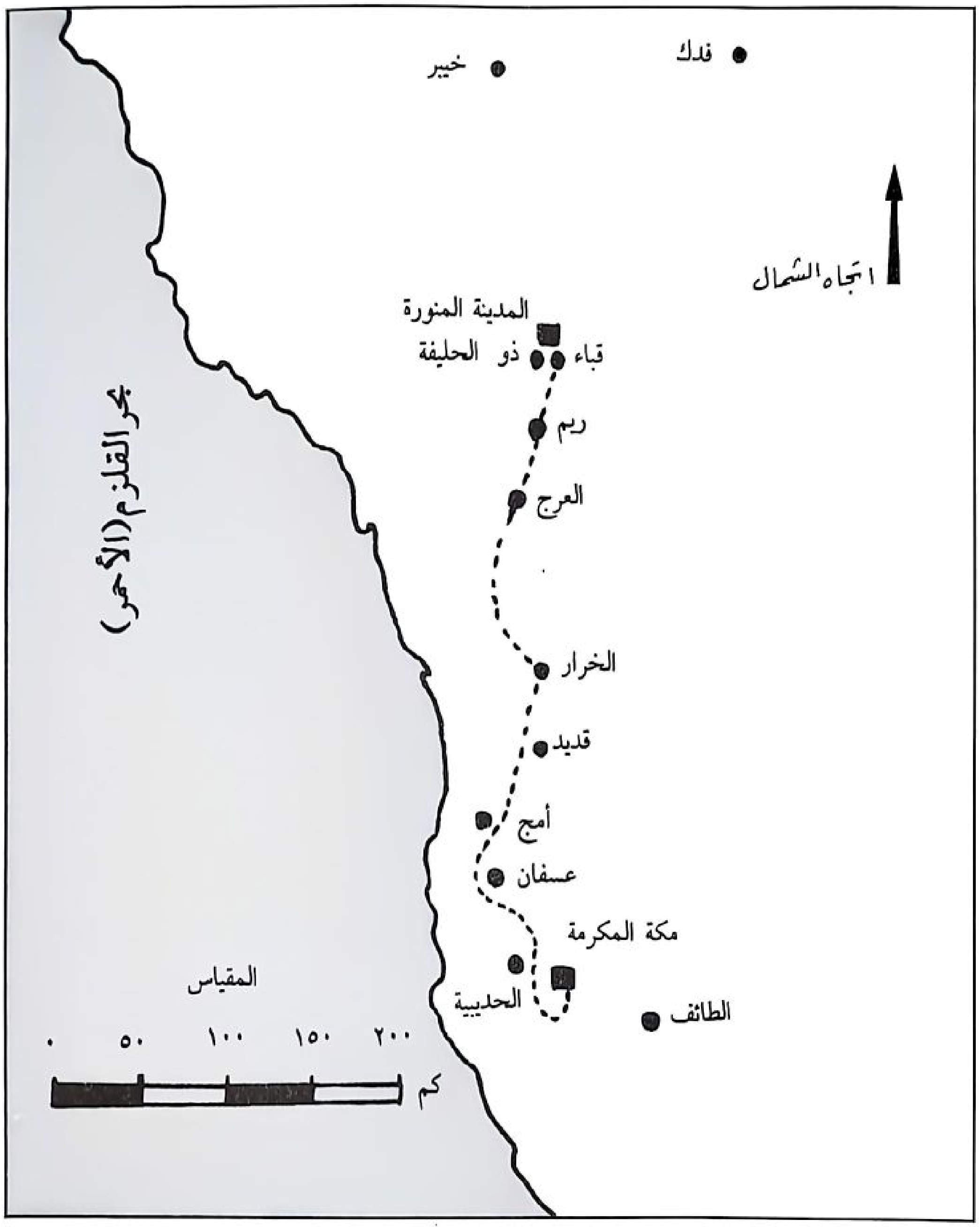
(٤) ابن هشام: جـ٢ ص٢٢٥، ٢٢٦.

(٥) ابن سعد: جـ١ ص٢٣٣. البلاذري: جـ١ ص٣١١.

(٦) ابن سعد: المصدر نفسه، ص٢٣٠. السهيلي: جـ٢ ص٢٣٥.

كان عمر النبيِّ محمد ﷺ عندما دخل يثرب ثلاث وخمسين سنة، وانتهى بوصوله إليها ثلاثة عشر عاماً من عمر الدعوة زاخرة بالمآسي والعذاب، لتبتدىء مرحلة أخرى تتضمن خصائص جديدة تتناسب وطبيعة الدعوة لتحقيق الهدف الأسمى.

وهكذا نرى أن الهجرة إلى يثرب قد تمت إثر تمهيد ثابت وإعداد محكم، وتحت تأثير ظروف حتَّمت ذلك، وجعلت منها إجراءً ضرورياً لمتابعة المسيرة وفقاً لما قدَّره الله.



طريق هجرة رسول الله ﷺ من مكَّة إلى المدينة

الفصل الرابع

خصائص الدعوة الإسلامية في مكة

مفهوم العقيدة

منذ أن سمع النبي محمَّد ﷺ نداء السماء؛ نهض لحمل عبء الجهاد في مكة، وخاض معركة شديدة مع القرشيين الغارقين في الشهوات المتألِّبين على دعوة الله وعلى المؤمنين بها، وهم حريصون على محاربتها في مهدها وعدم امتدادها حتى لا تغيِّر العقول والضمائر المنحرفة والتقاليد والعادات البالية المتفشية في المجتمع الجاهلي. وأدرك محمد ﷺ أن الله أعدَّ له مكاناً وهيَّأ له الظروف الاجتماعية، فكان من الضروري أن يُقبل ليملأ مكانه مُسلَّحاً بوعي كامل لطبيعة دوره وبنظرية تامة عن الحياة والموت، وبتفهم كامل لحاجات الناس.

عالج القرآن في مكة قضية العقيدة لأنها القضية الأساس في الدين الجديد، والتي تتمثل في قاعدتها الرئيسة الألوهية والعبودية وما بينهما من علاقة. فالله ليست له صورة، وليس كمثله شيء، وهو الذي خلق كل شيء وهو وحده الجدير بأن يُعبد؛ إذ ليس هناك وجود حقيقي إلا وجوده، وكل موجود آخر إنما يستمد وجوده من ذلك الوجود الحقيقي، وليس هناك أحد في هذا الكون فاعل لشيءٍ سواه، إنه فرد صمد لم يلد ولم يولد، يستوي عنده الجميع؛ الأشراف والعبيد، والأغنياء والفقراء، والحكَّام والمحكومون، والرجال والنساء، وهو الذي يُحيي ويميت، وسيبعث الناس في يوم معلوم بعد الموت، فيحاسبهم على القليل والكثير، والنقير والقطمير من أعمالهم، وعلى ما صنعوا في حياتهم الدنيا، فمن عمل خيراً فاز وربح ودخل جنة عرضها كعرض السماوات والأرض أُعدَّت للمتقين، ومن عمل شراً خاب وخسر ودخل ناراً حامية خالداً فيها.

وذمَّت العقيدة الإسلامية في مكة، الشرك وعبادة الأوثان وتصدَّت للمتوسلين بها، ففنَّدت مزاعمهم وضربت الأمثال بالأمم الغابرة، وما حصل لهم، وكيف كانت نهايتهم، وما أصيبوا به من جزاء بفعل شركهم بالله وتكذيبهم لرسلهم ولأنبيائهم، وذكرت قصص الرسل والأنبياء مع أقوامهم منذ بداية الحياة على الأرض.

وتطرق القرآن في مكة خلال معركته مع المعاندين المتسلطين إلى بعض التفريعات

التي كان لا بد منها؛ لاتصالها الوثيق بالحياة العملية، فحرَّم بعض العادات الشاذة المنحرفة، مثل ما ذُبح على النصب والأزلام والاستسقاء بها، وما ذُبح للآلهة من البَحِيرة والسائبة والوصيلة والحامي، وكل ذبيحة لم يُذكر عليها اسم الله. لقد أراد الله أن يكون عمل الإنسان كله خالصاً لوجهه.

وتطرق القرآن في مكة إلى يوم القيامة، فأثبت وجود اليوم الآخر، حيث يُجزى كل إنسان بما عمل فإنْ خيراً فخير، وإن شراً فشر، ونصَّت الآيات التي نزلت في مكة على ذلك، وحذَّرت من شر ذلك اليوم، وتوعدت الذين لا يؤمنون به بعذاب أليم، كما رغَّبت في خيراته، وفي وصفها لنهاية الإنسان على الأرض لم تجعل اليأس يتسرب إلى نفسه بما اقترف من الذنوب، بل تركت الباب مفتوحاً لمن أراد التوبة والعودة إلى الله، فهو ﷻ لا يظلم أحداً، فكل من يعمل مثقال ذرة خيراً يره، وكل من يعمل مثقال ذرة شراً يره.

وتطرَّق القرآن في مكة أثناء معالجته لقضية العقيدة إلى القيم والخصال التي تُقرِّب إلى الله، ويتمحور معظمها حول الأخلاق ومعاملة الناس بعضهم لبعض، والمساواة بينهم والعفو عند المقدرة، والإصلاح والصبر والتغلب على البغي والعدوان.

فالأخلاق الحميدة تقوِّي أواصر المحبة بين الناس، ومعاملة الأفراد في المجتمع بعضهم لبعض بالحسنى، مرتبطة ارتباطاً وثيقاً بالأخلاق الحميدة، بل هي نتيجة لها، والمساواة بين الناس تُقوِّي الترابط بينهم، وتزيل العداوات المستحكمة في المجتمع، وتمحو البغض والحسد من النفوس، فيعيش الناس حياة فاضلة آمنين مطمئنين.

والعفو عند المقدرة يُحبِّب الناس بعضهم ببعض، فتزول أسباب الفوارق وآثارها، ويدخل الإصلاح في ميادين اجتماعية متنوعة؛ يُقوِّم الاعوجاج، ويُصحِّح الاتجاه، ويُحدِّد المفاهيم، ويقود الأفراد في الطريق المستقيم في سبيل سعادتهم.

والصبر من الخصال الحميدة التي تحول دون طلب الثأر، وهو يزيل البغضاء ويمحو أساليبها، ويُعوِّد أفراد المجتمع على تحمُّل المشاق والصعاب.

ولا شك أن البغي والعادات السيئة تنزل بالمجتمع أقسى الضربات، فتنخره حتى ينحل ويضمحل بفساد الأخلاق.

وعالج القرآن في مكة قضية العبادة، إنها عملية تربط المخلوق بالخالق وتوجهه نحو الخير، وفي مقدمة العبادات: الصلاة، فهي وحدها التي فصَّلها القرآن في مكة، وقد وصفها بأنها تنهى عن الفحشاء والمنكر.

لاقت العقيدة الإسلامية في مكة سيلاً من المعارضة وعدم الارتياح في المجتمع،

وقاومها الزعماء والأغنياء وأصحاب النفوذ، وهذا طبيعي، فكل تغيير لا بد أن يلقى مقاومة من المجتمع، فالمفاهيم القديمة تكون ملتصقة التصاقاً قوياً بالنفوس، ويقتضي تغييرها إخراجها من العقول ثم تلقينها المفاهيم الجديدة، ويجر ذلك وراءه مقاومة؛ لأن المجتمع يكون قد اعتاد على منهج معين، وأسلوب محدَّد في حياته وامتزج بدمه.

وقد جاهد النبي محمَّد ﷺ ثلاثة عشر عاماً في مكة من أجل إخراج المفاهيم القديمة من عقول الأفراد، ولم يتجاوزها إلى الفروع المتعلقة بنظام الحياة، إلا بعد أن أدرك أنها استقرَّت استقراراً مكيناً وثابتاً في قلوب المسلمين الأوائل ومن تبعهم بعد ذلك، الذين حملوا لواءها في المستقبل وتولوا إفشاء النظام الواقعي الذي يتمثل في هذه العقيدة.

ونهض النبي محمَّد ﷺ يدعو الناس أن يشهدوا أن لا إلٰه إلا الله، ثم مضى يُعرِّفهم بربهم الحق ليعبدوه من دون سواه، ويَدَعوا الأصنام التي تضر ولا تنفع؛ إذ أن إشراكها مع الله في العبادة يؤدي بالفرد إلى نار حامية، وحمل معول الهدم وراح يهدم عقيدة القرشيين الفاسدة والمتحكمة بعقولهم، ولم يغب عن تفكيرهم ماذا تعنيه هذه الدعوة بالنسبة لأوضاعهم ولامتيازاتهم، لذلك استقبلوها بأسلوب العنف وحاربوها تلك الحرب الساخنة.

ولا بد للمرء أن يقف طويلاً أمام قضية العقيدة التي أفردها القرآن في سوره المكية الأولى، والتي أخذ محمَّد ﷺ يدعو إليها، ثم يتساءل: لماذا تناول القرآن في مكة هذه القضية وحدها، وأمر الله ﷻ نبيَّه ﷺ أن يبدأ بها ويدعو الناس إلى اعتناقها والعمل بموجبها، من دون أن يتطرق إلى تفصيلات الأنظمة التشريعية التي تنظم الحكم والمعاملات بين الناس؟.

الواقع أن طبيعة هذا الدين وطبيعة العمل للدعوة قد أوجبت ذلك. إن الدين الذي جاء به محمد ﷺ يرتكز على قاعدة واحدة هي قاعدة الأُلوهية المطلقة، وأن نظمه تتناول مظاهر الحياة كلها، فلا بد إذن من قاعدة صلبة وقوية حتى ترتكز عليها، ولا بد أيضاً من جذور عقدية متينة تتحمل ذلك الثقل المتشعب من الأنظمة.

وعندما استقرَّت العقيدة في النفوس وأضحى الأساس متيناً استقر عندئذٍ النظام الذي تدعو إليه، وتقبَّلت النفوس ما عُرض عليها من تشريعات، من دون مناقشة، بالرضى، ولم تعترض على شيء فيها كما لم تتلكَّأ في التنفيذ. وهكذا أُبطلت العادات الجاهلية بآيات من القرآن، مثل الميسر والربا والزنا ووأد البنات وأكل مال اليتيم وغيرها من العادات والتقاليد البالية الفاسدة، علماً بأن الرعيل الأول من

المسلمين لم تكن لديهم القدرة ولا المقدرة ولا السلطان على مجتمعهم، لتنفيذ شريعة منزلة، لذلك لم يُنزِّل الله في المرحلة المكية تنظيمات وشرائع، وإنما أنزل لهم عقيدة وخُلقاً منبثقاً منها؛ إذ ليست من طبيعة هذا الدين أن يُنزِّل الله شرائع في بداية عهد الدولة ليختزنها المسلمون الأوائل حتى قيام الدولة الإسلامية التي لم يعرفوا آنذاك من أمرها شيئاً، إنه أشد واقعية من هذا وأكثر جدية.

بهذه المفاهيم، خاض محمد ﷺ معركته في مكة مع الجاهلية لبناء عقيدة لا إله إلا الله[1].

عقيدة التوحيد

بُنيت الدعوة الإسلامية في مكة على التوحيد الخالص لله تعالى، وهو أحد الخصائص المميزة لها. وينقسم التوحيد إلى ثلاثة أقسام هي: توحيد الأُلوهية، وتوحيد العبودية، وتوحيد الأسماء والصفات. ويُلحق بالتوحيد ما يليق بالأنبياء من إثبات رسالتهم، وما يجب أن يكونوا عليه، وما يجوز أن يُنسب إليهم وما يمتنع أن يُلحق بهم[2].

لقد كافح محمد ﷺ ثلاثة عشر عاماً في مكة من أجل تثبيت عقيدة التوحيد في نفوس القرشيين نافياً وجود الشركاء لله، ضارباً الأمثال، مبيِّناً الآيات الدالة على وحدانيته ﷻ، فالشرك في صميمه هو الاعتراف لغير الله بإحدى خصائص الأُلوهية، وقد مارسه القرشيون بخاصة، والعرب بعامة، في الجزيرة العربية في العصر الجاهلي بأشكال مختلفة، منها:

- عبادة غير الله.
- التقدم لغير الله بالشعائر الدينية والنذور وما إليها.
- اتخاذ الشفعاء وساطة للتقرب إلى الله.

ومارسوا العادات والتقاليد المنحرفة، منها:

- وأد البنات.
- مشاركة الله والآلهة باقتسام الحرث والزرع.
- ممارسة التقاليد التي لم يأذن بها الله.

وكان الشرك قد انتشر في مكة على نطاق واسع، فشمل معظم مرافق الحياة، وقد

---

(١) للتوسع في هذا الموضوع يمكن العودة إلى كتاب في ظلال القرآن للسيد قطب، جـ٧ ص٧٨ ـ ٩٤.

(٢) عبده، الشيخ محمد: رسالة التوحيد، ص٤ ـ ٦.

حرَّمه الله لأنه يتنافى مع طبيعته؛ إذ له وحده حق الربوبية، ومن اختصاصه التحليل والتحريم، وهو المتصرف في أمور الكون والحياة.

لقد كانت للعرب بعامة، وللقرشيين بخاصة، عقيدة منبثقة عن الحنيفية، ملَّة إبراهيم خليل الرحمٰن، إلا أنهم حرَّفوها بما أدخلوا عليها من مفاهيم وقيم خارجية مستوردة من الديانات التي كانت سائدة آنذاك في البلدان المحيطة بالجزيرة العربية، وقد بقي منها ما لا تملك الفطرة على إنكاره ألا وهو وجود الخالق، غير أنهم وقفوا بهذه الحقيقة البديهية عند شكلها الظاهر فقط، ولم يعترفوا بما وراءها من مقتضيات طبيعية لها. إنهم اعترفوا بالله على أنه خالقهم وخالق الكون من حولهم، لكنهم اتخذوا من دونه شركاء، والسبب في ذلك هو أنهم لم يعرفوه بصفاته التي تنفي فكرة الشرك، فانحسر معنى العبادة بينهم، وانكمش مجال الألوهية، وعلى ذلك واجه محمَّد ﷺ الانحراف القرشي في مكة والتوجه بالشعائر التعبدية لآلهة تقرب من الله زلفى، وفي الشرائع الفاسدة وفي التقاليد البالية التي تحكم المجتمع، وقد دلَّ تاريخ التطور البشري على أن كل ما عبده الإنسان من دون الله من صنم أو وثن[1]، فإنما عبده لاعتقاده أن فيه القدرة على النفع والضرِّ بقوة له فوق الأسباب المعروفة، وأن فيه قوة غيبية على التصرف في الخلق بالنفع لمن يشاء، وإيقاع الضرِّ على من يشاء، وكشفه بعد وقوعه عمن يشاء؛ غير مقيَّد في ذلك بسبب من الأسباب المسخرة للناس، وأن من يُدقِّق النظر في أصل التدين الغريزي البشري يرى أن صور التعبد وتسمية المعبودات منها ما هو من اجتهادهم، ومنها ما هو من تلقين الأنبياء فيهم وغيرهم من دعاة الدين، فكل ما عُبِدَ من دون الله بالرأي والاجتهاد، فإنما عُبِدَ لشبهة فُهِم منها قدرته على النفع والضر، وليس المراد من كون هذه المعبودات لا تضرهم ولا تنفعهم فقط، إنما بطلان الشرك بالألوهية أيضاً، وهو عبادة غير الله

---

(١) استعمل العرب اصطلاحين للدلالة على التماثيل التي كانوا يعبدونها في الجاهلية هما أصنام وأوثان. فالصنم تمثال مصنوع من خشب أو ذهب أو فضة على مثال صورة إنسان، وإذا كان من الحجارة فهو وثن، أو أن الصنم ما كان له صورة جُعلت تمثالاً، والوثن ما لا صورة له، أو أن الوثن ما كان له جثة من خشب أو حجر أو فضة يُنحَت ويُعبد، والصنم صورة بلا جثة، أو أن الصنم ما كان على صورة خلقة البشر، والوثن ما كان على غيرها، أو أن الصنم له جسم أو صورة، والوثن لا جسم له ولا صورة، أو أن الصنم من حجارة، والوثن ما كان له صور مجسمة. ويبدو أن مرد هذا الاختلاف، استعمال القبائل للكلمتين، فلما جمع علماء اللغة معانيهما حصل هذا التباين. انظر: الكلبي، هشام بن محمد السائب: **كتاب الأصنام**، ص٦٥. ابن منظور، أبو الفضل جمال الدين محمد بن مكرم: **لسان العرب**، جـ١٢ ص٣٤٩. جـ١٣ ص٤٤٢، ٤٤٣.

مهما يكن المعبود. وينقسم هذا البطلان إلى قسمين: ادعاء وساطتهم في الخلق والتدبير واحتجاجهم عليه بشفاعتهم عند الله(1).

وقد بيَّن النبي محمَّد ﷺ للقرشيين خلال جهاده الطويل معهم حقيقة الله؛ أي وجوده وصفاته وقدرته على الحكم. فالله فاطر السماوات والأرض ويتعذَّر على المرء أن يجد لهما خالقاً سواه، وعلى الإنسان أن يتوجه إليه بالاعتراف والإقرار، والله يعلم الغيب والشهادة، وهو مُطَّلع على الغائب والحاضر والباطن والظاهر، وهو يحكم بين عباده يوم القيامة فيما اختلفوا فيه، وهو وحده الحَكَم والمرجع يوم الدين، وعليه ينبغي أن تكون العبادة كلها خالصة له.

وقد أفرزت هذه القضية صراعاً مريراً في مكة بين المبادىء الإسلامية وتقاليد الجاهليين؛ ظلَّ يملأ صفحات التاريخ المكي طيلة ثلاثة عشر عاماً، وكانت هذه التقاليد سلاح المشركين الفاشل في هذا الصراع.

لقد اتخذ المشركون مع الله إلٰهاً آخر، في الوقت الذي كانت دلائل التوحيد تحيط بهم وتطالعهم في الآفاق وفي أنفسهم:

﴿قُلْ أَغَيْرَ ٱللَّهِ أَتَّخِذُ وَلِيًّا فَاطِرِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَهُوَ يُطْعِمُ وَلَا يُطْعَمُ قُلْ إِنِّىٓ أُمِرْتُ أَنْ أَكُونَ أَوَّلَ مَنْ أَسْلَمَ وَلَا تَكُونَنَّ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ﴾ [الأنعام/ ١٤].

﴿قُلْ أَىُّ شَىْءٍ أَكْبَرُ شَهَٰدَةً قُلِ ٱللَّهُ شَهِيدٌۢ بَيْنِى وَبَيْنَكُمْ وَأُوحِىَ إِلَىَّ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانُ لِأُنذِرَكُم بِهِۦ وَمَنۢ بَلَغَ أَئِنَّكُمْ لَتَشْهَدُونَ أَنَّ مَعَ ٱللَّهِ ءَالِهَةً أُخْرَىٰ قُل لَّآ أَشْهَدُ قُلْ إِنَّمَا هُوَ إِلَٰهٌ وَٰحِدٌ وَإِنَّنِى بَرِىٓءٌ مِّمَّا تُشْرِكُونَ﴾ [الأنعام/١٩].

﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَجَعَلَ ٱلظُّلُمَٰتِ وَٱلنُّورَ ثُمَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ بِرَبِّهِمْ يَعْدِلُونَ ۞ هُوَ ٱلَّذِى خَلَقَكُم مِّن طِينٍ ثُمَّ قَضَىٰٓ أَجَلًا وَأَجَلٌ مُّسَمًّى عِندَهُۥ ثُمَّ أَنتُمْ تَمْتَرُونَ ۞ وَهُوَ ٱللَّهُ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَفِى ٱلْأَرْضِ يَعْلَمُ سِرَّكُمْ وَجَهْرَكُمْ وَيَعْلَمُ مَا تَكْسِبُونَ﴾ [الأنعام/١، ٣].

﴿ٱللَّهُ ٱلَّذِى رَفَعَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ بِغَيْرِ عَمَدٍ تَرَوْنَهَا ثُمَّ ٱسْتَوَىٰ عَلَى ٱلْعَرْشِ وَسَخَّرَ ٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ كُلٌّ يَجْرِى لِأَجَلٍ مُّسَمًّى يُدَبِّرُ ٱلْأَمْرَ يُفَصِّلُ ٱلْءَايَٰتِ لَعَلَّكُم بِلِقَآءِ رَبِّكُمْ تُوقِنُونَ ۞ وَهُوَ ٱلَّذِى مَدَّ ٱلْأَرْضَ وَجَعَلَ فِيهَا رَوَٰسِىَ وَأَنْهَٰرًا وَمِن كُلِّ ٱلثَّمَرَٰتِ جَعَلَ فِيهَا زَوْجَيْنِ ٱثْنَيْنِ يُغْشِى ٱلَّيْلَ ٱلنَّهَارَ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ﴾ [الرعد/٢، ٣].

أرشدت هذه الآيات وآيات غيرها إلى دلائل عدة، منها:

- وحدانية الله في ربوبيته وألوهيته، لكنها على ظهورها لم تمنع المشركين من الإشراك به.

- دلائل البعث لكنها على قوتها لم تمنع المشركين من الشك فيه.

---

(1) رضا: جـ1 ص٣٢٣ - ٣٢٧.

ـ أن الله في السماوات والأرض يحيط علمه بكل شيء، فلا ينبغي أن يُتخذ معه إله فيهما، ولكن المشركين في مكة جهلوا ذلك، فجوَّزوا أن يكون غير الله إلهاً وعبدوا معه آلهة أخرى.

ومن المظاهر الملفتة أن مشركي مكة كانوا يعترفون بوجود الله، وبأنه الخالق الرازق، المحيي والمميت، لكنهم انحرفوا عن الطريق المستقيم وأدّى بهم انحرافهم إلى الشرك، فأنكروا وحدانية الله في تدبير شؤونهم.

ومن صورالاعتراف بالله:

ـ أنهم كانوا يلجؤون إليه في الشدة، ﴿قُلْ مَن يُنَجِّيكُم مِّن ظُلُمَٰتِ ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ تَدْعُونَهُۥ تَضَرُّعًا وَخُفْيَةً لَّئِنْ أَنجَىٰنَا مِنْ هَٰذِهِۦ لَنَكُونَنَّ مِنَ ٱلشَّٰكِرِينَ * قُلِ ٱللَّهُ يُنَجِّيكُم مِّنْهَا وَمِن كُلِّ كَرْبٍ ثُمَّ أَنتُمْ تُشْرِكُونَ﴾ [الأنعام/٦٣، ٦٤]. ﴿فَإِذَا رَكِبُوا۟ فِى ٱلْفُلْكِ دَعَوُا۟ ٱللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ فَلَمَّا نَجَّىٰهُمْ إِلَى ٱلْبَرِّ إِذَا هُمْ يُشْرِكُونَ﴾ [العنكبوت/٦٥].

ـ إقرارهم بأن الله خالق السماوات والأرض، ومسخر الشمس والقمر، وأنه يُنزل الماء من السماء، وأنه يحيي الأرض بعد موتها وما يتضمنه ذلك من بسط الرزق ﴿وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَسَخَّرَ ٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ لَيَقُولُنَّ ٱللَّهُ فَأَنَّىٰ يُؤْفَكُونَ * ٱللَّهُ يَبْسُطُ ٱلرِّزْقَ لِمَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦ وَيَقْدِرُ لَهُۥٓ إِنَّ ٱللَّهَ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌ * وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّن نَّزَّلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَحْيَا بِهِ ٱلْأَرْضَ مِنۢ بَعْدِ مَوْتِهَا لَيَقُولُنَّ ٱللَّهُ قُلِ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ﴾ [العنكبوت/ ٦١ ـ ٦٣].

وعلى الرغم من كل تلك الدلائل على وحدانية الله وقدرته لم يقتنع القرشيون بوحدانيته ﷻ وبقدرته، وظلُّوا يمارسون شعائر الإشراك به وحجتهم في ذلك بأنها تُقرِّبهم إلى الله زلفى، وكأن الله ﷻ يحتاج إلى وسيط أو شفيع ﴿أَلَا لِلَّهِ ٱلدِّينُ ٱلْخَالِصُ وَٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُوا۟ مِن دُونِهِۦٓ أَوْلِيَآءَ مَا نَعْبُدُهُمْ إِلَّا لِيُقَرِّبُونَآ إِلَى ٱللَّهِ زُلْفَىٰٓ إِنَّ ٱللَّهَ يَحْكُمُ بَيْنَهُمْ فِى مَا هُمْ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِى مَنْ هُوَ كَٰذِبٌ كَفَّارٌ﴾ [الزمر/٣].

كانت هذه الوثنية العربية إحدى الوثنيات التي انتشرت في العالم القديم، وقد انبثقت من الاعتقاد بوجود الشياطين، ووجوب اتِّقاء شرهم بالتقدم لهم بالقرابين والنذور، وتطورت هذه الممارسة حتى انتهت بعبادتها، فعبد بنو مليح من خزاعة الجن ﴿وَجَعَلُوا۟ لِلَّهِ شُرَكَآءَ ٱلْجِنَّ وَخَلَقَهُمْ وَخَرَقُوا۟ لَهُۥ بَنِينَ وَبَنَٰتٍۭ بِغَيْرِ عِلْمٍ سُبْحَٰنَهُۥ وَتَعَٰلَىٰ عَمَّا يَصِفُونَ﴾ [الأنعام/ ١٠٠]. وجعل المشركون الملائكة بنات الله يعبدونهم من دونه، علماً بأنهم كانوا يكرهون مولد البنات لهم ﴿أَمِ ٱتَّخَذَ مِمَّا يَخْلُقُ بَنَاتٍ وَأَصْفَىٰكُم بِٱلْبَنِينَ * وَإِذَا بُشِّرَ أَحَدُهُم بِمَا ضَرَبَ لِلرَّحْمَٰنِ مَثَلًا ظَلَّ وَجْهُهُۥ مُسْوَدًّا وَهُوَ كَظِيمٌ * أَوَمَن يُنَشَّؤُا۟ فِى ٱلْحِلْيَةِ وَهُوَ فِى ٱلْخِصَامِ غَيْرُ مُبِينٍ * وَجَعَلُوا۟ ٱلْمَلَٰٓئِكَةَ ٱلَّذِينَ هُمْ عِبَٰدُ

﴿ٱلرَّحْمَٰنِ إِنَٰثًاۚ أَشَهِدُواْ خَلْقَهُمْۚ سَتُكْتَبُ شَهَٰدَتُهُمْ وَيُسْـَٔلُونَ﴾ [الزخرف/١٦ ـ ١٩].

ودرج المشركون من قريش على تصور آخر عندما توجّهوا إلى الكواكب والأنبياء والصالحين، فجعلوا لهم أصناماً وعبدوها؛ مدَّعين بأن الله أجلّ من أن يعبده البشر مباشرة، لذلك ينبغي أن يعبدوا هذه الآلهة من الأصنام وهي بدورها تعبد الله. والواضح أن هذا انحراف سافر عن الفطرة البشرية واستقامتها، والله لا يرضى مطلقاً بهذا الانحراف[١].

وواجه النبي محمَّد ﷺ في مكة انحرافاً في التشريع والحلال والحرام، وقد مارسه القرشيون بأشكال مختلفة؛ علماً بأن قضية التشريع تتعلق مباشرة بالله وتمتزج مع قضية الألوهية. إن الحلال والحرام فيما ذُكر اسم الله عليه، وما لم يُذكر اسم الله عليه من الذبائح هو مبدأ يتعلق بالله وحده، وأن ما كان يمارسه مشركو مكة من الأعمال الشركية فيما يتعلق بالثمار والأنعام والأولاد يخالف مبدأ الاعتراف بألوهية الله وحده، ﴿فَكُلُواْ مِمَّا ذُكِرَ ٱسْمُ ٱللَّهِ عَلَيْهِ إِن كُنتُم بِـَٔايَٰتِهِۦ مُؤْمِنِينَ ۞ وَمَا لَكُمْ أَلَّا تَأْكُلُواْ مِمَّا ذُكِرَ ٱسْمُ ٱللَّهِ عَلَيْهِ وَقَدْ فَصَّلَ لَكُم مَّا حَرَّمَ عَلَيْكُمْ إِلَّا مَا ٱضْطُرِرْتُمْ إِلَيْهِۗ وَإِنَّ كَثِيرًا لَّيُضِلُّونَ بِأَهْوَآئِهِم بِغَيْرِ عِلْمٍۗ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِٱلْمُعْتَدِينَ ۞ وَذَرُواْ ظَٰهِرَ ٱلْإِثْمِ وَبَاطِنَهُۥٓۚ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَكْسِبُونَ ٱلْإِثْمَ سَيُجْزَوْنَ بِمَا كَانُواْ يَقْتَرِفُونَ ۞ وَلَا تَأْكُلُواْ مِمَّا لَمْ يُذْكَرِ ٱسْمُ ٱللَّهِ عَلَيْهِ وَإِنَّهُۥ لَفِسْقٌۗ وَإِنَّ ٱلشَّيَٰطِينَ لَيُوحُونَ إِلَىٰٓ أَوْلِيَآئِهِمْ لِيُجَٰدِلُوكُمْۖ وَإِنْ أَطَعْتُمُوهُمْ إِنَّكُمْ لَمُشْرِكُونَ﴾ [الأنعام/١١٨ ـ ١٢١].

لقد أدخل القرشيون مسألة الذبائح في أمور العبادات ونظموها في أصول الدين والاعتقادات، فصاروا يتعبَّدون بذبح الذبائح لآلهتهم ويهلُّون عند ذبحها، وهذا شرك بالله؛ لأنه عبادة تُوجَّه إلى غيره[٢].

كانت الشريعة المحمدية تواجه آنذاك في مكة قضية موجودة، فالقرشيون يمتنعون عن أكل ذبائح أحلَّها الله وأحلُّوا أكل ذبائح حرَّمها الله، كما كانوا يحلون ويحرمون ما أنزل الله من رزق من السماء والأرض، نبات أو حيوان، وفقاً لأهوائهم المتقلبة، فيُضلون الناس بما يُشرِّعونه بغير علم ويعتدون على ألوهية الله وحكمه.

وقد حارب القرآن الكريم هذا الاعتقاد من التشريع ﴿قُلْ أَرَءَيْتُم مَّآ أَنزَلَ ٱللَّهُ لَكُم مِّن رِّزْقٍ فَجَعَلْتُم مِّنْهُ حَرَامًا وَحَلَٰلًا قُلْ ءَآللَّهُ أَذِنَ لَكُمْۖ أَمْ عَلَى ٱللَّهِ تَفْتَرُونَ﴾ [يونس/٥٩].

---

(١) اقتبس بعض العرب الأصنام التي كان يعبدها قوم نوح فنصبوها وعبدوها، فكان ود لكلب بدومة الجندل، وسواع لهذيل، ويغوث لمراد ثم لبني غطيف بالجرف عند سبأ، ويعوق لهمذان، ونسر لحمير. وهذه أسماء رجال صالحين من قوم نوح.

(٢) رضا: جـ٨ ص١٧، ١٨.

وواجه النبي محمَّد ﷺ في مكة تشريعاً منحرفاً آخر تمثَّل في تقسيم الثمار والأنعام وقتل الأولاد. كان القرشيون يقسمون ما رزقهم الله من ثمر الزرع وغلَّته ونتاج الأنعام قسمين:

الأول: يجعلونه لله؛ زاعمين أن هذا مما شرَّعه.

الثاني: يجعلونه للأصنام والأوثان

فإذا سقط شيء من الرزق المخصَّص لله بفعل الريح أو غير ذلك؛ ردُّوه إلى القسم المخصَّص للأصنام، وإذا سقط شيء من الرزق المخصَّص للأصنام ردُّوه إلى مكانه؛ لأن الله غنيٌ عن هذا بزعمهم(١).

وحرَّم القرشيون من أموالهم البحيرة(٢)، والسائبة(٣)، والوصيلة(٤)، والحامي(٥)، وجعلوها لأصنامهم، كما حجروا بعض الأنعام فلم يركبوها ولم يذكروا اسم الله عليها عند الذبح، بل كانوا يهلُّون بها لآلهتهم وحدها، وأنعام أخرى لا يذكرون اسم الله عند ركوبها ولا عند حلبها، وإنما يذكرون اسم آلهتهم لأنها خالصة لها بزعمهم، وأنواع أخرى يُسمون ما في بطونها من الحمل لذكورهم ويجعلونه محرَّماً على إناثهم، إلا أن ينزل الحمل ميتاً، فعندئذٍ يشترك فيه الذكور والإناث، ﴿وَجَعَلُوا لِلَّهِ مِمَّا ذَرَأَ مِنَ الْحَرْثِ وَالْأَنْعَامِ نَصِيبًا فَقَالُوا هَٰذَا لِلَّهِ بِزَعْمِهِمْ وَهَٰذَا لِشُرَكَائِنَا فَمَا كَانَ لِشُرَكَائِهِمْ فَلَا يَصِلُ إِلَى اللَّهِ وَمَا كَانَ لِلَّهِ فَهُوَ يَصِلُ إِلَىٰ شُرَكَائِهِمْ سَاءَ مَا يَحْكُمُونَ﴾ [الأنعام/١٣٦]. ﴿وَقَالُوا هَٰذِهِ أَنْعَامٌ وَحَرْثٌ حِجْرٌ لَا يَطْعَمُهَا إِلَّا مَن نَّشَاءُ بِزَعْمِهِمْ وَأَنْعَامٌ حُرِّمَتْ ظُهُورُهَا وَأَنْعَامٌ لَّا يَذْكُرُونَ اسْمَ اللَّهِ عَلَيْهَا

---

(١) تفسير ابن كثير: جـ٢ ص١٧٩.

(٢) **البحيرة**: هي الناقة إذا أنتجت خمسة أبطن نحروا الخامس إذا كان ذكراً، أما إذا كان أنثى، فإنهم يشقون أذنها ويستحيونها فلا يشربون لبنها ولا يجزون وبرها ولا يركبون ظهرها، وهي بمنزلة أمها السائبة. ابن هشام: جـ١ ص١١٢.

(٣) **السائبة**: هي الناقة إذا ولدت عشرة أبطن على التوالي كلهن إناث، سُيِّبت، فلم يُركب ظهرها، ولم يُجز وبرها، ولا يشرب لبنها إلا ضيف، فما نتجت بعد ذلك من أنثى شُقَّت أذنها ثم خُلِّي سبيلها مع أمها، ويُفعل بها كما فُعل بأمها. المصدر نفسه.

(٤) **الوصيلة**: هي الشاة إذا أتأمت عشر إناث متتابعات في خمسة أبطن ليس بينهن ذكر، جُعلت وصيلة، قالوا: قد وُصلت، فكان ما وُلدت بعد ذلك للذكور منهم من دون الإناث، إلا أن يموت منها شيء فيشتركوا في أكله ذكورهم وإناثهم. فكان ما وُلدت بعد ذلك لذكور بنيهم من دون بناتهم. المصدر نفسه.

(٥) **الحامي**: هو الفحل من الإبل إذا أنتج عشر إناث متتابعات ليس بينهن ذكر، حُمي ظهره، فلم يُركب ولم يُجز وبره، وخُلِّي في إبله يضرب فيها، فلا ينتفع فيه بغير ذلك. المصدر نفسه.

ٱفْتِرَآءً عَلَيْهِۚ سَيَجْزِيهِم بِمَا كَانُواْ يَفْتَرُونَ * وَقَالُواْ مَا فِى بُطُونِ هَٰذِهِ ٱلْأَنْعَٰمِ خَالِصَةٌ لِّذُكُورِنَا وَمُحَرَّمٌ عَلَىٰٓ أَزْوَٰجِنَاۖ وَإِن يَكُن مَّيْتَةً فَهُمْ فِيهِ شُرَكَآءُۚ سَيَجْزِيهِمْ وَصْفَهُمْۚ إِنَّهُۥ حَكِيمٌ عَلِيمٌ﴾ [الأنعام/١٣٨، ١٣٩].

وواجه النبي محمَّد ﷺ أيضاً عادة قتل الأولاد بدافع الضغط الاجتماعي والتأثير الديني، وقد تناول القتل البنات بطريقة الوأد أيضاً خشية الفقر والعار، كما تناول الذكور عند النذر[1] ﴿وَكَذَٰلِكَ زَيَّنَ لِكَثِيرٍ مِّنَ ٱلْمُشْرِكِينَ قَتْلَ أَوْلَٰدِهِمْ شُرَكَآؤُهُمْ لِيُرْدُوهُمْ وَلِيَلْبِسُواْ عَلَيْهِمْ دِينَهُمْۖ وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ مَا فَعَلُوهُۖ فَذَرْهُمْ وَمَا يَفْتَرُونَ﴾ [الأنعام/١٣٧]، ﴿قَدْ خَسِرَ ٱلَّذِينَ قَتَلُوٓاْ أَوْلَٰدَهُمْ سَفَهًۢا بِغَيْرِ عِلْمٍ وَحَرَّمُواْ مَا رَزَقَهُمُ ٱللَّهُ ٱفْتِرَآءً عَلَى ٱللَّهِۚ قَدْ ضَلُّواْ وَمَا كَانُواْ مُهْتَدِينَ﴾ [الأنعام/١٤٠]، ﴿وَإِذَا ٱلْمَوْءُۥدَةُ سُئِلَتْ * بِأَيِّ ذَنۢبٍ قُتِلَتْ﴾ [التكوير/٨، ٩].

تلك كانت عقيدة التوحيد مع ما تضمنته من مسائل حيوية التي بشَّر بها محمَّد ﷺ في مكة، وجاهد من أجل إقرارها.

عقيدة البعث والجزاء

تضمَّنت الدعوة الإسلامية في مكة إلى جانب عقيدة التوحيد؛ عقيدة البعث والجزاء، فالبعث إعادة لحياة كانت، والجزاء هو النتيجة الحتمية للحياة الأولى. وقد أنكر القرشيون وجود يوم يبعث الله فيه العباد أحياء من جديد، فواجه النبي محمَّد ﷺ هذا الإنكار بعزم، كما تصدَّى القرآن لهؤلاء وأخذ يُثبت لهم وجوده مُبطلاً نظريتهم عن الحياة والموت. وقد خاطب الفطرة البشرية، وجعل من أحداث الحياة المتكررة قضايا كونية كشف من خلالها النواميس الإلٰهية في الوجود، وأنشأ منها عقيدة شاملة له، كما جعل منها طريقاً للنظر والتفكير وحياة للأرواح.

إن الناس أنفسهم من صنع الله، وإن ظواهر الكون من حولهم من إبداع قدرته، وقد نبَّه ﷺ القرشيين إلى تلك المعجزات والقدرات ليطلعوا على السرِّ الهائل الموجود فيها، وهو سر القدرة المبدعة، لذلك عرض القرآن في مكة خلال إثباته للبعث والجزاء آيات هذه القدرة في النفوس وفي الزرع وفي الماء وفي النار، ومن ثمَّ صوَّر لحظة النهاية؛ نهاية الحياة على الأرض وبداية الحياة في العالم الآخر، وسيواجه كل مخلوق هذه اللحظة عندما يقف وجهاً لوجه أمام خالقه. وهكذا اتخذ القرآن في مكة أبسط المشاهدات المألوفة مادة لبناء عقيدة البعث والجزاء. ووصفت الآيات القرآنية دار الجزاء وما فيها من خير وشر أوصافاً ترغب وتخيف، وهي في

---

(١) رضا: جـ٨ ص١٢٤، ١٢٥.

ذلك لم تجعل اليأس يتسرب إلى النفوس كما أخافت أصحاب الشر، وفتحت أمامهم باباً للتوبة، وأخبرتهم بأن الحسنة إذا تلت السيئة محتها.

ويتميز يوم البعث عن غيره من الأيام من خلال تبدل أقدار الناس وأوضاع الأرض في ظل الفزع الأكبر، وهذه سمة بارزة؛ إذ ترى أقواماً وأناساً اتخذوا من حياتهم الدنيا لهواً ولعباً في أسفل سافلين، وترى في المقابل آخرين غيرهم ممن اتقوا الله في حياتهم الدنيا في أعلى عليّين.

﴿إِذَا وَقَعَتِ ٱلْوَاقِعَةُ ۞ لَيْسَ لِوَقْعَتِهَا كَاذِبَةٌ ۞ خَافِضَةٌ رَّافِعَةٌ ۞ إِذَا رُجَّتِ ٱلْأَرْضُ رَجًّا ۞ وَبُسَّتِ ٱلْجِبَالُ بَسًّا ۞ فَكَانَتْ هَبَآءً مُّنۢبَثًّا﴾ [الواقعة/ ١ ـ ٦].

﴿وَكَانُوا۟ يَقُولُونَ أَئِذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَابًا وَعِظَٰمًا أَءِنَّا لَمَبْعُوثُونَ ۞ أَوَ ءَابَآؤُنَا ٱلْأَوَّلُونَ ۞ قُلْ إِنَّ ٱلْأَوَّلِينَ وَٱلْءَاخِرِينَ ۞ لَمَجْمُوعُونَ إِلَىٰ مِيقَٰتِ يَوْمٍ مَّعْلُومٍ﴾ [الواقعة/ ٤٧ ـ ٥٠].

﴿نَحْنُ خَلَقْنَٰكُمْ فَلَوْلَا تُصَدِّقُونَ ۞ أَفَرَءَيْتُم مَّا تُمْنُونَ ۞ ءَأَنتُمْ تَخْلُقُونَهُۥٓ أَمْ نَحْنُ ٱلْخَٰلِقُونَ ۞ نَحْنُ قَدَّرْنَا بَيْنَكُمُ ٱلْمَوْتَ وَمَا نَحْنُ بِمَسْبُوقِينَ ۞ عَلَىٰٓ أَن نُّبَدِّلَ أَمْثَٰلَكُمْ وَنُنشِئَكُمْ فِى مَا لَا تَعْلَمُونَ ۞ وَلَقَدْ عَلِمْتُمُ ٱلنَّشْأَةَ ٱلْأُولَىٰ فَلَوْلَا تَذَكَّرُونَ ۞ أَفَرَءَيْتُم مَّا تَحْرُثُونَ ۞ ءَأَنتُمْ تَزْرَعُونَهُۥٓ أَمْ نَحْنُ ٱلزَّٰرِعُونَ ۞ لَوْ نَشَآءُ لَجَعَلْنَٰهُ حُطَٰمًا فَظَلْتُمْ تَفَكَّهُونَ﴾ [الواقعة/ ٥٧ ـ ٦٥].

إن أمر النشأة الأولى ونهايتها والخلق والموت، لمألوف ومنظور وواقع في حياة القرشيين، بل في كل حياة، فالله الذي خلق الخلق بعد أن لم يكونوا شيئاً مذكوراً؛ لقادر على إماتتهم وإعادة إحيائهم من جديد، أفليس الذي قدر على البداية بقادر على الإعادة؟.

إن دور الإنسان في الخلق لا يزيد على اللمسة المباشرة ثم ينقطع عمله، فتتولى القدرة الإلٰهية أمر التكوين ونفخ الروح والخلق، ويدرك الإنسان كل هذا في حياته اليومية ما يكفي لتقدير هذه المعجزة والتأثر بها. إنها البداية في التكوين والخلق، أما النهاية، فلا تقل عنها إعجازاً، وإن كانت مثلها يراها الإنسان في كل يوم.

إن الموت الذي ينتهي إليه كل كائن حي هو حلقة في سلسلة النشأة، التي لا بد أن تتكامل لعمران الأرض، فالله قدَّر الموت حتى يخلق أمثال من يموتون، وحتى تأتي نهاية الأرض نفسها، وقدَّر الحياة حتى يُنشيء البشر على هذه الأرض.

وقد ضرب ﷻ الأمثال بالمشاهد المتكررة في كل يوم للتدليل على عدم صعوبة النشأة الأخرى بالنسبة للنشأة الأولى، قال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِن كُنتُمْ فِى رَيْبٍ مِّنَ ٱلْبَعْثِ فَإِنَّا خَلَقْنَٰكُم مِّن تُرَابٍ ثُمَّ مِن نُّطْفَةٍ ثُمَّ مِنْ عَلَقَةٍ ثُمَّ مِن مُّضْغَةٍ مُّخَلَّقَةٍ وَغَيْرِ مُخَلَّقَةٍ لِّنُبَيِّنَ لَكُمْ ۚ وَنُقِرُّ فِى ٱلْأَرْحَامِ مَا نَشَآءُ إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى ثُمَّ نُخْرِجُكُمْ طِفْلًا ثُمَّ لِتَبْلُغُوٓا۟ أَشُدَّكُمْ ۖ وَمِنكُم مَّن يُتَوَفَّىٰ وَمِنكُم مَّن يُرَدُّ إِلَىٰٓ أَرْذَلِ ٱلْعُمُرِ لِكَيْلَا يَعْلَمَ مِنۢ بَعْدِ

عِلۡمٖ شَيۡـٔٗاۚ وَتَرَى ٱلۡأَرۡضَ هَامِدَةٗ فَإِذَآ أَنزَلۡنَا عَلَيۡهَا ٱلۡمَآءَ ٱهۡتَزَّتۡ وَرَبَتۡ وَأَنۢبَتَتۡ مِن كُلِّ زَوۡجِۭ بَهِيجٖ ۞ ذَٰلِكَ بِأَنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلۡحَقُّ وَأَنَّهُۥ يُحۡيِ ٱلۡمَوۡتَىٰ وَأَنَّهُۥ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ قَدِيرٞ ۞ وَأَنَّ ٱلسَّاعَةَ ءَاتِيَةٞ لَّا رَيۡبَ فِيهَا وَأَنَّ ٱللَّهَ يَبۡعَثُ مَن فِي ٱلۡقُبُورِ﴾ [الحج/ ٥ ـ ٧].

لا شيء على الله أيسر ولا شيء أصعب، فالبداية كالإعادة وإنما أمره إذا أراد شيئاً أن يقول له كن فيكون، ولكنه يخاطب الناس وفقاً لإدراكهم. ففي تقديرهم أن إعادة الخلق أصعب من بدئه، لكن الله الذي خلق الناس أول مرة لقادر على إعادة خلقهم ثانية بعد أماتتهم، قال تعالى: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِي يَبۡدَؤُاْ ٱلۡخَلۡقَ ثُمَّ يُعِيدُهُۥ وَهُوَ أَهۡوَنُ عَلَيۡهِۚ وَلَهُ ٱلۡمَثَلُ ٱلۡأَعۡلَىٰ فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِۚ وَهُوَ ٱلۡعَزِيزُ ٱلۡحَكِيمُ﴾ [الروم/ ٢٧].

إن جميع الخلائق تسير في خطٍّ واحد إلى النهاية المقدرة المحتومة بفعل القدرة الموجودة في الجسم المستمدَّة من النظام الإلٰهي، وأن نهاية الإنسان على هذه الأرض هي مرحلة انتقالية ما بين الدنيا والآخرة، فالموت ليس نهاية الإنسان الحقيقية، أما البعث، فإنه المؤذن بالنهاية الحقيقية؛ إذ تبدأ بعده الحياة الكاملة الخالية من العيوب الأرضية، وهناك يُجازى كل فرد بما كسبت يداه في حياته الدنيا.

كانت حقيقة اليوم الآخر من الحقائق العسيرة الإدراك عند القرشيين، وقد لقيت منهم معارضة نفسية عميقة، وقد تلقوا نبأها بغاية العجب والدهشة والاستغراب، فأنكروها إنكاراً شديداً وتحدُّوا محمَّداً ﷺ أن يأتيهم باليوم الموعود، أو أن يقول لهم متى يكون، وتناسوا أن الموت حقيقة قاسية تواجه كل حي على هذه الأرض، فلا يملك لها رداً ولا دفعاً، وتتكرر هذه الحقيقة في كل لحظة أمام أعينهم، وتوحي بأنها آتية من جهة عليا لا يملك لها أحد عمل أي شيء سوى الاستسلام.

ويتبع هذه الحقيقة، حقيقة النشأة الآخرة بعد النشأة الأولى، ويدلُّ هذا على أن هناك تدبيراً في خلق الإنسان على وجه الأرض، وتقديراً في سيره نحو هدف معين.

كانت المشكلة الشعورية عند القرشيين هي صعوبة تصورهم لجمع العظام البالية في التراب لإعادة بعث الإنسان حياً، لكنهم نسوا أن الله قادر ليس على جمع تلك العظام المتفرقة في الثرى فحسب، بل وعلى تسوية البنان وتركيبه في موضعه كما كان، وهذا كناية عن إعادة تركيب الإنسان بأدق ما فيه. يقول تبارك وتعالى: ﴿لَآ أُقۡسِمُ بِيَوۡمِ ٱلۡقِيَٰمَةِ ۞ وَلَآ أُقۡسِمُ بِٱلنَّفۡسِ ٱللَّوَّامَةِ ۞ أَيَحۡسَبُ ٱلۡإِنسَٰنُ أَلَّن نَّجۡمَعَ عِظَامَهُۥ ۞ بَلَىٰ قَٰدِرِينَ عَلَىٰٓ أَن نُّسَوِّيَ بَنَانَهُۥ﴾ [القيامة/ ١ ـ ٤].

وقد طغت هذه المشكلة على المجتمع القرشي، فازداد فيه الفجور يُردِّدون كلمات الزعماء، إن ﴿هِيَ إِلَّا حَيَاتُنَا ٱلدُّنۡيَا نَمُوتُ وَنَحۡيَا وَمَا يُهۡلِكُنَآ إِلَّا ٱلدَّهۡرُۚ﴾.

وواجه محمَّد ﷺ عناد القرشيين بطرق متنوعة، منها:

ـ إعطاؤهم سيلاً غامراً من الدلائل الموحية.

ـ ما هو جارف حتى لا يثبت شيء مما هو راسخ.

ـ ما هو عنيف ملتهب.

ـ ما يشبه المناجاة اللطيفة التي تأنس لها القلوب.

ـ ما يشبه الهول المرعب الذي يفتح الأعين لترى العذاب المرتقب.

ـ بسط الحقيقة ناصعة لا تدع مجالاً للجدل فيها.

ـ تسليط الأضواء حتى تتكشف عما يجري بداخلها من عيوب، فتتيقظ لحركاتها وانفعالاتها التي كانت غافلة عنها.

يقول ﷻ: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱتَّقُواْ رَبَّكُمْۚ إِنَّ زَلْزَلَةَ ٱلسَّاعَةِ شَيْءٌ عَظِيمٌ * يَوْمَ تَرَوْنَهَا تَذْهَلُ كُلُّ مُرْضِعَةٍ عَمَّآ أَرْضَعَتْ وَتَضَعُ كُلُّ ذَاتِ حَمْلٍ حَمْلَهَا وَتَرَى ٱلنَّاسَ سُكَٰرَىٰ وَمَا هُم بِسُكَٰرَىٰ وَلَٰكِنَّ عَذَابَ ٱللَّهِ شَدِيدٌ﴾ [الحج/١، ٢].

﴿فَإِذَا نُفِخَ فِي ٱلصُّورِ نَفْخَةٌ وَٰحِدَةٌ * وَحُمِلَتِ ٱلْأَرْضُ وَٱلْجِبَالُ فَدُكَّتَا دَكَّةً وَٰحِدَةً * فَيَوْمَئِذٍ وَقَعَتِ ٱلْوَاقِعَةُ * وَٱنشَقَّتِ ٱلسَّمَآءُ فَهِيَ يَوْمَئِذٍ وَاهِيَةٌ﴾ [الحاقة/١٣ ـ ١٦].

﴿سَأَلَ سَآئِلٌۢ بِعَذَابٍ وَاقِعٍ * لِّلْكَٰفِرِينَ لَيْسَ لَهُۥ دَافِعٌ * مِّنَ ٱللَّهِ ذِى ٱلْمَعَارِجِ * تَعْرُجُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ وَٱلرُّوحُ إِلَيْهِ فِي يَوْمٍ كَانَ مِقْدَارُهُۥ خَمْسِينَ أَلْفَ سَنَةٍ * فَٱصْبِرْ صَبْرًا جَمِيلًا * إِنَّهُمْ يَرَوْنَهُۥ بَعِيدًا * وَنَرَىٰهُ قَرِيبًا * يَوْمَ تَكُونُ ٱلسَّمَآءُ كَٱلْمُهْلِ * وَتَكُونُ ٱلْجِبَالُ كَٱلْعِهْنِ * وَلَا يَسْـَٔلُ حَمِيمٌ حَمِيمًا * يُبَصَّرُونَهُمْۚ يَوَدُّ ٱلْمُجْرِمُ لَوْ يَفْتَدِى مِنْ عَذَابِ يَوْمِئِذٍۭ بِبَنِيهِ * وَصَٰحِبَتِهِۦ وَأَخِيهِ * وَفَصِيلَتِهِ ٱلَّتِى تُـْٔوِيهِ * وَمَن فِي ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا ثُمَّ يُنجِيهِ﴾ [المعارج/١ ـ ١٤]. .

﴿فَذَرْهُمْ يَخُوضُواْ وَيَلْعَبُواْ حَتَّىٰ يُلَٰقُواْ يَوْمَهُمُ ٱلَّذِى يُوعَدُونَ * يَوْمَ يَخْرُجُونَ مِنَ ٱلْأَجْدَاثِ سِرَاعًا كَأَنَّهُمْ إِلَىٰ نُصُبٍ يُوفِضُونَ * خَٰشِعَةً أَبْصَٰرُهُمْ تَرْهَقُهُمْ ذِلَّةٌۚ ذَٰلِكَ ٱلْيَوْمُ ٱلَّذِى كَانُواْ يُوعَدُونَ﴾ [المعارج/٤٢ ـ ٤٤].

إن الإيمان باليوم الآخر يتطلب من المرء أن يعمل من أجله ليكون مرضياً من الله، والقرشيون أنكروا ذلك اليوم ولم يعملوا من أجله؛ إذ ما رعوا حق الله في معاملاتهم ولا في تصرفاتهم تجاه محمَّد ﷺ وأتباعه، وسيدركون عندما يأتي ذلك اليوم أن نظريتهم في الحياة خاطئة، وأن حياتهم كانت حركة لها علة وسبب وهدف، وليست سهواً ولعباً وزينة وتفاخراً، وأن قدومهم إلى هذه الحياة كان وفق تدبير مقدَّر ليس وفق مصادفة.

بتلك المفاهيم، خاض النبي محمَّد ﷺ معركته في مكة؛ يدعو الناس إلى الإيمان بالله، والإيمان باليوم الآخر، ومحذرهم من الجزاء والعقاب.

الباب الثاني

النبي محمّد ﷺ في المدينة

القسم الأول

العلاقة مع قريش

الفصل الخامس

قيام الدولة الإسلامية في المدينة

تُعدُّ الهجرة النبوية من مكة إلى المدينة[1] حدثاً مفصلياً في تاريخ الدعوة الإسلامية؛ إذ أنها فصلت بين عهدين تميَّز كل منهما بمميزات خاصة؛ من ذلك أنها:

ـ كانت نقطة تحول في تبدل وضع المسلمين الدعوي، فقد كانوا يقومون بتبليغ دعوة الله إلى الناس في مكة، من دون أن يكون لهم كيان سياسي يحميهم ويدفع عنهم الأذى من أعدائهم، وحصل بعد الهجرة أن قامت دولة الإسلام في المدينة التي أخذت على عاتقها نشر الإسلام داخل الجزيرة العربية وخارجها، وإرسال الدعاة إلى القبائل وحمايتهم من أي اعتداء قد يقع عليهم.

ـ ساعدت على فهم القرآن وعلومه من خلال تفريق العلماء بين المكي والمدني من سوره. فالمكي ما نزل قبل الهجرة، والمدني ما نزل بعد الهجرة، وترتَّب على ذلك فوائد عدة لعلَّ أهمها الوقوف على السيرة النبوية من خلال الآيات القرآنية[2].

ابتدأت الرحلة المدينية في حياة الرسول ﷺ بوصوله إلى قباء، وكانت الهجرة تعني نشأة أول دار للإسلام، وهي إيذان بظهور الدولة الإسلامية، ولذا كان على النبي ﷺ أن يُحقق الأمن والاستقرار في الداخل ليتفرغ لعملية بناء دولة الإسلام، وكان من أوائل أعماله بناء مسجد للمسلمين والمؤاخاة بين المهاجرين والأنصار وتنظيم الوضع الداخلي من الناحية السياسية.

بناء مسجد للمسلمين

هو الدعامة الأولى للدولة الإسلامية، شرع النبي ﷺ في بنائه فور وصوله إلى المدينة واستقراره فيها، وذلك لإقامة شعائر الإسلام في رحابه التي حوربت في مكة، ولتقام فيه الصلوات الخمس التي تربط المرء بربه، وقد ذكرنا المكان الذي أُقيم فيه.

---

(١) سمَّى النبي ﷺ يثرب عند وصوله إليها طيبة وطَابة، كراهية للتثريب، وسُمِّيت مدينة الرسول، لنزوله فيها، والمدينة المنورة. الحموي: جـ٥ ص٨٢، ٤٣٠.

(٢) الصلابي: جـ١ ص٣٢١، ٣٢٢.

كان بناء المسجد بسيطاً في بادىء الأمر، وهوعبارة عن صحن فسيح يجاور منزله ﷺ، فُرش بالرمال والحصباء، وكانت أعمدته من جذوع الأشجار، وقبلته إلى بيت المقدس، ونظراً لشدة تعرض المسلمين لحرارة الشمس أقام لهم الرسول ﷺ ظلة (سقف) من جريد النخل(١). وظل المسلمون منذ أن هاجر الرسول ﷺ إلى المدينة يولون وجوههم شطر بيت المقدس طوال ستة عشر أو سبعة عشر شهراً، قبل أن تُحوَّل القبلة إلى الكعبة قبل معركة بدر بشهرين. قال تعالى: ﴿قَدْ نَرَىٰ تَقَلُّبَ وَجْهِكَ فِي ٱلسَّمَآءِ ۖ فَلَنُوَلِّيَنَّكَ قِبْلَةً تَرْضَىٰهَا ۚ فَوَلِّ وَجْهَكَ شَطْرَ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ ۚ وَحَيْثُ مَا كُنتُمْ فَوَلُّوا۟ وُجُوهَكُمْ شَطْرَهُۥ ۗ وَإِنَّ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَـٰبَ لَيَعْلَمُونَ أَنَّهُ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّهِمْ ۗ وَمَا ٱللَّهُ بِغَـٰفِلٍ عَمَّا يَعْمَلُونَ﴾ [البقرة/ ١٤٤]. فأقام النبي ﷺ ظلة جديدة في الجانب القبلي من المسجد، فأضحى للمسجد قبلتان، ومن أجل ذلك سُمِّي بمسجد القبلتين(٢).

تُعدُّ إقامة المسجد أول وأهم ركيزة في بناء الكيان السياسي للدولة الإسلامية والمجتمع الإسلامي، وتعدُّ مكانته فيه مصدر التوجيه الروحي والمادي للعبادة، ونذكر من بين وظائفه:

- إنه المقر الرسمي للدولة الإسلامية الناشئة.

- يكتسب المجتمع الإسلامي من خلاله صفة التماسك والرسوخ من واقع الالتزام بنظام الإسلام وعقيدته وآدابه، وإنما ينبع ذلك من روح المسجد ووحيه.

- إنه رمز لشمولية الإسلام ومدرسة علمية وتشريعية ومعهد يؤمُّه طلاب العلم ليتفقَّهوا في الدين ويعودوا إلى أقوامهم دعاة إلى الله.

- إنه مكان يأوي إليه الغرباء وأبناء السبيل.

- هو مؤسسة اجتماعية يتعلم المسلمون فيها النظام والمساواة ويمارسون مبدأ الوحدة، وتُبنى فيه الأسرة والجماعة بوصفه أداة صهر المؤمنين بالإسلام في وحدة فكرية، من خلال حلقات العلم والقضاء والعبادة وإقامة المناسبات المختلفة.

- إنه المركز الذي يُشيع آصرة المحبة بين المسلمين، وهي التي لا تتم إلا في المسجد حيث يتلاقى المسلمون خمس مرات يومياً، وقد زالت بينهم فوارق الجاه والمال.

- وهو يشيع روح العدل والمساواة بين المسلمين في مختلف شؤونهم وأحوالهم، وذلك من خلال نظام الصف الواحد في الصلاة؛ إذ يقفون على صعيد مشترك من العبودية بين يدي الله.

---

(١) السمهودي، أبو الحسن بن عبد الله: وفاء الوفا بأخبار دار المصطفى، جـ١ ص٢٣٢ ـ ٢٣٩.
(٢) ابن سعد: جـ١ ص٢٤١، ٢٤٢. السمهودي: جـ١ ص٢٥٨.

ـ إنه دائرة سياسية وعسكرية لتوجيه علاقات الدولة في الداخل والخارج.

ـ هو مكان لاجتماع المجاهدين عند الاستنفار، وتُعقد فيه ألوية الجيش والجهاد والدعوة إلى الله.

ـ واستُعمل أحد زوايا المسجد مشفى يستشفي فيه جرحى الجهاد، حتى يتمكَّن النبي ﷺ من عيادتهم والنظر في أحوالهم، والاستطباب لهم ومداواتهم من غير مشقة ولا نصب تقديراً لفضلهم.

المؤاخاة بين المهاجرين والأنصار

أضحى للنبيِّ محمَّد ﷺ بعد قدومه إلى المدينة أتباع، كما أضحت له مكانة سياسية، وقد سمَّى أتباعه من القرشيين بالمهاجرين، وأتباعه من أهل المدينة بالأنصار. ثم أصلح ما بين الأوس والخزرج، فأزال من نفوسهم ما كان قد رسب فيها من العداوة القديمة، ثم وحَّد بينهم وبين المهاجرين وربطهم برباط الأخوة (**تآخوا في الله أخوين**)[1]، ليحل جانباً من مشكلات المهاجرين الاقتصادية، ويؤمِّن لهم صلة وثيقة بأهل المدينة تُخفِّف من عزلتهم، وتُوسِّع نطاق علاقاتهم، وتضمن لهم ملجأ روحياً يعينهم على مقاومة الشدائد، وتُثبِّت المُثُل الأخلاقية التي دعا إليها الإسلام. فالهدف من المؤاخاة إذن هو اقتصادي واجتماعي ونفسي، وتُعدُّ هذه المؤاخاة الدعامة الثانية للدولة الإسلامية.

كان عدد من المهاجرين قد هاجر مع أسرته أو بعض أقاربه (عمر بن الخطاب ـ بنو البكير ـ بنو مظعون)، وقد تركوا أملاكهم ودورهم وأموالهم في مكة. واستطاع بعض المهاجرين أن يخرجوا ومعهم بعض ثروتهم (أبو بكر الصديق ـ عثمان بن عفان)، غير أنهم كانوا قِلَّة. أما الكثرة، فقد هاجرت من دون مال، ولم تكن للمهاجرين أملاك في المدينة يقيمون فيها أو أراضٍ يعيشون عليها، وكان بعض المهاجرين عزَّاباً والبعض الآخر هاجر منفرداً، وقد توزَّعوا على الأنصار. فقد آخى النبي ﷺ سعد بن الربيع وعبد الرحمٰن بن عوف، وكان هذا غنياً، فعرض على عبد الرحمٰن أن يختار شطر ماله، ويتنازل له عن إحدى زوجتيه، غير أن عبد الرحمٰن اقتصر على اقتراض مبلغ ليتاجر به[2]. وشملت المؤاخاة تسعين رجلاً؛ خمسة وأربعين من المهاجرين، ومِثل هذا العدد من الأنصار.

---

(١) ابن هشام: جـ١ ص٢٤٢.

(٢) صحيح البخاري، كتاب مناقب الأنصار، باب إخاء النبي ﷺ بين المهاجرين والأنصار، رقم الحديث (٣٧٨٠ و٣٧٨١)، ص٦٨٦، ٦٨٧.

وآخى النبي ﷺ بين بعض المهاجرين، فقد أخذ بيد علي بن أبي طالب، وقال: (هذا أخي)، وآخى بين حمزة بن عبد المطلب وزيد بن حارثة[1].

تحليل ظاهرة المؤاخاة

ـ قام المجتمع الإسلامي الأول على التآخي الذي أصَّلت له السُّنَّة النبوية في إطار ما جاء في القرآن الكريم، في قوله تعالى: ﴿إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ﴾ [الحجرات/ ١٠]، والأخوة هي أكثر الصِّلات رسوخاً وديمومة، ولا تُدانيها أي رابطة أخرى.

ـ كانت المؤآخاة على الحق والمواساة والتوارث، من دون ذوي الأرحام[2].

ـ قام مبدأ المؤآخاة على الاتصال الفردي بين فرد وآخر بغضِّ النظر عن القبيلة أو العشيرة، وجعل مسؤولية حماية المهاجرين على عاتق أفراد من الأنصار، فشكَّل ذلك رابطة جديدة إضافية إلى الرابطة التي شكَّلتها اتفاقية العقبة الثانية.

ـ قوَّت هذه الرابطة مكانة الفرد عند المهاجرين، لكنها لم تُشتِّتهم؛ غير أن تأثيرها كان قوياً على الأنصار لأنها ألقت عليهم مسؤولية إضافية في الحماية، علماً بأن التنظيم العام لا يعرقل تثبيت العلاقات الشخصية الفردية، فضلاً عن أنها استوعبت أكثر المهاجرين، ولكنها لم تستوعب إلا عدداً قليلاً من الأنصار.

ـ لم يكن ما أقامه الرسول ﷺ من مبدأ التآخي مجرد شعار، وإنما كان حقيقة عملية تتصل بواقع الحياة وبكل أوجه العلاقات القائمة بين المهاجرين والأنصار، وتشيع الأخوَّة بينهم، وحسبنا دليلاً على ذلك ما قام بين سعد بن الربيع وعبد الرحمٰن بن عوف مما ذكرناه آنفاً، وجعل حق الميراث منوطاً بهذا التآخي دون حقوق القرابة والرحم، ثم نسخ الله مبدأ التوارث بعد أن غدت الروح الإسلامية هي وحدها العصب الطبيعي للمجتمع الجديد في المدينة، يضاف إلى ذلك فإن نظام الميراث الذي استقر أخيراً إنما هو نفسه، قائم على أخوَّة الإسلام بين المتوارثين؛ إذ لا توارث بين ذوي دينين مختلفين[3]، قال تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مِنۢ بَعْدُ وَهَاجَرُوا۟ وَجَٰهَدُوا۟ مَعَكُمْ فَأُو۟لَٰٓئِكَ مِنكُمْ وَأُو۟لُوا۟ ٱلْأَرْحَامِ بَعْضُهُمْ أَوْلَىٰ بِبَعْضٍ فِى كِتَٰبِ ٱللَّهِ إِنَّ ٱللَّهَ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌۢ﴾ [الأنفال/ ٧٥]، فنسخت هذه الآية التوارث بموجب نظام التآخي، وبقيت النصرة والنصيحة بين المتآخين.

ـ تُعدُّ المؤآخاة على الحب في الله من أقوى الدعائم في بناء الأُمة الإسلامية، فإذا وهنت تآكل بنيانها، لذلك حرص النبي ﷺ على تعميق الحب في الله في المجتمع المسلم الجديد.

---

(١) ابن هشام: جـ٢ ص٢٤٢.
(٢) ابن سعد: جـ١ ص٢٣٨.
(٣) البوطي: ص٢٢١.

ـ حقَّقت المؤاخاة أهدافها، فقد قضت على وحشة الغربة عند المهاجرين، وآنستهم عن مفارقة الأهل والعشيرة، وشدَّت أُزر بعضهم بعضاً، وكانت سبباً في نهوض الدولة الجديدة؛ لأن أي دولة لا يمكن أن تنهض وتقوم إلا على أساس وحدة الأُمة وتساندها، ولا يمكن لكل من الوحدة والتساند أن يتم بغير عامل التآخي والمحبة المتبادلة، فكل جماعة لا تؤلف بينها آصرة المودة والتآخي الحقيقية لا يمكن أن تتحد حول مبدأ ما، وما لم يكن الاتحاد حقيقة قائمة في الأُمة أو الجماعة، فلا يمكن أن تتألف منها دولة، كما ينبغي أن يسبق التآخي عقيدة يتم اللقاء عليها والإيمان بها، لذلك جعل رسول الله ﷺ العقيدة الإسلامية أساس هذه الأُخوَّة[1].

تنظيم العلاقات الداخلية (الصحيفة)

يتجلَّى تنظيم الرسول ﷺ الإداري في أوائل الهجرة في الصحيفة التي أصدرها في السنة الثانية من الهجرة قبل معركة بدر، وضمَّنها الأحكام التي تُنظم الدولة والمجتمع من خلال العلاقات بين كتله وأفراده، وتوضح التزاماتهم، وتُحدِّد حقوقهم وواجباتهم، وأطلقت الأبحاث الحديثة عليها اسم الدستور، وهي الدعامة الثالثة للدولة الإسلامية.

قال ابن إسحاق: «وكتب رسول الله ﷺ كتاباً بين المهاجرين والأنصار وادع فيه يهود وعاهدهم، وأقرَّهم على دينهم وأموالهم، وشرط لهم واشترط عليهم[2]، وفيما يلي نص هذا الكتاب ـ الوثيقة ـ مقسماً إلى بنود:

١ ـ هذا كتاب من محمد النبيِّ رسول الله بين المؤمنين وقريش ويثرب ومن تبعهم، فلحق بهم وجاهد معهم.

٢ ـ أنهم أُمة واحدة من دون الناس.

٣ ـ المهاجرون من قريش على ربعتهم[3]، يتعاقلون بينهم وهم يَفْدون عانيهم بالمعروف والقسط بين المؤمنين.

٤ ـ وبنو عوف على ربعتهم يتعاقلون معاقلهم الأولى[4]، وكل طائفة تفدي عانيها بالمعروف والقسط بين المؤمنين.

٥ ـ وبنو الحارث بن الخزرج على ربعتهم يتعاقلون معاقلهم الأولى، وكل طائفة تفدي عانيها بالمعروف والقسط بين المؤمنين.

---

(١) البوطي: ص٢١٩.
(٢) ابن هشام: جـ٢ ص٢٤٠.
(٣) الربعة: الوضع الذي كانوا عليه وقت مجيء الإسلام.
(٤) معاقلهم الأولى، أي: أن دفع الديات يجري حسب القوانين السائدة سابقاً بين المؤمنين.

٦ ـ وبنو ساعدة على ربعتهم يتعاقلون معاقلهم الأولى، وكل طائفة تفدي عانيها بالمعروف والقسط بين المؤمنين.

٧ ـ وبنو جُشَم على ربعتهم يتعاقلون معاقلهم الأولى، وكل طائفة تفدي عانيها بالمعروف والقسط بين المؤمنين.

٨ ـ وبنو النجار على ربعتهم يتعاقلون معاقلهم الأولى، وكل طائفة تفدي عانيها بالمعروف والقسط بين المؤمنين.

٩ ـ وبنو عمرو بن عوف على ربعتهم يتعاقلون معاقلهم الأولى، وكل طائفة تفدي عانيها بالمعروف والقسط بين الناس.

١٠ ـ وبنو النبيت على ربعتهم يتعاقلون معاقلهم الأولى، وكل طائفة تفدي عانيها بالمعروف والقسط بين الناس.

١١ ـ وبنو الأوس على ربعتهم يتعاقلون معاقلهم الأولى، وكل طائفة تفدي عانيها بالمعروف والقسط بين الناس.

١٢ ـ وأن المؤمنين لا يتركون مُفرحاً[١] بينهم أن يعطوه بالمعروف؛ من فداء أو عقل.

١٣ ـ أن لا يحالف مؤمن مولى مؤمن دونه.

١٤ ـ وأن المؤمنين المتقين على من بغى منهم أو ابتغى دسيعة[٢] ظلم، أو إثماً أو عدواناً أو فساداً بين المؤمنين، وأن أيديهم عليه جميعاً ولو كان ولد أحدهم.

١٥ ـ ولا يقتل مؤمن مؤمناً في كافر، ولا ينصر كافراً على مؤمن.

١٦ ـ وأن ذمة الله واحدة، يجير عليهم أدناهم، وأن المؤمنين بعضهم موالي بعض دون الناس.

١٧ ـ وأنه من تبعنا من يهود فإن له النصر والأُسوة غير مظلومين ولا متناصرين عليهم.

١٨ ـ وأن سِلْم المؤمنين واحدة، لا يسالم مؤمن دون مؤمن في قتال في سبيل الله إلا على سواء وعدل بينهم.

١٩ ـ وإن كل غازية غزت معنا يُعقب بعضها بعضاً.

٢٠ ـ وإن المؤمنين يُبيء[٣] بعضهم على بعض، بما نال دماءهم في سبيل الله.

٢١ ـ وإن المؤمنين المتقين على أحسن هدى وأقومه.

---

(١) المفرح: المثقل بالديْن والكثير العيال.

(٢) دسيعة: العطية الكثيرة، وابتغى دسيعة ظلم؛ أي: طلب دفعاً على سبيل الظلم.

(٣) يُبيء: من البواء، وهو: المساواة.

٢٢ ـ وإنه لا يُجير مشرك مالاً لقريش، ولا نفساً ولا يحول دونه على مؤمن.

٢٣ ـ وإنه من اعتبط[١] مؤمناً قتلاً عن بيِّنة، فإنه قَوَد إلا أن يرضى ولي المقتول، وإن المؤمنين عليه كافة ولا يحل لهم إلا قيام عليه.

٢٤ ـ وإنه لا يحل لمؤمن أقرَّ بما في هذه الصحيفة، وآمن بالله واليوم الآخر أن ينصر محدثاً ولا يؤويه، وإنه من نصره أو آواه فإن عليه لعنة الله وغضبه يوم القيامة، ولا يؤخذ منه صرف ولا عدل.

٢٥ ـ وإنكم مهما اختلفتم فيه من شيء، فإن مرده إلى الله وإلى محمد ﷺ.

٢٦ ـ وإن اليهود ينفقون مع المؤمنين ما داموا محاربين.

٢٧ ـ وإن يهود بني عوف أُمة مع المؤمنين، لليهود دينهم وللمسلمين دينهم، مواليهم وأنفسهم إلا من ظلم نفسه وأثِمَ لا يوتغ[٢] إلا نفسه وأهل بيته.

٢٨ ـ وإن ليهود بني النجار مثل ما ليهود بني عوف.

٢٩ ـ وإن ليهود بني الحارث مثل ما ليهود بني عوف.

٣٠ ـ وإن ليهود بني ساعدة مثل ما ليهود بني عوف.

٣١ ـ وإن ليهود بني جُشَم مثل ما ليهود بني عوف.

٣٢ ـ وإن ليهود بني الأوس مثل ما ليهود بني عوف.

٣٣ ـ وإن ليهود بني ثعلبة مثل ما ليهود بني عوف، إلا من ظلم وأثم فإنه لا يوتغ إلا نفسه وأهل بيته.

٣٤ ـ وإن جفنة بطن من ثعلبة كأنفسهم.

٣٥ ـ وإن لبني الشطيبة مثل ما ليهود بني عوف، وان البر دون الإثم.

٣٦ ـ وإن موالي ثعلبة كأنفسهم.

٣٧ ـ وإن بطانة يهود كأنفسهم.

٣٨ ـ وإنه لا يخرج منهم أحد إلا بإذن محمَّد ﷺ، وإنه لا يُنجز على ثأر جرح، وإنه من فتك فبنفسه فتك، وأهل بيته، إلا من ظلم وإن الله على أبرِّ من هذا[٣].

٣٩ ـ وإن على اليهود نفقتهم، وعلى المسلمين نفقتهم، وإن بينهم النصر على من حارب أهل هذه الصحيفة، وإن بينهم النصح والنصيحة، والبر دون الإثم.

٤٠ ـ وإنه لا يأثم امرؤ بحليفه وأن النصر للمظلوم.

٤١ ـ وأن اليهود ينفقون مع المؤمنين ما داموا محاربين.

٤٢ ـ وإن يثرب حرام جوفها لأهل هذه الصحيفة.

---

(١) أي: قتله بدون جناية أو سبب يوجب قتله. (٢) يوتغ: يُهلك.

(٣) أبرُّ من هذا؛ أي: على رضاً به.

٤٣ ـ وإن الجار كالنفس غير مُضار ولا آثم.

٤٤ ـ وإنه لا تُجار حرمة إلا بإذن من أهلها.

٤٥ ـ وإنه ما كان بين أهل هذه الصحيفة من حدث أو اشتجار يُخاف فساده، فإن مرده إلى الله وإلى محمَّد ﷺ، وإن الله على أتقى ما في هذه الصحيفة وأبرِّه.

٤٦ ـ وإن بينهم النصر من دهم يثرب.

٤٧ ـ وإنه لا تُجار قريش ولا من نصرها.

٤٨ ـ وإذا دعوا إلى صلح يصالحونه، فإنهم يصالحونه ويلبسونه، وإنهم إذا دُعوا إلى مثل ذلك، فإن لهم على المؤمنين إلا من حارب في الدين، على كل أناس حصتهم من جانبهم الذي قبلهم.

٤٩ ـ وإن يهود الأوس، مواليهم وأنفسهم، على مثل ما لأهل هذه الصحيفة مع البر المحض، من أهل هذه الصحيفة، وأن البر دون الإثم، لا يكسب كاسب إلا على نفسه، وأن الله على ما أصدق ما في هذه الصحيفة وأبرِّه.

٥٠ ـ وإنه لا يحول هذا الكتاب دون ظالم أو آثم، وأنه من خرج آمن، ومن قعد آمن بالمدينة إلا من ظلم وأثم، وأن الله جار لمن برَّ واتقى، ومحمَّد رسول الله ﷺ[١].

تحليل مضمون الصحيفة

ـ روى ابن إسحاق مضمون الصحيفة من دون سند، ولم يذكر شيئاً عن الطريقة التي وصلت بها إليه ولا متى وكيف طُبِّق هذا الدستور، لكن الإمام أحمد روى في مسنده عن سريج، فقال: «حدثنا عباد عن حجاج عن عمرو بن شعيب عن أبيه عن جدِّه؛ أن النبي ﷺ كتب كتاباً بين المهاجرين والأنصار أن يعقلوا معاقلهم وأن يفدوا عانيهم بالمعروف، والإصلاح بين المسلمين»[٢].

ـ يُبين أسلوب الصحيفة عن أصالتها، فنصوصها مكوَّنة من كلمات وتعابير كانت مألوفة في عصر النبي ﷺ، ثم أن التشابه الكبير بين أسلوبها وأساليب كتبه عليه السلام يعطيها توثيقاً آخر، ما يحملنا على الاعتقاد بأنها المصدر الذي تجد فيه النظريات الفكرية التي كانت أساس الدولة في السنوات الأولى من نشأتها.

ـ تضمَّنت الصحيفة مبادىء عامة في طليعتها مفهوم الأُمة، وهي تضم المسلمين جميعاً؛ المهاجرين منهم والأنصار، ومن تبعهم ومن لحق بهم وجاهد معهم من دون الناس، وهذا مفهوم جديد في تاريخ الحياة السياسية في الجزيرة العربية، فنقل بذلك

(١) ابن هشام: جـ٢ ص٢٤٠ ـ ٢٤٢.

(٢) مسند الإمام أحمد: رقم الحديث (٢٤٤٢)، جـ١ ص٣٣٦.

قومه من وضع القبيلة إلى وضع الأمة، وقد جاء في القرآن الكريم: ﴿إِنَّ هَٰذِهِۦٓ أُمَّتُكُمْ أُمَّةً وَٰحِدَةً وَأَنَا۠ رَبُّكُمْ فَٱعْبُدُونِ﴾ [الأنبياء/٩٢]. وقام هذا المفهوم على أسس فكرية أخلاقية وعقائدية، وليس على أساس الدم والنسب، والأمة قابلة للتوسع والتقلص تبعاً لعدد من ينضم إليها أو يتركها باختياره. وبهذا الاسم الذي أطلق على جماعة المسلمين ومن تبعهم من أهل يثرب؛ اندمج المسلمون على اختلاف قبائلهم في هذه الجماعة التي ترتبط فيما بينها برباط الإسلام، فهم يتكافلون فيما بينهم، ويتمايزون عن بقية الناس، وبخاصة اليهود، ويستهدف هذا التمايز زيادة تماسكهم واعتزازهم بذاتهم، علماً بأن النبي ﷺ مايز أصحابه عن اليهود في أمور كثيرة بهدف مخالفتهم، مثل الصلاة بالخف وصبغ شيب الرأس بالحناء وغير ذلك. وهكذا قامت الدولة الإسلامية منذ ولادتها على المقومات الدستورية والإدارية التي تحتاج إليها، ونشأ المجتمع الإسلامي على أسس دستورية تامَّة.

ـ التكافل والتضامن بين المسلمين، فهم جميعاً مسؤولون عن بعضهم في شؤون حياتهم وآخرتهم، علماً بأن أحكام الشريعة إنما تقوم على أساس هذه المسؤولية وتُحدِّد الأساليب التنفيذية لمبدأ التكافل والتضامن فيما بين المسلمين[1].

ـ لا يعني مفهوم الأمة القضاء على حرية الفرد، إنما تنسيق هذه الحرية مع مصلحة الجماعة، فالمسؤولية المدنية والاقتصادية والدينية مسؤولية فردية «لا يكسب كاسب إلا على نفسه»، «إنه لا يأثم امرؤ بحليفه». وقد ضمن الإسلام حرية العمل واختيار المهنة والتنقل، لكن ضمن نطاق الأمة؛ إذ لا يجوز القيام بأعمال تضر بمصالحها، كما أنه ليس للأمة أن تقيد حرية الفرد[2]. «وإن الله جار لمن برَّ واتقى ومحمد رسول الله ﷺ»؛ أي: أن الله يحمي من يبر ويتقي ويتخلَّق بالأخلاق الفاضلة. وحرصت الصحيفة على صيانة الحريات، مثل حرية العقيدة وحرية الدين «للمسلمين دينهم ولليهود دينهم»، لكنها أنذرت من يخالف هذا المبدأ بإنزال العقاب.

ـ سيادة وحدة الأمة على التكتلات الفرعية، فالتكتل العشائري يقع ضمن رابطة الأمة وهو خاضع لها. وقد نصَّت الصحيفة على دور النظام العشائري كأساس للسكن ودفع الدية، وأن العشائر «على ربعتهم يتعاقلون معاقلهم ويفدون عانيهم بالمعروف والقسط»، «وكل طائفة تفدي عانيها بالمعروف والقسط». وتدل كلمة طائفة في هذا النص على أنه كانت في كل عشيرة طوائف عدة[3].

---

(١) انظر: البندَيْن ١ و٢.

(٢) العلي: ص١١٤، ١١٥.

(٣) المرجع نفسه: ص١١٥.

ـ وأقرَّت الصحيفة بقاء الولاء المعروف في الجاهلية «لا يحالف مؤمن مولى مؤمن من دونه»، لكنها منعت محالفة الموالي بدون موافقة أسيادهم. وقد وفَّرت للمولى العمل في ظل الحماية التي يوفرها الولاء، وفي المقابل كان الموالي يوفرون للعشيرة بعض القوة. ويبدو أن إقرار النبيِّ ﷺ لمبدأ التكتل العشائري له علاقة بمدى تغلغله في النفوس، على الرغم من أن هذا المبدأ لا بد أن يزول؛ لأن الدين الإسلامي يجمع الناس برابطة العقيدة، إنهم إخوان في الدين، كما أن هذا المبدأ مُعرَّض للتفكك على مر الأيام[1].

ـ أناطت الصحيفة بالله وبرسوله الفصل في كل الأمور وفض الخلافات، «وأنه مهما اختلفتم فيه من شيء، فإن مردَّه إلى الله وإلى محمَّد ﷺ»، «وإنه إن كان بين أهل هذه الصحيفة من حدث أو اشتجار يُخاف فساده، فإن مردَّه إلى الله وإلى محمَّد ﷺ»، وهذا تأكيد على ضرورة وجود سلطة عليا دينية تهيمن على المدينة وتفصل في الخلافات منعاً لقيام اضطرابات في الداخل بفعل تعدد السلطات، كما أنه تأكيد ضمني على رئاسة الرسول ﷺ؛ إذ أناطت به السلطات الثلاث: التشريعية والقضائية والتنفيذية[2].

ـ وأقرَّت الصحيفة مبدأ المساواة، وهو ركن مهم من الأركان الشرعية والمبادىء التي تساهم في بناء المجتمع المسلم «إن ذمة الله واحدة»، «وإن المسلمين يُجير عليهم أدناهم»، ومعنى ذلك أن ذِمَّة المسلم محترمة، وجواره محفوظ لا ينبغي أن يُجار عليه فيه، ومن أدخل من المسلمين أحداً في جواره فليس لغيره أن ينتهك حرمة جواره هذا[3]، وأن «بعضهم موالي بعض دون الناس» يتناصرون في السراء والضراء، وأن «المؤمنين يُبيء بعضهم على بعض بما نال دماءهم في سبيل الله»، والمقصود بهذا المبدأ مساواة الناس أمام الشرع والقضاء والأحكام والحقوق العامَّة.

ـ أوجدت الصحيفة سلطة قضائية مركزية يرجع إليها الجميع، وصبغتها بصبغة قدسية تتمتع بقوة تنفيذية؛ لأن أمر الله واجب الطاعة ملزم التنفيذ، كما أن أوامر النبي ﷺ مستمدَّة من الله، وهي بدورها واجبة.

لم تقتصر السلطة القضائية على المسلمين فقط، وإنما شملت المشركين من أهل يثرب ومَن تبعهم من الأفراد والعشائر، الذين لم يعتنقوا الدين الإسلامي، فكان النبي ﷺ مرجعهم وحاكمهم في الخلافات المتعلقة بالأمن العام، فأدخلهم بذلك

(١) العلي: ص١١٥، ١١٦.
(٢) الصلّابي: جـ١ ص٣٥٩، ٣٦٠.
(٣) البوطي: ص٢٢٧.

ضمن الأحكام الأساسية من دون أن يجبرهم على اعتناق الإسلام، والواضح أن شمولهم بأحكام العدالة يجعلهم يدركون دور الإسلام في الاستقرار، ودافعاً لهم إلى اعتناقه.

وامتدَّت أحكام العدالة والقضاء إلى اليهود فيما يتعلق بالخلافات التي تمس الأمن العام، وهي من القضايا المركزية. أما القضايا المحدودة والشخصية (الأحوال الشخصية)، فإنها لا تلزم إحالتها إلى النبي ﷺ[1]، وقد نصَّ القرآن على السماح لليهود بالرجوع في ذلك إلى النبي ﷺ، قال تعالى:

﴿فَإِن جَآءُوكَ فَٱحْكُم بَيْنَهُمْ أَوْ أَعْرِضْ عَنْهُمْ ۖ وَإِن تُعْرِضْ عَنْهُمْ فَلَن يَضُرُّوكَ شَيْـًٔا ۖ وَإِنْ حَكَمْتَ فَٱحْكُم بَيْنَهُم بِٱلْقِسْطِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُقْسِطِينَ﴾ [المائدة/ ٤٢].

ولا شك بأن أحكام النبي ﷺ تُقَدَّم على أسس العرف المنسجمة مع العدالة ومبادىء الإسلام، قال تعالى: ﴿فَٱحْكُم بَيْنَهُم بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ ۖ وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَآءَهُمْ عَمَّا جَآءَكَ مِنَ ٱلْحَقِّ﴾ [المائدة/ ٤٨]، ﴿وَأَنِ ٱحْكُم بَيْنَهُم بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَآءَهُمْ وَٱحْذَرْهُمْ أَن يَفْتِنُوكَ عَنۢ بَعْضِ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ إِلَيْكَ﴾ [المائدة/ ٤٩].

ـ حدَّدت الصحيفة معالم الدولة الإسلامية الناشئة من شعب وأرض وسلطة حاكمة، فالشعب هو مجموع الأُمة الإسلامية، والمدينة هي الأرض، وقد اتسعت بعد ذلك بفعل الفتوح إلا أنها بقيت المركز ونقطة الانطلاق. وجاء في الصحيفة «وإن يثرب حرام جوفها لأهل هذه الصحيفة»، وأصل التحريم أن لا يُقطع شجرها ولا يُقتل طيرها، وإذا كان هذا هو الحكم في الشجر والطير، فإن حرمة الأموال والأنفس أوْلى.

ـ الملفت أن الصحيفة لم تذكر ثلاث قبائل يهودية كبيرة، هي: بنو قينقاع، وبنو النضير وبنو قريظة، ويمكن تفسير ذلك بافتراض أن النبي محمَّد ﷺ صنَّف النضير وقريظة وفقاً للقبائل العربية التي يعيشون بينها أو على أراضيها، فضمَّ النضير وقريظة إلى يهود الأوس وثعلبة؛ لأنهم كانوا يقيمون بين أوس الله وثعلبة وعمرو بن عوف، في أراضيهم الخاصة، كما يمكن أن نفترض من جهة أخرى أن الصحيفة ذكرت اليهود الموالين للعشائر العربية وأهملت القبائل الأخرى من اليهود، وذلك بما يتفق مع الوضع السياسي في المدينة، فإن البطون اليهودية الصغيرة كانت قد دخلت في أحلاف مع الأوس أو الخزرج بعد سيادة هؤلاء في المدينة، أما قبائل اليهود الثلاث الكبيرة، فقد بقيت محتفظة بشخصيتها معتزة بقوتها، ومع ذلك فقد وضعت الصحيفة بنداً مهماً لدخول اليهود في الدولة الإسلامية احتمالاً لما قد يحدث من دخول هذه

---

(١) العلي: ص١١١، ١١٢.

القبائل في النظام الجديد، وفعلاً أُلحقت هذه القبائل بالدولة في محالفات ملحقة[١]. يذكر ابن إسحاق أن بني قينقاع كانوا أول يهود نقضوا ما بينهم وبين رسول الله ﷺ، وحاربوا فيما بين بدر وأُحد[٢]، كما يذكر خبر معاهدة مع بني قريظة[٣].

استكمال أسس الدولة الإسلامية

بعد أن شيَّد النبي محمَد ﷺ المقر الرسمي للدولة الإسلامية المتمثل بالمسجد، وأصلح الأوضاع الداخلية، واجتمع الناس حوله، واعترفوا به قائداً، وأطاعه الجميع، من واقع الموافقة على بنود الصحيفة؛ فرض ﷺ بعض التشريعات من أجل استكمال أسس الدولة الإسلامية، وهي:

الأذان: عندما اطمأنَّ النبي محمَّد ﷺ في المدينة، واجتمع المسلمون حوله، واستحكم أمر الإسلام، فقامت الصلاة وفُرضت الزكاة والصيام، وقامت الحدود، وفُرض الحلال وحُرِّم الحرام، وتبوَّأ الإسلام مركزاً متفوقاً؛ جعل رسول الله ﷺ يفكر بطريقة يدعو بها الناس إلى الصلاة، وقد كره أن يستعمل البوق الذي يستعمله اليهود لصلاتهم، كما كره الناقوس الذي يستعمله النصارى، وكان المسلمون حتى ذلك الوقت يأتون إلى الصلاة عندما يحين وقتها من دون دعوة، وقد لاحظ أحد الصحابة، وهو عبد الله بن زيد بن ثعلبة، ذلك، فأهمَّه ما أهمَّ النبيَّ ﷺ، وعندما نام في تلك الليلة رأى طائفاً لقَّمه فحوى الدعوة إلى الصلاة، فلما أخبر النبي ﷺ بها، قال له: (**إنها لرؤيا حق**)، وطلب منه أن يُعلِّمها لبلال، فأذَّن بها، وهي الأذان الحالي[٤].

الوضوء: ومن مستلزمات الصلاة الوضوء، وقد ذكر القرآن كيفية القيام به في قوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا قُمۡتُمۡ إِلَى ٱلصَّلَوٰةِ فَٱغۡسِلُواْ وُجُوهَكُمۡ وَأَيۡدِيَكُمۡ إِلَى ٱلۡمَرَافِقِ وَٱمۡسَحُواْ بِرُءُوسِكُمۡ وَأَرۡجُلَكُمۡ إِلَى ٱلۡكَعۡبَيۡنِۚ وَإِن كُنتُمۡ جُنُبٗا فَٱطَّهَّرُواْۚ وَإِن كُنتُم مَّرۡضَىٰٓ أَوۡ عَلَىٰ سَفَرٍ أَوۡ جَآءَ أَحَدٞ مِّنكُم مِّنَ ٱلۡغَآئِطِ أَوۡ لَٰمَسۡتُمُ ٱلنِّسَآءَ فَلَمۡ تَجِدُواْ مَآءٗ فَتَيَمَّمُواْ صَعِيدٗا طَيِّبٗا فَٱمۡسَحُواْ بِوُجُوهِكُمۡ وَأَيۡدِيكُم مِّنۡهُۚ مَا يُرِيدُ ٱللَّهُ لِيَجۡعَلَ عَلَيۡكُم مِّنۡ حَرَجٖ وَلَٰكِن يُرِيدُ لِيُطَهِّرَكُمۡ وَلِيُتِمَّ نِعۡمَتَهُۥ عَلَيۡكُمۡ لَعَلَّكُمۡ تَشۡكُرُونَ﴾ [المائدة/٦].

الصوم: فرض الله ﷻ الصوم في السنة الثانية للهجرة في شهر شعبان، وجعله ركناً من أركان الإسلام، كما فرضه على الأُمم السابقة للإسلام، وفي ذلك تأكيد على

---

(١) الشريف، أحمد إبراهيم: **مكة والمدينة في الجاهلية وعصر الرسول**، ص٣٩٤، ٣٩٥.
(٢) ابن هشام: جـ٣ ص١٣٧. (٣) المصدر نفسه: ص٢٦١.
(٤) ابن هشام: جـ٢ ص٢٥٣.

أهمية هذه العبادة ومكانتها. قال الله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ كُتِبَ عَلَيْكُمُ ٱلصِّيَامُ كَمَا كُتِبَ عَلَى ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ۞ أَيَّامًا مَّعْدُودَٰتٍ فَمَن كَانَ مِنكُم مَّرِيضًا أَوْ عَلَىٰ سَفَرٍ فَعِدَّةٌ مِّنْ أَيَّامٍ أُخَرَ وَعَلَى ٱلَّذِينَ يُطِيقُونَهُۥ فِدْيَةٌ طَعَامُ مِسْكِينٍ فَمَن تَطَوَّعَ خَيْرًا فَهُوَ خَيْرٌ لَّهُۥ وَأَن تَصُومُوا۟ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ﴾ [البقرة/ ١٨٣، ١٨٤].

والصوم هو الإمساك عن الطعام والشراب لمدة زمنية معينة ولغرض ديني يتجاوز هذا الإمساك، فهو مظهر للخضوع الإرادي، وأنه من الأُمور التعبدية التي يقوم بها المؤمن طاعة لله، ومن حيث هو تكليف إلهي وطاعة شيء قديم، فقد كتبه الله على الشعوب قبل الإسلام بأشكال متعددة، ومع أنه معروف عند الشعوب القديمة، إلا أنه لا يُعدُّ فريضة إلا عند أهل الأديان السماوية مثل اليهود والنصارى، وقد صام موسى أربعين يوماً وليلة على جبل الطور في سيناء، ويصوم النصارى أربعين يوماً اقتداءً بعيسى ابن مريم، فيمتنعون عن بعض المأكولات، ويصوم المانويون يوماً في الشهر.

وكان اليهود يصومون يوم عاشوراء وكذلك أهل مكة. روى مسلم بسنده عن ابن عباس، قال: «قدم رسول الله ﷺ المدينة، فوجد اليهود يصومون عاشوراء، فسُئِلوا عن ذلك، فقالوا: هذا يوم الذي أظهر الله فيه موسى وبني إسرائيل على فرعون، فنحن نصومه تعظيماً له، فقال النبي ﷺ: (**نحن أولى بموسى منكم**). فأمر بصومه»[1]. وروى البخاري بسنده عن عائشة، قال: «كان يوم عاشوراء تصومه قريش في الجاهلية، وكان النبي ﷺ يصومه، فلما قدم المدينة صامه وأمر بصيامه، فلما نزل رمضان، كان رمضان الفريضة، وتُرك عاشوراء، فكان من شاء صامه ومن شاء لم يصمه»[2].

وحدَّد ﷺ بعد ذلك مدة الصوم بشهر رمضان، فقال: ﴿شَهْرُ رَمَضَانَ ٱلَّذِىٓ أُنزِلَ فِيهِ ٱلْقُرْءَانُ هُدًى لِّلنَّاسِ وَبَيِّنَٰتٍ مِّنَ ٱلْهُدَىٰ وَٱلْفُرْقَانِ فَمَن شَهِدَ مِنكُمُ ٱلشَّهْرَ فَلْيَصُمْهُ وَمَن كَانَ مَرِيضًا أَوْ عَلَىٰ سَفَرٍ فَعِدَّةٌ مِّنْ أَيَّامٍ أُخَرَ يُرِيدُ ٱللَّهُ بِكُمُ ٱلْيُسْرَ وَلَا يُرِيدُ بِكُمُ ٱلْعُسْرَ وَلِتُكْمِلُوا۟ ٱلْعِدَّةَ وَلِتُكَبِّرُوا۟ ٱللَّهَ عَلَىٰ مَا هَدَىٰكُمْ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾ [البقرة/ ١٨٥].

فُرض صوم شهر رمضان في السنة الثانية من الهجرة بعد معركة بدر، وهو شهر له قدسية، ومكانة كبيرة عند المسلمين؛ إذ فيه بدأ نزول الوحي، وفيه انتصر المسلمون على المشركين في بدر.

---

(١) **صحيح مسلم على شرح النووي**: كتاب الصيام، جـ٨ ص٩.

(٢) **صحيح البخاري**: كتاب تفسير القرآن، باب ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ كُتِبَ عَلَيْكُمُ ٱلصِّيَامُ كَمَا كُتِبَ عَلَى ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ﴾، رقم الحديث (٤٥٠٤)، ص٨١١.

واستتبع الصوم تشريع صدقة الفطر، وهي على كل مسلم حر أو عبد، ذكر أو أُنثى، صغير أو كبير، والحكمة من هذه الفريضة ما ذكره ابن عباس عن رسول الله ﷺ؛ أنه قال: «فرض رسول الله ﷺ زكاة الفطر طُهرة للصائم من اللغو والرفث، وطُعمة للمساكين؛ من أدَّاها قبل الصلاة فهي زكاة مقبولة، ومن أدَّاها بعد الصلاة فهي صدقة من الصدقات»(١)، وقد شُرعت قبل أن تُشرَّع الزكاة.

تشريع القتال

اقتضى وضع المسلمين منذ أواخر العهد المكي أن يندرج تشريع القتال على أربع مراحل:

الأولى: الحظر، وكان ذلك في مكة على الرغم من مطالبة المسلمين النبي ﷺ بالإذن لهم في القتال، فيجيبهم (اصبروا، فإني لم أؤمر بقتال).

الثانية: الإذن من غير إيجاب، قال تعالى: ﴿أُذِنَ لِلَّذِينَ يُقَٰتَلُونَ بِأَنَّهُمْ ظُلِمُوا۟ ۚ وَإِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ نَصْرِهِمْ لَقَدِيرٌ﴾ [الحج/٣٩].

الثالثة: وجوب قتال من قاتل المسلمين، قال تعالى: ﴿وَقَٰتِلُوا۟ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ ٱلَّذِينَ يُقَٰتِلُونَكُمْ وَلَا تَعْتَدُوٓا۟ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلْمُعْتَدِينَ﴾ [البقرة/١٠٩].

الرابعة: فرض قتال عموم الكفار، على المسلمين، قال تعالى: ﴿وَقَٰتِلُوا۟ ٱلْمُشْرِكِينَ كَآفَّةً كَمَا يُقَٰتِلُونَكُمْ كَآفَّةً ۚ وَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلْمُتَّقِينَ﴾ [التوبة/٣٦].

وترتبط أسباب هذا التدرج بالإسلام كحركة، وبالبيئة التي يتحرك فيها(٢):

فمن حيث الإسلام كحركة لم يكن باستطاعة النبي ﷺ أن يسمح لأصحابه بالقتال، قبل أن:

- يكتمل نموُّهم العقدي ويصل إلى مرحلة النضج.
- يزداد عددهم بحيث يتمكَّنون من توجيه الضربات وتحمُّل الضربات المضادة، من دون أن يتعرَّضوا للتشتت أو الفناء.
- يضع خطواته الأولى نحو بناء الدولة التي ستحمي العقيدة وتدافع عنها.

ومن حيث البيئة التي يتحرك فيها، فالمعروف أن الإسلام كان يتحرك في بيئة بدوية تعير اهتماماً كبيراً لصلات النسب والقرابة، وقد مكَّنت النبي ﷺ من أن يجد حماية في عشيرته بني هاشم، التي ذاقت معه أشد تجاربه ألماً والمتمثلة بالمقاطعة، وكانت مواجهة المشركين آنذاك بالسلاح من شأنها أن تدفعهم إلى تركه وأصحابه من

---

(١) سنن أبي داود: كتاب الزكاة، باب زكاة الفطر، رقم (١٦٠٩)، جـ٣ ص٢١٣.

(٢) خليل: ص١٥٨، ١٥٩.

دون حماية، فتقضي قريش عليهم؛ علماً بأن زعيمها أبا لهب تخلّى عن حمايته بعد عودته من الطائف، والقتال لم يؤذن به بعد.

وما كادت مرحلة بناء الإنسان المسلم تُشرف على نهايتها، ويضع النبي ﷺ أُولى خطواته نحو قيام الدولة الإسلامية في المدينة، وتُصعِّد قريش اضطهادها ومقاومتها للمسلمين؛ حتى نزل الإذن بالقتال ولكن من غير إيجاب قبل بيعة العقبة الثانية. والواقع أنه ليس في بنود تلك البيعة ما يدل على مشروعية القتال حينئذ على الرغم من أن النبي ﷺ أخذ على أهل المدينة عهداً بالجهاد عندما سيهاجر إلى المدينة ويُقيم بينهم، ثم إن قول العباس بن عبادة بعد البيعة «والله الذي بعثك بالحق إن شئت لنميلن على أهل مِنى غداً بأسيافنا»، وجواب رسول الله ﷺ له: **(لم نؤمر بذلك، ولكن ارجعوا إلى رحالكم)**؛ دليل واضح على عدم مشروعية القتال، هذا على الرغم من أن المتفق عليه أن أول آية نزلت في الجهاد ومشروعيته هي قوله تعالى: ﴿أُذِنَ لِلَّذِينَ يُقَـٰتَلُونَ بِأَنَّهُمْ ظُلِمُوا۟ ۚ وَإِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ نَصْرِهِمْ لَقَدِيرٌ ۝ ٱلَّذِينَ أُخْرِجُوا۟ مِن دِيَـٰرِهِم بِغَيْرِ حَقٍّ إِلَّآ أَن يَقُولُوا۟ رَبُّنَا ٱللَّهُ ۗ وَلَوْلَا دَفْعُ ٱللَّهِ ٱلنَّاسَ بَعْضَهُم بِبَعْضٍ لَّهُدِّمَتْ صَوَٰمِعُ وَبِيَعٌ وَصَلَوَٰتٌ وَمَسَـٰجِدُ يُذْكَرُ فِيهَا ٱسْمُ ٱللَّهِ كَثِيرًا ۗ وَلَيَنصُرَنَّ ٱللَّهُ مَن يَنصُرُهُۥٓ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ لَقَوِىٌّ عَزِيزٌ﴾ [الحج/٣٩، ٤٠].

ومع نزول الإذن بالقتال أخذ النبي ﷺ يدرِّب أصحابه على فنونه واشترك بنفسه في التمارين والمناورات والمعارك، وعدَّ السعي في هذه الميادين من أجلِّ العبادات التي تُقرِّب إلى الله، ونهض لتطبيق قوله تعالى: ﴿وَأَعِدُّوا۟ لَهُم مَّا ٱسْتَطَعْتُم مِّن قُوَّةٍ وَمِن رِّبَاطِ ٱلْخَيْلِ تُرْهِبُونَ بِهِۦ عَدُوَّ ٱللَّهِ وَعَدُوَّكُمْ وَءَاخَرِينَ مِن دُونِهِمْ لَا تَعْلَمُونَهُمُ ٱللَّهُ يَعْلَمُهُمْ ۚ وَمَا تُنفِقُوا۟ مِن شَىْءٍ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ يُوَفَّ إِلَيْكُمْ وَأَنتُمْ لَا تُظْلَمُونَ﴾ [الأنفال/٦٠]، واعتمد في سبيل ذلك منهجاً قائماً على قاعدتين:

الأولى: التوجيه المعنوي، فمنح المجاهدين أملاً يقينياً بالنصر أو الجنة، وظل هذا الأمل ملازماً المجاهد المسلم في ساحات القتال، ويدفعه إلى بذل كل طاقته النفسية والجسدية من أجل النصر أو الموت في ساحة القتال، ومن قوله في ذلك: **(والذي نفسي بيده لولا أن رجالاً من المؤمنين لا تطيب أنفسهم أن يتخلّفوا عني، ولا أجد ما أحملهم عليه، ما تخلفت عن سرية تغزو في سبيل الله. والذي نفسي بيده لوددْتُ أني أُقتل في سبيل الله، ثم أحيا، ثم أُقتل، ثم أحيا، ثم أُقتل، ثم أحيا، ثم أُقتل)**[1]، وقوله ﷺ: **(ما أحد يدخل الجنة يحب أن يرجع إلى الدنيا وله ما على الأرض من**

---

(١) صحيح البخاري: كتاب الجهاد والسير، باب تمني الشهادة، رقم الحديث (٢٧٩٧)، ص٥١٦.

شيء إلا الشهيد، يتمنى أن يرجع إلى الدنيا فيُقتل عشر مرات لما يرى من الكرامة)[1]

الثانية: التدريب العملي، فقد عمد النبي ﷺ إلى تسخير طاقات الأُمة القادرة على البذل والعطاء وإلى التمرس على القتال، وكان يمزج بين التربية العسكرية، والتوجيه والتدريب، والأمل في النصر أو الجنة، وبذل الجهد في ساحة القتال، ويحض على إتقان ما تعلَّموه من فنون القتال، وقال في ذلك: **(من عَلِم الرمي ثم تركه، فليس منا أو قد عصى)**[2]، وهو دعوة إلى المسلمين كافة للتدريب على إصابة الهدف ومهارة اليد ونشاط الحركة[3].

وأضحت الحروب الإسلامية ضد أعداء الدولة وضد المشركين جزءاً من السياسة العامة للدولة تتأثر بطابعها حيث السيادة لله ﷻ والسلطة للنبيِّ ﷺ الذي تجب طاعته وتنفيذ أوامره، لكن الحرب حال شاذة تُحتِّمها بعض الظروف والأوضاع، وكانت الظروف قوية وعنيفة في المراحل الأولى من عمر الدعوة، حيث كان أعداء المسلمين وبخاصة قريش أقوياء يتربصون لهم لفتنتهم والقضاء على الإسلام، وقد آذوهم واضطروهم إلى الخروج من ديارهم.

وبهذه الإجراءات الأربع، بناء المسجد والمؤاخاة بين المهاجرين والأنصار وتنظيم الشؤون الداخلية من خلال الصحيفة وإنشاء الجيش؛ وضع القرآن والنبي ﷺ القواعد الأولى لدولة الإسلام في المدينة، وأخذت التشريعات المنبثقة عنها تنمو وتتسع يوماً بعد يوم.

لقد قامت الدولة الإسلامية في أعقاب الهجرة وما انبثق عنها من تشريعات، حيث كانت المرحلة السابقة مرحلة بناء المسلم والمجتمع الإسلامي قد اكتسبت ملامحها الأساس في العهد المكي، وغدا المسلمون على استعداد نفسي وفكري لتقبل ما سينزل من تشريعات ويُفرض من تنظيمات، ويوضع من حدود، ويُرسم من علاقات بعد أن هيَّأهم إيمانهم تقبُّل كل ما يصدر عن النبي ﷺ. وقد أتاح هذا التطور التدريجي لسير الدعوة الإسلامية أن يُشاد البناء الجديد على أسس فنية متوغلة في أعماق النفس المسلمة على المستويين الفردي والجماعي على السواء، فجاء متماسكاً مترابطاً، ثابت الأركان[4].

---

(١) صحيح البخاري: كتاب الجهاد والسير، باب تمني المجاهد أن يرجع إلى الدنيا، رقم الحديث (٢٨١٧)، ص٥٢٠.

(٢) صحيح مسلم على شرح النووي، كتاب الإمارة، فضل الرمي والحث عليه وذم من علمه ثم نسيه، جـ١٣ ص٦٥.

(٣) الصلَّابي: جـ١ ص٣٨٨، ٣٨٩.

(٤) خليل: ص١٦٣، ١٦٤.

الفئات الاجتماعية في المدينة عند الهجرة

أتاحت الأوضاع الدينية والسياسية التي كانت قائمة في المدينة لغالبية أهلها أن يتقبَّلوا الدعوة الإسلامية، ويؤيِّدوا النبي ﷺ ويحموه ويساندوه. ومما ساعد على انتشار هذه الدعوة أن العرب كانوا مشركين في غالبيتهم، غير أنهم افتقروا إلى مؤسسات دينية تنظم وترعى ديانة الشرك، فلم يرد عن وجود رجال دين فيهم، والواقع أنهم كانوا يزورون مكة للحج كما يزورون الآلهة مناة في المشلَّل، في منتصف الطريق تقريباً إلى مكة؛ غير أن هذا لا يعني أنهم جميعهم اعتنقوا الإسلام دفعة واحدة، وتذكر روايات المصادر أن الإسلام أخذ ينتشر تدريجاً في المدينة. ويروي ابن سعد في هذا الصدد أن الإسلام بعد بيعة العقبة ظهر وفشا في دور الأنصار كلها والعوالي إلا دوراً من أوس الله، وهي خطمة ووائل وواقف(١). ويروي ابن إسحاق: «... لم تبق دار من دور الأنصار إلا وفيها رجال ونساء مسلمون، إلا ما كان من دار بني أُمية بن زيد وخطمة ووائل وواقف. وتلك أوس الله وهم من الأوس ابن حارثة، وذلك أنه كان فيهم أبو قيس بن الأسلت، وهو صيفي، وكان شاعراً لهم قائداً يستمعون منه ويطيعون، فوقف بهم عن الإسلام، فلم يزل على ذلك حتى هاجر رسول الله ﷺ إلى المدينة، ومضى بدر وأُحد والخندق»(٢).

ويبدو أن مرد انتشار الإسلام تدريجاً في المدينة له علاقة بمدى تغلغل النزعة الفردية عند عرب المدينة ووجود أفراد كانت لهم مكانة في عشائرهم وبين قومهم اتَّصفوا بالطموح السياسي، مثل أبي عامر الراهب من بني ضبيعة بن زيد، إحدى عشائر عمرو بن عوف من الأوس، وكانت له مكانة في عشيرته قبل الإسلام، وأبي عفك عمرو بن عوف، وأبي قيس بن الأسلت الوارد ذكره أعلاه، بالإضافة إلى وجود تيارات متعددة قائمة على أسس قبلية وسياسية، وقد أثَّرت على موقف بعضهم من الإسلام، فتأخر إسلام عدد منهم. وظهرت المعارضة المتأثرة بوجهات نظر متباينة، واتخذت أشكالاً متعددة سيكون لها دور إيجابي متباين في قوته وتوجهاته من الأحداث(٣).

ووُجِد في المدينة عند الهجرة عدد من الأديان والمذاهب، أهمها الشرك واليهودية، واعتقد بعض سكانها بالتوحيد على طريقة الأحناف، واعتنق عدد منهم أفكاراً قريبة من النصرانية، وقامت التجمعات السياسية فيها على أسس عشائرية اعتمدت على قوتها القبلية. وأبقى النبي محمَّد ﷺ على النظام القبلي، ولكنه أقام

(١) طبقات ابن سعد: جـ٣ ص١١٨.
(٢) ابن هشام: جـ٢ ص١٨.
(٣) العلي: ص١٥٠، ١٥١.

تنظيماً أرقى يجمع المسلمين ويربطهم برابطة العقيدة التي تُرسِّخ السلطة العليا في يده وتؤثِّر في اتخاذ مواقف عامة مشتركة من الأحداث المتوقع أن يواجهها الإسلام، وتُوجِّه السياسة العامة[1]. ومن الطبيعي أن النظام الإسلامي الجديد لا يتفق مع العقائد الأخرى، كما أنه يحدُّ من النزعات الفردية. واعترف أهل المدينة بعامة بالنبيِّ محمد ﷺ رئيساً سياسياً، بالإضافة إلى اعتراف المسلمين به رئيساً دينياً.

وظهرت في المدينة حركات رافضة للإسلام أو معارضة له لم تستجب لمتطلبات المجتمع الجديد، وهي حركات محلية إجمالاً لا صلة لها بالخارج.

ويُسمى، عادة، الذين عارضوا النبي ﷺ بعد أن اعتنقوا الإسلام ظاهراً وأبطنوا الكفر باطناً بالمنافقين، ويؤكد القرآن هذه التسمية، كان أشهرهم عبد الله بن أُبيِّ بن سلول.

وكان يقيم في المدينة وقت الهجرة عدد من القبائل والعشائر اليهودية، لم يكن بينها سوى وحدة مفكَّكة، ويتصرفون في علاقاتهم السياسية كالقبائل العربية، وكانوا جميعاً حلفاء لهذه القبائل. ولم يجر النبي ﷺ أيَّ مفاوضات مباشرة معهم قبل الهجرة، وأدرك بعد الهجرة الدور المهم الذي يمكن أن يقوموا به في سياسة المدينة، فحدَّد الموقف الذي ينبغي عليه أن يتَّخذه تجاههم من واقع استعدادهم لعقد اتفاق سياسي معه، ورفض قبول دعوته الدينية، وكان يأمل باستقطابهم إلى الدين الجديد.

ويبدو أن علاقاتهم المبكرة بالأُمة الإسلامية حدَّدتها بنود الصحيفة التي عدَّتهم مواطنين في الدولة الإسلامية، التي عليها حمايتهم والدفاع عنهم مقابل مساندتهم في ردِّ العدوان عنها، وعدم التآمر عليها، مع تمتُّعهم بالحرية الدينية، كما فرضت عليهم عدم مغادرة أراضيهم إلا بإذن من الدولة الإسلامية، ويرجعوا في فصل الخلافات التي تنشب بينهم وبين المسلمين إليها بوصفها صاحبة السيادة[2].

واعتنق عدد قليل من اليهود الإسلام، واعترفوا بمحمَّد كنبيٍّ؛ كان منهم: عبد الله بن سلام بن الحارث من بني قينقاع، وهو حبرهم وأعلمهم، وكان اسمه الحصين، فلما أسلم سمَّاه النبيُّ ﷺ عبد الله، ومخيريق، وقد وصفه النبي بخير يهود وقُتل في معركة أُحد[3].

---

(١) العلي: ص١٥٠.

(٢) انظر البنود رقم ٢٧، ٣٨ و٣٩ من الصحيفة، كما وردت في هذا الفصل.

(٣) ابن هشام: جـ٢ ص٢٥٦، ٢٥٧.

الفَصْلُ السَّادِسُ

غـزوة بـدر

ظروف قيام الغزوات والسرايا

اتَّسم موقف قريش من قيام الدولة الإسلامية في المدينة بالعدائي، فلم يرض القرشيون بأن تقوم للإسلام قائمة، حتى ولو كان ذلك في المدينة؛ لأن من شأنه أن يهدِّد تجارتهم وكيانهم السياسي ومركزهم الديني.

ففيما يتعلق بتهديد التجارة، فمن المعلوم أن قريشاً تعتمد بشكل أساس على التجارة، وبخاصة مع بلاد الشام، وكانت قوافلها تسلك الوديان التي تخترق جبل رضوى بين المدينة والبحر الأحمر على بعد مائة وثلاثين كيلومتراً من المدينة، بحيث تستطيع الفرق الإسلامية الإغارة عليها ما يُهدِّدها في مصدرها المادي الرئيس، لذلك كان من الطبيعي أن يُوجِّه النبي ﷺ حملاته ضد هذا الطريق. روى البخاري عن عبد الله بن مسعود رضي الله تعالى عنه، حدَّث عن سعد بن معاذ أنه قال: «كان صديقاً لأُمية بن خلف، وكان أُمية إذا مرَّ بالمدينة نزل على سعد، وكان سعد إذا مرَّ بمكة نزل على أمية، فلما قدم رسول الله ﷺ المدينة انطلق سعد معتمراً، فنزل على أُمية بمكة، فقال لأُمية: انظر لي ساعة خلوة لعلِّي أطوف بالبيت. فخرج به قريباً من نصف النهار، فلقيهما أبو جهل فقال: يا أبا صفوان! من هذا معك؟ فقال: هذا سعد. فقال له أبو جهل: ألا أراك تطوف بمكة آمناً وقد أويتم الصُّبَأة[(1)]، وزعمتم أنكم تنصرونهم، وتعينونهم، أما والله لولا أنك مع أبي صفوان ما رجعت إلى أهلك سالماً. فقال له سعد، ورفع صوته عليه: أما والله لئن منعتني هذا لأمنعنَّك ما هو أشد عليك منه، طريقك على المدينة...»[(2)]. وفي رواية عند البيهقي: «والله لئن منعتني أن أطوف بالبيت لأقطعنَّ عليك متجرك إلى الشام»[(3)].

---

(1) جمع صابىء، أي: الخارج عن دينه.

(2) **صحيح البخاري**، كتاب المغازي، باب ذكر النبي ﷺ من يُقتل ببدر، رقم الحديث (٣٩٥٠)، ص٧١٧.

(3) البيهقي، الحافظ أبو بكر أحمد: **دلائل النبوة ومعرفة أحوال صاحب الشريعة**، جـ٣ ص٢٥.

تدلُّ هذه الرواية على أن قوافل قريش، وهي في طريقها إلى الشام، كانت في أمان، إلى حدوث هذه الواقعة، لا تتعرَّض لها الدولة الإسلامية، وتبدَّل الوضع بعد ذلك، عندما أقدمت قريش على مبادرة إعلان الحرب. جاء في سنن أبي داود عن «عبد الرحمٰن بن كعب بن مالك، عن رجل من أصحاب النبي ﷺ؛ أن كفار قريش كتبوا إلى عبد الله بن أُبيٍّ، ومن كان يعبد معه الأوثان من الأوس والخزرج، ورسول الله ﷺ يومئذ بالمدينة قبل وقعة بدر: إنكم آويتم صاحبنا وإنا نُقسم بالله لنقاتلنَّه أو لتخرجنَّه أو لنسيرن إليكم بأجمعنا حتى نقتل مقاتلتكم، ونستبيح نساءكم. فلما بلغ عبد الله بن أُبيٍّ ومن كان معه مِن عبدة الأوثان؛ اجتمعوا لقتال النبي ﷺ، فلما بلغ ذلك النبي ﷺ لقيهم فقال: (**لقد بلغ وعيد قريش منكم المبالغ، ما كانت لتكيدكم بأكثر مما تريدون أن تكيدوا به أنفسكم، تريدون أن تُقاتلوا أبناءكم وإخوانكم**)[1].

وفيما يتعلق بتهديد الكيان السياسي، فقد عمل النبي محمَّد ﷺ على إضعافه من واقع عقد اتفاقيات مع القبائل المتحالفة مع قريش أو تحييدها، وبدأ بالقبائل القريبة من المدينة التي تمر قوافل قريش التجارية في أراضيها، مثل جهينة، وأضحى مجدي بن عمرو الجهني حليفاً للفريقين[2]، ووادع في الشهر الثاني عشر مخشي بن عمرو الضمري سيد بني ضمرة التي تقيم بالأبواء، على أن لا يغزو بني ضمرة ولا تغزوه ولا يُكثِّروا عليه جمعاً، ولا يعينوا عدواً، وكتب بينه وبينهم كتاباً[3]، ووادع بني مدلج وحلفاءهم من بني ضمرة في الشهر السادس عشر[4].

وفيما يتعلق بتهديد مركز قريش الديني، فالمعروف أن أساس هذا المركز وجود بيت الله الذي بناه إبراهيم الخليل، وكون مكة مركزاً للحج، وقد أثَّر هذان العاملان سلباً على مكانتها عندما توجَّهت القبلة نحو المسجد الحرام[5].

كان من الصعب على النبي محمَّد ﷺ في أوائل عهد الهجرة أن يفتح باب الصراع المسلح مع قريش، بفعل أن المهاجرين كانوا في طور التأقلم مع بيئة المدينة الجديدة، ثم إن بعضاً من أهل المدينة ظلَّ على شركه، وقد شُغل بتسيير الشؤون العامة، فكان نشاطه متعدد الجوانب، لذلك اكتفى بالبقاء في المدينة من دون القيام

---

(١) سنن أبي داود: كتاب الخراج والإمارة والفيء، باب خبر بني النضير، رقم الحديث (٣٠٠٤)، جـ٣ ص١٥٦، ١٥٧.
(٢) ابن سعد: جـ٢ ص٦.
(٣) المصدر نفسه: ص٨.
(٤) المصدر نفسه: ص١٠. ابن هشام: جـ٣ ص٢١.
(٥) العلي: ص٢١٨، ٢١٩.

بتعرض إيجابي لا يؤدي إلى الانتصار على قريش التي لم تكن لها سيطرة على المدينة، وحرص على ألا يمس مصالحها، وهي المرتبطة بالتحالف مع عدد كبير من القبائل في الحجاز وخارجه من خلال عقود الإيلاف التي تؤمِّن لها علاقة طيبة معها. وبعد أن ثبَّت أقدامه واستقرَّت قواعد حكمه راح يهيء رجاله للكفاح بتدريبهم ورفع معنوياتهم، فلا يتخاذلون عند اللقاء، وخَطَّط أولاً لضرب تجارة قريش متجنباً الاصطدام المباشر معها؛ لأن القضاء على تجارتها سيؤدي إلى القضاء عليها، بوصفها مصدر حياتها؛ لذلك اقتصرت الغزوات[١] والسرايا[٢] الأولى على ضرب هذا الهدف.

الغزوات والسرايا قبل غزوة بدر

نفَّذ المسلمون أربع غزوات وثلاث سرايا خلال الثمانية عشر شهراً الأولى بعد الهجرة، اشترك فيها المهاجرون فقط؛ أُرسلت ست منها لمهاجمة قوافل قريش التجارية، وهي: سرية عبيدة بن الحارث إلى وادي رابغ، وسرية حمزة إلى سيف البحر[٣] من ناحية العِيص[٤]، وغزوة بواط[٥]، وغزوة العُشَيْرة[٦]، وسرية سعد بن أبي وقاص وقد بلغ الخرَّار[٧] من أرض الحجاز، وغزوة بدر[٨] الأولى. أما غزوة الأبواء، أو ودَّان، وهي أولى غزوات النبي ﷺ، فقد تمت فيها موادعة بني ضمرة[٩].

كانت نتائج هذه الغزوات والسرايا ضئيلة نسبياً، إنما جذبت الأعراب المجاورين للمدينة، فوادعوا المسلمين، وكانت موادعة هؤلاء ضرورية لنجاح الحملات العسكرية الإسلامية الموجَّهة ضد قريش، ويبدو أن قدرة المسلمين على التنقل ومحاولة الهجوم على القرشيين الأقوياء قد أثَّر في القبائل البدوية، فمالت إلى موادعة المسلمين أو التحالف معهم.

---

(١) الغزوة: هي ما خرج فيها النبي ﷺ مع المقاتلين.
(٢) السرية أو البعث: ما لم يخرج النبي ﷺ فيها بنفسه، وقد يُطلق على السرية غزوة، كما في غزوة مؤتة وغزوة ذات السلاسل.
(٣) سيف البحر: ساحله.
(٤) العِيص: موضع في بلاد بني سُلَيْم من ناحية ذي المروة على ساحل البحر بطريق قريش التي كانوا يأخذون منها إلى الشام. الحموي: جـ٤ ص١٧٣.
(٥) بواط: جبل من جبال جُهَيْنة بناحية رضوى. المصدر نفسه: جـ١ ص٥٠٣.
(٦) العُشَيْرة: هي من ناحية ينبع بين مكة والمدينة. المصدر نفسه: جـ٤ ص١٢٧.
(٧) الخرَّار: موضع بالحجاز قرب الجحفة. المصدر نفسه: جـ٢ ص٣٥٠.
(٨) بدر: ماء مشهور بين مكة والمدينة أسفل وادي الصفراء. المصدر نفسه: جـ١ ص٣٥٧.
(٩) انظر فيما يتعلق بهذه الغزوات والسرايا: ابن هشام: جـ٣ ص١٨ ـ ٢٥.

أقلقت الغزوات والسرايا الأولى بال القرشيين وأقضَّت مضاجعهم، على الرغم من نتائجها المتواضعة، وخشوا على تجارتهم وإن لم يتعرَّضوا للخسائر، فاتخذوا الاحتياطات من واقع زيادة عدد حراس قوافلهم. وعلى الرغم من ذلك، فقد ظل الأمل يراود المسلمين في أن تتهيَّأ لهم الفرصة التي يبحثون عنها، وكان هذا يعني إذا ما تحقَّق خسارة جسيمة لقريش.

ولا يشير القرآن صراحة إلى هذه الغزوات والسرايا الأولى، ولكنه يشير إلى موقف المسلمين بالنسبة للقتال المسلح، وذلك من واقع سرية عبد الله بن جحش إلى نخلة، التي شكَّلت المواجهة المسلحة الأولى بين المسلمين وقريش. وملخص الرواية[1]، أنه في شهر رجب من السنة الثانية للهجرة، بعث النبي ﷺ عبد الله بن جحش حليف بني عبد شمس، ومعه جماعة من ثمانية أشخاص جميعهم من المهاجرين، وأعطاه كتاباً مختوماً أمره ألا يفتحه حتى يصبح على بُعد يومين من المدينة، ثم ينظر فيه ويمضي لما أمره، ولا يستكره أحداً من أصحابه، ففعل، حتى إذا فتح الكتاب وجد فيه: «إذا نظرت في كتابي هذا، فامضِ حتى تنزل نخلة بين مكة والطائف، فترصَّد بها قريشاً وتعلم لنا من أخبارهم».

وعرض عبد الله بن جحش الأمر على أصحابه وخيَّرهم بين المضي معه أو الرجوع، فمضوا جميعاً ولم يتخلَّف منهم أحد. وسلك على الحجاز، حتى إذا كان بمعدن فوق الفُرع يقال له بحران، أضلَّ سعد بن أبي وقاص وعتبة بن غزوان بعيراً لهما كانا يتعاقبانه، فتخلفا عن عبد الله الذي مضى مع بقية أصحابه حتى نزل نخلة، فمرت عير لقريش تحمل زبيباً وأدماً وتجارة لمكة يرافقها أربعة أشخاص، هم: عمرو بن الحضرمي، وعثمان بن عبد الله بن المغيرة، وأخوه نوفل، والحكم بن كيسان؛ فبدَّدوا شكوكهم بالتظاهر بأنهم عُمَّار.

وتشاور عبد الله بن جحش مع أصحابه في مهاجمة القافلة، وذلك في آخر يوم من رجب، فقال بعضهم لبعض: «والله لئن تركتم القوم هذه الليلة ليدخلن الحرم، فليمتنعنَّ منكم به، ولئن قتلتموهم لتقتلنهم في الشهر الحرام». فتردَّدوا وهابوا الإقدام عليهم، ثم تشجَّعوا بضآلة عدد حراس القافلة، وأجمعوا على قتل من قدروا عليه منهم وأخذ ما معهم. فرمى واقد بن عبد الله التيمي عمرو بن الحضرمي بسهم فقتله، وأُسر عثمان بن عبد الله والحكم بن كيسان، وهرب نوفل بن عبد الله. وعاد القوم بالقافلة والأسيرين إلى المدينة، وهناك ظهر الخوف من مقتل ابن الحضرمي خلال شهر رجب الذي يحرم فيه سفك الدماء، وقال لهم النبي ﷺ: (**ما أمرتكم بقتال في**

(١) انظر نص الرواية عند: ابن سعد: جـ٢ ص١٠، ١١. ابن هشام: جـ٣ ص٢٢ ـ ٢٤.

الشهر الحرام)، ورفض توزيع الغنيمة، وأبى أن يأخذ نصيبه وهو الخمس.

وأُسقط في أيدي أفراد السرية، وظنوا أنهم هلكوا، وعنَّفهم إخوانهم المسلمون فيما فعلوا. وانتهزت قريش هذه الفرصة ونشرت الخبر في أنحاء الجزيرة العربية بأن محمَّداً وأصحابه استحلوا الشهر الحرام، وسفكوا فيه الدماء، وأخذوا الأموال، وأسروا الرجال، وخاض اليهود أيضاً في ذلك.

استمرالوضع على هذه الحال حتى نزلت آية قرآنية برَّرت عمل عبد الله بن جحش، فقد أنزل الله على رسوله ﷺ ﴿يَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلشَّهْرِ ٱلْحَرَامِ قِتَالٍ فِيهِ ۖ قُلْ قِتَالٌ فِيهِ كَبِيرٌ ۖ وَصَدٌّ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ وَكُفْرٌۢ بِهِۦ وَٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ وَإِخْرَاجُ أَهْلِهِۦ مِنْهُ أَكْبَرُ عِندَ ٱللَّهِ ۚ وَٱلْفِتْنَةُ أَكْبَرُ مِنَ ٱلْقَتْلِ ۗ وَلَا يَزَالُونَ يُقَٰتِلُونَكُمْ حَتَّىٰ يَرُدُّوكُمْ عَن دِينِكُمْ إِنِ ٱسْتَطَٰعُوا۟ ۚ وَمَن يَرْتَدِدْ مِنكُمْ عَن دِينِهِۦ فَيَمُتْ وَهُوَ كَافِرٌ فَأُو۟لَٰٓئِكَ حَبِطَتْ أَعْمَٰلُهُمْ فِى ٱلدُّنْيَا وَٱلْءَاخِرَةِ ۖ وَأُو۟لَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلنَّارِ ۖ هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ﴾ [البقرة/٢١٧].

فلما نزل قرآن بهذا الأمر، وفرَّج الله عن المسلمين ما كانوا فيه من الخوف؛ قبض رسول الله ﷺ العير والأسيرين. وأرسلت قريش وفداً إلى المدينة للاتفاق على تحرير الأسيرين، فوافق النبي ﷺ على ذلك إلا أنه اشترط عودة سعد بن أبي وقاص وعتبة بن غزوان خشية من أن تقتلهما قريش، فلما قدما أطلق الأسيرين.

وإذا كان لنا أن نُعلِّق على أحداث هذه السرية، نقول:

ـ لقد اتخذ النبي محمَّد ﷺ تدابير احتياطية للمحافظة على وجهة سير الحملة، فهو بالإضافة إلى إعطائه قائدها أمراً مختوماً لا يعرفه؛ أرسل الحملة على طريق نجد شرقاً بجنوب، في حين كانت الوجهة الحقيقية لها نحو الجنوب، وهذا مبدأ مهم من مبادىء الحرب، وهو إخفاء الخطط العسكرية، ومنها خط السير حتى يكون الجيش في أمان من مهاجمة الأعداء، وقد فعل ذلك كي لا تصل أنباؤها إلى قريش قبل تنفيذ مهمتها؛ علماً بأن المدينة كانت آنذاك تضم اليهود والمشركين والمنافقين، وباستطاعة هؤلاء إعلام القرشيين بخط سير الحملة الموجهة ضدهم، كما أنها ستصل إلى نقطة قريبة جداً من مكة، ولهذا فهي خطرة على المشتركين فيها. وبذلك أضحى النبي ﷺ آمناً من كشف الهدف المنشود.

ـ أدرك النبي محمَّد ﷺ خطورة الحملة لبُعدها عن مركز المدينة، لذلك أمر قائدها أن لا يستكره أحداً على المضي معه، وأن يعيد من لا يرغب الاشتراك فيها؛ لأن أي تردد من قِبل هؤلاء كفيل بأن يقضي عليها.

ـ كان الأمر الأساس الموجَّه إلى عبد الله بن جحش أن يذهب إلى نخلة ليترصد قريشاً، ويراقب تحركات المكيِّين ويستعلم شيئاً عن أخبارهم، ومن ثَمَّ يرفع تقريراً

بنتيجة ذلك، ولم يؤمر بخوض معركة مسلحة؛ بدليل أن رسول الله ﷺ رفض قبول نصيبه من الغنيمة والأسيرين حتى نزلت آية برَّرت عمل عبد الله بن جحش. وبناء عليه لا توجد أي شبهة حول هدف السرية السلمي، وربما أراد ﷺ أن تكون بمثابة بعثة استكشاف وتقصِّي المعلومات حول تحركات العدو.

ـ إن إرسال تسعة أشخاص مسافة مئات الكيلومترات بعيداً عن قاعدتهم لخوض معركة مكشوفة في مكان هو للعدو أقرب؛ يدل على فوضى في التخطيط، وتفريط في الرجال، ولم يؤثر عن النبي محمَّد ﷺ مثل هذا التصرف.

ـ إن تسيير الحملة في شهر رجب يُخفِّف عن المشتركين فيها كثيراً من المخاطر، نظراً لحرمة هذا الشهر (رجب) عند العرب.

ـ كشفت سرية نخلة بفعل توغل مقاتليها بعيداً على طريق تجارة قريش، مدى خطورة الدولة الإسلامية الناشئة على تجارة مكة ووجود قريش، بوصفها قبيلة تعبد الأصنام.

ـ تعترف الآية التي برَّرت عمل عبد الله بن جحش بأن القتال في الشهر الحرام أمر كبير وجُرم عظيم مُستنكر، ولكنها تُذكِّر المسلمين بأن ما ارتُكب كان لإزالة ما هو أعظم وأكبر، وهو صدُّ الناس ومنعهم عن الطريق الموصل إلى الله، بفعل اضطهاد القرشيين للمسلمين وفتنتهم إياهم عن دينهم، ومنعهم من الحج والاعتمار، وإخراجهم من المسجد الحرام، فهذه أعمال أشد خطورة.

ـ حاولت قريش أن تستغل ما وقع من قتال في الشهر الحرام، فشنَّت حرباً إعلامية هجومية مركَّزة ضد المسلمين للتشهير بهم وبنبيِّهم محمَّد ﷺ، وإظهارهم بمظهر المعتدي الذي لا يراعي الحرمات، وقد نجحت خطتها تلك في بادئ الأمر، فكان لها صدى كبير في المدينة نفسها، فكثر الجدل والنقاش بين المسلمين، وقد أنكروا على أفراد السرية قتالهم في الشهر الحرام، واشتدَّ الموقف. ودخل اليهود على هذا الخط لإشعال الفتنة. وعندما ظنَّ أفراد السرية أنهم قد هلكوا؛ جاء الرد الرباني القاطع لألسنة المشركين، فأبطل القرآن احتجاجهم وردَّ على استنكارهم القتال في الشهر الحرام، فالصدُّ عن سبيل الله والكفر به أكبر من القتال في الشهر الحرام والمسجد الحرام، وإخراج أهله منه أكبر من القتال في الشهر الحرام، وكذلك فتنة الرجل في دينه، وتناست قريش أنها فعلت كل ذلك ولم تذكر إلا حرمة الشهر واتخذتها وسيلة لإثارة الحرب على الإسلام والمسلمين، وتأليب القبائل عليهم وتنفيرهم من الدخول في هذا الدين[1].

---

(١) الصلَّابي: جـ١ ص٤٠٢، ٤٠٣.

- حِرص النبي محمَّد ﷺ على سلامة جنوده واهتمامه بهم، فأبى أن يُطلق سراح الأسيرين حتى عاد سعد بن أبي وقاص وعتبة بن غزوان سالمين، علماً بأن الجندي عندما يشعر باهتمام قيادته به وبسلامته وأمنه؛ لا يتردد في أن يبذل الغالي والنفيس من أجلها.

- كانت سرية نخلة بمثابة الجسر الذي عبر عليه صراع المناوشات بين الإسلام والوثنية، باتجاه القتال المنظم المكشوف الذي بدأ في معركة بدر.

معركة بـدر

في الطريق إلى المعركة

شجَّعت سرية نخلة سياسة الغزوات ضد قوافل قريش التجارية، وقد بلغ النبي محمَّد ﷺ في الوقت المناسب، أن قافلة كبيرة تحمل أموالاً عظيمة قُدِّرت بخمسين ألف دينار، وهي في طريقها من الشام إلى مكة بقيادة أبي سفيان بن حرب، ويحرسها بين ثلاثين وأربعين رجلاً، ويدل هذا المبلغ على أن جميع تجار قريش وأصحاب الأموال في مكة قد اشتركوا فيها؛ فقرَّر وضع يده عليها ومصادرة حمولتها ليتقوَّى بها المسلمون ويُعوِّضوا بعض أموالهم التي تخلُّوا عنها عند هجرتهم وصادرتها قريش، فندب أصحابه بالخروج وقال لهم: (**هذه عير قريش فيها أموالهم، فاخرجوا فلعلَّ الله ينفلكموها**)؛ أي: يجعلها غنيمة لكم، فخرج في (٨ رمضان ٢هـ/ ٥ آذار ٦٢٤م) ومعه ستة وسبعون رجلاً من المهاجرين، ومائتان وسبعون من الأنصار، وكانت هذه أول غزوة يشترك فيها هؤلاء، ومعهم فَرَسان وسبعون بعيراً من الإبل يتعاقبون عليها، ولا تُمثل هذه القوة القدرة العسكرية القصوى للدولة الإسلامية؛ لأن النبي ﷺ خرج لاعتراض القافلة ومصادرة ما تحمل فقط. كانت علاقة النبي محمَّد ﷺ مع قريش عدائية، وهذا يعني أن أموال العدو ودماءه تكون مباحة، فاستخلف عبد الله بن أُم مكتوم على الصلاة، وردَّ أبا لبابة من الروحاء وعيَّنه أميراً على المدينة طيلة مدة غيابه

كانت قريش تسلك في تجارتها مع بلاد الشام طريقاً قريباً من المدينة، ولا بد لقافلة أبي سفيان من أن تتوقف في بدر بوصفها محطة للسقاية على هذا الطريق، فأرسل النبي اثنين من أصحابه للتعرف على أخبارها، هما بسبس بن عمرو الجهني حليف بني ساعدة، وعدي بن أبي الزغباء الجهني حليف بني النجار.

كان أبو سفيان يقظاً وحذراً يتلقَّط أخبار المسلمين ويراقب تحركاتهم، فلما وصل إلى بدر علم بعد أن فتَّ نوى الركاب فيها أنها تعود لعلائف يثرب، فسأل أهلها

فأخبروه بأن رجلين أناخا بعيريهما هنا ثم غادرا، فأيقن أنهما من المسلمين، فخشي على قافلته وتصرف على محورين:

الأول: أرسل عمرو بن ضمضم الغفاري إلى مكة يستنفر أهلها لإنقاذ القافلة.

الثاني: حوَّل مسار القافلة إلى طريق الساحل بعيداً عن الطريق التقليدي.

كان وقع الخبر على قريش شديداً، فاستشاط زعماؤها غضباً وعلى رأسهم أبو جهل، وقالوا: «أيظن محمد وأصحابه أن تكون كعير ابن الحضرمي، كلا والله ليعلمن غير ذلك». وقرَّروا الخروج بأقصى طاقاتهم بعد أن تلقوا وعداً من سيد بني كنانة التي لها ثأر ضد قريش بأنه لن يهاجم مكة في ظل غيابهم، فشكلوا جيشاً مؤلفاً من تسعمائة وخمسين رجلاً، وتخلَّف بنو عدي، وتدل أهمية هذا الجيش أن أبا جهل هدف إلى استعراض قوة قريش، وإثارة الخوف في نفوس المسلمين لمنعهم من لقائه في ميدان مكشوف، وعدم مهاجمة قوافل قريش في المستقبل.

وعندما عاد أبو سفيان إلى مكة سالماً أرسل إلى زعماء قريش، وهو بالجحفة، برسالة يخبرهم فيها بنجاته والقافلة، ويطلب منهم العودة إلى مكة. عند هذه المرحلة انقسم القرشيون إلى فريقين، فأصرَّ معظمهم، وعلى رأسهم أبو جهل، على التقدم إلى بدر من أجل تأديب المسلمين وتأمين سلامة طريق التجارة القرشية، وإشعار القبائل بقوة سلطانهم التي زعزعتها سرايا المسلمين، «وننحر الجزور ونطعم الطعام، ونسقي الخمر وتعزف علينا القيان وتسمع بنا العرب وبمسيرنا وجمعنا، فلا يزالون يهابوننا أبداً بعدها». وعارض الأخنس بن شريق الثقفي وبنو زهرة هذا التوجه، فانسحبوا من التحالف وعادوا إلى مكة، واعتقدوا بأن أبا جهل وأصدقاءه سيكونون المستفيدين الكبار من تحطيم محمَّد.

ولما علم النبي ﷺ بنجاة القافلة وإصرار زعماء قريش على المواجهة؛ استشار أصحابه، واستمع إلى آرائهم في تقدير الموقف المستجد، فأبدى بعضهم كراهة المواجهة التي لم يستعدوا لها، في حين أيَّد قادة المهاجرين القتال. وكان للمقداد بن الأسود موقف متميز، فقال: «يا رسول الله! لا نقول لك كما قالت بنو إسرائيل لموسى: ﴿فَٱذۡهَبۡ أَنتَ وَرَبُّكَ فَقَٰتِلَآ إِنَّا هَٰهُنَا قَٰعِدُونَ﴾ [المائدة/ ٢٤]، ولكن نقاتل عن يمينك وعن شمالك وبين يديك وخلفك». فأشرق عندئذ وجه النبي ﷺ وسرَّه، ولكن لما كان جيش المسلمين يضم الأنصار إلى جانب المهاجرين، ولم تتضمن بيعة العقبة الثانية بنداً ملزماً بحماية النبي ﷺ خارج المدينة؛ عاد إلى طلب المشورة **(أشيروا عليَّ أيها الناس)**! فأدرك سعد بن معاذ بأنه يقصد الأنصار، فنهض وقال: «والله لكأنك تريدنا يا رسول الله!» قال: **(أجل)**. فقال: «آمنا بك وصدقناك،

وشهدنا أن ما جئت به هو الحق، وأعطيناك على ذلك عهودنا ومواثيقنا على السمع والطاعة لك، فامض يا رسول الله لما أردت فنحن معك، فوالذي بعثك بالحق لو استعرضت بنا البحر فخضته، لخضناه معك، ما تخلَّف منا رجل واحد، وما نكره أن تلقى بنا عدونا غداً، إنا لصُبر في الحرب، صُدق عند اللقاء، لعل الله يريك منا ما تقرُّ به عينك، فسِرْ على بركة الله». فسرَّ النبي ﷺ من مقالته، وقال: (سيروا وأبشروا، فإن الله وعدني إحدى الطائفتين، والله لكأني الآن أنظر إلى مصارع القوم). وبهذا أضحت المواجهة حتمية.

الاستعداد للمعركة

أخذ النبي ﷺ ينظم صفوف قواته للقتال بعد أن اطمأنَّ إلى وحدة الصف والهدف، فسلَّم لواء أبيض اللون إلى مصعب بن عمير، وراية سوداء إلى كل من سعد بن معاذ وعلي بن أبي طالب، وجعل قيس بن أبي صعصعة على الساقة.

ولما وصل إلى منطقة بدر نزل عند أقرب موقع من مائها، فتقدم إليه الحباب بن المنذر وسأله إذا ما كان اختيار الموقع بتوجيه من الله، أم هو الرأي والحرب والمكيدة؟ فقال النبيُّ: (**بل هو الرأي والحرب والمكيدة**). فقال الحباب: «يا رسول الله! فإن هذا ليس بمنزل، فانهض يا رسول الله بالناس حتى تأتي أدنى ماء من القوم ـ أي: جيش المشركين ـ فننزله ونُغوِّر ما وراءه من الآبار ثم نبني عليه حوضاً فنملؤه ماء ثم نقاتل القوم، فنشرب ولا يشربون». فأخذ النبي برأيه، وقال: (**لقد أشرت بالرأي**). ونهض ومن معه ونفَّذوا خطة الحباب.

وراح النبي ﷺ يتقصَّى أخبار قريش، فأرسل جماعة من أصحابه فيهم علي بن أبي طالب، والزبير بن العوام، وسعد بن أبي وقاص؛ يتقصون له الأخبار عن جيش قريش، فوجدوا غلامين يستقيان للقوم، فأتوه بهما، وبعد أن حقَّق معهما تبين من أقوالهما عدد جيش المشركين، ويتراوح بين التسعمائة والألف. وأشار سعد بن معاذ أن يُبنى للنبي ﷺ عريش مرتفع يتولى منه قيادة المعركة والإشراف على الجيش، فأُخِذ برأيه ونُفِّذ.

وكان ما يجري في معسكر قريش يختلف تماماً، فقد اقترح بعضهم؛ عتبة بن ربيعة وحكيم بن حزام، التخلي عن القتال طالما أن الهدف الذي خرجوا من أجله قد تحقَّق، وهو نجاة القافلة، وأصرَّ بعضهم على القتال، وعلى رأسهم أبو جهل. وتغلَّبت فكرة القتال، وكُلِّف عمير بن وهب الجمحي باستطلاع جيش المسلمين، وبعد أن دار حول معسكرهم عاد ليقول: «ثلاثمائة يزيدون قليلاً أو ينقصون». وأضاف: «رأيت يا معشر قريش البلايا تحمل المنايا، نواضح يثرب تحمل الموت

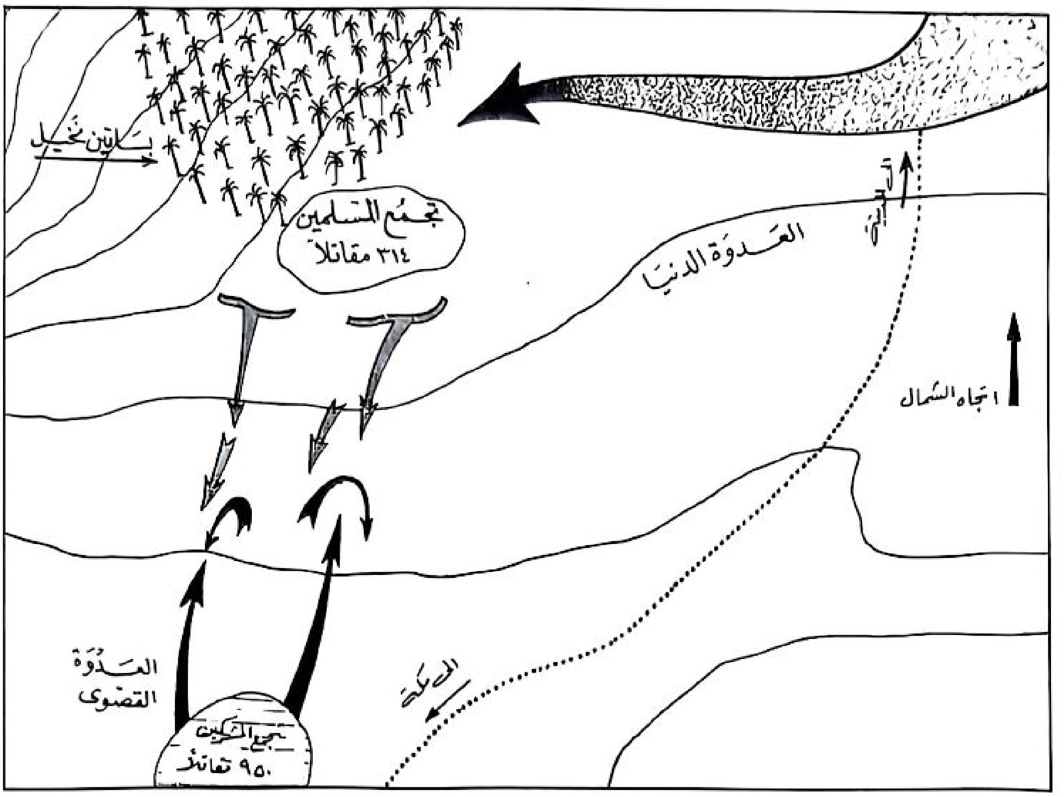
الناقع، قوم ليست معهم منعة ولا ملجأ إلا سيوفهم، والله ما أرى أن يُقتل رجل منهم حتى يقتل رجلاً منكم، فإذا أصابوا منكم أعدادهم فما خير العيش بعد ذلك؟ فروا رأيكم».

يبدو أن كلام عمير ترك أثراً في نفوس زعماء قريش، فحاولوا إقناع أبي جهل بالتخلي عن القتال، ولكنه أصرَّ على موقفه «وكأن قدره يسوقه إلى الموت». والواضح أن معظم قادة قريش يكرهون عناد أبي جهل، ولكنهم يطيعونه بفعل مركزه. ودخلوا المعركة بهدف غير مقنع لا يتعدَّى الخُيَلاء وفرض الهيبة معتمدين على كثرتهم العددية، ومستهترين بقوة المسلمين التي أحسن عمير تصويرها، فهم بين مندفع ومُحجم. وفي المقابل كان جيش المسلمين موحَّد القيادة، وروح المقاتلين المعنوية مرتفعة لا يبالي الواحد منهم أن يبذل روحه فداء لقائده وعقيدته.

أحداث المعركة

ابتدأت المعركة بالمبارزة على عادة العرب في الحرب، فخرج من جيش المشركين عتبة بن ربيعة وأخوه شيبة وابنه الوليد، وطلبوا المبارزة، فخرج إليهم ثلاثة من الأنصار، فاستبدلهم النبي ﷺ بعبيدة بن الحارث، وعمه حمزة، وابن عمه علي بن أبي طالب؛ لأنه أحبَّ أن يبارزهم بعض أهله وذوو قرباه من المهاجرين. فبارز حمزة شيبة وقتله، وبارز علي الوليد فقتله، وبارز عبيدة عتبة، فضرب كل واحد منهما الآخر ضربة موجعة، فكرَّ حمزة وعلي على عتبة فقتلاه، وحملا عبيدة وأتيا به إلى النبي ﷺ، ولكنه ما لبث أن فارق الحياة متأثراً بجراحه، وقد قال عنه النبي ﷺ: **(أشهد بأنك شهيد)**.

وعبَّأ النبي ﷺ قواته وفق نظام الصف كصف الصلاة الذي لم يعهده العرب من قبل، واتبع أسلوب الدفاع، فأمر جنده ألا يبدؤوا العدو بالقتال حتى يُصبح على مرمى منهم، ثم عاد إلى العريش الذي بُني له ومعه صاحبه أبو بكر، وسعد بن معاذ على باب العريش لحراسته، وتوجَّه بالدعاء إلى ربِّه يناشده النصر الذي وعده **(أنجز لي ما وعدتني، اللهمَّ إن تهلك هذه العصابة من أهل الإسلام لا تُعبد في الأرض)**. فأنزل الله: ﴿إِذْ تَسْتَغِيثُونَ رَبَّكُمْ فَاسْتَجَابَ لَكُمْ﴾، ثم خرج من العريش فأخذ حفنة من الحصباء فاستقبل بها وجوه المشركين، وقال: **(شاهت الوجوه)**، فلم يبق أحد منهم إلا ناله منها ما شغله عن حاله، ولهذا قال الله: ﴿وَمَا رَمَيْتَ إِذْ رَمَيْتَ وَلَٰكِنَّ اللَّهَ رَمَىٰ﴾ [الأنفال/١٧]، فأثبت بذلك إلى نبيِّه الرمي ونفى عنه الإيصال. وهكذا أخذ النبي ﷺ بالأسباب المادية والمعنوية وتوكل على الله، فكان النصر والتأييد من الله تعالى.



مخطط غزوة بدر [عن قيادة الرسول ﷺ السياسية والعسكرية]

وعندما رأى المشركون مصرع رفاقهم استشاطوا غضباً، وهجموا جميعاً على المسلمين من دون تخطيط، فنضحهم هؤلاء بالنبال، ثم أمرهم النبي ﷺ بتنفيذ هجوم عام، وحرَّضهم على القتال قائلاً: (شدُّوا)، ووعد من يُقتل صابراً محتسباً بأن له الجنة (والذي نفسي بيده، **لا يقاتلهم اليوم رجل فيُقتل صابراً محتسباً مقبلاً غير مدبر، إلا أدخله الله الجنَّة**).

واشتبك الجيشان في رحى معركة ضاربة في صباح يوم الجمعة (١٧ رمضان ٢هـ/ ١٤ آذار ٦٢٤م)، ووقف النبي ﷺ رابط الجأش يُشجِّع أصحابه ويقوِّي عزيمتهم ﴿سَيُهْزَمُ ٱلْجَمْعُ وَيُوَلُّونَ ٱلدُّبُرَ﴾ [القمر/ ٤٥]. ونهى النبي ﷺ عن قتل رجال من بني هاشم وغيرهم؛ لأنهم أُخرجوا كرهاً، مثل أبي البختري بن هشام بن الحارث بن أسد، لأنه كان لا يؤذيه، وكان يكف عنه القوم وهو بمكة، والعباس بن عبد المطلب لأنه خرج مستكرهاً، بالإضافة إلى رجال بني هاشم كافَّة.

وأيَّد ﷻ المسلمين بأربع ظواهر، وهذا من نِعمه عليهم:

الأولى: التقليل والتكثير. فكان يتراءى لكلِّ جندي من المشركين أن عدد المسلمين ضعف عددهم، ويُقلِّلهم بالمقابل في أعين المسلمين ﴿إِذْ يُرِيكَهُمُ ٱللَّهُ فِى مَنَامِكَ قَلِيلًا ۖ وَلَوْ أَرَىٰكَهُمْ كَثِيرًا لَّفَشِلْتُمْ وَلَتَنَٰزَعْتُمْ فِى ٱلْأَمْرِ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ سَلَّمَ ۗ إِنَّهُۥ عَلِيمٌۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ﴾ [الأنفال/ ٤٣]، ﴿وَإِذْ يُرِيكُمُوهُمْ إِذِ ٱلْتَقَيْتُمْ فِىٓ أَعْيُنِكُمْ قَلِيلًا

﴿وَيُقَلِّلُكُمْ فِيٓ أَعۡيُنِهِمۡ لِيَقۡضِيَ ٱللَّهُ أَمۡرٗا كَانَ مَفۡعُولٗاۗ وَإِلَى ٱللَّهِ تُرۡجَعُ ٱلۡأُمُورُ﴾ [الأنفال ٤٤]. وإنما قلَّلهم في أعين المسلمين تصديقاً لرؤيا النبيِّ ﷺ، وليعاينوا ما أخبرهم به، فيزدادوا يقيناً ويجدُّوا في قتالهم ويثبتوا.

الثانية: فقد ألقى النعاس على المقاتلين المسلمين أمنة من فوقهم، وهو نعاس الرأس.

الثالثة: أنزل عليهم مطراً من السماء، والواضح أنه كان للمطر وظيفتان:

أ ـ تثبيت الرمل، فلا تغوص أقدامهم فيه ما يؤثر على مقدرتهم القتالية.

ب ـ طهَّرهم وأذهب عنهم رجز الشيطان وثبَّت أقدامهم، فاطمأنت قلوبهم.

قال تعالى: ﴿إِذۡ يُغَشِّيكُمُ ٱلنُّعَاسَ أَمَنَةٗ مِّنۡهُ وَيُنَزِّلُ عَلَيۡكُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءٗ لِّيُطَهِّرَكُم بِهِۦ وَيُذۡهِبَ عَنكُمۡ رِجۡزَ ٱلشَّيۡطَٰنِ وَلِيَرۡبِطَ عَلَىٰ قُلُوبِكُمۡ وَيُثَبِّتَ بِهِ ٱلۡأَقۡدَامَ﴾ [الأنفال/١١].

الرابعة: إمداد الله المسلمين بالملائكة. عندما كان رسول الله ﷺ في العريش مع أبي بكر أخذته سُنة من النوم، ثم استيقظ مبتسماً فقال: (**أبشر يا أبا بكر، أتاك نصر الله، هذا جبريل آخذ بعنان فرس يقوده، على ثناياه النقع**). ثم خرج وشجَّع جنده على القتال: ﴿إِذۡ تَسۡتَغِيثُونَ رَبَّكُمۡ فَٱسۡتَجَابَ لَكُمۡ أَنِّي مُمِدُّكُم بِأَلۡفٖ مِّنَ ٱلۡمَلَٰٓئِكَةِ مُرۡدِفِينَ﴾ [الأنفال/٩]، ﴿إِذۡ يُوحِي رَبُّكَ إِلَى ٱلۡمَلَٰٓئِكَةِ أَنِّي مَعَكُمۡ فَثَبِّتُواْ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْۚ سَأُلۡقِي فِي قُلُوبِ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ ٱلرُّعۡبَ فَٱضۡرِبُواْ فَوۡقَ ٱلۡأَعۡنَاقِ وَٱضۡرِبُواْ مِنۡهُمۡ كُلَّ بَنَانٖ﴾ [الأنفال/١٢].

وأحاط بعض فرسان المسلمين، خلال سير المعركة، بأبي جهل فقتلوه، واحتز عبد الله بن مسعود رأسه، وجاء به إلى النبي ﷺ. وما لبثت الهزيمة أن أحاقت بالمشركين، فولوا الأدبار لا يلوون على شيء، مخلفين وراءهم سبعين قتيلاً من بينهم بعض كبار زعماء قريش، أمثال: أُمية بن خلف، وعبيدة بن سعيد بن العاص، والأسود المخزومي، بالإضافة إلى أبي جهل كما ذكرنا، وسبعين أسيراً، في حين اقتصرت خسائر المسلمين على أربعة عشر شهيداً، ستة من المهاجرين، وثمانية من الأنصار، فدفنهم رسول الله ﷺ في مكان المعركة من دون غسل، كما دفن قتلى المشركين في قليب بدر، وسمعه أصحابه في جوف الليل وهو ينادي أهل القليب: (**يا أهل القليب! يا عتبة بن شيبة، ويا شيبة بن ربيعة، ويا أُمية بن خلف، ويا أبا جهل! هل وجدتم ما وعدكم ربكم حقاً؟ فإني وجدت ما وعدني ربي حقاً**). فسأله أصحابه: يا رسول الله! أتنادي قوماً قد جيفوا؟ قال: (**ما أنتم بأسمع لما أقول منهم، ولكنهم لا يستطيعون أن يجيبوني**). وبعث عبد الله بن رواحة وزيد بن حارثة إلى المدينة ليبشرا أهلها بانتصار المسلمين، ثم عاد رسول الله ﷺ ومن معه إلى المدينة.

وحصل بعد المعركة أمران بغاية الأهمية كانت لهما ذيول مستدامة، ونزل فيهما قرآن:

الأول: توزيع الغنائم. فقد حدث تباين في وجهات النظر بين المسلمين بعد المعركة بشأن توزيع الغنائم، بين الذين تولوا أمر القتال، والذين جمعوها، والذين طاردوا العدو بعد الهزيمة، والذين أحدقوا بالنبيِّ ﷺ يحمونه، وأرادت كل طائفة أن تستأثر بها، فنزعها الله من أيديهم وجعلها إلى رسول الله ﷺ، فقسَّمها عن بواء (على السواء)، ونزلت آية كريمة في ذلك؛ قال تعالى: ﴿يَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلْأَنفَالِ ۖ قُلِ ٱلْأَنفَالُ لِلَّهِ وَٱلرَّسُولِ ۖ فَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَأَصْلِحُوا۟ ذَاتَ بَيْنِكُمْ ۖ وَأَطِيعُوا۟ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥٓ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ﴾ [الأنفال/١]. أما الغنائم التي تنشأ عن النصر في القتال، فإن الحكم الذي تضمَّنه النص القرآني بشأن توزيعها يتلخَّص في رد أربعة أخماس كل شيء من الغنيمة إلى المقاتلين، واستبقاء الخمس يتصرف فيه رسول الله ﷺ. قال تعالى: ﴿وَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّمَا غَنِمْتُم مِّن شَىْءٍ فَأَنَّ لِلَّهِ خُمُسَهُۥ وَلِلرَّسُولِ وَلِذِى ٱلْقُرْبَىٰ وَٱلْيَتَـٰمَىٰ وَٱلْمَسَـٰكِينِ وَٱبْنِ ٱلسَّبِيلِ إِن كُنتُمْ ءَامَنتُم بِٱللَّهِ وَمَآ أَنزَلْنَا عَلَىٰ عَبْدِنَا يَوْمَ ٱلْفُرْقَانِ يَوْمَ ٱلْتَقَى ٱلْجَمْعَانِ ۗ وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ﴾ [الأنفال/٤١].

الثاني: مصير الأسرى. فقد استشار النبي ﷺ أصحابه في مصير الأسرى، فاقترح أبو بكر إطلاق سراحهم مقابل الفدية:

- بفعل أنهم بنو العم والعشيرة والإخوان.
- تكون الفدية قوة للمسلمين على الكافرين.
- طمع في أن يهديهم الله، فيكونوا عضداً للمسلمين.

وارتأى عمر بن الخطاب قتلهم حتى يعلم الله أن ليس في قلوب المسلمين هوادة للمشركين، وهؤلاء صناديدهم وأئمتهم وقادتهم، بالإضافة إلى أنهم كذَّبوا النبي وأخرجوه من دياره. فأخذ النبي ﷺ برأي أبي بكر، ورجَّح قبول الفداء على ما رآه عمر من قتلهم، واستثنى من كان يتعرض له بالأذى الشديد، مثل عقبة بن أبي معيط، والنضر بن الحارث، فقتلهما. وفي مقابل ذلك، أطلق عمرو بن عبد الله الجمحي؛ لأنه لم يؤذ المسلمين، وكان له بنات لا معيل لهن. وكان بين الأسرى من يُحسن القراءة والكتابة، ولا يملك الفداء، فجعل فداء الواحد منهم تعليم عشرة من صبيان المدينة، ولم يراعِ عمَّه العباس وأجبره على فداء نفسه وابني أخويه عقيل بن أبي طالب بن عبد المطلب، ونوفل بن الحارث بن عبد المطلب، وحليفه عتبة بن عمرو أخي الحارث بن فهر. وكان من بين الأسرى أبو العاص بن الربيع بن عبد العزى، ختن رسول الله ﷺ، وزوج ابنته زينب. وعندما بعث أهل مكة في فداء

أسراهم بعثت زينب بنت رسول الله ﷺ في فداء أبي العاص بن الربيع بمال، وبعثت فيه بقلادة لها كانت خديجة أدخلتها بها على أبي العاص حين بنى عليها، فلما رآها رسول الله ﷺ رقَّ لها رقَّة شديدة، وقال: (**إن رأيتم أن تطلقوا لها أسيرها، فافعلوا**)، فأطلقوه وردوا عليها الذي لها. وأقام أبو العاص بمكة، وأقامت زينب في المدينة عند أبيها حتى فرَّق بينهما الإسلام.

وكان مقدار الفداء الذي فرضه رسول الله ﷺ عن كل فرد من المشركين يتراوح بين ألف درهم وأربعة آلاف درهم، كلٌّ على حسب ماله، باستثناء الأسرى الفقراء الذين لا مال لهم، فقد أطلق سراحهم بغير شيء، منهم أبو العاص بن الربيع، والمطلب بن حنطب، وصيفي بن أبي رفاعة، وأبو عزَّة، وعمرو بن عبد الله بن عثمان بن أهيب بن حذافة بن جمح، الذي ذكرنا، وأخذ عليه ألا يظاهر عليه أحداً. وقد نزل قول الله تعالى في هذا الأمر يتوافق مع رأي عمر ﴿مَا كَانَ لِنَبِيٍّ أَن يَكُونَ لَهُۥٓ أَسْرَىٰ حَتَّىٰ يُثْخِنَ فِي ٱلْأَرْضِ﴾ إلى قوله تعالى: ﴿فَكُلُواْ مِمَّا غَنِمْتُمْ حَلَٰلًا طَيِّبًا﴾.

نتائج المعركة

ـ عزَّز الانتصار في بدر مكانة المسلمين، فأضحوا مرهوبي الجانب داخل المدينة وخارجها، وتعزَّزت مكانة النبي ﷺ في المدينة، وبات المشركون لا يتجرَّؤون على إظهار كفرهم وعداوتهم للإسلام بشكل علني، لذا اتبعوا أسلوباً جديداً في علاقتهم مع المسلمين قائماً على النفاق، فدخلوا في الإسلام ظاهراً واستمروا على شركهم باطناً، فلا هم مسلمون مخلصون في إسلامهم، ولا هم كافرون يظاهرون بكفرهم وعداوتهم للإسلام والمسلمين[1]، وقال تعالى في حقهم: ﴿مُّذَبْذَبِينَ بَيْنَ ذَٰلِكَ لَآ إِلَىٰ هَٰٓؤُلَآءِ وَلَآ إِلَىٰ هَٰٓؤُلَآءِ وَمَن يُضْلِلِ ٱللَّهُ فَلَن تَجِدَ لَهُۥ سَبِيلًا﴾ [النساء/١٤٣].

ـ شكَّل الانتصار في بدر حجر الزاوية في التاريخ المبكر للإسلام، فقد كان أول صدام جدي مسلَّح بين المسلمين وقريش انتصر فيه المسلمون انتصاراً واضحاً، على الرغم من قِلَّة عددهم وعتادهم.

ـ ازدادت ثقة المسلمين بالله ﷻ وبرسوله ﷺ، واشتدَّ ساعدهم وتنامت قوتهم، ودخل عدد كبير من مشركي قريش في الإسلام، وقد ساعد ذلك على رفع معنويات من بقي من المسلمين المستضعفين في مكة، فاغتبطت نفوسهم بنصر الله، واطمأنت قلوبهم، وأدركوا أن يوم الفرج بات قريباً.

(١) الصلَّابي: جـ٢ ص٥٣.

ـ ازداد التماسك بين المهاجرين والأنصار.

ـ اكتسب المسلمون مهارة عسكرية، وأساليب جديدة في الحرب، وشهرة واسعة داخل الجزيرة العربية، وأضحوا قوة يُحسب حسابها، كما أضحى للدولة الإسلامية الناشئة مصدر دخل جديد من الغنائم بعد حال البؤس والفقر الشديد طيلة تسعة عشر شهراً.

ـ شكَّلت معركة بدر مبرراً ومناسبة لتشريع خُمُس الغنائم لبيت مال المسلمين، الذي ظلَّ المصدر الرئيس لبيت المال طيلة مرحلة الفتوح الإسلامية.

ـ لم يُصدق القرشيون في بادىء الأمر، أخبار الهزيمة في بدر، ثم عمَّ الذعر الذي قضى على كل عمل جدِّي، وقد تولى أبو سفيان بن حرب إدارة شؤون مكة، فاتخذ إجراءات عدة من أجل تجاوز الصدمة والانطلاق للثأر، منها: منع الحداد على الأموات مدة من الزمن، حتى لا يتمتع المسلمون بثمرات النصر ويحول دون تفرق قوى قريش، في الوقت الذي كانوا فيه بأمس الحاجة إلى تجميع كل قواهم استعداداً للانتقام، وتجنُّب انهيار معنوياتهم[(١)].

ـ شجَّع كعب بن الأشرف التعبير عن الخوف الذي انتاب القرشيين كي يثير رغبتهم في الانتقام.

ـ استولت على القرشيين الرغبة بضرورة استعادة مكانتهم، بعد أن أفاقوا من هول الصدمة، وقد أقنع صفوان بن أُمية بن خلف الجمحي الذي قُتل والده في بدر، أحد أفراد قبيلته، عُمير بن وهب، أن يقتل محمد، فذهب إلى المدينة بحجة التفاوض حول فدية أخيه، غير أن النبي ﷺ كشف حقيقة هدفه، ولما كان ذلك الاتفاق سراً بين الرجلين فقط؛ أدرك أن محمَّداً ﷺ نبيٌّ حقاً، فأسلم[(٢)].

ـ كانت خسارة قريش فادحة مادياً بمقتل بعض كبار زعمائها، أمثال: أبو جهل، وأُمية بن خلف، وعتبة بن ربيعة وغيرهم، الذين كانوا من أشد القرشيين شجاعة وقوة وبأساً، ومعنوياً بفعل أن الدولة الإسلامية الناشئة باتت تُهدِّد سيادتهم ونفوذهم وتجارتهم مع بلاد الشام.

ـ سبَّبت خسارة قريش في بدر ألماً وحزناً وكمداً في نفوس أهلها، فمات أبو لهب بعد قليل من الوقت بعد أن أُصيب بعلة، ونذر أبو سفيان الذي فقد ابناً له ـ هو حنظلة ـ وأُسِر له ابن آخر ـ هو عمرو ـ أن لا يمس رأسه ماء من جنابة، وابتعد عن الطيب والنساء، حتى يأخذ بالثأر من الذين أذلُّوا القرشيين وقتلوا أشرافهم وشجعانهم، وراح ينتظر ترقب الفرصة للقاء المسلمين من أجل ذلك[(٣)].

---

(١) ابن هشام: جـ٣ ص٥٤، ٥٥. (٢) المصدر نفسه: ص٧٠، ٧١.

(٣) أبو شهبة، محمد: السيرة النبوية في ضوء القرآن والسنة، جـ٢ ص١٧١.

ـ أضعفت الخسارة في بدر هيبة قريش بين العرب.
ـ أتاح الانتصار في بدر لبعض القبائل المترددة أن تحسم أمرها وتدخل في الإسلام.
ـ هال اليهود أن ينتصر المسلمون في بدر وأن تقوى شوكتهم فيها، وأن يَعِزَّ الإسلام ويظهر على دينهم، ويكون له دولة ولرسوله الحظوة والمكانة، فصمَّموا على نقض العهد الذي عقدوه مع النبي محمَّد ﷺ، عندما قدم إلى المدينة، وأظهروا عداوتهم التي كانت كامنة في نفوسهم، وراحوا يكيدون للإسلام ولرسوله.

تحليل أحداث المعركة

ـ مما لا شك فيه أن النبي محمَّد ﷺ أخذ بأسباب النصر، ولكن النصر من الله يؤتيه من يشاء، ولولا الإسلام لما كان لمعركة بدر تلك الأهمية التاريخية، فالمتقاتلون لا يتعدون ألفاً وثلاثمائة مقاتل، والخسائر لا تكاد تُذكر بمقاييس خسائر المعارك، ولكن الحقيقة أن معركة بدر تُعدُّ من المعارك الفاصلة في التاريخ الإسلامي، بل البشري، فكل ما بعدها يختلف عما قبلها، وشكَّلت انقلاباً في موازين القوى وبداية لانتصار الإسلام وانتشاره.
ـ نزلت سورة الأنفال في غزوة بدر تعرض وقائعها الظاهرة والقدرة الإلٰهية من ورائها، وتكشف عن قدرة الله وتدبيره في أحداثها، وقد سمى الله سبحانه يومها ﴿يَوْمَ ٱلْفُرْقَانِ يَوْمَ ٱلْتَقَى ٱلْجَمْعَانِۗ﴾. لقد أراد الله أن تكون فرقاً:
١ ـ بين الحق والباطل.
٢ ـ بين عوامل النصر وعوامل الهزيمة، علماً بأن عوامل النصر الظاهرية كانت لصالح المشركين، وعوامل الهزيمة الظاهرية كانت لصالح المسلمين.
٣ ـ بين تصورين وتقديرين لأسباب النصر وأسباب الهزيمة، حيث انتصرت القِلَّة على الكثرة.

كما أراد أن يظهر من خلالها الآماد البعيدة بين تدبير البشر لأنفسهم فيما يحسبونه الخير لهم، وتدبير الله لهم، ولو كرهوه في بادىء الأمر، وأن تتقبَّل العصبة المؤمنة عوامل النصر وعوامل الهزيمة.
ـ لقد وعد الله سبحانه المسلمين إحدى الطائفتين: العير أو النفير، وعندما أفلتت القافلة لم يبق لهم خيار أن عليهم أن يلقوا الطائفة الأخرى التي كان في عدادها كبار قادة قريش ورجالها وفرسانها، وقد كره بعضهم ذلك لأنهم لم يستعدوا لهذه المواجهة، وإنما خرجوا يريدون عير أبي سفيان واغتنام القافلة. لقد أراد المسلمون العير لأنفسهم، وأراد الله لهم أمراً آخر؛ أراد أن تكون ملحمة لا غنيمة، ومعركة بين الحق والباطل؛ ليحق الحق عن بيِّنة، ويبطل الباطل ويزهقه، وأراد أن يقطع دابر الكافرين،

وأن يكون ذلك عن استحقاق بالجهد والجهاد مع ما في ذلك من معاناة في ميدان القتال ﴿كَمَآ أَخۡرَجَكَ رَبُّكَ مِنۢ بَيۡتِكَ بِٱلۡحَقِّ وَإِنَّ فَرِيقٗا مِّنَ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ لَكَٰرِهُونَ ۞ يُجَٰدِلُونَكَ فِي ٱلۡحَقِّ بَعۡدَمَا تَبَيَّنَ كَأَنَّمَا يُسَاقُونَ إِلَى ٱلۡمَوۡتِ وَهُمۡ يَنظُرُونَ ۞ وَإِذۡ يَعِدُكُمُ ٱللَّهُ إِحۡدَى ٱلطَّآئِفَتَيۡنِ أَنَّهَا لَكُمۡ وَتَوَدُّونَ أَنَّ غَيۡرَ ذَاتِ ٱلشَّوۡكَةِ تَكُونُ لَكُمۡ وَيُرِيدُ ٱللَّهُ أَن يُحِقَّ ٱلۡحَقَّ بِكَلِمَٰتِهِۦ وَيَقۡطَعَ دَابِرَ ٱلۡكَٰفِرِينَ ۞ لِيُحِقَّ ٱلۡحَقَّ وَيُبۡطِلَ ٱلۡبَٰطِلَ وَلَوۡ كَرِهَ ٱلۡمُجۡرِمُونَ﴾ [الأنفال/ ٥ ـ ٨].

ـ دارت معركة بدر بأمر الله ومشيئته وبتدبيره وتوجيهه وبجنده. فبالإضافة إلى الآيات القرآنية التي تشير إلى اشتراك الملائكة في هذه المعركة؛ أورد البخاري ومسلم وغيرهما عدداً من الأحاديث الصحيحة التي تُثبت هذه المشاركة، وقيام الملائكة بضرب المشركين وقتلهم، وما كانوا يقولونه للمؤمنين لتثبيتهم وما كانوا يقولونه للمشركين لتخذيلهم(١). ونكتفي بهذا القدر من عالم الغيب بما يرد في النصوص المستيقنة من قرآن وسنة، والنصوص القرآنية هنا فيها الكفاية. لقد استجاب الله سبحانه لاستغاثة المسلمين وأنبأهم بأنه مُمدُّهم بألف من الملائكة مردفين، وما جعله ذلك إلا بشرى ولتطمئن قلوبهم والنصر من عند الله: ﴿وَمَا جَعَلَهُ ٱللَّهُ إِلَّا بُشۡرَىٰ وَلِتَطۡمَئِنَّ بِهِۦ قُلُوبُكُمۡۚ وَمَا ٱلنَّصۡرُ إِلَّا مِنۡ عِندِ ٱللَّهِۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾ [الأنفال/ ١٠]. ومع عظمة هذا الأمر ودلالاته؛ لا يدع ﷺ المسلمين يعتقدون أن هناك سبباً يُنشىء نتيجة، إنما يردُّ الأمر كله إليه سبحانه، وكان حسْب المسلمين أن يبذلوا كل طاقاتهم في مواجهة الخطر الواقع عليهم، ثم ينتهي دورهم ويجيء دور القدرة التي تديرهم، وما عدا ذلك فكان بشارة مطمئنة(٢).

ـ إن حال النعاس الذي غشي المسلمين قبل المعركة هي نفسية لا تتحقَّق إلا بأمر الله وقدره وتدبيره. فقد انتاب المسلمين الفزع وهم يرون أنفسهم قِلَّة في مواجهة خطر مفاجيء لم يحسبوا حسابه، ولم يتخذوا له عدته، فإذا النعاس يغشاهم ثم يصحون منه والسكينة تغمر نفوسهم وتفيض الطمأنينة على قلوبهم. إنه لحادث وقع لا يعلم سرَّه إلا الله الذي قصَّ علينا خبره. كانت هذه الغشية وهذه الطمأنينة مدداً من الله للعصبة المسلمة. قال الحافظ أبو يعلى: حدثنا زهير بن مهدي، عن شعبة، عن أبي إسحاق، عن حارثة بن مضرب، عن علي رضي الله عنه، قال: «ما كان فينا فارس يوم بدر غير المقداد، ولقد رأيتنا وما فينا إلا نائم إلا رسول الله ﷺ تحت شجرة ويبكي حتى أصبح»(٣).

---

(١) انظر: صحيح البخاري، كتاب الجهاد، باب شهود الملائكة بدراً، رقم الحديث (٣٩٩٥)، ص٧٢٤. صحيح مسلم على شرح النووي، كتاب الجهاد والسير، باب الإمداد بالملائكة في غزوة بدر، جـ١٢ ص٨٤ ـ ٨٧.

(٢) قطب: جـ٩ ص٢٤٩، ٢٥٠.

(٣) تفسير ابن كثير: جـ١ ص٢٩١.

ـ إن حادثة إنزال الماء هي مدد آخر منّه الله على المسلمين. قال علي بن أبي طلحة، عن ابن عباس قال: «نزل النبي ﷺ حين سار إلى بدر والمشركون بينهم وبين الماء زملة دِعصة[1]، وأصاب المسلمين ضعف شديد، وألقى الشيطان في قلوبهم الغيظ يوسوس بينهم؛ تزعمون أنكم أولياء الله تعالى وفيكم رسوله، وقد غلبكم المشركون على الماء وأنتم تُصلُّون مجنبين، فأمطر الله عليهم مطراً شديداً، فشرب المسلمون وتطهَّروا وأذهب عنهم رجز الشيطان وثبَّت الرمل حين أصابه المطر، ومشى الناس عليه والدواب، فساروا إلى القوم...»[2]. ولقد كان ذلك قبل أن يُنفِّذ النبي ﷺ ما أشار عليه الحباب بن المنذر من النزول على ماء بدر وتغوير ما وراءه من القلب. والمدد على هذا النحو مزدوج؛ مادي وروحي، فالماء في الصحراء مادة الحياة، فضلاً على أن يكون أداة للنصر، فالجيش الذي يفقد الماء في الصحراء؛ يفقد أعصابه قبل أن يدخل المعركة، ثم إن هذه الحال التي صاحبت الموقف ووسوس بها الشيطان، وهي حال التحرج من أداء الصلاة على غير طهر لعدم وجود الماء، علماً بأنه لم يكن قد رُخِّص التيمم بعد؛ تثير الهواجس والوساوس عند المؤمن.

وعليه، فإن النفوس التي تدخل المعركة في مثل هذا الحرج والقلق تكون مزعزعة ومهزومة من داخلها، وهنا يأتي المدد والنجدة من الله ما يضيف المدد الروحي إلى المدد المادي[3].

ـ كان التقليل والتكثير من تدبير الله ما أغرى الفريقين بخوض المعركة، فالمؤمنون يرون أعداءهم قليلاً، لأنهم يرونهم بعين الحقيقة، والمشركون يرون المؤمنين قليلاً؛ لأنهم يرونهم بعين الظاهر، ومن وراء الحقيقتين اللتين رأى كل فريق منهما الآخر؛ تحقَّقت غاية التدبير الإلٰهي، ووقع الأمر الذي جرى به قضاؤه، ومرجع هذا الأمر لله وحده يُصرفه بسلطانه ويوقعه بإرادته[4].

ـ وأخذ النبي ﷺ برأي أبي بكر بشأن فداء الأسرى، فالغنائم حِلٌّ للمسلمين في المعركة من أموال المشركين، فعاتبه ﷻ: ﴿مَا كَانَ لِنَبِيٍّ أَن يَكُونَ لَهُۥٓ أَسْرَىٰ حَتَّىٰ يُثْخِنَ فِى ٱلْأَرْضِ ۚ تُرِيدُونَ عَرَضَ ٱلدُّنْيَا وَٱللَّهُ يُرِيدُ ٱلْءَاخِرَةَ ۗ وَٱللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ۞ لَّوْلَا كِتَـٰبٌ مِّنَ ٱللَّهِ سَبَقَ لَمَسَّكُمْ فِيمَآ أَخَذْتُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ ۞ فَكُلُوا۟ مِمَّا غَنِمْتُمْ حَلَـٰلًا طَيِّبًا ۚ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ [الأنفال/ ٦٧ ـ ٦٩].

---

(١) زِملة: الزّمال: التحامل على اليدين نشاطاً. ودِعصة: تل الرمل المجمَّع المستدير، وهو جمع أدعاص ودِعصة.

(٢) تفسير ابن كثير: جـ٢ ص٢٩١، ٢٩٢.

(٣) قطب: جـ٩ ص٢٥٢، ٢٥٣.

(٤) المرجع نفسه: جـ١٠ ص٢٣، ٢٤.

لقد عاتب ﷺ رسوله بشأن فداء أسرى يوم بدر، والراجح أن لذلك علاقة:

١ ـ بإضعاف شوكة المشركين وتقوية شوكة المسلمين. لقد كانت معركة بدر الأولى بين المسلمين والمشركين، وكان المسلمون ما يزالون قِلَّة، والمشركون ما يزالون كثرة. وكان نقص عدد المحاربين من المشركين مما يكسر شوكتهم ويذلُّ كبرياءهم ويعجزهم عن معاودة الكرة على المسلمين، وكان هذا هدفاً كبيراً لا يعدله المال الذي يأخذه المسلمون، مهما يكونوا فقراء.

٢ ـ لتقرير معنى آخر في النفوس وتثبيته في القلوب، ذلك هو الذي عبَّر عنه عمر بن الخطاب في صرامة ونصاعة، وهو يقول: «وحتى يعلم الله أن ليس في قلوبنا هوادة للمشركين».

ثم يلمس الله قلوب الأسرى لمسة تحيي فيها الرجاء وتُطلق الأمل بحياة أفضل وأكرم مما كانوا فيه من الشرك، وهذا الخبر معلَّق بأن تصلح قلوبهم فتنفتح لنور الإيمان، ويعني ذلك أن الإسلام يستبقي الأسرى لديه ليوقظ فطرتهم فتستجيب للهدى، قال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ قُل لِّمَن فِيٓ أَيۡدِيكُم مِّنَ ٱلۡأَسۡرَىٰٓ إِن يَعۡلَمِ ٱللَّهُ فِي قُلُوبِكُمۡ خَيۡرٗا يُؤۡتِكُمۡ خَيۡرٗا مِّمَّآ أُخِذَ مِنكُمۡ وَيَغۡفِرۡ لَكُمۡۚ وَٱللَّهُ غَفُورٞ رَّحِيمٞ﴾[1] [الأنفال/ ٧٠].

ـ إن التباين في توزيع الغنائم مردُّه إلى أن الصحابة والقادة والمقاتلين بشر يمكن في لحظة ضعف أن تتغلَّب عليهم مصلحة ذاتية، وقد نزل فيهم قرآن كريم، وفي هذا توجيه للبشر بعامة بأن يعذر بعضهم بعضاً في بعض الأخطاء ولحظات الضعف.

ـ إن بين الروايات المأثورة والآراء الفقهية خلافاً حول مدلول الغنائم ومدلول الأنفال، هل هما شيء واحد أم شيئان مختلفان حول:

١ ـ كيفية تقسيم الخمس بعد الأخماس الأربعة التي منحها الله للمقاتلين.

٢ ـ خُمس الخمس الذي لله، أهو الخمس الذي لرسوله، أم هو خمس مستقل الذي لأولي القربى؟ وهل هو باقٍ في قرابة رسول الله ﷺ، من بني هاشم وبني عبد المطلب، كما كان على عهده؟ أم أنه يعود إلى الإمام يتصرف فيه؟.

٣ ـ تحديد الأخماس التي يُقسم إليها الخمس، وهل يُترك التصرف فيه كله للرسول ﷺ ولخلفائه من بعده؟

وخلافات أخرى فرعية.

ونحن على طريقتنا في البحث التاريخي لا ندخل في هذه التعريفات الفقهية المتشعبة التي يُستحسن أن تُطلب في مباحثها الخاصة.

ـ أهمية القيادة التي تجلَّت في جيش المسلمين، والتي قابلها تعدد القيادات في

---

(١) قطب: جـ١٠ ص٦٢.

جيش المشركين واختلافها ما أدّى إلى انضباط رائع لدى المسلمين وتفانٍ في تنفيذ الأوامر، واختلاف في صفوف المشركين جعلهم يفرُّون حين اشتد وطيس المعركة طالبين النجاة من فئة أقل منهم بكثير.

ـ ابتكار أساليب قتال غير مألوفة تُفاجىء العدو وتُربكه. فقد ابتكر النبي محمَّد ﷺ في قتاله مع قريش تكتيكاً عسكرياً جديداً طُبّق لأول مرة في هذه الغزوة، ويُعدُّ سبقاً في النظم العسكرية، هو نظام الصف على هيئة صفوف الصلاة، وقد فاجأ القرشيين الذين اعتادوا على الكرِّ والفر. وفحوى هذا النظام أن الصفوف الأولى تحمل الرماح لصد هجمات الفرسان، وتتسلح الصفوف التي خلفها بالنبال لتسديدها على المهاجمين الأعداء. ومن حسنات هذا التكتيك أنه يُرهب العدو ويُتيح للقائد الاحتفاظ بقوة احتياطية يعالج بواسطتها المواقف المفاجئة الناتجة عن سير المعركة، وصد هجوم معاكس أو ضرب كمين غير متوقع. واستفاد النبي ﷺ من هذا التكتيك في حماية الأجنحة من خطر الفرسان والمشاة[1].

ـ ضرورة الاهتمام بالعِلم وأخذه من أي مصدر، ولو من العدو، وقد بيَّن النبي ﷺ أهميته بأن جعل فداء الأسير تعليم عشرة صبيان من الأنصار.

ـ شكَّل مقتل قادة قريش وفرسانها كارثة حقيقية لمكة، ومع ذلك لا يعني هذا استبدال المدينة بمكة كقوة مسيطرة في تلك المنطقة، ولا بد من وقائع أخرى تدلُّ على قوة النبي محمَّد ﷺ والمسلمين كي تُقدم القبائل إليه، وتأكَّد أن أبا جهل قدَّر الخطر الذي يُمثِّله النبي ﷺ ضد قريش، وإن كان قد أخطأ في تقدير بعض القضايا، ومثَّل موقف النبي ﷺ تحدِّياً لم تستطع قريش إلا الاستجابة له

ـ كان اعتقاد القرشيين أن النبي ﷺ سوف يُحجم عن مواجهتهم يعتمد على تقدير خاطىء، وهذا صادر عن ثقة غير متناهية بقوة كل من الطرفين، ولم يُدركوا أن قوتهم قد تضاءلت بسبب ما أحدثته الدعوة الإسلامية من تغييرات في بنية مجتمعهم، وإذا كان النبي ﷺ، من جهة أخرى، لم يُنظِّم حملة لمطاردتهم وفتح مكة الخالية ممن يدافع عنها أو يحميها، إلا أنه أظهر استعداداً لمهاجمتهم في ظروف أكثر ملاءمة. وهكذا على الرغم من أن القتال لم يكن متوقعاً، فقد عكس نتيجة قوة كل من الطرفين في نطاق معركة سافرة.

ـ لقد عزَّز الانتصار في بدر مكانة النبي محمَّد ﷺ في المدينة، فاستغلَّه للتخلص من المحرِّضين على الدولة الإسلامية، والهجَّائين لشخصه، علماً بأن خطر هؤلاء في إثارة الفتنة لا يقل عن خطر الذين يُشهرون السلاح لقتال المسلمين؛ لذلك أخذ

---

(١) خطاب، محمود شيث: الرسول القائد، ص١١١، ١١٦، ١١٧.

يتتبعهم ويقتلهم لإطفاء نار الفتنة، وتمكيناً للحق، وقد قتل بعضهم بعد معركة بدر؛ أمثال: عصماء بنت مروان بن أمية بن زيد، وأبو عفك اليهودي، وكعب بن الأشرف اليهودي[1].

ـ حفلت معركة بدر بنصيب وفير من الأدب؛ إذ كانت مناسبة لقول الشعر ولنحله أيضاً، حتى أن ابن إسحاق قد جمع ما يمكن أن يُشكِّل ديواناً لهذه الغزوة بذكر الكثير من القصائد المنسوبة إلى حمزة بن عبد المطلب، وعلي بن أبي طالب، والحارث بن هشام بن المغيرة، وضرار بن الخطاب وغيرهم، في رثاء قتلى بدر وفي وصف المعركة. والملفت أن ابن هشام في نقله عن ابن إسحاق كثيراً ما يُعقِّب على الشعر المنقول بقوله: «وبعض أهل العلم بالشعر ينكرها لفلان...»، وهذا يُفسِّر لنا بوضوح قول ابن سلام الجمحي: «وكان ممن أفسد الشعر وهجَّنه وحمل كل غثاء منه، محمد بن إسحاق، وكان من علماء الناس بالسِّير، فقبل الناس عنه الأشعار، وكان يعتذر منها ويقول: «لا علم لي بالشعر، أوتي به فأحمله». وعلى الرغم من ذلك، يبقى هذا الشعر صالحاً لإعطائنا الفكرة التي تُقرِّب قليلاً أو كثيراً من الحقيقة عن الواقع من النواحي الأدبية واللغوية والحضارية عن ذلك العصر»[2].

الدلالات الفقهية المستنبطة من غزوة بدر

تتضمن غزوة بدر بعض الدلالات الفقهية ودروساً وعبراً، كما تتضمَّن معجزات باهرة تحدثنا عنها، ويبقى أن نجمل الدلالات الفقهية فيما يلي[3]:

ـ إن الدافع الأساس لخروج المسلمين مع رسول الله ﷺ، كان بهدف الاستيلاء على عير قريش، غير أن الله ﷻ أراد لهذه العصبة المؤمنة غنيمة أكبر ونصراً أعظم، فأبعد العير التي كانوا يطلبونها وأبدلها بالنفير الذي لم يكونوا يتوقعونه، وفي هذا دلالة على أن ممتلكات الأعداء المقاتلين تعدُّ بالنسبة للمسلمين أموالاً مباحة، فلهم أن يستولوا عليها، وهو حكم متفق عليه عند الفقهاء بعامة.

ـ إن في مشاورة النبي ﷺ لأصحابه، بعد أن أفلتت منهم العير، دلالتين:

الأولى: التزامه ﷺ بمبدأ التشاور مع أصحابه، وكان يلتزم هذا المبدأ في كل أمر لا نص قرآني فيه، مما له علاقة بالسياسة الشرعية، ومن أجل هذا أجمع المسلمون

---

(١) ابن سعد: جـ٢ ص٢٧، ٢٨. ابن هشام: جـ٣ ص١٣٩ ـ ١٤٢.

(٢) مكي، أحمد: أحد. مقال في دائرة المعارف، بإشراف فؤاد أفرام البستاني، جـ٧ ص١٦٣، ١٦٤.

(٣) البوطي: ص٢٣٧ ـ ٢٤٧.

على أن مبدأ الشورى في كل ما لا يثبت فيه نصٌّ قرآني أو سُنَّة نبوية هو أساس تشريعي، ولكنه لا يُلزم الحاكم، وله أن يستشير في رأيه وتدبيره.

الثانية: خضوع حالات الغزو والمعاهدات بين المسلمين وغيرهم إلى السياسة الشرعية، وهذا مبدأ ثابت لا يجوز إبطاله من أحكام الشريعة الإسلامية. يقول القرطبي في ذلك: «المستشير ينظر في اختلاف الآراء، وينظر أقربها إلى الكتاب والسُّنَّة إن أمكنه، فإذا أرشده الله تعالى إلى ما شاء منها عزم عليه، وأنفذه متوكلاً على الله»[1].

ـ يجوز للقائد أن يستعين في الجهاد وغيره بالعيون والمراقبين يبثُّهم بين الأعداء ليكتشف خططهم وأحوالهم ومدى قوتهم، بشرط ألا تنطوي الوسيلة على الإضرار بمصلحة هي أهم من مصلحة الاطلاع على حال العدو.

ـ يدلنا الحوار الذي جرى بين النبي ﷺ وبين الحباب بن المنذر في شأن المكان الذي نزل فيه؛ أن تصرفات النبي محمَّد ﷺ ليست كلها من نوع التشريع، بل هو في أحيان كثيرة يتصرف بوصفه بشراً يُفكِّر ويُدبِّر كما يفكر غيره، ولا شك بأن للمسلمين في هذه الحال أن يناقشوه في ذلك.

ـ تدلُّنا مسألة الأسرى أن للنبي ﷺ أن يجتهد، وإذا صحَّ أن يجتهد؛ صحَّ منه، بناء على ذلك، أن يُخطىء ويُصيب، غير أن الخطأ لا يستمر بل لا بدَّ من أن تنزل آية قرآنية تُصحِّح اجتهاده، فإذا لم تنزل آية فهو دليل على أن اجتهاده قد وقع على ما هو الحق في علم الله[2].

ـ إن في قتل مثيري الفتنة، أمثال كعب بن الأشرف، فائدة فقهية، وهي أن عقوبة الناقض للعهد، والمعاهد الذي يهجو النبي ﷺ ويؤذي المسلمين، هي القتل.

الغزوات والسرايا عقب غزوة بدر

غزوة بني سُلَيْم: استخدم النبي محمَّد ﷺ القوة التي تجمَّعت لديه لفرض احترام الدولة الإسلامية النامية في المدينة، بين القبائل البدوية، سواء الضاربة حولها أو الضاربة على طريق القوافل، وقد ذُعرت من انتصار المسلمين في بدر، وأخذت جموعها تحتشد بهدف انتهاز الفرصة للإغارة على المدينة. ولكن النبي ﷺ نهض لمواجهتها في ضربة استباقية.

---

(١) **الجامع لأحكام القرآن:** جـ٤ ص٢٥٢.

(٢) البيضاوي، القاضي ناصر الدين أبو سعيد عبد الله: **تفسير البيضاوي المسمى أنوار التنزيل وأسرار التأويل**، جـ١ ص٣٩١.

وترتبط ببني سُلَيْم غزوتان، نُفِّذت الأولى بعد أسبوع من معركة بدر، فتوغل رسول الله ﷺ في أراضيهم حتى بلغ الكُدر[1]، وهو ماء لهم، فوجد الحي خلوف[2]، فاستاق النَّعم ولم يلق كيداً[3]. ونُفِّذت الثانية في (ربيع الآخر ٣هـ/آب ٦٢٤م) عندما خرج النبي ﷺ على رأس ثلاثمائة من المسلمين، فبلغ بحران، بين مكة والمدينة، فوجد بني سُلَيْم قد تفرَّقوا، فانصرف عنهم[4].

ولا يبدو بعد ذلك أن بني سُلَيْم أظهروا العداوة للنبيِّ ﷺ.

غزوة السويق[5]: تعدُّ هذه الغزوة، التي جرت في (ذي الحجة ٢هـ/ نيسان ٦٢٤م)، رداً على قدوم أبي سفيان إلى المدينة على رأس مائتي فارس، حيث اجتمع مع سلام بن مشكم، سيد بني النضير، ونسَّق معه لإيقاع الأذى بالمسلمين، ثم هاجم ناحية العُريض[6]، فقتل رجلين وأحرق نخلاً قبل أن يعود إلى مكة، فتعقبه النبي ﷺ في مائتي رجل من المهاجرين والأنصار، ولكنه لم يتمكَّن من إدراكه. وعمد أبو سفيان إلى التخفيف من أثقاله الغذائية حتى يُسرع الخطى، فألقى جرب السويق على الطريق، فجمعها المسلمون وحملوها إلى المدينة، ولهذا سُمِّيت هذه الغزوة بغزوة السويق[7].

والواقع أن أبا سفيان وجد نفسه في ظرف لم يكن يتوقعه، فطريق تجارة قريش مقطوعة، واستقطب النبي محمَّد ﷺ الكثير من قبائل الحجاز، وبخاصة قبيلة جهينة، التي تشغل مساحات واسعة تمتدُّ من ينبع إلى قرب تيماء، واتخذت قبائل أخرى جانب الحياد، وللمرة الأولى، منذ أيام قُصَي، وجدت قريش نفسها وحيدة، فاستشعرت بالخوف، وبخاصة بعد أن فقدت الكثير من زعمائها وكبار أعيانها في معركة بدر، وأضحى أبو سفيان يمسك بمقاليد الأمور في مكة، فقام بغارة السويق.

غزوة ذي أمر: وتجمَّع في هذه الأثناء رجال من ثعلبة في ذي أمر في نجد، بقيادة دعثور بن الحارث المحاربي، يريدون الإغارة على المدينة، فخرج النبي ﷺ إليهم على رأس أربعمائة وخمسين من المسلمين بين راكب وراجل، وعندما علم هؤلاء بخروجه فرُّوا إلى الجبال للاحتماء بها متجنِّبين القتال. وبقي النبي ﷺ في نجد شهر (صفر ٣هـ/ حزيران ٦٢٤م) من دون أن يلقى كيداً عاد بعدها إلى المدينة، وأسلم

---

(١) **الكُدر أو قرقر الكُدر**: بينها وبين المدينة ثمانية برد. الحموي: جـ٤ ص٤٤١.

(٢) خلوف أي: متغيبين.

(٣) ابن هشام: جـ٣ ص١٣٥، ١٣٦.

(٤) المصدر نفسه: ص١٣٧.

(٥) السويق: حنطة وشعير يحمَّص ثم يُطحن باللبن والعسل والسمن.

(٦) **العُريض**: واد بالمدينة من طرف حرة واقم.

(٧) البلاذري: جـ١ ص٣٧٣.

دعثور في هذه الغزوة[1].

كان لهذه الغزوات دلالتان:

الأولى: قدرة القيادة الإسلامية على رصد تحركات الأعداء والوقوف على خططهم واستباقهم بضربة وقائية

الثانية: شكَّلت دورات عسكرية تدريبية وتربوية للصحابة.

سرية زيد بن حارثة إلى القَرَدَة[2]: لضرب قريش عبر تجارتها وتشديد الحصار عليها. فبعد معركة بدر وتهديد المسلمين الطريق التجاري الغربي الذي يمر بمنعرج المدينة، تحوَّل القرشيون إلى طريق العراق البعيد نسبياً عن تهديد أولئك. وكان صفوان بن أُمية أول من فكَّر في سلوك هذا الطريق، ثم الانحراف إلى الشام بعد خيبر لكي يتخلَّص من سيطرة المسلمين على الطريق الغربي. «وكانت قريش قد حَذِرت طريق الشام أن تسلكها، وخافت رسول الله ﷺ وأصحابه، فقال صفوان بن أُمية: إن محمَّداً وأصحابه قد عوَّروا علينا متجرنا، فما ندري كيف نصنع بأصحابه، لا يبرحون الساحل، وأهل الساحل قد وادعهم ودخل عامَّتهم معه، فما ندري أين نسلك، وإن أقمنا نأكل رؤوس أموالنا ونحن في دارنا هذه، ما لنا بها من نفاق[3]، إنما نزلناها على التجارة إلى الشام في الصيف وفي الشتاء إلى أرض الحبشة، قال له الأسود بن عبد المطلب: فنكِّب عن الساحل وخذ طريق العراق. قال صفوان: لست بها عارفاً. قال أبو زمعة[4]: فأنا أدلُّك على أخبر دليل بها، يسلكها وهو مُغمض العين إن شاء الله»[5]. وكان الدليل فرات بن حبَّان العجلي من بني بكر بن وائل.

وأعدَّ صفوان بن أُمية قافلة تجارية فيها فضة وبضائع أخرى كثيرة، قُدِّرت قيمتها بمائة ألف درهم، وخرج معه بعض تجار قريش، منهم حويطب بن عبد العزى، وعبد الله بن أبي ربيعة. ويبدو أن قريشاً أرادت أن تشتري بذلك المال أزواداً تستعين بها على الحصار، وسلكت القافلة طريق ذات عِرق.

وعلم النبي ﷺ بأمر هذه القافلة عن طريق نُعيم بن مسعود الأشجعي، وكان قد

---

(1) ابن هشام: جـ٣ ص١٣٦. ابن سعد: جـ٢ ص٣٤، ٣٥. يجعل ابن سعد تاريخ هذه الغزوة في شهر ربيع الأول على رأس خمسة وعشرين شهراً للهجرة.

(2) **القَرَدة**: ماء بنجد في الرُّقَّة وهي فيما بين الربذة والغُمر ناحية ذات عرق. البلاذري: جـ١ ص٤٨٠. الحموي: جـ٤ ص٣٢٢.

(3) أي: ما لنا من سوق.نفق فيه متاجرنا.

(4) هو: الأسود بن عبد المطلب.

(5) الواقدي: جـ١ ص١٩٧، ١٩٨.

أسلم وكتم إسلامه عن قومه، فندب زيد بن حارثة وأرسله على رأس مائة فارس لاعتراض القافلة، وذلك في (جمادى الآخرة ٣هـ/ تشرين الأول ٦٢٤م)، فالتقى بها عند ماء يُقال له القَرَدة. ويبدو أن حراس القافلة كانوا من قلَّة العدد ما منعهم من الدخول في اشتباك مسلح مع المسلمين، وفرُّوا تاركين عيرهم وما تحمل، فأصابها المسلمون، وأسروا رجلين كان الدليل أحدهما، وعادوا إلى المدينة وقد اعتنق الدليل الإسلام[1].

آثار سرية القَرَدة

- غيَّرت سرية القَرَدة مفهومنا التقليدي لمغازي رسول الله ﷺ وسراياه، من واقع إحكام سيطرة المسلمين على طريق تجارة قريش مع الشام عبر العراق.
- انتهج رسول الله ﷺ في تعامله مع قريش خطة محكمة ومرسومة آتت أُكلها في المدى الزمني القصير بإيقاف تجارتها.
- هدفت سرية القَرَدة أيضاً إلى استقطاب قبائل المنطقة الساحلية وإخراجها من التحالف مع قريش، ما أدَّى إلى حصرها في بلدها على النَّحو الذي وصفه صفوان بن أُمية، ونذكر في هذا المقام استقطاب قبيلة جهينة التي تشغل مساحات واسعة نسبياً تمتدُّ من ينبع إلى قرب تيماء، كما ذكرنا.
- شكَّلت سرية القَرَدة مقدمة لمعركة أُحد، فقد رأت قريش نفسها أمام أحد خيارين: إما الاستسلام أو خوض معركة أخرى بهدف تحطيم قوة محمد وفتح طريق التجارة، ولما كان الخيار الأول غير وارد في حساب القرشيين أضحى الاصطدام أمراً لا مفر منه.

---

(١) الواقدي: جـ١ ص١٩٨. ابن هشام: جـ٣ ص١٣٨.

الفصل السابع

غزوة أُحد[1]

ظروف قيام غزوة أُحد

أدرك النبي محمَّد ﷺ، بعد انتصاره في بدر، أنه كُتب عليه القتال الشامل ضد القرشيين؛ لأن ازدهار أوضاع هؤلاء متعلق بمكانتهم، فكان عليهم أن يستعيدوا ما فقدوه في بدر حتى يحافظوا على وضعهم، ويقضوا على سيطرة النبي محمَّد ﷺ على طريق الشمال التجاري، لذا لم يكن يُنتظر منهم سوى زيادة حدَّة الصراع، وكرَّس النبي ﷺ كل طاقته لتقوية نفسه وإضعاف قوة خصمه، فكانت الغزوات والسرايا تصبُّ في هذا التوجه

لقد صُدم أهالي مكة في بادىء الأمر بأخبار بدر، ثم شعروا بعمق الجراح التي خلَّفتها المعركة، وكانت كثرة الخسائر عاملاً في اضطرابهم، ولكن العامل الأهم هو نوعية القتلى الذين كانوا من الزعماء والقادة والفرسان والأعيان، كما أن قريشاً أدركت أن طريق تجارتها مع بلاد الشام أضحت تحت سيطرة المسلمين، وفي توقُّف تجارتها قضاءٌ عليها[2].

تُجمع روايات المصادر على اعتبار غزوة أُحد نتيجة للهزيمة التي تعرَّضت لها قريش يوم بدر، فقد مشى أشراف قريش، ومَنْ كانت له تجارة في تلك العير من قريش إلى أبي سفيان بن حرب بعد عودته مع العير، فكلَّموه، فقالوا: «يا معشر قريش، إنَّ محمداً قد وتركم وقتل خياركم، فأعينونا بهذا المال على حربه، لعلنا أن ندرك منه ثأراً بمن أُصيب منا». ففعلوا. وقرَّروا استخدام مال تلك القافلة، البالغ قيمتها نحو خمسين ألف دينار، لتجهيز جيش لحربه[3].

لم يُنفق المبلغ المشار إليه كله في التجهيزات العسكرية، بل استُعمل بعضه في

---

(١) **أُحد**: جبل صخري يقع على بُعد حوالي أربعة كيلومترات شمالي المدينة، وصفه ياقوت بأنه حجر ليس بذي شناخيب. **معجم البلدان**: جـ١ ص١٠٩.

(٢) الإشارة هنا إلى قول صفوان بن أمية الوارد في الفصل السادس.

(٣) الطبري، محمد بن جرير: **تاريخ الرسل والملوك**، جـ٢ ص٥٠٠.

التحريض والدعاية على قتال النبي محمَّد ﷺ، وقام كل من أبي عزة عمرو بن عبد الله الجمحي، وهبيرة المخزومي، وابن الزِّبعرى بحملة إعلامية ضخمة حققت نتائج كبيرة. فقد أغرى صفوان بن أُمية أبا عزة فأعان قريشاً بلسانه، فسار إلى تهامة يُحرِّض قبائلها ضده، وكذلك فعل مسافع بن عبد مناف بن وهب الجمحي(١).

في الطريق إلى المعركة

استطاع أبو سفيان، الذي تولَّى قيادة الدعوة للحرب، أن يجمع قوة عسكرية بلغ تعدادها ثلاثة آلاف مقاتل من بينهم سبعمائة دارع ومائتي فارس من قريش وحلفائها من قبائل كنانة وأهل تهامة والأحابيش(٢)، وخرج بهم من مكة في طريقه إلى المدينة، واصطحب معه الظعن لإثارة حماس المقاتلين ومنعهم من الفرار، حتى بلغ أُحد وهو أقرب مكان من المدينة، وخيَّم في الوادي الواسع بعينين مقابل المدينة. وأعدَّ خطة عسكرية محكمة للقضاء على قوة المسلمين النامية، مستعملاً كل الأساليب الممكنة، فكان على اتصال سري مع خصوم النبي ﷺ في المدينة، كما لجأ إلى الشعر للتحريض على القتال(٣).

وتلقَّى النبي محمَّد ﷺ رسالة من عمه العباس في مكة يُعلمه بخروج قريش، وهي رسالة مهمة تتضمن معلومات مؤكدة عن تحرك قوات المشركين نحو المدينة، وحجم الجيش، وقدراته القتالية، ما يساعده على وضع خطة تواجه هذا الزحف القرشي، ويبدو أنه لم يكتفِ بالمعلومات التي تلقاها من عمه، فأرسل الحباب بن المنذر بن الجموح إلى مكة يستطلع أخبار قريش، فاستطاع أن يقف على معلومات مفصلة عن عدد أفراد الجيش وتجهيزاته، مما يتطابق مع المعلومات التي أرسلها العباس، كما أرسل أنساً ومؤنساً، ابني فضالة، يتقصيان أخبار قريش، فألفياها قد قاربت المدينة(٤)، فعقد على الفور اجتماعاً مع أصحابه للتشاور، فانقسم المجتمعون إلى فريقين:

الأول: رأى الخروج من المدينة للقاء العدو، وهم الشباب المتحمس للقتال، ومن لم يشهد بدراً، وبعض الصحابة، أمثال حمزة بن عبد المطلب، ومالك بن

---

(١) البلاذري: جـ١ ص٣٨٢. ابن هشام: جـ٣ ص١٤٨.

(٢) يُطلق مصطلح الأحابيش إما على فئة من الرقيق الأسود الحبشي المصدر الذي استقرَّ في مكة وجوارها بعد هزيمة أبرهة، وإما على قبائل عربية اجتمعت عند جبل حبشي في أسفل مكة، وتعاهدوا على نصرة قريش وحماية الحرم.

(٣) الطبري: جـ٢ ص٥٠١، ٥٠٢.

(٤) البلاذري: جـ١ ص٣٨٣، ٣٨٤.

سنان، وحجتهم في ذلك أنهم انتصروا يوم بدر، وكانت نسبة تفوق المشركين أكثر مما هي الآن، وكي لا يُتَّهموا بالجبن، وبأن المشركين اقتحموا عليهم مدينتهم[١]، وقد شكّلوا الأكثرية العددية.

الثاني: آثر البقاء في المدينة للاستفادة من تحصيناتها ومناعتها ومن مساعدة النساء والأطفال فيها، حيث باستطاعتهم رمي العدو بالحجارة ومضايقته، وتشكّل هذا الفريق من كبار الصحابة ممن عركتهم التجربة، وكان هذا هو رأي النبي ﷺ، ورأي عبد الله بن أُبيٍّ بن سلول، كبير المنافقين، وأحد زعماء المدينة المشهورين[٢].

ونزل النبي ﷺ على رأي الأكثرية، فلبس لأمته (درعه) استعداداً للقتال، وحثَّ المسلمين على الصبر والثبات. وكان الفريق الذي رأى الخروج قد شعر بأنه استكره النبي ﷺ على أمر لا يريده، فعرض أفراده العودة عن رأيهم فأبى، وقال: (**لا ينبغي لنبيٍّ أن يلبس لأمته فيضعها، حتى يُقاتل**). وفي رواية: (**أن يحكم الله بينه وبين أعدائه**)[٣].

وخرج النبي ﷺ على رأس ألف مقاتل لملاقاة قريش، وما إن ابتعد قليلاً وبلغ الشوط بين المدينة وأُحد؛ انخذل عبد الله بن أُبيٍّ بن سلول بثلاثمائة رجل، وقال في تبرير انخذالهم: «أطاعهم وعصاني، ما ندري علام نقتل أنفسنا هاهنا أيها الناس»[٤]. وعبثاً حاول عبد الله بن عمرو بن حرام، أخو بني سلمة، أن يثنيه ورجاله عن انخذالهم، فأبوا إلا الانصراف[٥].

ويبدو أن النبي ﷺ كان يتوقع مثل هذا السلوك من قِبل المنافقين، لذلك أخفى تأثره ورفض الاستعانة بحلفاء عبد الله بن أُبيٍّ بن سلول من اليهود، قائلاً: (**لا حاجة لنا فيهم**)، وفي رواية: (**لا تستنصروا بأهل الشرك على أهل الشرك**)[٦]. ومضى مع من بقي معه من أصحابه، وعددهم سبعمائة حتى نزل الشِّعب من أُحد في عدوة الوادي إلى الجبل.

ويبدو أن عبد الله بن أُبيّ بن سلول أراد أن يتصرف باستقلالية ويقف على الحياد في الصراع الدائر، لعله يُقوِّي مكانته فيما بعد عند المعسكرين؛ علماً بأنه تصرَّف مثل ذلك في حرب بُعاث بين الأوس والخزرج.

---

(١) عرموش، أحمد راتب: **قيادة الرسول ﷺ السياسة والعسكرية**، ص٥٦.
(٢) ابن هشام: جـ٣ ص١٤٨، ١٤٩.
(٣) الطبري: جـ٢ ص٥٠٣. ابن سعد: جـ٢ ص٣٨.
(٤) ابن هشام: جـ٣ ص١٤٩.
(٥) البلاذري: جـ١ ص٣٨٥.
(٦) ابن سعد: جـ٢ ص٣٩. ابن هشام: جـ٣ ص١٤٩.

التعبئة العسكرية

تعبَّأت قريش للقتال بقيادة أبي سفيان، فجعل خالد بن الوليد على الميمنة، وعِكرمة بن أبي جهل على الميسرة، وصفوان بن أمية على الخيل، وعبد الله بن ربيعة على الرماة، ودفع اللواء إلى طلحة بن أبي طلحة، من بني عبد الدار. ووضع قلب الجيش في مواجهة المسلمين(١).

وتعبَّأ المسلمون من جهتهم للقتال بقيادة النبيِّ محمَّد ﷺ، فجعل أُحد خلف ظهره ليحتمي به واستقبل المدينة، وجعل عينين، وهو جبل بقناة، عن يساره، ووضع عليه خمسين رامياً بقيادة عبد الله بن جبير، وقال له: (**انضح الخيل عنا بالنَّبل، لا يأتونا من خلفنا، إن كانت لنا أو علينا، فاثبت مكانك لا نؤتين من قِبلك**)، ودفع لواء الجيش إلى مصعب بن عمير، ولواء الأوس إلى أُسيد بن حضير، ولواء الخزرج إلى الحباب بن المنذر، ولواء المهاجرين إلى علي بن أبي طالب، وسوَّى الصفوف ميمنة وميسرة، وأمر رجاله أن لا يبدأوا القتال حتى يأمرهم بذلك(٢).

أحداث المعركة

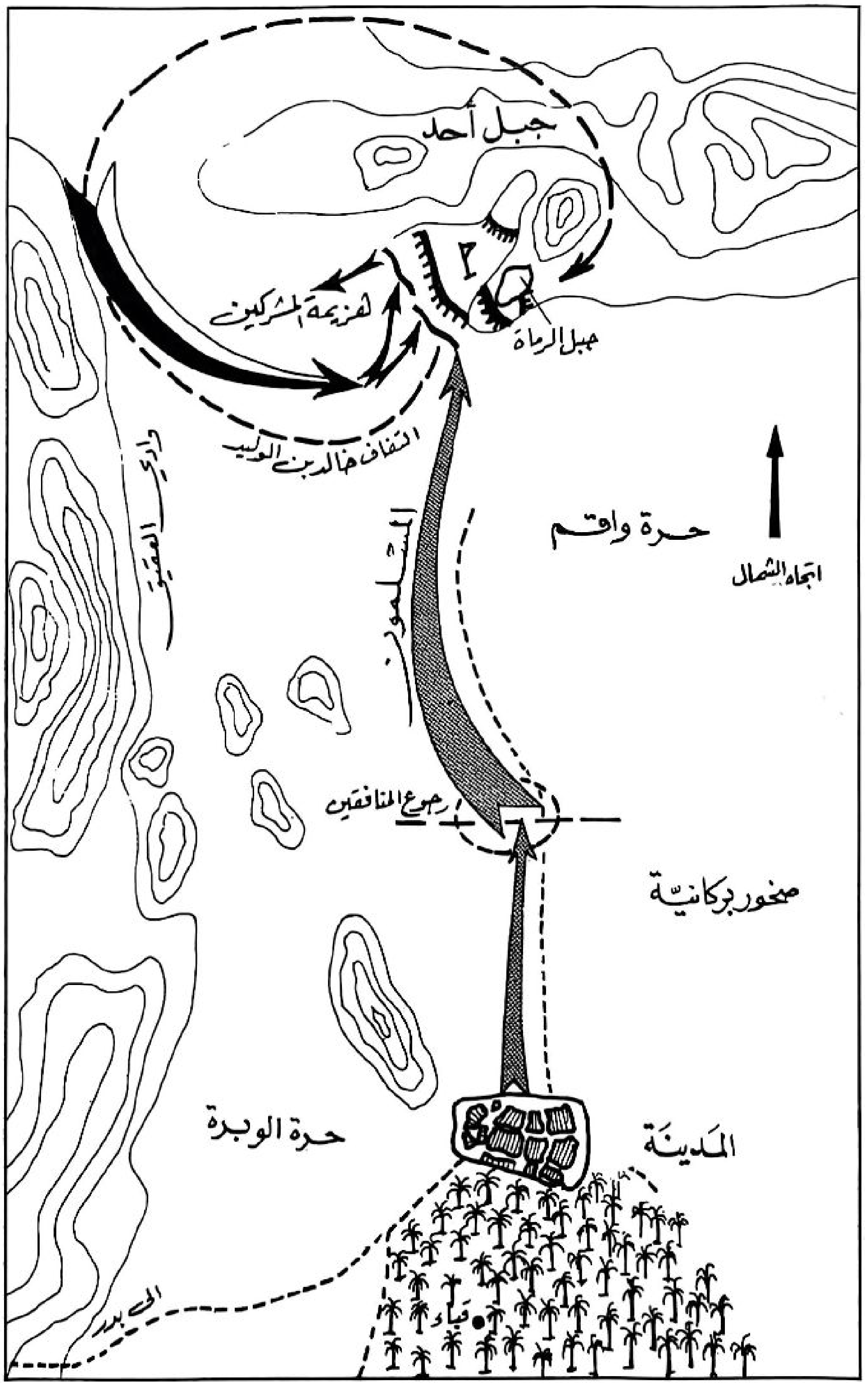
التقى الجمعان يوم السبت (١٥ شوال ٣هـ/ ٣١ آذار ٦٢٥م) على أرجح الروايات، فقامت هند بنت عتبة، زوج أبي سفيان، في النسوة اللاتي كن معها، فأخذن الدفوف يضربن ويُحرِّضن الرجال، فكانت هند تحرِّض الرجال بقولها تارة: «ويهاً بني عبد الدار، ويهاً حماة الأدبار، ضرباً بكل بتَّار»، وطوراً بقولها:

إن تقبلوا نعانق ونفرش النمارق
أو تدبروا نفارق فراق غير وامق(٣)

واقترب المتقاتلون بعضهم من بعض، ورفع المسلمون شعار «أمت أمت»، ليعرف بعضهم بعضاً. وحمي وطيس المعركة، وتساقط القتلى من الطرفين، وأخذ أحد فرسان المسلمين، وهو أبو دجانة، سيف رسول الله ﷺ وعصب رأسه بعصابة حمراء واندفع إلى قلب المعركة يعمل القتل في المشركين، وكذلك فعل حمزة بن عبد المطلب عم النبي ﷺ(٤). وكان في جيش المشركين عبد حبشي اسمه وحشي، ويُكنى أبو دسمة، يجيد رمي السهام، قد حصل على وعد من سيده جبير بن مطعم بالعتق من الرق إن هو قتل حمزة، فما زال ينتهز الفرصة حتى تمكَّن من تصويب حربته إليه، فأصابت منه مقتلاً(٥).

---

(١) ابن سعد: جـ٢ ص٤٠.
(٢) المصدر نفسه: جـ٢ ص٣٩، ٤٠.
(٣) ابن هشام: جـ٣ ص١٥١.
(٤) المصدر نفسه: جـ٣ ص١٥٠.
(٥) الطبري: جـ٢ ص٥٠٢، ٥١٦، ٥١٧.



مخطط غزوة أُحد [عن قيادة الرسول ﷺ السياسية والعسكرية]

ورغم عدم التكافؤ بين الجيشين، فقد لاح النصر للمسلمين، وتصف روايات المصادر انتشار الذعر في صفوف قريش وفرار رجالها واضطراب ظعنها، حتى كان من ذلك أن أقبل المسلمون على الغنيمة، فلاحظ ذلك الرماة على الجبل، فترك معظمهم مواقعهم ليشاركوا في مطاردة العدو المنهزم وجمع الغنائم مخالفين أمر رسول الله ﷺ، وناداهم قائدهم فلم يلتفتوا إليه، ولم يثبت معه إلا بعضهم من الذين يُقدِّرون معنى الطاعة والانضباط وأهمية التقيد بالأوامر[1].

وأمر عبد الله بن جبير مَن بقي معه من الرماة، وعددهم عشرة فقط، بالانتشار ليمنعوا أي محاولة التفاف من جانب العدو، فانكشف بذلك دفاع المسلمين، ولاحظ خالد بن الوليد الذي كان يراقب سير المعركة وينتظر الفرصة للتدخل؛ ضعف الحامية على الجبل، فقام من فوره بحركة التفاف من وراء الجبل، وكانت الشمس تضرب عيون الرماة، ففاجأهم وقتلهم ثم انقض بخيالته على المسلمين من خلفهم يعمل فيهم تقتيلاً[2].

وصاح صائح، في غمرة هذا الهول المحيط بالمسلمين: «إنَّ محمَّداً قد قُتل»[3]، فكانت الطامة التي هدَّت ما بقي من قواهم، فانقلبوا على أعقابهم مهزومين هزيمة منكرة لا يحاولون قتالاً مما أصابهم من اليأس والكلال.

ولما رأى المشركون ما فعل خالد بن الوليد، عادوا ثانية إلى ساحة المعركة وأوقعوا بالمسلمين بين فكي الكماشة. وانسحب في غمرة الاضطراب بعض المسلمين إلى المدينة ليطلب الأمان من أبي سفيان عبر حليفه عبد الله بن أُبيّ بن سلول، وتشتَّت البعض الآخر في أطراف ساحة القتال، وثبت الصابرون، كان من بينهم أنس بن النضر، فوقف بين بعض المسلمين وقد ألقوا بأيديهم بعد أن سمعوا بمقتل رسول الله ﷺ، فقال: «ما يجلسكم؟ قالوا: قُتل رسول الله ﷺ، قال: فماذا تصنعون بالحياة بعده؟ قوموا فموتوا على ما مات عليه رسول الله ﷺ، ثم استقبل القوم فقاتل حتى قُتل»[4].

---

(١) البلاذري: جـ١ ص٣٨٨، ٣٨٩. ابن هشام: جـ٣ ص١٥٥.

(٢) ابن سعد: جـ٢ ص٤١، ٤٢.

(٣) ادعى ابن قميئة، أو قمئة، الليثي الأدرمي، من بني تيم بن غالب، أنه قتل رسول الله ﷺ، وهو صاحب الصيحة، والحقيقة أنه قتل مصعب بن عمير الذي كان يحمي رسول الله ﷺ، ويدافع عنه وهو يظن أنه رسول الله ﷺ، فرجع إلى قريش فقال: قتلت محمداً.
انظر: ابن سعد: ص٤٢ ـ ٤٧. ابن هشام: جـ٣ ص١٥٣ ـ ١٥٥. ويذكر البلاذري أنه علاه بالسيف فلم يقطع: أنساب الأشراف، جـ١ ص٣٩٠.

(٤) ابن هشام: جـ٣ ص١٥٧، ١٥٨.

وأقبل رسول الله ﷺ نحو المسلمين وهو يصيح بهم: **(إليَّ عباد الله، إليَّ عباد الله)**[1]، وكان أول من عرفه تحت المغفر كعب بن مالك، فصاح بأعلى صوته: «هذا رسول الله، فأشار إليَّ أن اسكت»، واجتمع إليه المسلمون. والواقع أن النبي ﷺ ظل محافظاً على رباطة جأشه رغم استشهاد خيرة رجاله، وقد رأى ما يعانيه أتباعه من التشتُّت، فحدَّد لهم نقطة يجتمعون فيها في الشِّعب من الجبل، فتوجه إليه مع ثلاثين من أتباعه، منهم: أبو بكر وعمر وطلحة والزبير، فأعاد تنظيم صفوفهم، وراح يقاتل المشركين قتال المستميت، فجرح جروحاً عدة في وجهه، ودخلت حلقات المغفر فيه فتفجَّر الدم منه، فانتزعها أبو عبيدة بن الجراح، ووقف أبو دجانة يرد السهام بظهره، كما وقع في حفرة من الحفر التي أعدَّتها قريش للمسلمين بمعاونة أبي عامر الأوسي، لولا أن أخذه علي بن أبي طالب بيده ورفعه طلحة بن عبيد الله، فاستوى قائماً[2].

وأدرك المشركون، بعد تراجع رسول الله ﷺ إلى الجبل للاحتماء به، أنه لم يعد بإمكانهم القضاء على المسلمين، وكان التعب قد أنهكهم، وكثر الجرحى في صفوفهم، فقرَّروا الانسحاب مكتفين بهذا القدر من النصر، واكتفى أبو سفيان حين أشرف على الجبل ومعه الصنم هُبل، بأن صرخ بأعلى صوته وهو يخاطبه: «أنعمت فعال، إن الحرب سجال، يوم بيوم، أعل هُبل». فقال رسول الله ﷺ لعمر: **(قم فأجبه، وقل: الله أعلى وأجلّ، لا سواء، قتلانا في الجنَّة، وقتلاكم في النار)**. ثم نادى أبو سفيان: «إنه كانت في قتلاكم مثل، والله ما رضيت وما سخطت، وما نهيت وما أمرت». وطلب من عمر أن يقترب، فسأله: هل قتلوا محمداً؟ فقال عمر: «اللهمَّ لا، وإنه ليسمع كلامك الآن». فانصرف وهو ينادي: «موعدكم بدر للعام المقبل». فقال الرسول ﷺ لعمر، قل: **(نعم، بيننا وبينكم موعد)**[3].

وانصرفت قريش، ولكن النبي ﷺ، أمام هول الكارثة، رأى ضرورة القيام بعمل فوري لإثبات حضوره وأنه لم يُهزم. فعندما أيقن بأن قريشاً لم تتوجَّه إلى المدينة؛ أمر بأن يؤذن مؤذنه في الناس بمطاردة العدو، وبأن لا يخرج معه في ذلك اليوم إلا من شهد المعركة بالأمس، ويدل ذلك على أن بعض المسلمين لم يشتركوا في القتال. فسار بهم إلى حمراء الأسد على بُعد ثمانية أميال من المدينة، وعسكر فيها بعض الوقت، يريد بذلك قطع طريق العودة على قريش من جهة، وإرهاب رجال

---

(١) الطبري: جـ٢ ص٥١٨ ـ ٥٢٠.

(٢) ابن هشام: جـ٣ ص١٥٦، ١٥٧. البلاذري: جـ١ ص٣٩٢.

(٣) ابن هشام: جـ٣ ص١٧٠.

القبائل المحيطين بالمدينة والمتربصين به السوء من جهة أخرى. وتدل قرائن الأحداث بعد ذلك على أن هذا التصرف ولَّد رد فعل سلبياً من جانب القرشيين؛ لأنه عندما رأوا المسلمين في المواقع الجديدة؛ فضَّلوا العودة إلى مكة على الالتحام بهم مرة ثانية[1].

وهكذا عاد النبي ﷺ إلى المدينة بجيش استعاد بعض معنوياته، ولكنه بقي مثخناً بالجراح.

صور من المعركة

بعد هذا الملخَّص لأحداث معركة أُحد الذي لا يُصوِّر كل جوانبها ولا يُسجِّل كل ما وقع فيها مما هو موضع المثل والعبر، ومن ثَمَّ نذكر بعض الوقائع الموحية التي تجاور فيها النصر والهزيمة لا تُفرِّق بينهما إلا لحظة من الزمان، والنماذج الفريدة في تاريخ الإيمان، وفي تاريخ النفاق والهزيمة، وهي مجموعة تكشف عن حال من عدم التناسق في الصف حينذاك، كما تكشف عن حال ضبابية في تصورات بعض المسلمين، وقد أُنشئت وفق سنة الله وقدره، فنقول:

ـ كان الأصيرم، واسمه عمرو بن ثابت بن وقش من بني عبد الأشهل، قد عُرض عليه الإسلام فلم يُسلم، وكان يأبى الإسلام على قومه، فجاء ذات يوم ورسول الله ﷺ وأصحابه بأُحد، فسأل عن سعد بن معاذ وبني أخيه وقومه، فقيل له: إنهم بأُحد، فبدا له الإسلام فأسلم، ثم أخذ سيفه ورمحه وانطلق إلى أُحد وقاتل مع المسلمين، وقال لإخوانه وهو يقاتل: «... إن مت فأموالي إلى محمَّد يضعها حيث يشاء». وما لبث أن قُتل، فذكروه لرسول الله ﷺ، فقال: **(هو من أهل الجنة)**، وما صلَّى من صلاة، فقال النبي ﷺ في هذه الحال: **(عمل قليلاً وأُجِرَ كثيراً)**[2].

ـ عندما خرج النبي ﷺ إلى أُحد ليقاتل المشركين، جمع مخيريق قومه من اليهود وقال لهم: «يا معشر يهود! والله لقد علمتم أن نصر محمد عليكم لحقٌّ. قالوا: إن اليوم يوم سبت. قال: لا سبت لكم». فأخذ سيفه وعدته وقال: «إن أصبت فمالي لمحمَّد يصنع فيه ما يشاء». ثم غدا إلى رسول الله ﷺ، فقاتل معه حتى قُتل، فقال

---

(١) ابن سعد: جـ٢ ص٤٨، ٤٩.

(٢) ابن هشام: جـ٣ ص١٦٩. وقد ورد قول الرسول ﷺ في حديث عن البراء رواه البخاري في صحيحه «أتى النبي رجلٌ مقنَّع بالحديد، فقال: يا رسول الله! أقاتل وأُسلم، قال: **(أسلم ثم قاتل)**. فأسلم ثم قاتل فقتل، فقال رسول الله ﷺ: **(عمل قليلاً وأجر كثيراً)**». رقم الحديث (٢٨٠٨)، كتاب الجهاد والسير، باب عمل صالح قبل القتال، ص٥١٨.

رسول الله ﷺ: (مخيريق خير يهود)[1]. وقد اختُلف في إسلامه[2]، وقد جعل رسول الله ﷺ ماله أوقافاً، وهو أول حبْس حُبس في الإسلام.

ـ كان عمرو بن قُميئة من المشركين الذين وصلوا إلى رسول الله ﷺ، حيث أُفرد عند اضطراب المعركة عقب تخلي الرماة عن أماكنهم وإحاطة المشركين بالمسلمين والصيحة بأن محمَّداً قُتل وما فعلته في صفوف المسلمين وعزائمهم، ففي هذه الغمرة التي يصير فيها الحليم حيراناً؛ كانت أُم عمارة، نسيبة بنت كعب المازنية، تقاتل عن رسول الله ﷺ قتالاً شديداً، وقد ضربت عمرو بن قميئة بسيفها ضربات عدة، ولكن وقَتْه درعان كانتا عليه، وضربها هو بالسيف فجرحها جرحاً شديداً على عاتقها، علماً بأنها جُرحت ثلاثة عشر جرحاً في المعركة[3].

ـ كان أبو دجانة يُترِّس بظهره عن رسول الله ﷺ كما ذكرنا، والنبل تقع عليه وهو لا يتحرك ولا يكشف عنه[4].

ـ كان طلحة بن عبيد الله يثوب سريعاً إلى رسول الله ﷺ، ويقف دونه وحده، ووصل في هذه الأثناء كل من أبي بكر وأبي عبيدة، فقال ﷺ: **(دونكم أخاكم، فقد أوجب)**. وقد بلغ العياء برسول الله أنه وهو يصعد الجبل والمشركون يتبعونه؛ أراد أن يعلو صخرة فلم يستطع لما به، فجلس طلحة تحته حتى صعدها، فقال رسول الله ﷺ: **(أوجب طلحة)** حين صنع برسول الله ما صنع»[5].

ـ شدَّ حنظلة الأنصاري، الملقب بحنظلة الغسيل، على أبي سفيان، فلما تمكَّن منه حمل على حنظلة شداد بن الأسود فقتله، وكان جنباً، فإنه لما سمع صيحة الحرب، وهو مع امرأته قام من فوره إلى الجهاد، فأخبر رسول الله ﷺ أصحابه أن الملائكة تُغسِّله، ثم قال: **(سلوا أهله ما شأنه؟)** فسألوا امرأته، فأخبرتهم الخبر[6].

ـ قال عبد الله بن جحش في ذلك اليوم: «اللهمَّ إني أقسم عليك أن ألقى العدوَّ غداً فيقتلوني ثم يبقروا بطني ويجدعوا أنفي وأذني، ثم تسألني فيم ذلك؟ فأقول:

---

(١) ابن هشام: جـ٣ ص١٦٨. الواقدي: جـ١ ص٢٦٣.

(٢) لقد حقق عبد الله الشقاري في هذه المسألة في كتابه **اليهود في السُّنَّة المطهرة**، وذهب إلى أن مخيريق قد أسلم، ودفعه ذلك إلى القتال مع المسلمين. جـ١ ص٣٠٦. وانظر أيضاً: كتاب **تجريد أسماء الصحابة** للذهبي، جـ٣ ص٧٠. **والإصابة في تمييز الصحابة**، لابن حجر العسقلاني، جـ٣ ص٣٩٣.

(٣) ابن هشام: جـ٣ ص١٥٧. الواقدي: جـ١ ص٢٦٩، ٢٧٠.

(٤) ابن هشام: المصدر نفسه. الطبري: جـ٢ ص٥١٦.

(٥) ابن هشام: المصدر نفسه، ص١٦٧. الطبري: جـ٢ ص٥٢٢.

(٦) ابن هشام: جـ٣ ص١٥٤.

فيك وفي رسولك»[1].

- كان عمرو بن الجموح أعرج، شديد العرج، وكان له أربعة بنين شباب يغزون مع رسول الله ﷺ إذا غزا، فلما توجَّه إلى أُحد أراد أن يتوجَّه معه، فقال له بنوه: «إن الله قد جعل لك رخصة، فلو قعدت ونحن نكفيك، وقد وضع الله عنك الجهاد». فأتى عمرو رسول الله ﷺ، فقال: «يا رسول الله! إن بنيَّ هؤلاء يمنعونني أن أخرج معك، والله إني لأرجو أن أستشهد فأطأ بعرجتي هذه الجنة». فقال له رسول الله ﷺ: (**أما أنت، فقد وضع الله عنك الجهاد**). وقال لبنيه: (**وما عليكم أن تَدَعوه لعل الله ﷻ أن يرزقه الشهادة**). فخرج مع رسول الله ﷺ، فقُتل يوم أُحد شهيداً[2].

- نظر حذيفة بن اليمان إلى أبيه في خضمِّ المعركة، والمسلمون يريدون قتله لا يعرفونه، وهم يظنونه من المشركين. فقال حذيفة: «أي عباد الله أبي»، فلم يفهموا قوله من شدة الالتحام حتى قتلوه، فقال: «يغفر الله لكم، وهو أرحم الراحمين»، فأراد النبي ﷺ أن يؤدي ديته، فقال حذيفة: «قد تصدَّقت بديته على المسلمين». فزاد ذلك على حذيفة خيراً عند رسول الله[3].

- قال وحشي، غلام جبير بن مطعم، يصف مصرع حمزة في هذه الغزوة: «قال لي جبير: إن قتلت حمزة عم محمَّد فأنت عتيق. قال: فخرجت مع الناس، وكنت رجلاً حبشياً أقذف بالحربة قذف الحبشة، قلَّما أُخطىء بها شيئاً. فلما التقى الناس خرجت أنظر حمزة وأتبصره حتى رأيته، كأنه الجمل الأورق يهدُّ الناس بسيفه هذا ما يقوم له شيء، فوالله إني لأتهيأ له أُريده، وأستتر منه بشجرة أو بحجر ليدنو مني؛ إذ تقدمني إليه سباع بن عبد العزى، فلما رآه حمزة ضربه ضربة كأنما اختطفت رأسه، فهززت حربتي حتى إذا رضيت منها دفعتها عليه فوقعت في ثُنَّته (أحشائه) حتى خرجت من بين رجليه، وذهب لينوء نحوي فغلب، وتركته وإياها حتى مات، ثم أتيته فأخذت حربتي، ورجعت إلى المعسكر، فقعدت فيه، إذ لم تكن لي بغيره حاجة، إنما قتلت لأُعتق»[4].

- تأثَّر النبي ﷺ، عندما وقف بعد المعركة على جثمان حمزة، تأثراً شديداً،

---

(١) ابن سيد الناس: **عيون الأثر في فنون المغازي والشمائل والسير**، دار المعرفة، بيروت، جـ٣ ص٢١٢.

(٢) ابن هشام: جـ٣ ص١٦٩. ابن سيد الناس: جـ٣ ص٢١٨.

(٣) ابن هشام: جـ٣ ص١٦٧، ١٦٨.

(٤) ابن هشام: جـ٣ ص١٥٢، ١٥٣. البلاذري: جـ١ ص٣٩٣. الطبري: جـ٢ ص٥١٦، ٥١٧. **صحيح البخاري**: كتاب المغازي، باب قتل حمزة ﷺ، رقم الحديث (٤٠٧٢)، ص٧٣٨.

وقال: (لن أُصاب بمثلك أبداً، ما وقفت قط موقفاً أغيظ إليَّ من هذا)[1].

ـ أمر رسول الله ﷺ أن يُدفن شهداء أُحد في مكان مصارعهم، ولا يُنقلوا إلى مقابر المسلمين في المدينة، وكان بعض الصحابة قد نقلوا قتلاهم، فنادى منادي رسول الله ﷺ بردِّهم إلى مصارعهم فرُدُّوا، ووقف يدفن الرجلين والثلاثة في اللَّحد الواحد، وكان يسأل أيهم أكثر أخذاً في القرآن، فإذا أشاروا إلى رجل قدَّمه في اللحد[2].

غزوة أُحد في القرآن الكريم[3]

ـ إن وراء غزوة أُحد حقائق مُرَّة سكتت عنها المصادر وأفصح عنها القرآن الكريم أتمَّ إفصاح في مجموع آياته الستين الواردة في سورة آل عمران.

ـ تُعدُّ معركة أُحد معركة الجدل والمناظرة، والبيان والتنوير، والتوجيه والتحذير، ولم تكن معركة عسكرية في الميدان فقط، فقد كانت أيضاً معركة في ميدان النفس البشرية ومشاعرها وأطماعها وشهواتها ودوافعها.

ـ كان النصر أولاً، وكانت الهزيمة ثانياً، وكان الانتصار الكبير بعد النصر والهزيمة، وهو انتصار الرؤية المستنيرة للحقائق التي جلاها القرآن، وتمحيص النفوس، وتمييز الصفوف، وانطلاق المسلمين بعد ذلك وقد تحرَّروا من كثير من ضبابية التصور وتأرجح المشاعر، وذلك بانخذال المنافقين، ووضوح سمات الصدق في القول والفعل، وفي الشعور والسلوك. ويستوقفنا في هذا المقام انخذال عبد الله بن أُبيٍّ بن سلول مع أتباعه، وكذلك حركة الضعف والفشل التي راودت قلوب طائفتين من المسلمين بعد تلك الحركة الخائنة ﴿إِذْ هَمَّت طَّآئِفَتَانِ مِنكُمْ أَن تَفْشَلَا وَٱللَّهُ وَلِيُّهُمَا وَعَلَى ٱللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ ٱلْمُؤْمِنُونَ﴾ [آل عمران/١٢٢]. قال عمرو: سمعت جابر بن عبد الله يقول: «فينا نزلت ﴿إِذْ هَمَّت طَّآئِفَتَانِ مِنكُمْ أَن تَفْشَلَا﴾، قال: نحن الطائفتان، بنو حارثة وبنو سلمة، وما أحب أنها لم تنزل، والله يقول: ﴿وَٱللَّهُ وَلِيُّهُمَا﴾»[4]. وقد أثَّرت فيهما حركة النفاق قبل أن تبدأ المعركة، لولا أن أدركتهما ولاية الله وتثبيته.

ـ إن ما يُلفت النظر هو الازدواج بين استعراض مشاهد المعركة ووقائعها، والتوجهات المباشرة على هذه المشاهد والوقائع، وبين التوجهات المتعلقة بتصفية النفوس من ضبابية التصور وتحريرها من الشهوات وظلمة الخطيئة.

---

(١) ابن هشام: جـ٣ ص١٧١.
(٢) ابن سعد: جـ٢ ص٤٣، ٤٤.
(٣) انظر: في ظلال القرآن: جـ٤ ص٤٦ ـ ١٦٩.
(٤) صحيح البخاري، كتاب المغازي، باب ﴿إِذْ هَمَّت طَّآئِفَتَانِ﴾، رقم الحديث (٤٠٥١)، ص٧٣٥.

ـ يُذكِّر القرآن المسلمين بمعركة بدر التي انتهت بالنصر لتكون أمام معركة أحد مجالاً للمقارنة وتأمُّل الأسباب والنتائج، والوقوف على مواطن الضعف ومواطن القوة، وأسباب النصر وأسباب الهزيمة. لقد تخلَّلت النصر في بدر رائحة المعجزة، فقد تمَّ بغير أداة مادية مألوفة، ولم تكن كفتا المسلمين والمشركين متوازنتين أو قريبتين من التوازن، فيذكِّر الله المسلمين بذلك ويرد النصر إليه ﷻ. أما الأسباب والوسائل، إنما هي أداة تحركها المشيئة الإلٰهية ﴿وَلَقَدْ نَصَرَكُمُ ٱللَّهُ بِبَدْرٍ وَأَنتُمْ أَذِلَّةٌ فَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ۞ إِذْ تَقُولُ لِلْمُؤْمِنِينَ أَلَن يَكْفِيَكُمْ أَن يُمِدَّكُمْ رَبُّكُم بِثَلَٰثَةِ ءَالَٰفٍ مِّنَ ٱلْمَلَٰٓئِكَةِ مُنزَلِينَ ۞ بَلَىٰٓ إِن تَصْبِرُوا۟ وَتَتَّقُوا۟ وَيَأْتُوكُم مِّن فَوْرِهِمْ هَٰذَا يُمْدِدْكُمْ رَبُّكُم بِخَمْسَةِ ءَالَٰفٍ مِّنَ ٱلْمَلَٰٓئِكَةِ مُسَوِّمِينَ ۞ وَمَا جَعَلَهُ ٱللَّهُ إِلَّا بُشْرَىٰ لَكُمْ وَلِتَطْمَئِنَّ قُلُوبُكُم بِهِۦ ۗ وَمَا ٱلنَّصْرُ إِلَّا مِنْ عِندِ ٱللَّهِ ٱلْعَزِيزِ ٱلْحَكِيمِ﴾ [آل عمران/ ١٢٣ ـ ١٢٦].

ـ يشير القرآن إلى السُّنَّة الجارية في المكذبين، ليقول للمسلمين إن انتصار المشركين في هذه المعركة ليس هو السنَّة الثابتة، إنما هو حادث عابر وراءه حكمة خاصة، ثم يدعوهم إلى الصبر، فإن يكن أصابتهم جراح، فقد أصاب المشركين مثلها، وإنما هنالك حكمة وراء ما وقع هي تمييز الصفوف، وتمحيص القلوب، واتخاذ الشهداء الذين يموتون وهم يدافعون عن عقيدتهم، ووقْف المسلمين أمام الموت وجهاً لوجه، ثم يربط الماضي بالحاضر ويشير من خلال ذلك إلى المستقبل، فهو يردُّ المسلمين إلى سنن الله في الأرض، فالنواميس التي تحكم الحياة الجارية لا تتخلَّف، والأُمور لا تجري جزافاً، فإذا هم درسوها وأدركوا مغازيها تكشفت لهم الحكمة من وراء الأحداث والسنن التي يشير إليها، مثل: عاقبة المكذبين على مدار التاريخ، مداولة الأيام بين الناس، الابتلاء لتمحيص السرائر، امتحان قوة الصبر على الشدائد، استحقاق النصر للصابرين، المحق للمكذبين. وفي خلال استعراض هذه السنن يُشجِّع القرآن على الاحتمال والمواساة بعد الشدة، والتأسية على القرح الذي أصابهم، ويكشف عن الحكمة الكامنة وراء الأحداث في تربية الأُمة المسلمة وتمحيصها وإعدادها لدورها الأسمى، ولتكون أداة من أدوات قدره في محق الكافرين ﴿قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِكُمْ سُنَنٌ فَسِيرُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ فَٱنظُرُوا۟ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلْمُكَذِّبِينَ ۞ هَٰذَا بَيَانٌ لِّلنَّاسِ وَهُدًى وَمَوْعِظَةٌ لِّلْمُتَّقِينَ ۞ وَلَا تَهِنُوا۟ وَلَا تَحْزَنُوا۟ وَأَنتُمُ ٱلْأَعْلَوْنَ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ۞ إِن يَمْسَسْكُمْ قَرْحٌ فَقَدْ مَسَّ ٱلْقَوْمَ قَرْحٌ مِّثْلُهُۥ ۚ وَتِلْكَ ٱلْأَيَّامُ نُدَاوِلُهَا بَيْنَ ٱلنَّاسِ وَلِيَعْلَمَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَيَتَّخِذَ مِنكُمْ شُهَدَآءَ ۗ وَٱللَّهُ لَا يُحِبُّ ٱلظَّٰلِمِينَ ۞ وَلِيُمَحِّصَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَيَمْحَقَ ٱلْكَٰفِرِينَ﴾ [آل عمران/ ١٣٧ ـ ١٤١].

ـ اتخذ القرآن الحادثة التي حصلت عندما انكشف ظهر المسلمين بعد أن ترك

بعض الرماة مواقعهم على الجبل وما تلى ذلك من ارتباك وإشاعة موت الرسول ﷺ، إلى أن فاء المسلمون وثبتوا مع رسولهم؛ مادة للتوجيه وإشارات موجبة في حقيقة الموت وحقيقة الحياة، فمحمد ﷺ ليس إلا رسول سبقته الرسل جاء ليبلّغ كلمة الله، وقد مات الرسل من قبله وهو سيموت، فالموت حقيقة والبشر إلى فناء والعقيدة إلى بقاء ﴿وَمَا مُحَمَّدٌ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِ الرُّسُلُ أَفَإِيْن مَّاتَ أَوْ قُتِلَ انقَلَبْتُمْ عَلَىٰ أَعْقَابِكُمْ وَمَن يَنقَلِبْ عَلَىٰ عَقِبَيْهِ فَلَن يَضُرَّ اللَّهَ شَيْئًا وَسَيَجْزِي اللَّهُ الشَّاكِرِينَ ۞ وَمَا كَانَ لِنَفْسٍ أَن تَمُوتَ إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ كِتَابًا مُّؤَجَّلًا وَمَن يُرِدْ ثَوَابَ الدُّنْيَا نُؤْتِهِ مِنْهَا وَمَن يُرِدْ ثَوَابَ الْآخِرَةِ نُؤْتِهِ مِنْهَا وَسَنَجْزِي الشَّاكِرِينَ﴾ [آل عمران/ ١٤٤، ١٤٥].

ـ أتاحت الهزيمة في أُحد للمشركين والمنافقين واليهود في المدينة، مجالاً لدسائسهم، ولقد أحاطت بمعركة بدر سياجاً من الهيبة في نفوس هؤلاء، فلما كانت الهزيمة في أُحد تغيَّر الموقف، وسنحت الفرصة لهم أن يظهروا أحقادهم، وأن ينفثوا سمومهم، فاتخذوا ما أصاب المسلمين دافعاً على ترويج الكيد والدسّ والبلبلة في الأفكار في الصفوف بهدف تثبيط عزائمهم، ويخوفونهم عاقبة القتال مع قريش، وقد حذَّر القرآن المؤمنين من إطاعة الذين كفروا، ويعدهم بالنصر على عدوهم وإلقاء الرعب في قلبه، ويُذكِّرهم بالنصر الذي حقَّقه لهم في الجولة الأولى من المعركة حسب وعده لهم، والذي أضاعوه بضعفهم وخلافهم لأمر رسول الله ﷺ، ثم ما أعقب الهزيمة والفزع من إنزال الطمأنينة في قلوبهم، في الوقت الذي تأكل فيه الحيرة والقلق قلوب المنافقين، ويكشف لهم كذلك عن جانب من حكمته الخفية وتدبيره اللطيف في سير الأحداث مع تقرير حقيقة قدر الله في آجال العباد، ويُحذِّرهم، من خلال التصورات التي يشيعها الكفار في قضية الموت والاستشهاد، ويردهم إلى حقيقة البعث الذي ينتهي إليها الناس ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِن تُطِيعُوا الَّذِينَ كَفَرُوا يَرُدُّوكُمْ عَلَىٰ أَعْقَابِكُمْ فَتَنقَلِبُوا خَاسِرِينَ ۞ بَلِ اللَّهُ مَوْلَاكُمْ وَهُوَ خَيْرُ النَّاصِرِينَ ۞ سَنُلْقِي فِي قُلُوبِ الَّذِينَ كَفَرُوا الرُّعْبَ بِمَا أَشْرَكُوا بِاللَّهِ مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِ سُلْطَانًا وَمَأْوَاهُمُ النَّارُ وَبِئْسَ مَثْوَى الظَّالِمِينَ ۞ وَلَقَدْ صَدَقَكُمُ اللَّهُ وَعْدَهُ إِذْ تَحُسُّونَهُم بِإِذْنِهِ حَتَّىٰ إِذَا فَشِلْتُمْ وَتَنَازَعْتُمْ فِي الْأَمْرِ وَعَصَيْتُم مِّن بَعْدِ مَا أَرَاكُم مَّا تُحِبُّونَ مِنكُم مَّن يُرِيدُ الدُّنْيَا وَمِنكُم مَّن يُرِيدُ الْآخِرَةَ ثُمَّ صَرَفَكُمْ عَنْهُمْ لِيَبْتَلِيَكُمْ وَلَقَدْ عَفَا عَنكُمْ وَاللَّهُ ذُو فَضْلٍ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ﴾ [آل عمران/ ١٤٩ ـ ١٥٢].

ـ يعرض القرآن دهشة المسلمين بفعل ما آلت إليه الأمور، واستغرابهم لحصول ما وقع بهم؛ ما ينطوي على قصور في تقديرهم للأمر قبل أن يعتبروا من التجربة ويتعاملوا مع الواقع، ويُبيِّن لهم أن ما أصابهم كان بفعل تصرفهم وهو طبيعي في هذه الحال، ولكنه لا يتركهم عند هذه النقطة، بل يصلهم بقدر الله من وراء الأسباب والنتائج،

فيكشف لهم عن حكمة ما حصل، وعن تدبير الله؛ ليُحقِّق الخير لهم وللدعوة التي يجاهدون في سبيلها، ويعدهم بهذه التجربة لما بعدها وليمحص قلوبهم، ويُميِّز صفوفهم من المنافقين، الذين كشفتهم الأحداث، والمقصود هنا عبد الله بن أُبيّ بن سلول وأتباعه، وبذلك تتكامل الحقيقة في مشاعرهم ﴿أَوَلَمَّآ أَصَٰبَتۡكُم مُّصِيبَةٞ قَدۡ أَصَبۡتُم مِّثۡلَيۡهَا قُلۡتُمۡ أَنَّىٰ هَٰذَاۖ قُلۡ هُوَ مِنۡ عِندِ أَنفُسِكُمۡۗ إِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ قَدِيرٞ * وَمَآ أَصَٰبَكُمۡ يَوۡمَ ٱلۡتَقَى ٱلۡجَمۡعَانِ فَبِإِذۡنِ ٱللَّهِ وَلِيَعۡلَمَ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ * وَلِيَعۡلَمَ ٱلَّذِينَ نَافَقُواْۚ وَقِيلَ لَهُمۡ تَعَالَوۡاْ قَٰتِلُواْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ أَوِ ٱدۡفَعُواْۖ قَالُواْ لَوۡ نَعۡلَمُ قِتَالٗا لَّٱتَّبَعۡنَٰكُمۡۗ هُمۡ لِلۡكُفۡرِ يَوۡمَئِذٍ أَقۡرَبُ مِنۡهُمۡ لِلۡإِيمَٰنِۚ يَقُولُونَ بِأَفۡوَٰهِهِم مَّا لَيۡسَ فِي قُلُوبِهِمۡۚ وَٱللَّهُ أَعۡلَمُ بِمَا يَكۡتُمُونَ * ٱلَّذِينَ قَالُواْ لِإِخۡوَٰنِهِمۡ وَقَعَدُواْ لَوۡ أَطَاعُونَا مَا قُتِلُواْۗ قُلۡ فَٱدۡرَءُواْ عَنۡ أَنفُسِكُمُ ٱلۡمَوۡتَ إِن كُنتُمۡ صَٰدِقِينَ﴾ [آل عمران/ ١٦٥ ـ ١٦٨].

ـ إن حقيقة الذين قُتلوا في سبيل الله ليسوا أمواتاً، بل أحياء عند ربهم يُرزقون، ثم يربط القرآن بين حياة الشهداء في معركة أُحد وبين الأحداث التي تلت استشهادهم؛ برباط محكم، ويُصوِّر موقف العصبة المؤمنة التي استجابت لله وللرسول بعد كل ما أصابها من القرح، وخرجت تتعقَّب قريشاً بعد مغادرتها أرض المعركة خشية من مهاجمتها المدينة، ﴿وَلَا تَحۡسَبَنَّ ٱلَّذِينَ قُتِلُواْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ أَمۡوَٰتَۢاۚ بَلۡ أَحۡيَآءٌ عِندَ رَبِّهِمۡ يُرۡزَقُونَ * فَرِحِينَ بِمَآ ءَاتَىٰهُمُ ٱللَّهُ مِن فَضۡلِهِۦ وَيَسۡتَبۡشِرُونَ بِٱلَّذِينَ لَمۡ يَلۡحَقُواْ بِهِم مِّنۡ خَلۡفِهِمۡ أَلَّا خَوۡفٌ عَلَيۡهِمۡ وَلَا هُمۡ يَحۡزَنُونَ * يَسۡتَبۡشِرُونَ بِنِعۡمَةٖ مِّنَ ٱللَّهِ وَفَضۡلٖ وَأَنَّ ٱللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجۡرَ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ * ٱلَّذِينَ ٱسۡتَجَابُواْ لِلَّهِ وَٱلرَّسُولِ مِنۢ بَعۡدِ مَآ أَصَابَهُمُ ٱلۡقَرۡحُۚ لِلَّذِينَ أَحۡسَنُواْ مِنۡهُمۡ وَٱتَّقَوۡاْ أَجۡرٌ عَظِيمٌ﴾ [آل عمران/ ١٦٩ ـ ١٧٢].

ـ إن مخالفة أوامر القيادة العسكرية يُسبِّب الفشل، فمخالفة بعض الرماة لأمر النبي ﷺ ووقوعهم في الخطأ الفادح، قلب موازين المعركة من النصر إلى الهزيمة وأدَّى إلى الخسائر الفادحة، وكان ضرره على المسلمين بعامة، وإن تشدُّد القوانين العسكرية على مرِّ العهود في التقيد بأوامر القيادة من دون نقاش أو تردد هو في محله الصحيح والسليم.

ـ حفلت غزوة أُحد بنصيب وافر من الأدب مما جاء في القرآن والأحاديث النبوية، وما حُفظ لنا من الشعر؛ علماً بأنها كانت مناسبة مواتية لقول الشعر ولنحله أيضاً، سواء في ذلك ما قيل في أثنائها أو في أعقابها، حتى أن ابن إسحاق جمع في سيرته ما يمكن أن يُشكِّل ديواناً لهذه الغزوة، كما جرى في غزوة بدر، بذكره الكثير من القصائد المنسوبة إلى حسان بن ثابت، وكعب بن مالك، وعبد الله بن الزِّبَعرى، وعبد الله بن رواحة وغيرهم من الشعراء في رثاء قتلى أُحد من الطرفين، وذكر ما جرى على لسان بعض النساء من الشعر في تلك الغزوة أيضاً كصفية بنت عبد المطلب، وهند بنت عتبة وغيرهما، ويمكن إبداء الملاحظة نفسها التي وردت

في التعقيب على غزوة بدر، من حيث صحة الشعر وتعقيب ابن هشام عليه.

العظات والدروس المستقاة من غزوة أُحد

تنطوي غزوة أُحد على عظات ودروس مهمة للمسلمين في كل عصر، وكأن الحكمة من وقوع أحداثها أن يتكوَّن منها درس يُعلِّمهم كيفية تحقيق النصر في معاركهم مع العدو، وكيفية تجنب الفشل والهزيمة، نذكر منها:

ـ نزلت في أدوار المعركة وأحداثها ونتائجها آيات طوال، وكان لها في نفس الرسول ﷺ أثر عميق ظلَّ يذكره إلى قبيل وفاته.

ـ كانت المعركة امتحاناً ثقيل الوطأة محَّص السرائر وأبان النفاق من الإيمان، وميَّز مراتب الإيمان نفسها، فعُرف الذين هجروا الدنيا والذين أقبلوا عليها بعض الإقبال، فنشأ عن أطماعهم ما ينشأ عن الشرر من حرائق مروعة[1].

ـ مبدأ التشاور، والتزام النبي ﷺ التشاور مع أصحابه في كل أمر يتطلب ذلك، مما لا نصَّ فيه كما حصل في معركة بدر.

ـ عدم العودة عن القرارات العسكرية المتَّخذة، فقد رفض النبيُّ العودة عن اقتراح غالبية الصحابة القاضي بالخروج من المدينة ومقاتلة العدو خارجها، وذلك بعد أن لبس لَأمته واستعدَّ للخروج، والعبرة في ذلك أن القرارات العسكرية لا تحتمل التردد أو العودة عنها بعد الاستعداد والتجهيز حتى لا يعمَّ الاضطراب في الإرادة ولا يتطرق الضعف إلى نفوس المقاتلين، فيقعوا بين الإحجام والإقدام. وقد وجد النبي ﷺ غضاضة من الاضطراب بين شتى الآراء، لذلك أجابهم بقول فيه كل الحزم والعزم من دون أن يلتفت إلى لغط القوم وتعاتبهم فيما بينهم **(ما ينبغي لنبي إذا لبس لَأمته أن يضعها حتى يُقاتل)**، وهذا مبدأ عسكري بالغ الأهمية.

ـ للمنافقين في هذه الغزوة مشهد بارز، والعبرة في ذلك تمحيص المؤمنين عن المنافقين. لقد أشرنا إلى انخذال عبد الله بن أُبيٍّ بن سلول مع أتباعه، وهو في الطريق إلى المعركة، متذرعاً بأن النبي ﷺ أخذ برأي الشبان ولم يأخذ برأي أمثاله من الشيوخ وأرباب الخبرة، وهو لا يريد أن يُعرِّض نفسه وأتباعه لمخاطر القتال، وتلك أبرز سمات المنافقين التي كشفها الجبن والنكوص، فافتضحوا أمام أنفسهم وأمام الناس قبل أن يفضحهم القرآن.

ـ لم يشأ النبي ﷺ أن يستعين بغير المسلمين في هذه الغزوة واضعاً بذلك أصلاً في عدم الركون إلى أعداء الإسلام والاستنصار بهم، وقال: **(لا نستنصر بأهل**

---

(١) الغزالي: ص١٩٩.

الشرك على الشرك)، والمقصود بهم اليهود حلفاء عبد الله بن أُبيّ بن سلول[(١)]. وقد روى مسلم في صحيحه عن عائشة أن النبي ﷺ قال لرجل تبعه في يوم بدر ليقاتل معه: (أتؤمن بالله؟). قال: لا. قال: (فارجع فلن أستعين بمشرك)[(٢)]. وذهب جمهور كبير من العلماء بناء على هذا إلى أنه لا يجوز الاستعانة بالكفار في القتال. وللإمام الشافعي رأي في هذه المسألة، إن رأى الإمام أن الكافر حسن الرأي والأمانة في المسلمين، وكانت الحاجة داعية إلى الاستعانة به جاز، وإلا فلا[(٣)]. علماً بأن النبي ﷺ أرسل بشر بن سفيان في غزوة الحديبية، عيناً إلى قريش ليأتيه بأخبارها، وكان بشر آنذاك مشركاً، كما أنه قَبِل مساعدة صفوان بن أُمية يوم حنين، والمسألة على ذلك داخلة في إطار الشرعية[(٤)].

ـ إن في ترتيب الجيش وتعبئته قبل المعركة دلالتين:

الأولى: البراعة العسكرية التي اتصفت بها قيادته ﷺ في فنون الحروب، فقد كان في طليعة المخططين لدخول معركة ناجحة.

الثانية: إن توصياته الدقيقة لأصحابه بعامة، وللرماة بخاصة، الذين وضعهم على الجبل بألا يغادروا مكانهم، مهما كانت نتيجة المعركة؛ ظاهرة لها علاقة بما جرى بعد ذلك من خروج بعض أولئك الرماة على أوامره ﷺ في لحظات الضعف الإنساني، عرَّضت الجيش للارتباك، فضاعت في لحظة الضعف هذه كل المكاسب التي أحرزتها الشجاعة النادرة والتضحية البالغة، فكأن النبي ﷺ قد استشفَّ بفراسة النبوة أو بوحي من الله تعالى هذا الذي جرى فيما بعد، فراح يُشدِّد على الأوامر والتوصيات[(٥)].

ـ لم يُنكر النبي ﷺ على أبي دجانة عندما راح يتبختر بين الصفوف، وهي مشية يكرهها الله إلا في مثل هذا الموضع، ويدل هذا على أن مظاهر الكِبر المحرَّمة في الأحوال العامة تزول حرمتها في حالات الحرب[(٦)].

ـ تدل قصة عمرو بن الجموح الذي كان يشكو من عرج، على أن من عذره الله

---

(١) إن إطلاق الشرك على اليهود وهم أهل كتاب بمعنى غير المعنى الاصطلاحي الذي يُطلق على الوثنيين من العرب، وللشرك معنى عام يُعدُّ قدراً مشتركاً يصدق على جميع الكافرين. البوطي: ص٢٦٣ هامش رقم ٢٩.

(٢) الحديث طويل ونصه في صحيح مسلم، كتاب الجهاد والسير، باب كراهة الاستعانة في الغزو بكافر إلا لحاجة، جـ٢ ص١٩٨، ١٩٩.

(٣) النووي: مغني المحتاج إلى معرفة معاني ألفاظ المنهاج، جـ٤ ص٢٢٠، ٢٢١.

(٤) البوطي: ص٢٦٤. (٥) البوطي: ص٢٦٥.

(٦) المرجع نفسه.

في التخلف عن الجهاد لمرض أو عرج؛ يجوز له الخروج إليه، وإن لم يجب عليه.

ـ إن وجود رسول الله ﷺ بين المسلمين في المعركة كان له من القوة، بحيث لم يكونوا بقادرين على فراقه والتماسك من بعده، فكان أمر إشاعة وفاته شيئاً لا يخطر بذهنهم، وكأنهم كانوا يُسقِطون ذلك من تفكيرهم. ولا شك بأنهم لو أفاقوا من غفلتهم هذه على خبر وفاته الحقيقية لتصدَّعت أفئدتهم، وتزعزع كيانهم الإيماني، فكان من الحكمة أن تشيع هذه الشائعة كتجربة درس بين تلك الدروس العسكرية كي يعي المسلمون من ورائها الحقيقة التي ينبغي أن يركنوا لها منذ الساعة، وأن لا يرتدوا على أعقابهم إذا وجدوا رسول الله ﷺ قد اختفى من بينهم، ومن أجل بيان هذا الدرس الجليل نزلت آية تُعلق على ما أصاب كثيراً من المسلمين من ضعف وتراجع لدى سماعهم نبأ مقتل نبيِّهم[1]. يقول ﷻ: ﴿وَمَا مُحَمَّدٌ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِ الرُّسُلُ أَفَإِيْن مَّاتَ أَوْ قُتِلَ انقَلَبْتُمْ عَلَىٰٓ أَعْقَٰبِكُمْ وَمَن يَنقَلِبْ عَلَىٰ عَقِبَيْهِ فَلَن يَضُرَّ ٱللَّهَ شَيْـًٔا وَسَيَجْزِى ٱللَّهُ ٱلشَّٰكِرِينَ﴾ [آل عمران/ ١٤٤].

ـ ذكرنا أن النبي ﷺ أمر بدفن قتلى المسلمين بدمائهم، ولم يصلِّ عليهم، وجمع بين الرجلين في قبر واحد، وقد استدلَّ العلماء من ذلك أن الشهيد لا يُغسَّل ولا يُصلَّى عليه، ويُدفن بدمائه، ويجوز عند الضرورة الجمع بين أكثر من واحد في القبر أيضاً.

---

(١) البوطي: ص٢٦٧، ٢٦٨.

الفصل الثامن

ذيول غزوة أحد

غدر القبائل

عانى المسلمون بعد أُحد من تعدِّيات وخيانات المنافقين والمشركين ونقض عهود اليهود. فقد وجدت هذه الجماعات المعادية للإسلام الفرصة للانتقام من المسلمين في أعقاب هزيمتهم في أُحد، وراحت تُوجِّه إليهم الضربات الغادرة كلما تمكَّنت من ذلك، متجاوزة أعرافها وقيمها الجاهلية. ومن جهة أخرى حملت معركة أُحد، وما رافقها من تطورات، النبيَّ محمَّد ﷺ على زيادة الاهتمام بالمناطق الواقعة خارج المدينة، والعمل على تثبيت مكانة الدولة الإسلامية في تلك المناطق ونشر الدعوة بين قبائلها؛ لأن السكوت عن ذلك قد يؤدي إلى تقييد دولة الإسلام، وإضعاف مكانة المسلمين في المدينة.

تأديب بني أسد

بلغ النبي ﷺ أن بني أسد بن خزيمة، بقيادة طلحة وسلمة ابني خويلد، يستعدون لغزو المدينة انتصاراً لشركهم ومظاهرة لقريش في عدوانها على المسلمين، فسارع إلى تشكيل سرية مؤلفة من مائة وخمسين رجلاً من المهاجرين والأنصار وأمَّر عليهم أبا سلمة بن عبد الأسد المخزومي، وكلَّفه الإغارة عليهم. فانطلق في (محرم ٤هـ/ حزيران ٦٢٥م)، فانتهى إلى أدنى قطن، وهو جبل لهم، فأغار عليهم قبل أن تتكتَّل عليه جموعهم، ففرُّوا من وجهه، فاستاق ماشيتهم وعاد إلى المدينة[١].

تضمَّن هذه السرية قواعد عسكرية مهمة أدَّت إلى نجاحها، نذكر منها:

- التخطيط العسكري السليم؛ ذلك أن النبي ﷺ استبق أعداءه بضربة وقائية مفاجئة قبل أن يجتمعوا، فذُهلوا عندما فاجأهم المسلمون، فأصيبوا بالرعب، ووهنت عزيمتهم وتفرَّقوا.

- اختيار التوقيت الصحيح والطريق المناسبة، «فأغذَّ (أبو سلمة) السير ونكب سَنَن

(١) ابن سعد: جـ٢ ص٥٠.

الطريق وسبق الأخبار»[1]، فوصل إلى العدو قبل أن يعلم عنه ويستعد لصدّه.

- تركت هذه السرية أثراً بالغاً في نفوس بني أسد، فاقتنعوا بقدرة المسلمين على الاستخفاء والقيام بحروب خاطفة؛ ما حملهم على الاعتراف بقوتهم فسالموهم.

يوم الرجيع[2]

ترتبط أحداث يوم الرجيع بتعديات المشركين من القبائل العربية المعادية للإسلام، بعد معركة أُحد؛ وذلك أنه قدم إلى المدينة رهط من قبيلتي عضل والقارة المضريتين، وطلبوا من النبي ﷺ أن يبعث إليهم نفراً من المسلمين ليفقّهوهم في الدين وليقرئوهم القرآن، ويُعلموهم شرائع الإسلام، فبعث إليهم رهطاً من سبعة أشخاص، هم: خبيب بن عدي، وعبد الله بن طارق، ومرثد بن أبي مرثد، وزيد بن الدَّثِنَة، وخالد بن البكير، ومعتب بن عبيدة وأميرهم عاصم بن ثابت[3]، وقيل: كانوا عشرة وأميرهم مرثد بن أبي مرثد[4]. وعلى ذلك تكون مهمة الرهط تعليمية، لكن ورد في بعض روايات المصادر أن مهمة الرهط استطلاعية لرصد تحركات قبائل المنطقة الواقعة بين مكة والمدينة[5].

ويبدو أن بني لحيان، وهم حي من هذيل، تآمروا مع عضل والقارة لضرب المسلمين انتقاماً لمقتل خالد بن سفيان الهذلي[6].

غادر الرهط المدينة في (صفر ٤هـ/ حزيران ٦٢٥م)[7]، حتى إذا وصل أفراده إلى الرجيع، قرب الهدأة بين عسفان ومكة، أغار عليهم بنو لحيان بقوة تُقدَّر بمائتي رجل من الرماة، وألجؤوهم إلى تل مرتفع وأحاطوا بهم ووعدوهم بمنحهم الأمان إذا استسلموا، ويبدو أن عاصم بن ثابت لم يقتنع بنوايا اللحيانيين، ورفض أن ينزل على ذمة كافر، وجعل يقاتلهم حتى قُتل وقُتل معه ستة من أصحابه، وأراد القتلة

---

(١) ابن سعد: جـ٢ ص٥٠.

(٢) **الرجيع**: ماء لهذيل قرب الهدة، أو الهدأة، بين مكة والطائف. الحموي: جـ٣ ص٢٩.

(٣) ابن إسحاق: جـ٣ ص٢٢٤. **صحيح البخاري**، كتاب المغازي، باب غزوة الرجيع ورِعل وذكوان، وبئر معونة، رقم الحديث (٤٠٨٦)، ص٧٤١.

(٤) ابن سعد: جـ٢ ص٥٥. عند البخاري: عشرة نفر. كتاب المغازي ص٧٤١.

(٥) **صحيح البخاري**: المصدر نفسه.

(٦) قام خالد بن سفيان الهذلي بجمع المقاتلة من هذيل وغيرها في عرفات، وراح يتهيأ لغزو المسلمين في المدينة مظاهرة لقريش وتقرباً إليها، ودفاعاً عن عقائدهم الفاسدة، وطمعاً في خيرات المدينة، فأرسل النبي ﷺ إليه الصحابي عبد الله بن أنيس الجهني فقتله. ابن سعد، جـ٢ ص٥٠، ٥١.

(٧) ابن سعد: المصدر نفسه، ص٥٥.

قطع رأس عاصم لتقديمه إلى سلافة بنت سعد بن شهيد، كي تشفي غيظها لأنه كان قد قتل ولديها في بدر، ولكنهم وجدوا صغار النحل قد تكاثرت حوله، فانتظروا الليل، وفي الصباح لم يجدوا لعاصم من أثر؛ لأن سيلاً قد جرفه؛ علماً بأن عاصماً كان قد أعطى الله عهداً أن لا يمسه مشرك، ولا يمس مشركاً أبداً؛ تنجساً[1]. ونزل ثلاثة منهم على العهد، وهم خُبيب بن عدي، وزيد بن الدَّثِنَة وعبد الله بن طارق، فغدروا بهم، فقتلوا عبد الله بن طارق وأسروا خبيب وزيد، واقتادوهما إلى مكّة، فباعوا الأول إلى بني الحارث بن نوفل، وكان خُبيب قد قتله يوم بدر، واشترى صفوان بن أُمية الثاني ليقتله بأبيه.

وهكذا فقدت الدعوة إلى الله بعض فرسانها، وحزن رسول الله ﷺ والمسلمون لفقدهم عاصماً وصحبه ولمصرع أسيريهم، فقد خسروا فريقاً من الدعاة الأكفّاء يحتاج إليهم الإسلام في هذه المرحلة من تاريخه.

تتضمَّن أحداث يوم الرجيع بعض الفوائد، نذكر منها:

- للأسير أن يمتنع عن قبول الأمان، ولا يُمكِّن من نفسه ولو قُتل؛ أنفة من أن يجري عليه حكم كافر، وهذا إذا أراد الأخذ بالشدة، وإذا أراد الأخذ بالرخصة فله أن يستأمن، مترقباً الفرصة مؤملاً الخلاص، كما فعل خبيب وزيد[2].

- عندما تيقَّن خبيب أنه مقتول طلب أن يصلي ركعتين، ثم انصرف إليهم بعد أن انتهى فقال: «لولا أن تروا ما بي من جزع من الموت، لزدت». فكان أول من سنَّ الركعتين عند القتل[3].

- إن الله يبتلي عبده المؤمن بما شاء كما سبق في علمه ليثيبه، ولو شاء ربك ما فعلوه، وفيه استجابة دعاء المسلم وإكرامه حياً وميتاً، وإنما استجاب الله له من حماية لحمه من المشركين ولم يمنعهم من قتله لما أراد من إكرامه بالشهادة، ومن كرامته حماية من هتك حرمته بقطع لحمه[4].

- يظهر حب الصحابة للنبيِّ ﷺ في هذه السرية من خلال الحوار الهادىء بين أبي سفيان وبين زيد بن الدَّثِنَة؛ إذ قال أبو سفيان: «أتحب أن محمَّداً الآن عندنا مكانك تُضرب عنقه وأنك في أهلك؟ فقال زيد: والله ما أحب أن محمَّداً الآن في مكانه الذي هو فيه تصيبه شوكة، وإني جالس في أهلي». ما دفع أبا سفيان إلى القول:

---

(١) ابن هشام: جـ٣ ص٢٢٥. (٢) البوطي: ص٢٧٧.

(٣) ابن هشام: جـ٣ ص٢٢٦.

(٤) العسقلاني، الحافظ شهاب الدين أبو الفضل، المعروف بابن حجر: **فتح الباري بشرح صحيح البخاري**، جـ٧ ص٤٤٤، ٤٤٥.

«ما رأيت أصحاب رجل قط أشد له حباً من أصحاب محمَّد»[1]. ولا شك بأن هذا الحب من الإيمان، فقد قال ﷺ: **(ثلاث من كن فيه وجد حلاوة الإيمان: من كان الله ورسوله أحب إليه مما سواهما، ومن أحب عبداً لا يحبه إلا لله، ومن يكره أن يعود في الكفر بعد أن أنقذه الله منه، كما يكره أن يُلقى في النار)**[2].

يوم بئر معونة[3]

حدث في (صفر ٤هـ/ حزيران ـ تموز ٦٢٥م) أن قدم إلى المدينة أبو براء عامر بن مالك، الملقب بملاعب الأسِنَّة، وهو سيد بني عامر، فعرض عليه الرسول ﷺ الإسلام، فلم يُسلم كما لم يظهر تجنباً للإسلام؛ أي أنه لم يعتنق الإسلام ولم يكرهه، إلا أنه أشار على الرسول ﷺ أن يبعث رجالاً من أصحابه إلى أهل نجد يدعوهم إلى الإسلام وهو يجيرهم، فبعث رسول الله ﷺ سبعين صحابياً[4] من خيار المسلمين يسمون القرَّاء، وأمَّر عليهم المنذر بن عمرو الساعدي، فنزلوا بئر معونة وعسكروا بها. وأرسل المنذر بن عمرو؛ حرام بن ملحان مع كتاب رسول الله ﷺ إلى عامر بن الطفيل، أحد زعماء بني عامر فوثب عليه وقتله، واستعدى بني عامر ضد المسلمين، فأبوا أن يخفروا جوار أبي براء، عندئذ استعدى عليهم قبائل من سُلَيْم: عصيَّة ورِعلاً وذكوان، فاستجابوا له. واستبطأ المسلمون حراماً، فأقبلوا في إثره فلقيهم القوم وهم مائة رجل تقريباً، وأنشبوا القتال، وأسفرت المعركة عن استشهاد جميع المسلمين، باستثناء كل من كعب بن زيد، فقد تركوه جريحاً بين القتلى، وعمرو بن أُمية، أحد اثنين كانا يرعيان دواب السرية[5].

تركت فاجعة بئر معونة آثاراً عميقة في نفس النبي ﷺ، حتى أنه لبث شهراً يقنت في صلاة الفجر داعياً على قبائل سُلَيْم التي عصت الله ورسوله، وهو أول القنوت[6]، ولكن ذلك لم يفتَّ في عضد المسلمين ولم يفتر حميتهم في الدعوة إلى الله؛ لأن أمر الدعوة فوق الأنفس والدماء.

---

(١) ابن سعد: جـ٢ ص٥٦. ابن هشام: جـ٣ ص٢٢٥.

(٢) **صحيح البخاري**، كتاب الإيمان، باب قول النبي ﷺ: **(أنا أعلمكم بالله)**، رقم الحديث (٢١)، ص١٩.

(٣) **بئر معونة**: ماء لبني سُلَيْم بين أرض بني عامر وأرض بني سُلَيْم بناحية المعدن.

(٤) عند ابن إسحاق: أربعين صحابياً. **سيرة ابن هشام**: جـ٣ ص٢٣١.

(٥) المصدر نفسه: ص٢٣٠ ـ ٢٣٣. **صحيح البخاري**، كتاب المغازي، باب غزوة الرجيع ورِعل وذكوان وبئر معونة، رقم الحديث (٤٠٩٠ و٤٠٩١)، ص٧٤٢. ابن سعد: جـ٢ ص٥٢ ـ ٥٤.

(٦) **صحيح البخاري**: المصدر نفسه، رقم الحديث (٤٠٨٨)، ص٧٤١.

غزوة ذات الرقاع[1]

كان لحادثة بئر معونة ردُّ فعل من جانب كثير من قبائل نجد ضد المسلمين، فقد جمع بنو محارب وبنو ثعلبة الجموع لغزو المدينة، ولما علم النبي ﷺ بذلك؛ نهض لغزوهم في خطوة استباقية على رأس أربعمائة مقاتل، وقيل: سبعمائة، وعسكر في مكان بنجد من أرض غطفان يُسمى نخل. وقذف الله الرعب في نفوس القبائل، فتفرقوا في الجبال. وحضرت في ذلك الوقت الصلاة، فخشي المسلمون أن يغيروا عليهم، فصلَّى النبي ﷺ صلاة الخوف، وعاد إلى المدينة من دون قتال[2]. وتاريخ هذه الغزوة في السنة الرابعة للهجرة، بعد مرور شهر ونصف تقريباً على إجلاء بني النضير[3].

العبر والفوائد التي حفلت بها غزوة ذات الرقاع

تتضمَّن غزوة ذات الرقاع عظاتٍ وعبراً وصوراً معبرة وفوائد، نذكر منها:

ـ لقد صلَّى النبي ﷺ في غزوة ذات الرقاع صلاة الخوف كما ذكرنا، وقد بيَّن القرآن طريقة الصلاة عند مواجهة العدو. قال تعالى: ﴿وَإِذَا كُنتَ فِيهِمْ فَأَقَمْتَ لَهُمُ ٱلصَّلَوٰةَ فَلْتَقُمْ طَآئِفَةٌ مِّنْهُم مَّعَكَ وَلْيَأْخُذُوٓا۟ أَسْلِحَتَهُمْ فَإِذَا سَجَدُوا۟ فَلْيَكُونُوا۟ مِن وَرَآئِكُمْ وَلْتَأْتِ طَآئِفَةٌ أُخْرَىٰ لَمْ يُصَلُّوا۟ فَلْيُصَلُّوا۟ مَعَكَ وَلْيَأْخُذُوا۟ حِذْرَهُمْ وَأَسْلِحَتَهُمْ وَدَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لَوْ تَغْفُلُونَ عَنْ أَسْلِحَتِكُمْ وَأَمْتِعَتِكُمْ فَيَمِيلُونَ عَلَيْكُم مَّيْلَةً وَٰحِدَةً وَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ إِن كَانَ بِكُمْ أَذًى مِّن مَّطَرٍ أَوْ كُنتُم مَّرْضَىٰٓ أَن تَضَعُوٓا۟ أَسْلِحَتَكُمْ وَخُذُوا۟ حِذْرَكُمْ إِنَّ ٱللَّهَ أَعَدَّ لِلْكَٰفِرِينَ عَذَابًا مُّهِينًا﴾ [النساء/١٠٢]. وطريقة الصلاة في ميدان الحرب أن طائفة صفت معه ﷺ وطائفة قامت في وجه العدو، فصلّى بالتي معه ركعة، ثم ثبت قائماً وأتمَّت الطائفة الركعة الثانية ثم انصرف أفرادها تجاه العدو، وجاءت الطائفة الثانية فصلى بهم ﷺ الركعة الثانية التي بقيت في صلاته ثم ثبت جالساً وأتمَّ أفراد هذه الطائفة لأنفسهم الركعة الثانية ثم سلَّم بهم جميعاً[4]، فيكون لكل من الرسول ﷺ والقوم

---

(١) سميت بذات الرقاع لأن المسلمين كانوا يربطون على أرجلهم من الخرق والرقاع اتقاء الحر. انظر: صحيح البخاري: باب غزوة ذات الرقاع، رقم الحديث (٤١٢٨)، ص٧٤٨. وقيل: هي اسم شجرة في موضع الغزوة التي سميت بها. وقيل: لأن أقدامهم نُقبت من المشي، فلفُّوا عليها الخرق. وقيل: لأنها كانت عند جبل فيه بقع حمر وبيض وسود كأنها رقاع. البلاذري: جـ١ ص٤١٩. ابن هشام: جـ٣ ص٢٤٦.

(٢) ابن هشام: جـ٣ ص٢٤٦. ابن سعد: جـ٢ ص٦١.

(٣) علماً بأنه تمَّ إجلاء بني النضير في ربيع الأول (٤هـ).

(٤) **صحيح البخاري**، كتاب المغازي، باب غزوة ذات الرقاع، رقم الحديث (٤١٢٨)، ص٧٤٨.

ركعتان. وفي رواية لمسلم عن جابر: «... فصلَّى بطائفة ركعتين ثم تأخروا وصلَّى بالطائفة الأخرى ركعتين، قال: فكانت لرسول الله ﷺ أربع ركعات، وللقوم ركعتان»[1]. ووجه التوفيق بين الحديثين أنه عليه الصلاة والسلام صلَّى بأصحابه صلاة الخوف أكثر من مرة، فصلاها مرة على النحو الأول وصلاها مرة أخرى على النحو الثاني، ولهذا الأداء بجماعتين سببان:

الأول: بهدف اجتماع المسلمين كلهم على الاقتداء برسول الله ﷺ، وتلك فضيلة جليلة.

الثاني: استحباب وحدة الجماعة المسلمة، فتجزئة القوم أنفسهم إلى جماعات عدَّة تتوالى لأداء فريضة الصلاة مكروه من دون ضرورة[2].

- أثناء عودة الجيش الإسلامي من غزوة ذات الرقاع سبوا امرأة من المشركين، فنذر زوجها ألا يرجع قبل أن يُهرق دماً في المسلمين، فجاء ليلاً وقد وضع النبي ﷺ رجلين على الحراسة، وهما عباد بن بشر وعمار بن ياسر، فتناوبا على الحراسة، وجاء الرجل أثناء نوبة عباد، فضربه بسهم وهو قائم يُصلِّي، فنزعه ولم يقطع صلاته، ثم رشقه بسهم ثانٍ فنزعه وثبت قائماً، ثم رشقه بسهم ثالث، فنزعه ثم ركع وسجد وأيقظ صاحبه، فانصرف الرجل[3].

نستنتج من هذه الحادثة فوائد عدة، منها:

١ - اهتمام النبي ﷺ بأمن الجيش، وهذا ما يفعله العسكريون عادة كلما عسكروا في مكانٍ ما.

٢ - تناوب الحراسة، إذ لا بدَّ من راحة لجسم الجندي بعض الوقت.

٣ - التعلق بالقرآن وحب تلاوته، فقد كان من شدَّة حب عباد بن بشر للقرآن أن أنساه آلام السهام الثلاثة التي أصابته ونتج عنها تدفق الدم.

٤ - الشعور بمسؤولية الحراسة، فلم يقطع عباد بن بشر صلاته من ألم يشعر به، وإنما قطعها استشعاراً بمسؤولية الحراسة التي كُلِّف بها.

٥ - اختار النبي ﷺ فم الشِّعب مكاناً لإقامة الحرس، وهو المكان الذي يُتوقَّع أن يهاجم العدو عبره، وهذه قاعدة عسكرية مهمة[4].

- إن الجهاد كما علَّمه النبي ﷺ وفهمه أصحابه هو عبادة يتعلَّق بها كيان المسلم بخالقه، فكان من الطبيعي أن ينشغل عباد بن بشر أثناء حراسته بركعات خاشعة،

---

(١) صحيح مسلم، كتاب الصلاة، باب صلاة الخوف، جـ٦ ص١٢٩، ١٣٠.

(٢) البوطي: ص٢٩٤. (٣) ابن هشام جـ٣ ص٢٤٨.

(٤) الصلَّابي: جـ٢ ص١٩٢، ١٩٣.

وقد انصرفت مشاعره كلها إلى مناجاة ربّه، وبالتالي لا يُبالي بتلك السهام التي غُرزت في جسمه وأدمته؛ لأن بشريته كانت في تلك الساعة منطوية ضمن مشاعره المنصرفة إلى ربه وقد غمرتها لذة المناجاة، ولما ارتد إليه شعوره وأخذ يهتم بما أصابه لم يكن ذلك من الألم الذي بدأ يشعر به، وإنما للمسؤولية المنوطة به مخافة أن يُضيعها بضياع حياته واستمرار سكونه؛ ما اضطره إلى أن يلتفت ويوقظ صاحبه ليتسلم مكانه أمانة الحراسة[(١)].

ـ عندما قفل رسول الله ﷺ عائداً إلى المدينة، أدركته القالة[(٢)] في واد كثير الشجر، فنزل ﷺ تحت شجرة علّق بها سيفه، وتفرّق الناس يستظلون بالشجر، فجاءه أعرابي يُدعى غورث بن الحارس، فأخذ سيفه وهو نائم ورفعه فوق رأسه، فاستيقظ ﷺ، فقال له الأعرابي: «من يمنعك مني؟» فقال ﷺ: (الله). فسقط السيف من يده، وجلس بين يدي رسول الله ﷺ منتظراً ما سوف يحكم عليه من جزاء، لكن الرسول ﷺ عفا عنه ولم يعاقبه، فعاهده الأعرابي على أن لا يقاتله ولا يكون مع قوم يقاتلونه، فخلّى سبيله فجاء إلى أصحابه، فقال لهم: «جئتكم من عند خير الناس»[(٣)].

تتضمَّن هذه القصة دلالات عدة على نبوة محمد ﷺ وشجاعته وصبره على الأذى وحلمه، وجواز تفرُّق العسكر في النزول ونومهم إذا لم يكن هناك ما يخافون منه، وتكشف عن مدى رعاية الباري ﷻ وحفظه لنبيِّه ﷺ، وتزيدنا يقيناً من واقع الخوارق التي أخضعها له، بشخصيته النبوية. فقد كان سهلاً على ذلك المشرك، وقد أخذ السيف ورفعه فوق النبي ﷺ، وهو أعزل غارق في النوم؛ أن يهوي به عليه فيقتله، ونتلمس من ذلك المشرك اغتباطه بالفرصة الذهبية التي مكّنته من رسول الله ﷺ، مع اعتزازه بنفسه «من يمنعك مني؟». والواضح أن العناية الإلٰهية أعاقته عن القتل، فملأت قلبه رعباً، ورجفت يداه، وسقط السيف من يده. ويستوقفنا في هذه الحادثة قول الله ﷻ: ﴿وَٱللَّهُ يَعۡصِمُكَ مِنَ ٱلنَّاسِۗ﴾ [المائدة/ ٦٧]، بحيث لا تطاله يد تحاول اغتياله لتغتال بعده الدعوة الإسلامية الذي بُعث لتبليغها[(٤)].

ـ نقف من خلال تسمية هذه الغزوة بذات الرقاع على صورة واضحة تُبيِّن مدى ما

---

(١) البوطي: ص٢٩٦.

(٢) **القالة**: القيلولة وهي النوم في وسط النهار.

(٣) **صحيح البخاري**، كتاب المغازي، باب غزوة ذات الرقاع، رقم الحديث (٤١٣٥)، ص٧٤٩. ابن إسحاق: جـ٣ ص٢٤٧.

(٤) البوطي: ص٢٩٤.

كان يتحمله الصحابة في تبليغ رسالة ربهم والجهاد في سبيله. فقد روى الشيخان[1] بسندهما عن أبي موسى الأشعري، قال: «خرجنا مع النبي ﷺ في ذات الرِّقاع ونحن ستة نفر بيننا بعير نعتقبه، فنقبت أقدامنا، فنقبت قدماي، وسقطت أظافري، فكنا نلفُّ على أرجلنا الخرق، فسُمِّيت ذات الرقاع لما كنا نعصب على أرجلنا الخرق». قال أبو موسى بهذا الحديث ثم كره ذلك، قال: كأنه كره أن يكون شيئاً من عمله أفشاه».

فقد كانوا من شدَّة الفقر بحيث لم يجدوا حتى الظَّهر الذي يمتطونه في غزواتهم. فالستة يتبادلون ركوب بعير واحد في قطع مسافة طويلة شاقَّة، ولكن الفقر لم يُشكِّل عائقاً في أداء رسالتهم التي كانوا يتحمَّلون كل النتائج في سبيلها من محن وغيرها. فما ضعفوا ولا استكانوا؛ مدركين عِظَم المسؤولية الإلهية الملقاة على عاتقهم، منذ أضحوا مسلمين. وكره أبو موسى الأشعري من نفسه أن أباح بهذا الخبر عندما سألوه عن سبب تسمية هذه الغزوة بذات الرقاع، وإنما كره ذلك وندم بفعل أنه أفشا شيئاً من عمله الذي احتسب أجره عند الله تعالى[2]. ويدل هذا على أنه يستحب للمسلم أن يُخفي أعماله الصالحة وما قد يصادفه من المشاق في طاعة الله، وأن لا يتعمد إظهار شيء من ذلك إلا لمصلحة، مثل بيان حكم ذلك الشيء والتنبيه على الاقتداء به ونحو ذلك، وعلى مثل هذا يحمل ما وجد للسلف من الأخبار ببعض أعمالهم[3].

ـ جرى أثناء عودة الجيش الإسلامي إلى المدينة حوار هادىء ولطيف بين رسول الله ﷺ وبين جابر بن عبد الله، وعلى الرغم من أنه لا يتعلق بالغزوة إنما يوضِّح سلوك رسول الله ﷺ وعلاقته مع أصحابه القائمة على الحب الشديد والخلق الكريم ورقَّة الحديث وفكاهة المحاورة. قال جابر: «خرجت مع رسول الله ﷺ إلى غزوة ذات الرقاع على جمل لي ضعيف، فلما قفل رسول الله ﷺ جعلت الرفاق تمضي، وجعلت أتخلَّف حتى أدركني رسول الله ﷺ، فقال: (**ما لك يا جابر؟**). قلت: يا رسول الله! أبطأ بي جملي هذا. قال: (**انخسه**). فأنخسته وأناخ رسول الله ﷺ ثم قال: (**أعطني هذه العصا من يدك**). ففعلت، فأخذها فنخسه بها نخسات، ثم قال: (**اركب**). فركبت فخرج ـ والذي بعثه بالحق ـ يواهق[4] ناقته

---

(١) **صحيح البخاري**، كتاب المغازي، باب غزوة ذات الرقاع، رقم الحديث (٤١٢٨)، ص٧٤٨. **صحيح مسلم**، كتاب المغازي والسير، جـ١٢ ص١٩٧، ١٩٨.

(٢) البوطي: ص٢٩١، ٢٩٢.

(٣) النووي في هامش صحيح مسلم، جـ١٢ ص١٩٧، ١٩٨.

(٤) يواهق: أي يسابق.

مواهقة. وتحدثت مع رسول الله ﷺ، فقال لي: (**أتبيعني جملك يا جابر؟**). قلت: يا رسول الله! بل أهبه لك. قال: (**لا، ولكن بعنيه**). قلت: فَسُمْنِيه يا رسول الله. قال: (آخذه بدرهم). قلت: لا، إذن تغبنني يا رسول الله. قال: (فبدرهمين). قلت: لا. فلم يزل يرفع لي رسول الله ﷺ في ثمنه حتى بلغ الأوقية. فقلت: أفقد رضيت يا رسول الله؟ قال: (**نعم**). قلت: فهو لك، قال: (**قد أخذته**). ثم قال: (**يا جابر! هل تزوجت بعد؟**). قلت: نعم يا رسول الله. قال: (**أثيِّباً أم بكراً؟**). قلت: بل ثيِّباً، قال: (**أفلا جارية تلاعبها وتلاعبك؟**). قلت: يا رسول الله! إن أبي أصيب يوم أُحد وترك لي بنات سبعاً، فنكحت امرأة جامعة، تجمع رؤوسهن وتقوم عليهن. قال: (**أصبت إن شاء الله، أما إنا لو قد جئنا صراراً**[1]**، أمرنا بجزور فنُحرت، وأقمنا عليها يومنا ذاك، وسمعت بنا فنفضت نمارقها**)[2]. فقلت: والله يا رسول الله! ما لنا من نمارق! قال: (**إنها ستكون، فإذا أنت قدمت فاعمل عملاً كيِّساً**). قال جابر: فلما أصبحت أخذت برأس الجمل، فأقبلت به حتى أنخته على باب رسول الله ﷺ، ثم جلست في المسجد قريباً منه، فخرج رسول الله ﷺ فرأى الجمل، فقال: (**ما هذا؟**). قالوا: يا رسول الله! هذا جمل جاء به جابر. قال: (**فأين جابر؟**). فدُعيت له، فقال: (**يا ابن أخي! خذ برأس جملك، فهو لك**). ودعا بلالاً فقال له: (**إذهب بجابر، فأعطه أُوقية**). فذهبت معه فأعطاني أوقية وزادني شيئاً يسيراً، فوالله ما زال ينمو عندي ويُرى مكانه من بيتنا»[3].

إذا تأملنا في هذه القصة يتبين لنا أن النبي ﷺ كان متأثراً بالمحنة التي أصابت بيت جابر بن عبد الله، وكأنه استشعر من تأخر جابر عن القوم بسبب جمله الضعيف الذي لا يملك غيره، مظهراً لحاله العامة هذه، وكان من عادته ﷺ إذا سار في طريق يتفقد أصحابه كلهم ويطمئن عليهم بين مرحلة وأخرى، فانتهز جابر هذه الفرصة، فتخلف حتى التقى به، فراح النبي ﷺ يواسيه بأسلوبه الرقيق الفكه، ولما وصل إلى المدينة ساعده على تحسين وضعه، ثم إن أفعاله ﷺ مقرونة بالحكمة ومؤيدة بالعصمة، فقد اشترى الجمل من جابر، ثم أعطاه الثمن وزاده عليه ثم ردَّ الجمل عليه، وكان يمكن أن يعطيه ذلك العطاء من دون مساومة في الجمل، ولا اشتراء، ولا شرط ولا توصيل، فالحكمة في ذلك بديعة جداً ومليئة بالاعتبار ومستقاة من القرآن؛ وذلك أنه ﷺ سأله: (**هل تزوجت؟**) ثم قال له: (**هلا بكراً**).

---

(١) صرار: اسم مكان في ضاحية المدينة.

(٢) نمارق: جمع نمرقة، الوسادة الصغيرة للاتكاء.

(٣) ابن هشام: جـ٣ ص٢٤٧، ٢٤٨.

فذكر له مقتل أبيه وما خلَّف من البنات، وقد كان ﷺ قد أخبر جابر بأن الله قد أحيا أباه، وردَّ عليه روحه، وقال: (ما تشتهي فأزيدك)، فأكَّد ﷺ هذا الخبر بمثل ما يشبهه، فاشترى منه الجمل وهو مطيته كما اشترى الله تعالى من أبيه ومن الشهداء أنفسهم بثمن هو الجنة، ونفس الإنسان مطيته، ثم زادهم زيادة قال: ﴿لِّلَّذِينَ أَحْسَنُوا الْحُسْنَىٰ وَزِيَادَةٌ﴾، ثم ردَّ عليهم أنفسهم التي اشترى منهم فقال: ﴿وَلَا تَحْسَبَنَّ الَّذِينَ قُتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَمْوَاتًا بَلْ أَحْيَاءٌ عِندَ رَبِّهِمْ يُرْزَقُونَ﴾، فأشار ﷺ بشرائه الجمل من جابر وإعطائه الثمن وزيادته على الثمن ثم ردَّ الجمل المشترى عليه[(١)].

غزوة بدر الموعد

تنفيذاً للموعد الذي كان أبو سفيان قد اقترحه في أعقاب غزوة أُحد والتزام النبي ﷺ بذلك، فقد خرج من المدينة على رأس جيش من أصحابه بلغ تعدادهم ألفاً وخمسمائة مقاتل بينهم عشرة من الفرسان، وذلك في (ذي القعدة ٤هـ/ نيسان ٦٢٦م)[(٢)]، ودفع لواء الجيش إلى علي بن أبي طالب. وصل الجيش الإسلامي إلى بدر وعسكر بها بانتظار وصول قوات قريش، غير أن أحداً من المشركين لم يصل، فما الذي حصل في الأفق العسكري؟.

الواقع أن أبا سفيان خرج من مكة على رأس جيش من قريش، فلما وصل إلى مَرِّ الظهران نزل على مياه مُجَنَّة على بُعد أربعين ميلاً من مكة، وقيل إنه بلغ عُسفان على مرحلتين من مكة ثم عاد أدراجه، والراجح أنه تهيب لقاء المسلمين في معركة غير مستعد لها، وبخاصة أنه لم يتلقَّ مساعدة من حلفائه في الوقت الذي تعاظمت فيه قوة المسلمين بعد أُحد، متذرعاً بالجدب الذي حصل في تلك السنة. وتذكر روايات المصادر أنه خطب في جيشه، فقال: «يا معشر قريش! إنه لا يصلحكم إلا عام خصيب ترعون فيه الشجر، وتشربون اللبن، وأن عامكم هذا عام جدب، إني راجع فارجعوا»[(٣)]. فرجع الناس متخاذلين وسماهم أهل مكة جيش السويق، يقولون فيهم: «إنما خرجتم تشربون السويق»[(٤)].

ولما مضت ثمان ليال ولم يحضر أبو سفيان؛ عاد الرسول ﷺ مع جيشه إلى المدينة وقد حقَّق انتصاراً معنوياً كبيراً، بعد أن اهتزت هيبة المسلمين في نفوس

---

(١) السهيلي: جـ٣ ص٢٥٥.
(٢) البلاذري: جـ١ ص٤١٧. وعند ابن هشام: خرج في شعبان. جـ٣ ص٢٤٨.
(٣) ابن هشام: جـ٣ ص٢٤٨، ٢٤٩. البلاذري: جـ١ ص٤١٧.
(٤) السويق هنا هو الخمر.

القبائل بعد أُحد، وأكّد الرسول ﷺ في هذا الخروج قوة المسلمين التي ألقت الرعب في قلوب أعدائهم.

غزوة بني المصطلق(١)

بنو المصطلق بطن من خزاعة، والمصطلق جدهم، وهو خزيمة بن سعد بن عمرو بن ربيعة بن حارثة بن عمرو بن عامر بن ماء السماء، وينزلون على ماء لهم يقال لها المريسيع في ناحية قديد إلى الساحل.

كانت هذه القبيلة حليفة لقريش، واشتركت معها في معركة أُحد ضمن كتلة الأحابيش، وتسيطر على الطريق المؤدي إلى مكة، فشكلت بذلك خطراً على خطوط مواصلات المسلمين إلى مكة.

وقد بلغ النبي محمَّد ﷺ أن زعيم بني المصطلق، الحارث بن أبي ضرار، يجمع الجموع لحربه، فأرسل بريدة بن الحصيب الأسلمي ليتحقَّق من الخبر، فأتاهم واجتمع بالحارث بن أبي ضرار وكلَّمه، وعاد إلى المدينة وأخبر النبي ﷺ بعزمه على حربه

كان منهاج النبي ﷺ أنه إذا تأكد أن قوماً يريدون الإغارة على المدينة؛ بادرهم قبل أن يبادروه، فخرج من المدينة في (٢ شعبان ٥هـ/ ٢٧ كانون الأول ٦٢٦م)(٢) على رأس جيش تعداده سبعمائة مقاتل فيهم ثلاثين فارساً إلى بني المصطلق، وخرج معه عدد كبير من المنافقين كان يغلب عليهم التخلف في الغزوات السابقة، كان من بينهم عبد الله بن أُبيّ بن سلول، طمعاً في الغنيمة إثر تيقُّنهم من قوة النبي ﷺ، فانتهى إليهم وعبَّأ أصحابه، فدفع راية المهاجرين إلى أبي بكر وراية الأنصار إلى سعد بن عبادة، وأمر عمر بن الخطاب أن ينادي في القوم: «قولوا لا إلٰه إلا الله تمنعوا بها أنفسكم وأموالكم» فأبوا، فقاتلهم المسلمون، فقتلوا عشرة منهم وأسروا سائرهم، وسبوا الرجال والنساء والذرية والنَّعَم والشاء، وهرب الحارث بن أبي ضرار، وكان شعار المسلمين يومئذ: «يا منصور أمت أمت»، ولم يُقتل من

(١) المصطلق: مفتعل من الصلق وهو رفع الصوت. وتسمى هذه الغزوة أيضاً بغزوة المريسيع.

(٢) ابن سعد: جـ٢ ص٦٣. البلاذري: جـ١ ص٤٢٣. الواقدي: جـ١ ص٤٠٥. ابن هشام: جـ٤ ص٦. ذكر ابن إسحاق أنها كانت في العام السادس للهجرة، والصحيح الذي ذهب إليه عامة المحققين أنها كانت في شعبان من العام الخامس للهجرة، بدليل أن سعد بن معاذ كان حياً في هذه الغزوة وله ذكر في حادثة الإفك التي حصلت أثناء عودة الجيش إلى المدينة، والمعروف أنه توفي في غزوة بني قريظة متأثراً بجرحه الذي أصيب به في غزوة الخندق أو الأحزاب.

المسلمين سوى رجل واحد[1]. وقيل: بأن النبي ﷺ أغار عليهم وهم غارُّون؛ أي: غافلون، وأنعامهم تُسقى على الماء، فقتل مقاتلتهم، وسبى سبيهم، وأصاب يومئذ جويرية ابنة الحارث بن أبي ضرار[2]، وهرب الحارث.

الدلالات المستنبطة من غزوة بني المصطلق

لهذه الغزوة دلالات نذكر منها:

- جواز الإغارة على الكفار الذين بلغتهم الدعوة من غير إنذار بالإغارة[3].
- جواز استرقاق العرب لأن بني المصطلق عرب من خزاعة[4].
- جواز العزل عند الجماع ويتبع ذلك إسقاط النطفة أو العلقة قبل نفخ الروح فيها، فقد روى البخاري[5] ومسلم[6] من طريقين مختلفين أن بعض الصحابة استفتى رسول الله ﷺ بشأن العزل في هذه الغزوة، وذلك عندما قسَّم السبي بينهم، فقال لهم: **(لا عليكم ألا تفعلوا، ما كتب الله خلق نسمة هي كائنة إلى يوم القيامة إلا ستكون)**؛ أي: ليس عليكم أن تتركوا العزل لأن ما قدَّر الله واقع لا ريب فيه، واشترط جمهور الأئمة لذلك موافقة الزوجة لما قد يكون من الضرر بها[7].

آثار غزوة بني المصطلق

- عندما قسَّم رسول الله ﷺ سبايا بني المصطلق وقعت جويرية بنت الحارث في سهم لثابت بن قيس بن شماس أو لابن عم له، فكاتبته على نفسها، وأتت النبي ﷺ تستعينه، فقال: **(فهل لك في خير من ذلك؟)** قالت: «وما هو يا رسول الله؟». قال: **(أقضي عنك كتابتك وأتزوجك)**. قالت: «نعم يا رسول الله». قال: **(قد فعلت)**. وخرج الخبر إلى الناس، فقالوا: «أصهار رسول الله ﷺ». وأرسلوا ما بأيديهم، فأعتق مائة أهل بيت من بني المصطلق»، وقالت عائشة، التي روت هذا الخبر: «فما أعلم امرأة كانت أعظم على قومها بركة منها».

---

(١) ابن سعد: جـ٢ ص٦٤. البلاذري: جـ١ ص٣٢٤. ابن هشام: جـ٤ ص٦.

(٢) **صحيح مسلم**، كتاب الجهاد والسير، باب جواز الإغارة على الكفار الذين بلغتهم دعوة الإسلام، جـ١٢ ص٣٥، ٣٦.

(٣) **شرح النووي في هامش صحيح مسلم**: جـ١٢ ص٣٦.

(٤) المصدر نفسه.

(٥) **صحيح البخاري**، كتاب المغازي والسير، باب غزوة بني المصطلق من خزاعة، وهي غزوة المريسيع، رقم الحديث (٤١٣٨)، ص٧٤٩.

(٦) **صحيح مسلم**، كتاب النكاح، باب حكم العزل، جـ١٠ ص٩، ١٠.

(٧) لقد فصَّل البوطي هذه المسألة. انظر: ص٣٠٤ ـ ٣٠٧.

لقد نتج عن هذا الزواج أن دخلت القبيلة بأسرها في الدين الإسلامي، وحرَّر المسلمون الأسرى الذين أصابوهم وردُّوهم إلى ذويهم، فأزال الرسول ﷺ بهذا الزواج العداوات، وجمع الناس ووحَّد قلوبهم، فما تزوج الرسول ﷺ إلا لسبب فيه وحدة القلوب وألفة النفوس، وكان فيه الخير الكبير، ومرد هذا الحدث التاريخي الكبير هو حب الصحابة لنبيهم واستكثارهم على أنفسهم أن يتملَّكوا أصهاره.

ـ إسلام الحارث بن أبي ضرار، فقد قدم إلى المدينة لفداء ابنته بمائة من الإبل، فرغب في بعيرين منهما فغيَّبهما في شِعب من شِعاب العقيق، ثم أتى المدينة وقال: «يا محمد! أصبتم ابنتي، وهذا فداؤها». فقال رسول الله ﷺ: (**فأين البعيران اللذان غيَّبتهما بالعقيق في شِعب كذا وكذا**). فقال الحارث: أشهد أن لا إله إلا الله وأنك محمد رسول الله، فوالله ما اطلع على ذلك إلا الله»، فأسلم الحارث وأسلم معه ابنان له، وأتى بالبعيرين، فدفع الإبل إلى النبي ﷺ، ودُفعت إليه ابنته جويرية، فأسلمت وحسن إسلامها، فخطبها رسول الله ﷺ إلى أبيها، فزوَّجه إياها، وأصدقها أربعمائة درهم[1].

ـ ظهر النفاق في هذه الغزوة بشكل فاضح، فقد تنازع سنان بن وبر الجهني من الأنصار وجهجاه بن مسعود الغفاري من المهاجرين على الماء، فضرب جهجاه سناناً، فنادى سنان: «يا للأنصار»، ونادى جهجاه: «يا لقريش! يا لكنانة!» فشهر الأنصار والمهاجرون سلاحهم، فسمع رسول الله ﷺ ذلك، فقال: (**ما بال دعوى الجاهلية؟**). قالوا: «يا رسول الله! كسع[2] رجل من المهاجرين رجلاً من الأنصار. فقال: (**دعوها فإنها منتنة**). فسمع بذلك عبد الله بن أُبيٍّ بن سلول، فقال: (**فعلوها؟ أما والله لئن رجعنا إلى المدينة ليخرجن الأعزُّ منها الأذلَّ**)، وكان زيد بن أرقم حاضراً فأخبر سعد بن عبادة، رأس الخزرج، فأرسل رسول الله ﷺ إلى عبد الله بن أُبيّ بن سلول وأصحابه، فحلفوا بأنهم لم يقولوا هذا، فصدقهم رسول الله ﷺ، فأنزل الله تعالى: ﴿إِذَا جَآءَكَ ٱلْمُنَٰفِقُونَ قَالُوا۟ نَشْهَدُ إِنَّكَ لَرَسُولُ ٱللَّهِ ۗ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ إِنَّكَ لَرَسُولُهُۥ وَٱللَّهُ يَشْهَدُ إِنَّ ٱلْمُنَٰفِقِينَ لَكَٰذِبُونَ ۞ . . . ۞ هُمُ ٱلَّذِينَ يَقُولُونَ لَا تُنفِقُوا۟ عَلَىٰ مَنْ عِندَ رَسُولِ ٱللَّهِ حَتَّىٰ يَنفَضُّوا۟ ۗ وَلِلَّهِ خَزَآئِنُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَلَٰكِنَّ ٱلْمُنَٰفِقِينَ لَا يَفْقَهُونَ ۞ يَقُولُونَ لَئِن رَّجَعْنَآ إِلَى ٱلْمَدِينَةِ لَيُخْرِجَنَّ ٱلْأَعَزُّ مِنْهَا ٱلْأَذَلَّ ۚ وَلِلَّهِ ٱلْعِزَّةُ وَلِرَسُولِهِۦ وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَلَٰكِنَّ ٱلْمُنَٰفِقِينَ لَا يَعْلَمُونَ﴾ [المنافقين: ١، ٧، ٨].

فقام عمر فقال: «يا رسول الله! دعني أضرب عنق هذا المنافق». فقال النبي ﷺ: (**دعه، لا يتحدث الناس أن محمَّداً يقتل أصحابه**). وفي رواية قال عمر بن الخطاب لرسول الله ﷺ: «مر به عباد بن بشر فليقتله». فقال رسول الله ﷺ: (**فكيف يا عمر**

---

(١) ابن هشام: جـ٤ ص٩.

(٢) كسع: ضربه برجله.

إذا تحدث الناس أن محمَّداً يقتل أصحابه؟! لا، ولكن أذِّن بالرحيل)، في ساعة لم يكن رسول الله ﷺ يرتحل فيها». فارتحل الناس. فلما سار لقيه أسيد بن حضير وسأله عن سبب هذا الارتحال في مثل هذا الوقت، فقال له النبي ﷺ: **(أوَبلغك ما قال صاحبكم؟ عبد الله بن أُبيٍّ)**. قال: «فأنت يا رسول الله تخرجه منها، إن شئت هو الذليل وأنت العزيز». فبعث رسول الله ﷺ إلى زيد بن أرقم، فقرأ، فقال: **(إن الله قد صدَّقك يا زيد)**(١).

ـ كشف سلوك عبد الله بن أُبيٍّ بن سلول عن حقد دفين يضمره ضد الإسلام والمسلمين؛ إذ كلما كسب الإسلام نصراً جديداً ازداد غيظاً مع جماعته، وهم يتطلعون إلى اليوم الذي يُهزم فيه المسلمون لتشفى نفوسهم من الغلِّ، فلما انتصر المسلمون في المريسيع سعوا إلى إثارة العصبية بين المهاجرين والأنصار، ولكن النبي ﷺ عالج الأمر بالحكمة، فشغل الناس بالرحيل، فقضى بهذه السياسة الرشيدة على الفتنة، وانكشف رأس المنافقين أمام قومه، فكلما أحدث حدثاً كانوا يعاتبونه ويُعنِّفونه ويعرضون قتله على الرسول ﷺ، وهو يأبى ويصفح، ويترفَّق به.

ـ إن المطالب الدنيوية غالباً ما تكون السبب في تنازع الناس، وكان الازدحام على الماء في غزوة بني المصطلق مادة لإثارة الفتنة.

ـ شكَّلت العصبية والنزعة الفردية الشرارة التي أشعلت نار الفتنة، فكان الخطاب «يا معشر الأنصار» و«يا معشر المهاجرين».

ـ يستغل طلاب المناصب عصبياتهم ويُسخِّرونها من أجل مطالبهم الشخصية، وهذا ما كان من تصرف عبد الله بن أُبيٍّ بن سلول الذي كان قومه يضعون له تاج الزعامة فيهم قبل الهجرة.

ـ يتجرد الإنسان المسلم من مواقفه الشخصية والمصلحية عند الاقتضاء، وإنما يُقدم انتماءه لدين الله تعالى، ولا ينحاز لموقف بسبب عصبية أو قرابة أو غير ذلك، ويستوقفنا موقف الصحابي عبد الله تجاه والده، عبد الله بن أُبيٍّ بن سلول، الذي هدَّد وتوعَّد مستعيناً بعصبيته من الأنصار وأهل المدينة، والمعروف أن هذا الصحابي طلب أن يأمره رسول الله ﷺ بقتل والده كي لا يُثير قتله على يدي غيره عصبية عنده، فيقوم بالثأر ويكون قد عصى الله تعالى(٢).

ـ تحتاج معالجة المواقف الانفعالية إلى حكمة وحلم من قِبَل القائد، وأن الموقف يوم هذه الغزوة يُعطي دروساً مستفادة من الهدي النبوي.

---

(١) ابن هشام: جـ٤ ص٩. ابن سعد: جـ٢ ص٦٤، ٦٥.

(٢) ابن هشام: جـ٤ ص٨.

ـ إن الموقف الذي يتخذه القائد لمعالجة مشكلة ما قد لا يكون محل قبول تام عند أصحابه، وبعد أن تظهر صوابيته يُسلِّم به الجميع، وهذا ما ختم به عمر بن الخطاب الحوار، حين قال: «قد والله علمت لأمر رسول الله ﷺ أعظم بركة من أمري»[1].

حديث الإفك

يتفرَّع حديث الإفك من غزوة بني المصطلق. فقد خرجت عائشة زوجة الرسول ﷺ معه في هذه الغزوة بعد أن اختارتها القرعة التي كانت تجري قبيل الغزوات لاختيار من ترافقه من نسائه، وأثناء عودة الجيش نزل ليلاً منزلاً، فخرجت عائشة لقضاء حاجتها، ولما عادت افتقدت عقداً من جزع ظفار[2] كانت قد استعارته من أختها، فخرجت تبحث عنه، ولما وجدته عادت إلى المعسكر فوجدت الجيش قد رحل، ويبدو أن الرهط المكلفين بها وضعوا هودجها على ظهر البعير وهم يحسبون أنها فيه، وكان النساء إذ ذاك خفافاً لم يثقلهن اللحم، فاختارت أن تبقى في مكانها آملة أن يعود القوم إليها عند افتقادها، وما لبثت أن نامت، ولم تستيقظ إلا عند سماع صوت صفوان بن المعطل السلمي وهو يسترجع[3] لرؤيتها، وكان قد رآها قبل الحجاب، وكان هذا قد تخلَّف عن الجيش. وأصبح في مكانها، فلم يُكلمها وأناخ لها راحلته، فركبتها ثم قادها حتى وصل إلى الجيش في نحو الظهيرة. ولما رأى الناس ذلك خاض بعضهم في شرفها وشرف صفوان، وقالوا فيها إفكاً عظيماً، وتولى المنافقون بقيادة عبد الله بن أُبيٍّ بن سلول تضخيم الإشاعة.

ومكثت عائشة مدة لا تعرف بخبر الإفك، حيث أنها مرضت بعد عودتها إلى المدينة ولازمتها والدتها لتمريضها، ولم تعرف بالخبر إلا بعد أن تماثلت للشفاء بعد بضع وعشرين ليلة، حين أخبرتها أم مسطح، وهي ابنة أبي رُهم بن عبد مناف.

وكثر التداول في ذلك الإفك، وانتشر بين الناس في المدينة ما آذى رسول الله ﷺ، فخطب مرة مستنكراً إيذاء البعض له في أهله، وعندما شاور بعض أصحابه؛ أشار عليه بعضهم أن يمسك عائشة في حين أشار عليه بعضهم الآخر، تلميحاً أن يفارقها.

ودخل عليها الرسول ﷺ يوماً، وهي تبكي وعندها والداها، وقال لها بأن الله

(١) ابن هشام: جـ٤ ص٨.

(٢) جزع ظفار: هو خرز معروف، في سواده بياض كالعرق، وظفار: مدينة باليمن.

(٣) يسترجع: أي يقول: إنا لله وإنا إليه راجعون.

سيبرئها إن كانت بريئة، وأن عليها أن تستغفر الله إن كانت قد قارفت سوءاً. ولاذت عائشة بالصبر بعد أن عبَّرت عن شعورها بوجود استعداد نفسي لتكذيبها إن هي برّأت نفسها وتصديقها إن هي أدانت نفسها، ونزل الوحي والرسول ﷺ ما زال عند عائشة بآيات عشر أعلنت براءتها[1] ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ جَآءُو بِٱلْإِفْكِ عُصْبَةٌ مِّنكُمْ لَا تَحْسَبُوهُ شَرًّا لَّكُم بَلْ هُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ لِكُلِّ ٱمْرِيٍٕ مِّنْهُم مَّا ٱكْتَسَبَ مِنَ ٱلْإِثْمِ وَٱلَّذِى تَوَلَّىٰ كِبْرَهُۥ مِنْهُمْ لَهُۥ عَذَابٌ عَظِيمٌ ۝ . . . ۝ وَلَوْلَا فَضْلُ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُۥ وَأَنَّ ٱللَّهَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ﴾ [النور/١١ ـ ٢٠].

تحليل حديث الإفك

ـ يُعدُّ حديث الإفك حلقة فريدة في سلسلة فنون الإيذاء والمحن التي لقيها رسول الله ﷺ من أعداء الدين، وكانت أشدَّ في وقعها على نفسه من كل تلك المحن السابقة؛ لأن ما تعرَّض له قبل ذلك كان يتوقعه وقد استعدَّ لتحمُّله، أما هذا، فقد فوجىء به؛ لأنه ليس مما اعتاده أو توقعه، وتلك هي طبيعة الشر الذي يصدر عن المنافقين.

ـ طال حديث الإفك أطهر النفوس، وسبَّب لها آلاماً لا تطاق، وأدخل المسلمين كلهم في تجربة من أشقِّ التجارب، وعاش رسول الله ﷺ، وزوجته عائشة، التي يُحبها، وأبو بكر وزوجته وصفوان بن المعطل، الصحابي الجليل؛ شهراً كاملاً في جوٍّ خانق، وفي تلك الآلام الهائلة؛ بسبب هذا الحديث.

ـ تعرَّض المسلمون بعامَّة لأكبر محنة طالت الثقة في طهارة بيت النبوَّة، وفي عصمة الله لنبيِّه في أن لا يجعل في بيته إلا العنصر الطاهر الكريم، وقد جعلها عبرة لتربية المسلمين على مرِّ العهود.

ـ لقد رُمي رسول الله ﷺ بكل شيء حين رُمي بعائشة، فثقل عليه العبء، فبعث إلى أُسامة بن زيد، حبه القريب إلى قلبه، وإلى ابن عمه علي بن أبي طالب؛ يستشيرهما في خاصة أمره. أما أُسامة، فقد أدرك ما بقلب رسول الله ﷺ من الودِّ لأهله، والتعب لخاطر الفراق، فأشار بما يعلمه من طهارة أُم المؤمنين عائشة وكذِب المفترين، وأشار علي بأن الله لم يُضيق عليه، ومع هذا أشار عليه بالتثبت من الجارية ليطمئن قلبه ويستقر على قرار.

ـ عندما تصل الآلام إلى ذروتها يتعطَّف عليه ربه، فيُنزل من الآيات القرآنية ببراءة عائشة، وبراءة أهل بيت النبوَّة، ويكشف المنافقين الذين حاكوا هذا الإفك، ويرسم

---

(١) في سورة النور: الآيات ١١ ـ ٢٠. صحيح البخاري، كتاب المغازي، باب حديث الإفك، رقم الحديث (٤١٤١)، ص٧٥٠ ـ ٧٥٢. ابن هشام: جـ٤ ص٩ ـ ١٢. البلاذري: جـ١ ص٤٢٤، ٤٢٥.

الطريق للمسلمين لمواجهة هذا الحدث العظيم. وقالت عائشة عن هذه الآيات القرآنية التي أنزلها الله بشأنها: «وأيم الله لأنا كنت أحقر في نفسي، وأصغر شأناً في أن يُنزل الله فيَّ قرآناً يُقرأ به في المساجد ويُصلَّى به، ولكني كنت أرجو أن يرى رسول الله ﷺ في نومه شيئاً يُكذب الله عني لما يعلم من براءتي أو يخبر خبراً، فأما قرآن ينزل فيَّ، فوالله لنفسي كانت أحقر عندي من ذلك»(١). لكن يبدو من استعراض الآيات العشر الخاصة بهذا الموقف أن الأمر لم يكن أمر عائشة وحدها، فلقد تجاوزها إلى شخص الرسول ووظيفته في المسلمين، بل تجاوزه إلى صلته بربِّه ورسالته كلها، وما كان حديث الإفك رمية لعائشة وحدها، إنما كان رمياً للعقيدة في شخص نبيِّها ﷺ، من أجل ذلك أنزل الله قرآناً ليفصل في هذه القضية المبتدعة والكيد المدبَّر، ويتولى المعركة الدائرة ضد الإسلام كدين، ومحمد كنبيٍّ ورسول، ويكشف عن الحكمة العليا وراء كل ذلك.

ـ انطوت محنة الإفك على حكمة إلٰهيَّة تجلَّت في تثبيت العقيدة الإسلامية وردِّ ما قد تتعرَّض له من شبهة، وأبرزت شخصية النبي ﷺ، وأظهرتها صافية مميزة عن كل التباس نفسي أو شعوري. والحقيقة أنها فاجأته وهو في طور إنسانيته العادية، فاستقبلها كما يستقبل مثلها أي إنسان يُقلِّب الرأي على وجوهه، ويلتمس في ذلك مشورة أُولي الأمر من أصحابه(٢).

ـ انجلت عن تأخر الوحي حقيقتان مهمَّتان:

الأولى: أن النبي ﷺ لم يخرج من نبوته ورسالته إلى بشريَّته، لذلك لا ينبغي لمن آمن به أن يتصور أن النبوَّة قد تجاوزت به حدود البشرية، فينسب إليه من الأُمور أو التأثير في الأشياء ما لا يجوز نسبته إلا إلى الله.

الثانية: أن الوحي الإلٰهي ليس شعوراً نفسياً ينبثق من كيان النبي ﷺ، كما أنه ليس خاضعاً لإرادته أو تطلعه وأُمنياته، ولو كان ذلك كذلك لأنهى المشكلة من فورها، وأسكت الآخرين من أصحاب الفضول، ولكنه لم يفعل لأنه لا يملك ذلك(٣). وكانت عائشة أول من تجلَّت لها هاتان الحقيقتان، فلذلك أجابت أُمها عندما طلبت منها أن تقوم فتشكر النبي ﷺ، قائلة: «والله لا أقوم إليه، فإني لا أحمد إلا الله ﷻ»(٤). وقد يبدو هذا الكلام وكأن فيه شيئاً من عدم اللياقة تجاه النبي ﷺ؛ غير أن الظرف والحال هما اللذان أمليا عليها هذا الكلام(٥).

---

(١) ابن هشام: جـ٤ ص١١، ١٢.

(٢) البوطي: ص٣٠٩.

(٣) المرجع نفسه: ص٣٠٩ ـ ٣١١.

(٤) **صحيح البخاري**، مصدر سابق.

(٥) البوطي: ص٣١١.

ـ إن في حديث الإفك ما يدلُّنا على مشروعية حد القذف، فقد أمر النبي ﷺ أولئك الذين تفوَّهوا به، فأقام الحد عليهم، فضُربوا حد القذف، وهو ثمانون جلدة، والملفت أن ينجو منه الذي تولَّى كبره وإشاعته بين الناس، وهو عبد الله بن أُبيّ بن سلول، ويبدو أن لذلك أسباباً عدة، منها:

١ ـ أنه ـ أي: عبد الله بن أُبيّ بن سلول ـ عالج حديث الإفك بين الناس بخبث، فكان يستوشي الكلام فيه ويجمعه ويحكيه في قوالب من لا يُنسب إليه؛ علماً بأن حدَّ القذف إنما يقع على من يتفوه به صراحة.

٢ ـ إن الحدود تُخفِّف عن أهلها وتُكفِّر عنهم والخبيث ليس أهلاً لذلك، وقد وعده الله تعالى بالعذاب العظيم في الآخرة ما يكفيه عن الحد.

٣ ـ لا يثبت الحد إلا ببيِّنة وإقرار، وهو لم يقر بالقذف ولا شهد به عليه أحد، فإنه كان يذكره بين أصحابه ولم يشهدوا عليه، ولم يكن يذكره بين المؤمنين.

٤ ـ ترك الرسول ﷺ إقامة الحد عليه لمصلحة هي أعظم من إقامته عليه، كما ترك قتله مع ظهور نفاقه وتكلمه بما يوجب قتله مراراً، وهي استقطاب قومه وعدم تنفيرهم من الإسلام[1].

ـ انقسم المسلمون في هذه الحادثة إلى أربعة أقسام[2]:

الأول: شكَّل أفراده الأكثرية، وقد صمُّوا أسماعهم وكفُّوا ألسنتهم فلم ينطقوا إلا بخير، لم يُصدقوا ولم يُكذبوا.

الثاني: سارع أفراده إلى التكذيب، كان من بينهم أبو أيوب الأنصاري وامرأته أُم أيوب، وقد وصفوا عند سماعهم بأنه إفك، وبرَّؤوا عائشة مما نُسِب إليها.

الثالث: شكَّل أفراده جماعة من المسلمين لم يُصدقوا ولم يُكذبوا ولم ينفوا، ولكنهم تحدثوا بما يقول أهل الإفك، وقد ظنُّوا أن الكلام بذلك أمر هيِّن لا يُعرِّضهم لعقوبة من الله؛ لأن ناقل الكفر ليس بكافر، وحاكي الإفك ليس بقاذف، وكان من بينهم حمنة بنت جحش، وحسان بن ثابت، ومسطح بن أثاثة، من أقرباء أبي بكر.

الرابع: هم الذين جاؤوا بالإفك وعلى رأسهم زعيم المنافقين عبد الله بن أُبيّ بن سلول، وهو الذي تولى كِبَره.

وقد أشار ﷻ إلى فضل القسم الثاني بقوله: ﴿لَّوْلَآ إِذْ سَمِعْتُمُوهُ ظَنَّ ٱلْمُؤْمِنُونَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتُ بِأَنفُسِهِمْ خَيْرًا وَقَالُوا۟ هَٰذَآ إِفْكٌ مُّبِينٌ﴾ [النور/١٢]، وكان ينبغي على جميع المسلمين أن

---

(١) ابن قيم الجوزية: زاد المعاد في هدي خير العباد، جـ٣ ص٢٦٣، ٢٦٤.

(٢) آل عابد، محمد بكر: حديث القرآن الكريم عن غزوات الرسول، جـ١ ص٣٨٧.

يتبنوا هذا التوجه. وأشار ﷻ إلى القسم الثالث بقوله: ﴿إِذْ تَلَقَّوْنَهُۥ بِأَلْسِنَتِكُمْ وَتَقُولُونَ بِأَفْوَاهِكُم مَّا لَيْسَ لَكُم بِهِۦ عِلْمٌ وَتَحْسَبُونَهُۥ هَيِّنًا وَهُوَ عِندَ ٱللَّهِ عَظِيمٌ ۝ وَلَوْلَآ إِذْ سَمِعْتُمُوهُ قُلْتُم مَّا يَكُونُ لَنَآ أَن نَّتَكَلَّمَ بِهَٰذَا سُبْحَٰنَكَ هَٰذَا بُهْتَٰنٌ عَظِيمٌ﴾ [النور/١٥، ١٦]، وما كان لأفراد هذا القسم أن يتحدثوا بمثل هذا الحديث، لكن الله أثبت لأهل هذا القسم فضائلهم التي عملوها حيث أثبت لمسطح هجرته وإيمانه من واقع قول أبي بكر بأنه لن يُنفق بعد الآن على مسطح ولن يتصدَّق عليه وهو من ذوي قرابته، فقال ﷻ: ﴿وَلَا يَأْتَلِ أُوْلُواْ ٱلْفَضْلِ مِنكُمْ وَٱلسَّعَةِ أَن يُؤْتُوٓاْ أُوْلِى ٱلْقُرْبَىٰ وَٱلْمَسَٰكِينَ وَٱلْمُهَٰجِرِينَ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ ۖ وَلْيَعْفُواْ وَلْيَصْفَحُوٓاْ ۗ أَلَا تُحِبُّونَ أَن يَغْفِرَ ٱللَّهُ لَكُمْ ۗ وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ [النور/٢٢].

وأشار ﷻ إلى القسم الرابع، وهم الذين جاؤوا بالإفك، واخترعوا هذا الكذب، إلى موتهم على الكفر وأنه لن يقبل منهم توبة، ولعنهم في الدنيا والآخرة، فقال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَرْمُونَ ٱلْمُحْصَنَٰتِ ٱلْغَٰفِلَٰتِ ٱلْمُؤْمِنَٰتِ لُعِنُواْ فِى ٱلدُّنْيَا وَٱلْءَاخِرَةِ وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾ [النور/٢٣].

الفصل التاسع

غزوة الأحزاب (الخندق)

دوافع اشتراك الأحزاب في هذه الغزوة

أدرك اليهود مدى الخطر الذي تُشكِّله الدولة الإسلامية الناشئة على وجودهم في الجزيرة العربية، وأثبتت الأحداث الأخيرة عدم جدوى الاعتماد على قوة منفردة للقضاء عليها، لذلك لا بد من أن تتحالف القوى المشركة كلها بزعامة قريش وتتحرك لاستئصال شأفتها.

وحاول يهود بني النضير قتل الرسول ﷺ، ولكنهم فشلوا، فأُجْلوا عن المدينة، فذهبوا إلى خيبر، وقد علَّقوا آمالهم على اللقاء الموعود بعد عام من غزوة أُحد بين المشركين بزعامة أبي سفيان، والمسلمين بقيادة النبي ﷺ، فلما أخلف أبو سفيان موعده خابت آمالهم، وأدركوا نتائج هذا التخاذل؛ فقرَّروا التحرك باتجاه القبائل العربية المختلفة لتحريضها على حرب المسلمين، وشكَّلوا وفداً لهذا الغرض مؤلفاً من خمسة أشخاص، هم: سلام بن أبي الحقيق، وحيي بن أخطب، وكنانة بن الربيع بن أبي الحقيق، من بني النضير، وهوذة بن قيس، وأبو عمار، من بني وائل، وهم الذين حزَّبوا الأحزاب على رسول الله ﷺ(1)، وقد وعدوا قريشاً بمساندتها مادياً حتى تستأصل محمَّداً، فوافقت على ذلك. ثم ذهب الوفد إلى غطفان من قيس عيلان، فدعوهم إلى حرب رسول الله ﷺ، ووعدوهم بمساندتهم أيضاً، وأخبروهم بأن قريشاً وافقت على غزو المدينة، فوافقت غطفان على الاشتراك بهذا التحالف، وجرى الاتفاق بين الطرفين على البندين التاليين:

١ ـ أن تكون قوة غطفان في جيش الاتحاد ستة آلاف مقاتل.

٢ ـ أن يدفع اليهود لقبائل غطفان كل تمر خيبر لسنة واحدة.

ثم أتوا بني سُلَيْم بن منصور، فسألوهم مثل ذلك، فأنجدوهم(2).

يبدو أن تحريض اليهود لقريش وغطفان لم يكن إلا خطوة تشجيعية وتنسيقية، أما الدوافع الحقيقية، فهي التالية:

---

(1) ابن هشام: جـ٣ ص٢٥٨. عند الواقدي: أبو عامر الراهب بدلاً من أبو عمار، جـ٢ ص٤٤١.

(2) البلاذري: جـ١ ص٤٢٧.

فيما يتعلق بقريش: أدركت قريش، المتمرسة بالشؤون السياسية والتجارية، مدى الضرر الذي وقع عليها بعد معركة بدر، حيث هدَّد المسلمون الطريق التجاري الغربي إلى بلاد الشام، فاضطرت إلى سلوك طريق العراق الطويل، ولم توقف معركة أُحد تهديد هؤلاء لقوافلها، بل إنهم كثَّفوا نشاطهم فاستقطبوا القبائل المقيمة على هذا الطريق. وكان أبو سفيان يُدرك أن المعركة الأخيرة لم تكن حاسمة، وأن الوضع يتطلب القيام بحملة جديدة، ولكن الجدب الذي أصاب الحجاز في السنة التالية لمعركة أُحد حمله على تأجيل إنفاذها، أو أنه تهيَّب الدخول في معركة مع المسلمين لم يستعدَّ تماماً لها، وهذا يعني أن قريشاً كانت مدفوعة بتأمين مصالحها الخاصة، وليس لمجرد استجابة عاطفية بتحريض نفر من اليهود الذين لا تربطها بهم علاقة مشتركة[1].

فيما يتعلق بغطفان: شكَّلت غطفان، بزعامة عيينة بن حصن، القوة الكبيرة الثانية بعد قريش. ويبدو واضحاً أن هذه القبيلة انضمت إلى قوى التحالف بتحريض اليهود، وأن القرشيين لم يتصلوا بها أو يُنسقوا معها، ولكن الواقع أنه لم يُعرف في السابق وجود علاقة وثيقة بين قريش وبين غطفان التي كانت ديارها بعيدة في الأطراف الشمالية الشرقية من الحجاز، وتقيم في منطقة فقيرة بعيدة عن طريق تجارة مكة. ومما لا شكَّ فيه بأن رئيس القبيلة كان عنصراً مؤثراً في ذلك الوقت، وعُرف عن عيينة بن حصن أطماعه الشخصية الواسعة، فرضي بما عرضه عليه الوفد اليهودي. وبناءً عليه، فإن اشتراك غطفان كان بدافع مادي بحت، وربما تدخلت قريش في إقناعه بالدخول معها في التحالف مقابل منحه تمر المدينة في حال الانتصار، بدليل قول عيينة بن حصن: «إنا والله ما جئنا ننصر قريشاً، ولو استنصرنا قريشاً ما نصرتنا ولا خرجت معنا من حرمها، ولكني كنت أطمع أن نأخذ تمر المدينة فيكون لنا ذكر مع ما لنا فيه من منفعة»[2].

ولم تشر روايات المصادر أن المحرِّضين حاولوا تأليب مَن بقي من اليهود في المدينة (بني قريظة) والمنافقين فيها؛ لأنهم أدركوا أنها ستكون فاشلة، لأن المجتمع المديني كان متماسكاً بلحمة لا تقبل الانفكاك، بدليل أن الفئات المعارضة لم تقم بأي عمل يخل بهذا التماسك إلا ما كان من يهود بني قريظة في أواخر أيام الحصار.

عديد قوات المشركين

شاركت قريش وأحلافها من بني كنانة وأهل تهامة والأحابيش بأربعة آلاف مقاتل، ومعهم ثلاثمائة فارس، وألف وخمسمائة بعير بقيادة أبي سفيان.

---

(١) العلي: ص٢٤٢، ٢٤٣. (٢) الواقدي: جـ٢ ص٤٧٩.

وخرج سبعمائة مقاتل من بني سُلَيْم بقيادة سفيان بن عبد شمس، وقد لحقوا بقوات قريش في مُرِّ الظهران على مرحلة من مكة.

وعبَّأ بنو أسد أربعة آلاف وخمسمائة مقاتل بقيادة طليحة بن خويلد الأسدي، ومعهم غطفان وفزارة، ومعها ألف بعير بقيادة عيينة بن حصن.

وجنَّد بنو أشجع أربعمائة مقاتل بقيادة مسعود بن رخيلة بن نويرة.

وجيَّش بنو مُرَّة أربعمائة مقاتل بقيادة الحارث بن عوف.

فبلغ مجموع عديد قوات المشركين عشرة آلاف، قادهم أبو سفيان[1].

تعبئة المسلمين

لم يكن الرسول ﷺ بغائب عما كان يجري من إعداد لغزو المدينة، فقد بثَّ العيون في أنحاء الجزيرة العربية لرصد تحركات القبائل، فكانت تزوِّده بخبر كل تحرك قبلي. وعندما خرجت قريش من مكة في طريقها إلى المدينة؛ خرج ركب من خزاعة إلى النبي ﷺ، فوصلوا إلى المدينة خلال أربعة أيام، وأخبروه بخروج قريش؛ أي أنه علم بالخطر بعد أربعة أيام من تحرك قريش، وأن الوقت الذي توافر له للقيام بالاستعدادات والتعبئة العسكرية لم يكن طويلاً، لذلك تحرك على وجه السرعة، وقد قرَّر البقاء في المدينة، والدفاع عنها أمام هجوم الأحزاب متجنِّباً التورط في صدام مسلح في ميدان مكشوف يُعيد مأساة أُحد، وبخاصة أن الفارق العددي بين القوتين واسع؛ إذ لم يتمكَّن من تجنيد أكثر من ثلاثة آلاف مقاتل بمن فيهم المنافقين، ثم إن موقع المدينة الجغرافي مناسب للدفاع والاستفادة القصوى من الإمكانات المتوافرة؛ إذ أن أي مهاجم سيضطر للمهاجمة من اتجاه الشمال؛ لأنه الجانب المكشوف، في حين أن المدينة محاطة في الجهات الأخرى بموانع طبيعية، من صخور بركانية في الشرق وما يُعرف بحِرَّة واقم، وببساتين النخيل ويليها جبال من الجنوب، وبحِرَّة الوبرة وصخور بركانية في الغرب تُعيق تقدم الجيوش.

وعبَّأ الرسول ﷺ جبهته الداخلية، فوزَّع النساء والأطفال على حصن بني حارثة، حتى يكونوا في مأمن من الأعداء، وخصَّص فرقتين عسكريتين لحراسة المدينة، الأولى بقيادة مسلمة بن أسلم، ويبلغ عديدها مائتي مقاتل، والثانية بقيادة زيد بن حارثة وقوامها ثلاثمائة رجل، ذلك أنه كان يخشى على الذراري من بني قريظة. وكان عباد بن بشر على حرس قبته مع غيره من الأنصار يحرسونه كل ليلة.

وخلال دراسة وضع خطة الدفاع، أعطى سلمان الفارسي رأياً كان له الأثر الكبير

---

(١) ابن سعد: جـ٢ ص٦٦. الواقدي: جـ٢ ص٤٤٣.

في النصر، يتضمن حفر خندق كبير لصد عدوان المهاجمين، فقال: «يا رسول الله! إنا إذا كنا بأرض فارس وتخوفنا الخيل خندقنا علينا، فهل لك يا رسول الله أن تخندق؟. فأعجب رأي سلمان المسلمين»(١).

وأمر النبي ﷺ بحفر خندق في مكان تتوافر فيه الحماية للجيش في جهة الشمال، بين حرة واقم من الشرق وحرة وبرة من الغرب، فجعل جبل سلع خلف ظهره وخندق من المذاذ إلى ذباب إلى راتج. ويُستفاد من بحث الرسول ﷺ عن مكان ملائم لحفر الخندق أهمية الموقع الذي ينبغي أن يؤمن الحماية التامة للجند، ويُؤثّر بشكل واضح على سير المعركة ونتائجها، فحفر بين الحرَّتين، وعمل جميع المسلمين في حفره وعلى رأسهم النبي ﷺ، إلا ما كان من تصرف المنافقين الذين لم يخلصوا في عملهم، ولم يعملوا إلا لئلا ينكشف أمرهم عند المسلمين، فكانوا يهربون أحياناً من العمل ويتسلَّلون إلى أهليهم بغير علم رسول الله ﷺ، ولا إذنه؛ لأن في قلوبهم دَخَن (حقد) وفي نياتهم سوء، ويودون لو أن الدائرة تدور على رسول الله ﷺ وعلى دولته، يبدو ذلك من مخاطبتهم رسول الله ﷺ بلهجة لا تحمل الاحترام، وفي هربهم من دون استئذان من العمل في حفر الخندق.

حصار المدينة

عندما فرغ رسول الله ﷺ من حفر الخندق، أقبلت قريش في (شوال ٥هـ/آذار ٦٢٧م) وعسكرت في مجمع الأسيال من رومة بين الجرف وزغابة، ثم أقبلت غطفان ومن تبعها من أهل نجد وعسكرت بذنب نُقْمى إلى جانب جبل أُحد، وربما ازداد عدد المهاجمين بانضمام الكثير من الأعراب الذين يتوقون إلى السلب والنهب.

كانت خطة الأحزاب، كما وضعها زعماء يهود، تقضي بأن تتقدم قوات المشركين من الشمال باتجاه المدينة لاحتلالها، ويتحرك بنو قريظة في الوقت نفسه من خلف المسلمين؛ علماً بأن بينهم وبين رسول الله ﷺ معاهدة تعاون ودفاع مشترك، وكان المسلمون من جانبهم يخشون غدرهم فيقعوا بين فكَّي الكماشة؛ يهود من خلف خطوطهم، والأحزاب من أمامهم.

وتنفيذاً لتعهدات يهود بني النضير للمشركين، ذهب حيي بن أخطب، رأس المؤامرة، إلى كعب بن أسد القرظي صاحب عقد بني قريظة وعهدهم، فأغلق حصنه دونه، ولكنه ما زال يناديه ويلح عليه حتى وافق على استقباله، واستطاع حيي خلال اللقاء أن يُقنع كعباً بنقض عهده مع رسول الله ﷺ، فنقضه وتبرَّأ منه(٢).

---

(١) الواقدي: جـ٢ ص٤٤٥. ابن سعد: جـ٢ ص٦٦. (٢) ابن هشام: جـ٣ ص٢٦١.



غزوة الأحزاب [عن قيادة الرسول ﷺ السياسية والعسكرية]

ولما علم الرسول ﷺ بالأمر أرسل وفداً برئاسة سعد بن معاذ، سيد الأوس، لاستطلاع ذلك، والتأكد من صحة الخبر، وطلب منه إن كان الخبر صحيحاً أن يلحن له لحناً؛ أي يخبره بطريقة رمزية حتى لا يفتَّ ذلك في أعضاد المسلمين، وأن يجهر إن كانوا على الوفاء حتى تقوى عزائم المسلمين.

والتقى الوفد باليهود، فوجدوهم على أخبث حال، فشتموهم وذكروا الرسول بسوء، وقالوا: «لا عهد بيننا وبين محمَّد ولا عقد»[1]، فعاد الوفد إلى الرسول ﷺ، وقال له سعد بن معاذ: «عضل والقارة»[2]؛ أي أن يهود غدروا كغدر قبيلتي عضل والقارة، فاستقبل رسول الله ﷺ غدر بني قريظة بالثبات والحزم، واستخدم الوسائل التي من شأنها أن تُقوِّي روح المؤمنين، وتُصدِّع جبهة المشركين، فأرسل قوة عسكرية لتظهر التكبير أمام بني قريظة لإرهابهم، وقال: (**أبشروا يا معشر المسلمين**)[3]. كان جوابه هذا لتقوية معنويات أصحابه، أما الواقع، فإن الخبر الذي أخذ ينتشر سبَّب خوفاً في صفوف المسلمين، وعمَّ البلاء، وأتاهم عدوهم من فوقهم ومن أسفل منهم، فكان عليهم أن يحرسوا النساء والأطفال بالإضافة إلى الخندق.

ونشط النفاق في غضون هذه المحنة؛ فقد حاول المنافقون أن يُخذِّلوا المسلمين من واقع بثِّ الشائعات والتهكم عليهم، فقال أوس بن قيظي، أحد بني حارثة بن الحارث: «يا رسول الله! إن بيوتنا عورة من العدو، وذلك عن ملأ من رجال قومه، فأذن لنا أن نخرج فنرجع إلى دارنا، فإنها خارج المدينة»[4].

واستعدَّ بنو قريظة في هذه الأثناء للمشاركة مع الأحزاب ضد المسلمين، فأرسلوا إلى جيوشهم عشرين بعيراً محملة تمراً وشعيراً وتبناً للتقوِّي بها على البقاء، إلا أن المسلمين استولوا عليها. أما المشركون، فقد فوجئوا بالخندق، وتوقفوا عنده لا يستطيعون التقدم وفق الخطة الموضوعة، ففرضوا الحصار على المدينة. وتراشق الطرفان بالنبل والسهام، وجرت محاولات فردية لاجتيازه من جانب بعض الفرسان المشركين، فتصدى لهم المسلمون، وهكذا صُدَّت محاولة عكرمة بن أبي جهل وقُتل عمرو بن عبد ودٍّ[5].

وحاول النبي ﷺ تخفيف حدة الحصار بعقد صلح مع غطفان وبثِّ الإشاعات في صفوف العدو، وظهرت حنكته حين اختار هذه القبيلة، لمصالحتها على مال يدفعه لها

---

(١) ابن هشام: جـ٣ ص٢٦٢.
(٢) الواقدي: جـ٢ ص٤٥٩.
(٣) المصدر نفسه: ص٤٦٠.
(٤) ابن هشام: جـ٣ ص٢٦٢.
(٥) ابن هشام: جـ٣ ص٢٦٣. الواقدي: جـ٢ ص٤٦٤، ٤٦٥، ٤٧٠، ٤٧١.

على أن تنسحب من المحالفة وترجع إلى ديارها، فهو يعلم أن غطفان وقادتها ليس لهم من وراء الاشتراك في هذا الغزو أي هدف سياسي يريدون تحقيقه أو باعث عقائدي يقاتلون تحت رايته، وإنما حملهم على الاشتراك الاستيلاء على خيرات المدينة حين احتلالها، متجنباً الاتصال بيهود أو بقريش؛ لأن هدف هؤلاء الرئيس ليس مادياً، وإنما عقائدياً بالقضاء على دولة المدينة الإسلامية واجتثاثها من الأساس.

لم يتردَّد بنو غطفان في قبول العرض الذي قدَّمه النبي ﷺ، ويتضمَّن:

١ ـ عقد صلح منفرد بين المسلمين وغطفان.

٢ ـ توادع غطفان المسلمين وتتوقف عن القيام بأي نشاط عسكري ضدهم.

٣ ـ يدفع المسلمون لغطفان ثلث ثمار المدينة[(١)].

واشترط لإبرامه موافقة أصحاب العلاقة من أهل المدينة.

واتضح من خلال مشروع الاتفاق الهدف المادي الذي خرجت غطفان من أجله، ثم إن انسحاب هذه القبيلة من التحالف يُفقده ثلث قدرته القتالية؛ ما يُضعف روح أفراده المعنوية التي تدفعه إلى الاستمرار في مواجهة المسلمين، وبذلك يستطيع الرسول ﷺ، بفعل تفكيره السياسي المستنير، تفتيت جبهة الأحزاب وإضعافها. وأبرزت المفاوضات جانباً من جوانب منهج النبوة في التحرك لحل الأزمات عند استحكامها وتأزُّمها لتكون درساً منهجياً لأجيال المجتمع المسلم عند اشتداد البلاء[(٢)].

واستدعى رسول الله ﷺ كلاً من سعد بن معاذ وسعد بن عبادة وعرض عليهما الأمر فقالا: «يا رسول الله! أمر تحبه فنصنعه، أم شيء أمرك الله ﷻ به، لا بدَّ لنا من العمل به، أم شيء تصنعه لنا؟» قال: **(لا، بل لكم، والله ما أصنع ذلك إلا لأني رأيت العرب قد رمتكم عن قوس واحدة وكالبوكم من كل جانب، فأردت أن أكسر عنكم من شوكتهم إلى أمر ما)**. فقال له سعد بن معاذ: يا رسول الله! قد كنا نحن وهؤلاء القوم على الشرك بالله ﷻ وعبادة الأوثان، لا نعبد الله ولا نعرفه، وهم لا يطمعون أن يأكلوا منها ثمرة واحدة إلا قِرى (ضيافة) أو بيعاً، أفحين أكرمنا الله بالإسلام، وهدانا له وأعزَّنا بك به، نعطيهم أموالنا؟ ما لنا بهذا من حاجة، والله لا نعطيهم إلا السيف حتى يحكم الله بيننا وبينهم. فقال النبي ﷺ: **(أنت وذاك)**. فتناول سعد بن معاذ صحيفة الصلح فمحا ما فيها من الكتاب[(٣)]. لكن الرسول ﷺ

(١) الواقدي: جـ٢ ص٤٧٧.

(٢) عرجون، محمد الصادق: **محمد رسول الله**، جـ٤ ص١٧٦.

(٣) ابن هشام: جـ٣ ص٢٦٢.

أراد أن يستغل نتائج مشروع الصلح، فأشاع نبأ هذا الاتفاق مع غطفان بين صفوف الأحزاب، فحطَّم بذلك قوات الأحزاب وزعزع وحدتها وتماسكها.

تعرَّض المسلمون في داخل المدينة، إلى جانب الحصار، إلى تناقص الأقوات يوماً بعد يوم، وتخييم شبح الجوع الذي لا يرحم، والبرد القارص في ليالي الشتاء الطويلة، والحرب النفسية العاتية التي شنَّها المنافقون مخذلين ومعوقين ومخوفين، والسهر القاسي في الليالي الطويلة حتى أن محمَّداً بن مسلمة قال: «كان ليلنا بالخندق نهاراً حتى فرَّجه الله». ثم جاء انتقاض بني قريظة علامة خطرة أكيدة لمعسكر المسلمين الصامد، فعظم البلاء، واشتدَّ الخوف، حتى أن الرسول ﷺ لم يكن يسمح لأحد من أصحابه بالتوجه إلى داخل المدينة إلا وهو يحمل سلاحه حذراً من غدر بني قريظة[1].

وتعرَّض الأحزاب أيضاً للضجر؛ لأنهم لم يستطيعوا أن يفعلوا شيئاً بعد هذا الحصار المحكم، وفشل فرسانهم في تخطي الخندق، ولم تحصل صدامات جماعية تُحدِّد المصير، ولكن دورياتهم وفِرق استطلاعهم استمرت ناشطة، وما زالوا يأملون في مباغتة المسلمين، والمسلمون من جانبهم يحرسون النقاط المهمة، ويراقبون تحركات المشركين كيلا يأخذوهم على حين غرَّة[2].

ظهور الفرج بعد الشدة

ظهرت في ظل هذه الأجواء الضاغطة تباشير الفرج، فهزم الله الأحزاب من غير قتال، بوسيلتين لا دخل للمسلمين بهما:

الأولى: من خلال رجل من المشركين من غطفان، يُدعى نُعيم بن مسعود؛ أسلم وأخفى إسلامه عن قومه، فأتى رسول الله ﷺ مسلماً وعرض عليه تنفيذ أي أمر يريده، فقال له الرسول ﷺ: (**إنما أنت فينا رجل واحد، فخذِّل عنا إن استطعت، فإن الحرب خدعة**)[3]. فقام يزرع الشك بين الأطراف المتحالفة. فأتى بني قريظة وكان نديماً لهم، فقال لهم ما معناه: إن الصلات والود بيننا يفرض عليَّ أن أنصحكم، فقريش وغطفان جاؤوا إلى المدينة من بلاد أخرى، وهم يحاولون انتهاز فرصة ما، ويبغون الغنيمة، فإن لم يستطيعوا الظفر بها عادوا إلى بلادهم، وتركوكم مع الرجل في بلدكم، ولا طاقة لكم به، فلا تقاتلوا القوم حتى تأخذوا رهائن من أشرافهم يكونون لكم ضماناً ليقاتلوا معكم ولا يتخلوا عنكم. فأعجبهم ذلك، وقرَّروا العمل بنصيحته.

---

(١) الواقدي: جـ٢ ص٤٦٣، ٤٦٥، ٤٧٥، ٤٧٦، ٤٦٨ ـ ٤٨٩. خليل: ص٢١٣.

(٢) عرموش: ص٨١. (٣) ابن هشام: جـ٣ ص٢٦٥.

ثم جاء نُعيم بن مسعود إلى قريش وغطفان، فقال لهم ما معناه: إن يهود أرسلوا إلى محمد وقالوا له: إنا ندمنا على ما فعلنا فيما بيننا وبينك، فهل يرضيك أن نأخذ لك من القبيلتين، من قريش وغطفان، رجالاً من أشرافهم، فنعطيكهم فتضرب أعناقهم ثم نكون معك على من بقي منهم حتى نستأصلهم، فأرسل إليهم بموافقته، فإن بعثت إليكم يهود يلتمسون منكم رهناً من رجالكم، فلا تدفعوا إليهم منكم رجلاً واحداً(1).

والواقع أن خطة نُعيم بن مسعود قد نجحت، فغرست الشك وعدم الثقة بين قادة الأحزاب، فقد أرسل أبو سفيان وقادة غطفان ليلة السبت من شوال سنة خمس، عِكرمة بن أبي جهل في نفر من قريش وغطفان إلى بني قريظة، فقال لهم: «إنا لسنا بدار مقام، قد هلك الخف والحافر(2)، فاغدوا للقتال حتى نناجز محمَّداً، ونفرغ مما بيننا وبينه»(3)، فكان جوابهم أن اليوم يوم سبت لا نعمل فيه، «ولسنا مع ذلك بالذين نقاتل معكم محمَّداً حتى تعطونا رهناً من رجالكم يكونون بأيدينا ثقة لنا حتى نناجز محمَّداً، فإنا نخشى إن ضرَّستكم الحرب أو اشتدَّ عليكم القتال أن ترجعوا إلى بلادكم وتتركونا ومحمَّد في بلدنا، ولا طاقة لنا بذلك منه»(4).

فلما عادت الرسل بمقالة يهود، قالت قريش وغطفان إن الذي ذكر نُعيم بن مسعود لحق، فأرسلوا إلى بني قريظة رافضين أن يدفعوا إليهم برجل واحد، فقال بنو قريظة عندما وصل إليهم الخبر: صدق نُعيم بن مسعود، إن القوم لا يريدون أن يُقاتلوا، فإن وجدوا فرصة انتهزوها، وإن كان غير ذلك عادوا إلى بلادهم(5).

الثانية: فقد أرسل ﷺ على الأحزاب ريحاً هوجاء عاتية في ليلة مظلمة باردة قلبت قدورهم، واقتلعت خيامهم، وقطعت أوتادهم، كما أرسل ملائكة زلزلتهم وألقت في قلوبهم الرعب والخوف، وذلك بعد بضعة عشر يوماً من الحصار الذي ضربوه على المسلمين، فرحلوا من ليلتهم وولُّوا الأدبار.

وكان رسول الله ﷺ قد دعا حذيفة بن اليمان بعدما اختلف الحلفاء، وتزعزعت الثقة بينهم، وتفرَّقت كلمتهم، وكلَّفه بالتسلل إلى معسكرهم ليلاً واستطلاع ما يدور فيه والعودة إليه بالخبر الصحيح.

نفَّذ حذيفة المهمة وعاد ليخبر الرسول ﷺ بما شاهد: كان الظلام دامساً، والريح شديدة، والنيران مطفأة، فقام أبو سفيان فقال: «يا معشر قريش! لينظر مَنْ جليسه، قال حذيفة: فأخذت بيد الرجل الذي كان إلى جنبي، فقلت: من أنت؟ قال: فلان

(1) الواقدي: جـ2 ص480 ـ 482.
(2) الخف: الإبل، والحافر: الخيل.
(3) الطبري: جـ2 ص579.
(4) ابن هشام: جـ3 ص265.
(5) المصدر نفسه: ص265، 266.

ابن فلان. ثم قال أبو سفيان: يا معشر قريش! إنكم والله ما أصبحتم بدار مقام، لقد هلك الكراع والخف، وأخلفتنا بنو قريظة، وبلغنا عنهم الذي نكره، ولقينا من شدة الريح ما ترون، ما تطمئن لنا قدر، ولا تقوم لنا نار، ولا يستمسك لنا بناء، فارتحلوا فإني مرتحل»[1].

بهذه الكلمات أنهى أبو سفيان غزوة الأحزاب وبدأ بالانسحاب بعد خمسة عشر يوماً من الحصار، كما أنهى العمليات العسكرية الهجومية التي يمكن أن تقوم بها قريش ضد المسلمين إلى الأبد. فعن سليمان بن صرد قال رسول الله ﷺ بعد جلاء الأحزاب: (**الآن نغزوهم ولا يغزوننا**)[2]. وعاد رسول الله ﷺ وأصحابه إلى المدينة في صباح اليوم التالي، قال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱذْكُرُوا۟ نِعْمَةَ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ جَآءَتْكُمْ جُنُودٌ فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِيحًا وَجُنُودًا لَّمْ تَرَوْهَا ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرًا﴾ [الأحزاب/٩].

وكان رسول الله ﷺ لا يفتر طيلة أيام الحصار عن الاستغاثة والتضرع والدعاء لله تعالى أن يؤتي المسلمين النصر، ومن جملة دعائه في ذلك: (**اللهمَّ منزل الكتاب، سريع الحساب، اهزم الأحزاب، اللهمَّ اهزمهم وزلزلهم**)[3].

وفات النبي ﷺ والمسلمون في هذه الغزوة الصلاة في وقتها، وجاء عمر بن الخطاب بعدما غربت الشمس، فجعل يسبُّ كفار قريش فقال: «يا رسول الله! ما كدت أصلي العصر حتى كادت الشمس تغرب...». قال النبي ﷺ: (**والله ما صليتها**)، فقمنا إلى بُطحان فتوضأ للصلاة وتوضأنا لها، فصلى العصر بعدما غربت الشمس، ثم صلَّى بعدها المغرب[4]، ثم دعا على المشركين فقال: (**ملأ الله بيوتهم وقبورهم ناراً، شغلونا عن الصلاة الوسطى حين غابت الشمس**)[5]. وهذا يدل على مشروعية قضاء الفائتة، ومن أدلة هذه المشروعية أن النبيَّ قال بعد منصرفه إلى المدينة من غزوة الأحزاب: (**لا يصلين أحد العصر إلا في بني قريظة**)، فأدرك بعضهم العصر في الطريق، فقال بعضهم: لا نصلي حتى نأتيها. وقال بعضهم: بل نصلي، لم يُرد منا ذلك. فذكر ذلك للنبيِّ ﷺ، فلم يُعنِّف واحداً منهم[6]، وفي هذا

---

(١) ابن هشام: جـ٣ ص٢٦٦.

(٢) **صحيح البخاري**، كتاب المغازي، باب غزوة الخندق، وهي غزوة الأحزاب، رقم الحديث (٤١١٠)، ص٧٤٥، ٧٤٦. وفيما يتعلق بمدة الحصار، انظر: الواقدي، جـ٢ ص٤٩١.

(٣) المصدر نفسه، كتاب المغازي، باب غزوة الأحزاب، رقم الحديث (٤١١٥)، ص٧٤٦.

(٤) المصدر نفسه، رقم الحديث (٤١١٢).

(٥) المصدر نفسه، كتاب الجهاد والسير، باب الدعاء على المشركين بالهزيمة والزلزلة، رقم الحديث (٢٩٣١)، ص٥٣٨.

(٦) المصدر نفسه، كتاب المغازي والسير، باب مرجع النبي ﷺ من الأحزاب ومخرجه إلى =

دليل أيضاً على أن كلاً من المختلفين في الفروع من المجتهدين مصيب[1].

كانت خسائر المسلمين في المعركة ستة شهداء، وخسائر المشركين أربعة مقاتلين، وأصيب سعد بن معاذ سيد الأوس بسهم قطع منه الأكحل[2].

غزوة الأحزاب (الخندق) في القرآن الكريم

يُغفل النص القرآني أسماء الأشخاص ليصور نماذج من البشر وأنماط الطباع، كما يُغفل تفصيلات الحوادث ليصور القيم الثابتة، والسنن الباقية الخالدة التي تسع الزمان والمكان. فالمسلمون معرَّضون دائماً لأن يُغزوا في عقر دارهم، وأن يتكالب عليهم الأعداء، فإن يُسجل القرآن حادثة الأحزاب؛ فذلك من سمة التكرار على مدى العصور، فهو يقص الحادثة على الذين عاشوها وشهدوا أحداثها، لكن النص القرآني مُعدٌّ للعمل في كل زمان ومكان على وجه الإطلاق، لكي يستفيد المسلمون من الدروس والعبر من الحوادث السابقة على وجه الخصوص، والذي يتدبَّر حديث القرآن عن غزوة الأحزاب يراه قد اهتمَّ بتبيان أُمور أهمها[3]:

ـ يبدأ السياق القرآني في الحديث عن غزوة الأحزاب بتذكير المؤمنين بنعمة الله عليهم؛ أن ردَّ عنهم الأحزاب الذين جاؤوا ليستأصلوهم لولا عون الله وتدبيره، ويُجمل في الآية الأولى بداية ونهاية الحادثة قبل تفصيلها لتبرز نعمة الله الذي يُذكِّر المؤمنين بها، ويطلب منهم أن يتذكَّروها: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱذْكُرُوا۟ نِعْمَةَ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ جَآءَتْكُمْ جُنُودٌ فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِيحًا وَجُنُودًا لَّمْ تَرَوْهَا ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرًا﴾ [الأحزاب/ ٩].

ـ يُصوِّر القرآن ما أصاب المسلمين من الهول الذي روَّعهم، وقد أطبق عليهم المشركون من قريش وغطفان، بالإضافة إلى يهود بني قريظة، من كل جانب؛ من أعلاها وأسفلها، مع اختلاف الاستجابة بين قلب وقلب بالكرب والهول، وظنِّه بالله، ومن ثَمَّ كان الابتلاء كاملاً ودقيقاً، والتمييز بين المؤمنين والمنافقين حاسماً: ﴿إِذْ جَآءُوكُم مِّن فَوْقِكُمْ وَمِنْ أَسْفَلَ مِنكُمْ وَإِذْ زَاغَتِ ٱلْأَبْصَٰرُ وَبَلَغَتِ ٱلْقُلُوبُ ٱلْحَنَاجِرَ وَتَظُنُّونَ بِٱللَّهِ ٱلظُّنُونَا۠﴾ [الأحزاب/ ١٠]، وهو تعبير مُصوِّر لحال الخوف والكرب وأثره في النفوس بكل سماته وانفعالاته.

وتزيد سمات الموقف بروزاً وخصائص الهول وضوحاً في قوله تعالى: ﴿هُنَالِكَ ٱبْتُلِىَ

= بني قريظة ومحاصرته إياهم، رقم الحديث (٤١١٧)، ص٧٤٦.

(١) السهيلي: جـ٣ ص٢٨١.

(٢) ابن هشام: جـ٣ ص٢٦٤. والأكحل: عرق في اليد أو عرق الحياة.

(٣) إن هذا التعقيب مستقى في كثير من جوانبه من كتاب: **في ظلال القرآن**، جـ٢٢ ص١٣٨ ـ ١٥١.

﴿ٱلْمُؤْمِنُونَ وَزُلْزِلُوا۟ زِلْزَالًا شَدِيدًا﴾ [الأحزاب/١١]، ولا بد أن يكون هولاً مروعاً مرعباً بحيث كان ليل المسلمين بالخندق نهاراً[(١)]، وكان المشركون يتناوبون بينهم، فيغدو أبو سفيان بن حرب في أصحابه يوماً، ويغدو خالد بن الوليد يوماً، ويغدو عمرو بن العاص يوماً، ويغدو ابن أبي وهب يوماً، ويغدو عِكرمة بن أبي جهل يوماً، ويغدو ضرار بن الخطاب يوماً، حتى عظم البلاء وخاف الناس خوفاً شديداً[(٢)].

وكان أشد الكرب على المسلمين وهم محصورون، ذلك الذي حصل من انتقاض بني قريظة عليهم من خلفهم، فلم يكونوا يأمنون أن ينقض عليهم المشركون من الخندق، وأن تميل عليهم يهود وهم قِلَّة بين تلك الجموع المحاصِرة.

ـ انكشاف نوايا المنافقين السيئة ﴿وَإِذْ يَقُولُ ٱلْمُنَٰفِقُونَ وَٱلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ مَّا وَعَدَنَا ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥٓ إِلَّا غُرُورًا﴾ [الأحزاب/١٢]، فقد وجد هؤلاء في الشدَّة الآخذة في الخناق وفي الكرب المزلزل؛ فرصة للتوهين والتخذيل وبث الشك والريبة، في وعد الله ووعد رسوله ﷺ، وقد أزاح الهول عنهم ذلك الستار الرقيق، فانكشفت نواياهم، ولم يثبت إيمانهم الوهِن، فجهروا بحقيقة ما يشعرون: ﴿وَإِذْ قَالَت طَّآئِفَةٌ مِّنْهُمْ يَٰٓأَهْلَ يَثْرِبَ لَا مُقَامَ لَكُمْ فَٱرْجِعُوا۟ ۚ وَيَسْتَـْٔذِنُ فَرِيقٌ مِّنْهُمُ ٱلنَّبِىَّ يَقُولُونَ إِنَّ بُيُوتَنَا عَوْرَةٌ وَمَا هِىَ بِعَوْرَةٍ ۖ إِن يُرِيدُونَ إِلَّا فِرَارًا﴾ [الأحزاب/١٣]، فهم يُحرِّضون أهل المدينة على ترك الصفوف والعودة إلى بيوتهم بحجة أن إقامتهم أمام الخندق وفي نقاط الحراسة لا محل لها، وأن بيوتهم مُعرَّضة للخطر من ورائهم، إنها دعوة خبيثة تأتي النفوس من الثغرة الضعيفة فيها. وهنا يكشف القرآن عن الحقيقة، فيجرِّدهم من حجتهم، ويضبطهم متلبسين بالكذب والاحتيال، وقد ذكرنا ما كان من أمر أوس بن قيظي من بني حارثة.

ـ ويكشف القرآن أيضاً عن نفوس المنافقين العارية وقلوبهم المريضة، فأما لو وقع واقتُحمت المدينة من أطرافها ثم سُئلوا الفتنة، وطُلب منهم الرِّدة عن دينهم؛ لفعلوا سراعاً غير مترددين إلا قليلاً منهم يتلبثون بعضاً من الوقت قبل أن يستجيبوا ويرتدوا عن دينهم كفاراً، ثم يصمهم بنقض العهد مع الله الذي عاهدوه من قبل: ﴿وَلَوْ دُخِلَتْ عَلَيْهِم مِّنْ أَقْطَارِهَا ثُمَّ سُئِلُوا۟ ٱلْفِتْنَةَ لَءَاتَوْهَا وَمَا تَلَبَّثُوا۟ بِهَآ إِلَّا يَسِيرًا ۞ وَلَقَدْ كَانُوا۟ عَٰهَدُوا۟ ٱللَّهَ مِن قَبْلُ لَا يُوَلُّونَ ٱلْأَدْبَٰرَ ۚ وَكَانَ عَهْدُ ٱللَّهِ مَسْـُٔولًا﴾ [الأحزاب/١٤، ١٥].

ـ يُقرِّر القرآن إحدى القيم الخالدة، ويُصحِّح التصور الذي يدعو المنافقين إلى نقض العهد والفرار ﴿قُل لَّن يَنفَعَكُمُ ٱلْفِرَارُ إِن فَرَرْتُم مِّنَ ٱلْمَوْتِ أَوِ ٱلْقَتْلِ وَإِذًا لَّا تُمَتَّعُونَ إِلَّا قَلِيلًا ۞ قُلْ مَن ذَا ٱلَّذِى يَعْصِمُكُم مِّنَ ٱللَّهِ إِنْ أَرَادَ بِكُمْ سُوٓءًا أَوْ أَرَادَ بِكُمْ رَحْمَةً ۚ وَلَا يَجِدُونَ لَهُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ وَلِيًّا وَلَا نَصِيرًا﴾ [الأحزاب/١٦، ١٧]. إن قدر الله هو المسيطر على

---

(١) الواقدي: جـ٢ ص٤١٦. (٢) ابن سعد: جـ٢ ص٦٧.

الأحداث والمصائر يدفع بها إلى النهاية المحتومة، والموت أو القتل قدر لا مفر من لقائه في موعده لا يستقدم لحظة ولا يتأخر، ولن ينفع الفرار في دفعه عن فارٍّ، فإذا فروا فإنهم مُلاقون حتفهم المكتوب.

ـ يرسم القرآن صورة تُبيِّن نفسية الذين يعيشون مع الجماعة الإسلامية ويتقاعسون عن الجهاد، ويدعون غيرهم إلى التقاعس، وهي مفعمة بالجبن والانزواء والفزع والهلع في ساعة الشدة وعند توهم الخطر من بعيد، وسلاطة اللسان، والشح على الخير، والضن ببذل أي جهد فيه ﴿قَدْ يَعْلَمُ ٱللَّهُ ٱلْمُعَوِّقِينَ مِنكُمْ وَٱلْقَآئِلِينَ لِإِخْوَٰنِهِمْ هَلُمَّ إِلَيْنَا وَلَا يَأْتُونَ ٱلْبَأْسَ إِلَّا قَلِيلًا ۞ أَشِحَّةً عَلَيْكُمْ ۖ فَإِذَا جَآءَ ٱلْخَوْفُ رَأَيْتَهُمْ يَنظُرُونَ إِلَيْكَ تَدُورُ أَعْيُنُهُمْ كَٱلَّذِى يُغْشَىٰ عَلَيْهِ مِنَ ٱلْمَوْتِ ۖ فَإِذَا ذَهَبَ ٱلْخَوْفُ سَلَقُوكُم بِأَلْسِنَةٍ حِدَادٍ أَشِحَّةً عَلَى ٱلْخَيْرِ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ لَمْ يُؤْمِنُوا۟ فَأَحْبَطَ ٱللَّهُ أَعْمَٰلَهُمْ ۚ وَكَانَ ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرًا ۞ يَحْسَبُونَ ٱلْأَحْزَابَ لَمْ يَذْهَبُوا۟ ۖ وَإِن يَأْتِ ٱلْأَحْزَابُ يَوَدُّوا۟ لَوْ أَنَّهُم بَادُونَ فِى ٱلْأَعْرَابِ يَسْـَٔلُونَ عَنْ أَنۢبَآئِكُمْ ۖ وَلَوْ كَانُوا۟ فِيكُم مَّا قَٰتَلُوٓا۟ إِلَّا قَلِيلًا﴾ [الأحزاب/١٨ ـ ٢٠].

ـ وكان هناك في المقابل صورة مضيئة في وسط الظلام، مطمئنة وسط الزلزال، واثقة بالله تعالى، راضية بقضائه، مستيقنة من نصره، بعد كل ما كان من خوف وبلبلة واضطراب ﴿لَّقَدْ كَانَ لَكُمْ فِى رَسُولِ ٱللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِّمَن كَانَ يَرْجُوا۟ ٱللَّهَ وَٱلْيَوْمَ ٱلْءَاخِرَ وَذَكَرَ ٱللَّهَ كَثِيرًا﴾ [الأحزاب/٢١]، وفيها حضُّ المؤمنين في كل زمان ومكان على التأسِّي برسول الله ﷺ، في أقواله وأفعاله وجهاده، وكل أحواله. وكان رسول الله ﷺ، على الرغم من الهول والضيق؛ مثابة الأمان للمسلمين، ومصدر الثقة والرجاء، ومن مواقفه ﷺ أنه كان يعمل في حفر الخندق مع المسلمين، يضرب بالفأس، ويجرف التراب بالمسحاة ويحمله في المكتل، ويرفع صوته مع المرتجزين وهم يرتجزون في أثناء العمل؛ علماً بأنهم كانوا يتغنون بأغانٍ من وحي المناسبة.

ـ مدح الله الجماعة المؤمنة، وهي تواجه جيوش الأحزاب بإيمان صادق، ووفاء بعهد الله، وهي مطمئنة، مستبشرة بالنصر ﴿وَلَمَّا رَءَا ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلْأَحْزَابَ قَالُوا۟ هَٰذَا مَا وَعَدَنَا ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥ وَصَدَقَ ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥ ۚ وَمَا زَادَهُمْ إِلَّآ إِيمَٰنًا وَتَسْلِيمًا ۞ مِّنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ رِجَالٌ صَدَقُوا۟ مَا عَٰهَدُوا۟ ٱللَّهَ عَلَيْهِ ۖ فَمِنْهُم مَّن قَضَىٰ نَحْبَهُۥ وَمِنْهُم مَّن يَنتَظِرُ ۖ وَمَا بَدَّلُوا۟ تَبْدِيلًا﴾ [الأحزاب/٢٢، ٢٣].

ـ ويعقب القرآن ببيان حكمة الابتلاء وعاقبة النقض بالوفاء، وتفويض الأمر في هذا كله لمشيئة الله ﴿لِّيَجْزِىَ ٱللَّهُ ٱلصَّٰدِقِينَ بِصِدْقِهِمْ وَيُعَذِّبَ ٱلْمُنَٰفِقِينَ إِن شَآءَ أَوْ يَتُوبَ عَلَيْهِمْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ غَفُورًا رَّحِيمًا﴾ [الأحزاب/٢٤]. ويختم الحديث عن هذا الحدث الضخم بعاقبته التي تُصدق ظنَّ المؤمنين بربِّهم، وضلال المنافقين والمرجفين وخطأ تصوراتهم، وتُثبِّت القيم الإيمانية ﴿وَرَدَّ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ بِغَيْظِهِمْ لَمْ يَنَالُوا۟ خَيْرًا ۚ وَكَفَى ٱللَّهُ ٱلْمُؤْمِنِينَ ٱلْقِتَالَ ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ قَوِيًّا عَزِيزًا﴾ [الأحزاب/٢٥].

عوامل ساعدت المسلمين على النصر

كانت نتيجة غزوة الأحزاب فشل تام لقريش بقيادة أبي سفيان وحلفائها، ونصر للمسلمين بقيادة الرسول ﷺ، ويمكن التذكير ببعض عوامل ذاك الفشل وهذا النصر بما يلي:

- الوسيلة الإلٰهية التي تتجلَّى في تضرع النبي ﷺ إلى الله، والإكثار من الإقبال عليه بالدعاء والاستغاثة، وهي تعلو في تاثيرها على كل الأسباب والوسائل المادية الأخرى.

- تعدُّد قيادات المهاجمين واختلاف أهدافهم في مقابل وحدة القيادة عند المسلمين. وكانت قريش تهدف إلى القضاء على الإسلام كدين، وعلى المسلمين كأبناء له، وهدفت غطفان إلى الاستفادة المادية من واقع نهب المدينة؛ يُفسِّر ذلك موافقتها على الانسحاب من المعركة مقابل ثلث ثمار المدينة، الأمر الذي رفضه الأنصار كما مرَّ معنا.

- تردُّد بني قريظة في الموافقة على مخطط بني النضير الذين أُجلوا عن المدينة، وعدم ثقتهم بقوى التحالف، وكانوا يأملون أن يقضي الأحزاب على المسلمين، من دون أي تضحيات فعلية منهم في المعركة.

- اختيار المسلمين موقفاً دفاعياً داخل المدينة، بالإضافة إلى موقع المدينة الحصين طبيعياً من ثلاث جهات، وشكَّل الخندق خط الدفاع الرابع، وكان له دوران مهمان:

الأول: كان الخندق أسلوباً جديداً في القتال لم يعرفه العرب في حروبهم، وبهذا يكون الرسول ﷺ أول من استعمل الخندق في الحروب في تاريخ العرب والمسلمين، ومفاجأة غير متوقعة للعدو أبطل خطتهم التي وضعوها، وكان لهذا الأسلوب الجديد في القتال أثر في إضعاف معنويات الأحزاب وتشتيت قواتهم وانتصار المسلمين؛ علماً بأن هذه الوسيلة كان متعارفاً عليها بين الأعاجم فقط، وكان الذي اقترح ذلك سلمان الفارسي، وأن النبي ﷺ أُعجب بها، وسرعان ما دعا أصحابه إلى القيام بتحقيقها، وهذا من جملة الأدلة على أن الحكمة هي ضالة المؤمن التقطها حيث وجدها، ولا يمكن للمسلم أن يتجاهل أيَّ مبدأ أو عمل يُسلِّم به العقل النيِّر والفكر المستنير، ويكون منسجماً مع مبادىء الشريعة الإسلامية، حتى وإن كان مصدره أعداء الدين.

الثاني: حرم المهاجمين من خوض معركة كانوا يحلمون بالنصر فيها، لتفوقهم الهائل في العدد والعُدَّة.

- المساواة والعدالة بين جميع أفراد المجتمع الإسلامي، وهما الأساس الواقعي الذي تنبثق عنه القيم والمبادىء الإسلامية ومصدرهما العبودية لله تعالى. فقد شارك رسول الله ﷺ في حفر الخندق، كما أنه تحمَّل مشقة الجوع الشديد أثناء عمله معهم، حتى أنه ليشد الحجر على بطنه؛ ما يدلُّ على محبته الشديدة لهم والإشفاق

عليهم، بدا ذلك واضحاً في موقفه ﷺ من دعوة جابر له إلى طعامه القليل الذي صنعه، فقد اكتشف جابر شدَّة جوع الرسول ﷺ عندما رأى الحجر المربوط على بطنه الشريف، ولم يكن في بيته من طعام إلا ما يكفي لبضعة أشخاص، ومع ذلك فإنه أشفق على أصحابه، فلم يتركهم يعانون ألم الجوع لينفرد هو عنهم مع بضعة أشخاص يأكلون ويستريحون. وتستوقفنا في هذا المقام معجزة تكثير الطعام، فأثناء دعوة جابر إلى طعامه؛ دعا الصحابة أن يقبلوا جميعاً إلى طعام جابر. وأما المعجزة في هذه القصة، فهي أن شاة جابر الصغيرة تحوَّلت إلى طعام وفير أكل منه مئات الصحابة وشبعوا، وبقيت منه بقية صغيرة تركوها، فاقترح النبي ﷺ على أهل البيت أن يتصدَّقوا بها[(1)]. إنها تقدير إلٰهي لمدى محبته ﷺ لأصحابه.

ـ أسلوب الدفاع المَرِن الذي اعتمده الرسول ﷺ، فقد كانت قواته جاهزة باستمرار للتحرك باتجاه أي ثغرة وسدها بسرعة، كما أن انتظام الدوريات والمراقبة المستمرة والشاملة؛ حرم المشركين من انتهاز أي فرصة، فأمَّن بذلك الجبهة الداخلية من أن تُخرق بتنظيم الدفاع داخلها[(2)].

ـ ثبات المسلمين واستماتتهم في الدفاع عن مدينتهم، وظهر ذلك بجلاء عندما رفض سيدا الأوس والخزرج منح غطفان ثلث ثمار المدينة، مقابل انسحابها من قوى التحالف؛ ما جعل زعماءها يُدركون خطورة المعركة التي تنتظرهم فيما لو حدثت. والواضح أن ردَّ السعدَيْن كان في غاية الاستسلام لله تعالى، والأدب مع النبي ﷺ وطاعته، فقسماه إلى ثلاثة أقسام:

الأول: أن يكون هذا الأمر من عند الله، فلا مجال عندئذ لإبداء الرأي، بل لا بدَّ من التسليم.

الثاني: أن يكون شيئاً يحبه رسول الله ﷺ بوصفه رأيه الخاص، ورأيه مقدَّم وله الطاعة في ذلك.

الثالث: أن يكون شيئاً عمله الرسول ﷺ لمصلحة المسلمين من باب الإرفاق بهم، فهذا هو الذي يكون مجالاً للرأي.

ولما تبيَّن لهما أنه ﷺ أراد القسم الثالث؛ أجابه سعد بن عبادة بجواب قاطع، فبيَّن أن الأنصار لم يذلُّوا لأولئك المعتدين في الجاهلية، فكيف وقد أعزَّهم الله تعالى بالإسلام؟ وقد أُعجب النبي ﷺ بجوابه، ووقف على معنويات الأنصار المرتفعة واحتفاظهم بالروح المعنوية العالية، فألغى ما بدأ به من الصلح مع غطفان[(3)].

---

(1) ابن هشام: جـ٣ ص٢٦٠. (2) عرموش: ص٨٥.

(3) الحميدي، عبد العزيز: **التاريخ الإسلامي مواقف وعبر**، جـ٦ ص١٢٥.

ـ تدل استشارة النبي للصحابة على أسلوبه المَرِن في القيادة، وحرصه على تطبيق مبدأ الشورى في كل أمر عسكري يتصل بالجماعة المسلمة، بحيث لا ينفرد به فرد حتى ولو كان هذا الفرد الرسول ﷺ نفسه، ما دام الأمر في دائرة الاجتهاد، ولم ينزل به وحي. وتصب استشارته للسعدَيْن في هذا التوجه، ويدل قبوله في رفض الصلح مع غطفان على أن القائد الناجح هو الذي يربط بينه وبين جنده رباط الثقة، فيحترم رأيهم ويحترمون رأيه، وتُعدُّ مصالحة غطفان من باب السياسة الشرعية التي تُراعى فيها المصالح والمفاسد وفق ما تراه القيادة الرشيدة للأُمة. ويحمل موقف الصحابة من هذا الصلح في طياته ثلاثة أمور:

الأول: يؤكد شجاعة المسلمين الأدبية في إبداء الرأي والمشورة في أي أمر يخص الجماعة المسلمة، إذا ما دعت الحاجة إلى ذلك.

الثاني: يكشف عن جوهر المسلمين وعن حقيقة اتصالهم بالله وبرسوله.

الثالث: يُبيِّن ما تمتلىء به الروح المعنوية لدى المسلمين من قدرة على مواجهة المواقف الحرجة بالصبر، والرغبة القوية في قهر العدو مهما كثر عدده وعتاده أو تَعدَّد حلفائه[(١)].

ـ سوء اختيار زمان المعركة من قِبَل المشركين، فقد كان الشتاء قاسياً وهم لم يعتادوا البرد الشديد، ولم يتمكَّنوا من تأمين الإمدادات لقواتهم الكبيرة بفعل طول المسافة مع قواعدهم، وكان مقامهم في العراء تحت الخيام يحرمهم من الدفء، وكثيراً ما اقتلعت الرياح خيامهم، وأطفأت نيرانهم حتى ضجوا بموقفهم عندما طال أمد الحصار بدون نتيجة، وجاء قرار الانسحاب في لحظة من تلك اللحظات القاسية التي اشتدَّت فيها الرياح[(٢)].

ـ الحرب النفسية المدمرة التي قادها نُعيم بن مسعود بحنكة عالية، فقد استطاع وحده أن يُفرِّق جموع الأحزاب، ويُزعزع الثقة في نفوسهم؛ ما جعلهم يحجمون عن الدخول في المعركة وحسْم الحصار بالمواجهة.

ـ إن في استشارة النبي ﷺ لبعض أصحابه في الصلح مع غطفان وما تضمنه من موجبات على أهل المدينة؛ حكمة بالغة تتجلَّى في إرادة النبي ﷺ الاطمئنان إلى مدى ما يتمتع به أصحابه الصادقون من القوة المعنوية والاعتماد على نصر الله وتوفيقه، على الرغم من كثرة عدد المشركين الذين جاؤوا ليستأصلوهم، بالإضافة إلى نقض بني قريظة العهد مع النبي ﷺ، وهو الذي لم يشأ أن يزج بأصحابه في مغامرة لا يجدون في أنفسهم شجاعة كافية لخوضها أو لا يؤمنون بجدواها، وقد كان هذا من أبرز أساليبه التربوية لأصحابه.

---

(١) فرج، محمد: **العبقرية العسكرية في غزوات الرسول**، ص٤١٤ ـ ٤١٦.

(٢) عرموش: ص٨٥.

الفَصْل العَاشِر

غزوة الحديبية

الغزوات والسرايا قبل غزوة الحديبية

كانت غزوة الخندق آخر محاولة تقوم بها قريش لمحاربة المسلمين والقضاء على الإسلام، وكانت قد وضعت في هذه الحملة كل قدراتها، وحشدت حلفاءها، وبقيت معسكرة في الميدان مدة طويلة نسبياً بمقاييس تلك الأيام، وقامت بنشاط سياسي لتفكيك عُرى الجبهة الإسلامية الداخلية. ولما فشلت كل هذه الجهود؛ أدركت عبث تجديد محاولاتها للقضاء على الإسلام ودولته، كما ازداد تساؤل بعض القرشيين عن مدى صحة موقفهم المعادي للرسول ﷺ، وهو من قريش، وبعض أتباعه المسلمين هم من قريش أيضاً، ولم يقوموا بعمل يُبرِّر المعاملة الفظة التي عوملوا بها.

وصرَّح النبي ﷺ إثر غزوة الأحزاب بأن الخطوة الإسلامية التالية هي غزو قريش بعد تغيُّر موازين القوى لصالحه، حيث بات للمسلمين القدرة على الهجوم أكثر من ذي قبل، وأدرك أن قريشاً لن تركن ما لم تقضِ عليه وعلى دينه، وأظهر الأعراب أنهم على استعداد لمساعدتها والانقضاض على قاعدته في المدينة؛ لذا قرَّر القيام بحملات إجهاضية وتأديبية، وسعى لبسط سيادة الدولة الإسلامية على ما تبقَّى من قوى حول المدينة؛ لأن لذلك علاقة بما كان يُخطط لغزو قريش، فقام خلال العام السادس للهجرة بغزوتين، وأرسل أربع عشرة سرية ضد القبائل المختلفة بهدف:

- زيادة إنهاك قريش والضغط عليها وإحكام حصارها.
- معاقبة كل من أساء إلى الرسول ﷺ، ودعوته كي لا يُجدِّد إساءته.
- إنذار كل من يُفكر بمهاجمة المدينة أن اعتداءه لن يمر من دون عقاب.
- إثبات وجود الدولة الإسلامية كقوة فاعلة على صعيد الجزيرة العربية كلها.
- تقوية مركزه العسكري والمالي.

وقد تمثَّل النشاط العسكري ضد قريش وضد بعض القبائل الموالية لها، أو التي ناصبت الدولة الإسلامية العداء، فيما يلي:

سرية محمد بن مسلمة إلى بني القرطاء[1]: تميَّزت العشائر التي كانت تقطن

---

(١) **القرطاء**: بطن من بني بكر.

منطقة نجد، وهم من بني بكر بن كلاب من هوازن، بالشجاعة والجرأة، وقد شكلت الأغلبية الساحقة من تلك القوة الضاربة التي اشتركت في جيش الأحزاب، لذلك كان أول عمل عسكري أقدم عليه الرسول ﷺ بعد الأحزاب هو مهاجمتها في عقر دارها، فجرَّد حملة عسكرية ضد بني القرطاء الضاربين بناحية ضرية[1]، وذلك في (محرم ٦هـ/ حزيران ٦٢٧م) بقيادة محمد بن مسلمة الأنصاري، وأمره أن يسير في الليل ويكمن في النهار. ففاجأ القوم وقتل منهم عشرة، وفرَّ الباقون، فلم يطاردهم واكتفى بأن غنم إبلهم وماشيتهم، ولم يعرض للظعن[2]، وأسر في طريق عودته ثمامة بن أثال الحنفي سيد بني حنيفة، وهو لا يعرفه، فقدم به إلى المدينة وربطه بسارية من سواري المسجد، فخرج إليه رسول الله ﷺ فقال: (**ماذا عندك يا ثمامة؟**) فقال: عندي خير يا محمَّد، إن تقتلني؛ تقتل ذا دم، وإن تُنعم؛ تنعم على شاكر، وإن كنت تريد المال فسل منه ما شئت». فتركه الرسول ﷺ حتى كان الغد، فوجَّه إليه السؤال نفسه، وأجابه ثمامة بالجواب نفسه، وكذلك فعل في اليوم الثالث، عندئذ أطلق النبي ﷺ سراحه، فانطلق إلى نخل قريب فاغتسل ثم دخل المسجد، وآمن برسول الله ﷺ، وقال: «يا محمد! والله ما كان على الأرض وجه أبغض إليَّ من وجهك، فقد أصبح وجهك أحب الوجوه إليَّ، والله ما كان دين أبغض إليَّ من دينك، فأصبح دينك أحب الدين إليَّ، والله ما كان بلد أبغض إليَّ من بلدك، فأصبحت بلدك أحب البلاد إليَّ». ثم ذهب إلى مكة ليعتمر، فاتهمه أحد القرشيين بأنه صبأ، فأجابه: «لا والله، لكني أسلمت مع محمَّد ﷺ». ثم هدَّد قريشاً بأن لا يأتيها من اليمامة حبة حنطة إلا بعد موافقة النبي ﷺ، وقد أبرَّ بتهديده؛ ما دفع وجوه قريش إلى أن يكتبوا إلى رسول الله ﷺ يسألونه بأرحامهم أن يكتب إلى ثمامة ليخلِّي لهم حمل الطعام، فاستجاب لرجاء قومه، على الرغم من حال الحرب معهم، وامتثل ثمامة لأمره[3].

تتضمَّن سرية محمد بن مسلمة بعض الفوائد، نذكر منها:

- جواز ربط الكافر بسرايا المسجد.

- جواز المنِّ على الأسير الكافر، وتعظيم أمر العفو عن المسيء، فانقلب بُغض ثمامة حباً في ساعة واحدة، بفعل ما أسداه النبي ﷺ إليه من العفو والمنِّ بغير مقابل.

---

(١) ضرية: قرية عامرة قديمة على وجه الدهر في طريق مكة من البصرة إلى نجد. الحموي: جـ٣ ص٤٥٧.

(٢) الواقدي: جـ٢ ص٥٣٤. (٣) ابن هشام: جـ٤ ص٢٤٥.

ـ الملاطفة لمن يُرجى إسلامه من الأسارى إذا كان في ذلك مصلحة للإسلام، ولا سيما إذا كان معتبراً في قومه؛ ما يجعل إسلامه قدوة لهم، فيتبعونه.
ـ ينبغي على المؤمن عند تركه الكفر أن يدع تصرفاته السابقة ويلتزم بأوامر الله.
ـ يُغيِّر الإسلام سلوك المؤمن كما جرى مع ثمامة بعدم إرسال القمح لأهل مكة، إلا بعد موافقة الرسول ﷺ[1].

سرية أبي عبيدة بن الجراح إلى سيف البحر، أو سرية الخبط: تتباين روايات المصادر في تحديد مهمة هذه السرية، فقد ذكر الواقدي ومن أخذ عنه ـ كابن سعد ـ أن وجهتها ساحل البحر إلى حي جهينة[2]، ولم يُحدِّد ابن إسحاق مهمتها، إنما ذكر أنها أُرسلت إلى سيف البحر[3]. وفي الصحيحين عن جابر أن مهمة السرية رصد عير لقريش[4]. كذلك لم تُحدد غالبية روايات المصادر، وبخاصة الصحيحة منها، تاريخاً لهذه السرية، وحدَّدها الواقدي وابن سعد بشهر رجب عام (٨هـ)[5]، والراجح أن البعث كان في أواخر رجب عام (٦هـ)؛ لأنه في سنة ثمانٍ كان مفعول الهدنة المنبثقة عن اتفاق الحديبية بين المسلمين وقريش، سارياً.

ومهما يكن من أمر، ترتبط سرية أبي عبيدة بن الجراح إلى سيف البحر بسياسة النبي ﷺ، في إضعاف قريش وزيادة الضغط عليها ومحاصرتها اقتصادياً. فقد حشد ﷺ قوة عسكرية تألفت من ثلاثمائة مقاتل من المهاجرين والأنصار، وأسند قيادتها إلى أبي عبيدة بن الجراح، وحدَّد له الهدف وهو رصد عير قريش، ربما تكون قافلة تجارية تسلك طريق الساحل بعيداً عن منعرج المدينة، وقد تمر بمنطقة نفوذ جهينة على ساحل البحر الأحمر. ونظراً للضائقة الاقتصادية التي كان يمر بها المسلمون في ذلك الوقت، فقد كان تموين هذا الجيش ضعيفاً، بحيث لم يجد رسول الله ﷺ غير جراب من تمر زوَّدهم إياه، بالإضافة إلى أزوادهم الخاصة التي كانت في مجملها قليلة أيضاً.

وأثناء السير إلى الهدف فني زاد السرية العام، فأمر أبو عبيدة بأزواد أفراد الجيش

---

(١) الطرهوني، محمد بن رزق: **صحيح السيرة النبوية المسماة السيرة الذهبية**، جـ١ ص٣٨٦، ٣٨٧.
(٢) **مغازي الواقدي**: جـ٢ ص٧٧٤. ابن سعد: جـ٢ ص١٣٢.
(٣) **السيرة النبوية لابن هشام**: جـ٤ ص٢٤٣.
(٤) **صحيح البخاري**، كتاب المغازي، باب غزوة سيف البحر... رقم الحديث (٤٣٦١)، ص٧٨٥. **صحيح مسلم على شرح النووي**: كتاب الصيد والذبائح، باب إباحة ميتات البحر، جـ١٣ ص٨٤ ـ ٩٠.
(٥) **مغازي الواقدي**: جـ١ ص٦. **طبقات ابن سعد**: جـ٢ ص١٣٢.

الخاصة، فجُمع فكان مزودي تمر[1]؛ وذلك لأجل البركة في اجتماع الأزواد، وحتى يتساوى الكل في القوت، فلا يتميز أحد عن أحد، فكان يقوتهم كل يوم «قبضة قبضة» ثم «تمرة تمرة»[2]. وقد أدرك الجنود صعوبة الموقف، فتقبَّلوا هذا الإجراء التقشفي بصدر رحبة، بل إنهم ساهموا في خطة قائدهم التقشفية، فكانوا يحاولون الإبقاء على التمرة أكبر وقت ممكن.

يقول جابر، وهو أحد أفراد السرية: «كنا نمصها كما يمص الصبي، ثم نشرب عليها من الماء، فتكفينا يومنا إلى الليل»[3]. وسُئل جابر: «ما تُغني عنكم تمرة؟ فقال: لقد وجدنا فقدها حين فنيت»[4]. ومع ذلك لم يؤثر هذا الوضع الصعب على معنويات الجيش واستسلام أفراده للأمر الواقع، بل فكَّروا في وسيلة تُعوضهم عن الجوع، فاضطروا إلى أكل ورق الشجر، فراحوا يتصيَّدون الخَبَط ـ أي: ورق الشجر ـ فيسحقونه ويسفُّونه ويشربون عليه الماء، ولذلك سميت هذه السرية؛ سرية الخبط. وابتاع قيس بن سعد بن عُبادة جُزراً ونحرها لأفراد السرية، ثم ألقى البحر حوتاً، قال أبو عبيدة: «ميتة، ثم قال: لا، بل نحن رسل رسول الله ﷺ، وفي سبيل الله، وقد اضطررتم، فكلوا...»، ولما عادوا إلى المدينة بعد مرور شهر ونصف تقريباً، قال لهم رسول الله ﷺ: **(ما حبسكم؟)** قالوا: كنا نتبع عيرات قريش، وذكرنا له من أمر الدابة، فقال: **(هو رزق أخرجه الله لكم، فهل معكم من لحمه شيء فتطعمونا؟)**. قال: فأرسلنا إلى رسول الله ﷺ منه، فأكله»[5].

بعض الفوائد الفقهية والأحكام المستنبطة من أحداث هذه السرية

ـ جواز صدِّ أهل الحرب واغتيالهم والخروج لأخذ مالهم واغتنامه.

ـ لا بد للجيوش من أمير يضبطها، وينقادون لأمره ونهيه، وينبغي أن يكون أفضلهم أو من أفضلهم.

ـ يُستحب للرفقة من الناس، وإن قلُّوا، أن يؤمِّروا أحدهم عليهم، وينقادوا له.

ـ يُستحب للرفقة من المسافرين خلط أزوادهم ليكون أبرك وأحسن في العُشرة،

---

(١) من رواية وهب بن كيسان عن جابر. **صحيح البخاري**، مصدر سابق، رقم الحديث (٤٣٦٠)، ص٧٨٥.

(٢) من رواية سفيان عن جابر، **صحيح مسلم بشرح النووي**، مصدر سابق، جـ١٣ ص٨٨.

(٣) من رواية ابن الزبير عن جابر، المصدر نفسه، ص٨٤.

(٤) من رواية وهب عن جابر عند البخاري، مصدر سابق، رقم الحديث (٤٣٦٠)، ص٧٨٥.

(٥) **صحيح مسلم على شرح النووي**، مصدر سابق، ص٨٧.

وأن لا يختص بعضهم بأكل دون بعض[1].

ـ مشروعية المواساة بين الجيش عند وقوع المجاعة، وأن الاجتماع على الطعام يستدعي البركة فيه.

ـ تُبيِّن أحداث هذه السرية ما كان عليه الصحابة من الزهد في الدنيا والتقلل منها، والصبر على الجوع، وخشونة العيش، وإقدامهم على الغزو مع هذا الحال.

ـ جواز أكل ميتة البحر، وأنها لم تدخل في قوله تعالى: ﴿حُرِّمَتْ عَلَيْكُمُ الْمَيْتَةُ وَالدَّمُ﴾ [المائدة/ ٣]، وقال تعالى: ﴿أُحِلَّ لَكُمْ صَيْدُ الْبَحْرِ وَطَعَامُهُ مَتَاعًا لَكُمْ﴾ [المائدة/ ٩٦]، وقد صحَّ عن أبي بكر الصديق وعبد الله بن عباس وجماعة من الصحابة «أن صيد البحر ما صيد منه، وطعامه ما مات فيه»، وطعامه ما قذف[2]، ثم إن أكل الرسول ﷺ من لحم الحوت الذي تغذَّى منه المسلمون مدة؛ دليل على مشروعية أكل ميتة البحر.

غزوة بني لحيان: انتقل المسلمون بعد غزوة الأحزاب من الدفاع إلى الهجوم، وأضحوا يُمسكون بزمام الأُمور، وقد حان الوقت لتأديب بني لحيان الذين غدروا بخُبيب وأصحابه يوم الرجيع، والأخذ بثأر الشهداء، فخرج رسول الله ﷺ إليهم في (جمادى الأولى ٦هـ/ أيلول ٦٢٧م)، بعد ستة أشهر من غزوة بني قريظة، على رأس مائتي مقاتل.

كانت أرض هذيل تبعد عن المدينة أكثر من مائتي ميل، وهي مسافة طويلة وتعترضها مشاق كبيرة، ولكن النبي ﷺ كان مصمماً على الاقتصاص لأصحابه الشهداء. وكما هي عادته في تضليل العدو الذي يريد مهاجمته، توجَّه بجيشه نحو الشمال، مظهراً أنه يريد بلاد الشام؛ علماً بأن منازل بني لحيان تقع في أقصى الجنوب. وبعد أن سار نحو عشرين ميلاً انعطف نحو الغرب، ثم اتخذ طريقه نحو الجنوب حتى نزل على غُران[3]، وهي منازل بني لحيان، ثم إلى ساية.

ويبدو أن بني لحيان علموا مبكراً باقتراب المسلمين من منازلهم، فهجروها إلى الجبال ليحتموا بها. ولما وصل النبي ﷺ لم يجد أحداً، وعسكر في منازلهم وبثَّ السرايا ليتعقبوا الفارين. واستمرَّت السرايا تجوب المنطقة مدة يومين من دون نتيجة، ثم ترحَّم ﷺ على الشهداء ودعا لهم.

وانتهز النبي ﷺ فرصة وجوده قريباً من مكة، فقام بمناورة عسكرية لإرهاب

---

(١) شرح النووي في هامش صحيح مسلم، مصدر سابق، ص٨٤ ـ ٨٦.

(٢) تفسير ابن كثير: جـ٢ ص١٠١.

(٣) غُران: وادٍ ضخم بالحجاز بين ساية ومكة. الحموي: جـ٤ ص١٩١.

قريش، فنزل وادي عُسفان على نحو يومين منها، وأرسل أبا بكر على رأس عشرة فوارس توغَّلوا باتجاه مكة، لبثِّ الذعر والفزع في نفوس القرشيين، فوصل إلى كراع الغميم القريب جداً من مكة.

وعاد رسول الله ﷺ بعد ذلك إلى المدينة، من دون أن يلقى كيداً، واستغرقت الغزوة مدة أربع عشرة ليلة[١].

غزوة الغابة[٢]**، أو ذي قَرَد**[٣]: حدث بعد ليالٍ من وصول النبي ﷺ إلى المدينة من غزوة بني لحيان أن أغار عيينة بن حصن الفزاري في خيل من غطفان عددها أربعين على لقاح لرسول الله ﷺ بالغابة، وقتلوا ذر بن أبي ذر، وأسروا زوجته، واستاقوا الإبل، وعددها عشرون. كان سلمة بن الأكوع السلمي أول من علم بهذه الغارة، وكان ضمن الرعاة في المنطقة، فراشق القوم بالنبل بمفرده حتى انتهى بهم إلى ذي قَرَد، ونجح في استخلاص عدد من الإبل المنهوبة قبل قدوم الجيش الإسلامي.

وما إن علم النبي ﷺ بالخبر حتى خرج في إثر عيينة على رأس خمسمائة من أصحابه، فأدركه وأتباعه عند جبل ذي قَرَد، فقتل بعضهم واستنقذ الإبل وعاد إلى المدينة من دون أن يطارد القوم، ويبدو أن لذلك علاقة بقوة غطفان العسكرية، فلم يرغب التورط معها بقتال يُرهق به قواته؛ لأنه أراد أن يدخرها للغزوات المفصلية التي خطَّط لها، وفي طليعتها فتح مكة، وقد صلى الرسول ﷺ صلاة الخوف في هذه الغزوة.

واشتملت هذه الغزوة على حُكم فقهي، فقد أقبلت امرأة ذر بن أبي ذر إلى المدينة سالمة بعد أن تمكَّنت من الإفلات من القوم، على ظهر ناقة تابعة لرسول الله ﷺ، وقد نذرت أن تنحرها إن نجاها الله عليها، فتبسم الرسول ﷺ ثم قال: **(بئس ما جزيتها أن حماك الله ونجاك بها ثم تنحرينها، إنه لا نذر في معصية الله ولا فيما لا تملكين، إنما هي ناقة من إبلي، فارجعي إلى أهلك على بركة الله)**[٤].

تُعدُّ غزوة الغابة أو ذي قَرَد من أكبر الغزوات التأديبية التي قادها رسول الله ﷺ بنفسه ضد أعراب نجد بعد غزوة الأحزاب. وتتابعت سراياه بعدها لتأديب بعض القبائل والضغط على قريش، نذكر منها:

---

(١) ابن هشام: جـ٣ ص٢٩٧، ٢٩٨. وعند الواقدي أن الغزوة تمَّت في شهر ربيع الأول. **المغازي**: جـ٢ ص٥٣٥.

(٢) **الغابة**: موضع قرب المدينة من ناحية الشام فيه أموال لأهل المدينة. الحموي: جـ٤ ص١٨٢.

(٣) **ذو قَرَد**: ماء على ليلتين من المدينة بينها وبين خيبر. المصدر نفسه، ص٣٢١.

(٤) ابن هشام: جـ٤ ص٣، ٤. الواقدي: جـ٢ ص٥٣٧ ـ ٥٤٩.

سرية محمد بن مسلمة إلى ذي القصَّة(١): فقد أرسل ﷺ سرية إلى ذي القصَّة في شهر (ربيع الأول ٦هـ/تموز ٦٢٧م) بقيادة محمد بن مسلمة قوامها عشرة مقاتلين، ضد بني ثعلبة وعُوال لمنعهم من الإغارة على سرح المدينة، فورد عليهم ليلاً وهم مائة، فتراموا بالنبل ساعة من الليل، ثم حملت عليهم الأعراب بالرماح فقتلوهم، وجُرح محمد بن مسلمة، ولم يتمكَّن من العودة إلا بعد أن مرَّ به أحد المسلمين، فحمله إلى المدينة(٢).

سرية أبي عبيدة بن الجراح إلى ذي القصَّة: بعث رسول الله ﷺ في (ربيع الآخر ٦هـ/آب ٦٢٧م) سرية إلى ذي القصَّة قوامها أربعون مقاتلاً بقيادة أبي عبيدة بن الجراح، وسببها أن بلاد بني ثعلبة وأنمار أجدبت وهطلت أمطار في منطقة المراض(٣)، فقصدتها هذه القبائل، ولما كانت المنطقة قريبة من المدينة، فقد طمعت في الإغارة على سرحها، وهو مرعى على بُعد سبعة أميال من المدينة. انطلقت الحملة بعد صلاة المغرب، ووصلت إلى ذي القصَّة قبل طلوع الفجر، فأغار المسلمون عليهم، فهربوا إلى الجبال ولم ينالوا منهم إلا أسيراً واحداً أعلن إسلامه فأطلقوه، واستاقوا قطعاناً من ماشيتهم وعادوا بها إلى المدينة(٤).

سرية زيد بن حارثة إلى العِيص(٥): سببها أنه بلغه ﷺ أن عيراً لقريش في طريقها من بلاد الشام إلى مكة، فأرسل زيداً بن حارثة على رأس مائة وسبعين مقاتلاً لاعتراضها، وذلك في (جمادى الأولى ٦هـ/أيلول ٦٢٧م)، فأدركها واستولى عليها، وكان فيها مال كثير، وأسر بعض مَن فيها مِن المشركين، وكان أبو العاص بن الربيع، زوج زينب بنت الرسول ﷺ من بينهم، فاستجار بزوجته فأجارته، وأعاد إليه الرسول ﷺ ما أُخذ منه، فذهب إلى مكة وأدَّى ما عليه لأهلها من أموالهم ثم عاد إلى المدينة، وأعلن إسلامه(٦).

سرية علي بن أبي طالب إلى بني سعد: سببها أن بني سعد بن بكر حشدوا

---

(١) **ذو القصة**: موضع بينه وبين المدينة أربعة وعشرون ميلاً، وهو في طريق الربذة. الحموي: جـ٤ ص٣٦٦.

(٢) الواقدي: جـ٢ ص٥٥١، ٥٥٢. ابن الأثير: جـ٢ ص٨٧.

(٣) **المراض**: موضع على طريق الحجاز من ناحية الكوفة. الحموي: جـ٥ ص٩٣، على بُعد ستة وثلاثين ميلاً من المدينة.

(٤) الواقدي: جـ٢ ص٥٥٢. ابن سعد: جـ٢ ص٨٦.

(٥) **العِيص**: على بُعد أربع ليال من المدينة، وهو موضع في بلاد بني سليم، به ماء. الحموي: جـ٤ ص١٧٣.

(٦) الواقدي: جـ٢ ص٥٥٣، ٥٥٤.

جموعهم في فدك بهدف مساعدة يهود خيبر، فأرسل الرسول ﷺ سرية في (شعبان ٦هـ/ كانون الأول ٦٢٧م) بقيادة علي بن أبي طالب قوامها مائة مقاتل لتأديبهم، ومنعهم من تحقيق هدفهم، فأدركهم في الهمج وهو ماء بين خيبر وفدك، فأغار عليهم وغنم بعض قطعانهم وعاد بها إلى المدينة[١].

ترجع أهمية هذه الغزوات والسرايا إلى ترشيد المسلمين إلى ضرورة متابعة تحركات قريش والقبائل العربية، والاطلاع المستمر على أخبار أعدائهم، وجمع المعلومات عنهم، كما كانت تأديباً لكل من يتجرَّأ على مساعدة يهود في بغيهم.

أسباب خروج الرسول ﷺ إلى الحديبية

بعد أن ارتدَّ الأحزاب خائبين عن المدينة؛ قضى رسول الله ﷺ على بني قريظة بفعل خيانتهم وتعاونهم مع المشركين، ووطَّد سلطته في المدينة. أما في الخارج، فقد كان الوضع قلقاً، فقريش في الجنوب تتحين الفرص لمهاجمة المسلمين، ويهود خيبر في الشمال يحيكون المؤامرات ويُموِّلون أعداء المسلمين ويُحرِّضونهم، والأعراب حول المدينة يتوثبون للانقضاض عليها؛ لذلك قرَّر استباق الأعداء قبل تجمعهم، وإحباط خططهم. فبدأ بالأعراب، فوجَّه إليهم السرايا التي ذكرنا بعضها، إما لتأديب من اعتدى على المسلمين منهم، أو إثباتاً للوجود وإنذاراً لمن يفكر منهم بالاعتداء عليهم، ولم يبق أمامه غير الجبهتين الجنوبية والشمالية. ولما كان العدو الرئيس المتمثل بقريش قابع في الجنوب، وهو غير قادر على إخضاعه عسكرياً في الوقت الحاضر؛ قرَّر اللجوء إلى السياسة، وقد يؤدي ذلك إلى تحييده، وبخاصة أنه تناهى إلى أسماعه قيام تحالف عسكري بين قريش ويهود خيبر بهدف الإحاطة بالدولة الإسلامية وإنهاء الوجود الإسلامي في المدينة.

كان العرب قبل الإسلام يُقدسون مكة، وهي ليست ملكاً لقريش، بل هي تراث أبيهم إسماعيل، ولهذا فليس من حق قريش أن تمنع من تشاء من زيارتها وتسمح لمن تشاء، وبذلك يكون من حق الرسول ﷺ والمسلمين زيارة الكعبة، ولا يحق لقريش أن تمنعهم.

وقدَّر النبي ﷺ أن هناك ثلاثة احتمالات قد يواجه أحدها، وهي:

الأول: أن تمنعه قريش بالقوة من دخول مكة وزيارة الكعبة، نظراً لما بينه وبينها من عداوة، لكن قريشاً أعقل من أن تُقدم على مثل هذا التصرف لسببين:

١ ـ لأن هذا العمل سيثير حفيظة العرب ضدها، ويُحدث شقاقاً بينها وبين القبائل

---

(١) ابن سعد: جـ٢ ص٨٩، ٩٠.

المعادية للإسلام، ويصب هذا - إن حصل - في صالح القضية الإسلامية.

٢ - لقد أثبتت الدولة الإسلامية حضورها كطرف سياسي في الجزيرة العربية، وأوقعت الرعب في قلوب القبائل، ولا بد لقريش من أن تأخذ ذلك في الحسبان، فلا تجازف بخوض حرب معها.

الثاني: أن تسمح قريش لرسول الله ﷺ وأصحابه بدخول مكة، ولكن هذا أمر تأباه كرامتها، بالإضافة إلى ذلك لن يضمن عدم وقوع حوادث عندما يشاهد الرجل قاتل أبيه وأخيه ينعم بالأمن والاطمئنان في بلده، ولن يكون ذلك في صالح قريش؛ لأنه سيشيع بين العرب أن قريشاً تقتل في الحرم من أتى لتعظيم الكعبة.

الثالث: أن تعرض قريش على الرسول ﷺ الرجوع من دون دخول مكة، وهو في هذه الحال لن يعود إلا بشروط يرضاها، وستبذل له قريش ما يريد خشية من الوقوع في أحد الاحتمالين السابقين.

ومهما يكن من أمر، فإن أي الاحتمالات الثلاثة وقع فهو من الناحية السياسية يصب في مصلحة المسلمين[١].

خروج الرسول ﷺ لأداء العمرة

خرج رسول الله ﷺ يوم الاثنين من (ذي القعدة ٦هـ/ آذار ٦٢٨م) من المدينة متوجهاً مع أصحابه إلى مكة لأداء العمرة، لا يريد حرباً. وكان قد رأى رؤيا أنه دخل مكة معهم محرماً مؤدياً للعمرة، وقد ساق معه الهدي[٢]، معظِّماً للبيت الحرام، مُقدِّساً له، وبشَّر أصحابه بذلك، ففرحوا وقد تاقت نفوسهم بدخول مكة والطواف حول الكعبة. واستنفر العرب ومن حوله من أهل البوادي من الأعراب ليخرجوا معه؛ لأنه كان يخشى أن تصدَّه قريش، وبخاصة أنه علم بالتفاهم بينها وبين يهود خيبر، فأبطأ عليه كثير من الأعراب، فخرج بمن معه من المهاجرين والأنصار، وعددهم - على أرجح الروايات - ألف وأربعمائة صحابي، من دون سلاح ولا كراع إلا السيوف في القرب، ومن لحق بهم من العرب، وبخاصة من خزاعة، وأحرم بالعمرة من ذي الحليفة[٣]، بعد أن قلَّد[٤] الهدي وأشعره[٥] ليأمن

---

(١) قلعه جي: ص٢١٣، ٢١٤.

(٢) الهدي: النَّعم التي تُنقل إلى الحرم للذبح أو ما يُهدى إلى الحرم من النَّعم وغيرها.

(٣) **ذو الحليفة**: قرية بينها وبين المدينة ستة أميال أو سبعة، ومنها ميقات أهل المدينة. الحموي: جـ٢ ص٢٩٥.

(٤) قلَّد الجمل: جعل في عنقه حبلاً يُقاد به.

(٥) أشعر: إشعار البُدن جعلها معلومة.

الناس، وليعلموا أنه إنما خرج زائراً للبيت مُعظِّماً له[١].

انتشر خبر خروجه ﷺ بين قبائل العرب، فكان له أثر تراوح بين التأييد والمعارضة، إلا أنه حقَّق بهذا العمل مكاسب إعلامية، وكان شديد الحذر والحيطة، فأرسل بِشر بن سفيان الكعبي الخزاعي طليعة لاستكشاف المنطقة، ووضع تحت تصرفه عشرين مقاتلاً[٢].

وعلمت قريش بخبر خروجه، فاجتمع زعماؤها للتداول في هذا الأمر وقرَّروا منعه من الدخول إلى مكة. وخرج القرشيون مع الأحابيش ونسائهم وذراريهم وانضمَّ إليهم نفر من الثقفيين، وعسكروا بذي طوى في وادٍ يُقال له بلدح، وأرسلوا خالد بن الوليد على رأس مائتي فارس إلى كراع الغميم[٣]، ووضعوا نظاماً يضمن لهم وصول الأخبار إليهم في أقصر وقت يتمثل بوضع العيون على رؤوس الجبال[٤].

وتمكَّن بِشر في هذه الأثناء من دخول مكة، فسمع ما يدور من أحاديث في المجتمع المكي، وعلم بقرار قريش التصدي للمسلمين، والتقى الرسول ﷺ لدى عودته في عسفان، فأخبره بقرار قريش السلبي، فاستشار الرسول ﷺ أصحابه وعرض عليهم أحد حلين:

الأول: مهاجمة عيال وذراري الأحابيش الذين خرجوا لمساعدة قريش على قتال المسلمين وصدِّهم عن البيت الحرام.

الثاني: التوجه إلى مكة مباشرة والاصطدام بقريش حتى تحقيق الهدف الذي خرجوا من أجله[٥].

وأشار عمر بن الخطاب في خضمِّ هذا الوضع على رسول الله ﷺ، وهو مقدم على قوم في حال حرب معهم أن يتجهَّز عسكرياً، فأخذ برأيه وأرسل إلى المدينة من يأتيه بالكراع والسلاح[٦].

وكان لأبي بكر رأي آخر، فقد أشار على النبي ﷺ ترك قتال قريش، والاستمرار على ما خرج من أداء العمرة، فإذا تصدَّت له يكون في وضع المعتدى عليه، فيستقطب بذلك العرب، فاستحسن هذا الرأي وأخذ به، وأمر الناس أن يمضوا في هذا السبيل[٧].

---

(١) الواقدي: جـ٢ ص٥٧١ ـ ٥٧٣. (٢) المصدر نفسه: جـ٢ ص٥٧٤.

(٣) ابن سعد: جـ٢ ص٩٥. ابن هشام: جـ٤ ص٢٥ .وبلدح: واد يبعد عن مكة نحو خمسين كيلومتراً والمسافة بينه وبين كراع الغميم لا تزيد عن خمسة عشر كيلومتراً.

(٤) ابن هشام: المصدر نفسه. الواقدي: جـ٢ ص٥٧٩.

(٥) الواقدي: المصدرنفسه، ص٥٨٠. (٦) الطبري: جـ٢ ص٦٢٢.

(٧) النحوي، عدنان: **ملامح الشورى في الدعوة الإسلامية**، ص١٦٠.

وعندما اقتربت خيل المشركين صلّى رسول الله ﷺ صلاة الخوف بعسفان[1]، ثم رأى أن يُغيِّر طريقه، فسلك طريقاً وعراً بين شِعاب شقَّ على المسلمين السير فيه، حتى خرجوا إلى أرض سهلة عند منقطع الوادي، وسلكوا ذات اليمين بين ظهري الحمش في طريق أخرجهم إلى ثنية المرار مهبط الحديبية من أسفل مكة[2]. فما نظر خالد بن الوليد إلا وغبار جيش المسلمين قد ثارت، فعاد مسرعاً هو ومن معه ليُحذِّر القرشيين ويأمرهم بالاستعداد لهذا الحدث المفاجىء. أصيبت قريش بالذعر، وقد فوجئت بنزول المسلمين بالحديبية ما يُعرِّض مكة لخطر مباشر.

الواضح أن هذه الحركة التي نفَّذها رسول الله ﷺ من واقع تغيير طريقه، وهو لا يريد حرباً كما لا يريد العودة؛ لم تكن خوفاً من المشركين وإنما لإرباك العدو وفرصة للنصر، ثم إن العودة إذا حصلت سوف تترك أثراً سيئاً على دعوته وأصحابه وسمعته في الجزيرة العربية، فالذي يخاف من عدوِّه لا يقترب من قاعدته، ثم إن اتخاذ الأدلة والتحول إلى الطرق الآمنة دلالة على وعي القيادة التي تُبعد الجيش عن الوقوع في المخاطر والمهالك وتتجنَّب الدروب التي تجعله خاضعاً لتحركات العدو وهجماته

أدَّى وصول المسلمين قريباً من مكة إلى إحداث تغييرات في مواقف قادة قريش تأرجحت بين العناد والرغبة في منعهم من تنفيذ هدفهم وأداء عمرتهم، وبين الخوف من الحرب، وبخاصة أن القرشيين عانوا من حربهم كما أن المعركة ستدور في ديارهم.

ويستوقفنا في هذا المقام أن من سيتولى المفاوضات في اتفاق الحديبية والكلام باسم قريش ليسوا من بني عبد مناف، عصب قريش، بل عصب عامر بن لؤي، ويمثلهم سهيل بن عمرو وأحلافهم بنو جمح، ويمثلهم صفوان بن أُمية بن خلف، وغاب بنو عبد شمس وأحلافهم الذين كانوا يتكلَّمون باسم قريش حتى الآن، ولن تكون لهؤلاء يد فيما ستفعله قريش من خرق الهدنة مع الرسول ﷺ، الذي سيتولاه حلفاؤهم بنو بكر بن عبد مناة من واقع اعتدائهم على بني كعب الخزاعيين أحلاف الرسول ﷺ. وتقرَّر أخيراً القيام بعمليات جس نبض لمعرفة نوايا الرسول ﷺ.

المفاوضات بين الرسول ﷺ وقريش

تبادل الطرفان، القرشي والإسلامي، السفارات بهدف إيجاد حل، فلما اطمأن رسول الله ﷺ في الحديبية؛ قدم إليه بديل بن ورقاء الخزاعي موفداً من قِبل قريش

(١) الواقدي: جـ٢ ص٥٨٣.
(٢) ابن هشام: جـ٤ ص٢٥.

في رجال من خزاعة، والمعروف أن خزاعة كانت عيبة نصح رسول الله ﷺ وخاصة وأصحاب سرِّه، وكان بُديل صديقاً أيضاً لقريش، فكلَّمه وسأله عما جاء به، فأجابه رسول الله ﷺ، بأنه لم يأت يريد حرباً، وإنما جاء زائراً للبيت ومعظماً لحرمته، وأن قريشاً أنهكتها الحرب وأضرَّت بها **(فإن شاؤوا ماددناهم مدة[1] ويُخلُّوا بيني وبين الناس، فإن أظهر[2]، فإن شاؤوا أن يدخلوا فيما دخل فيه الناس فعلوا، وإلَّا فقد جمُّوا[3]، فوالله لأقاتلنهم على أمري هذا حتى تنفرد سالفتي[4]، أو لينفذن الله أمره)**[5].

نستنتج من كلام رسول الله ﷺ ما يلي:

- معرفته ﷺ بأحوال قريش ورغبة زعمائها إلى الرشد.

- لا يهدف إلى قتال قريش في هذه المرحلة على الأقل، وأن مجيئه إلى مكة هو لهدف تعبدي.

- رغبته في تحييد قريش وإخراجها من حلبة الصراع ولو مؤقَّتاً، ولا يتحقق ذلك إلا بالهدنة[6].

- حرصه على أن يبقى باب الحوار مفتوحاً بينه وبين قريش؛ لأن في ذلك تقريباً للنفوس وتبريداً لجو الحرب، وإضعاف حماستها إلى القتال.

استمع بُديل إلى كلام رسول الله ﷺ واستوعبه، ونقل ما سمع إلى قريش، ويبدو أن بعض قادتها لم يطمئنوا إلى كلامه الذي نقله إليهم؛ لأنهم يعلمون أن خزاعة كانت عيبة نصح لرسول الله ﷺ، ويشعرون بودها للمسلمين «هذا بُديل وأصحابه إنما جاؤوا يرون أن يستخبروكم، فلا تسألوهم عن حرف واحد»[7]، وكأن الأمر لا يهمهم، وكأني بالقرشيين أحسوا من رسول الله ﷺ هذا الرفق بهم، فتماسكوا وتشدَّدوا في موقفهم، وإن لم يصلوا إلى المواجهة الكاملة، فاستكبروا ورفضوا أن يدخل مكة عليهم هذا العام عنوة، وخشوا أن تتحدث عنهم العرب بذلك[8].

وبعثت قريش بعد ذلك عروة بن مسعود الثقفي، فدار بينه وبين رسول الله ﷺ حوار طويل حضره عدد من الصحابة، وكان عروة يراقبهم ويسجل حركاتهم؛ علَّه يطَّلع على ما يفيده من سلوكهم ليوظفه في صالح قريش، فخاطب النبي ﷺ قائلاً:

---

(١) أي: جعلنا بيننا وبينهم مدة تترك فيها الحرب.
(٢) أظهر بمعنى: انتصر.
(٣) جمُّوا؛ أي: استراحوا.
(٤) تنفرد سالفتي؛ أي: حتى أموت.
(٥) الواقدي: جـ٢ ص٥٩٣.
(٦) عرموش: ص٩٨.
(٧) الواقدي: جـ٢ ص٥٩٤.
(٨) ابن هشام: جـ٤ ص٢٦.

«يا محمَّدا أرأيت إن استأصلت أمر قومك، هل سمعت بأحد من العرب اجتاح أهله قبلك؟ وإن تكن الأخرى، فإني والله لا أرى وجوهاً، وإني لأرى أوباشاً من الناس خليقاً أن يفروا ويَدَعوك»[١].

نستنتج من كلام عروة بن مسعود أنه حاول خلال المفاوضات:

ـ أن يشن حرباً نفسية على المسلمين حتى يُخذِّلهم ويهزمهم معنوياً، فاستخدم عنصر الإشاعة، ويبدو ذلك واضحاً من واقع تلويحه بقوة قريش العسكرية معتمداً على المبالغة في تصوير الموقف بأنه سيؤول لصالح قريش لا محالة.

ـ أن يوقع الفتنة والإرباك في صفوف المسلمين، وذلك عندما حاول إضعاف الثقة بين الرسول ﷺ وصحبه والتأثير على نفسيات المسلمين لخدمة أهداف قريش العسكرية والإعلامية.

ـ أن يفتعل أزمة عسكرية كبيرة بين النبي ﷺ وبين جنوده من أجل التأثير على معنوياتهم وتوهين عزائمهم، وهذا من أقوى أساليب الحرب النفسية التي استُخدمت ضد المسلمين أثناء المفاوضات.

ـ أن يبثَّ الرعب في نفوس المسلمين من واقع تخويفهم من قوة قريش التي لا تُقهر، وتصوير المعركة بأنها في غير صالحهم.

إلا أن جهوده ومحاولاته تحطَّمت أمام الإيمان العميق، والتكوين الدقيق، والصف الإسلامي المرصوص، فعاد إلى قريش وأخبر زعماءها بما سمع وما رأى من هيبة رسول الله ﷺ بين أصحابه، وطاعتهم له، ومحبتهم فيه، وانتظامهم وحسن سمعتهم، وحذَّرهم من أن يدخلوا في صراع مسلح مع النبي ﷺ وأصحابه. «... فَرُوا رأيكم، وإياكم وإضجاع[٢]، فمادُّوه يا قوم، اقبلوا ما عرض، فإني لكم ناصح مع أني أخاف ألا تُنصروا عليه، رجل أتى هذا البيت معظماً له، معه الهدي، ينحره وينصرف. فقالت قريش: لا تكلم بهذا يا أبا يعفور[٣]، لو غيرك تكلم بهذا لَلُمْناه، ولكن نرده عن البيت في عامنا هذا، ويرجع قابل»[٤].

ثم يظهر على مسرح الأحداث، مكرز بن حفص بن الأخيف، فلما رآه رسول الله ﷺ مقبلاً قال: (**هذا مكرز وهو رجل فاجر**)، فلما انتهى إليه وكلَّمه

---

(١) انظر: الواقدي: جـ٢ ص٥٩٤، ٥٩٥. **صحيح البخاري**: كتاب الشروط، باب الشروط في الجهاد... رقم الحديث (٢٧٣١، ٢٧٣٢)، ص٤٤٩، ٥٠٠.

(٢) إضجاع الرأي: أي الوهن في الرأي.

(٣) أبا يعفور: كنية عروة بن مسعود الثقفي.

(٤) الواقدي: جـ٢ ص٥٩٨، ٥٩٩.

أجابه ﷺ بمثل ما أجاب بُديل وأصحابه، فرجع إلى قريش وأخبرهم بذلك[1].

وأرسلت قريش الحُلَيْس بن علقمة إلى رسول الله ﷺ، وكان يومئذ سيد الأحابيش، فلما رآه ﷺ قال: (**إن هذا من قوم يتألهون**[2]، **فابعثوا الهدي في وجهه حتى يراه**) . فلما رأى الهدي يسيل من عرض الوادي في قلائده، وقد أكل أوباره من طول الحبس عن محله[3]؛ رجع إلى قريش ولم يصل إلى رسول الله ﷺ إعظاماً لما رأى، فقال لهم ذلك، قال: فقالوا له: إجلس فإنما أنت أعرابي لا علم لك»[4].

غضب الحُليْس من ردِّ قريش، فهدَّدها إن هي منعت رسول الله ﷺ من القيام بواجبه الديني، واستنكر تصرفها تجاهه بشدَّة، وعدَّ عملها عدوانياً ضد زوار بيت الله الحرام؛ لا يجوز لأحد أن يؤيدها أو أن يناصرها على ذلك، وهذا أول موقف حازم من أحد أنصارها.

وخشيت قريش من تصدع جبهتها الداخلية، فتلطَّفت في الرد على الحُليس: «إنما كل ما رأيت هو مكيدة من محمَّد وأصحابه»، والتمست منه أن يقف على الحياد لتتمكَّن من تحصيل شيء ما في المفاوضات «فاكفف عنا حتى نأخذ لأنفسنا بعض ما نرضى به»[5].

والراجح أن زعماء قريش تأثَّروا بنصيحة عروة بن مسعود الثقفي، فاتفقوا على حل وسط «نرده عن البيت في عامنا هذا ويرجع إلى قابل»[6]. والواضح أنهم اعتمدوا هذا الحل الوسط بعد أن رأوا تصميم النبي ﷺ وقدرته على دخول مكة عنوة إذا أراد، في الوقت الذي تراجع فيه موقفهم أمام تهديد أنصارهم بالانفضاض والتخلِّي عنهم.

يبدو أن قريشاً قد استنفدت جهودها وجرَّدت آخر من بقي لها من أنصارها، عندئذ تحرَّك النبي ﷺ للاتصال بزعمائها مباشرة، وهو يعلم على ما استقر رأيهم، فأرسل رجلاً من خزاعة يُدعى خراش بن أمية الكعبي، على جمل له، فما كاد يُبلِّغهم الرسالة التي تتضمن رأيه وموقفه حتى نفروا منه، فعقروا جمله وكادوا يقتلونه لولا تدخل الأحابيش فخلوا سبيله، فعاد إلى رسول الله ﷺ وطلب منه أن يبعث

---

(١) **صحيح البخاري**: كتاب الشروط، باب الشروط في الجهاد، حديث رقم (٢٧٣١، ٢٧٣٢)، ص٥٠١.

(٢) يتألَّهون: أي يتعبدون ويعظِّمون الله.

(٣) المحل: الموضع الذي يُنحر فيه من الحرم.

(٤) ابن هشام: جـ٤ ص٢٦.

(٥) الواقدي: جـ٢ ص٥٩٩، ٦٠٠.

(٦) المصدر نفسه: ص٥٩٨، ٥٩٩.

رجلاً أمنع منه. فكلّم الرسول ﷺ عمر بن الخطاب، ولكن عمراً قدّر أن قريشاً لا بد أن تعتدي عليه وليس له أهل في مكة قادرون على حمايته، فاعتذر عن عدم القدرة على القيام بالمهمة ورشح عثمان بن عفان، وكان محترماً من القرشيين وله فيهم قرابة قوة ومنعة، ويدلنا ذلك على أن قريشاً كان فيهم عصب ينزع إلى عبد شمس، فأرسله إلى أبي سفيان وأشراف قريش.

أخبر عثمان زعماء قريش أن النبي ﷺ لم يأتِ لحرب، بل لزيارة البيت وتعظيم حرمته، ودعاهم إلى الدخول في الإسلام، فرفضوا ذلك، ثم ردَّد عليهم ما قاله له ﷺ من أن تدع قريش عداءها للرسول ﷺ لمن هو أقوى منها من قبائل العرب، فإذا انتصر كان هذا نصراً لهم؛ إذ هم قرشيون مثله، ودخلوا فيما يدخل فيه الناس، أو يُقاتلوا إذا أحبوا وهم وافرون جامُّون[1]. وأضاف عثمان أن رسول الله ﷺ لم يأتِ لقتال أحد، إنما جاء معتمراً معه الهدي عليه القلائد ينحره وينصرف. لكن القرشيين أصرُّوا على موقفهم الرافض، إلا أنهم عرضوا على عثمان أن يطوف بالبيت إن شاء، فأجابهم: «ما كنت لأفعل حتى يطوف به رسول الله»[2]. وهكذا تشدَّدت قريش في موقفها، وكأنها أنِست في عثمان عطفاً عليها.

ولقي عثمان في مكة جماعات من المسلمين المستضعفين، وقد بعث نزول رسول الله ﷺ في الحديبية الأمل في نفوسهم، «إن الذي أنزله بالحديبية لقادر أن يدخله بطن مكة»[3].

وكان على عثمان أن يعود إلى رسول الله ﷺ ليبلغه نتيجة مسعاه، ولكنه لم يفعل، فقد احتبسته قريش عندها، ويبدو أن القرشيين ظنوا أنهم يمسكون به رهينة.

وشعر النبي ﷺ بأن الموقف أخذ يتطور، وأن قريشاً عندما رأت الحسنى واللِّين طمعت وتشدَّدت، وقد بلغه أن عثمان قد قُتل، فغضب غضباً شديداً، وقال: **(لا نبرح حتى نناجز القوم)**[4].

وكان نفر من أصحاب رسول الله ﷺ قد استأذنوه في زيارة مكة في أمان قبائلهم، فأذن لهم، فأمسكت بهم قريش من أجل المساومة عليهم. والملفت أنهم كانوا من عشائر حلف لعقة الدم المناهضين لبني هاشم، وقد اعتقدوا أن تلك العصبية سوف تنفعهم في موقف كهذا. ومن جهة أخرى، فقد أرسلت قريش خمسين رجلاً ذات ليلة ليطوفوا بالمسلمين لعلهم يجدون فرصة، وكان على رأسهم مِكرز بن حفص بن الأخيف بن علقمة، أحد زعماء بني عامر بن لؤي، فما كان من محمد بن مسلمة

---

(١) جامُّون: أي مستريحون.

(٢) الواقدي: جـ٢ ص٦٠٠، ٦٠١.

(٣) المصدر نفسه: ص٦٠١.

(٤) ابن هشام: جـ٤ ص٢٨.

وهو أحد الحراس الثلاثة في تلك الليلة إلا أن أسرهم جميعاً، فردَّ هذا العمل إلى قريش رشدها وأرغمها على رؤية الواقع على حقيقته.

بيعة الرضوان

وقرَّر النبي ﷺ قتال المشركين ومناجزتهم، فوقف تحت شجرة هناك، ودعا أصحابه إلى مبايعته على ذلك، فاستجابوا له كلهم فرحين مستبشرين وبايعوه على الموت[1]، باستثناء الجد بن قيس، أخو بني سلمة، فقد كان منافقاً ولم يبايع، وفي رواية أن البيعة كانت على الصبر[2]، أو على عدم الفرار[3]. والحقيقة أنه لا تعارض في ذلك؛ لأن المبايعة على الموت تعني الصبر وعدم الفرار.

سُمِّيت هذه البيعة ببيعة الرضوان؛ لقوله تعالى: ﴿لَّقَدْ رَضِيَ ٱللَّهُ عَنِ ٱلْمُؤْمِنِينَ إِذْ يُبَايِعُونَكَ تَحْتَ ٱلشَّجَرَةِ فَعَلِمَ مَا فِى قُلُوبِهِمْ فَأَنزَلَ ٱلسَّكِينَةَ عَلَيْهِمْ وَأَثَٰبَهُمْ فَتْحًا قَرِيبًا﴾ [الفتح/ ١٨]. وكان عدد الصحابة الذين بايعوه ألفاً وأربعمائة، وبايع النبي ﷺ لعثمان فضرب بإحدى يديه على الأخرى، وقال: (**هذه يد عثمان**).

وتحدث القرآن عن أهل بيعة الرضوان، وذكر فضلهم في نصوص كثيرة من الآيات القرآنية، كما ذكرهم النبي ﷺ في بضع أحاديث شريفة، ونذكر من الآيات القرآنية قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يُبَايِعُونَكَ إِنَّمَا يُبَايِعُونَ ٱللَّهَ يَدُ ٱللَّهِ فَوْقَ أَيْدِيهِمْ ۚ فَمَن نَّكَثَ فَإِنَّمَا يَنكُثُ عَلَىٰ نَفْسِهِۦ ۖ وَمَنْ أَوْفَىٰ بِمَا عَٰهَدَ عَلَيْهُ ٱللَّهَ فَسَيُؤْتِيهِ أَجْرًا عَظِيمًا﴾ [الفتح/ ١٠].

لقد وصل النبي ﷺ أصحابه الذين بايعوه بالله من خلال هذه البيعة، وعقد بينه وبينهم بيعة ماضية لا تنقطع، فهو عندما يضع يده بيدهم مبايعاً فإنما يبايع عن الله، ويشعر الصحابي وهو يضع يده في يده أن يد الله فوق أيديهم، فالله حاضر البيعة، والله صاحبها، والله آخذها، ويده فوق أيدي المتبايعين.

وورد الثناء على أصحاب بيعة الرضوان في السُّنَّة الشريفة في أحاديث كثيرة، نذكر منها ما ورد عن جابر بن عبد الله؛ أنه قال: قال لنا رسول الله ﷺ يوم الحديبية: (**أنتم خير أهل الأرض**). وكنا ألفاً وأربعمائة، ولو كنت أبصر لأريتكم موضع الشجرة[4].

وقال جابر بن عبد الله: أخبرتني أُم مبشر أنها سمعت النبي ﷺ يقول عند حفصة:

---

(١) **صحيح البخاري**: كتاب المغازي، باب غزوة الحديبية، رقم الحديث (٤١٦٩)، ص٧٥٦.

(٢) المصدر نفسه، كتاب الجهاد والسير، باب البيعة في الحرب... رقم الحديث (٢٩٥٨)، ص٥٤٣.

(٣) الواقدي: جـ٢ ص٦٠٣.

(٤) **صحيح البخاري**: مصدر سابق، رقم الحديث (٤١٥٤)، ص٧٥٤.

(**لا يدخل النار إن شاء الله من أصحاب الشجرة أحد، الذين بايعوا تحتها**). قالت: بلى يا رسول الله. فانتهرها، فقالت حفصة: ﴿وَإِن مِّنكُمْ إِلَّا وَارِدُهَا﴾، فقال النبي ﷺ: (**قد قال الله** ﷻ ﴿ثُمَّ نُنَجِّى ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوا۟ وَّنَذَرُ ٱلظَّـٰلِمِينَ فِيهَا جِثِيًّا﴾)[١]. قال النووي في شرحه لهذا الحديث، في قوله ﷺ: (**لا يدخل النار إن شاء الله من أصحاب الشجرة أحد، الذين بايعوا تحتها**). قال العلماء: معناه: لا يدخلها أحد منهم قطعاً... وإنما قال: إن شاء الله، للتبرُّك لا للشك، وأما قول حفصة، وانتهار النبي ﷺ لها، فقالت: ﴿وَإِن مِّنكُمْ إِلَّا وَارِدُهَا﴾، فقال النبي ﷺ: (**وقد قال**: ﴿ثُمَّ نُنَجِّى ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوا۟﴾) فيه دليل للمناظرة والاعتراض والجواب على وجه الاسترشاد، وهو مقصود حفصة لا أنها أرادت رد مقالته ﷺ، والصحيح أن المراد بالورود في الآية المرور على الصراط، وهو جسر منصوب على جهنم، فيقع فيها أهلها وينجو الآخرون[٢].

وعلم رسول الله ﷺ بعد البيعة أن الذي ذُكر من قتل عثمان باطل.

صلح الحديبية[٣]

وصل خبر بيعة الرضوان إلى القرشيين، فخافوا من نتائج تصرفهم، فأبدوا استعداداً لتبادل الأسرى، فأطلقوا من عندهم من أسرى المسلمين بمن فيهم عثمان، وأطلق الرسول ﷺ مَن عنده مِن أسراهم.

وأدركت قريش أخيراً أنها لن تستطيع فعل شيء تجاه تصميم المسلمين، وأن الأمر إذا استمر على ذلك سينقلب عليها؛ لأن هؤلاء لن يصبروا على ذلك الموقف مدة طويلة، فاجتمع زعماؤها وتشاوروا فيما يتخذونه من موقف، واستقر رأيهم على قبول الصلح مع رسول الله ﷺ، مقابل: «... أن ينصرف عنا عامه هذا ويرجع من قابل، فيقيم ثلاثة وينحر هديه وينصرف، ويقيم ببلدنا ولا يدخل علينا، فأجمعوا على ذلك»[٤].

والواقع أن زعماء قريش كانوا على هذا الرأي منذ حين، ولكنهم الآن وقد

---

(١) **صحيح مسلم**: كتاب الفضائل، باب فضائل أصحاب الشجرة، جـ١٦ ص٥٨.

(٢) المصدر نفسه.

(٣) الصحيح أنه اتفاق هدنة لأن للهدنة مدة معلومة، أي وقف الحرب إلى حين، وغالباً ما تكون بانتظار التوصل إلى تسوية بين الأطراف المتنازعة تؤدي إلى توقيع معاهدة صلح، وصلح الحديبية في واقعه هدنة لأنه ينص على وقف الحرب والأعمال العدائية بين الطرفين مدة محدودة. وكان عمر بن الخطاب دقيقاً عندما سماه هدنة، ولكننا تمشياً مع روايات المصادر فسوف نعتمد كلمة صلح. انظر: الواقدي: جـ٢ ص٦٠٧.

(٤) الواقدي: جـ٢ ص٦٠٥.

شعروا جدياً أن باستطاعة المسلمين اقتحام بلدهم إذا شاؤوا، وأنه لا يمنعهم من ذلك إلا حلم رسول الله ﷺ ورغبته في تجنيب مكة، وفيها قومه، هذا المصير، فبادروا إلى الاستجابة

لم يكن نهج رجال عامر بن لؤي في قيادة قريش في هذه الآونة صائباً، وكان انتدابهم لأنفسهم للتفاوض مع رسول الله ﷺ مسيئاً إليهم، ولولا كرمه ﷺ وسعة قلبه واتساع ذهنه لما نجحت المفاوضة. فقد انتدبوا سهيل بن عمرو العامري إلى الرسول ﷺ مع نفر من قريش، منهم حويطب بن عبد العزى، ومكرز بن حفص، وقالوا له: «ائت محمَّداً فصالحه ولا يكن في صلحه إلا أن يرجع عنا عامه هذا، فوالله لا تُحدث العرب عنا أنه دخلها علينا عنوة أبداً»[1]. ولم يكد الرسول ﷺ يراه، حتى قال لأصحابه: (**قد أراد القوم الصلح حين بعثوا هذا الرجل**)[2]. لقد أدرك بحكم خبرته بالرجال أن سهيلاً رجل مفاوضات.

كان سهيل بن عمرو أحد زعماء قريش البارزين، اشتهر بالحنكة السياسية والدهاء. فهو خطيب مُفوَّه ذو عقل مستنير وأصالة في الرأي، ولكنه كان صلفاً، متجنِّياً، اعتمد على كرم الرسول ﷺ، فمضى يشترط ويتطاول ويعترض على بعض العبارات الخاصة بالرحمٰن، وتلك الدالة على نبوَّة محمَّد ﷺ.

بدأت المفاوضات بعد إطلاق عثمان، وهو الشرط الذي وضعه الرسول ﷺ، وشرع الطرفان في بحث بنود الصلح، فاستعرضا النقاط التي يجب أن تتضمنها معاهدة الصلح، والقضايا التي تُشكِّل مثار الخلاف بينهما، فاتفقا من حيث المبدأ على بعض البنود، واختلفا على بعضها الآخر. وطال الجدل، وكان سهيل بن عمرو يعلو بصوته على صوت الرسول ﷺ، فيزجره الصحابة الحاضرون والرسول طويل الأناة، هادىء الطبع لا يرفع صوته. وعندما تقاربت وجهات النظر حول البنود المبحوثة؛ شرعا في وضع الصيغة النهائية للصلح وكتابته... ولكن حدث خلاف بينهما على ثلاث نقاط كادت تُفشِّل المفاوضات، هي:

الأولى: فقد أمر النبي ﷺ كاتبه علي بن أبي طالب بأن يبدأ المعاهدة بكتابة «بسم الله الرحمٰن الرحيم»، فاعترض سهيل بن عمرو قائلاً: «لا أعرف الرحمٰن، اكتب باسمك اللهمَّ». فضجَّ الصحابة على هذا الاعتراض قائلين: «هو الرحمٰن، ولا نكتب إلا الرحمٰن». ولكن النبي ﷺ تمشياً مع سياسته الحكيمة ومرونته وحلمه، قال للكاتب: (**اكتب باسمك اللهمَّ**)[3].

(١) ابن هشام: جـ٤ ص٢٨.　　(٢) المصدر نفسه.
(٣) المصدر نفسه.

الثانية: فقد أمر رسول الله ﷺ كاتبه أن يكتب «هذا ما اصطلح عليه رسول الله». وقبل أن يُكمل الجملة؛ اعترض سهيل بن عمرو على كلمة رسول الله قائلاً: «لو أعلم أنك رسول الله ما خالفتك، واتَّبعتك، أفترغب عن اسمك واسم أبيك محمد بن عبد الله؟ أكتب اسمك واسم أبيك». واعترض المسلمون على ذلك، ولكن الرسول ﷺ حسم الخلاف بحكمته وحسن تدبيره وتسامحه وبُعد نظره، فأمر الكاتب بأن يشطب كلمة رسول الله من الوثيقة، فالتزم الصحابة الصمت والهدوء[1].

الثالثة: تتعلق برد من يجيء من المشركين إلى رسول الله ﷺ والعكس، ولكن سهيلاً أصرَّ على ردِّ من يجيء من المشركين إلى المسلمين فقط، ورفض ردَّ من يأتي قريش من المسلمين.

والواضح أن الرسول ﷺ وافق المشركين على تلك البنود؛ لأنها تصب في مصلحة المسلمين على المدى المستقبلي:

أما البسملة وباسمك اللهمَّ فمعناهما واحد، وكذلك ذكر اسمه واسم أبيه، وليس في ترك وصف الله ﷻ في هذا الموضع بالرحمٰن الرحيم ما ينفي ذلك، ولا في ترك وصف النبي ﷺ بالرسالة، ما ينفيها، ولا مفسدة فيما طلبوه، وإنما كانت المفسدة تكون لو طلبوا أن يكتب ما لا يحل من تعظيم آلهتهم ونحو ذلك[2]. وأما شرط رد من جاء منهم وعدم رد من ذهب إليهم، فقد بيَّن النبي ﷺ تعليل ذلك والحكمة فيه في هذا الحديث، بقوله: (**من ذهب منا إليهم فأبعده الله، ومن جاء منهم سيجعل الله له فرجاً ومخرجاً**)، ثم كان كما قال[3].

وكتب علي الاتفاق بالصيغة التي اقترحها سهيل بن عمرو، وتتضمَّن ما يلي:

- إيقاف الحرب مدة عشر سنين.
- لقبائل العرب الحق في محالفة الرسول ﷺ، أو محالفة قريش.
- من أسلم من قريش بغير إذن وليه ردَّه الرسول ﷺ إلى قريش.
- من ارتد من المسلمين ولحق بقريش لا يُردُّ إلى المسلمين.
- أن يعود الرسول ﷺ بأصحابه في ذلك العام، فلا يدخلون مكة، ولهم في مثل ذلك الوقت من العام التالي أن يعودوا ليس معهم سلاح سوى السيوف في القُرُب، فتخرج قريش من مكة، ويدخلها المسلمون لمدة ثلاثة أيام فقط، فيؤدُّون العمرة

---

(١) ابن هشام: جـ٤ ص٢٨.
(٢) الصلَّابي: جـ٢ ص٣١٢، ٣١٣.
(٣) انظر قول الرسول ﷺ لأبي بصير وعتبة بن أسيد، حليف بني زهرة، عندما جاءا إليه مسلمين، عند الواقدي: جـ٢ ص٦٠٧، ٦٠٨، ٦٢٤.

ويخرجون بعدها[1].

لم يطق عمر بن الخطاب صبراً عندما تمَّ الاتفاق، على ما رأى من حلم الرسول ﷺ وطول أناته مع سهيل بن عمرو، فتوجه نحوه وقال: «يا رسول الله! ألسنا بالمسلمين؟». قال رسول الله ﷺ: (بلى)، قال: أوَليسوا بالمشركين؟. قال: (بلى). قال: فعلام نعطي الدَّنية في ديننا؟. ففهم رسول الله ﷺ ما يقصد إليه عمر، فقال: (**أنا عبد الله ورسوله، لن أخالف أمره، ولن يضيعني**)[2]. وكان قد أتى أبا بكر، وقال له مثل ذلك، فأجابه أبو بكر: «يا عمر! الزم غرزه[3]، فإني أشهد أنه رسول الله»، قال عمر: وأنا أشهد أنه رسول الله»[4]. ويبدو أنه خشي من نتيجة هذا الجدل مع رسول الله ﷺ، فكان يقول: «ما زلت أتصدق وأصوم وأصلي وأعتق من الذي صنعت يومئذ؛ مخافة كلامي الذي تكلَّمت به حتى رجوت أن يكون خيراً»[5].

وشهد على الاتفاق بعد الفراغ من كتابته رجال من المسلمين والمشركين، منهم: أبو بكر، وعمر، وسعد بن أبي وقاص، وعبد الرحمٰن بن عوف، وعلي بن أبي طالب، كاتب الوثيقة، عن المسلمين. وعبد الله بن سهيل بن عمرو، ومِكرز بن حفص عن المشركين.

وحدث في أثناء كتابة الاتفاق أن جاء أبو جندل بن سهيل بن عمرو والقيود في رجليه، وكان قد أسلم فقيَّده المشركون، ولكنه استطاع الهرب، فلما رآه أبوه قام إليه وضرب وجهه، وأمسك بتلابيبه، واحتج للرسول بأن الاتفاق قد أُبرم قبل مجيء ابنه، فقال له الرسول ﷺ: (**صدقت**). فأخذ يجر ابنه ويلطمه، وهو يصرخ والمسلمون ينظرون إليه، ولم يزد رسول الله ﷺ على أن قال له: (**يا أبا جندل! اصبر واحتسب، فإن الله جاعل لك ولمن معك من المستضعفين فرجاً ومخرجاً، إنا قد عقدنا بيننا وبين القوم صلحاً، وأعطيناهم على ذلك وأعطونا عهد الله، وإنا لا نغدر بهم**)[6].

وكاد الاتفاق أن يُزعزع المسلمين حتى أنهم تلكَّؤوا في التحلل من إحرامهم، رغم أمر الرسول لهم بالتحلل؛ لأنهم وجدوا في ظاهر الاتفاق تنازلاً للمشركين وعدم مساواة بين طرفي الاتفاق، ولكن الرسول ﷺ كتم ذلك، فهو يعلم من الله ما لا يعلمون، فأشارت عليه زوجته أُم سلمة أن يخرج ولا يكلم أحداً منهم حتى ينحر بُدنه ويحلق، حتى إذا فعل ذلك رأوا ما قام به؛ نهضوا فنحروا وجعل بعضهم يحلق

---

(1) ابن هشام: جـ٤ ص٢٨، ٢٩.
(2) المصدر نفسه: ص٢٨.
(3) يريد طريقه.
(4) ابن هشام: جـ٤ ص٢٨.
(5) المصدر نفسه.
(6) المصدر نفسه: ص٢٩.

بعضاً حتى كاد بعضهم يقتل بعضاً غماً[(١)].

وانصرف رسول الله ﷺ بعد ذلك عائداً إلى المدينة، حتى إذا كان بينها وبين مكة؛ فرَّج الله عن المسلمين، فأنزل على نبيِّه ﷺ سورة الفتح: ﴿إِنَّا فَتَحْنَا لَكَ فَتْحًا مُّبِينًا﴾ [الفتح/١]، وقد عبَّر الرسول ﷺ عن فرحته بنزولها، وقال: (**أُنزلت عليَّ الليلة سورة لهي أحب إليَّ مما طلعت عليه الشمس**). ثم قرأ: ﴿إِنَّا فَتَحْنَا لَكَ فَتْحًا مُّبِينًا﴾[(٢)]. فقال له أصحابه: هنيئاً مريئاً، فما لنا؟. فأنزل الله: ﴿لِّيُدْخِلَ الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ﴾ [الفتح/٥]، فقال رجل: يا رسول الله! أفتحٌ هو؟. قال: (**نعم، والذي نفس محمَّد بيده، إنه لفتح**)[(٣)]. فانقلبت كآبة المسلمين وحزنهم إلى فرح غامر، وأدركوا أنهم لا يمكن أن يُحيطوا بالأسباب والنتائج، وأن التسليم لأمر الله ورسوله فيه كل الخير لهم ولدعوة الإسلام[(٤)]. ويقول الزهري: «فما فُتح في الإسلام فتح قبله كان أعظم منه، إنما كان القتال حيث التقى الناس، فلما كانت الهدنة ووضعت الحرب (أوزارها) وأمن الناس بعضهم بعضاً، والتقوا فتفاوضوا في الحديث والمنازعة، فلم يكلم أحد بالإسلام يعقل شيئاً إلا دخل فيه، ولقد دخل في تينك السنتين مثل من كان في الإسلام قبل ذلك أو أكثر». والدليل على ذلك أن رسول الله ﷺ خرج إلى الحديبية في ألف وأربعمائة، ثم خرج عام فتح مكة بعد ذلك بسنتين في عشرة آلاف[(٥)].

نتائج صلح الحديبية

ـ كان صلح الحديبية أمراً إلٰهياً تجلَّى فيه عمل النبوة وأثرها، كما تجلَّى في أيِّ عمل آخر، فقد كان نجاحه سراً مرتبطاً بالغيب، الذي في علم الله، ولذلك أدهش المسلمين. ثم إن هذا الصلح بمقدماته ومضمونه ونتائجه هو من الأسس المهمة في تقويم العقيدة الإسلامية وتثبيتها[(٦)].

ـ يُعدُّ صلح الحديبية مقدمة لفتح مكَّة، أعزَّ الله به رسوله وجنده، ودخل الناس به في دين الله أفواجاً، فكانت الهدنة باباً له ومفتاحاً ومؤذناً بين يديه، وهذه عادة الله،

---

(١) **صحيح البخاري**، كتاب الشروط، باب الشروط في الجهاد، رقم الحديث (٢٧٣١، ٢٧٣٢)، ص٥٠١، ٥٠٢.

(٢) **صحيح البخاري**، كتاب المغازي، باب غزوة الحديبية، رقم الحديث (٤١٧٧)، ص٧٥٦، ٧٥٧.

(٣) الإمام أبو داود: **سنن أبي داود**، معالم السنن، كتاب الجهاد، رقم الحديث (٢٧٣٦).

(٤) العمري، أكرم: **السيرة النبوية الصحيحة**، جـ٢ ص٤٤٩.

(٥) ابن هشام: جـ٤ ص٣٠، ٣١.

(٦) البوطي: ص٣٤٥، ٣٤٦.

في الأمور العظام التي يقضيها قدراً وشرعاً، أن يوطىء بين يدي الأمور مقدمات وتوطئات تؤذن لها وتدلُّ عليها[1].

- أطلق القرآن الكريم اسم الفتح على هذا الصلح، وذلك في قوله تعالى: ﴿لَّقَدْ صَدَقَ ٱللَّهُ رَسُولَهُ ٱلرُّءْيَا بِٱلْحَقِّ لَتَدْخُلُنَّ ٱلْمَسْجِدَ ٱلْحَرَامَ إِن شَآءَ ٱللَّهُ ءَامِنِينَ مُحَلِّقِينَ رُءُوسَكُمْ وَمُقَصِّرِينَ لَا تَخَافُونَ فَعَلِمَ مَا لَمْ تَعْلَمُواْ فَجَعَلَ مِن دُونِ ذَٰلِكَ فَتْحًا قَرِيبًا﴾ [الفتح/٢٧].

- لم يتنبَّه المسلمون لهذا الأمر في حينه؛ لأن المستقبل غائب عنهم، حتى إذا مضت مدة من الزمن، أخذوا يستشفُّون أهمية هذه الهدنة وما انطوت عليه من خير. فقد أمِنَ الناس، وانطلق المسلمون يدعون المشركين إلى اعتناق الإسلام، وناظروهم جهرة، كما لم يُدرك معظم المسلمين أهميته وقت إبرامه بفعل خيبة أملهم من عودتهم من دون عمرة، ولِمَا رأوه من عدم مساواة في ردِّ من جاءهم مسلماً من قريش، وعدم إلزام قريش بردِّ من جاءها مرتداً[2].

- أراد الله ﷻ أن يُبرز من خلال هذا الصلح الفرق بين وحي النبوة وتدبير الفكر البشري، بين توفيق النبيِّ المرسل وتصرف المفكر البشري، بين الإلهام الإلٰهي والانسياق وراء إشارة الأسباب الدنيوية وحكمها، من هنا أعطى المشركين كل ما سألوه من الشروط، وتساهل معهم في أمور لم يجد أحد من الصحابة مسوغاً للتساهل فيها[3]؛ لأنهم رأوا ظاهرها فقط، وهي في باطنها عز وفتح ونصر، وكان رسول الله ﷺ ينظر إلى ما وراء ذلك من الفتح المبين.

- إن مجرد قبول قريش التفاوض مع رسول الله ﷺ؛ وضع المسلمين في مستوى قريش التي رفضت سابقاً الاعتراف بهم، وعدَّتهم صابئة خارجين على معتقدات الآباء والأجداد، وكانوا عرضة لمهاجمتها في مدينتهم، وهم اليوم يتوجهون إلى مكة لأداء العمرة من دون خوف، مع ما في ذلك من تحطيم لكبرياء القرشيين[4].

- أعطى الصلح الرسول ﷺ حق محالفة من يشاء من قبائل العرب، وسمح لتلك القبائل بالدخول في حلف محمَّد إن شاءت، أو في حلف قريش. وقد جعل هذا البند القبائل الخائفة من قريش والراغبة في الدخول في حلف الرسول ﷺ تُسرع إلى تنفيذ ذلك، وشجَّع القبائل المتردِّدة على حزم أمرها والانضمام إلى المسلمين، فدخلت خزاعة وكنانة في الصلح الذي أنهى حال الحرب بينهما على مدى سنوات؛ الأولى إلى جانب المسلمين، والثانية إلى جانب قريش.

- أدخل الصلح المهابة في قلوب المشركين والمنافقين، وأدرك الكثير منهم غلبة

(١) ابن قيم الجوزية: جـ٣ ص٢٢٤.
(٢) البوطي: ص٣٤٦.
(٣) المرجع نفسه: ص٣٤٧.
(٤) عرموش: ص١٠٤.

الإسلام، وقد تجلَّت بعض مظاهر ذلك في مبادرة كثير من صناديد قريش الدخول في الإسلام، مثل خالد بن الوليد وعمرو بن العاص، كما تجلَّت في مسارعة الأعراب المجاورين للمدينة إلى الاعتذار عن تخلفهم.

ـ عُقد صلح الحديبية في الوقت الذي كان فيه المسلمون في مركز قوة، حيث كان باستطاعتهم رفض شروطه علماً بأن بعض الصحابة اغتاظ منها، ولكن ما كان لهم أن يخرجوا عن طاعة النبي ﷺ، وقد تمادى مندوب قريش أثناء المفاوضات، فلم ينله أذى؛ لأن السفراء لا تُقتل، وقد خيَّم على جوِّها حلم الرسول ﷺ ولينه، بهدف الوصول إلى الغاية التي ينشدها، وهي حقن الدماء، وإحلال السلام، ودخول الدعوة الإسلامية في طور جديد من الانتشار.

ـ حقَّق صلح الحديبية أحد أهم أهداف الرسول ﷺ، من خروجه معتمراً، وكسر أحد فكَّي الكماشة التي كانت تُطبق على المدينة من الجنوب والشمال، فقد أتاح تحييد قريش وتفرغ الرسول ﷺ لجبهة الشمال، حيث كان يهود يتجمَّعون في خيبر بانتظار الفرصة المناسبة للانقضاض عليه، وأضحى باستطاعته مهاجمتهم من دون خوف من دعم قريش لهم، كما أتاح له التركيز على الجبهة مع البيزنطيين (الروم) في بلاد الشام، وتجهيز غزوة مؤتة. والواقع أن هذا الصلح شكَّل انعطافة جديدة لنقل الدعوة الإسلامية إلى خارج الجزيرة العربية

ـ قدَّر رسول الله ﷺ، عندما وافق على بند التبادل، أن المسلم الذي كتم إسلامه بين المشركين يُعدُّ عيناً للمسلمين في وسط أولئك، وإن انكشف أمره يكون عبئاً عليهم؛ لأنه صاحب عقيدة راسخة. في حين أن المسلم إنِ ارتدَّ عن دينه، فلا خير فيه، ومن الأفضل أن يرجع إلى عشيرته.

ـ أثبتت الأيام سريعاً حكمة رسول الله ﷺ وبُعد نظره، فقد تجمَّع المسلمون، الذين ينطبق عليهم الشرط المشار إليه، في مكان على طريق قوافل قريش إلى بلاد الشام، وأخذوا يغيرون عليها، فقطعوا بذلك طريق تجارتها مع هذه البلاد، فضاقت بتصرفاتهم وراجعت الرسول ﷺ في أمرهم، فأجابها أنه لا سلطان له عليهم وهو لم يقبلهم في صفوفه تنفيذاً لصلح الحديبية؛ ما اضطرها إلى طلب إلغاء ذلك البند من بنود الصلح، بل إنها توسَّلت إليه أن يكفَّ عنها أذى أولئك المسلمين[1]. وهكذا ألغت قريش بنفسها البند الذي عدَّه المسلمون مجحفاً بحقهم، وخالياً من المعاملة بالمثل[2].

ـ يُعدُّ صلح الحديبية أساساً للمعاهدات الإسلامية ونموذجاً فريداً للمعاهدات الدولية، وذلك بما سبقه من مفاوضات وما تضمَّنه من شروط، وفي كيفية

---

(١) ابن هشام: جـ٤ ص٣١. (٢) عرموش: ص١٠٤، ١٠٥.

الصياغة والالتزام[1].

الدلالات والأحكام الفقهية التي حفلت بها غزوة الحديبية

حفلت غزوة الحديبية بالكثير من الدلالات والأحكام الفقهية، نذكر منها:

ـ أرسل النبي ﷺ بشر بن سفيان عيناً إلى قريش ليأتيه بأخبارها، وكان آنذاك مشركاً من قبيلة خزاعة، فدلَّ على أنه يجوز الاستعانة في الأمور الممهِّدة للحرب، بغير المسلمين. والواضح أن المسألة داخلة في السياسة الشرعية للدولة الإسلامية، فإن كان الشخص المستعان به يُطمأن إليه جاز ذلك، وإلا فلا.

ـ جواز عقد الهدنة بين المسلمين وأعدائهم مدة معلومة، سواء على غير مال يأخذونه منهم أو بعوض يأخذونه منهم. أما الوضع الأول، فلأن هدنة الحديبية كانت كذلك، وأما الوضع الثاني، فيؤخذ على القياس؛ لأن الهدنة إذا جازت بدون عوض فهي بعوض أقرب وأوجه. أما إذا كانت الهدنة على مال يبذله المسلمون، فهو غير جائز عند جمهور المسلمين لِمَا فيه من الصَّغار لهم؛ ولأنه لم يثبت بالدليل في الكتاب أو السُّنَّة، إلا إذا دعت الضرورة القصوى في حال الخوف من الهلاك أو الوقوع في الأسر، كما لا يجوز للأسير فداء نفسه بالمال[2].

ـ اختُلف في مدة الهدنة التي تتعدَّى عشر سنين، بين الجواز إذا رأى الإمام أن في ذلك مصلحة للمسلمين، وبين عدم الجواز. وحجة هؤلاء أن خطر الصلح هو الأصل لدليل آية القتال، وقد ورد التحديد بالعشر في غزوة الحديبية، فجعلت الإباحة في هذا المقدار مُتحقِّقة، وبقيت الزيادة على الأصل وهو الحظر[3].

ـ رسم عروة بن مسعود الثقفي صورة حية تُبيِّن مدى محبة أصحاب رسول الله ﷺ له، وتـدلُّ على أنه لا إيمان برسول الله ﷺ من دون محبة له، وهي الأثر الذي يستحوذ على القلب، كما تدل على أن التبرُّك بآثار رسول الله ﷺ أمر مندوب ومشروع. فعندما اجتمع هذا الرجل مع الرسول ﷺ؛ راح يراقب تحركات أصحابه، ولما عاد إلى مكة، قال لزعماء قريش: «فوالله ما تنخَّم[4] رسول الله ﷺ نُخامة، إلا وقعت في كفِّ رجلٍ منهم، فدلك بها وجهه وجلده، وإذا أمرهم ابتدروا أمره، وإذا توضأ كادوا يقتتلون على وضوئه، وإذا تكلم خفضوا أصواتهم عنده، وما يُحدُّون إليه النظر تعظيماً له»[5]. وقد روى الشيخان في صحيحيهما صوراً كثيرة من تبرك

---

(١) الصلاّبي: جـ٢ ص٣١٤.

(٢) البوطي: ص٣٥٦، ٣٥٧.

(٣) السهيلي: جـ٤ ص٣٥.

(٤) نَخِمَ: دفع بشيء من صدره أو أنفه.

(٥) **صحيح البخاري**، كتاب الشروط، باب الشروط في الجهاد والمصالحة... رقم الحديث (٢٧٣١، ٢٧٣٢)، ص٥٠٠.

الصحابة بآثار النبي ﷺ، والتوسل بها[1].

ـ ذكرت روايات المصادر[2] أن المغيرة بن شعبة كان واقفاً على رأس رسول الله ﷺ ومعه السيف، وكلما مسَّ عروة بن مسعود الثقفي بيده لحية رسول الله ﷺ، ضرب بيده بنعل السيف قائلاً: «اكفف يدك عن وجه رسول الله». ولم يكن عادته ﷺ أن يُقام على رأسه وهو قاعد، وهي سنَّة يُقتدى بها عند قدوم رسل العدو بهدف إظهار العز والفخر وتعظيم الإمام وطاعته ووقايته بالنفوس، ولا تدخل هذه الحال بعينها في التمثل الذي نهى عنه الرسول ﷺ في قوله: (**من أحبَّ أن يتمثَّل له الناس قياماً، فليتبوَّأ مقعده من النار**)[3]. فلا بأس حينئذ من قيام حرس أو جند على رأسه إظهاراً للعزة الإسلامية وتعظيماً للإمام أو الخليفة ووقاية له مما قد يُفاجأ به من سوء، كما أن الفخر والخيلاء في الحرب ليسا من هذا النوع المذموم في غيره، ويُشبه هذا ما فعله أبو دجانة في غزوة أُحد[4].

ـ عندما جاء سهيل بن عمرو من أجل التفاوض قال رسول الله ﷺ: (**قد سهل لكم من أمركم**)[5]. ففي الحديث استحباب التفاؤل، وأنه ليس من الطيرة المكروهة، وقد وردت أحاديث عن النبي ﷺ تبين معنى الفأل: (**لا طيرة، وخيرها الفأل**). قالوا: وما الفأل يا رسول الله؟ قال: (**الكلمة الصالحة يسمعها أحدكم**)[6]. والفرق بين الفأل والطِّيرة: أن الفأل من طريق حسن الظن بالله، والطيرة لا تكون إلا في السوء، فلذلك كُرهت[7].

ـ وقف رسول الله ﷺ على كعب بن عجرة بالحديبية، ورأسه يتهافت (يتساقط) قملاً، فقال: (**أيؤذيك هوامك؟**)[8]، قلت: نعم، قال: (**فاحلق رأسك**)، أو قال: (**فاحلق**)، فنزلت آية الفدية ﴿فَمَن كَانَ مِنكُم مَّرِيضًا أَوْ بِهِۦٓ أَذًى مِّن رَّأْسِهِۦ فَفِدْيَةٌ مِّن صِيَامٍ أَوْ

---

(١) انظر: **صحيح البخاري**، كتاب اللباس، باب ما يُذكر في الشيب، رقم الحديث (٥٨٩٦)، ص١٠٩١. **صحيح مسلم**: كتاب الفضائل، باب طيب عرقه ﷺ، في رواية عن أنس بن مالك، ص٨٦، ٨٧.

(٢) انظر: الواقدي: جـ٢ ص٥٩٥. ابن هشام: جـ٤ ص٢٧.

(٣) أخرجه أبو داود في كتاب الأدب، باب قيام الرجل للرجل، رقم الحديث (٥٢٢٩)، جـ٤ ص٣٥٥.

(٤) ابن قيم الجوزية: جـ٣ ص٢١٣.

(٥) **صحيح البخاري**، مصدر سابق، ص٥٠١.

(٦) المصدر نفسه: كتاب الطب، باب الفأل، رقم الحديث (٥٧٥٥)، ص١٠٧٠.

(٧) ابن حجر العسقلاني: **فتح الباري**، جـ١٢ ص٣٢٥.

(٨) الهوام: جمع هامة، وهي ما يدب من الأخشاش والمراد القمل.

صَدَقَةٍ أَوْ نُسُكٍۚ﴾ [البقرة/١٩٦]. ، فقال النبي ﷺ: **(صم ثلاثة أيام أو تصدق بِفَرَقٍ**[١]
بين ستة[٢] **أو انسك (اذبح) بما تيسر)**[٣].

(١) الفَرَق: ثلاثة أصوع. والصاع: مكيال للحبوب أو نحوها مقداره أربعة أمداد تقريباً.

(٢) أي: ستة مساكين.

(٣) **صحيح البخاري**، كتاب المحصر، باب قوله تعالى: ﴿أَوْ صَدَقَةٍ﴾، رقم الحديث (١٨١٥)، ص٣٢٩، ٣٣٠.

الفصل الحادي عشر

فتح مكة

الأوضاع السياسية بعد صلح الحديبية

ترك رسول الله ﷺ قريشاً لشأنها بعد أن أخرجها من دورها السياسي الفاعل، وقدَّر أنها لا بد أن تسقط من تلقاء نفسها ولو بعد حين، ومضى الإسلام ينتشر بين أهلها، وتضاءل عدد المشركين تباعاً. وضاعت تجارة مكة من أيدي القرشيين، وتقطعت السبل التي كانت عماد سلامتهم وتجارتهم في نواحي الجزيرة العربية وبلاد الشام واليمن، وأخذت قبائل الجزيرة تتطلَّع إلى التحالف مع القوة الجديدة الصاعدة، وقد أتاح صلح الحديبية للمسلمين أن ينتشروا في الآفاق لاستقطاب مزيد من الحلفاء مستغلين السلم الذي أتاحه. وكان انضمام خزاعة إلى معسكر المسلمين نصراً كبيراً للرسول ﷺ، ذلك أن قسماً كبيراً من الأحابيش الذين كانت قريش تعتمد عليهم يُعدُّون من بطونها، وبذلك ضمَّ النبي ﷺ قسماً كبيراً من هذه القوة إلى جانبه؛ ما أضعف مركز قريش العسكري، وقد شعر القرشيون بذلك، ورأوا ضياع أمرهم.

الواقع أنه لم يبق لقريش من حلفاء أو مناصرين سوى قبيلة بني بكر بن عبد مناة الكنانيين، إلا أنهم كانوا ضعفاء لا يُغنوا عن قريش شيئاً، ثم هوازن القبيلة البدوية الضخمة وتنزل في الأراضي الصحراوية التي تلي جبال السراة شرقاً، وتمتد فروع منها إلى غربها قرب مكة. وتعتمد هذه القبيلة على مكة للتزود بالمؤن والسلاح وغيرها، مما لا يتوافر في الصحراء، وستبقى هذه القبيلة على هذه الحال حتى فتح مكة، الذي حرمها من احتياجاتها المدنية التي كانت مكة تزوِّدها بها.

وبقيت ثقيف سنداً لقريش، وهي قبيلة غنية وقوية تسكن في الطائف، وهي في منعة ما دامت معتصمة بجبالها، ثم إنها عاشت منعزلة عما حولها إلى حد بعيد، واقتصرت علاقاتها العائلية على قريش. لم يتعرَّض النبي ﷺ لثقيف حتى ذلك الوقت؛ إذ لا سبيل إليها مع وجود حلفائها القرشيين، وستُفاجأ ثقيف بفتح مكة وضياع ذلك الحليف القوي، وستشعر منذ ذلك الوقت بأن يومها بات قريباً.

وتوجه رسول الله ﷺ نحو خيبر ومن لاذ بها من قبائل غطفان وأسد وقبائل أخرى

صغيرة، ورأى أن يُدخلها في بوتقة الإسلام تمهيداً لفتح مكة. وبعد أن فتح خيبر؛ أرسل السرايا ضد هذه القبائل، نذكر منها:

ـ **سرية عمر بن الخطاب إلى تُربة**[(١)]، ضد عجز هوازن[(٢)] في (شعبان ٧هـ/ كانون الأول ٦٢٨م)، قوامها ثلاثون رجلاً، وما إن وصل إليها حتى فرَّ القوم من وجهه، فعاد ولم يلقَ كيداً[(٣)].

ـ **سرية أبي بكر إلى بني كلب بنجد** ناحية ضَريَّة، في شعبان أيضاً سنة سبع هجرية، ففاجأهم بالقتال، فقتل منهم ناساً وعاد إلى المدينة[(٤)].

ـ **سرية بشير بن سعد الأنصاري إلى بني مُرَّة بفدك**، في شعبان أيضاً، قوامها ثلاثون رجلاً، فلقي سرحهم، فسأل عن القوم فقالوا له: «إنهم في بواديهم. فاستاق النعم وتوجَّه بها إلى المدينة. ولما علم المُريُّون بالأمر؛ سارعوا لاستعادة أموالهم، فأطبقوا على بشير وصحبه ليلاً وتراموا بالنبل حتى فني ما معهم من نبل، وقاتلوا قتالاً شديداً، فقُتل بعضهم وهرب البعض الآخر، وجُرح بشير حتى ظُنَّ أنه قد مات، فتحامل على نفسه ليلاً حتى وصل إلى فدك، فأقام عند رجل فيها حتى تحسَّن جرحه، ثم عاد إلى المدينة»[(٥)].

ـ **سرية غالب بن عبد الله الليثي إلى الميفعة**[(٦)]، في (رمضان ٧هـ/ كانون الثاني ٦٢٩م) ضد بني عوال وبني عبد بن ثعلبة، وقوامها مائة وثلاثون رجلاً، ودليلهم يسار، مولى رسول الله ﷺ، فأغار على بني سعد بن ذبيان، فقتل بعضاً منهم، واستاق نَعمهم إلى المدينة، ولم يأسر أحداً منهم. وقتل أسامة بن زيد في هذه السرية مرداس بن نهيك بعد أن نطق بالشهادة. ودافع أسامة عن نفسه أمام الرسول بأن الرجل قالها تعوذاً بها من القتل، فقال له الرسول ﷺ: **(ألا شققت عن قلبه فتعلم صادق هو أم كاذب)**؟ عندئذ قال أسامة: «لا أقاتل أحداً يشهد أن لا إلٰه إلا الله»[(٧)].

---

(١) **تُرَبة**: واد بالقرب من مكة على مسافة يومين منها على طريق صنعاء ونجران. الحموي: جـ٢ ص٢١. وفي **طبقات ابن سعد**: تُرَبة موضع بناحية العبلاء على أربع ليال من مكة، طريق صنعاء نجران. الطبقات: جـ٢ ص١١٧.

(٢) **عجز هوازن**: بنو نصر بن معاوية، وبنو جشم بن بكر.

(٣) الواقدي: جـ٢ ص٧٢٢. ابن سعد: المصدر نفسه.

(٤) ابن سعد: المصدر نفسه، ص١١٧، ١١٨. (٥) الواقدي: جـ٢ ص٧٢٣، ٧٢٤.

(٦) **الميفعة**: وراء بطن نخل إلى النقرة قليلاً بناحية نجد وبينها وبين المدينة ثمانية بُرُد. ابن سعد: جـ٢ ص١١٩.

(٧) ابن سعد: جـ٢ ص١١٩.

ولهذه السرية دلالتان عسكريتان، هما:

١ ـ أن يساراً، الذي عمل دليلاً لهذه السرية، سلك طريقاً آخر غير الطريق التقليدية للتمويه ومفاجأة القوم، وتعدُّ هذه الخطوة إحدى فنون الحرب الناجحة في كل عصر.

٢ ـ وَعَظَ غالب بن عبد الله الليثي رجاله قبل المعركة، وحثَّهم على الجهاد ورغَّبهم فيه، ونهاهم عن الإمعان في الطلب، وألَّف بين قلوبهم، وهذا ما يفعله العسكريون عادة حيث يضعون مرؤوسيهم في جوِّ المعركة ويحثُّونهم على الثبات.

ـ **سرية بشير بن سعد الأنصاري إلى يَمْن وجَبَار** في (شوال ٧هـ/ شباط ٦٢٩م) قوامها ثلاثمائة رجلاً، وكان جمعاً من غطفان بالجِناب[١] قد واعدهم عيينة بن حصن أن ينضم إليهم ليغزوا المدينة، فاستشار الرسول ﷺ أصحابه، وكان الرأي أن يُرسل بشير بن سعد في ضربة استباقية تُشتِّت شمل المجتمعين قبل أن يستكملوا جمعهم ويزحفوا إلى المدينة، فسار إليهم، فأغار على سرحهم واستاقها، فهرب الرعاة وأعلموا قومهم، فتفرقوا ولحقوا بعلياء بلادهم. وعاد بشير بالنَّعم إلى المدينة، وصادف في الطريق عيناً لعيينة فقتله ثم اصطدم بأصحابه فأسر منهم رجلين وهرب الباقون، فقدم بهما إلى المدينة، فأعلنا إسلامهما[٢].

واستمرَّت السرايا الإسلامية ناشطة طيلة الأشهر الأولى من السنة الثامنة للهجرة ضد القبائل في قلب الصحراء، إلا أنها لم تُحقِّق أي إنجاز فاعل في استقطاب هذه القبائل إلى الإسلام، إنما كانت سرايا ردع لمنعها من الإغارة على المدينة، والملاحظ أن الرسول ﷺ كان على اطِّلاع دائم بتحركات مختلف القبائل في الجزيرة العربية، وكان يجهض تحركات أعدائه بمباغتتهم قبل استكمال استعداداتهم.

وتطلع رسول الله ﷺ إلى ما وراء الجزيرة العربية شمالاً وشرقاً حيث البيزنطيين (الروم) والفرس وعرب كثيرون، منهم عرب الضاحية، وعرب الروم، وعرب الحيرة وآخرون في بلاد الشام والعراق، فوالى سراياه بعد فتح خيبر على شمالي الجزيرة العربية وفق ما سنبحثه في القسم المخصَّص لعلاقته ﷺ مع البيزنطيين.

كتبه ﷺ إلى الملوك والأمراء يدعوهم إلى الإسلام

لم يكتفِ رسول الله ﷺ بما حقَّقه بعد صلح الحديبية، وما تلا ذلك من إخضاع يهود خيبر ووادي القرى وتيماء وفدك إلى السيادة الإسلامية، بل عمد إلى نشر الإسلام في خارج الجزيرة العربية وأطرافها، وقد عبَّر عن هذا المنهج قولاً وعملاً

(١) **الجِناب**: من أرض غطفان.

(٢) الواقدي: جـ٢ ص٧٢٧ ـ ٧٣١.

من واقع إرسال عدد من الرسل يحملون كتبه إلى الأباطرة والملوك الفرس والبيزنطيين وملوك مصر والحبشة، والأمراء العرب الوثنيين تتضمن دعوتهم إلى الإسلام؛ علماً بأن الفرس كانوا يحتلون أجزاء واسعة من جنوبي الجزيرة العربية، ويحتل البيزنطيون أجزاء أخرى من شمالها. وقد انتشرت ديانة المحتلين في المناطق التي سيطروا عليها؛ فسادت المجوسية المناطق التابعة لفارس، وانتشرت النصرانية في المناطق التابعة للبيزنطيين. وكان الأكاسرة والقياصرة يُعيِّنون أمراء الأقاليم التابعة لهم، وينصاع هؤلاء لتوجهاتهم وأوامرهم.

أرسل رسول الله ﷺ ستة نفر في يوم واحد في (محرم ٧هـ/ أيار ٦٢٨م)، وكان كل رجل منهم يتكلم بلسان القوم الذين بعثه إليهم[(١)]، ونذكر فيما يلي أهم هذه الكتب.

كتابه إلى كسرى[(٢)] ملك الفرس: أرسل النبي ﷺ عبد الله بن حذافة السهمي بكتاب إلى كسرى أبرويز بن هرمز ملك الفرس عبر أمير البحرين، ونصه: (**بسم الله الرحمٰن الرحيم. من محمد رسول الله إلى كسرى عظيم فارس. سلام على من اتَّبع الهدى وآمن بالله ورسوله، وشهد أن لا إلٰه إلا الله، وأني رسول الله إلى الناس كافَّة، لينذر من كان حياً. أسْلِم تسلم، فإن أبيت فعليك إثم المجوس**). فلما تسلَّمه وقرأه، مزَّقه وقال: «يكتب إليَّ هذا وهو عبدي». فبلغ ذلك رسول الله ﷺ، فقال: (**مزَّق الله ملكه**)[(٣)].

كتابه إلى هرقل عظيم الروم: أرسل رسول الله ﷺ كتاباً إلى الامبراطور البيزنطي هرقل حمله دحية بن خليفة الكلبي، وهذا نصه: (**بسم الله الرحمٰن الرحيم. من محمَّد رسول الله إلى هرقل عظيم الروم. سلام على من اتَّبع الهدى. أما بعد، فإني أدعوك بدعاية الإسلام؛ أسلم تسلم، أسلم يؤتك الله أجرك مرتين، وإن توليت فعليك إثم الأريسيين**[(٤)] ﴿قُلْ يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ تَعَالَوْاْ إِلَىٰ كَلِمَةٍ سَوَآءِۭ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ أَلَّا نَعْبُدَ إِلَّا ٱللَّهَ وَلَا نُشْرِكَ بِهِۦ شَيْـًٔا وَلَا يَتَّخِذَ بَعْضُنَا بَعْضًا أَرْبَابًا مِّن دُونِ ٱللَّهِ ۚ فَإِن تَوَلَّوْاْ فَقُولُواْ ٱشْهَدُواْ بِأَنَّا مُسْلِمُونَ﴾) [آل عمران/ ٦٤]. تسلَّم هرقل كتاب النبي ﷺ، فأراد أن يُدقِّق في الأمر، فاستدعى أبا سفيان، وكان في تجارة له في بلاد الشام، فسأله عن أحوال النبي ﷺ، واستمع إلى ردِّه، ولما انتهى خاطبه قائلاً: «إن كان ما تقول فيه حقاً فإنه نبي، وقد كنت أعلم أنه خارج، ولم أكن أظنه منكم، ولو أني أعلم أني أخلص إليه

---

(١) ابن سعد: جـ١ ص٤٧١.

(٢) كسرى: لقب الملوك الفرس.

(٣) **صحيح البخاري**: كتاب الجهاد والسير، باب دعوة اليهودي والنصراني... رقم الحديث (٢٩٣٩)، ص٥٣٩. الطبري: جـ٢ ص٦٥٤، ٦٥٥.

(٤) الأريسيون هم الأكاريون، أي: الفلاحون، والمقصود هنا الأتباع والرعية.

لأحببت لقاءه، ولو كنت عنده لغسلت عن قدميه، وليبلغنَّ ملكه ما تحت قدميَّ»[1].

كان هرقل رجلاً سياسياً لا يعنيه شيء من أمر الدين إلا بقدر ما يخدم مصلحته ويُنمي قوته، ونشطت في عهده الخلافات المذهبية حول طبيعة المسيح على أثر المجمعين في أفسس عام ٤٣١هـ، وخلقيدونية عام ٤٥١م[2]، وقد خشي أن تُثير خلافات عميقة في صفوف الشعب، لذلك حاول أن يبحث عن عقيدة من شأنها أن تُوفِّق بين القول بالطبيعة الواحدة والقول بالطبيعتين، وهو بذلك على اطلاع على الإلٰهيات، ويبدو أنه رادوته في وقت ما فكرة الخروج من عقيدة التثليث إلى بساطة التوحيد، ولكنه كان عليه أن يُقنع بطاركته وحاشيته، وقد خشي على دولته وحكمه، ولما تسلم كتاب رسول الله ﷺ، وكان في حمص؛ جمعهم وعرض عليهم أن يتبعوا النبي العربي، فرفضوا ونفروا ورفعوا الصليب، فلما رأى منهم ذلك يئس من إسلامهم، فخاطبهم قائلاً: «إنما قلت لكم ما قلت لأختبركم لأنظر كيف صلابتكم في دينكم، فقد رأيت منكم الذي أحب. فسجدوا له»[3].

وشاعت لباقته السياسية أن يستدعي دحية بن خليفة الكلبي، وأن يحاول إيهامه بأنه مسلم، ثم أعطاه قدراً من الدنانير وصرفه. وعاد دحية إلى المدينة وأخبر الرسول ﷺ بذلك، وأعطاه الأموال، فقال: (**كذب عدو الله. ليس بمسلم**). وأمر بالدنانير فقسمت على المحتاجين[4].

كتابه إلى المقوقس حاكم مصر: أرسل رسول الله ﷺ كتاباً إلى المقوقس (جريج بن مينا) عظيم القبط ونائب هرقل على مصر ومركزه في مدينة الإسكندرية، حمله إليه

(١) **صحيح مسلم**: كتاب الجهاد والسير، باب كتب النبي ﷺ إلى هرقل. . .، ص١٠٣ ـ ١٠٧. **صحيح البخاري**: كتاب الجهاد والسير، باب دعاء النبي إلى الإسلام. . . رقم الحديث (٢٩٤١)، ص٥٤٠، ٥٤١.

(٢) انقسم المسيحيون حول طبيعة المسيح إلى ثلاثة مذاهب هي:
ـ **المذهب النسطوري**، والنساطرة: أتباع نسطور الذي رأى في المسيح شخصاً بشرياً وشخصاً إلهياً، ورفض وحدة الشخص المحدَّد في مجمع أفسوس.
ـ **المذهب المونوفيزي**: المونوفيزيون هم الذين رفضوا ثنائية الطبيعة المحددة في مجمع خلقيدونية، وقالوا بطبيعة إلٰهية واحدة في المسيح.
ـ **المذهب الخلقيدوني**: والخلقيدونيون هم الذين قبلوا ثنائية الطبيعة المحددة في مجمع خلقيدونية، ورأوا في المسيح طبيعة بشرية وطبيعة إلٰهية، وهذا المذهب هو المذهب الرسمي لبيزنطية.

(٣) **صحيح مسلم**، مصدر سابق، ص١٠٧. ابن سعد: جـ١ ص٢٥٩.

(٤) ابن سلام: ص٢٥٥.

حاطب بن أبي بلتعة اللخمي، جاء فيه ما تضمنه كتابه إلى هرقل مع استبداله كلمة «الأريسيين» بكلمة «كل القبط»، فلما قرأ الكتاب ضمَّه إلى صدره وجعله في حُق[١] عاج، ودعا كاتباً بالعربية فكتب: إلى النبي: «بسم الله الرحمٰن الرحيم. لمحمد بن عبد الله، من المقوقس عظيم القبط. سلام عليك. أما بعد. فقد قرأت كتابك وفهمت ما ذكرت فيه وما تدعو إليه، وقد علمت أن نبياً قد بقي، وقد كنت أظن أنه يخرج بالشام، وقد أكرمت رسولك، وبعثت إليك جاريتين لهما مكان عظيم في القبط، وهما ماريا وأختها سيرين، وأهديت لك أيضاً كسوة وبغلة تركبها». ومع ذلك فإنه لم يُسلم، لكن الرسول ﷺ قَبِل هديته، وقال: (**ضنَّ الخبيث بملكه، ولا بقاء له**)[٢].

كتابه إلى النجاشي ملك الحبشة: وجَّه رسول الله ﷺ مع عمرو بن أمية الضمري، كتابين إلى النجاشي يدعوه في أحدهما إلى الإسلام، ويأمره في الآخر أن يُزوِّجه أم حبيبة[٣]. وجاء في الكتاب الأول: (**بسم الله الرحمٰن الرحيم. من محمد رسول الله، إلى النجاشي ملك الحبشة. سِلْم أنت، فإني أحمد إليك الله، الملك القدوس السلام المؤمن المهيمن، وأشهد أن عيسى ابن مريم روح الله وكلمته ألقاها إلى مريم البتول الطيبة الحصينة، فحملت بعيسى فخلقه الله من روحه ونفخه كما خلق آدم بيده ونفخه، وإني أدعوك إلى الله وحده لا شريك له والموالاة على طاعته، وأن تتبعني، وتؤمن بالذي جاءني، فإني رسول الله... فإني أدعوك وجنودك إلى الله، فقد بلّغت ونصحت فاقبلوا نصحي، والسلام على من اتبع الهدى**). فأخذ الكتاب ووضعه على عينيه ونزل عن سريره فجلس على الأرض متواضعاً ثم أسلم وشهد شهادة الحق، وقال: «لو كنت أستطيع أن آتيه لأتيته». وكتب إلى رسول الله ﷺ بإجابته وتصديقه وإسلامه على يدي جعفر بن أبي طالب لله رب العالمين، وأرسل إليه أُم حبيبة وأصدقها أربعمائة ديناراً ذهباً[٤].

كتابه إلى الحارث الغساني:[٥] وجَّه رسول الله ﷺ كتاباً إلى الحارث بن أبي شمر الغساني في دمشق، حين عودته والمسلمين من الحديبية، حمله إليه شجاع بن

---

(١) حُق: وعاء صغير يوضع فيه الطيب بخاصة.

(٢) ابن سعد: جـ١ ص٢٦٠، ٢٦١. ابن قيم الجوزية: جـ٤ ص٦٦، ٦٧.

(٣) بقي من المهاجرين الأولين في الحبشة خمسون أو ستون بعد أن هاجر رسول الله ﷺ إلى المدينة، كان من بينهم أُم حبيبة بنت أبي سفيان التي هاجرت مع زوجها عبيد الله بن جحش، وقد مات زوجها في الحبشة نصرانياً فتزوجها رسول الله ﷺ بعد ذلك.

(٤) ابن سعد: جـ٥ ص٢٥٨، ٢٥٩. الطبري: جـ٢ ص٦٥٢، ٦٥٣. ابن قيم الجوزية: جـ٤ ص٦٥، ٦٦.

(٥) عند الطبري، المنذر بن الحارث. جـ٢ ص٦٥٢.

وهب الأسدي تضمَّن قوله: (**سلامٌ على من اتبع الهدى وآمن به. إني أدعوك إلى أن تؤمن بالله وحده لا شريك له يبقى لك ملكك**)[1]. فلما قرأ الحارث كتاب رسول الله ﷺ رمى به وقال: «من ينتزع مني ملكي؟ أنا سائر إليه ولو كان في اليمن جئته، عليَّ بالناس»[2]. فلم يزل جالساً حتى الليل يتجهَّز ثم قال: «أخبر صاحبك بما ترى». وكتب إلى الامبراطور البيزنطي هرقل يستأذنه في الخروج لمحاربة النبي ﷺ[3]، فردَّ عليه هرقل ينهاه عن ذلك، فلما علم رسول الله ﷺ بما فعله الأمير الغساني قال: «**باد مُلكه**». ومات الحارث عام الفتح[4].

كتابه إلى هوذة الحنفي: أرسل النبي ﷺ سليط بن عمرو بن عبد شمس العامري إلى هوذة بن علي الحنفي صاحب اليمامة بنجد، ونصه: (**بسم الله الرحمٰن الرحيم. من محمد رسول الله ﷺ إلى هوذة بن علي. سلام على من اتبع الهدى، واعلم أن ديني سيظهر إلى منتهى الخف والحافر، فأسلم تسلم، وأجعل لك ما تحت يديك**). فلما قرأ سُليط الكتاب ردَّ رداً لطيفاً، فكتب إلى النبي ﷺ: «ما أحسن ما تدعو إليه وأجمله، وأنا شاعر قومي وخطيبهم والعرب تهاب مكاني، فاجعل لي بعض الأمر أتبعك». كان هوذة يريد مشاركة النبي ﷺ في النبوة أو الخلافة بعده. ولما قرأ النبي ﷺ كتابه، قال: (**لو سألني وزن سحابة**[5] **من الأرض ما فعلت؛ باد وباد ما في يديه**). فلما انصرف من عام الفتح جاءه جبريل فأخبره بأنه مات، فقال ﷺ: (**أما إن اليمامة سيخرج بها كذاب يتنبأ، يُقتل بعدي**)[6].

كتابه إلى المنذر بن ساوى التميمي: بعث رسول الله ﷺ العلاء بن الحضرمي بكتاب إلى المنذر بن ساوى العبدي أمير البحرين بعد انصرافه من الجِعْرَانة[7]، جاء فيه: (**بسم الله الرحمٰن الرحيم. من محمَّد رسول الله إلى المنذر بن ساوى. سِلم أنت، فإني أحمد إليك الله الذي لا إلٰه إلا هو، وأشهد أن لا إلٰه إلا الله وأشهد أن**

---

(١) ابن سعد: جـ١ ص٢٦١. ابن هشام: جـ٤ ص٢٣٢. ابن قيم الجوزية: جـ٤ ص٧٠.
(٢) ابن سعد: المصدر نفسه.
(٣) كان الحارث أمير غسان في دمشق من قِبل البيزنطيين.
(٤) ابن سعد: جـ١ ص٢٦١.
(٥) وزن سحابة: السحابة هي البلح أو البسر الأخضر، ومعنى ذلك أنه لو سأله قدر بلحة أو بسرة.
(٦) ابن سعد: جـ١ ص٢٦٢. ابن قيم الجوزية: جـ٤ ص٦٩، ٧٠.
(٧) **الجِعْرانة**: ماء بين الطائف ومكة وهي إلى مكة أقرب، نزلها النبي ﷺ لما قسَّم غنائم هوازن مرجعه من غزوة حنين، عام (٨هـ). الحموي: جـ٢ ص١٤٢.

محمَّداً عبده ورسوله. أما بعد. فإني أُذكِّرك الله ﷻ، فإنه من ينصح فإنما ينصح لنفسه، وإنه من يطع رسلي ويتبع أمرهم فقد أطاعني، ومن نصح لهم فقد نصح لي، وإن رسلي قد أثنوا عليك خيراً، وإني شفعتك في قومك، فاترك للمسلمين ما أسلموا عليه، وعفوت عن أهل الذنوب فاقبل منهم، وإنك مهما تصلح فلن نعزلك عن عملك، ومن أقام على يهوديته أو مجوسيته فعليه الجزية). وبيَّن لرسوله حكم الإسلام في الجزية على اليهود والمجوس[1].

منح الرسول ﷺ في هذا الكتاب الحرية لمن يريد الدخول في الإسلام على شرط دفع الجزية، وكان أهل البحرين آنذاك إما مجوساً أو يهوداً، فلما عرض المنذر الإسلام عليهم؛ دخل فيه من أحب، وبقي من كره على دينه، أما المنذر، فقد أسلم وحسن إسلامه[2].

كتابه إلى جيفر وعبَّاد، ابني الجنلدى بعُمان: بعث رسول الله ﷺ في (ذي القعدة ٨هـ/آذار ٦٣٠م) عمرو بن العاص بكتابه إلى جيفر وعبَّاد ابني الجنلدى ملوك عُمان، ومن كان منهم بالبحرين، وهذا نصُّه: (**أما بعد، فإني أدعوكما بدعاية الإسلام، أسلما تسلما، فإني رسول الله إلى الناس كافَّة لأنذر من كان حياً ويحق القول على الكافرين. وإنكما إن أقررتما بالإسلام ولَّيتكما، وإن أبيتما أن تُقِرَّا بالإسلام، فإن ملككما زائل عنكما وخيلي تحلُّ بساحتكما وتظهر نبوَّتي على ملككما**). قابل عمرو الأخوين وسلَّمهما الكتاب، وبعد أن قرآ ما فيه أعلنا إسلامهما، وأسلم معهما عدد كبير من أتباعهما، وفرض الجزية على من بقي على دينه، وخلَّيا بين عمرو وبين الصدقة وبين الحكم فيما بينهم، وكانا عوناً له على من خالفه، فأخذ الصدقة من أغنيائهم فردَّها في فقرائهم[3].

وكتب رسول الله ﷺ كتباً إلى أقيال اليمن دعاهم فيها إلى الإسلام، وإلى بني معاوية من كندة، وإلى بني عمرو من حِمير، وإلى أساقفة نجران وكهنتهم، وإلى أُمراء ذي مرحب بحضرموت، وبني كنان بن يزيد الحارثيين، وإلى بني طيء، وإلى بني جذام، وإلى بني زرعة، وبني الربعة من جهينة، وإلى بني جعيل من بلي، وإلى بني جرمز بن ربيعة، وهم من جهينة، وإلى بني سُلَيْم، وإلى غيرهم من قبائل العرب.

---

(١) ابن سعد: جـ١ ص٢٦٣. ابن قيم الجوزية: جـ٤ ص٦٧.

(٢) ابن سعد: المصدر نفسه.

(٣) المصدر نفسه: ٢٦٢، ٢٦٣. ابن قيم الجوزية: جـ٤ ص٦٨، ٦٩.

تعقيب على كتبه ﷺ إلى الملوك والأمراء

ـ إن العرض العام لكتب الرسول ﷺ إلى الملوك والأمراء هو على ثلاثة أساليب:

الأول: أن يُفتتح الكتاب بلفظ «سِلم أنت» كما في كتابه إلى المنذر بن ساوى والنجاشي.

الثاني: أن يُفتتح الكتاب بلفظ «سلام على من اتَّبع الهدى» كما في كتابه إلى هوذة الحنفي والامبراطور البيزنطي هرقل وكسرى ملك الفرس.

الثالث: أن يبدأ الكتاب بلفظ «أما بعد» كما في كتابه إلى جيفر وعبَّاد ابني الجلندى.

نستنتج من ذلك؛ أنه لا يجوز مخاطبة الكافر بتحية الإسلام، وهي «السلام عليكم ورحمة الله وبركاته».

ـ إن المتتبع لنصوص الكتب يجد أنها تهدف إلى أمر واحد، وهو الدعوة إلى الإسلام، وتُعبِّر عن مدلولها من خلال إشعار الملوك والأمراء بأمر الإسلام ودعوتهم للدخول فيه، وقد خرجت الدعوة الإسلامية بهذه الوسيلة من نطاق الجزيرة العربية إلى آفاق العالم الواسع، وأثبتت أن دعوة الإسلام ليست دعوة عنصرية ولا إقليمية، وأن الإسلام ليس ديناً لفئة من الناس أو لشعب من الشعوب، وإنما هو دين عام للبشرية جميعاً، وما كان هذا الأمر ليتم قبل صلح الحديبية، حيث أضحت الدولة الإسلامية هي الأقوى في جزيرة العرب

ـ اقتصرت مهمة المبعوثين، حاملي كتب رسول الله ﷺ إلى الدول التي أُرسلوا إليها، على دعوة ملوكها وأُمرائها إلى دين الله انطلاقاً من الدور الأساس للدولة الإسلامية، فقد طرقوا أبواب أهم الدول القائمة في ذلك الوقت، وهي دولة الفرس والروم البيزنطيين والقبط والبحرين وعُمان واليمن وغيرها، وشكَّلت هذه الكتب عملاً بديعاً من أعمال السياسة، بل كانت أول عمل قام به المسلمون في هذا الميدان، ويبدو أن النبيَّ ﷺ لم يكن يتوقع أن يُلبِّي أولئك الأقوياء دعوته، وهو ما يزال يناضل في بثِّها بين عشيرته وقومه.

ـ ينبغي على المسلمين أن يُهيئوا للدعوة أسبابها ووسائلها، ومنها المعرفة بلغات الأمم والأقوام الذين يقومون بدعوتهم إلى الإسلام، وقد ذكرنا أنه ﷺ أرسل ستة رجال من أصحابه في يوم واحد إلى الملوك والأُمراء يُتقن كل واحد منهم لغة القوم الذين أرسله إليهم.

ـ يُشير المنهج النبوي في دعوة الملوك والأمراء إلى ما يجب أن تكون عليه وسائل الدعوة، فإلى جانب دعوة الشعوب؛ اختار الرسول ﷺ أسلوباً جديداً من

أساليب الدعوة، وهو مراسلة الملوك والأُمراء ورؤساء القبائل، فقد كان يعلم أن إسلام هؤلاء يفتح الباب أمام إسلام شعوبهم وقبائلهم، وهذا كان يتحقَّق في كثير من الأحيان. وبهذا الأسلوب يكون ﷺ قد اختصر طريق الدعوة الإسلامية وأكسبها مجموعة من الناس بدعوة رجل واحد هو ملكهم أو أميرهم.

ـ اختار رسول الله ﷺ اللغة العربية كلغة مخاطبة مع اختلاف أسلوب التخاطب وصياغته. كان هناك الجديث بالرفق واللين، وكانت هناك الشدة والحزن، فإن بعض المتكبرين لا يعرفون أسلوب الرفق، ويعدُّون ذلك عجزاً من المخاطب، لذا اختار ﷺ هذه الأساليب ليدل بذلك على حكمته وبلاغته. فبينما نجده يُخاطب النجاشي بقوله: (... **فإني أدعوك وجنودك إلى الله، فقد بلغت ونصحت، فاقبلوا نصحي، والسلام على من اتبع الهدى)**. نجده عليه السلام يُخاطب كسرى بأسلوب آخر فيه من رحمة المؤمن وشفقته، وكذلك من عزَّته وقوته، فقال: (**من محمد رسول الله إلى كسرى عظيم فارس. سلام على من اتَّبع الهدى وآمن بالله ورسوله وشهد أن لا إله إلا الله وأني رسول الله إلى الناس كافة، لينذر من كان حياً...**)[1].

ـ وكما اختلفت أساليب الخطاب، اختلفت كذلك صياغتها لتتناسب مع كل ملك أو أمير أو شعب، فكانت الكتب بلغة عربية تفهمها كل قبيلة، وهي لغة مضر وطابعها المميز الفصاحة والإيجاز، وكان يخاطب الناس على اختلاف شعوبهم وقبائلهم بما يفهمونه[2].

ـ كان لأسلوب التخاطب أثر بارز في دخول بعض الملوك والأُمراء في الإسلام وإظهار الود من بعضهم الآخر، وكشفت مواقف بعض الملوك والأُمراء من الدعوة الإسلامية ودولتها في المدينة، فحقَّقت بذلك نتائج كثيرة. واستطاعت الدولة الإسلامية من خلال ردود الفعل المختلفة أن تنتهج نهجاً سياسياً وعسكرياً واضحاً ومتميزاً، من ذلك أن إسلام المنذر بن ساوى صاحب البحرين، وجيفر وعبَّاد ملكي عُمان وغيرهم من الأُمراء ورؤساء القبائل، قد فتح الطريق أمام تحوُّل شعوبهم ودخولها في الإسلام، كما كان لموقف المقوقس الودي أثر إيجابي في طبيعة العلاقات بين الدولة الإسلامية ومصر. أما العلاقة مع الفرس والبيزنطيين فقد تحدَّدت من واقع موقفهما الرافض للدعوة الإسلامية، ولهذا نجد أن أغلب الحملات العسكرية توجَّهت إلى الدولتين الفارسية والبيزنطية[3].

---

(١) المهيري: ص١١٣.

(٢) الهوني، محمد فرج: **النظم الإدارية والمالية في الدولة العربية الإسلامية**، ص٣٩.

(٣) المهيري: ص١١٣.

ـ كانت الكتب التي أرسلها الرسول ﷺ وسيلة مهمة لإسماع الناس نبأ الدعوة وإعلامهم بحصول تبدل جديد في ميدان الحياة.

ـ أظهر رسول الله ﷺ شجاعة وعزماً في سياسته الخارجية أضحت مثالاً يُحتذى، ذلك أن بعض هذه الكتب أُرسلت إلى ملوك أقوياء، مثل هرقل وكسرى والمقوقس، ولو كان غير رسول الله ﷺ فعل ذلك لخشي عاقبة الأمر، ويدل ذلك على حرصه ﷺ وعزيمته على إبلاغ دعوة الله، وإيمانه المطلق بتأييد الله ﷻ، وقد حقَّقت هذه السياسة نتائج باهرة، نذكر منها:

١ ـ ابتكار أسلوب جديد في التعامل الدولي لم يكن يعرفه العرب ولا غيرهم من الشعوب من قبل.

٢ ـ أضحت للدولة الإسلامية مكانتها وقوتها على المسرح السياسي الداخلي، وفرضت وجودها على الساحة السياسية الدولية.

٣ ـ كانت مكاتبة الدول خارج الجزيرة العربية تعبيراً عن عالمية الدولة الإسلامية التي أوضحتها آيات قرآنية، منها: ﴿وَمَآ أَرۡسَلۡنَٰكَ إِلَّا رَحۡمَةٗ لِّلۡعَٰلَمِينَ﴾ [الأنبياء/١٠٧].

ـ تُعدُّ كتب النبي ﷺ إلى ملوك وأُمراء الدول المجاورة لبلاده انعطافة مهمة في تحول دولة الرسول ﷺ في المدينة من الدولة المحلية إلى الدولية العالمية، وأضحت لها مكانة دينية وسياسية بين الدول، وذلك قبل فتح مكة، كما أن هذه الانعطافة مهَّدت لتوحيد سائر بلاد العرب في عام الوفود[١].

ـ يدلنا موقف هرقل وحاشيته الذين كانوا يزعمون أنهم على دين عيسى ﵇، على مدى التكبُّر على الحق، والتعنُّت في الباطل، وينطبق ذلك على كثير من أهل الكتاب. وقد بدا موقف هرقل في بادىء الأمر بعد سماع مضمون كتاب النبي ﷺ في مظهر المقدِّر لحقائق الأُمور، لكن تبيَّن بعد ذلك أنه يبغي الوقوف على رأي حاشيته ليطمئن إلى ما سيتخذه من خطوات للمحافظة على ملكه وسلطانه تجاه هذا الأمر[٢].

ـ تتضمَّن هذه السفارات معجزات للرسول ﷺ بعلم الغيب بما يُطلعه عليه جبريل عن الله تعالى، من ذلك قوله: أنه سيخرج في اليمامة نبي كاذب وسيُقتل، وأن ملك هوذة سيُباد، وقد حصل ما يدل على نبوته ﷺ وصدقه في دعوته، وتبليغه لدين الله، وأن لا مساومة في العقيدة والإيمان، ووقف الدخول في الإسلام على الوعد بالملك ومتاع الحياة الدنيا.

---

(١) معطي، علي: التاريخ السياسي والعسكري لدولة المدينة في عهد الرسول، ص٣٥١.

(٢) البوطي: ص٣٧٥.

الدلالات الشرعية في كتبه ﷺ إلى الملوك والأمراء

تضمَّنت مسألة مراسلة الملوك والأُمراء من أجل دعوتهم إلى الإسلام دلالات شرعية، نذكر منها:

- دلَّ عمل رسول الله ﷺ على مشروعية استعمال الخاتم في المراسلات، على أن يكون من الفضة، وعلى نقش اسم صاحبه عليه، وقد استدلَّ كثير من العلماء بذلك على استحباب وضع خاتم من فضة في الإصبع الذي كان ﷺ يضع خاتمه فيه، وهي إصبع الخنصر[1]. والمعروف أنه عندما قرَّر ﷺ إرسال الكتب إلى الملوك والأمراء، قيل له: «يا رسول الله! إن الملوك والأُمراء لا يقرؤون كتاباً إلا مختوماً». فاتخذ رسول الله ﷺ يومئذ خاتماً من فضة نقشه في ثلاثة أسطر: محمد رسول الله، وختم به الكتب[2].

- مشروعية إرسال السفراء المسلمين إلى الزعماء الكافرين، والكتابة إلى الكافرين في أمر الدنيا والدين.

- جواز أخذ الجزية من المجوس، واستُخرج هذا الحكم من كتاب النبي ﷺ الذي أرسله إلى المنذر بن ساوى يُحدِّد فيه الموقف من اليهود والمجوس؛ إذ ورد فيه: (**من أقام على يهوديته أو مجوسيته فعليه الجزية**). ولما كان المجوس أهل شرك لا كتاب لهم؛ تُقبل الجزية من جميع المشركين إلى جانب أهل الكتاب.

- جواز أخذ هدية الكافر، فقد أرسل المقوقس عظيم القبط وحاكم مصر مع سفير رسول الله ﷺ هدية تشتمل على جاريتين وكسوة للرسول ﷺ وبغلة يركبها، فقبلها رسول الله ﷺ، وكانت مارية إحدى هاتين الجاريتين، كما ذكرنا.

عمرة القضاء[3]

بقي رسول الله ﷺ في المدينة يبعث السرايا حتى كان شهر (ذي القعدة ٧هـ/آذار ٦٢٩م)، وهو الشهر الذي صدَّته قريش فيه عن العمرة من العام الماضي، فخرج معتمراً ليؤدي عمرة القضاء استناداً إلى اتفاقه معها. وقد بلغ من شهد هذه العمرة ألفين سوى النساء والصبيان، ولم يتخلَّف أحد من أهل الحديبية إلا من استُشهد في خيبر أو مات قبل عمرة القضاء.

---

(١) البوطي: ص٣٧٥. (٢) ابن سعد: جـ١ ص٢٥٨.

(٣) ويُقال لها عمرة القصاص، لأن المشركين صدُّوا رسول الله ﷺ في ذي القعدة في الشهر الحرام، فاقتصَّ رسول الله ﷺ منهم في الشهر نفسه من السنة التالية، فدخل مكة. ابن هشام: جـ٤ ص٦٩.

توجَّه الرسول ﷺ وأصحابه من المدينة إلى مكة في موكب مهيب لم يألفه العرب، فقد لبسوا زياً واحداً هو لباس الإحرام، ورفعوا أصواتهم بالتلبية، وساقوا هديهم وقد بلغ ستين بُدنة من الإبل في علاماته وقلائده. واصطحب النبي ﷺ السلاح الكامل من سيوف ودروع ورماح تحسباً لكل طارىء قد يقع، وقاد مائة فرس اقام عليها محمد بن مسلمة، ولما وصل إلى ذي الحليفة على سبعة أميال من المدينة، قدَّم الخيل والسلاح.

وعلمت قريش بهذا الخروج الضخم، فهالها ذلك وأرسلت مكرز بن حفص لاستيضاح الأمر، فقابل الرسول ﷺ في بطن يأجج[1] بمرِّ الظهران، وقال له: «يا محمَّد! والله ما عرفناك صغيراً ولا كبيراً بالغدر، تدخل بالسلاح الحرم على قومك وقد شرطت ألا تدخل إلا على العهد، وأنه لن يدخل الحرم غير السيوف في أغمادها»! فأجابه ﷺ: (**لا ندخلها إلا كذلك**). ورجع مكرز مسرعاً إلى مكة وأخبر القرشيين «أن محمَّداً لا يدخل بسلاح، وهو على الشرط الذي شرط لكم»[2].

وخرجت قريش من مكة، فدخلها المسلمون من الثنية التي تطلعهم على الحَجون وهم مُحرمون وأصواتهم تعجُّ بالتلبية لله العليِّ الكبير «**لبَّيك اللهمَّ لبيك**»، والمشركون يراقبونهم من الهضاب المحيطة بهم. وكان القرشيون قد شيَّعوا عن المسلمين أنهم في عسر ومشقة، فأمر الرسول ﷺ أصحابه أن يروهم من أنفسهم قوة، فلما بلغ الحرم قال لعبد الله بن رواحة الآخذ بزمام راحلته القصواء: (**إيهاً يا ابن رواحة! قل: لا إله إلا الله وحده، صدق وعده، ونصر عبده، وأعزَّ جنده، وهزم الأحزاب وحده**). فجعل عبد الله يقولها ويردِّدها المسلمون من بعده في حماس وقوة. ولما دخل المسجد اضطبع[3] بردائه وأمر المسلمين أن يضطبعوا، ويجدُّوا في الطواف ليرى المشركون جَلَدهم وقوتهم، ثم استلم الركن اليماني وأخذ يهرول حول البيت والمسلمون يقتدون به حتى انتهت الأشواط الثلاثة الأولى، ثم مشى الأشواط السبعة، ثم سعى بين الصفا والمروة على راحلته، ثم وقف عند المروة وقال: (**هذا المنحر، وكل فِجاج مكة مِنحر**). ثم نحر هديه، وحلق شعر رأسه، وتبعه المسلمون[4].

مكث النبي ﷺ وأصحابه في مكَّة ثلاثة أيام التي كانت لهم بالشرط، وخطب

(١) **بطن يأجج**: موضع قرب مكة على ثمانية أميال. الحموي: جـ٥ ص٤٢٤.
(٢) الواقدي: جـ٢ ص٧٣١ ـ ٧٣٤.
(٣) الاضطباع هو أن يجعل وسط ردائه تحت إبطه الأيمن ويُلقي طرفيه على كتفه الأيسر.
(٤) ابن هشام: جـ٤ ص٦٩. الواقدي: جـ٢ ص٧٣٥ ـ ٧٣٧.

ميمونة بنت الحارث وهو محرم ولم يبن بها، وابتنى بها بسرف[1]، ثم عاد إلى المدينة.

تحليل عمرة القضاء

- تُعدُّ هذه العمرة تصديقاً إلٰهياً لما وعد الله به رسوله ﷺ وأصحابه من دخولهم مكة وطوافهم بها.

- شكّلت هذه العمرة خطوة تمهيدية للفتح المبين الذي تحقّق بعدها.

- أثناء تأدية المسلمين مناسك العمرة بحماس ونشاط؛ عمد المشركون إلى مراقبتهم وقد أخذتهم الرهبة.

- استحباب الاضطباع، والهرولة في طواف الأشواط الثلاثة الأولى؛ اتّباعاً لرسول الله ﷺ، وإنما يُستحب ذلك في طواف يعقبه سعي، غير أن شيئاً من ذلك لا يُستحبُّ للمرأة[2].

- أثّرت عمرة القضاء على أوضاع القرشيين، فقد حملت في طياتها مهمة دعوية. فقد وقف كثير من القرشيين عند دار الندوة بمكة كما وقف آخرون فوق الهضاب المحيطة بها، ليشاهدوا دخول الرسول ﷺ وأصحابه، ولم يكد يغادرون مكة حتى هدى الله بعض قادتهم، منهم خالد بن الوليد، وعمرو بن العاص، وعثمان بن طلحة[3]. والواضح أن هذه العمرة جمعت في آثارها من أسباب الإقناع بدعوة محمَّد ﷺ ما دفع هؤلاء وغيرهم، فأسلموا، بل ظهر الإسلام في كل بيت من قريش سراً وعلانية، وبذلك فتحت عمرة القضاء أبواب قلوب القرشيين قبل أن يفتح المسلمون أبواب مكة.

- كان إسلام خالد بن الوليد وعمرو بن العاص نصراً كبيراً للإسلام والمسلمين، فقد استخدم الأول مهارته العسكرية لصالح دعوة الإسلام، في حين كرَّس الثاني عقله ودهاءه لصالحها، وخسرت قريش بإسلامهما رجلين من أهم قادتها.

- في زواج رسول الله ﷺ بميمونة بنت الحارث مسألة فقهية اختلف الفقهاء فيها،

---

(١) يذكر ابن هشام عن ابن عباس أن رسول الله ﷺ تزوج بميمونة في سفره ذاك، وهو حرام ـ أي: محرم ـ وبنى بها بسرف، جـ٤ ص٧٠، وقارن برواية ذكرها الواقدي عن هشام بن سعد عن عطاء الخراساني عن سعيد بن المسيب «لما حلَّ رسول الله ﷺ تزوجها»، جـ٢ ص٧٣٨.

وسَرف: موضع على ستة أميال من مكة، وقيل: سبعة، وتسعة، واثني عشر، تزوَّج به رسول الله ﷺ ميمونة بنت الحارث، وهناك بنى بها وهناك توفيت. الحموي: جـ٣ ص٢١٢.

(٢) البوطي: ص٣٧٨، ٣٧٩.

(٣) الواقدي: جـ٢ ص٧٤١ ـ ٧٤٥.

وهي: هل تزوجها رسول الله ﷺ وهو محرم، أو عقد عليها بعد التحلل؟ وقد فصَّلها الفقهاء، وهي على ثلاثة أقوال:

الأول: أنه تزوجها بعد حلِّه من العمرة، وهو قول ميمونة نفسها، وقول السفير بينها وبين رسول الله ﷺ، وهو أبو رافع، وقول سعيد بن المسيب، وجمهور أهل النقل.

الثاني: أنه تزوجها وهو محرم، وهو قول ابن عباس وأهل الكوفة وجماعة.

الثالث: أنه تزوجها قبل أن يحرم[1].

الفتح المبين

أسبابه: أدركت قريش بعد مرور سنتين تقريباً على صلح الحديبية، أنها سائرة نحو الزوال، وازدادت يقيناً يوماً بعد يوم بأن شروط الصلح لم تكن في مصلحتها، وإذا ما ظلَّت ملتزمة بها فسوف تجد نفسها، إنْ عاجلاً أو آجلاً، وحيدة في محيط إسلامي معادٍ لها؛ ما يؤدي إلى عزلها وموتها ببطء، فراح زعماؤها ينتظرون الفرصة لضرب معاهدة الصلح وإبطال شروطها، وأثبتت الأحداث صحة يقينها. فخلال المدة المذكورة نجح النبي ﷺ في القضاء على القوة العسكرية لليهود، وهم حلفاؤها وسندها في محاربة الإسلام والمسلمين، ودخلت قبائل كثيرة في الإسلام، وازداد حلفاء النبي ﷺ لدرجة جعلته هو الآخر ينتظر فرصة سانحة للانقضاض عليها واجتثاث الشرك من جذوره.

وحدث في (شعبان ٨هـ/ كانون الأول ٦٢٩م) أن اغتنم بنو بكر هدنة الحديبية، فهاجم فرع منهم ـ هم بنو الديل بقيادة نوفل بن معاوية ـ خزاعة حليفة الرسول ﷺ ليلاً وباغتوهم على ماءٍ لهم يُقال له الوتير[2]. والمعروف أن بين القبيلتين ثارات قديمة تعود إلى ما قبل الإسلام، فاستغلَّت قريش هذا الحدث لنقض الهدنة، وبخاصة أن المسلمين تعرَّضوا آنذاك لنكسة في مؤتة[3]، فساندت بني بكر بالخيل والسلاح والرجال، وقاتل فرسانها إلى جانب حلفائهم مستخفين بالليل مرتكبين خطأ جسيماً ومتعمداً، واضطرت خزاعة تحت ضغط القتال إلى الالتجاء إلى الحرم، فلحق بنو بكر بها وقاتلوها فيه منتهكين حرمة الكعبة وغير مكترثين بالحلف المعقود

---

(١) لقد فصَّل ابن قيم الجوزية هذه المسألة في كتابه زاد المعاد، جـ٣ ص٢٦٩ ـ ٢٧٣، وأسهب محقق الكتاب مصطفى عطا في هامش الصفحات المشار إليها في ذكر وتخريج الأحاديث المتعلقة بذلك.

(٢) الوتير: اسم ماء بأسفل مكة لخزاعة. الحموي: جـ٥ ص٣٦٠.

(٣) مؤتة: قرية من قرى البلقاء في حدود الشام. المصدر نفسه: ص٢٢٠.

بينها وبين المسلمين[1].

وأدركت خزاعة أن قريشاً قد نقضت عهدها مع رسول الله ﷺ، فبعثت عمرو بن سالم الخزاعي في أربعين راكباً إلى المدينة يعرض على الرسول ﷺ تفاصيل العدوان، ويلتمس عونه ضد الغادرين، وأعقبه بديل بن ورقاء في نفر من خزاعة كانوا قد التجأوا إلى داره عندما ضيَّق بنو بكر وقريش عليهم الخناق. لم يتردَّد الرسول ﷺ بعد استماعه شكوى خزاعة على أن قال لمن حوله: (**كأنكم بأبي سفيان قد جاء يشد العقد ويزيد المدة**)[2]، وكأنه اعتزم أمراً لم يشأ أن يكشفه أمام الحاضرين حرصاً على السرية.

رد فعل قريش: أرادت قريش استدراك خطأها، ولكن بعد فوات الأوان، وقد خشيت عاقبة تعمدها نقض عهدها مع الرسول ﷺ، وقد صدق رسول الله ﷺ، فأرسلت أبا سفيان إلى المدينة ليؤكد عقد الصلح ويزيد في مدته. ولما وصل دخل على ابنته أُم حبيبة، وهي زوجة الرسول ﷺ، وأراد أن يجلس على فراش الرسول ﷺ، فطوته عنه، وكان موقفها أول موقف جفاء في مهمته، فخرج من عندها ودخل على رسول الله ﷺ يعرض حاجته، فأعرض عنه ﷺ ولم يجبه، فاستعان بكبار الصحابة، أمثال أبي بكر وعمر وعلي، حتى يتوسطوا بينه وبين الرسول ﷺ، فأبوا جميعاً، فلجأ إلى فاطمة بنت الرسول، فلم يلق أذناً صاغية، فاضطر عندئذ أن يعود إلى مكة من غير أن يحظى بأي اتفاق أو عهد ليبلغ قريشاً بذلك[3].

لكن مع ذلك، فإن شيئاً ما قد حدث، فعندما اجتمع بعلي بن أبي طالب ملتمساً وساطته نصحه علي بأن يجير بين الناس بوصفه سيد بني كنانة، فقام أبو سفيان في المسجد فقال: «أيها الناس! إني قد أجرت بين الناس. ثم ركب بعيره فانطلق»[4]، ومعنى ذلك أنه جعل من نفسه جاراً لأُمة المدينة، وبوصفه سفيراً للقرشيين والمتحدث باسمهم، وأن إجارة السفير تعني إجارة أهل البلد جميعاً؛ أضحى له حق الجوار في مكة. ولم ينكر الرسول ﷺ ذلك، إنما كل ما قاله له: (**أنت تقول ذلك يا أبا سفيان؟**)[5]. وهذا قول لا يعني الرفض أو القبول، فأقرَّ أبو سفيان بذلك استسلامه واستسلام قومه الذي رآه الحل الأفضل. وتدعم الوقائع التاريخية هذا التفسير، فعندما بلغ القرشيين أن رسول الله ﷺ في الطريق إليهم، قبعوا في مكانهم ساكنين، وفتحوا أبواب مدينتهم للمسلمين الذين دخلوها دخولاً سلمياً منظماً.

---

(١) الواقدي: جـ٢ ص٧٨١ ـ ٧٨٤.
(٢) ابن هشام: جـ٤ ص٨٦.
(٣) المصدر نفسه، ص٨٧.
(٤) المصدر نفسه.
(٥) الواقدي: جـ٢ ص٧٩٤.

وعندما عاد أبو سفيان إلى مكة، واجتمع بزعمائها وأعلمهم بنتيجة ما توصَّل إليه، أنكر بعض المتطرفين منهم ذلك، وحاولوا الاعتراض. فقد اجتمع بزوجته هند، وأخبرها بالذي فعل، فضربت برجليها صدره وقالت: «قُبِّحت من رسول قوم»[1]. وقال له بعضهم: «والله ما زاد الرجل أن لعب بك، فما يُغني عنك ما قلت»[2].

خروج الرسول ﷺ إلى مكة: ومهما يكن من أمر، فقد وجد النبي ﷺ أن قريشاً قد نقضت كل المواثيق والعهود معه، فعزم على فتح مكَّة وتأديب مشركيها، فأمر أهله أن يجهِّزوه من دون أن يعلن عن وجهته، ثم أعلن للناس وجهته وطلب منهم المحافظة على سرِّ هذه العملية، وقال: (**اللهمَّ خذ العيون والأخبار عن قريش حتى نبغتها في بلادها**)[3]، ومع ذلك أقدم أحد الصحابة، وهو حاطب بن أبي بلتعة، على عمل نادر في صفوف المسلمين لم يسبق له مثيل، فقد كتب إلى ثلاثة نفر من قريش، هم: صفوان بن أُمية، وسهيل بن عمرو وعِكرمة بن أبي جهل؛ يخبرهم بأن الرسول ﷺ قد أذَّن بالناس في الغزو، وهو لا بدَّ يريدكم[4]، وتجاهل الكتابة إلى أبي سفيان سيد قريش، وربما لذلك علاقة برحلته إلى المدينة وما نتج عنها، وأرسل الرسالة مع امرأة من مزينة.

وأتى رسول الله ﷺ الخبر من السماء بما فعل حاطب، فبعث علياً والزبير لانتزاع الرسالة من المرأة، فأدركاها بالحليفة، وانتزعاها منها. وسأل الرسول ﷺ حاطباً عما حمله على هذا التصرف، فأجابه قائلاً: «والله إني لمؤمن بالله ورسوله، ما غيَّرت ولا بدَّلت، ولكني امرؤ ليس لي في القوم (قريش) من أصل ولا عشيرة، وكان لي بين أظهرهم ولد وأهل، فصانعتهم عليه»[5].

استاء الصحابة من تصرف حاطب، وتحمس عمر بن الخطاب، فطلب من الرسول ﷺ الإذن بضرب عنقه لأنه نافق وليكون عبرة لغيره، ولكن ماضي حاطب الجليل وجهاده في غزوة بدر، شفعا له عند الرسول ﷺ، فعفا عنه[6].

وأعدَّ رسول الله ﷺ جيشاً لم تشهد الجزيرة العربية له مثيلاً من قبل، كان المهاجرون والأنصار جميعاً من عداده، وانضم إليه مسلمو القبائل من غفار وأسلم ومزينة وسُلَيْم وجهينة وتميم وقيس وأسد. وسار هذا الجيش باتجاه مكَّة، وحتى يموِّه على الحملة أرسل أبا قتادة الحارث بن رِبعي إلى إضم[7] في ثمانية رجال

---

(١) الواقدي: ص٧٩٥.
(٢) ابن هشام: جـ٤ ص٨٧.
(٣) المصدر نفسه.
(٤) الواقدي: جـ٢ ص٧٩٨.
(٥) ابن هشام: جـ٤ ص٨٨.
(٦) المصدر نفسه.
(٧) إضم: ماء يطؤه الطريق بين مكة واليمامة عند السُّمينة، وقيل: ذو إضم جوف هناك به ماء، =

ليوهم القرشيين أنه توجَّه إلى تلك الناحية، وليفاجئهم على غير استعداد منهم لحربه[1]. وخرج من المدينة في (١٠ رمضان ٨هـ/١ كانون الثاني ٦٣٠م) في طريقه إلى مكة، وهو صائم والمسلمون صائمون معه، حتى إذا كان بالكديد، وهو ماء بين عُسفان وقديد؛ أفطر[2].

ولما وصل إلى الجحفة لقيه عمه العباس بن عبد المطلب، وقد خرج من مكة مهاجراً بعياله، فسُرَّ النبي ﷺ بخروجهم، وكان بها بمثابة المراسل العسكري، ورأى أن مهمَّته قد انتهت الآن، ثم مضى حتى نزل بمرِّ الظهران عشاء، فأمر الجيش فأوقدوا النيران، فأوقدت عشرة آلاف نار، وشاهد العباس ذلك، ورأى قوة المسلمين، وأدرك أن هذا الجيش إن دخل مكة عنوة، فسيكون ذلك هلاك قريش، فركب بغلة رسول الله ﷺ وخرج يلتمس من يوصل الخبر إلى قريش، ليخرجوا إلى رسول الله فيستأمنوه قبل أن يدخلها عنوة.

كان مشركو مكة في حيرة من أمرهم، لم تصل إليهم أخبار عن الرسول ﷺ، ولم يعرفوا بخبر مسيره إليهم، فكان بعض قادتهم يخرجون إلى مشارف مكة علَّهم يتلقون مسافراً فيعرفون منه خبراً. وصادف أن خرج كل من أبي سفيان وحكيم بن حزام وبُديل بن ورقاء تلك الليلة يلتمسون الأخبار، فرأوا النيران فقال أبو سفيان: «ما رأيت كالليلة نيراناً قط ولا عسكراً. فقال بديل: هذه والله خزاعة حمشتها[3] الحرب. فقال أبو سفيان: خزاعة أذل وأقل من أن تكون هذه نيرانها وعسكرها». فسمع العباس أصواتهم، فعرفهم، فاغتنم الفرصة ونادى أبا سفيان، ودار بينهما حديث عرض العباس خلاله فكرته. وأدرك أبو سفيان خطورة الموقف، فسأل العباس النصيحة، فاقترح عليه أن يصطحبه ويأتي به إلى رسول الله ﷺ، فيستأمنه ويتفق معه على شروط الاستسلام. وافق أبو سفيان على الفكرة، وجاء مع العباس حتى دخلا على رسول الله ﷺ، وشاهده عمر، فنهض يريد الانتقام، ولكن لا مكان في قلب الرسول ﷺ للانتقام، وهو الذي بُعث رحمةً للعالمين[4].

وأسلم أبو سفيان، واتفق مع الرسول ﷺ على الاستسلام ودخول جيش المسلمين

= وإضم وادٍ بجبال تهامة وهو الوادي الذي فيه المدينة الذي تجتمع فيه الوديان الثلاثة: بطحان وقناة والعقيق، على ثلاثة بُرد منها. الحموي: جـ١ ص٢١٤، ٢١٥.

(١) ابن سعد: جـ٢ ص١٣٢. ابن هشام: جـ٤ ص٨٨. **صحيح البخاري**، كتاب المغازي، باب غزوة الفتح، رقم الحديث (٤٢٧٦)، ص٧١.

(٢) ابن هشام: جـ٤ ص٨٨.

(٣) حمشتها: أحرقتها.

(٤) الواقدي: جـ٢ ص٨١٤ ـ ٨١٨.

مكة من دون قتال. وأراد الرسول ﷺ أن يُكرمه، فقال: (**من دخل دار أبي سفيان فهو آمن، ومن أغلق بابه فهو آمن، ومن دخل المسجد فهو آمن**)[١]. وبذلك أمَّن رسول الله ﷺ مكة وأهلها من إراقة الدماء، إلا من قاتل وفجر.

دخول رسول الله ﷺ مكة: وانطلق أبو سفيان إلى قومه ليبلِّغهم بما اتفق مع رسول الله ﷺ وينصحهم بالقبول: «فإنه قد جاءكم ما لا قِبَل لكم به، هذا محمَّد في عشرة آلاف عليهم الحديد، فأسلِموا»[٢].

وكان الرسول ﷺ قد وضع خطة لدخول مكَّة، بحيث تتفرَّق القوات في منطقة ذي طوى إلى عدة فِرق:

ـ فرقة بقيادة الزبير بن العوام، مهمتها دخول مكَّة من جهة الشمال الشرقي من منطقة كدى[٣]، وكان الزبير على المجنبة اليسرى.

ـ فرقة بقيادة خالد بن الوليد، مهمتها دخول مكة من جهة الجنوب من منطقة الليط أسفل مكة، وكان خالد على المجنبة اليمنى.

ـ فرقة بقيادة سعد بن عبادة الأنصاري، مهمتها دخول مكة من جهة الغرب.

ـ فرقة بقيادة أبي عبيدة بن الجراح، مهمتها دخول مكة من جهة الشمال الغربي.

ـ ودخل الرسول ﷺ خلف فرقة أبي عبيدة من أذاخر حتى نزل بأعلى مكة، وهناك ضُربت قبته على سفح جبل هند[٤].

أما من الشرق، فإن جبل أبي قبيس يمنع تقدم أي جيش.

وحدَّد الرسول ﷺ مركز تجمع عام على السفح الشرقي لجبل هند من جهة مكة، وأعطى قواته أوامر مُشدَّدة ألا تُقاتل إلا من يقاتلها، وقد حرص على أن يتم الفتح بأقل خسائر ممكنة، وبدون إراقة دماء[٥].

ودخلت قوات المسلمين مكة من جهاتها الأربع في آنٍ واحد، ولم تلقَ مقاومة تُذكر باستثناء ما واجهه خالد بن الوليد من مقاومة خجولة من بعض متطرفي قريش. فقد تجمع صفوان بن أُمية، وعِكرمة بن أبي جهل، وسهيل بن عمرو وغيرهم مع بعض قبائلهم في مكان اسمه الخندمة، وتصدوا للقوات المتقدمة بالسهام، وصمَّموا على القتال؛ غير أن خالد بن الوليد انقضَّ عليهم وقضى على قوتهم في لحظات، وبذلك أكمل جيش المسلمين السيطرة على مكة.

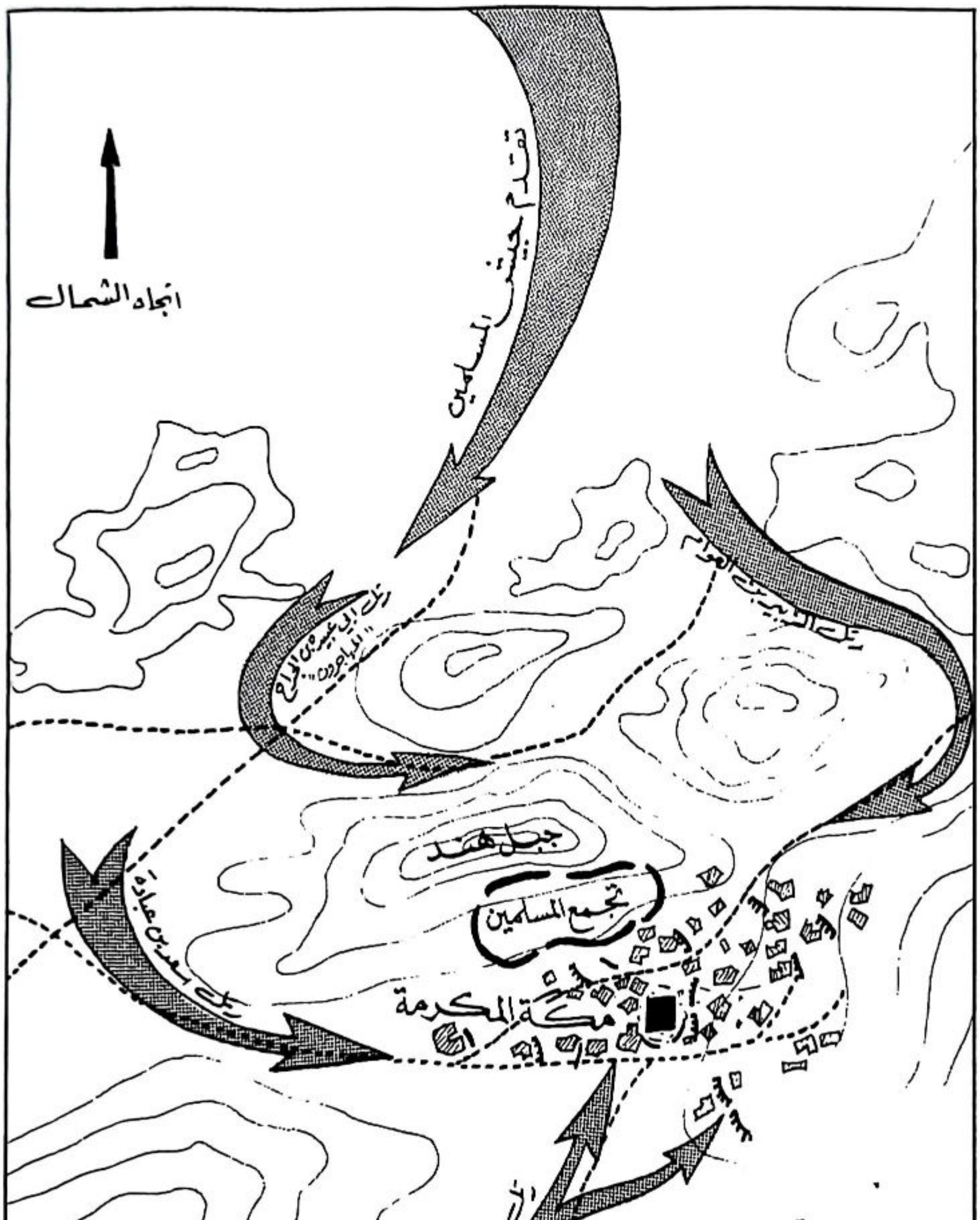
---

(١) ابن هشام: جـ٤ ص٩٠. (٢) الواقدي: جـ٢ ص٨٢٣.

(٣) كدى: جبل قريب من كداء.

(٤) الواقدي: جـ٢ ص٨٢٥. ابن هشام: جـ٤ ص٩١.

(٥) ابن هشام: المصدر نفسه، ص٩٢، ٩٣.



دخول الجيش الإسلامي مكة المكرمة [عن قيادة الرسول ﷺ السياسية والعسكرية]

ودخل النبي ﷺ مكة وعليه عمامة سوداء بغير إحرام، ورأسه خفيض من شدَّة الخشوع لله، فقد رأى ما أكرمه به من الفتح، حتى أن ذقنه ليكاد يمس واسطة الرحل، وهو يقرأ سورة الفتح مستشعراً بنعمة الفتح وغفران الذنوب، وإفاضة النصر العزيز.

إعلان العفو العام: نال أهل مكَّة عفواً عاماً على الرغم مما ألحقوا بالرسول ﷺ من أنواع الأذى، وعلى الرغم من قدرة الجيش الإسلامي على إبادتهم، وقد جاء إعلان العفو وهم مجتمعون قرب الكعبة ينتظرون حكم الرسول ﷺ فيهم. فتقدَّم الرسول ﷺ نحو الكعبة يحيط به صحابته، حتى إذا وصل إليها؛ طاف بها سبعاً وهو على راحلته يشير إلى الحجر الأسود بمحجن[1]، ثم أمر بتنظيفها من الصور والتماثيل، وهدم الأصنام، وجعل يطعنها بنفسه بالقوس ويقول: ﴿جَآءَ ٱلْحَقُّ وَزَهَقَ ٱلْبَٰطِلُۚ إِنَّ ٱلْبَٰطِلَ كَانَ زَهُوقًا﴾ [الإسراء/٨١]، والأصنام تتساقط على وجوهها، ثم وقف على باب الكعبة، وقال: (**لا إلٰه إلا الله وحده لا شريك له، صدق وعده، ونصر عبده، وهزم الأحزاب وحده، ألا كل مأثرة أو دم أو مال يُدَّعى، فهو تحت قدمي هاتين إلا سدانة البيت وسقاية الحاج، ألا وقتيل الخطأ شبه العمد، بالسوط والعصا، ففيه الديَّة مُغلَّظة مائة من الإبل، أربعون منها في بطونها أولادها. يا معشر قريش! إن الله قد أذهب عنكم نخوة الجاهلية، وتعظمها بالآباء، الناس من آدم، وآدم من تراب**). ثم تلا هذه الآية: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَٰكُم مِّن ذَكَرٍ وَأُنثَىٰ وَجَعَلْنَٰكُمْ شُعُوبًا وَقَبَآئِلَ لِتَعَارَفُوٓا۟ ۚ إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ ٱللَّهِ أَتْقَىٰكُمْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ﴾ [الحجرات/١٣]، (**يا معشر قريش! ما ترون إني فاعل فيكم؟**). قالوا: خيراً. أخٌ كريم، وابن أخ كريم. قال: (**اذهبوا، فأنتم الطلقاء**)[2]. واستثنى من قرار العفو الشامل بضعة عشر رجلاً وقينتين أمر بقتلهم، وإن وُجدوا متعلقين بأستار الكعبة بفعل عظم جرائمهم في حق الله ورسوله وحق الإسلام، ولِمَا كان يخشاه منهم من إثارة الفتنة بين الناس بعد الفتح، كان من بينهم: عبد العزى بن خطل، وعبد الله بن سعد بن أبي سرح، وعِكرمة بن أبي جهل، وصفوان بن أُمية، والحويرث بن نُفيد، وكعب بن زهير، وهند بنت عتبة، وغيرهم[3]، ثم أعطى مفتاح الكعبة إلى أبي طلحة، وقال له: (**اليوم يوم برٍّ ووفاء**)[4]، وكان فتح مكة في (٢٠ رمضان ٨هـ/ ١١ كانون الثاني ٦٣٠م).

---

(١) المحجن: عود معوج الطرف يمسكه راكب البعير بيده.

(٢) ابن هشام: جـ٤ ص٩٣، ٩٤.

(٣) العسقلاني، ابن حجر: فتح الباري، جـ٩ ص٧١.

(٤) المصدر نفسه: ص٩٤.

وحدث في غداة الفتح أن عدت خزاعة حليفة الرسول ﷺ على رجل من هذيل، فقتلته وهو مشرك برجل قُتل في الجاهلية، فغضب رسول الله ﷺ وقام بين الناس خطيباً، وقال: **(أيها الناس! إن الله قد حرَّم مكة يوم خلق السماوات والأرض، فهي حرام بحرمة الله إلى يوم القيامة، فلا يحل لامرىء يؤمن بالله واليوم الآخر أن يسفك فيها دماً، ولا يعضد (يقطع) فيها شجراً، ولم تحل لأحد كان قبلي، ولا تحل لأحد يكون بعدي، ولم تحل لي إلا هذه الساعة غضباً على أهلها، ثم رجعت كحرمتها بالأمس، فليبلِّغ الشاهد منكم الغائب، فمن قال لكم إن رسول الله ﷺ قد قاتل فيها، فقولوا: إن الله أحلَّها لرسوله ولم يحلَّها لكم)**[1].

دخول أهل مكة في الإسلام

واجتمع الناس بمكة لمبايعة رسول الله ﷺ على السمع والطاعة لله ورسوله، فلما فرغ من بيعة الرجال بايع النساء، فاجتمع إليه نساء من قريش فيهن هند بنت عتبة زوجة أبي سفيان، وهي منقبة متنكرة، لما كان من صنيعها بحمزة، فهي تخاف أن يأخذها رسول الله ﷺ بحدثها ذلك، فلما دنون منه ليبايعنه قال: **(تبايعنني على ألا تشركن بالله شيئاً)**. قالت هند: والله إنك لتأخذ علينا أمراً ما تأخذه على الرجال وسنؤتكيه. قال: **(ولا تسرقن)**. قالت: والله إن كنتُ لأصيب من مال أبي سفيان الهَنَة والهَنَة، وما أدري أكان ذلك حِلاًّ لي أم لا. فقال أبو سفيان، وكان شاهداً لما تقول: أما ما أصبت فيما مضى فأنت منه في حِلٍّ. فقال رسول الله ﷺ: **(وإنك لهند بنت عتبة؟)** فقالت: أنا هند بنت عتبة، فاعف عما سلف عفا الله عنك. قال: **(ولا تزنين)**. قالت: يا رسول الله! هل تزني الحرة؟ قال: **(ولا تقتلن أولادكن)**. قالت: قد ربيناهم صغاراً وقتلتهم يوم بدر كباراً، فأنت وهم أعلم. فضحك عمر بن الخطاب من قولها حتى استغرب. قال: **(ولا تأتين ببهتان تفترينه بين أيديكن وأرجلكن)**. قالت: والله إن إتيان البهتان لقبيح، ولبعض التجاوز أمثل. قال: **(ولا تعصينني في معروف)**. قالت: ما جلسنا هذا المجلس ونحن نريد أن نعصيك في معروف. فقال رسول الله ﷺ لعمر: **(بايعهن)**. واستغفر لهنَّ رسول الله ﷺ، فبايعهن عمر، وكان رسول الله ﷺ لا يُصافح النساء، ولا يمس امرأة ولا تمسُّه إلا امرأة أحلَّها الله له، أو ذات محرم[2].

---

(١) الواقدي: جـ٢ ص٨٤٤. ابن هشام: جـ٤ ص٩٥.

(٢) الطبري: جـ٣ ص٦١، ٦٢.

ذيول فتح مكة ـ غزوة حنين

كان لفتح مكة ذيول تمثَّلت بإرسال السرايا إلى القبائل الضاربة حول مكة والحليفة لقريش، لدعوتها إلى الإسلام، وإزالة كل رموز الشرك، وإسلام بعض الشخصيات القرشية ومن أهدر النبي ﷺ دماءهم، والتعقيب على هذا الفتح وبيان بعض أحكامه الفقهية، ثم غزوة حنين ونتائجها.

إرسال السرايا إلى القبائل الضاربة حول مكة

السرايا الدعوية

بعث رسول الله ﷺ، عقب فتح مكة، سراياه لدعوة قبائل الأعراب الحليفة لقريش، والتي كوَّنت كتلة الأحابيش التي شاركت الجيوش القرشية في معارك بدر وأُحد والخندق، ضد المسلمين؛ إلى الإسلام، وذلك إكمالاً لإحكام سيطرة المسلمين على المنطقة ونشر الدعوة فيها، وفتح الطريق أمامهم إلى الطائف، ثاني أكبر معاقل الوثنية في الجزيرة العربية آنذاك، والتي شكَّلت حاجزاً أمام نشر الدعوة الإسلامية فيها.

سرية خالد بن الوليد إلى بني جذيمة: كان من بين تلك السرايا، سرية دعوية، هدفها بني جذيمة، بقيادة خالد بن الوليد، وقوامها حوالي ثلاثمائة وخمسين رجلاً من المهاجرين والانصار، ورجال من بعض القبائل المسلمة. انطلقت الحملة من مكة في (شوال ٨هـ/ شباط ٦٣٠م)، ولما وصلت إلى الغميصاء[1]؛ التقى الطرفان، وكان بنو جذيمة في حال استنفار عسكري؛ ربما لأنهم علموا بأمر هذه السرية، فطلب خالد منهم وضع السلاح، ثم دعاهم إلى الإسلام، فلم يحسنوا أن يقولوا أسلمنا، فجعلوا يقولون: صبأنا، صبأنا. ونظراً لما في هذه الكلمة من ماضٍ سيء في تاريخ الدعوة الإسلامية، حيث كانت تُطلق في مقام الذمِّ للمسلمين الأوائل فيها والاستهزاء بهم من قِبل المشركين، وكان خالد يعرف تلك الكلمة وظروف استعمالها

(١) **الغميصاء**: مكان أسفل مكة على ليلة ناحية يلملم. ابن سعد: جـ٢ ص١٤٧.

على أنها استهزاء وسخرية بالمسلمين، وبفعل حراجة الموقف الذي يتطلب سرعة الخاطر في اتخاذ القرار الحاسم، أمر بهم فَكُتِّفوا ثم راح يقتل منهم ويأسر، فأنكر عليه بعض أصحابه ذلك، ثم دفع الأسرى إلى من كان معه، حتى إذا أصبح يوماً أمرهم بقتلهم، فامتثل البعض وامتنع البعض الآخر، فلما قدموا على رسول الله ﷺ أخبروه بذلك، فغضب ورفع يديه إلى السماء قائلاً: **(اللهمَّ إني أبرأ إليك مما صنع خالد)**. قالها مرتين، ثم أرسل علياً بن أبي طالب فودى لهم قتلاهم وزادهم فيها تطييباً لنفوسهم وبراءة من دمائهم. وبهذا التصرف النبوي الحكيم أزال ما في نفوسهم من أسى وحزن[1].

هذه خلاصة الرواية التي ذكرتها المصادر، ومما لا شك فيه أن تأويل خالد واجتهاده في هذه القضية كان خاطئاً، وربما رأى في تقديره الشخصي وما أدّى إليه اجتهاده أنهم لو كانوا قد أسلموا لما لبسوا السلاح واستنفروا عسكرياً، وهو أمير السرية وإليه يعود تقدير الأُمور، ويبدو أن لذلك الخطأ علاقة بقلَّة خبرته الفقهية لإصدار الأحكام الاجتهادية قياساً مع بعض الصحابة الذين رافقوه في هذه السرية وأنكروا عليه ذلك، كعبد الرحمٰن بن عوف، وعبد الله بن عمر لسابقتهم في الإسلام، وحداثة عهده به؛ علماً بأن الرسول ﷺ لم يقم عليه الحدَّ واكتفى بأن غضب لتصرفه وودى القوم[2].

سرايا تحطيم الأوثان

بعد انتصار الإسلام باندحار الشرك بفعل سقوط مكة في أيدي المسلمين، جاء دور تحطيم الأوثان لإزالة كل رموز الشرك والوثنية من أرض الجزيرة العربية، فأرسل ﷺ سراياه لتحطيمها، فكان منها بعثان بقيادة خالد بن الوليد إلى كل من العزى ثم اللات، وسرية إلى مناة بقيادة سعد بن زيد الأشهلي، وأخرى لتحطيم سواع، بقيادة عمرو بن العاص.

سرية خالد بن الوليد لهدم العزى[3]: أرسل النبي ﷺ سرية بقيادة خالد بن الوليد

---

(١) ابن هشام: جـ٤ ص١٠٩، ١١٠. الواقدي: جـ٣ ص٨٧٥ ـ ٨٨٤.

(٢) العمري، بريك محمد بريك أبو مايلة: **السرايا والبعوث النبوية حول المدينة ومكة**، ص٢٤٨ ـ ٢٥٥.

(٣) **العزى**: من أعظم الأصنام عند قريش وإلٰهة المكيين المفضلة، وهي صنم أنثى، وفي رواية: أن العزى شجرة أو سمرة بنخلة الشامية إلى الشرق من مكة، بينها وبين الطائف، عندها وثن تعبده غطفان وسدنتها من بني صرمة بن مرة. وفي رواية ثالثة: أن العزى شيطانة تأتي ثلاث شجرات أو سمرات ببطن نخلة كان سدنتها وحجابها بنو شيبان من بني سُلَيْم حلفاء بني =

قوامها ثلاثين فارساً، لهدم العزى، واتفق رواة المصادر على أنها كانت بعد الفتح، لكنهم اختلفوا في تحديد تاريخها[1]. ومهما يكن من أمر، فقد انطلق خالد بن الوليد لإزالتها من الوجود نهائياً، وعندما وصل إليها بمنطقة نخلة قطع السمرات وهدم البيت الذي كان عليها، وهو يُردِّد: «كفرانك لا سبحانك، إني رأيت الله قد أهانك». ثم رجع إلى مكة وقدَّم تقريراً لرسول الله ﷺ بإنجاز المهمة، ولكن النبي ﷺ استدرك عليه: (**هل رأيت شيئاً؟**) قال: لا. فقال: (**ارجع، فإنك لم تصنع شيئاً**). فرجع خالد بن الوليد وهو مغيظ حنق على عدم إنهاء مهمته على الوجه المطلوب، فلما وصل إليها ونظرت السَّدنة إليه؛ عرفوا أنه جاء هذه المرة ليكمل ما فاته في المرة السابقة، فهربوا إلى الجبل وهم يصيحون: «يا عزى خبليه، يا عزى عوريه». فأتاها، فإذا هي امرأة عريانة ناشرة شعرها تحثو التراب على رأسها، فتقدم إليها خالد بشجاعته المعروفة وضربها بالسيف فجذلها (قطعها) باثنين، ثم رجع إلى رسول الله ﷺ، فأخبره بذلك، فقال: (**تلك هي العزى، وقد يئست أن تُعبد ببلادكم أبداً**)[2].

قد يبدو هذا الخبر غريباً، وحاول الزرقاني تفسيره فقال: «أمَرَتْهم بتجديدها أو أخبرتهم أنها لو قطعت شجراتها أو كسرت حجارتها لم تزل عظمتها، وفي خروجها لخالد ثانية آية أخرى لأنها لم تكن مشاهَدة»[3].

ويبدو أن العزى كانت صنماً على شكل امرأة أخفاه سدنته عندما علموا بقدوم خالد بن الوليد لأول مرة لهدمه، ثم أظهروه بعد مغادرته.

سرية سعد بن زيد الأشهلي لهدم مناة[4]: بعث رسول الله ﷺ في (٤ رمضان

= الحارث بن عبد المطلب بن هاشم، وآخر من سدنها منهم دُبيَّة بن حرمى السلمي. الكلبي، هشام بن محمد السائب: **كتاب الأصنام**، ص٣٣. ابن هشام: جـ٤ ص١١٣. الحموي: جـ٤ ص١١٦، ١١٧.

(١) ذكرها ابن إسحاق ومن تابعه، بعد سرية خالد بن الوليد إلى بني جذيمة، وذكرها الواقدي وابن سعد بعدها وحدَّداها بخمس ليال بقين من رمضان. ابن هشام: جـ٤ ص١١٣. الواقدي: جـ٣ ص٨٧٣. ابن سعد: جـ٢ ص١٤٥.

(٢) المصادر نفسها: ص١١٣. ص٨٧٣ ـ ٨٧٥. ص١٤٥، ١٤٦.

(٣) الزرقاني، محمد بن عبد الباقي: **شرح المواهب اللدنية**، جـ٢ ص٣٤٨.

(٤) مناة: من أصنام العرب القديمة، كان منصوباً على ساحل البحر من ناحية المشلل بقديد بين مكة والمدينة. ويدل هذا الموضع أن لهذا الصنم صلة بالبحر والماء ونشر السحاب وإرسال الرياح التي تأتي بالأمطار فتغيث الناس. إنه إله السحب والرياح المطيرة لذلك تمثَّله الجاهلي إلـٰهاً كريماً، واقام معبده على ساحل البحر. كان العرب جميعاً يعظِّمون مناة وأشدهم إعظاماً لها هم الأوس والخزرج، فكانوا يحجون إليها ولا يحلقون رؤوسهم إلا عندها، ويهلُّون منها للحج إلى الكعبة، ولا يطوفون بين الصفا والمروة تحرجاً وتعظيماً لها.

٨هـ/ ١٥ كانون الثاني ٦٣٠م) سرية بقيادة سعد بن زيد الأشهلي قوامها عشرون فارساً لهدم مناة. خرج زيد من مكة متسارعاً لإنجاز مهمته المحددة حتى وصل إليها، فهدمها من دون أن يلقى مقاومة، وعاد أدراجه إلى مكة[١].

سرية عمرو بن العاص لهدم سواع[٢]: ظلَّ سواع منصوباً تعبده هذيل وتعظمه، حتى إنهم كانوا يحجون إليه حتى فُتحت مكة، ودخلت هذيل فيمن دخل في دين الله أفواجاً، فبعث رسول الله ﷺ سرية بقيادة عمرو بن العاص لتحطيم سواع، فلما وصل إليه كسره وأمر أصحابه فهدموا بيت خزانته فلم يجدوا شيئاً، وعندما رأى سادنه ذلك أسلم لله تعالى[٣]. وهكذا تمَّ القضاء على سواع الذي لم يجد من يدافع عنه.

إسلام بعض الشخصيات القرشية ومن أهدر النبي ﷺ دماءهم

إلى جانب الصفح الجميل كان هناك الصفح الأصيل، الذي لا بد أن تتَّصف به القيادة الحكيمة الرشيدة، فقد استثنى رسول الله ﷺ من العفو بضعة عشر رجلاً وقينتين، وقد أهدر دماءهم ـ كما ذكرنا ـ وذلك بفعل عِظَم جرائمهم، وقد عفا بعد ذلك عن بعضهم بسبب تدخل أقربائهم، كما دخلت بعض الشخصيات في الإسلام، وسطَّر بعضهم صفحات مشرقة من الجهاد، نذكر منهم:

صفوان بن أُمية: لقد هرب صفوان بن أُمية عقب فتح مكَّة إلى الشعيبة[٤]، وهو يهم بقتل نفسه، فوافاه عمير بن وهب، وكان قد كلَّم رسول الله ﷺ في شأنه، فأمَّنه، وهذا من حلمه ﷺ، فأخبره بذلك وعرض عليه العودة معه إلى مكة ومقابلة الرسول ﷺ، لكن صفوان طلب علامة يعرفها حتى يتأكد من الأمر، فأعطى الرسول ﷺ عميراً عمامته، وهي البرد الذي دخل فيه يومئذ معتجراً[٥]. وأتى صفوان

(١) ابن سعد: جـ٢ ص١٤٦، ١٤٧.

(٢) **سواع**: صنم على صورة امرأة، دفعه عمرو بن لحي الخزاعي، إلى الحارث بن تميم بن سعد بن هذيل المضري، فنصبه في رهاط، وهو موضع على ثلاث ليال من مكة، من بطن نخلة، وعبده من يليه من مضر. وفي رواية أخرى: أن سواعاً كان صنماً برهاط من أرض ينبع، وينبع عرض من أعراض المدينة، وكان سدنته بنو لحيان. وذكر ابن حبيب أن سواعاً كان بنعمان، عبدته بنو كنانة وهذيل ومزينة وعمرو بن قيس بن غيلان، وسدنته بنو صاهلة من هذيل. ويُذكر أن سواعاً كان لقوم نوح ثم صار بعد ذلك لقبيلة هذيل المضرية.
انظر: الكلبي: ص٦٨. ابن هشام: جـ١ ص١٠٢. ابن حبيب، محمد بن أُمية بن عمرو الهاشمي البغدادي: **المحبَّر**، ص٣١٣.

(٣) ابن سعد: جـ١، ص١٤٦.

(٤) **الشعيبة**: مرفأ السفن على ساحل بحر الحجاز، وكان مرفأ مكة.

(٥) الاعتجار بالعمامة: هو أن يلفها على رأسه ويردَّ طرفها على وجهه، ولا يعمل منها شيئاً تحت ذقنه.

إلى رسول الله ﷺ بعد أن اطمأن على حياته، فوجده يصلي العصر بالمسلمين، فلما سلَّم قال له صفوان: «يا محمَّد! إن عمير بن وهب جاءني ببردك وزعم أنك دعوتني إلى القدوم عليك، فإن رضيت أمراً وإلا سيَّرتني شهرين». قال: **(انزل يا أبا وهب)**. قال: لا والله حتى تُبين لي، قال: **(بل تُسيَّر أربعة أشهر)**. فنزل صفوان.

وخرج رسول الله ﷺ قِبَل هوازن، وخرج معه صفوان، وهو كافر؛ وأرسل إليه يستعيره سلاحه، فأعاره سلاحه مائة درع بأداتها، فقال: «طوعاً أو كرهاً؟» قال رسول الله ﷺ: **(عارية مؤداة)**. فأعاره، فأمره رسول الله ﷺ فحملها إلى حنين، فشهد حنيناً والطائف، ثم رجع رسول الله ﷺ إلى الجعرانة، فبينما رسول الله ﷺ يسير بالغنائم وينظر إليها ومعه صفوان بن أُمية؛ جعل صفوان ينظر إلى شِعْب مليء نعماً وشاة ورعاة، فأدام النظر إليه ورسول الله ﷺ يرمقه، فقال: **(أبا وهب، يُعجبك هذا الشِّعْب؟)**. قال: نعم. قال: **(هو لك وما فيه)**. فقال صفوان عند ذلك: «ما طابت نفس أحد بمثل هذا إلا نفس نبي، أشهد أن لا إله إلا الله وأن محمَّداً عبده ورسوله. وأسلم مكانه»[1].

سهيل بن عمرو: انزوى سهيل بن عمرو عقب فتح مكة في داره وأغلق عليه بابه خشية القتل، وأرسل إلى ابنه عبد الله يطلب له جواراً من النبي ﷺ، وهو لا يأمن من القتل بفعل تصرفه السيء تجاهه في صلح الحديبية. فذهب عبد الله إلى رسول الله ﷺ، فقال: «يا رسول الله! تؤمنه؟ فقال: **(نعم، هو آمن بأمان الله، فليظهر)**. ثم قال لمن حوله: **(من لقي سهيلاً بن عمرو فلا يشد النظر إليه، فليخرج، فلعمري إن سهيلاً له عقل وشرف وما مثل سهيل جهل الإسلام، ولقد رأى ما كان يوضع فيه أنه لم يكن له بنافع)**. فخرج عبد الله إلى أبيه، فقال سهيل: «كان والله براً، صغيراً وكبيراً». فخرج إلى حنين مع النبيِّ وهو على شركه، حتى أسلم بالجعرانة[2].

كان لهذه الكلمات التربوية أثر كبير في نفس سهيل بن عمرو، فقد أثنى على رسول الله بالبر طوال حياته، ثم دخل في الإسلام وقد حسن إسلامه، وكان مكثراً من الأعمال الصالحة، كثير الصلاة والصوم والصدقة، خرج بجماعته إلى الشام مجاهداً، وكان كثير البكاء إذا سمع القرآن، وكان أميراً على فرقة عسكرية يوم اليرموك[3].

عِكرمة بن أبي جهل: هرب عِكرمة بن أبي جهل عقب فتح مكة في طريقه إلى اليمن فراراً من رسول الله ﷺ، فطلبت زوجته أُم حكيم بنت الحارث منه أن يؤمِّنه

---

(١) الواقدي: جـ٢ ص٨٥٣، ٨٥٤.
(٢) المصدر نفسه: جـ٢ ص٨٤٦، ٨٤٧.
(٣) الذهبي، الحافظ، شمس الدين أبو عبد الله محمد: **سير أعلام النبلاء**، جـ٢ ص١٩٥.

حتى يعود، فأمَّنه. فخرجت وراءه حتى أدركته في سفينة تهمُّ بالإبحار، فقالت له: «إني استأمنتُ لك محمَّداً رسول الله ﷺ، فأمنك». فرجع معها، فلما رآه النبي ﷺ وثب إليه فرحاً، وما عليه رداء ثم جلس رسول الله ﷺ، فوقف عِكرمة بين يديه وزوجته متنقبة، فقال: «يا محمَّد! إن هذه أخبرتني أنك أمَّنتني». فقال رسول الله ﷺ: (صَدَقت، فأنت آمن). فقال عِكرمة: «فإلام تدعو يا محمَّد؟» قال: (**أدعوك إلى أن تشهد أن لا إلٰه إلا الله وأني رسول الله، وأن تقيم الصلاة، وتؤتي الزكاة...**) وتفعل وتفعل، حتى عدَّ خصال الإسلام. فقال عِكرمة: «والله ما دعوت إلا إلى الحق وأمر حسن جميل». ثم أسلم وطلب من الرسول ﷺ أن يستغفر له كل عداوة عاداه، ففعل ﷺ، وردَّ عليه امرأته بذلك النكاح الأول، وتعهَّد بأن ينفق في سبيل الله ضعف ما كان يبذله في الجاهلية[1].

كان تصرف الرسول ﷺ مع عِكرمة لطيفاً، حانياً، ويكفي ذلك لاستقطابه إلى الإسلام، فقد تأثر من ذلك التصرف واهتزَّت مشاعره، وتحرَّكت أحاسيسه، فأسلم. كما كان لموقف زوجته أُم حكيم بنت الحارث أثر في إسلامه، فقد تجشَّمت عناء السفر لتُبلِّغه قرار العفو عنه وتصطحبه عائدة إلى مكَّة، لكنها امتنعت عليه عندما أرادها، متعللة بأنه كافر وهي مسلمة. وصدق عِكرمة في إسلامه، فلم يطلب من الرسول ﷺ شيئاً من حطام الدنيا، واكتفى بأن يستغفر له عند ربِّه من ذنوبه الماضية، ثم أقسم أمامه بأن يحمل نفسه على الإنفاق في سبيل الله بضعف ما كان ينفق في الجاهلية، ولقد برَّ بوعده، وكان من أشجع المجاهدين والقادة في حروب الرِدَّة وفتوح الشام، حتى خرَّ شهيداً في معركة اليرموك.

عبد الله بن الزِّبعرى: هرب عبد الله بن الزِّبعرى إلى نجران عقب فتح مكة، فراح حسان بن ثابت يُعيِّره في أبيات شعرية ويصفه بالجبن والفرار، فوصلت تلك الأبيات إلى مسامعه، وأثَّرت فيه، فقرَّر العودة إلى مكة، وقد عزَّ عليه فراق قومه وداره وابن عمه خير الناس وأبرهم، فانحدر حتى جاء رسول الله ﷺ، وهو جالس في أصحابه، فلما نظر إليه الرسول ﷺ قال: (**هذا ابن الزِّبعرى ومعه وجه فيه نور الإسلام**). فلما وقف عليه قال: «السلام عليكم، أي رسول الله! شهدت أن لا إلٰه إلا الله وأنك عبده ورسوله، والحمد لله الذي هداني للإسلام». ثم ذكر من أعماله الماضية المعادية له وللإسلام. فقال ﷺ: (**الحمد لله الذي هداك للإسلام، إن الإسلام يُجبُّ ما كان قبله**)[2]. ثم أدناه رسول الله ﷺ منه وآنسه، وخلع عليه حلة. وقد قال بعد إسلامه شعراً كثيراً يعتذر فيه إلى رسول الله ﷺ.

---

(١) الواقدي: جـ٢ ص٨٥١ ـ ٨٥٣.

(٢) المصدر نفسه: جـ٢ ص٨٤٨.

عبد الله بن سعد بن أبي سرح: كان عبد الله بن سعد أبي سرح أخاً لعثمان بن عفان من الرضاعة، أسلم زمن النبي ﷺ ثم ارتد، وكان يكتب الوحي فيبدل فيه، وقد أهرق النبي ﷺ دمه يوم فتح مكَّة، فما كان من عبد الله إلا أن لاذ بالفرار والتجأ إلى أخيه بالرضاعة عثمان بن عفان، فخبَّأه عثمان عنده ريثما يطلب له الأمان من رسول الله ﷺ.

وأتى به عثمان إلى رسول الله ﷺ، يستأمنه له، فصمت رسول الله ﷺ طويلاً، ثم قال: (**نعم**). فلما انصرفا، قال رسول الله: (**ما صمتُ إلا ليقوم إليه بعضكم فيضرب عنقه**). فقال رجل من الأنصار: «فهلّا أومأت إليَّ يا رسول الله؟». فقال: (**إن النبي لا ينبغي أن تكون له خائنة الأعين**)[1].

وأسلم بعد ذلك عبد الله بن سعد بن أبي سرح، فحسن إسلامه، وكان فيما بعد أحد النجباء العقلاء من قريش، وفارساً من بني عامر، كما كان من رواه الحديث، شأن غيره من الصحابة.

تحليل فتح مكة

ـ تشكل الهدنة في القواعد العسكرية مرحلة تسبق الصلح، وقد تكون فرصة استعداد لاستئناف القتال وانقضاض كل طرف على عدوِّه في الوقت المناسب أو بعد انتهاء مدتها، ويستثمر القائد الحكيم الفرصة الثمينة التي تسنح له بنتيجتها في الإعداد والتجهيز، وهذا ما لم تُقدم عليه قريش، وأقدم عليه الرسول ﷺ، فركَّز جهوده على تقوية جيشه، واستطاع الانتصار بسهولة على عدوه، ثم دعاه إلى الدخول في الإسلام، فاقتنع المشركون بدعوته وانضموا إلى صفوفه.

ـ وقف الرسول ﷺ على إمكانات قريش وقدراتها العسكرية، في الوقت الذي كانت تجهل تطور قوة المسلمين الحقيقية، بدليل أنها أقدمت على مساعدة حليفتها قبيلة بني بكر في قتالها ضد خزاعة حليفة الرسول ﷺ؛ ما كان سبباً في اندحارها وفتح مكَّة.

ـ تحقَّق بفتح مكة قول الرسول ﷺ بعد غزوة الأحزاب (**لا تغزوكم قريش بعد اليوم، بل تغزونها**).

ـ برزت في غزوة الفتح بعض السمات «الاستراتيجية»، نذكر منها: الإعداد الجيد للمعركة، المحافظة على السرِّية التامة لوجهة التحرك، تحقيق المفاجأة، اللجوء إلى الحرب النفسية لإرباك العدو، توزيع القوات من أجل الاستعداد الدائم لأي مواجهة

---

(١) الواقدي: جـ٢ ص٨٥٥، ٨٥٦. وخائنة الأعين: أن يُضمر في نفسه غير ما يُظهره.

مفاجئة، وتفويت فرصة القتال على أهل مكة، إن أرادوا ذلك، فيضطرون إلى تشتيت قواتهم وتبديد قواهم، وإنما فعل الرسول ﷺ ذلك حقناً للدماء ما أمكن.

ـ انتهت الوثنية في جزيرة العرب بعد فتح مكة من واقع تحطيم الأصنام وزوالها من ذاكرة العربي وعقيدته إلى الأبد، ودخلت مكة في نطاق نفوذ المسلمين، وزالت دولة الشرك وتحقَّقت أمنية الرسول ﷺ بدخول قبيلته قريش في الإسلام، وحانت الفرصة للقضاء على جيوب الشرك في حنين والطائف.

ـ يستوقفنا في هذه الغزوة موقف أبي سفيان بن حرب، فهو أول من حذَّر قومه من قتال رسول الله ﷺ، وأول الداخلين في دين الله أفواجاً يومئذ، وهو الذي لم تخرج حملة من مكة ضد المسلمين إلا بتوجيهه وإشرافه.

ـ كان الرسول ﷺ عندما وصل إلى مشارف مكة يقرأ سورة الفتح، وعندما دخلها كان في حال انسجامٍ مع الله تعالى، والشكر على نصره وتأييده بعيداً عن نشوة النصر ومشاعر التكبر والتجبّر، كما يفعل معظم القادة عادة، ويضع رأسه تواضعاً لله، وهذا يعني أنه كان مندمجاً في حال من العبودية التامَّة لله تعالى، وهكذا ينبغي أن يكون المسلم في حال عبودية دائماً لله في كل أحواله، في السراء والضراء، والرخاء والشدَّة، وعند الضعف والقوة[1].

ـ اتَّصف الرسول ﷺ عقب فتح مكة بسموِّ النفس، وسماحة الخلق، فازداد الناس إعجاباً به، ذلك أن قواعد الحرب في الجاهلية في جزيرة العرب وخارجها، قبل الإسلام، كانت تجعل أهل البلد المفتوح في موضع الأسرى بيد القائد الفاتح ورجاله، ولهم حق السلب والنهب والقتل حتى يصدر القائد المنتصر الأمر لجنوده بالتوقف عن ذلك، فلما فتح رسول الله ﷺ مكَّة؛ تصرَّف وفقاً لشرائع الإسلام السمحة، ودفعته إنسانيته أن يقول لأهل مكة إنكم لستم أسرى ولا عبيد، وليست بلدكم ملكاً لي، ولا مستباحاً من جنودي، ودليلاً على ذلك أنه انتزع الراية من يد سعد بن عبادة الأنصاري وأعطاها إلى ابنه قيس عندما بلغه قوله: «اليوم يوم الملحمة، اليوم تستحل الحرمة، اليوم أذلَّ الله قريشاً!»[2]. وهذا هو المعنى التاريخي لقوله ﷺ لأهل مكة: **(اذهبوا فأنتم الطلقاء)**. أي أنه ليس ملكاً متغلباً، فلا غلب، ولا سيادة غالب على مغلوب، إنما هو فتح القلوب للإسلام.

ـ عامل الرسول ﷺ الناس بعد أن دخل مكة فاتحاً على قدر عقولهم، وكأنه إلى جانب نبوته كان مصلحاً اجتماعياً، فهو يخاطب كل واحد بالأسلوب الذي يقنعه وبمنطقه، كما حصل مع صفوان بن أُمية.

---

(١) البوطي: ص٤٠٤، ٤٠٥.
(٢) الواقدي: جـ٢ ص٨٢١، ٨٢٢.

ـ منح الرسول ﷺ من لم يهتدِ من المشركين فسحة من الوقت مدتها أربعة أشهر حتى يناله الهدى، وبعدها يجوز عليه القتل إن لم يهتدِ، أما الرجل من أهل الكتاب، فعليه الجزية والطاعة حتى يهتديَ، إن أراد الله به الخير. وقد طبَّق هذا المعنى في الطليق والطلقاء مع عدة نفر لم يشاؤوا أن يُسلموا عند الفتح، منهم سهيل بن عمرو، شيخ بني عامر بن لؤي.

ـ لم يُدرك بعض الصحابة من الأنصار الحكمة من قوله ﷺ: (**من دخل دار أبي سفيان فهو آمن**). فظنوا أنه شعر بالعاطفة والميل نحو بلدته وجماعته. روى مسلم عن أبي هريرة «... أما الرجل فقد أدركته رغبة في قريته ورأفة بعشيرته، قال أبو هريرة، وجاء الوحي وكان إذا جاء الوحي لا يخفى علينا، فإذا جاء فليس أحد يرفع طرفه إلى رسول الله ﷺ حتى ينقضي الوحي، فلما انقضى الوحي، قال رسول الله ﷺ: (**يا معشر الأنصار!**) قالوا: لبيك يا رسول الله! قال: (**قلتم: أما الرجل فأدركته رغبة في قريته؟**) قالوا: قد كان ذاك. قال: (**كلا، إني عبد الله ورسوله هاجرت إلى الله وإليكم، والمحيا محياكم والممات مماتكم**). فأقبلوا يبكون ويقولون: والله ما قلنا الذي قلنا إلا الضَّنَّ بالله ورسوله، فقال رسول الله ﷺ: (**إن الله ورسوله يُصدِّقانكم ويعذرانكم...**)[1]. لقد رأوا رأفة النبي ﷺ بأهل مكة وكفَّ القتل عنهم، فظنوا أنه يرجع إلى سكنى مكة والمقام فيها دائماً ويرحل عنهم ويهجر المدينة، فشقَّ ذلك عليهم، فأوحى الله تعالى إليه ﷺ، فأعلمهم بذلك[2].

ـ تحقَّق بفتح مكة وعد الله بالتمكين للمؤمنين الصادقين بعدما ضحُّوا بالغالي والنفيس، وحقَّقوا شروط التمكين، وأخذوا بأسبابه، وتعاملوا مع سننه.

الأحكام الفقهية المستنبطة من أحداث فتح مكة

تضمَّنت أحداث فتح مكة عدداً من الأحكام الفقهية، نذكر منها:

ـ تحريم القتال في مكَّة. لقد أنكر ﷺ على خالد بن الوليد قتاله لبعض أهل مكة، فقيل له: «قوتل فقاتل، فقال: قضاء الله خير». وقال في خطبة الفتح: (**إن مكَّة حرَّمها الله ولم يحرمها الناس**). واستنبط عامة العلماء من ذلك أنه لا يجوز القتال في مكة وما يتبعها من الحرم، وهو تحريم شرعي سبق به قدر الله يوم خلق السماوات والأرض، ثم ظهر على لسان إبراهيم الخليل عليه السلام. روى مسلم في صحيحه عن عبد الله بن زيد بن عاصم؛ أن رسول الله ﷺ قال: (**إن إبراهيم حرَّم**

(١) صحيح مسلم على شرح النووي: جـ١٢ ص١٢٧، ١٢٨.

(٢) شرح النووي في هامش صحيح مسلم: جـ١٢ ص١٢٨.

مكة ودعا لأهلها، وإني حرَّمت المدينة كما حرَّم إبراهيم مكة، وإني دعوت في صاعها ومُدها بمثليِّ ما دعا به إبراهيم لأهل مكة)[1].

- تحريم سفك الدماء في مكة نظراً لكونها حرماً. قال رسول الله ﷺ في خطبة الفتح: (فلا يحل لأحد أن يسفك بها دماً).

- تحريم قطع شيء من نبات مكة؛ لقوله ﷺ: (لا يُعضد بها شجرة). وفي رواية: (لا يُعضد شوكها أو لا يُخبط شوكها). واتفق العلماء على تحريم قطع كل نبات بري أنبته الله تعالى في مكة من دون أن يغرسه أحد من الناس، واختلفوا فيما أنبته الآدميون من الشجر. واستثنى الجمهور من عموم النبات ما كان مؤذياً منه قياساً على الفواسق الخمسة التي استثناها ﷺ، فهو من قِبل تخصيص النص بالقياس[2].

- تحريم الصيد في مكة بالإجماع؛ لقوله ﷺ: (لا ينفر صيده). وهو صريح في تحريم التسبب إلى قتل الصيد واصطياده بكل سبب، حتى أنه لا ينفره عن مكانه، فإذا حُرِّم التنفير فالإتلاف أولى، فإن أصاب صيداً وجب عليه إرساله، وإن مات في يده ضمنه بالجزاء كالمُحرم. ويُستثنى من المنع الفواسق، وهي: الغراب، الحِدأة[3]، العقرب، الفأرة والكلب العقور. وقد قاس العلماء عليها ما يشاركها في صفة الإيذاء من الحيوانات الأخرى، كالحية والسباع الضارية[4].

- وجوب دخول مكّة محرماً بحج أو بعمرة، باستثناء من يتكرر دخولهم إليها كالتجار. واختلف العلماء فيما إذا كان الطلب يتعلَّق بذلك وجوباً أو ندباً. وذهب جمهور الشافعية إلى أنه على سبيل الندب، وسبب الخلاف أن النبيَّ عندما دخل مكة يوم الفتح لم يكن محرماً. وذهب الذين قالوا إن الإحرام مندوب بهذا الحديث، والذين صحَّحوا الوجوب قالوا: إن النبي ﷺ دخل مكة خائفاً من غدر الكفار، فكان متهيئاً لقتال من سيقاتله منهم، وهي من الحالات التي تستثنى من عموم حالات الوجوب[5].

- لا يجوز ملامسة الرجل بشر امرأة أجنبية عنه إلا عند الضرورة، فقد بايعت النساء رسول الله ﷺ بالكلام فقط، من غير أخذ الكف، وذلك على خلاف بيعة الرجال.

- جواز الصوم والفطر في شهر رمضان للمسافر في غير معصية، فقد خرج الرسول ﷺ من المدينة صائماً حتى بلغ قديداً، فأفطر.

---

(١) صحيح مسلم على شرح النووي: جـ٩ ص١٣٤، ١٣٥.

(٢) ابن قيم الجوزية: جـ٣ ص٣٢٥ ـ ٣٢٨.

(٣) الحِدأة: طائر كبير من الجوارح يصيد الجرذان والحيوانات الداجنة وغيرها.

(٤) البوطي: ص٤٠٨. (٥) المرجع نفسه: ص٤٠٩.

ـ صلّى النبي ﷺ صلاة الضحى ثماني ركعات خفيفة، واستدل قوم بهذا على أنها سنّة مؤكدة.

ـ قصر الصلاة الرباعية للمسافر، فقد أقام النبي ﷺ بمكة خمسة عشر يوماً أو عشرين يوماً يقصر الصلاة.

ـ تحريم نكاح المتعة إلى الأبد بعد إباحته لمدة ثلاثة أيام. ويرى النووي أنه وقع تحريمه وإباحته مرتين؛ إذ كان حلالاً قبل غزوة خيبر فحرم يومها، ثم أُبيح يوم الفتح ثم حُرِّم للمرة الثانية إلى الأبد[1]. ويرى ابن القيم أن المتعة لم تحرم يوم خيبر، وإنما كان تحريمها يوم الفتح، وله في ذلك مناقشة طويلة عن الأحكام الفقهية المستنبطة من غزوة خيبر وغزوة الفتح، والمتفق عليه أنها حُرِّمت إلى الأبد بعد الفتح[2].

ـ عدم جواز الوصية بأكثر من ثلث المال، كما في قصة سعد بن أبي وقاص حين أصابه المرض بمكة واستشارة الرسول في أن يوصي بأكثر من الثلث[3].

غـزوة حنيـن

أسبابها

حملت مكة لواء المعارضة للإسلام قبل أن يفتحها رسول الله ﷺ، فلما فُتحت وجرى ضمُّها إلى حظيرة الإسلام وتطهيرها من الأصنام؛ برزت قبيلة هوازن الضاربة في جنوبي مكة، وقبيلة ثقيف في الطائف، وقد أدركتا أن الضربة التالية ستُوجَّه إليهما بوصفهما القبيلتين الكبيرتين الباقيتين على الوثنية «فلا ناهية له دوننا، والرأي أن نغزوه»[4].

وتولت هوازن بقيادة مالك بن عوف النصري جمع ما تبقّى من العرب المشركين لحرب رسول الله ﷺ، فانضمت إليها قبائل: ثقيف كلها، الأحلاف بقيادة قارب بن الأسود بن مسعود، وقاد ذو الخمار سبيع بن الحارث وأخوه أحمر بني مالك، ونصر وجُشم كلها، وسعد بن بكر، وجمعاً قليلاً من بني هلال، ولم يشترك من بطون هوازن كل من كعب وكلاب. وتولى مالك بن عوف النصري قيادة قوى التحالف وعمره ثلاثون سنة، وكان فارساً شجاعاً قوياً، لكنه قليل الخبرة في الحروب والحكمة في القيادة، فاصطحب معه الأموال والنساء والأطفال وخرج حتى

(١) شرح النووي في هامش صحيح مسلم: جـ٩ ص١٧٩ ـ ١٨١.
(٢) زاد المعاد: جـ٣ ص٢٤٨ ـ ٢٥٠، ٣٣٣ ـ ٣٣٦.
(٣) الترمذي، الإمام أبو عيس: سنن الترمذي جـ٢ ص٤٨٢.
(٤) البلاذري: جـ١ ص٤٦٣.

عسكر في أوطاس، وهو أحد وديان هوازن بين حنين والطائف[١].

وكان في بني جُشم دريد بن الصمة، وهو شيخ كبير وفارس مشهور، عركته الحياة وله معرفة كبيرة بالحروب، تجاوز المائة من عمره، وذهب بصره، فلا يُستفاد منه إلا التيمن برأيه. ودار حوار بينه وبين مالك بن عوف يتعلق بخروج هوازن وثقيف لحرب المسلمين، مليء بالعبر وجدير بالذكر. فقد نزل دريد في أوطاس عن بعيره ولمس الأرض بيده، فقال: «بأي وادٍ أنتم؟ قالوا: بأوطاس، قال: نِعْمَ مجال الخيل، لا حَزْن[٢] ضَرِس[٣] ولا سهل دَهِس[٤]، ما لي أسمع رغاء البعير، ونُهاق الحمير، وثغاء الشاء، وخوار البقر، وبكاء الصغير؟ قالوا: ساق مالك من الناس أبناءهم ونساءهم وأموالهم. قال: يا معشر هوازن! أمعكم من بني كلاب بن ربيعة أحد؟ قالوا: لا. قال: فمعكم من بني كعب بن ربيعة أحد؟ قالوا: لا. قال: فهل معكم من بني هلال بن عامر أحد؟ قالوا: لا. قال دريد: لو كان خيراً ما سبقتموهم إليه، ولو كان ذِكراً أو شرفاً ما تخلَّفوا عنه، فأطيعوني يا معشر هوازن وارجعوا، وافعلوا ما فعل هؤلاء. فأبوا عليه... ثم قال: أين مالك؟ قالوا: هذا مالك. فقال: يا مالك! إنك تقاتل رجلاً كريماً، وقد أصبحت رئيس قومك، وإن هذا اليوم كائن لما بعده من الأيام. يا مالك! ما لي أسمع رغاء البعير، ونُهاق الحمير، وخوار البقر، وبكاء الصغير، وثغاء الشاء؟ قال مالك: سقت مع الناس أموالهم وأبناءهم ونساءهم. قال دريد: ولِمَ؟ قال مالك: أردت أن أجعل خلف كل رجل أهله وماله وولده ونساءه حتى يُقاتل عنهم. قال: فأنقض[٥] بيده. ثم قال: راعي ضأن ما له وللحرب؟ وهل يُردُّ المنهزم شيء؟ إنها إن كانت لكم لم ينفعك إلا رجل بسيفه ورمحه، وإن كانت عليك فُضحت في أهلك ومالك. ثم قال: ما فعلت كعب وكلاب؟ قال: لم يشهدها منهم أحد. قال: غاب الجِدُّ والحدُّ. يا مالك! إنك لم تصنع بتقديم بيضة[٦] هوازن إلى نحور الخيل شيئاً. فإذا صنعت ما صنعت فلا تعصني في هذه الخطة، ارفعهم إلى مُمتنع بلادهم وعُليا قومهم وعزهم، ثم القَ القوم على متون الخيل، فإن كانت لك لحق بك مَن وراءك، وكان أهلك لا خوف عليهم، وإن كانت عليك ألفاك ذلك وقد أحرزت أهلك ومالك». فغضب مالك من قوله ورفض الأخذ برأيه، وتجادل الرجلان فاتهم دريد مالكاً بالجهل بالحرب، ورد

---

(١) الواقدي: جـ٣ ص٨٨٥، ٨٨٦.

(٢) الحَزْن: المرتفع من الأرض.

(٣) ضَرِس: الذي فيه حجارة محددة.

(٤) الدهِس: اللين الكثير التراب.

(٥) أنقض: صفَّق بإحدى يديه على الأخرى حتى يسمع لها نقيض.

(٦) بيضة هوازن: جماعتهم.

مالك باتهامه بالتقدم في السن، ثم نصح دريد هوازن بترك القتال والعودة إلى ديارها، فهدَّد مالك بالانتحار إن أخذت برأيه[1].

تعبئة قوى التحالف[2]

عبَّأ مالك بن عوف قواته وراح يُشجعهم على الثبات والاستبسال في القتال في خطوات متدرجة:

ـ فقد خطب في جنده، وقال: «إنَّ محمَّداً لم يقاتل قط قبل هذه المرة، وإنما كان يلقى أغماراً[3] لا علم لهم في الحرب فينتصر عليهم»[4].

ـ حشد نساء المقاتلين وأطفالهم وأموالهم خلفهم، معتقداً بأن المقاتل إذا شعر وهو يقاتل بأن أعز ما يملك وراءه ثبت في القتال، وصعب عليه أن يلوذ بالفرار ويتركهم للعدو. عن أنس بن مالك قال: افتتحنا مكة ثم غزونا حنيناً، فجاء المشركون بأحسن صفوف رأيت، قال: فصُفَّت الخيل ثم صُفَّت المقاتلة ثم صُفَّت النساء من وراء ذلك، ثم صُفَّت الغَنَم، ثم صُفَّت النَّعَم...»[5].

ـ أمر مالك بن عوف قواته أن يكسروا جفون سيوفهم، ويشدُّوا على المسلمين شدة رجل واحد، والمعروف أن من عادة العرب في حروبهم أن يكسروا أجفان سيوفهم قبل بدء القتال، وهذا يعني إصرار المقاتل على الثبات أمام الخصم حتى النصر أو الموت[6].

ـ الأخذ بزمام المبادرة ومهاجمة المسلمين؛ لأن فرصة النصر تكون في الغالب لصالح المهاجم، ويكون المدافع في موقف ضعيف.

ـ استخدم مالك بن عوف سلاح الحرب النفسية ضد المسلمين بهدف بث الخوف في نفوسهم، وذلك من واقع وضع عشرات الآلاف من الجمال وراء صفوف جيشه، ثم أركب عليها النساء، فبدا وكأن هذا الجيش من الضخامة ما يُثبط عزيمة الخصم[7].

---

(1) الواقدي: جـ3 ص887، 888. (2) الصلَّابي: جـ2 ص431 ـ 433.
(3) أغماراً: جمع غُمر وهو الذي لم يُجرَّب في الأمور.
(4) الواقدي: جـ3 ص893.
(5) صحيح مسلم على شرح النووي، كتاب الزكاة، باب إعطاء المؤلفة قلوبهم... جـ7 ص154.
(6) الواقدي: جـ3 ص895. ابن هشام: جـ4 ص122. الهيثمي، نور الدين علي بن أبي بكر: مجمع الزوائد ومنبع الفوائد، جـ6 ص179، 180.
(7) الواقدي: جـ3 ص897.

خروج الرسول ﷺ إلى حنين

عندما علم الرسول ﷺ بعزم هوازن على حربه؛ أرسل عبد الله بن أبي حدرد الأسلمي في مهمة استطلاع وتجسُّس ليوافيه بأخبارها، وهذا ما يفعله العسكريون عادة، وهو جمع المعلومات عن العدو قبل الاصطدام به. ذهب عبد الله إلى حيث أمره الرسول ﷺ «فدخل فيهم وأقام فيهم»[1]، وعاد بخبرهم، وأعلم رسول الله ﷺ بما عزموا عليه من حربه. فقرر ﷺ عندئذ الخروج لمقالاتهم، فهو المنتصر وهو المهاجِم ومن الخطأ التحول من الهجوم إلى الدفاع[2]، فجهَّز جيشاً قوامه اثني عشر ألف مقاتل، عشرة آلاف ممن فتحوا معه مكة، وألفان من أهل مكة من قريش، وطلب من ابن عمه نوفل بن الحارث بن عبد المطلب ثلاثة آلاف رمح على سبيل الإعارة، كما طلب من صفوان بن أُمية مائة درع تُكفل بالضمان، فلبيا طلبه، وكانا لا يزالان على شركهما[3].

وخرج رسول الله ﷺ من مكَّة نحو حنين في (١٠ شوال ٨هـ/ ٣١ كانون الثاني ٦٣٠م)، وهو على تعبئة، فقد عبَّأ قواته كتائب، وجعل مع كل كتيبة لواء، وكان التشكيل في ذلك الوقت قبلي عشائري، فشكَّل الأوس كتيبة، والخزرج كتيبة، والمهاجرون كتيبة، وهكذا، كما جعل لجيشه مقدمة من قبيلة سُلَيْم بقيادة خالد بن الوليد. ولما رأى أحد الصحابة، والراجح أنه أبو بكر، ضخامة هذا الجيش قال: «لا نُغْلَب اليوم من قِلَّة»[4].

أحداث معركة حنين

جرت أحداث معركة حنين على جولتين كانت الغلبة في الأولى لهوازن، وفي الثانية للمسلمين.

الجولة الأولى: عندما علم مالك بن عوف بخروج المسلمين لحربه، أرسل ثلاثة أشخاص ليأتوه بأخبارهم، ولما عرف وجهتهم سبقهم إلى وادي حنين، وهو أحد وديان تهامة الشديد الانحدار والمليء بالشِّعاب والمضائق الكثيرة، فنشر قواته في شِعابه ومضائقه على شكل كمائن متفرقة، وهو عازم على مباغتتهم، وأمرهم بالاختفاء عن عيونهم، وأن يمطروهم بنبالهم ويحملوا عليهم بإشارة منه حملة واحدة.

وتابع الجيش الإسلامي زحفه ليلاً إلى ذلك الوادي وتوغل فيه، وعند بزوغ

---

(١) ابن هشام: جـ٤ ص١٢٢. (٢) عرموش: ص١٣٣، ١٣٤.

(٣) الواقدي: جـ٣ ص٨٩٠. ابن هشام: جـ٤ ص١٢٣.

(٤) ابن سعد: جـ٢ ص١٥٠.

الفجر، فاجأته الكمائن في غبش الصبح، وحملت عليه حملة رجل واحد، فتفرَّق أفراده في كل اتجاه من قوة الضربة، وثبت رسول الله ﷺ ومعه عشرة من الصحابة، منهم أبو بكر وعمر وعلي والعباس. ورأى من كان مع الجيش الإسلامي من جفاة أهل مكة، الهزيمة، فتكلم رجال منهم بما كمن في أنفسهم من الضِّغن. فقال أبو سفيان بن حرب: «لا تنتهي هزيمتهم دون البحر». وصرخ جبلة بن الحنبل: «ألا بطل السحر اليوم». وتوجَّه شيبه بن عثمان ليقتل رسول الله ﷺ، فعصمه الله منه(1).

الواقع أن بعض الذين خرجوا من القرشيين ممن أسلموا بعد الفتح، لم يُقدِّموا ما يُثبت إخلاصهم للدولة الإسلامية حتى الآن، فكان وجودهم سبباً في اختلال التوازن في الصف، فكانت الهزيمة، لكن ثقة رسول الله ﷺ بجنوده الذين خرجوا معه من المدينة وفتحوا مكة؛ حوَّلت الهزيمة إلى نصر.

الجولة الثانية: في هذه اللحظات الحرجة حيث تدب الفوضى وتتضعضع الصفوف، تظهر القيادات الفعلية وعزيمة الرجال، ولذلك نرى رسول الله ﷺ القائد يحافظ على رباطة جأشه وصفاء ذهنه، ويُعيد تنظيم صفوف قواته ويكرُّ على المشركين. كان العباس عم الرسول ﷺ آخذاً بلجام بغلته وهو امرؤ جهوري الصوت، فلما رأى ﷺ انهزام قواته وفرارهم جعل يقول: (**يا أنصار الله وأنصار رسوله! أنا عبد الله ورسوله**)(2). فلم يلتفت إليه أحد، فأمر عمه العباس أن ينادي الأنصار وأصحاب السَّمُرة(3)، يا أصحاب سورة البقرة(4).

وما كاد الصوت يصل إلى الأنصار والمهاجرين حتى أقبلوا نحوه، وهم يقولون: «يا لبيك، يا لبيك»(5). فأعاد تنظيم صفوفهم ودفعهم إلى ميدان المعركة. وحمي الوطيس والرسول ﷺ يُشجع رجاله، ويقول: (**أنا النبي لا كذب، أنا ابن عبد المطلب**)(6). ثم قال للعباس: (**ناولني حصيات**). فناوله حصيات من الأرض، فأخذها ﷺ، ثم قال: (**شاهت الوجوه**) ورمى بها وجوه المشركين، وقال: (**انهزموا ورب الكعبة**). وحضرت الملائكة القتال. وما هي إلا ساعات حتى انقلب ميزان المعركة، وتحول المنهزم إلى منتصر، وانهزم المشركون ودبَّ الرعب في قلوبهم، ففرُّوا في ثلاثة اتجاهات لا يلوي أحد على أحد، فذهبت طائفة منهم إلى أوطاس، وفرَّ بعضهم نحو نخلة، وقصدت فئة ثالثة ـ وهي ثقيف ـ الطائف، فأصدر

---

(1) ابن هشام: جـ٤ ص١٢٤.
(2) ابن سعد: جـ٢ ص١٥١.
(3) السَّمُرة: الشجرة التي بايع المسلمون تحتها النبي ﷺ.
(4) ابن سعد: جـ٢ ص١٥١.
(5) المصدر نفسه.
(6) المصدر نفسه.

الرسول ﷺ أمراً بمطاردتهم، ولم يُتح لهم فرصة كي يعيدوا تنظيم صفوفهم، ويستردوا قواهم. فأرسل قوة من الفرسان لمطاردة أولئك الذين توجَّهوا نحو نخلة، وبعث قوة ثانية بقيادة أبي عامر الأشعري لقتال المشركين الذين توجَّهوا إلى أوطاس، فأصابوه بسهم أودى بحياته، فأخذ الراية ابن عمه أبو موسى الأشعري، فقاتلهم حتى فتح عليه، وتمكَّن من هزيمتهم[1].

وصادف أن مرَّ رسول الله ﷺ بأناس متجمهرين حول امرأة قتيلة، فاستجلى الأمر منهم، فقالوا: «امرأة قتلها خالد بن الوليد». فسارع إلى إرسال تعليماته إلى خالد: **(لا تقتل وليداً أو امرأة أو عسيفاً)**[2]. وهكذا نرى رسول الله ﷺ لا يتهاون في أحلك الظروف، بمخالفة المبادىء الإنسانية السامية، ويصدر تعليمات تتحول إلى تشريع عام على مر العصور.

أمر النبي ﷺ بجمع الغنائم، وحفظها في منطقة الجعرانة، فبلغت ستة آلاف أسير، وأربعة وعشرين ألف بعير، وأكثر من أربعين ألف شاة، وأربعة آلاف أوقية فضة، وترك عليها جماعة تحرسها بقيادة بُديل بن ورقاء الخزاعي، وتوجَّه إلى الطائف، معقل قبيلة ثقيف[3].

حصار الطائف

تقدَّم الجيش الإسلامي المنتصر باتجاه الطائف، وعلى مقدمته خالد بن الوليد[4]، وكان سكانها ثقيف من أغلظ العرب وأشدهم بأساً حتى أنهم قتلوا أحد زعمائهم عروة بن مسعود لأنه دعاهم إلى الإسلام[5]، فلما اقترب المسلمون من أسوارها عسكروا في مكان مكشوف. وما كاد الجند يضعون رحالهم حتى تعرَّضوا لوابل من سهام أصابت عدداً منهم، وحينئذ عرض الحباب بن المنذر على الرسول ﷺ التحول إلى مكان آمن، فقبل ﷺ مشورته وكلَّفه، بوصفه خبيراً في الشؤون العسكرية، البحث عن مكان مستأخر ومرتفع لنزول الجند، فاختار مكاناً مناسباً، فأمر الرسول ﷺ بالانتقال إليه[6].

واستخدم النبي ﷺ أسلحة جديدة في القتال لم يسبق أن استعملها العرب من قبل، مثل المنجنيق والدبابة والحسك الشائك، كما استخدم الحرب النفسية للضغط على

---

(١) **صحيح البخاري**، كتاب المغازي، باب غزوة أوطاس، رقم الحديث (٤٣٢٣)، ص٧٧٨.
(٢) الواقدي: جـ٣ ص٩١٢. وعسيفاً: أجيراً، وقيل: الشيخ الفاني.
(٣) الواقدي: جـ٣ ص٩٢٣، ٩٢٤. ابن سعد: جـ٢ ص١٥٢.
(٤) الواقدي: جـ٣ ص٩٢٣.
(٥) المصدر نفسه: ص٩٦١.
(٦) المصدر نفسه: ص٩٢٦.

الثقفيين وإرغامهم على الاستسلام. فعندما اشتدَّت مقاومة هؤلاء؛ أمر ﷺ بإحراق بساتين العنب والنخل في ضواحي الطائف، وهي مصدر معيشتهم، فأثَّر ذلك في نفوسهم، فناشدوه بالله وبالرحم أن لا يُقدم على هذا العمل، فعدل عنه ربما لقناعته بأن تلك المزارع ستكون للمسلمين فيما بعد، ووجَّه نداء إلى عبيدهم، فوعد من يغادرهم وينضم إلى المسلمين بالتحرير، فخرج ثلاثة وعشرون من العبيد، منهم أبو بكرة الثقفي، فأسلموا، فأعتقهم النبي ﷺ ولم يعدهم إلى ثقيف بعد إسلامهم[(١)].

وصمدت ثقيف على الرغم من كل تلك التدابير المتخذة، وطال أمد الحصار، ورأى الرسول ﷺ مناعة حصن الطائف، وعلم من العبيد الذين غادروا الحصن بما لدى المحاصَرين من أغذية ومؤن تكفيهم لمدة سنة، فأدرك عندئذ أن لا فائدة من الاستمرار في الحصار، وأن ثقيفاً ستجد نفسها يوماً أشبه بجزيرة وسط بحر واسع، وستسعى طالبة الانتماء إلى الدين الجديد رغبةً وإيماناً، وستزود المسلمين بطاقاتها البشرية المعروفة، وتكون عوناً لهم، ولم ير خطراً على المسلمين في المستقبل من تركها إلى فرصة أخرى. ويبدو أنه أراد أن يكون ذلك بعد مشورة مع أصحابه، فقال له نوفل بن معاوية الديلي: «يا رسول الله! ثعلب في جُحْر، إن أقمت عليه أخذته، وإن تركته لم يضرك شيئاً»[(٢)].

وأصدر الرسول ﷺ أوامره برفع الحصار عن الطائف بعد ثمانية عشر يوماً من بدئه[(٣)]، وقد فَقَدَ اثني عشر شهيداً[(٤)].

تقسيم الغنائم

عاد رسول الله ﷺ بعد فك الحصار عن الطائف إلى الجعرانة، وفيها سبي هوازن، وانتظر مدة لا يوزع شيئاً منه على أمل أن تأتيه هوازن مسلمة، فيرد إليها سَبْيَها، ولكن بعض الأعراب ألحوا عليه في تقسيم ما غنموه، فبدأ بتقسيم الأموال، ورأى أن يتألف الطلقاء والأعراب وهم حديثو عهد بالإسلام، فأعطى زعماء قريش وغطفان وتميم عطاء عظيماً؛ إذ كانت عطية الواحد منهم مائة من الإبل، وذلك بهدف تحويل قلوبهم من حب الدنيا إلى حب الإسلام. وقد عبَّر صفوان بن أُمية عن هذا بقوله: «لقد أعطاني رسول الله ﷺ ما أعطاني وأنه لأبغض الناس إليَّ، فما برح يعطيني حتى أنه لأحب الناس إليَّ»[(٥)]. وفي المقابل لم يُعط الأنصار شيئاً من

---

(١) ابن سعد: جـ٢ ص١٥٨، ١٥٩. (٢) الواقدي: جـ٣ ص٩٣٧.
(٣) ابن سعد: جـ٢ ص١٥٨. (٤) ابن هشام: جـ٤ ص١٥١.
(٥) صحيح مسلم على شرح النووي: كتاب الفضائل، باب في سخائه ﷺ، جـ١٥ ص٧٣.

نصيبهم، فلما رأوا ذلك استاء أناس منهم، وهم الحديثو السن[1]، وكثر بينهم الكلام، حتى قال قائلهم: «لقد لقي والله رسول الله ﷺ قومه»[2]. فجاءه سعد بن عبادة وقال له: «يا رسول الله! إن هذا الحي من الأنصار قد وجدوا عليك في أنفسهم لما صنعت في هذا الفيء الذي أصبت، قسمت في قومك، وأعطيت عطايا عظاماً في قبائل العرب، ولم يك في هذا الحي من الأنصار منها شيء»[3]. فطلب منه الرسول ﷺ أن يجمع له الأنصار، فجمعهم، وخاطبهم ﷺ مخاطبة الأب لأبنائه والمحب لأحبائه، فذكَّرهم بتاريخهم معه ومناصرتهم إياه، ثم قال: (**ألا ترضون يا معشر الأنصار أن تذهب الناس بالشاء والبعير وترجعوا برسول الله إلى رحالكم؟ فوالذي نفس محمد بيده، لولا الهجرة لكنت امرءاً من الأنصار، ولو سلك الناس شِعباً وسلكت الأنصار شِعباً لسلكت شِعب الأنصار. اللهمَّ ارحم الأنصار وأبناء الأنصار وأبناء أبناء الأنصار**). فبكى القوم حتى أخضلوا لحاهم[4]، وقالوا: «رضينا برسول الله قسماً وحظاً»[5].

وهكذا أنهى رسول الله ﷺ، في دقائق، بوادر فتنة، كادت أن تعصف بصفوف جيشه.

وجاء وفد هوازن مسلماً فور الانتهاء من توزيع الغنائم، وطلبوا من الرسول ﷺ إعادة أموالهم وأبنائهم ونسائهم إليهم، فخيَّرهم رسول الله ﷺ بين الذراري والنساء وبين الأموال، فاختاروا أولادهم ونساءهم، فأعادها إليهم، وطلب من أصحابه أن يعيدوا ما أخذوه إلى إخوانهم في الإسلام عن طيب خاطر، ومن رفض منهم اشترى منه ما بيده من ذلك السبي ديناً يُسدِّده له من أول فيء يصيبه[6]. وبهذا الشكل يكون قد أرضى الجميع.

وخرج رسول الله ﷺ من الجعرانة إلى مكة معتمراً، بعد تقسيم الغنائم، ثم انصرف عائداً إلى المدينة واستخلف على مكة عتاب بن أسيد[7].

غزوة حنين في القرآن الكريم

كان نصيب غزوة حنين في القرآن ثلاث آيات من سورة التوبة (٢٥ ـ ٢٧)، عرض ﷻ من خلالها مشاهدها المادية وانفعالاتها الشعورية لتبقى درساً للأُمة على

---

(١) انظر: **صحيح مسلم على شرح النووي**، كتاب الزكاة، باب إعطاء المؤلفة... جـ٧ ص١٥١.
(٢) ابن هشام: جـ٤ ص١٥٦.
(٣) المصدر نفسه.
(٤) اخضلوا لحاهم، أي: بلَّلوها بالدموع.
(٥) ابن هشام: جـ٤ ص١٥٦، ١٥٧.
(٦) ابن سعد: جـ٢ ص١٥٥.
(٧) ابن هشام: جـ٤ ص١٥٧.

مر العصور، وسجل في منهجية ربانية أهم معالمها بشكل متدرج: ﴿لَقَدْ نَصَرَكُمُ اللَّهُ فِي مَوَاطِنَ كَثِيرَةٍ وَيَوْمَ حُنَيْنٍ إِذْ أَعْجَبَتْكُمْ كَثْرَتُكُمْ فَلَمْ تُغْنِ عَنكُمْ شَيْئًا وَضَاقَتْ عَلَيْكُمُ الْأَرْضُ بِمَا رَحُبَتْ ثُمَّ وَلَّيْتُم مُّدْبِرِينَ﴾. لقد أصاب المسلمين في هذا اليوم انفعالات متدرجة؛ إذ أعجبتهم كثرتهم، ثم كانت الزلزلة والهزيمة الروحية، ثم الضيق والحرج حتى لكأن الأرض تضيق بهم وتُشدِّد عليهم، ثم كانت الهزيمة الحسية وتولية الأدبار.

الواضح أن الكثرة العددية ليست دائماً هي سبب النصر، وهناك عوامل كثيرة قد يكون التفوق العددي أحدها، ولكنه ليس العامل الوحيد، ولا بد لتحقيق النصر أن يُصاحب العدد، قلَّ أو كثر؛ الصبر والتقى والاتصال بالله. وقد تخلَّل الجيش الإسلامي أفراد لم يدركوا حقيقة العقيدة التي ينساقون في تيارها، فتزلزلت أقدامهم وارتجفت في ساعة الشدة، فأشاعوا الاضطراب والهزيمة في الصفوف، وهذا ما حصل في المرحلة الأولى من المعركة، ثم إن الكثرة قد تخدع أصحابها، فيتهاونون في توثيق صلتهم بالله، فيفقدون بذلك أهم أسباب النصر.

وربما امتدت ظلال هذا الهلع إلى قلوب بعض المؤمنين الصادقين، في بادىء الأمر، ولكن ما إن سمع المهاجرون والأنصار نداء رسول الله ﷺ حتى كرُّوا عائدين، فالتفوا من حوله وخاضوا معه معركة حامية الوطيس، ولم يكونوا يزيدون عن المائتين، فانتصروا ونزلت السكينة عليهم.

﴿ثُمَّ أَنزَلَ اللَّهُ سَكِينَتَهُ عَلَىٰ رَسُولِهِ وَعَلَى الْمُؤْمِنِينَ وَأَنزَلَ جُنُودًا لَّمْ تَرَوْهَا وَعَذَّبَ الَّذِينَ كَفَرُوا وَذَٰلِكَ جَزَاءُ الْكَافِرِينَ﴾. عند هذه المرحلة من المعركة كان لا بدَّ من تثبيت القلة الصابرة التي صمدت مع رسول الله ﷺ، فأكرم ﷻ رسوله والمؤمنين بإنزال السكينة عليهم، وكأن السكينة رداء يُثبِّت القلوب المضطربة ويُهدِّىء الانفعالات الثائرة. وأمدَّ ﷻ نبيَّه بالملائكة، إلا أننا نجهل ماهيتها وطبيعتها، وعذَّب الذين كفروا بالقتل والأسر والسلب والهزيمة، جزاء ما اقترفت أيديهم وألسنتهم.

﴿ثُمَّ يَتُوبُ اللَّهُ مِن بَعْدِ ذَٰلِكَ عَلَىٰ مَن يَشَاءُ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾. فباب المغفرة مفتوح دائماً لمن يخطىء ثم يتوب، والله يقبل التوبة من عباده ويوفق من شاء إليها.

الأحكام الفقهية المستنبطة من غزوة حنين

حفلت غزوة حنين بأحكام فقهية، نذكر منها:

- جواز بث العيون بين الأعداء للاطلاع على ما يخططون ومعرفة أخبارهم، وقد ذكرنا أن الرسول ﷺ بعث عبد الله بن أبي حدرد الأسلمي ليأتيه بأخبار العدو.

ـ جواز استعارة أسلحة من المشركين لمحاربة أعداء المسلمين، وهذا ما فعله رسول الله ﷺ عندما استعار أسلحة من صفوان بن أُمية، وكان لا يزال مشركاً.

ـ اتفق العلماء والأئمة على تحريم قتل النساء والأطفال والأُجراء والعبيد في الحرب، بدليل حديث رسول الله ﷺ عندما رأى المرأة التي قتلها خالد بن الوليد، ويُستثنى من هذا الحكم الذين يشتركون في القتال، فإنهم يُقتلون مدبرين، وينبغي الإعراض عنهم مقبلين، بالإضافة إلى الذين يُتخذون ستاراً حيث لا يمكن ردُّ غائلة الجيش من ورائهم، إلا بقتلهم(١).

ـ إن من يقتل قتيلاً فله سلبه.

ـ استدلَّ عامة الأئمة والفقهاء على أنه يجوز للإمام أن يزيد في عطاء من يتألف قلوبهم على الإسلام بالقدر الذي تدعو إليه مصلحة تألف قلوبهم، بل يجب عليه ذلك عندما تدعو إليه المصلحة، ولا مانع أن يكون هذا العطاء من أصل الغنائم. ويرى ابن القيم استدلالاً بعمل رسول الله عندما تألف قلوب أهل مكة ممن أسلم بعد الفتح؛ أنه يتعين على الإمام أن يتألف أعداءه باستجلابهم إليه ودفع شرهم عن المسلمين، والتأليف لهذه الطائفة إنما هو من قبيل الإغراء والتشجيع في بادىء الأمر، حتى يترسخ الإيمان في قلوبهم(٢).

ـ نهى النبي ﷺ في غزوة حنين عن الغلول(٣)، فقد أخذ ﷺ وبرة من سنام بعير من الغنائم، فجعلها بين إصبعيه، ثم قال: (**أيها الناس إنه لا يحل لي مما أفاء الله عليكم قدر هذه، إلا الخمس، والخمس مردود عليكم، فأدُّوا الخياط والمخيط، وإياكم والغلول، فإن الغلول عار ونار وشنار على أهله في الدنيا والآخرة**)(٤).

إن التشديد في النهي عن الغلول، ولو كان في شيء تافه لا يُلتفت إليه، يُمثل معلماً نبوياً مهماً في تربية الأفراد على ما ينبغي أن يكون عليه المسلم في حياته العملية إيماناً وأمانة، وفي التزام الأفراد بهذا التوجيه يتطهر المجتمع المسلم من رذيلة الخيانة؛ لأن التساهل في صغيرها يقود إلى كبيرها، والخيانة من أرذل الأخلاق الإنسانية التي لا تليق بالمجتمع المسلم(٥).

ـ أحرم النبي ﷺ بعمرة من الجعرانة، وكان داخلاً إلى مكة، وهذه هي السنَّة لمن يدخلها من طريق الطائف وما يليه. أما ما يفعله كثير ممن لا علم عندهم من الخروج من مكة إلى الجعرانة ليحرم منها بعمرة ثم يرجع إليها، فهذا لم يفعله

---

(١) البوطي: ص٤٢٨. (٢) زاد المعاد: جـ٣ ص٣٤٩، ٣٥٠.

(٣) الغِلُّ: الغش والعداوة والضغن والحقد والحسد

(٤) ابن هشام: جـ٤ ص١٥٣، ١٥٤. (٥) عرجون: جـ٤ ص٣٨٧، ٣٨٨.

النبي ﷺ ولا استحبَّه أحد من أهل العلم(١).

أسباب هزيمة المسلمين في الجولة الأولى

- تسرَّب إلى نفوس بعض المسلمين شيء من العُجب لما رأوا عدوهم، فقال أحدهم: «لن نُغلب اليوم من قلَّة». فشقَّ ذلك على رسول الله ﷺ، فكانت الهزيمة.

- بلغ عدد أفراد جيش المشركين أكثر من ضعفي عدد أفراد جيش المسلمين.

- الخطط العسكرية الناجحة التي طبَّقها مالك بن عوف؛ فقد سبق المسلمين إلى وادي حنين بعد أن علم بوجهتهم إليه، فوضع الكمائن والرماة في شِعابه ومضائقه وعلى جوانبه، ففاجأوا المسلمين برميهم بالنبال وبالهجوم المباغت.

- التعبئة الجيدة لجيش المشركين، فقد كانوا بأحسن صفوف رُئيت؛ صف الخيل ثم المقاتلة ثم النساء من وراء ذلك، ثم النعم.

- وجود ضعاف الإيمان في صفوف المسلمين ممن أسلموا حديثاً في مكة، فقد فرَّ هؤلاء من أرض المعركة بعد الضربة المفاجئة، فتضعضعت الصفوف ووقع الخلل، وهُزم غيرهم.

أسباب انتصار المسلمين في الجولة الثانية

- شجاعة الرسول ﷺ؛ فعندما تفرَّقت جموع المسلمين في الوادي وولُّوا الأدبار؛ ثبت ﷺ مع بعض أصحابه ممن رسخ الإيمان في قلوبهم، فلم يغادر ميدان القتال، بل إنه تقدم مسرعاً نحو عدوه راكباً بغلته والعباس آخذ بلجامها يكفها عن أن تسرع. وهذا من أهمية القيادة التي تُعدُّ قدوة للمقاتلين.

- سرعة استجابة الفارِّين والتحاقهم بالقتال، فما إن سمع المسلمون صوت العباس يضرب على الوتر الحساس، فيذكِّر الأنصار بمواقفهم السابقة حتى اندفعوا نحو مصدر الصوت ملبِّين، ومن منعه فرسه أو أخَّره بعيره عن ذلك؛ تخلَّى عنه وتقدم راجلاً بسيفه وترسه، وهذا من أثر المعنويات البالغ في تحقيق النصر.

- ارتكب مالك بن عوف خطأً عسكرياً فادحاً عندما اكتفى بنتيجة المعركة، ولم يطارد المسلمين المنهزمين؛ ما أعطى فرصة طيبة للرسول ﷺ أن يعيد تنظيم صفوف قواته ويكرَّ على المشركين.

- رمي الحصى، وهذا من معجزاته ﷺ، فقد أخذ النبي ﷺ حصيات فرمى بهن وجوه المشركين، ثم قال: (انهزموا ورب محمَّد).

---

(١) ابن قيم الجوزية: جـ٣ ص٣٦٦، ٣٦٧.

ـ الاستعانة والاستغاثة بالله ﷻ، فقد كان رسول الله ﷺ يناشد ربه ويلح عليه في الدعاء بالنصر على الأعداء.

ـ إنزال الملائكة ومشاركتهم في القتال، وقد ذكر القرآن الكريم هذه الظاهرة ﴿... وَأَنزَلَ جُنُودًا لَّمْ تَرَوْهَا ...﴾.

عام الوفود ـ وفاة الرسول ﷺ

تصفية جيوب المعارضة في الجزيرة الإسلامية

بعد أن تمَّت تصفية الكيانات السياسية لمراكز الثقل في الجزيرة العربية، بقيت بعض الجيوب المعارضة لسياسة الدولة الإسلامية، رفضت الخضوع لها والدخول في الإسلام، فأرسل النبي ﷺ السرايا لهدم أصنامها وإخضاعها حتى تتحقَّق الوحدة السياسية والدينية للعرب في جزيرتهم، نذكر من هذه السرايا:

ـ سرية الطفيل بن عمرو لهدم ذي الكفين، وهو صنم عمرو بن حُمَمة الدوسي[(١)].

ـ سرية علي بن أبي طالب لهدم الفُلْس في بلاد طيء[(٢)].

ـ سرية جرير بن عبد الله البجلي لهدم ذي الخلصة، وكان بيتاً لخثعم وبجيلة باليمن[(٣)].

ـ سرية عيينة بن حصن الفزاري لإخضاع بني العنبر من بني تميم، فلما أغار عليهم هربوا من وجهه، فساق مواشيهم والعديد من نسائهم وأولادهم، فاضطروا إلى الخضوع، وأرسلوا وفداً إلى المدينة يعلنون ولاءهم، كما سيأتي ذكره[(٤)].

ـ سرية قطبة بن عامر إلى حي من خثعم بناحية وادي بيشة، فأغار عليهم وجرى قتال ين الطرفين، وكانت الغلبة للمسلمين، فساقوا النَّعم والنساء وعادوا إلى المدينة[(٥)].

ـ سرية عكاشة بن محصن الفزاري إلى جباب وبلي، وهما قبيلتان من قضاعة، فأخضعهما وعاد إلى المدينة[(٦)].

---

(١) ابن سعد: جـ٢ ص١٥٧، ١٥٨. (٢) المصدر نفسه: ص١٦٤.

(٣) **صحيح البخاري**، كتاب المغازي، باب غزوة ذي الخلصة، رقم الحديث (٤٣٥٧)، ص٧٨٤.

(٤) ابن هشام: جـ٤ ص٢٣٨.

(٥) ابن سعد: جـ٢ ص١٦٢. **وبيشة**: وادٍ يصب سيله من الحجاز، حجاز الطائف، ثم ينصب في نجد حتى ينتهي في بلاد عقيل، ويقع قرب تربة. الحموي: جـ١ ص٥٢٩.

(٦) المصدر نفسه: ص١٦٤.

إسلام ثقيف

عاد الرسول ﷺ بعد فتح مكة وإسلام هوازن إلى المدينة تاركاً ثقيف في الطائف جزيرة وسط بحر من المسلمين، فلحق به عروة بن مسعود الثقفي، وكان مُطاعاً في قومه، وأدركه قبل أن يصل إلى المدينة، فاعتنق الإسلام، ورجع إلى قومه، فدعاهم إلى الإسلام متحصناً بمنزلته فيهم وطاعتهم له، إلا أن حميتهم الجاهلية طغت على عقولهم، فأنستهم ذلك كله، فرموه بالنبل فأصابه سهم فقتله. وعندما سُئِل وهو يلفظ أنفاسه: «ما ترى في دمك؟». أجاب: «كرامة أكرمني الله بها، وشهادة ساقها إليَّ...». وطلب دفنه مع شهداء المسلمين[(١)].

ولم تمض أشهر حتى أدركت ثقيف أنها لا قدرة لها على حرب من حولها من العرب الذين دانوا بالإسلام، فقرَّر زعماؤها أن يُرسِلوا وفداً إلى المدينة للتفاوض مع الرسول ﷺ بشأن دخولهم في الإسلام، وتألف الوفد من ستة أشخاص؛ ثلاثة من بني مالك، وثلاثة من الأحلاف بقيادة عبد ياليل بن عمرو، فوصل إليها في (رمضان ٩هـ/ كانون الأول ٦٣٠م)، عقب عودته ﷺ من غزوة تبوك[(٢)]. ويدل هذا التكوين للوفد على تصرف سياسي حكيم، ذلك أن ثقيف كانت تأمل في أن يتدخل المهاجرون من بني أُمية للتوسط في إقرار الصلح مع الرسول ﷺ بفعل العلاقة التاريخية الجيدة بين بني أُمية والأحلاف بخاصة والثقفيين بعامة[(٢)].

استقبل رسول الله ﷺ وفد ثقيف راضياً، وأجرى مباحثات مع أعضائه، فأبدى الثقفيون استعدادهم للدخول في الإسلام، لكنهم طلبوا بعض التنازلات التي تمس العقيدة، منها أن يسمح لهم:

- بالزنا لأنهم قوم عزَّاب بغرب[(٣)].
- بالربا لأنه مصدر أموالهم كلها.
- بالخمر لأنها عصير أعنابهم، والمعروف أن الطائف اشتهرت بإنتاج العنب.
- بترك صنمهم اللات مدة ثلاث سنوات.
- بإعفائهم من الصلاة.

---

(١) ابن هشام: جـ٤ ص١٨٤.

(٢) المصدر نفسه. كانت ثقيف تتكون من بطنين هما: بنو مالك والأحلاف، وربما كان تأثير الأحلاف السياسي أقل من تأثير بني مالك، لذلك عوَّضوا عن ضعفهم بصداقة قريش بعامة، وبني أُمية بخاصة، وتحالف بنو مالك مع هوازن.

(٣) الغرب هو البُعد.

رفض الرسول ﷺ طلباتهم الواحدة تلو الأخرى، ففي أمور العقيدة لا مساومات ولا تنازلات.

فالزنا مما حرَّم الله على المسلمين، يقول الله تعالى: ﴿وَلَا تَقْرَبُوا الزِّنَىٰ إِنَّهُ كَانَ فَاحِشَةً وَسَاءَ سَبِيلًا﴾ [الإسراء/ ٣٢].

والربا حرام، يقول الله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَذَرُوا مَا بَقِيَ مِنَ الرِّبَا إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ﴾ [البقرة/ ٢٧٨].

والخمر مما حرَّم الله، وتلا رسول الله ﷺ عليهم: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّمَا الْخَمْرُ وَالْمَيْسِرُ وَالْأَنصَابُ وَالْأَزْلَامُ رِجْسٌ مِّنْ عَمَلِ الشَّيْطَانِ فَاجْتَنِبُوهُ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾ [المائدة/ ٩٠].

وقال لهم رسول الله ﷺ بشأن الصلاة: (**لا خير في دين لا صلاة فيه**)[(١)].

وخلا أعضاء الوفد بعضهم ببعض ليتدارسوا الموقف، وقد خشوا يوماً كيوم مكة إن رفضوا الدخول في الإسلام. وكان خالد بن سعيد بن العاص هو الوسيط بينهم وبين رسول الله ﷺ، فأقنعهم بالقبول، فأسلموا وكتب لهم رسول الله ﷺ كتاباً خطَّه خالد بن سعيد بن العاص بيده. ويبدو أنهم تهيَّبوا هدم الربة اللات بأنفسهم، فطلبوا من الرسول ﷺ أن يبعث من يهدمها عنهم، فوافق[(٢)]، ثم غادروا المدينة عائدين إلى بلادهم بعد خمسة عشر يوماً قضوها في المدينة اختلطوا خلالها بالمسلمين، وأمَّر رسول الله ﷺ عثمان بن أبي العاص على الطائف رغم حداثة سنِّه، فقد كان أحرصهم على تعلم القرآن والتفقه في الدين[(٣)].

وجهَّز النبي ﷺ عقب مغادرتهم سرية لهدم اللات، شارك فيها المغيرة بن شعبة وأبو سفيان بن حرب، ولما وصل أفرادها إلى الطائف؛ دخل المغيرة بن شعبة مع بعض الرجال لهدمها، ولا ترى عامة ثقيف أنها مهدومة، ويظنون أنها ممتنعة. وكان المغيرة رجلاً فيه دعابة وظرف، فقال لأصحابه: «والله لأضحكنكم من ثقيف. فضرب بالفأس ثم سقط وراح يركض، فارتج أهل الطائف وقالوا بصوت واحد: أبعد الله المغيرة، قد قتلته الربة. وفرحوا حين رأوه ساقطاً». وخاطبوا أفراد السرية: «من شاء منكم فليقترب وليجتهد على هدمها، فوالله لا تستطاع أبداً». فوثب المغيرة

---

(١) الواقدي: جـ٣ ص٩٦٨.

(٢) ابن هشام: جـ٤ ص١٨٤، ١٨٥. **واللات** من الأصنام القديمة المشهورة عند العرب الشماليين وعرب الحجاز، وهي الآلهة الأنثى على شكل صخرة مربعة أو على شكل صخرة بيضاء منقوشة، عبدتها ثقيف بالطائف وخصَّتها كخاصة قريش العزى، وبنت عليها بيتاً ضاهأت به الكعبة، وقد عُرفت اللات بالربة وبيتها ببيت الربة. الكلبي: ص٣١. تفسير ابن كثير: جـ٤ ص٢٥٣. الحموي: جـ٥ ص٤.

(٣) ابن هشام: جـ٤ ص١٨٥.

عندئذ وقال: «قبَّحكم الله يا معشر ثقيف، إنما هي لكاع[1] حجارة ومدر، فاقبلوا عافية الله واعبدوه». ثم أكمل هدم الربة حتى سوَّاها بالأرض، وحفر أساسها فاستخرج منه حليتها وكسوتها وثيابها. وبُهتت ثقيف وأدركت الواقع الذي كانت تحجبه غشاوة على أعينهم. وعاد أفراد السرية إلى المدينة مع الحلي والكسوة، فقسَّمها ﷺ من يومه، وحمد الله على نصرة نبيِّه وإعزاز دينه[2].

توافد قبائل العرب على المدينة لإعلان إسلامها

تمهيد

حدث بعد فتح مكة أن ضرب رسول الله ﷺ مدة أربعة أشهر لقبائل العرب التي لا زالت على الوثنية، لكي تقرر مصيرها بنفسها قبل أن تتخذ الدولة الإسلامية منها موقفاً معيناً، ويبدو أنها أدركت ألَّا سبيل لها من تحديد موقفها من الإسلام ودولته التي امتدَّ حكمها، فشمل معظم جزيرة العرب بعد فتح مكَّة وإسلام هوازن وثقيف، وأن تأخرها عن استجابة داعي الإسلام، وتمسكها بموقفها المعادي؛ فَقَدَ مبرراته «وإنما كانت العرب تربص بالإسلام أمر هذا الحي من قريش، وأمر رسول الله ﷺ، وذلك أن قريشاً كانوا إمام الناس وهاديهم، وأهل البيت الحرام، وصريح ولد إسماعيل بن إبراهيم عليه السلام، وقادة العرب لا ينكرون ذلك... فلما افتُتحت مكة، ودانت له قريش، ودخلها الإسلام، وعرفت العرب أنه لا طاقة لهم بحرب رسول الله ﷺ، ولا عداوته، فدخلوا في دين الله...»[3].

وراحت هذه القبائل تتسابق في إرسال وفودها إلى المدينة مبايعة على الإسلام أو مُصالِحة رسول الله ﷺ، ونظراً لكثرة ما توافد منها في العام التاسع للهجرة؛ سماه المؤرخون وأصحاب السِّير «عام الوفود»[4].

وقد اختلف المؤرخون وأصحاب السير في عدد الوفود التي توالت على المدينة بين ما يزيد عن ستين وفداً عند البعض وأكثر من مائة عند البعض الآخر، واقتصر البعض على ذكر المشهور منها. فقد ذكر ابن إسحاق: «لما افتتح رسول الله ﷺ مكة، وفرغ من تبوك، وأسلمت ثقيف وبايعت؛ ضربت إليه وفود العرب من كل وجه»[5]. مع الإشارة إلى أن مجيء وفد من قبيلة ما لا يعني دائماً أن القبيلة كلها أضحت مسلمة؛ لأن أعضاء الوفد كانوا في بعض الأحيان لا يمثلون إلا أنفسهم.

---

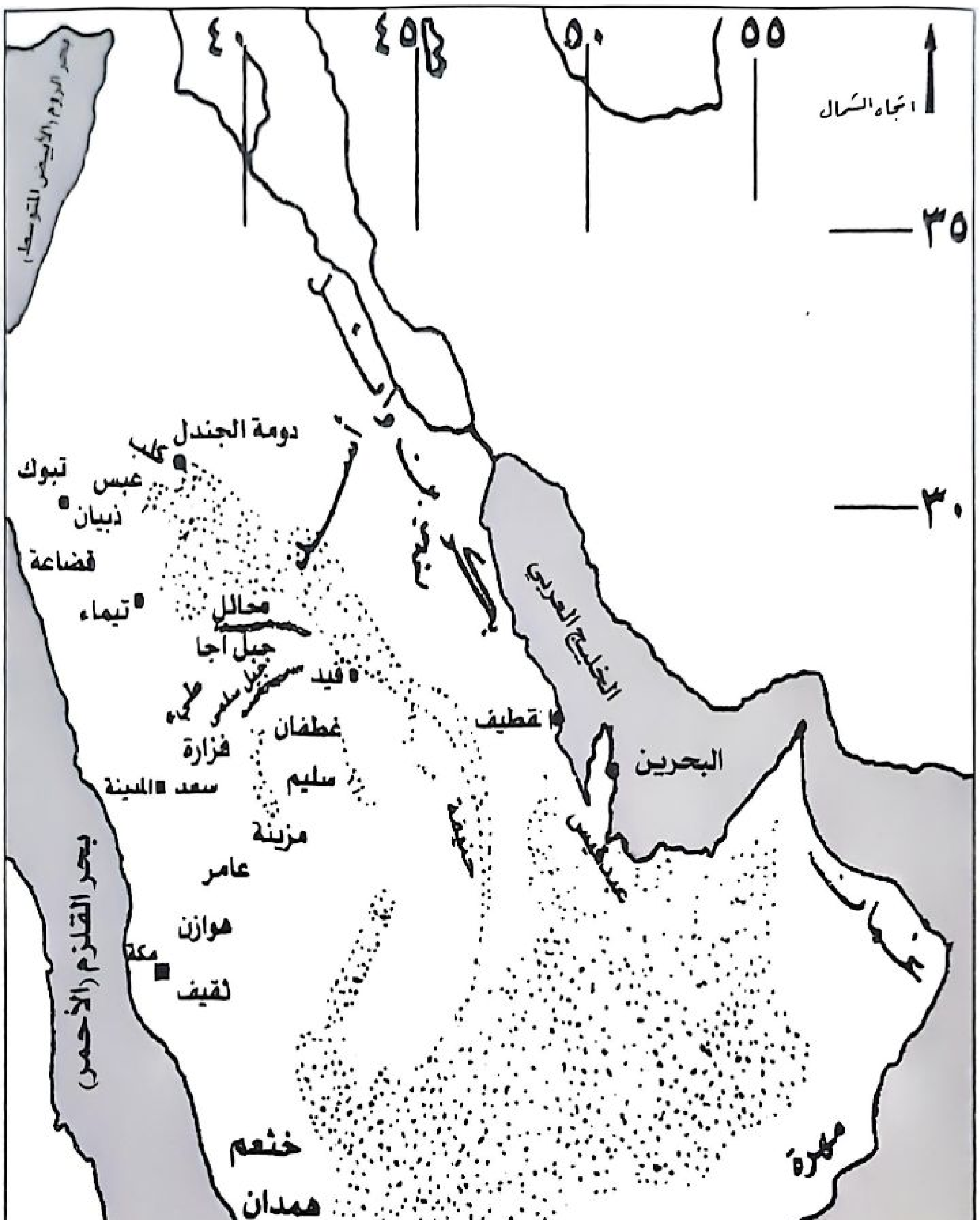
(١) اللكع عند العرب: العبد، ثم استعمل في الحمق والذم.

(٢) ابن هشام: جـ٤ ص١٨٥، ١٨٦.

(٣) المصدر نفسه: جـ٤ ص١٩٤.

(٤) المصدر نفسه.

(٥) المصدر نفسه.



مواطن القبائل في شبه الجزيرة العربية

وتركت لنا قصص الوفود وأخبارها منهجاً نبوياً في تعامله مع الوفود ما يُمكّننا من الاستفادة من هديه ﷺ في تعامله مع النفس البشرية من حيث التربية والدقة والتنظيم؛ إذ أنها تحتوي على كمٍّ هائل من الفقه، والتثقيف، وبُعد النظر، وجمع القلوب على الغاية، وربط الأفراد بالمركز، ما يكسب هذا المنهج صفة الديمومة والصلاح في كل الظروف والأحوال، للعاملين في مختلف علوم المعرفة.

لا حاجة لنا في هذا المقام إلى سرد تفاصيل كل الوفود، وسنكتفي بالتي كان لها تأثير واضح على مجرى الأحداث في أواخر عهد الرسول ﷺ، وبعد وفاته مباشرة.

وفد بنـي تميم

تقع منازل بني تميم على مقربة من بني عامر إلى الجنوب، وتجاور المدينة من الشرق، وتمتد نحو الخليج العربي، وتتصل بمصب نهر الفرات من ناحية الشمال. وكانت فروع من القبيلة تتمتَّع بحقوق الرعي في أنحاء تمتد إلى الفرات الأوسط.

ولبني تميم مكانة كبيرة بين قبائل العرب في الجاهلية وفي عصر النبوة، واشتهر التميميون بالشجاعة والكرم، ونبغ من بينهم شعراء وأبطال تلقَّبوا بلقب الملوك[1].

أدَّى هذا الامتداد الجغرافي للقبيلة إلى:

- تنقُّل بطون تميم بين الجزيرة العربية والعراق، في ميدان واسع يشيع فيه التوتر بين كلا المركزين الكبيرين، بين الحيرة ومكة؛ لكنهم اتخذوا موقف الحياد في علاقاتهم السياسية مع كليهما. ومن الواضح أن العلاقات المنظمة والمنضبطة بين بني تميم كانت تبلغ الأهمية عند أُمراء الحيرة، وبالتالي الفرس من واقع ضمان مرور القوافل التجارية دونما عائق، وعليه كانت العلاقات جيدة بين الفرس وبين البطون التميمية الضاربة على الطريق التجاري الشرقي. ومن جهة أخرى أقامت بطون مختلفة من تميم علاقات مُكثَّفة مع مكة في العصر الجاهلي من خلال عهود الإيلاف والحصول على السلطة، والتقدم في الأسواق، وفي أداء شعائر الحج. وشاركت بعض بطون تميم في الفِرق العسكرية التي كانت تقدمها القبائل لحراسة مكة.
- انتشار النصرانية في ربوع بني تميم بتأثير ما كان سائداً من مذاهب نصرانية في الجزيرة العربية وبلاد الشام.
- تعدُّد الولاءات في صفوف القبيلة سياسياً، بين الاستقلالية وبين الهيمنة الفارسية أو البيزنطية، ودينياً، بين الوثنية والنصرانية.
- ظل المركز الممتاز لبني تميم محفوظاً حتى السنين الأخيرة من العصر

(١) الطبري: جـ٣ ص٢٧٢.

الجاهلي؛ بدليل أن التميمي الأخير الذي ظلَّ يمارس وظيفة القاضي الفخرية في سوق عكاظ هو الأقرع بن حابس.

في ظل هذه الظروف ونتيجة لانتشار الإسلام في ربوع الجزيرة العربية؛ قدم وفد بني تميم إلى المدينة لتقديم الطاعة والولاء وإعلان دخول التميميين في الإسلام، وضمَّ الوفد بعض أشرافهم أمثال: عطارد بن حاجب بن زرارة، والأقرع بن حابس، والزبرقان بن بدر، وقيس بن عاصم، ولم يكن مالك بن نويرة، زعيم يربوع، ضمن أعضاء الوفد، والإشارات التي تذكر أنه توجَّه بمفرده إلى النبي ﷺ لاعتناق الإسلام قد تكون صحيحة؛ لأن النبي ﷺ عيَّنه عاملاً على صدقات عشيرته، وسيكون لهذا الرجل شأن في عهد أبي بكر الصديق من واقع امتناعه عن دفع الزكاة؛ ما أدى إلى محاربته وقتله[(١)].

وصل الوفد التميمي إلى المدينة، ولما دخل أفراده المسجد؛ نادوا رسول الله ﷺ من وراء حجراته «أن اخرج إلينا يا محمَّد»، فآذى ذلك رسول الله ﷺ، وما إن خرج إليهم حتى بادروه بالقول: «جئناك نفاخر، فأْذَنْ لشاعرنا وخطيبنا». فأذن لهم. فقام خطيبهم عطارد يُعدِّد مآثر قومه ويفاخر بها، ولما انتهى؛ كلَّف النبي ﷺ ثابت بن قيس بن الشماس الخزرجي فردَّ عليه. وقام شاعرهم الزبرقان بن بدر ينشد قصيدة بين يدي رسول الله ﷺ، فكلَّف النبي ﷺ حسان بن ثابت فردَّ عليه. وأخيراً أسلم القوم، وجوَّزهم رسول الله ﷺ فأحسن جوائزهم[(٢)]، وفيهم نزل من القرآن: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يُنَادُونَكَ مِن وَرَآءِ ٱلْحُجُرَٰتِ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ ۞ وَلَوْ أَنَّهُمْ صَبَرُوا۟ حَتَّىٰ تَخْرُجَ إِلَيْهِمْ لَكَانَ خَيْرًا لَّهُمْ ۚ وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ [الحجرات/ ٤، ٥].

لقد وصف القرآن الكريم أكثر هؤلاء الأعراب بأنهم لا يعقلون، وكرَّه إليهم النداء على هذه الصفة المنافية للأدب والتوقير اللائق بشخص وحرمة النبي ﷺ، وبيَّن لهم الأَوْلى والأفضل وهو الصبر والانتظار حتى يخرج إليهم، وحبَّب إليهم التوبة ورغَّبهم في المغفرة والرحمة. وقد وعى المسلمون هذا الأدب الرفيع وتجاوزوا شخص النبي ﷺ إلى كل عالم وقائد لا يزعجونه حتى يخرج إليهم.

يؤكد هذا الأسلوب الإعلامي الجديد من الدعوة أن معركة الإسلام ضد أعدائه ليست عسكرية فقط، بل هي معركة سياسية وإعلامية يمكن أن تُحوِّل الأعداء إلى أصدقاء أو محايدين، وهي التي تفتح قلوبهم.

وسيكون لقبيلة تميم شأن في مجرى التاريخ الإسلامي في عهد أبي بكر الصديق، من واقع تنبؤ سجاح التميمية.

---

(١) ابن سعد: جـ١ ص٢٩٣، ٢٩٤. الطبري: جـ٣ ص١١٥.

(٢) ابن هشام: جـ٤ ص٢٠٣، ٢٠٤.

وفد بني حنيفة

لم يكن بنو حنيفة أقل سطوة من سائر قبائل العرب، وقد شغلوا الأراضي بين اليمن ونجد قرب البحرين المعروفة باسم اليمامة. وقدم وفد من بني حنيفة إلى المدينة يضم بضعة عشر رجلاً برئاسة سلمى بن حنظلة، وفيهم مسيلمة[(١)]، والرحَّال بن عنفوة، أحد وجهاء القبيلة، لإجراء مباحثات مع النبي ﷺ وإعلان إسلامهم. ويبدو أنهم أملوا مقابل دخولهم في الإسلام؛ الحصول على موافقة من النبي ﷺ لخلافته، ويُذكر أن قبيلة بني حنيفة تُعدُّ من أضخم القبائل العربية وأوفرهم حظاً بالمنعة والجاه. وقد دفعوا أولاً مسيلمة للوقوف على رأي النبي ﷺ، فاجتمع به منفرداً وطلب منه أن يجعل الأمر له من بعده، فرفض النبي ﷺ، وقال له: (**لو سألتني هذا القضيب** ـ وكان بيده ـ **ما أعطيتكه، وإني لأراك الذي رأيت فيه ما رأيت**)[(٢)]. ثم اجتمع أعضاء الوفد بالنبي ﷺ في المسجد من دون مسيلمة، والواقع أن ذلك كان متعمداً، ولم تذكر المصادر ما دار في هذا الاجتماع، إنما روت خروج أعضاء الوفد وقد اعتنقوا الإسلام، وأعطاهم النبي ﷺ جوائزهم[(٣)]؛ غير أنه استناداً إلى تطور الأحداث بعد ذلك يحملنا على الاعتقاد بأنهم كرَّروا طلب مسيلمة بأن يكون الأمر لهم بعد النبي ﷺ، وأنه ﷺ رفض طلبهم، ولما قرَّروا العودة خاطبوه قائلين: «إنا خلفنا صاحباً لنا في رحالنا يبصرها لنا، وفي ركابنا يحفظها علينا»، وهذا دليل على أن تخلُّف مسيلمة كان متعمداً وفق خطة مبيتة علَّهم ينتزعون من النبي ﷺ وعداً أو ما يُشبه الوعد بتحقيق هدفهم. ولا شك بأن النبي ﷺ أدرك فوراً هدفهم بأن صاحبهم هذا هو مسيلمة، فلم يُميزه وساواه بأصحابه، فقال: (**ليس بشرِّكم مكاناً يحفظ ضيعة أصحابه**). فقيل ذلك لمسيلمة، فقال: «عرف أن الأمر إليَّ من بعده»[(٤)]. فلما عادوا إلى ديارهم ادعى النبوة متخذاً من حديث رسول الله ﷺ مع وفد قومه وإخبارهم أنه ليس بشرِّهم مكاناً؛ دليلاً على دعواه، وهذا تفسير أحادي الجانب يتناقض مع قول النبي ﷺ الصريح بشأن وضعه.

ومهما يكن من أمر، فقد أدرك النبي ﷺ من خلال ما جرى مع وفد بني حنيفة؛ أن هؤلاء القوم سوف يغدرون به ويرتدون عن الإسلام، وأن صاحبهم سيقودهم إلى شر عاقبة يهلكهم بها، فهم وهو في شرٍّ سواء[(٥)].

---

(١) اسمه مسلمة، وصغَّره المسلمون تحقيراً له.

(٢) ابن كثير، الحافظ عماد الدين أبو الفدا: **البداية والنهاية**، جـ٥ ص٥٠.

(٣) ابن سعد: جـ١ ص٣١٦. (٤) الطبري: جـ٣ ص١٣٧، ١٣٨.

(٥) السهيلي: جـ٤ ص٢٢٥. ابن كثير: جـ٥ ص٥٠ ـ ٥٢.

واستغل نهار الرحَّال بن عنفوة وجوده في المدينة، فتعلَّم القرآن وتفقَّه في الدين، ووقف على تعاليم الإسلام. وكان هذا الرجل ذا بصيرة وذكاء، فعيَّنه النبي ﷺ مُعلِّماً لأهل اليمامة يُفقِّههم في الدين، ويردُّ من اتبع منهم مسيلمة، ويشغب معهم عليه، ويشدُّ من عزائم المسلمين.

لكن نهاراً كان أعظم فتنة على بني حنيفة من مسيلمة، وما كان تفقهه إلا رياء، فهو لم يلبث أن انضم إلى مسيلمة وأقرَّ بنبوَّته، وشهد بأن محمَّداً ﷺ أشركه معه في الرسالة، فالتفَّ بنو حنيفة حوله. ومن جهته وضع مسيلمة كل ثقته بنهار يستشيره في كل أمر يُقلِّد فيه محمَّداً ﷺ[1].

وفد بني أسد

كانت منازل بني أسد في نجد، وتقع إلى الشرق من ديار طيء، وإلى الجنوب من منازل بكر، وإلى الشمال من ديار هوازن وغطفان، وتتاخم قبائل عبد القيس وتميم من الغرب. وبحكم هذا التجاور؛ تحالفت هذه القبائل أو تخاصمت وفقاً لتطور أوضاعها والظروف المحيطة بها.

قدم وفد بني أسد إلى المدينة لمبايعة النبي ﷺ، والدخول في الإسلام، وقد تألف من عشرة أشخاص منهم ضرار بن الأزور، ووابصة بن معبد، وطليحة بن خويلد وغيرهم. ويبدو أنهم كانوا في حال عداء مع جيرانهم بني طيء، ففصل النبي ﷺ في هذا النزاع، وكتب لهم كتاباً؛ كتبه له خالد بن سعيد، ورد فيه: (**ألا يقربنَّ مياه طيء وأرضهم، فإنه لا تحل لهم مياههم، ولا يلجنَّ أرضهم إلا من أوْلجوا وذمة محمَّد بريئة ممن عصاه، وليقم قضاعي بن عمرو**)[2]؛ أي: أنه عيَّن عليهم قضاعي هذا وهو من بني عذرة، وجعله عاملاً عليهم. كما كتب ﷺ إلى حصين بن نضلة الأسدي (**أن له أراماً وكسَّة لا يحاقُّه فيها أحد**)[3]؛ أي: أن له أصلاً وشرفاً لا ينازعه فيهما أحد.

وكانت أسد وغطفان وطيء قد تحالفت في الجاهلية قبل البعثة النبوية، ثم حدث خلاف بينهم، فخرجت طيء من الحلف، فأجلاها بنو أسد وغطفان عن ديارها، فانقطع بذلك ما بينها وبينهما، وهذا الذي دفع النبي ﷺ إلى إصلاح ذات البين، ومنع أسداً من التعدي على مياه طيء وأرضهم، ثم حصل تباعد بين الحليفين أسد وغطفان. ولما ادعى طليحة النبوة، وظهر أمره بعد وفاة النبي ﷺ؛ ساندته غطفان

---

(١) الطبري: جـ٣ ص٢٨٢ ـ ٢٨٧. (٢) ابن سعد: جـ١ ص٢٦٩، ٢٧٠، ٢٩٢.
(٣) المصدر نفسه: ص٢٧٤.

لأنها كانت على عداء مع قريش، وقال عيينة بن حصن الفزاري: «ما أعرف حدود غطفان منذ انقطع ما بيننا وبين بني أسد، وإني لمجدد الحلف الذي كان بيننا في القديم، ومتابع طليحة، والله لأن أتبع نبياً من الحليفين أحب إلينا من أن نتبع قريشاً، وقد مات محمد وطليحة حي»(١).

وفد نجران

كتب رسول الله ﷺ إلى نجران(٢) كتاباً، قال فيه: (**أما بعد، فإني أدعوكم إلى عبادة الله من عبادة العباد، وأدعوكم إلى ولاية الله من ولاية العباد، فإن أبيتم فالجزية، فإن أبيتم آذنتكم بحرب، والسلام**)(٣).

وعندما تسلَّم الأسقف الكتاب؛ جمع الناس وقرأه عليهم وسألهم عن الرأي فيه، فقرَّروا أن يرسلوا إليه وفداً يتكوَّن من أربعة عشر من أشرافهم، وفي رواية: ستين راكباً، منهم ثلاثة نفر يؤول إليهم أمرهم، وهم: العاقب، وهو أميرهم وصاحب مشورتهم، وينقادون لأمره، والسيد، وهو صاحب رحلتهم، وأبو الحارث، وهو أسقفهم وحبرهم وصاحب مدارسهم. فقدموا على النبي ﷺ، فدخلوا المسجد وعليهم ثياب الحِبَرة، وأردية مكفوفة بالحرير، وفي أيديهم خواتيم الذهب، فقاموا يصلُّون في المسجد نحو المشرق، فقال رسول الله ﷺ: (**دعوهم**). ثم أتوا النبي ﷺ فأعرض عنهم، ولم يكلِّمهم، فقال لهم عثمان: من أجل زيِّكم هذا. فانصرفوا يومهم هذا ثم غدوا عليه بزي الرهبان، فسلَّموا عليه فردَّ عليهم ودعاهم إلى الإسلام، فأبوا وقالوا: «كنا مسلمين قبلكم». فقال النبي ﷺ: (**يمنعكم من الإسلام ثلاث: عبادتكم الصليب، وأكلكم لحم الخنزير، وزعمكم أن لله ولداً**). وكثر الجدال بينه وبينهم، والرسول ﷺ يتلو عليهم القرآن، ويقارعهم بالحجة. وكان مما قالوا له: «ما تقول في عيسى عليه السلام؟ فإنا نرجع إلى قومنا ونحن نصارى، فيسرُّنا إن كنت نبياً أن نعلم ما تقول فيه؟». فقال رسول الله ﷺ: (**ما عندي فيه شيء يومي هذا، فأقيموا حتى أخبركم بما يقال في عيسى عليه السلام**). فأصبح الغد وقد أنزل الله عز وجل: ﴿إِنَّ مَثَلَ عِيسَىٰ عِندَ ٱللَّهِ كَمَثَلِ ءَادَمَ خَلَقَهُۥ مِن تُرَابٍ ثُمَّ قَالَ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ ۞ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّكَ فَلَا تَكُن مِّنَ ٱلْمُمْتَرِينَ ۞ فَمَنْ حَآجَّكَ فِيهِ مِنۢ بَعْدِ مَا جَآءَكَ مِنَ ٱلْعِلْمِ فَقُلْ تَعَالَوْا۟ نَدْعُ أَبْنَآءَنَا وَأَبْنَآءَكُمْ وَنِسَآءَنَا وَنِسَآءَكُمْ وَأَنفُسَنَا وَأَنفُسَكُمْ ثُمَّ نَبْتَهِلْ فَنَجْعَل لَّعْنَتَ ٱللَّهِ عَلَى ٱلْكَٰذِبِينَ﴾ [آل عمران/ ٥٩ ـ ٦١].

---

(١) الطبري: جـ٣ ص٢٥٧.

(٢) نجران: بلد كبير على سبع مراحل من مكة إلى جهة اليمن.

(٣) ابن قيم الجوزية: جـ٤ ص٢٧.

فكانت حجة دامغة شبَّه فيها الغريب بما هو أغرب، فلما لم تُجْدِ معهم المعاملة بالحكمة والموعظة الحسنة؛ دعاهم إلى المباهلة. وخرج النبي ﷺ ومعه علي والحسن والحسين وفاطمة، لكن القوم خافوا الهلاك لعلمهم أنه نبي حقاً، وأنه ما باهل قوم نبياً إلا هلكوا، فأبوا أن يلاعنوه وقالوا له: «لا نباهلك، فاحكم علينا بما أحببت نعطيك ونصالحك». فصالحهم على ألفي حلة؛ ألف في رجب، وألف في صفر، وعلى عارية ثلاثين درعاً، وثلاثين رمحاً، وثلاثين بعيراً، وثلاثين فرساً[1].

وعندما عزموا على العودة إلى بلادهم؛ طلبوا من الرسول ﷺ أن يبعث معهم رجلاً أميناً ليقبض منهم مال الصلح، فبعث معهم أبا عبيدة بن الجراح[2].

الأحكام الفقهية في قصة أهل نجران

تتضمن قصة أهل نجران بعض الأحكام الفقهية، نذكر منها[3]:

- جواز دخول أهل الكتاب مساجد المسلمين.
- السماح لأهل الكتاب بالصلاة بوجود المسلمين وفي مساجدهم أيضاً إذا كان ذلك عارضاً، ولا يُمكَّنون من اعتياد ذلك.
- إن إقرار الكاهن الكتابي لرسول الله ﷺ بأنه نبي، لا يُدخله في الإسلام ما لم يلتزم طاعته ومتابعته، فإذا تمسَّك بدينه بعد هذا الإقرار لا يُعدُّ ذلك رِدَّة فيه.
- جواز مجادلة أهل الكتاب ومناظرتهم، بل يُستحب ذلك، وواجب إذا كان ذلك يؤدي إلى دفعهم إلى اعتناق الإسلام.
- جواز إهانة رسل الكفار، وترك كلامهم إذا ظهر منهم التعاظم والتكبر، فإن رسول الله ﷺ لم يكلم الرسل، ولم يردَّ السلام عليهم حتى لبسوا ثياب سفرهم، وألقوا حللهم وحلاهم.
- إن السنة في مجادلة أهل الباطل إذا قامت عليهم الحجة ولم يرجعوا، بل أصروا على العناد، أن يدعوهم إلى المباهلة، وقد أمر الله سبحانه بذلك ورسوله.
- جواز صلح أهل الكتاب على ما يريد الإمام من الأموال ومن الثياب وغيرها، ويجري ذلك مجرى الجزية عليهم جميعاً يقتسمونها كما شاؤوا.

---

(١) ابن سعد: جـ١ ص٣٥٧، ٣٥٨.

(٢) **صحيح البخاري**، كتاب فضائل الصحابة، باب مناقب أبي عبيدة بن الجراح، رقم الحديث (٣٧٤٥)، ص٦٨٢.

(٣) ابن قيم الجوزية: جـ٤ ص٣٢ ـ ٣٦.

ـ جواز ثبوت الحلل في الذمة بعقد السلم وبالضمان وبالتلف، كما تثبت فيها بعقد الصداق والخلع.

ـ إنَّ بعث الإمام الرجل العالم إلى أهل الهدنة يصب في مصلحة الإسلام، وأنه ينبغي أن يكون أميناً.

تفشي ظاهرة التنبؤ في أواخر عهد النبي ﷺ

إن إحدى المهمات الكبيرة التي واجهت النبي ﷺ في السنتين الأخيرتين من حياته، كانت ضرورة محاربة المتنبِّئين، الذين أخذوا بالظهور في أنحاء متفرقة من الجزيرة العربية، بحزم شديد وحكمة بالغة.

وتستوقفنا في هذا المقام بعض الوقائع التي أدَّت إلى هذه الظاهرة، نذكر منها ما يلي:

ـ إن المناطق التي انطلق منها المتنبئون كانت أكثر مناطق الجزيرة العربية تحضراً، وأضخمها ثروة، كما كانت مجاورة لأراضي الفرس أو كان للفرس فيها نفوذ.

ـ اعتمد المتنبئون على الناحية العصبية، وبخاصة ما كان بين اليمنية والمضرية من عداوة راسخة الجذور، بالإضافة إلى التنافس بين ربيعة ومضر. وإذا تعمَّقنا في صميم هذه الظاهرة، نلمس شواهد واضحة على أثر العصبية القبلية. ويرتبط بالعصبية القبلية ما ينتج عنها من تحاسد وتنافس بين القبائل العربية والتسابق على ادِّعاء النبوة؛ إذ أن النجاح الذي حقَّقه الرسول ﷺ في حياته، والمكانة المرموقة التي وصلت إليها قريش في الجزيرة العربية؛ غدت مثار حسد القبائل العربية كافة، ولم تلبث أن أضحت سيرة النبي ﷺ مثلاً يُحتذى لتحقيق نوع من الأهمية والزعامة في مجتمع يُمجد الأبطال. والواضح أن كثيراً من الأفراد في المجتمع العربي كانوا طلاب زعامة ورئاسة، فأرادوا الاقتداء بالنبيِّ ﷺ لتحقيق تطلعاتهم، فحاولوا التشبه به في ما أُوحي إليه من القرآن الكريم، فأتوا بعبارات مسجوعة مُفكَّكة المعاني، ركيكة المضمون، لا روح فيها، تتصف معانيها بالسذاجة وسجعها بالتكلف.

ـ تفجَّرت ظاهرة التنبؤ في بلاد، وعلى أيدي أفراد عرفوا النصرانية أو اشتهروا بالكهانة. لقد ساد الجزيرة العربية آنذاك، باستثناء الحجاز، اضطراب ديني بفعل عدم استقرار العقيدة في النفوس، فالنصرانية واليهودية والمجوسية والوثنية؛ تجاورت كلها في ظل نقاش جدلي في أيِّ منها تُحقِّق السعادة لأتباعها، ما مهَّد الطريق أمام المتنبئين للظهور واستقطاب الناس بكلام مُنمَّق، وبمظاهر يتخذونها آيات صدقهم، واستطاعوا بهذه الوسيلة أن يُحقِّقوا نجاحاً مبدئياً.

ـ اعتمد المتنبئون على العامل الإقليمي، فقد استغل الأسود العنسي استياء اليمنيين من الفرس، ونفورهم من الحجازيين.

ـ تشكل ظاهرة التنبؤ إحدى الانعكاسات التي أحدثها فتح مكة وانتشار الإسلام في أجزاء واسعة في الجزيرة العربية، وتوسيع نفوذ الحكومة المركزية في المدينة؛ ذلك أن هذا التطور الإسلامي أثار عمليات مشابهة، متوازية ومتزامنة في أنحاء متفرقة، فبدأت تنشأ تحالفات قبلية واسعة يتزعمها أُناس يدَّعون النبوة اقتداء بالنجاح الذي حقَّقه النبي ﷺ، أدَّى فيها التطور الإسلامي دور الباعث والمحرك.

تصدِّي رسول الله ﷺ للمتنبئين

عيهلة بن كعب: الأسود العنسي

ظهر المتنبِّيء الأول ودعا إلى نفسه في قبيلة مذحج في اليمن، في عام (١٠هـ/ ٦٣١م)، وهو ذو الخمار عيهلة بن كعب، المعروف بالأسود العنسي من قبيلة عنس[١]. والواضح أن اليمن لم يكن موحداً سياسياً عند ظهور الإسلام، ولم تكن فيه سلطة مركزية يتعامل معها النبي ﷺ، بدليل كتبه التي أرسلها إلى أفراد وجماعات عدة ذكرتها المصادر، وتعدُّد الوفود التي قدمت إلى المدينة لإعلان اعتناق الإسلام[٢].

وكان للفرس نفوذ واسع في حكم اليمن، وهم من بقايا التطورات الأخيرة التي مرَّت بها هذه البلاد، ولكنهم لم يُشكِّلوا سلطة مركزية، وإنما تمركزوا في صنعاء[٣] وفي بعض مناطق اليمن ذات النشاط الاقتصادي، كعدن[٤] وذمار[٥]، في حين كان لسادات القبائل من حضر وبدو سلطاتهم المحلية، وقد شاء بعضهم أن يظهر بمظهر الملوك المتفردين بالحكم والسلطان والجاه، فلقَّبوا أنفسهم بلقب ملك أمثال سادات حِمْير، ولم تكن العلاقات القبلية جيدة، وظهرت القبائل البدوية من خلال الأحداث كقوة مؤثرة، وكانت تضغط على اليمن من أطرافه.

ومن أبرز الكتل التي شكَّلها الأعراب في اليمن هي الكتلة التي نشأت عن تحالف القبائل المنتسبة إلى مذحج مثل زبيد، والحارث بن كعب، وبني عبد الودان،

---

(١) البلاذري: **فتوح البلدان**، ص١١٣. الطبري: جـ٣ ص١٤٧ ـ ١٨٥.

(٢) الطبري: المصدر نفسه، ص١١٥ ـ ١٢٥، ١٣٠ ـ ١٤٦.

(٣) **صنعاء**: قصبة اليمن وأحسن بلادها. الحموي: جـ٣ ص١٢٦.

(٤) **عدن**: مدينة مشهورة على ساحل بحر الهند من ناحية اليمن. المصدر نفسه: جـ٤ ص٨٩.

(٥) **ذمار**: اسم قرية باليمن على مرحلتين من صنعاء. المصدر نفسه: ج٣ ص٧.

وخولان، واجتمعوا في مذاب بالجوف[1].

واحتفظ الجيل الجديد من الفرس الذي ظهر في اليمن نتيجة تزاوج الجنود الفرس باليمانيات، وهو الجيل الذي عُرف بالأبناء؛ بنفوذ كبير، ويبدو أن التغييرات الإدارية المستجدَّة في الجزيرة العربية بعامة، واليمن بخاصة، لم تُصب كثيراً الطبقة الإدارية وعمادها الأبناء، فظلَّت في مواقعها كطبقة متفوقة، يستعين بها أهل اليمن.

اصطدمت قوى التحالف بالسلطة الفارسية في مأرب[2]، والجوف ونجران، واشتد تهديدها للسيطرة الفارسية في عهد باذان، العامل الفارسي، وظهرت تكتلات معادية للفرس تمثَّلت بغارات قبائل تميم على طريق التجارة الشرقي في منطقة اليمامة، يُضاف إلى ذلك، ازدياد قوة الأذواد، سادات القبائل الحميريين، ونفوذهم.

حدث ذلك في الوقت الذي كان فيه سكان القرى اليمنية يُعانون من كثرة الضرائب، واستغلال طبقة المرابين الذين كانوا يشترون المحاصيل قبل نضجها بأسعار متدنية، فاستاؤوا من هذا الوضع الاقتصادي السيء، ومن المحتمل أن بعض القوى استغلَّت وضعهم هذا ووجَّهتهم ضد السيطرة الفارسية. وتحرك الفرس في اليمن للحفاظ على مكتسباتهم، فتحالفوا مع همدان المعادية لحِمْير.

وطرأ في هذه الأثناء تطور آخر على أوضاع اليمن، تمثَّل بامتداد الدولة الإسلامية باتجاه الجنوب بعد فتح مكَّة في عام (٨هـ/ ٦٣٠م)، فجاورت اليمن، وبدأ عُمَّال النبي ﷺ يصلون إلى اليمن يبشرون بالدين الجديد، كما أن وفوداً من أهل اليمن بدأت تتوجَّه نحو المدينة لتعلن دخولها في الإسلام لتعود ومعها عُمال النبي ﷺ[3].

كان لهذا التطور الإسلامي تأثير على أوضاع اليمن السياسية والدينية، ذلك أن باذان اعتنق الإسلام بعد حادثة مقتل الامبراطور الفارسي كسرى الثاني أبرويز على يد ابنه قباذ الثاني شيرويه، وتسلَّم هذا الأخير الحكم، وبخاصة أن باذان علم بهذه الأحداث عن طريق النبي ﷺ قبل أن تصل إليه من فارس، فاتجه إلى الاستفادة من الطرف الإسلامي في مقاومة قوى التحالف، واستمر في منصبه كحاكم للنبيِّ ﷺ على اليمن، بعد أن كان عاملاً للفرس عليها[4].

وعيَّن النبي ﷺ بعد وفاة باذان ابنه شهريار والياً على صنعاء وما والاها، كما

---

(١) **الجوف**: من أرض مراد في سبأ، كما أن الجوف أرض بعُمان. الحموي: جـ٢ ص١٨٧، ١٨٨.

(٢) **مأرب**: بلاد الأزد باليمن. المصدر نفسه: جـ٥ ص٣٤.

(٣) الطبري: جـ٣ ص١٤٧.

(٤) الطبري: جـ٢ ص٦٥٥، ٦٥٦. جـ٣ ص٢٢٧.

عيَّن ولاة من أهل اليمن وآخرين من أصحابه على الأقاليم اليمنية المختلفة. ويبدو أن الوجود الإسلامي، وجمع الزكاة واجها معارضة من قبل بعض زعماء القبائل، وأشارت الروايات إلى وجود تحرك معارض في منطقة حِمْير، وأن معاذاً بن جبل قاتلهم وانتصر عليهم.

القضاء على الأسود العنسي: في الوقت الذي كان فيه العمال المسلمون يُنظمون شؤون ولاياتهم، ويجمعون الصدقات؛ جاءتهم كتب الأسود العنسي ينذرهم فيها أن يردُّوا ما بأيديهم، فهو أوْلى به[1]، وأعلن حركته الانفصالية، وكانت تلك أول مظاهر فتنته، ومعنى هذا أن الحركات الانفصالية انطلقت من بلاد اليمن، وأن خروج الأسود العنسي يُمثل الشرارة الأولى لتلك الحركات.

تتضمن كتب الأسود العنسي اتجاهين:

الأول: سياسي إقليمي «أيها المتوردون علينا». فعدَّ عمال النبي ﷺ دخلاء على اليمن، وكان معاذ بن جبل عامل النبي ﷺ على اليمن قد نفَّذ سياسة تخدم السلطة المركزية التي كان النبي ﷺ قد حدَّد قواعدها في المدينة، ويبدو أنها كانت تتعارض مع النزعات الاستقلالية التي تتحكم بأهل اليمن.

الثاني: اقتصادي «أمسكوا علينا ما أخذتم من أرضنا ووفروا ما جمعتم، فنحن أولى به»؛ ذلك أن النبي ﷺ حدَّد السياسة الاقتصادية الإسلامية العامة في اليمن من خلال المباحثات التي أجراها مع ملوك حِمْير[2]. ويبدو أن هذه السياسة الاقتصادية ضايقت بعض الفئات اليمنية، وبخاصة الأعراب، الذين شعروا بعدم قدرتهم على تحملها؛ ولذلك تكتَّلوا وراء الأسود العنسي.

كان الأسود العنسي كاهناً، مشعوذاً، قوي الشخصية، يُقيم في جنوبي اليمن في كهف خبان من بلاد مِذحج، يُري الناس الأعاجيب بفنون من الحيل، ويستهوي الناس بعباراته، فتنبَّأ ولقَّب نفسه «رحمان اليمامة»[3]، وكان يزعم أن سحيقاً وشقيقاً

---

(١) الطبري: جـ٣ ص٢٢٩.

(٢) على المسلمين أن يؤتوا الزكاة، ويُعطوا خمس الله من المغانم وسهم نبيه وصفيِّه. وما كُتب على المؤمنين من الصدقة في العقار عُشر ما سقت العين وما سقت السماء، وكل ما سُقي بالغَرْب (الدلو) نصف العشر، وفي الأربعين من الإبل ابنة لبون، وفي ثلاثين من الإبل ابن لبون ذكر، وفي كل خمس من الإبل شاة، وفي كل عشر من الإبل شاتان، وفي كل أربعين من البقر بقرة، وفي كل ثلاثين من البقر تبيع جذع أو جذعة، وفي كل أربعين من الغنم سائمة وحدها شاة، وأنها فريضة الله التي فرضها على المؤمنين في الصدقة. الطبري: جـ٣ ص١٢١.

(٣) البلاذري: ص١١٣.

ملكان يأتيانه بالوحي، ولم يُنكر نبوة محمد ﷺ[١].

حظيت حركة الأسود العنسي بتأييد واسع بفعل أنها نحت اتجاهاً قومياً بتصدّيها للنفوذ الفارسي وللمسلمين الذين ليسوا من أصول يمنية، وذلك بعد انتشار الإسلام في ربوع اليمن، واستمدَّت قوتها من الحلف القديم بين مِذحج وبعض قبائل خولان والأزد، وانضمَّ إليها بعض المقاتلين من حِمْير، وأيدتها نجران.

هاجم الأسود العنسي، بعد أن وثق من قوته، مدينة نجران واستولى عليها، وطرد منها عمرو بن حزم عامل المسلمين عليها، وانضمَّ إليه أهل نجران، ثم سار إلى صنعاء، واصطدم فيها بشهر بن باذان، وانتصر عليه وقتله واستولى على المدينة، وفرَّ المسلمون منها ومن بينهم معاذ بن جبل[٢].

وأخذ الأسود العنسي يدعو إلى نفسه بعد هذه الانتصارات، وسرعان ما قوي أمره، واشتدَّ ساعده بمن التفَّ حوله من الأتباع، وسيطر على منطقة واسعة تمتد من حضرموت جنوباً حتى حدود الطائف بما فيها أراضي قبيلة عك في تهامة غربي الحجاز، ومن الشواطىء اليمنية على البحر الأحمر غرباً حتى الخليج العربي شرقاً. وكانت جميع المدن الكبيرة في هذه المنطقة، كعدن وصنعاء وغيرهما، واقعة تحت حكمه، ثم أخذ يُعيِّن الولاة ليحكموا باسمه، ويُسمِّي قادة فرقه العسكرية، فعيَّن قيساً بن هبيرة المرادي قائداً لعسكره، وفيروز وداذويه الفارسيين وزيرين، وتزوَّج من امرأة شهر بن باذان[٣].

ويبدو أن معارضي الوجود الإسلامي من مختلف القبائل أيَّدوا حركته ورأوا فيه ممثلاً لمصالحهم، ومع ذلك فقد واجه معارضة تمثَّلت في الجماعات المسلمة من مِذحج وقد التجأت مع فروة بن مسيك المرادي إلى الأحسية[٤]. أما في منطقة حِمير، فقد كان لجهود ذي الكلاع وآل ذي لعوة الهمدانيين؛ دورٌ بارز في الاحتفاظ بالنفوذ الإسلامي، وقد وقفوا ضد عك بتهامة.

ظل الأسود العنسي مدَّعياً النبوة مدة ثلاثة أو أربعة أشهر ارتكب خلالها الموبقات والحماقات، وفضح النساء، وأنزل الرعب والخوف في قلوب اليمنيين،

---

(١) البلخي، أبو زيد أحمد بن سهل: **كتاب البدء والتاريخ**، جـ٢ ص١٩٢.

(٢) الطبري: جـ٣ ص٢٢٩، ٢٣٠.

(٣) المصدر نفسه: ص٢٣٠. لم ترد إشارة إلى أن فيروز وداذويه قد اعتنقا الإسلام في هذه المرحلة، كما ظل كثير من الأبناء على ديانتهم المجوسية، وأن استعانة عيهلة بهما حتَّمها واقع الظروف السياسية والإدارية.

(٤) **الأحسية**: موضع باليمن.

وبخاصة الأبناء[1].

لم يركن النبي ﷺ إلى الهدوء، وهو يرى جهوده الرامية إلى نشر الإسلام في اليمن وتوحيد قبائله تتعرَّض للنكسة، وكان يتجهَّز لغزو البيزنطيين للانتقام من هزيمة مؤتة، فواجه حركة الأسود العنسي بالحزم، ولم يشغله ما كان فيه من الوجع عن أمر الله والدفاع عن دينه، فاتخذ تدابير عدة من أجل ذلك، منها[2]:

- أرسل الرسل إلى اليمن يأمر اليمنيين بالقضاء على الأسود العنسي، ويستنهضهم للمواجهة الذاتية معه. ومعنى هذا أنه لم يُرسل جيوشاً من المدينة للقضاء عليه، وإنما اعتمد على القوى المحلية.

أرسل إلى عماله في تلك الجهات يحثُّهم على الاستعانة بالثابتين على الإسلام، والصمود أمام المنشقين، والقضاء على رؤوس الفتنة.

- كتب إلى زعماء اليمن أمثال ذي الكلاع الحِميري، وذي عمرو، وذي ظليم، مع جرير بن عبد الله البجلي، وأرسل الأقرع بن عبد الله الحِمْيري إلى ذي زود وذي مران، فاستجاب هؤلاء لدعوته وأعلنوا ثباتهم على الإسلام.

- كتب إلى أهل نجران وإلى عربهم وساكني الأرض من غير العرب ـ الأبناء ـ فانضمَّ جماعة منهم إلى دعوته.

- أرسل الحارث بن عبد الله الجهني إلى اليمن بمهمة تتعلَّق بأحداثه.

لكن هذه التدابير لم تُثمر في وضع حد لانتفاضة الأسود العنسي، ولا تعطي المصادر صورة واضحة عن جهودهم ومحاولاتهم للقضاء عليه، وكان آخر من أرسله النبي ﷺ هو وبر بن يُحنِّس الأزدي ومعه كتاب إلى المسلمين في اليمن يأمرهم فيه بالقيام على دينهم والنهوض في الحرب والقضاء على الأسود العنسي؛ إما غيلة أو مصادمة، وأن يستعينوا على ذلك بمن يرون عنده نجدة وديناً[3]. واكتفى من أمر اليمن بهذا، ووجَّه معظم اهتمامه لتنظيم جيش أسامة بن زيد وإرساله إلى بلاد الشام.

الواقع أن الخطر الذي عسف بالأسود العنسي جاء من الداخل، فقد تعاون وبر بن يُحنِّس مع مستشاريه من الأبناء الذين رأى فيهم الأسود العنسي أعداء له ويأتمرون لقتله، وبخاصة فيروز وداذويه، ومع المقربين منه وبخاصة قيس بن هبيرة قائد جيشه، الذي استخفَّ به الأسود العنسي، فنفر منه قيس.

وحاك هؤلاء المؤامرة التي أودت بحياته بالاستعانة بامرأته أذاد، وكانت تحقد

---

(1) البلاذري: ص١١٤. الطبري: جـ٣ ص٢٣٩، ٢٤٠.

(2) الطبري: المصدر نفسه، ص١٨٧. (3) المصدر نفسه: جـ٣ ص٢٣١.

عليه لقتله زوجها شهر، فقتله فيروز، واحتز قيس رأسه وألقاه في باحة القصر. وقد تمت عملية القتل قبل وفاة الرسول ﷺ بيوم أو بليلة، وورد الخبر من السماء، فأعلم أصحابه بذلك وقال: (**قُتل العنسي، قتله رجل مبارك من أهل بيت مباركين**). ولما سألوه عن اسمه أجاب: (**فيروز، فاز فيروز**). لكن الرسل الذين حملوا الخبر وصلوا إلى المدينة في (ربيع الأول ١١هـ/ حزيران ٦٣٢م) بعد أن توفي رسول الله ﷺ، وفي خلافة أبي بكر الصديق[١].

مسيلمة بن حبيب الحنفي: مسيلمة الكذاب

لم يكن الأسود العنسي الوحيد الذي ادَّعى النبوة، فقد تكرَّر مثل هذا الادعاء في اليمامة، بين اليمن ونجد قرب البحرين، في قبائل بني حنيفة على يد مسيلمة بن ثمامة بن كثير بن حبيب، وذلك في السنة العاشرة للهجرة، وقد عُدَّ من أشهر المتنبِّئين وأخطرهم، وكانت اليمامة تشبه المدينة في تركيبتها إلى حد بعيد.

كان مسيلمة قبل ادعائه النبوة يتجوَّل في الطرقات، ويطوف في الأسواق التي كانت بين دور العجم والعرب، مثل: الأبلة[٢]، وبقة[٣]، والأنبار[٤]، والحيرة؛ يلتمس تعلُّم الحيل والنيرنجات واحتيالات أصحاب الرقى والنجوم، ويتابع أخبار المتنبئين[٥].

ويبدو أنه كان على قدر من قوة البيان والشخصية، على عكس ما تصفه المصادر بأنه كان «رويجلاً، أُصيفر، أُخينس»[٦]؛ إذ ترك تأثيراً ملموساً في أوساط بني حنيفة والقبائل المجاورة. اشتهر بالخلابة والقدرة على استهواء النفوس من الرجال والنساء، وخليق بهذا أن يُظن به السحر، وتُنتظر منه الخوارق بين الجهلاء لأنهم يرون سلطانه ولا يعلمون مأتاه، فيخيل إليهم أنه سر من الغيب أو معونة من الجِنَّة والشياطين، وهو على هذا كان يُعين حيلته بما استطاع من صناعة الشعوذة والألاعيب التي كان يحذقها بعض الكهان في بلاد العرب والعجم، ولم يكن في

---

(١) الطبري: جـ٣ ص١٨٧، ٢٣٦.

(٢) **الأبلة**: بلدة على شاطىء دجلة البصرة العظمى في زاوية الخليج الذي يدخل إلى مدينة البصرة، وهي أقدم من البصرة. الحموي: جـ١ ص٧٧.

(٣) **بقة**: اسم موضع قريب من الحيرة. المصدر نفسه: ص٤٧٣.

(٤) **الأنبار**: مدينة على الفرات غربي بغداد بينهما عشرة فراسخ، وكانت الفرس تُسمِّيها فيروز سابور. المصدر نفسه: ص٢٥٧.

(٥) الجاحظ: أبو عثمان عمرو بن بحر: **كتاب الحيوان**: جـ٤ ص٣٦٩، ٣٧٠.

(٦) الطبري: جـ٣ ص٢٩٥. البلخي: جـ٢ ص١٩٧.

طبيعته بمعزل عن طبائع السحرة وأدعياء الغيب[1]، وتسمَّى بالرحمٰن، فقيل له: رحمٰن اليمامة[2].

وبعد أن عاد مسيلمة إلى قومه من رحلته إلى المدينة مع وفد بني حنيفة، أظهر دعوته وكتب إلى النبي ﷺ كتاباً يدَّعي فيه مشاركته في الرسالة، ويساومه في اقتسام الملك والسيادة في جزيرة العرب، فقال: «من مسيلمة رسول الله إلى محمد رسول الله، سلام عليك فإني قد أُشركت في الأمر معك، وإن لنا نصف الأرض، ولقريش نصف الأرض، ولكن قريشاً يعتدون»[3].

وأبى النبي ﷺ أن يترك الفرصة لمثل هؤلاء الكذابين للتشكيك في أمر الدين، فكتب إليه: (**بسم الله الرحمٰن الرحيم، من محمد رسول الله إلى مسيلمة الكذاب. سلام على من اتبع الهدى، أما بعد، فإن الأرض لله يورثها من يشاء من عباده والعاقبة للمتقين**)[4].

واتخذ مسيلمة حرماً باليمامة، فأخذ الناس به، فكان محرماً، ونظَّم كلاماً مضاهاة للقرآن، وقصده الناس ليسمعوا منه بعد أن اشتهر أمره، وتمكَّن من التأثير في بعضهم، وكان ممن قصده المتشمس بن معاوية، عم الأحنف بن قيس، فلما خرج من عنده قال عنه إنه كذاب، وقال عنه الأحنف بن قيس أيضاً وكان قد رآه: ما هو بنبي صادق، ولا بمتنبىء حاذق[5].

عُرف مسيلمة بين أتباعه برسول الله، وكانوا يتعصبون له، ويُؤمنون بدعوته إيماناً شديداً. وكانت المنافسة بين قبائل مضر وربيعة على أشدها، والأخيرة تتعصَّب لنسبها وتأنف أن تعلوها قريش بفضل النبوة والرئاسة.

والراجح أن مسيلمة كان يسعى إلى استعادة مركز قبيلته، بني حنيفة، التي كانت تضارع قريشاً في الجاهلية، ويطمع في أن تكون لها السيطرة على جزء من بلاد العرب، وأنكر أهل اليمامة أن يكون النبي محمد ﷺ رسول الله إليهم، وكانوا يرون لأنفسهم ما لقريش من حق، فلهم نبيٌّ ورسول، ولقريش نبي ورسول، فلجأ إلى ادعاء النبوة كذباً ليتمكَّن من تحقيق أغراضه وتطلعات قبيلته، فحرَّكته سياسة عصبية اتخذت من الدين قناعاً زائفاً، وتوفي رسول الله ﷺ قبل أن يقضي عليه، وعلى حركته.

---

(١) العقاد، عباس محمود: عبقرية خالد، ص٩٧.
(٢) البلخي: جـ٢ ص١٩٥، ١٩٦. (٣) الطبري: جـ٣ ص١٤٦.
(٤) البلخي: جـ٢ ص١٩٦.
(٥) الطبري: جـ٣ ص٢٨٣. الجاحظ: جـ٥ ص٥٣٠.

طليحة بن خويلد الأسدي

كان طليحة أحد كهنة بني أسد، وقد ادعى النبوة هو الآخر في أواخر حياة النبي ﷺ؛ شأنه في ذلك شأن الأسود العنسي ومسيلمة، واستقر في بزاخة وهي ماء لبني أسد، وظهر أمره بعد وفاة الرسول ﷺ، فتبعه قومه، واستقطبوا حلفاءهم من طيء والغوث ومن إليهم، وانضمت إليه غطفان، والتفَّ حوله عوام طيء والغوث وبني أسد.

ليس واضحاً ما دفع طليحة إلى التنبؤ، وربما كان للتنافس القبلي دور في ذلك بدليل قول عيينة بن حصن الفزاري: «... والله لأن أتبع نبياً من الحليفين (أسد وغطفان) أحب إلينا من أن نتبع قريشاً...»[1]. بالإضافة إلى انتشار ظاهرة التنبؤ في بلاد العرب.

لقد حارب رسول الله ﷺ ظاهرة التنبؤ في حياته، فكما أوعز إلى مقاومة الأسود العنسي والتخلص منه، فقد وجَّه ضرار بن الأزور إلى عمَّاله على بني أسد يأمرهم بالقيام على كل من ارتد، فنزل المسلمون واردات[2]، ونزل طليحة ومن معه سميراء[3]، وكانت كفة المسلمين هي الراجحة، وتواترت الأنباء على انتصاراتهم في غير منطقة حتى همَّ ضرار بن الأزور بالمسير إلى طليحة ومقاتلته، وسبقه أحد المسلمين وهو يريد التخلص منه، فضربه بالسلاح فأخطأه، وأسرع المحيطون به باستغلال هذه الحادثة فأذاعوها بين الناس مدَّعين بأن السلاح لا يؤثر في نبيهم. وفي الوقت الذي كان فيه المسلمون يستعدون لمواجهة هذا الموقف، جاءهم نعي النبي ﷺ، فاضطربوا، وتناقص عددهم، وهرع الكثيرون منهم إلى طليحة يتابعونه ويؤيدونه[4].

حجة الوداع

الحج أحد أركان الإسلام الخمسة، وقد فُرض في العام العاشر للهجرة[5]، ولم يحج الرسول ﷺ من المدينة غير حجته التي كانت في العام المذكور، علماً بأنه انتدب أبا بكر الصديق للحج بالمسلمين في العام التاسع للهجرة، وقد عُرفت بحجة الوداع؛ لأن الرسول ﷺ ودَّع الناس فيها ولم يحج بعدها. كما سُميت بحجة البلاغ

---

(١) الطبري: جـ٣ ص٢٥٧.

(٢) **واردات**: موضع عن يسار طريق مكة وأنت قاصدها. الحموي: جـ٥ ص٣٤٧.

(٣) **سميراء**: منزل بطريق مكة. المصدر نفسه: جـ٣ ص٢٥٥، ٢٥٦.

(٤) الطبري: جـ٣ ص٢٥٧.

(٥) ابن قيم الجوزية: جـ٣ ص٤٣٢.

لأن رسول الله ﷺ بلَّغ الناس شرع الله قولاً وعملاً، فأرى الناس مناسكهم وأعلمهم سنن حجهم. ودُعيت بحجة الإسلام؛ إذ لم يكن بقي من أركان الإسلام وقواعده شيء إلا شرحه، ونزل قول الله ﷻ بعرفة ﴿ٱلۡيَوۡمَ أَكۡمَلۡتُ لَكُمۡ دِينَكُمۡ وَأَتۡمَمۡتُ عَلَيۡكُمۡ نِعۡمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ ٱلۡإِسۡلَٰمَ دِينٗاۚ﴾ [المائدة/٣]، وبلغ عدد الذين حجوا معه ﷺ أكثر من مائة ألف.

وخطب رسول الله ﷺ خطبة الوداع[١]، أعلن من خلالها أهداف ومبادىء الدولة الإسلامية التي شرعها ﷻ في تربية الفرد والجماعة، وفي بناء المجتمع المسلم، وتقوم على خمسة مبادىء؛ اثنان منها يتعلقان في إعداد وتربية الفرد، وثلاثة تتعلق في بناء المجتمع[٢].

يقوم إعداد الفرد وتربيته على مبدأين:

الأول: قطع كل صلة للفرد بالجاهلية وتقاليدها وأعرافها؛ لأن الحياة الجديدة التي يحياها المسلم بعد إسلامه لا صلة لها برجس الماضي وأدرانه. ولم يكن حديثه توصية، بل إقراراً أعلن عنه للملأ من حوله، وللأُمم التي ستأتي من بعده (**ألا إن كل شيء من أمر الجاهلية تحت قدمي موضوع، دماء الجاهلية موضوعة... وربا الجاهلية موضوع**)[٣].

الثاني: الابتعاد عن الخطايا؛ لأنها سبب مصائب الإنسان في الحياة الدنيا، فالشيطان لا ييأس من أن يجد طريقه إليها من خلال الثغرات، فيرديه في الشرك الخفي من غير أن يشعر (**فإن الشيطان قد يئس من أن يُعبد بأرضكم هذه أبداً، ولكنه إن يطع فيما سوى ذلك، فقد رضي به مما تحقرون من أعمالكم، فاحذروه على دينكم**)[٤].

أما بناء المجتمع، فقد أقامه رسول الله ﷺ على ثلاثة مبادىء:

الأول: الأخوة الإسلامية التي تربط جميع المسلمين بعضهم ببعض، وهي الصلة التي عقدها الله في السماء، وبمقتضاها يكون للمسلم حق الولاية على المسلم ينصحه ويفك عسرته: (**أيها الناس! اسمعوا قولي واعقلوه، تعلمون أن كل مسلم أخ للمسلم، وأن المسلمين إخوة، فلا يحل لامرىء من أخيه إلا ما أعطاه عن طيب نفسه منه، فلا تظلمن أنفسكم**). وقال: (**إن دماءكم وأموالكم وأعراضكم حرام عليكم، كحرمة يومكم هذا في بلدكم هذا حتى تلقوا ربكم فيسألكم عن أعمالكم، ألا فلا**

---

(١) انظر نص الخطبة عند: ابن هشام: جـ٤، ص٢٣١.

(٢) قلعه جي: ص٣٠٣ ـ ٣٠٥.

(٣) ابن هشام: جـ٤ ص٢٣١.

(٤) المصدر نفسه.

ترجعوا بعدي ضلَّالاً يضرب بعضكم رقاب بعض)[١].

الثاني: الوقوف بجانب الضعيف حتى لا يكون هذا الضعف ثغرة في البناء الاجتماعي، فأوصى في خطبته بالمرأة على أنها نموذج عن الضعفاء، فقد شدَّد في وصيته على الإحسان إلى الضعفاء، وأوصى بالنساء خيراً **(فإنهن عندكم عوان**[٢] **لا يملكن لأنفسهن شيئاً)**[٣]. وأكَّد القضاء على الظلم البائد للمرأة في الجاهلية، وتثبيت ضمانات حقوقها وكرامتها الإنسانية الي تضمَّنتها الشريعة الإسلامية[٤].

الثالث: التعاون مع الدولة الإسلامية على تطبيق أحكام الإسلام التي تعمل على اجتثاث الشر، وزرع الخير في المجتمع، والالتزام بشرع الله **(فقد تركت فيكم ما إن اعتصمتم به فلن تضلوا أبداً، أمراً بيِّناً؛ كتاب الله وسنَّة نبيه)**[٥]، حتى لو كان الحاكم عبداً حبشياً، فإن في ذلك الصلاح والنجاة في الدنيا والآخرة. وبيَّن علاقة الحاكم بالمحكوم التي تقوم على السمع والطاعة ما دام الرئيس يحكم بكتاب الله وسنَّة رسوله ﷺ، فإذا مال عنهما فلا سمع ولا طاعة، فالحاكم أمين من قِبل المسلمين على تنفيذ حكم الله[٦]. وبذلك حقَّق المساواة بين البشر وحدَّد أساس التفاضل الذي لا عبرة فيه لجنس ولا لون ولا وطن ولا قومية، وإنما أساس التفاضل قيمة خلقية راقية ترفع مكانة الإنسان إلى مقامات رفيعة جداً[٧].

والواقع أن خطبة الوداع حوت ـ على قصرها ـ المبادىء التي يصلح بها الفرد والمجتمع، وتُحقِّق العدالة بين البشر، ولذلك أكَّد رسول الله ﷺ وأشهد أنه بلَّغ[٨].

وفاة رسول الله ﷺ

دلائل وفاته من الكتاب والسُّنَّة: دلَّت بعض الآيات القرآنية على حقيقة بشرية الرسول ﷺ، وأنه كغيره من البشر سوف يذوق طعم الموت ويعاني سكراته كإخوانه من الأنبياء الذين سبقوه، وهناك إشارات قرآنية تدل على قرب أجله، كما أشار ﷺ في طائفة من الأحاديث إلى اقتراب وفاته، ونذكر فيما يلي بعض هذه الدلائل القرآنية والأحاديث النبوية.

ما يتعلق بالدلائل القرآنية:

قال تعالى: ﴿وَمَا مُحَمَّدٌ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِ الرُّسُلُ أَفَإِيْن مَّاتَ أَوْ قُتِلَ ٱنقَلَبْتُمْ

---

(١) ابن هشام: جـ٤ ص٢٣١.
(٢) عوان: جمع عانية، وهي الأسيرة.
(٣) ابن هشام: جـ٤ ص٢٣١.
(٤) البوطي: ص٤٨٣.
(٥) ابن هشام: جـ٤ ص٢٣١.
(٦) البوطي: ص٤٨٤.
(٧) عرجون: الموسوعة في سماحة الإسلام، جـ٢ ص٨٧٦.
(٨) ابن هشام: جـ٤ ص٢٣١.

عَلَىٰٓ أَعْقَٰبِكُمْ ۚ وَمَن يَنقَلِبْ عَلَىٰ عَقِبَيْهِ فَلَن يَضُرَّ ٱللَّهَ شَيْـًٔا ۗ وَسَيَجْزِى ٱللَّهُ ٱلشَّٰكِرِينَ﴾ [آل عمران/١٤٤].

إن الله أرسل الرسل وهي ليست بخالدة في قومها، وأنه ينبغي التمسك بما جاءت به، وإن فُقدت بموت أو بقتل.

قال تعالى: ﴿وَمَا جَعَلْنَا لِبَشَرٍ مِّن قَبْلِكَ ٱلْخُلْدَ ۖ أَفَإِي۟ن مِّتَّ فَهُمُ ٱلْخَٰلِدُونَ * كُلُّ نَفْسٍ ذَآئِقَةُ ٱلْمَوْتِ ۗ وَنَبْلُوكُم بِٱلشَّرِّ وَٱلْخَيْرِ فِتْنَةً ۖ وَإِلَيْنَا تُرْجَعُونَ﴾ [الأنبياء/ ٣٤، ٣٥].

بيَّن ﷺ أن الموت حتم ولازم وقدر سابق.

قال تعالى يخاطب نبيَّه ﷺ: ﴿وَلَلْءَاخِرَةُ خَيْرٌ لَّكَ مِنَ ٱلْأُولَىٰ * وَلَسَوْفَ يُعْطِيكَ رَبُّكَ فَتَرْضَىٰٓ﴾ [الضحى: ٤، ٥].

قال تعالى: ﴿كُلُّ مَنْ عَلَيْهَا فَانٍ * وَيَبْقَىٰ وَجْهُ رَبِّكَ ذُو ٱلْجَلَٰلِ وَٱلْإِكْرَامِ﴾ [الرحمٰن/٢٦، ٢٧].

قال تعالى: ﴿كُلُّ شَىْءٍ هَالِكٌ إِلَّا وَجْهَهُۥ ۚ لَهُ ٱلْحُكْمُ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾ [القصص/٨٨].

تبيِّن الآيات المشار إليها أن الناس جميعاً ستمضي فيهم سنة الله في موت خلقه، لن يتخلف منهم أحد.

قال تعالى: ﴿ٱلْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِى وَرَضِيتُ لَكُمُ ٱلْإِسْلَٰمَ دِينًا ۚ﴾ [المائدة/ ٣].

وقد بكى عمر بن الخطاب عندما نزلت هذه الآية يوم الحج الأكبر، فقال له رسول الله ﷺ: **(ما يبكيك؟)** فقال: إنه ليس بعد الكمال إلا النقصان. وكأنه استشعر وفاة النبي ﷺ، فقال له النبي ﷺ: **(صدقت)**(١).

ما يتعلق بالأحاديث النبوية:

قالت عائشة أُم المؤمنين: «إنَّا كنا أزواج النبي ﷺ عنده جميعاً، لم تُغادر منا واحدة، فأقبلت فاطمة عليها السلام تمشي، لا والله ما تخفى مشيتها من مشية رسول الله ﷺ، فلما رآها رحَّب وقال: **(مرحباً بابنتي)**. ثم أجلسها عن يمينه أو شماله، ثم سارَّها، فبكت بكاءً شديداً، فلما رأى حُزنها سارَّها الثانية، فإذا هي تضحك، فقلت لها أنا بين نسائه: خصَّك رسول الله ﷺ بالسر من بيننا، ثم أنت تبكين؟! فلما قام رسول الله ﷺ سألتها: عما سارَّك؟ قالت: ما كنت لأفشي على رسول الله ﷺ سِرَّه. فلما توفي قلت لها: عزمت عليك بما لي عليك من الحق لما أخبرتني، قالت: أما الآن فنعم. فأخبرتني، قالت: أما حين سارَّني في الأمر الأول، فإنه أخبرني: أن جبريل كان يُعارضه بالقرآن كل سنة مرة، وأنه قد عارضني به العام مرتين، ولا أرى الأجل إلا وقد اقترب، فاتقي الله واصبري، فإني نِعْمَ السلف أنا لك. قالت:

---

(١) تفسير ابن كثير: جـ٢ ص١٣.

فبكيت بكائي الذي رأيت، فلما رأى جزعي سارَّني الثانية، قال: (**يا فاطمة! ألا ترضين أن تكوني سيدة نساء المؤمنين، أو سيدة نساء هذه الأمة؟**)»[١].

قال جابر رضي الله عنه: رأيت النبي ﷺ يرمي على راحلته يوم النحر، ويقول: (**لتأخذوا مناسككم، فإني لا أدري لعلي لا أحج بعد حجتي هذه**)[٢]. وفيه إشارة إلى توديعهم وإعلامهم بقرب وفاته ﷺ، وحثُّهم على الاعتناء بالأخذ عنه وانتهاز الفرصة من ملازمته وتعلم أمور الدين، وبهذا سُمِّيت حجة الوداع[٣].

قال أبو سعيد الخدري رضي الله عنه: «خطب رسول الله ﷺ الناس، وقال: (**إن الله خيَّر عبداً بين الدنيا وبين ما عنده، فاختار ذلك العبد ما عند الله**). قال: فبكى أبو بكر، فعجبنا لبكائه أن يُخبر رسول الله ﷺ عن عبدٍ خُيِّر، فكان رسول الله ﷺ هو المُخيَّر، وكان أبو بكر أعلمنا...»[٤]. وكأن أبا بكر فهم الرمز الذي أشار به النبي ﷺ من قرينة ذكره ذلك في مرض موته، فاستشعر منه أنه أراد نفسه، فلذلك بكى[٥].

مرضه: عاد رسول الله ﷺ إلى المدينة من حجة الوداع في ذي الحجة من العام العاشر للهجرة، فأقام فيها بقيته والمحرم وصفر من العام الحادي عشر للهجرة، وأخذ يُجهِّز جيشاً لإرساله إلى البلقاء في فلسطين رداً على معركة مؤتة، وأمَّر عليه أسامة بن زيد بن حارثة، وهو يومئذ ابن ثماني عشرة سنة. وفي الوقت الذي بدأ الناس يستعدون للخروج ابتدأ رسول الله ﷺ بشكواه التي قُبض فيها. وقد جرت بعض الأحداث بين مرضه وبين وفاته، نذكر منها:

- أُمر ﷺ أن يستغفر لأهل البقيع[٦]، فذهب مع مولاه أبي مويهبة في جوف الليل، فاستغفر لأهلها (**السلام عليكم أهل المقابر، ليهنأ لكم ما أصبحتم فيه مما أصبح الناس فيه، أقبلت الفتن كقطع الليل المظلم يتبع آخرها أولها، الآخرة شر من الأولى...**)[٧]. ثم أقبل على مولاه، فقال: (**إني قد أُوتيت مفاتيح خزائن الدنيا والخلد فيها، ثم الجنة، فخيِّرت بين ذلك وبين لقاء ربي والجنة**). قال: فقلت: بأبي

---

(١) **صحيح البخاري**، كتاب الاستئذان، باب من ناجى بين يدي الناس ومن لم يُخبر بسرِّ صاحبه، فإذا مات أخبر به، رقم الحدث (٦٦٨٥، ٦٦٨٦)، ص١١٥٠، ١١٥١.

(٢) **صحيح مسلم على شرح النووي**: جـ٩ ص٤٤، ٤٥.

(٣) **شرح النووي في هامش صحيح مسلم**: جـ٩ ص٤٥.

(٤) **صحيح البخاري**، كتاب فضائل أصحاب النبي ﷺ، باب قول النبي ﷺ: (**سدُّوا الأبواب إلا باب أبي بكر**)، رقم الحديث (٣٦٥٤)، ص٦٦٦.

(٥) **شرح العسقلاني في هامش صحيح البخاري**، جـ ٨ ص١٢.

(٦) **البقيع أو بقيع الغرقد**: مقبرة أهل المدينة، وتقع داخلها.

(٧) ابن هشام: جـ٤ ص٢٤٧.

انت وأمي، فخذ مفاتيح خزائن الدنيا والخلد فيها ثم الجنة. قال: (**لا والله يا أبا مويهبة، لقد اخترت لقاء ربي والجنة**). ثم استغفر لأهل البقيع، ثم انصرف، فبدأ برسول الله ﷺ وجعه الذي قبضه الله فيه»[1].

ـ استأذن ﷺ زوجاته في أن يُمرَّض في بيت عائشة، فأذِنَّ له، وكانت أوجاعه تزداد عليه وطأة حتى غلبته على نفسه، وخرج يمشي بين رجلين من أهله، علي والفضل بن عباس، عاصباً رأسه، تخطُّ قدماه، حتى دخل بيت عائشة[2]. والمعروف أن عليه الصلاة والسلام ما كان ليظلم إحدى نسائه حقها في المبيت، حتى ولو كان ذلك من العسر عليه ما فيه إذا تركت أحداهن حقها عن طيب خاطر، وفي ذلك ما فيه من المعنى الكبير الذي يلتزم به رسول الله ﷺ في أداء الحقوق[3]. ولما دخل بيته طلب أن يصبوا عليه الماء، وذلك لإطفاء حرارته المرتفعة وتخفيضها.

ـ أوصى رسول الله ﷺ بالأنصار خيراً، فقد خرج إلى الناس عاصباً رأسه من شدَّة الوجع حتى جلس على المنبر، ولم يصعده بعد ذلك اليوم، فحمد الله وأثنى عليه، ثم قال: (**أُوصيكم بالأنصار، فإنهم كَرِشِي وعيبتي، وقد قضوا الذي عليهم وبقي الذي لهم، فاقبلوا من محسنهم وتجاوزوا عن مسيئهم**)[4]. كانت هذه إشارة منه عليه الصلاة والسلام إلى أن رئاسة الدولة هي للمهاجرين، لا للأنصار. ثم دخل بيته، فاشتدَّ به مرضه، ولم يتكلم بشيء من أمر السياسة إلا قوله عليه الصلاة والسلام: (**لا يُترك بجزيرة العرب دينان**). فكانت هذه آخر وصاياه[5].

ـ أمر ﷺ بتسيير جيش أُسامة إلى وجهته التي حدَّدها، وكان الجيش قد تمَّ تجهيزه، وهو على أُهبة الاستعداد للانطلاق، ولكن القلق بدا واضحاً على وجوه كبارالصحابة؛ إذ كيف يخرجون ورسول الله ﷺ على فراش المرض، ورأى معظمهم التريث في الانطلاق، فاتخذ مرضى القلوب من ذلك ذريعة للطعن في إمارة أسامة بن زيد، وأخذوا يشيعون ذلك بين الصفوف. وبلغ رسول الله ﷺ ذلك، فخرج إليهم وقال: (**أيها الناس أنفذوا بعث أسامة، فلعمري لئن قلتم في إمارته، لقد قلتم في إمارة أبيه من قبله، وإنه لخليق للإمارة، وإن كان أبوه لخليقاً لها**)[6]. فأسرع الناس

---

(١) ابن هشام: جـ٤ ص٢٤٧. (٢) ابن سعد: جـ٢ ص٢٣٢.
(٣) قلعه جي: ص٣٠٩.
(٤) **صحيح البخاري**، كتاب مناقب الأنصار، باب قول النبي ﷺ: (**اقبلوا من محسنهم وتجاوزوا عن مسيئهم**). رقم الحديث (٣٧٩٩)، ص٦٨٩.
(٥) ابن سعد: جـ٢ ص٢٥٤. (٦) المصدر نفسه: جـ٢ ص١٩٠.

في تجهيز أنفسهم للقتال. وخرج أسامة من المدينة وعسكر بالجرف(١)، والتحق به المتأخرون. وثقل في هذه الأثناء المرض على رسول الله ﷺ، **فأقام أسامة والناس** لينظروا ما الله قاضٍ في رسول الله ﷺ، ولما أُثقل المرض عليه؛ رجع أسامة إلى المدينة، ورجع معه الناس، فدخل على رسول الله ﷺ وقد صمت ﷺ حتى أنه لا يقوى على الكلام، فجعل يرفع يده إلى السماء ثم يضعها على أسامة؛ يدعو له(٢).

ـ وحان وقت الصلاة ورسول الله ﷺ في فراشه لا يقوى على النهوض ليؤمَّ الناس في صلاتهم، فتقدم عمر بن الخطاب، وكان جهوري الصوت، وأبو بكر غائب. فقال رسول الله ﷺ: **(أين أبو بكر، يأبى الله ذلك والمسلمون، يأبى الله ذلك والمسلمون)**. فبُعث إلى أبي بكر، فجاءه بعد أن صلى عمر تلك الصلاة، فصلَّى بالناس. وجعل أبو بكر يؤم الناس في صلاتهم منذ ذلك الوقت. وفي قوله: **(يأبى الله ذلك والمسلمون)** إشارة إلى أن الذي يلي أمر المسلمين وتجتمع عليه كلمتهم هو أبو بكر الصديق.

وفاته: وجاء يوم الاثنين (١٢ ربيع الأول ١١هـ/٧ حزيران ٦٣٢م). خرج رسول الله ﷺ لكي يُلقي نظرة على أصحابه، وهم يقفون صفوفاً يؤدُّون الصلاة، وما إن رفع الستر وأطلَّ عليهم حتى كادوا يُفتنون في صلاتهم برسول الله ﷺ حين رأوه؛ فرحاً به، فأشار إليهم أن اثبتوا في صلاتكم، وتبسم سروراً لما رأى من هيأتهم في صلاتهم. ونكص أبو بكر إلى الوراء اعتقاداً منه أن الرسول ﷺ سيؤم بنفسه المسلمين، إلا أنه تقدم إليه ودفعه في ظهره قائلاً: **(صلِّ بالناس)**. وجلس عن يمينه وصلَّى قاعداً، فلما فرغوا من الصلاة؛ راح الرسول ﷺ يتحدث إليهم رافعاً صوته حتى ظن أصحابه أن قد زال ما به من وجع. واستأذنه أبو بكر في الذهاب إلى أهله بالسنح، إحدى ضواحي المدينة. وكان مما قاله لهم عليه الصلاة والسلام: **(أيها الناس! سُعِّرت النار، وأقبلت الفتن كقطع الليل المظلم، وإني والله ما تُمسكون عليَّ بشيء، وإني لم أُحلَّ إلا ما أحلَّ القرآن، ولم أُحرِّم إلا ما حرَّم القرآن)**. ثم دخل حجرته ودخل معه علي بن أبي طالب، فلما خرج من عنده سأله الحاضرون عن صحته ﷺ، فقال لهم: «أصبح بحمد الله بارئاً». فانصرفوا بعد أن اطمأنوا عليه ﷺ(٣).

وأخذ العباس بيد علي، وقال له: «يا علي! أنت والله عبد العصا بعد ثلاث، أحلف بالله لقد عرفت الموت في وجه رسول الله ﷺ كما كنت أعرفه في وجوه بني

---

(١) **الجرف**: مكان لا يبعد عن المدينة أكثر من فرسخين.

(٢) ابن سعد: جـ٢ ص١٩٠، ١٩١.

(٣) ابن هشام: جـ٤ ص٢٥٩.

عبد المطلب، فانطلق بنا إلى رسول الله ﷺ، فإن كان هذا الأمر فينا عرفناه، وإن كان في غيرنا أمرناه، فأوصى بنا الناس». فقال له علي: «إني والله لا أفعل، والله لئن منعناه لا يؤتيناه أحد بعده»[1].

وتضمَّنت روايات المصادر نيَّة النبي ﷺ وهو على فراش الموت، كتابة وصية للمسلمين لن يضلوا بعدها، غير أنه حصل لغط واختلاف بين الحاضرين، فمن قائل: «إن رسول الله ﷺ قد غلبه الوجع، وعندكم القرآن. حسبنا كتاب الله»، وعلى رأس هؤلاء عمر بن الخطاب. ومن قائل: «قرِّبوا يكتب لكم رسول الله ﷺ»، الأمر الذي ضايق الرسول ﷺ، فقال لهم: (**قوموا عني: ما ينبغي أن يكون بين يدي النبي خلاف**). فقال عندئذ ابن عباس: «الرزية كل الرزية، ما حال بين رسول الله ﷺ وبين أن يكتب لهم ذلك الكتاب من اختلافهم ولغطهم». لكن أوصاهم بثلاث: أن يخرجوا المشركين من جزيرة العرب، وأن يجيزوا الوفد بنحو مما كان يجيزهم، وسكت عن الثالثة[2].

وعندما جاءت سكرة الموت، وكان الوقت ضحى؛ شخص بصر رسول الله ﷺ وهو يقول: (**بل الرفيق الأعلى من الجنة**). ثم قُبض، ولم يترك ديناراً ولا درهماً ولا شاة ولا بعيراً[3].

وغُسِّل رسول الله ﷺ وعليه قميصه، وكُفِّن في ثلاثة أثواب سحولية[4]، ليس فيها قميص ولا عمامة، وصلَّى عليه المسلمون، ودُفن في موضعه الذي توفي فيه، وهو ابن ثلاث وستين سنة[5].

(١) ابن هشام: جـ٤ ص٢٥٩.

(٢) ابن سعد: جـ٢ ص٢٤٢، ٢٤٦.

(٣) المصدر نفسه: ص٢٦٠.

(٤) **سحول**: بلدة باليمن.

(٥) **صحيح البخاري**، كتاب المغازي، باب وفاة النبي ﷺ، رقم الحديث (٤٤٦٦)، ص٨٠٣.

القسم الثاني

العلاقة مع اليهود

الفَصْل الرَّابِع عَشَر

تصفية يهود بني قينقاع وبني النضير

أصل يهود الجزيرة العربية

كان يقيم في المدينة عندما هاجر النبي ﷺ عدد من اليهود لم تذكرهم المصادر اليهودية ولم تُشِر إليهم، وتفرَّدت المصادر العربية بإمدادنا بمعلومات وافية عن أحوالهم عند الهجرة، وإشارات إلى تاريخهم فيها. وتُرجع بعض الروايات تاريخ دخول اليهود إلى الحجاز إلى عصور قديمة تعود إلى أيام موسى وغزوه للعماليق[1]. ويرى البعض الآخر أن اليهود نزحوا إلى الحجاز من فلسطين في أعقاب حملة الرومان الأخيرة على اليهودية في فلسطين، وتدمير بيت المقدس على يد القائد الروماني تيطوس في عام (٧٠م)[2]، فهاجرت جموع غفيرة من اليهود إلى البلدان المجاورة، ومنها الحجاز في الجزيرة العربية بفعل امتدادها الطبيعي مع فلسطين وبُعدها عن طرق الحملات العسكرية الرومانية حيث تعزلها أقاليم رملية، كما قدمت جاليات يهودية إلى العربية الغربية على مرِّ العهود للتجارة والإقامة؛ لا سيما عند مواضع المياه في الأراضي الخصبة. وعلى هذا الأساس، فإن يهود الجزيرة العربية هم من بقايا اليهود الذين هاجروا من فلسطين في تلك المرحلة.

وكان اليهود يُروِّجون مثل هذا القصص بين العرب بهدف الإشاعة بأنهم والعرب ينحدرون من أصل واحد، وأن الاتصال بينهم قديم؛ ما يُشجِّعهم على اعتناق اليهودية.

لكننا مع ذلك لا نستطيع أن نتحدث عن هجرة اليهود إلى الجزيرة العربية حديثاً علمياً معززاً بالوثائق والتواريخ؛ لأن يهود هذه الجزيرة لم يتركوا أثراً مكتوباً عن ماضيهم فيها، وما عُثِر عليه في اليمن من كتابات يهودية لا يروي غليل الباحث، وليس لنا من تاريخ اليهود في جزيرة العرب سوى ما جاء في القرآن الكريم وكتب

---

(١) الأصفهاني، أبو الفرج علي بن الحسين: **كتاب الأغاني**، جـ٢٢ ص١٠٦ ـ ١٠٨.

(٢) إيمار، أندريه وجانين أوبوايه: **روما وامبراطوريتها**، الجزء الثاني من موسوعة **تاريخ الحضارات العام**، ص٤١٩.

الحديث والتفسير والأخبار والسِّيَر، لذا فإن معلوماتنا عن هذا التاريخ لا ترقى إلى عهد بعيد عن ظهور الإسلام.

استقرَّ اليهود الوافدون من فلسطين في واحات الحجاز: يثرب، وادي القرى، خيبر، فدك وتيماء، وتوطَّنت أعداد منهم في مكة والطائف، وانتقلت جماعات منهم إلى اليمن واليمامة والعروض، وأُشير إلى وجودهم في البحرين[1].

ووفَّر العرب لليهود الوافدين الملجأ الآمن والعمل، فمارسوا الزراعة والتجارة والصناعة في الواحات، واشتهروا بصناعة الحلي والحديد والأسلحة، وتركَّز نشاطهم في الموانىء والمراكز التجارية على التجارة وإقراض المال بربا فاحش.

ويبدو أن هؤلاء اليهود لم يحافظوا على نقاوتهم وخصائصهم العرقية، فاختلطوا بالسكان العرب، فلبسوا لباسهم، وتكلَّموا لغتهم، ومارسوا عاداتهم وتقاليدهم، وصاهروهم، فتزوَّج اليهود من عربيات، وتزوج العرب من يهوديات، فنشأ مع مرور الزمن جيل جديد يحمل الطابع العربي، والفكر العربي، وأسماء عربية، وتوافقت حياته السياسية والاجتماعية مع حياة العرب فهو في أكثر أموره كالعرب؛ سوى الدين، ولعل لذلك علاقة بتأثير العرب المتهودة على أفراده، وكثرتهم بالمقارنة مع من كان مِن أصل يهودي، والمعروف أن الدين اليهودي لم يقتصر في الماضي على قوم موسى، بل انتشر بين الأمم المختلفة عن طريق التبشير بفعل شموليته، واستمرَّ إلى العصور الوسطى حيث أُغلق باب التبشير في منتصف القرن الثالث عشر الميلادي، وظلَّت الأقوام التي اعتنقته في ديارها وأوطانها تتكلم بلغتها، وتمارس عاداتها وتقاليدها التي نشأت في بيئاتها.

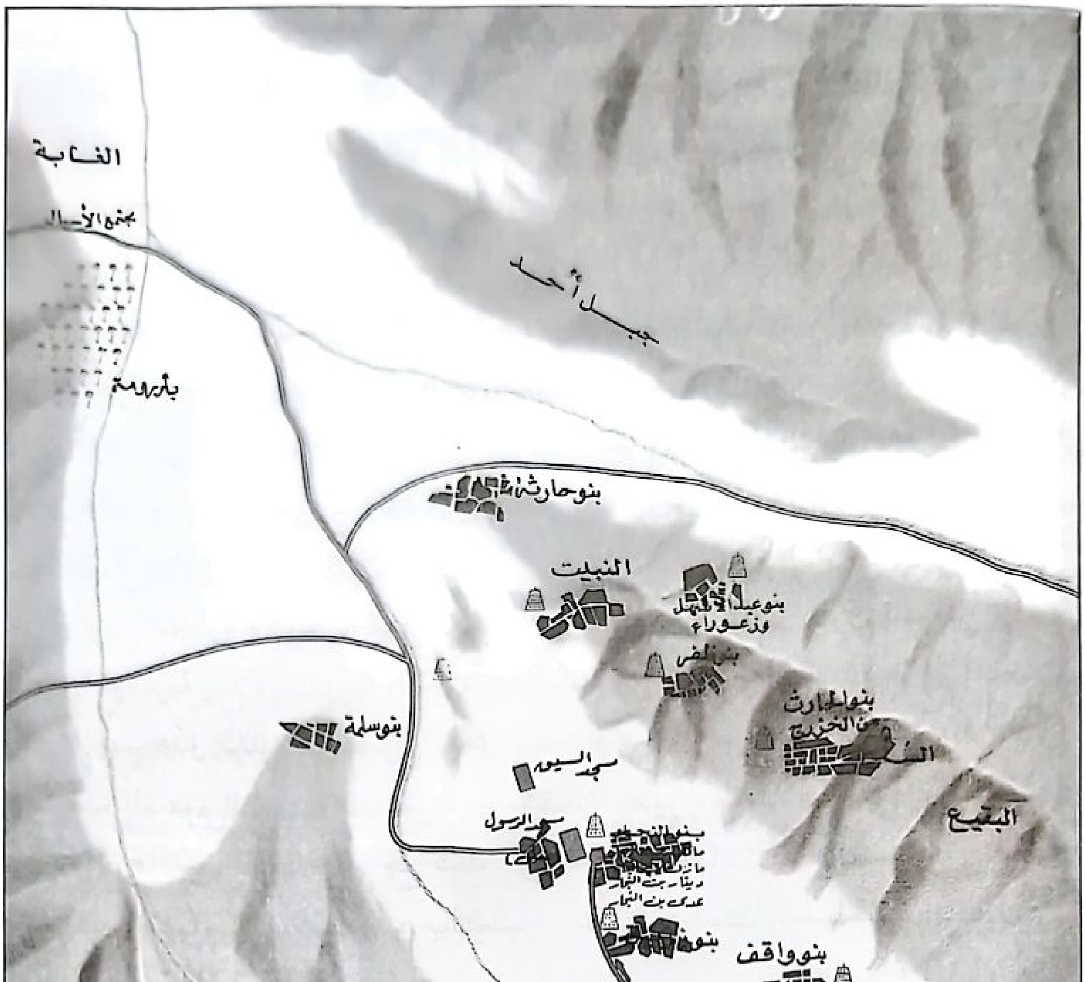
دفعت هذه التغييرات في الوضعين الاجتماعي والسكاني لليهود بعض المؤرخين العرب إلى القول بأن يهود الجزيرة العربية هم عرب متهوِّدون، لا يهود مهاجرون؛ اعتنقوا اليهودية عن طريق التبشير، بدليل أن أصل بني النضير، وهم طائفة من اليهود في يثرب، فخذ من جذام تهوَّدوا ونزلوا بجبل يُقال له النضير، فنُسبوا إليه[2]. وفي رواية أن قريظة، وهم طائفة من اليهود في يثرب، وكذلك النضير، هم من القبائل العربية في الجزيرة وقد اعتنقوا اليهودية، وكان لهم ملوك حتى أخرجهم الأوس والخزرج من المدينة، وأن اليهود في جهات خيبر لا يعدُّون أنفسهم يهوداً حقاً؛ إذ لم يُحافظوا على الديانة الإلٰهية الموسوية، ولم يخضعوا لتعاليم التلمود خضوعاً تاماً[3].

---

(١) البلاذري: ص٨٩.

(٢) اليعقوبي، أحمد بن أبي يعقوب: **تاريخ اليعقوبي**: جـ١ ص٣٦٧.

(٣) ولفنسون، إسرائيل: **تاريخ اليهود في بلاد العرب في الجاهلية وصدر الإسلام**، ص١٣.



اليهود المحيطون بالمدينة [عن أطلس تاريخ الإسلام]

ودخلت اليهودية إلى اليمن وانتشرت بين سكانها عبر رافدين، حتى أضحت هذه البلاد أحد المراكز اليهودية المهمة في جزيرة العرب.

الأول: التهود، ففي القرآن الكريم إشارة صريحة إلى هذا في قصة سبأ، وقد جاء في ختامها على لسان ملكتهم: ﴿قَالَتْ رَبِّ إِنِّي ظَلَمْتُ نَفْسِي وَأَسْلَمْتُ مَعَ سُلَيْمَانَ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ [النمل/٤٤]. ويرجع انتشار اليهودية في اليمن في العصور التالية إلى أحد ملوك حِمْير المدعو تبان أسعد أبو كرب (٣٨٥ ـ ٤٢٠م)، فأثناء مروره بيثرب في طريق عودته إلى اليمن من غزوة قام بها في الشمال؛ اجتمع بحبرين يهوديين من بني قريظة، فأُعجب بما وصفا له عن دينهما فاعتنقه، واصطحبهما معه إلى اليمن، ودعا قومه إلى الدخول فيه، فأجابوه. ومنذ ذلك الحين، أخذت اليهودية تنتشر في اليمن وتتوطد حتى بلغت ذروتها في عهد الملك الحِميري ذي نواس في أوائل القرن السادس الميلادي[(١)].

الثاني: التجارة والهجرة بفعل اتصال اليمن منذ عهد قديم بطرق القوافل التجارية البحرية والبرية ببلاد الشام، وهجرة جماعات من اليهود إليها عن طريق الحجاز، وقد جذبهم هذا البلد المتحضر وازدهار التجارة في ربوعه.

كانت الدعوة اليهودية التبشيرية خامدة عند ظهور الإسلام، بفعل عدم محاولة اليهود نشرها بين العرب، ويرجع ذلك إلى أسباب، منها:

ـ عدم اهتمام اليهود الجدِّي بالتبشير بديانتهم، اعتقاداً منهم بأنهم شعب الله المختار، وأن الشعوب الأخرى غير جديرة بذلك.

ـ احتقار العرب لهم بوصفهم عملاء للفرس.

ـ لما عُرفوا به من صفات ذميمة، كالتهافت على جمع المال، ونقض العهود، والغدر.

ـ نفرة العرب من شعائرهم المعقَّدة[(٢)].

تطور أوضاع اليهود السياسية في يثرب

انتظم اليهود الذين استوطنوا يثرب في آطام على شكل قبائل متميزة، وكانوا زهاء نيف وعشرين قبيلة، أهمها: بنو قريظة، وبنو ضخم (محمم)، وبنو زعورا، وبنو ماسكة، وبنو القمعة، وبنو زيد اللات، وهم رهط عبد الله بن سلام، وبنو قينقاع، وبنو حجر، وبنو ثعلبة، وأهل زهرة، وأهل زبالة، وبنو الغصيص، وبنو النضير.

---

(١) ابن هشام: جـ١ ص٣٣ ـ ٣٨، ٤١، ٤٢.

(٢) الخربوطلي، علي حسني: العرب واليهود في العصر الإسلامي، ص٢٤، ٢٥.

ومن العشائر اليهودية الكبيرة في يثرب، بنو حارثة، وتقع مساكنهم في تمغ، وبنو قينقاع على جسر بطحان، ولم تكن هذه القبيلة تملك أرضاً للزراعة؛ لأنها سكنت في حيٍّ يكتظ بالسكان، ويُقام فيه سوق الصناعة، لذلك عمل أفرادها بالصناعة، وبخاصة الصياغة، وبنو النضير على وادي مذينيب، وبنو قريظة على وادي مهزور في الجهات الجنوبية من يثرب، وتملك هاتان القبيلتان أخصب أراضي يثرب المخصَّصة للزراعة، وبخاصة زراعة النخيل.

كانت القبائل اليهودية متباينة في مكانتها، من ذلك أن بني هُدل يتمايزون عن بني قريظة وبني النضير من حيث علو النسب، وكذلك تتمايز القبيلتان الأخيرتان، فإذا قتل القرظي رجلاً من النضير؛ قُتِل به، وإذا قتل النضيري رجلاً من قريظة وداه بمائة وسق من تمر[(١)]؛ أي أن بني النضير كانوا أعلى مكانة من بني قريظة. وكان الملك في بني زهرة واشتهر منهم الفطيون، وفيهم ثلاثمائة صانع، ما يدل على مكانتهم المتميزة.

ويبدو أن اليهود كانوا عند ظهور الإسلام فريقين: فريق منهم بنو قينقاع ولفهم حلفاء الخزرج، والنضير وقريظة ولفهم مع الأوس، فكانوا إذا كانت بين الأوس والخزرج حرب خرجت بنو قينقاع مع الخزرج، وخرجت النضير وقريظة مع الأوس، يظاهر كل واحد من الفريقين حلفاءه مع إخوانه[(٢)]. ولعل لذلك علاقة بمنازل كل فريق، فخطط بني قينقاع كانت قرب منازل الخزرج، وخِطط النضير وقريظة كانت قرب منازل الأوس.

كانت لليهود في القِدَم السيطرة على يثرب، واتخذوا لهم ملوكاً يحكمونهم، اشتهر من بينهم الفطيون، ومقامه في زهرة، وقد سمحوا للأوس والخزرج الوافدتين من اليمن بعد انهيار سد مأرب، وتخريب السيول للأراضي الزراعية، بالاستقرار إلى جانبهم وتحت حمايتهم، حتى إذا قوي العرب نجح مالك بن العجلان الخزرجي، من بني عوف، في قتل الفطيون والاستقلال؛ ما يدل على أن اليهود بدأوا يفقدون قوتهم، ثم أضحوا ضعفاء، ما دفع الأوس والخزرج إلى السيطرة على السلطة، وأضحتا سيدتَيْ يثرب، وخضع لهما جميع اليهود.

ومهما يكن الأمر، فقد حدثت تغييرات في بنية القبائل اليهودية التي تراجعت قوتها، وقد دفعها ذلك إلى إقامة تحالفات مع العشائر العربية، ومع رجال بارزين من هذه العشائر؛ من ذلك، فقد تحالف بنو أنيف مع بني الجهباء، وبنو غصينة مع بني قواقلة، وبنو زعوراء، العشيرة المعروفة باسم أهل راتج، مع بني عبد الأشهل.

---

(١) تفسير ابن كثير: جـ٢ ص٦٠.

(٢) ابن هشام: جـ٢ ص٢٦٨.

وكانت القبائل الأربع اليهودية المهمة أثناء الهجرة هي: قريظة والنضير وقينقاع وثعلبة.

علاقة المسلمين مع اليهود عقب الهجرة

عامل الرسول ﷺ اليهود في أعقاب الهجرة باللين محاولاً ضمَّهم إلى الإسلام أو كسب تأييدهم، وكان يأمل أن يتفهموا دوافع حركته الدينية وأهدافها، والتي ليست إلا امتداداً لدعوة إبراهيم وموسى وعيسى؛ لا سيما وأن كتبهم تؤكد نبوته. ومن جانبهم أمِل اليهود، وقد شعروا بهذا التعاطف الإسلامي معهم من دون أن يستوعبوا أسبابه الحقيقية؛ أن الرسول ﷺ يُقرُّ بأفضلية عقيدتهم التي يؤمنون بها، وأنه سيتركهم وشأنهم مكتفياً بتشكيل وحدة المجتمع اليثربي التي تحمي مصالح فئاته كافة، بل إنهم طمعوا في استقطابه إليهم وإدخاله وصحبه في دينهم، وبخاصة أن بعض الفرائض الإسلامية عند الهجرة كانت تشبه في مظاهرها الخارجية الفرائض اليهودية، فكانت القبلة إلى بيت المقدس، وطعامهم حلّاً للمسلمين، لذلك ساد العلاقات بينهم وبين الرسول ﷺ جوٌّ حسن.

وأشار القرآن الكريم إلى ممالأة بعض اليهود للإسلام، فقال تعالى: ﴿لَيْسُوا۟ سَوَآءً مِّنْ أَهْلِ ٱلْكِتَـٰبِ أُمَّةٌ قَآئِمَةٌ يَتْلُونَ ءَايَـٰتِ ٱللَّهِ ءَانَآءَ ٱلَّيْلِ وَهُمْ يَسْجُدُونَ ۞ يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْـَٔاخِرِ وَيَأْمُرُونَ بِٱلْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ ٱلْمُنكَرِ وَيُسَـٰرِعُونَ فِى ٱلْخَيْرَٰتِ وَأُو۟لَـٰٓئِكَ مِنَ ٱلصَّـٰلِحِينَ﴾ [آل عمران/١١٣، ١١٤].

وقد دخل عدد منهم في الإسلام في زمن مبكر، نذكر منهم: أسيد بن سعية، وثعلبة بن سعية، وأسد بن عبيد، وهم من بني هُدل، وعبد الله بن سلام، ومخيريق، وجماعة غيرهم؛ غير أن عدداً منهم لم يبق مخلصاً للإسلام ودولته، ووقف عامتهم بمعزل عن الإسلام، فلم يتعاونوا مع الرسول ﷺ، ولم يُشاركوا في أي عمل قام به بعد أن تبيَّن لهم أنه صاحب رسالة عالمية تتجاوز في تعاليمها الحدود الإقليمية ليثرب، بل الجزيرة العربية باتجاه المجتمع الإنساني في كل مكان، وأن عقيدة التوحيد التي يُبشِّر بها تتعارض مع تلك التي يؤمنون بها على أساس قومي استعلائي من أن الله الواحد هو إلٰه إسرائيل الذي اختارهم لنفسه من دون الناس، فميَّزوا أنفسهم بذلك عن الآخرين.

وازداد الأمر وضوحاً عندما توالت دعوات الرسول ﷺ على ضرورة دخولهم في الإسلام إن أرادوا الحفاظ على جوهر الدعوة التي حملها موسى إلى بني إسرائيل. وأخذ عدد من رجالهم البارزين يُناقشون الرسول ﷺ ويجادلونه ويحاولون إحراجه والدسَّ عليه، وتمادوا عندما راحوا يبذرون بذور الشقاق بين المسلمين من واقع إثارة الأحقاد بين المهاجرين والأنصار، والإيقاع بين الأوس والخزرج من خلال

التذكير بما كان بينهما من حروب في الجاهلية، كما أعلنوا تأييدهم لقريش وحرَّضوا القرشيين على قتال الرسول ﷺ والمسلمين، وبثُّوا روح الكراهية للنبي ﷺ في المدينة، بل إنهم سلكوا أساليب أخرى ملتوية وخبيثة، فكان بعضهم يتظاهر بالإسلام نفاقاً ورياءً، وانضاف إليهم رجال من الأوس والخزرج ممن كانوا على جاهليتهم، فكانوا أهل نفاق على دين آبائهم من الشرك، فازداد الجو توتراً.

واجه الرسول ﷺ موقف اليهود المعادي بتدابير عدة، فأمر الصحابة أن يُفرقوا شعورهم، وأن يصبغوا لحاهم وشعورهم ليخالفوا اليهود الذين كانوا لا يصبغون، وأن لا يبدؤوهم بالسلام، وأن يكون جوابهم إذا سلَّم عليهم اليهود هو: «عليكم». ثم تحوَّلت القبلة في السنة الثانية للهجرة إلى المسجد الحرام في مكة، ما أبطل حجة كان اليهود يستغلونها وقد استنكروا ذلك، وأدركوا مدى خطورته على وضعهم؛ من واقع أنها خطوة نحو توحيد العرب وفرض مزيد من العزلة عليهم، فحاولوا خداع النبي ﷺ بقولهم إنهم يتبعونه إن هو رجع إلى قبلته الأولى، فأنزل الله تعالى: ﴿وَلَئِنْ أَتَيْتَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ بِكُلِّ آيَةٍ مَا تَبِعُوا قِبْلَتَكَ وَمَا أَنْتَ بِتَابِعٍ قِبْلَتَهُمْ وَمَا بَعْضُهُمْ بِتَابِعٍ قِبْلَةَ بَعْضٍ وَلَئِنِ اتَّبَعْتَ أَهْوَاءَهُمْ مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَكَ مِنَ الْعِلْمِ إِنَّكَ إِذًا لَمِنَ الظَّالِمِينَ﴾ [البقرة/١٤٥].

وبلغت المناقشات الدينية المتبادلة بين الطرفين الإسلامي واليهودي من الشدة ما يشهد به القرآن الكريم الذي ذكر في آيات كثيرة من سورتي البقرة والنساء إنكار اليهود ما جاء في كتبهم من إشارات متعلقة بمجيء النبي ﷺ ولعنهم لإنكارهم هذا ولكفرهم أشد اللعنة.

وضاق اليهود بالنبي ﷺ ذرعاً، فحاولوا إقناعه بالجلاء عن المدينة؛ إذ أن ما سبقه من الأنبياء ذهبوا إلى بيت المقدس وأقاموا فيه، لكن الرسول ﷺ أدرك غايتهم، وأوحى الله إليه أن يجعل قبلته المسجد الحرام، بيت إبراهيم وإسماعيل، كما ذكرنا من تحويل القبلة إلى مكة.

واشتدَّ النفور والتباعد بين الطرفين، المسلمين واليهود، وكثر الخصام وبدت الكراهية واضحة في نفوس اليهود، فأنزل ﷻ عندئذ آيات تنهى عن الاختلاط بهم واتخاذ المسلمين بطانة منهم ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَّخِذُوا بِطَانَةً مِنْ دُونِكُمْ لَا يَأْلُونَكُمْ خَبَالًا وَدُّوا مَا عَنِتُّمْ قَدْ بَدَتِ الْبَغْضَاءُ مِنْ أَفْوَاهِهِمْ وَمَا تُخْفِي صُدُورُهُمْ أَكْبَرُ قَدْ بَيَّنَّا لَكُمُ الْآيَاتِ إِنْ كُنْتُمْ تَعْقِلُونَ ۞ هَا أَنْتُمْ أُولَاءِ تُحِبُّونَهُمْ وَلَا يُحِبُّونَكُمْ وَتُؤْمِنُونَ بِالْكِتَابِ كُلِّهِ وَإِذَا لَقُوكُمْ قَالُوا آمَنَّا وَإِذَا خَلَوْا عَضُّوا عَلَيْكُمُ الْأَنَامِلَ مِنَ الْغَيْظِ قُلْ مُوتُوا بِغَيْظِكُمْ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ﴾ [آل عمران/١١٨، ١١٩].

وتطورت العلاقات السياسية بين المسلمين واليهود نحو الأسوأ على أثر الصراع المرير بين المسلمين وقريش وما تمخَّض عنه من انتصار المسلمين يوم بدر، فرأى اليهود أن موقف الصمت الذي اتخذوه تجاه ما يجري سيُمكِّن النبي ﷺ من تصفية أعدائه وتعزيز مركزه، وسيجد اليهود أنفسهم عندئذ يواجهون الدولة الإسلامية مُنفردين ومُرغمين على قبول سلطتها مع ما يُشكِّل ذلك من خطر على مصالحهم، ومن ثَمَّ أخذوا يتحركون باتجاهات شتى لعرقلة مسيرتها وسحقها في النهاية متجاوزين كل التزاماتهم تجاهها التي حدَّدتها صحيفة المدينة الموقَّعة من قِبَلهم، فعملوا على إشاعة الفوضى بين المسلمين وزعزعة العقيدة في قلوبهم، وشنُّوا حرباً دعائية عنيفة عليهم، وحاولوا قتل الرسول ﷺ، وحرَّضوا المشركين على قتالهم، وحزَّبوا الأحزاب ضدهم، ونقضوا العهود؛ فرأى النبي ﷺ أن يدافع عن الدين وعنه وعن المسلمين من واقع مقاومتهم عسكرياً، ومما ساعده في مهمته تفرقهم وعدم اجتماعهم، فأقدم على تصفيتهم وإجلائهم عن المدينة، جماعة بعد جماعة.

غـزوة بني قينقاع

أسبابها

وقعت غزوة بني قينقاع يوم السبت (١٥ شوال ٢هـ/ ١٠ نيسان ٦٢٣م)[١] بعد معركة بدر؛ إذ لم تلتزم هذه القبيلة اليهودية ببنود المعاهدة الموقعة بينها وبين الرسول ﷺ، وبالتالي لم توفِ بالتزاماتها التي حدَّدتها، واتخذت موقف العداء من النبي ﷺ والمسلمين، فأظهرت الغضب والحسد عندما انتصروا في بدر، وجاهرت بعداوتها لهم. وقد نصح رسول الله ﷺ أفرادها ودعاهم إلى الإسلام، وحذَّرهم أن يُصيبهم ما أصاب قريش في بدر؛ غير أنهم واجهوه بالتحدي والتهديد وقالوا له: «يا محمَّد! إنك ترى أنَّا قومك لا يغرنَّك أنك لقيت قوماً لا علم لهم بالحرب، فأصبت منهم فرصة، إنَّا والله لئن حاربناك لتعلمنَّ أنَّا نحن الناس». وتُعدُّ هذه الغزوة أول صدام عسكري بين المسلمين واليهود.

أخذ بنو قينقاع يتحيَّنون الفرصة السانحة لمصادمة المسلمين، فجاءتهم عندما قدمت امرأة عربية بِجُلْبٍ (بضاعة) تريد بيعها في سوقهم، وجلست إلى صائغ هناك، فتقدم إليها عدد من اليهود وطلبوا منها أن تكشف عن وجهها، وهذا يعني أنها كانت منقَّبة، فأبت، فعمد الصائغ إلى التحرش بها، فعقد طرف ثوبها إلى ظهرها، فلما

---

(١) ابن سعد: جـ٢ ص٢٨، ٢٩.

قامت انكشفت سوءتها ما أضحك اليهود المجتمعين، فصاحت، فما وسع رجلاً من المسلمين إلا أن وثب على الصائغ اليهودي وقتله، فشدَّ اليهود على المسلم فقتلوه، فاستصرخ أهل المسلم أتباعهم، فوقع الشر بينهم وبين بني قينقاع[1].

وهكذا تحدى بنو قينقاع الرسول ﷺ صراحة، سواء في أقوالهم وحربهم النفسية، أو في مواقفهم وتصرفاتهم المعادية، ونبذوا العهد بينهم وبينه، فحقَّ عليه أن يحاربهم.

حصار بنـي قينقاع

عندما علم رسول الله ﷺ بهذا الحدث لم يقف مكتوف اليدين تجاه تحدي بني قينقاع، وهم ينقضون صراحة بنود الصحيفة ويُثيرون الفتنة التي أكَّدت الصحيفة على معاقبة مرتكبيها، فسار إليهم على رأس جيش من المهاجرين والأنصار. وتحصَّن بنو قينقاع في حصونهم، فحاصرهم خمس عشرة ليلة، فقذف الله في قلوبهم الرعب، واضطروا إلى النزول على حكمه. والواضح أنهم فوجئوا بأسلوب الحصار، فارتبكوا ووقعوا في الحيرة بعد أن قطع عنهم الإمدادات، وجمَّد تحركهم، فأمر بهم فرُبِطوا وكُتِّفوا أكتافاً، واستعمل رسول الله ﷺ على كتافهم المنذر بن قدامة السلمي الأوسي[2].

إجلاء بني قينقاع

وتدخَّل في هذه الأثناء عبد الله بن أبيٍّ بن سلول في محاولة لتخفيف الحكم عليهم، وكانوا حلفاءه في الجاهلية، فأتى رسول الله ﷺ فقال: «يا محمَّد! أحسن في مواليَّ». فأبطأ عليه رسول الله ﷺ، فكرَّر قوله، فأعرض عنه ﷺ، عندئذ عمد عبد الله بن أُبيٍّ بن سلول إلى إدخال يده في جيب درع رسول الله ﷺ، فقال رسول الله ﷺ: (أرسلني). وغضب من تصرفه حتى رأوا لوجهه ظللاً[3]، ثم قال: (**ويحك أرسلني**). قال: «لا والله، لا أرسلك حتى تُحسن في مواليَّ؛ أربعمائة حاسر، وثلاثمائة دارع قد منعوني من الأحمر والأسود، تحصدهم في غداة واحدة؟ إني والله امرؤ أخشى الدوائر». فقال رسول الله ﷺ: (**هم لك**). وفي المقابل كان لعبادة بن الصامت، أحد بني عوف، موقف مغاير من الحلف مع بني قينقاع، وكان له معهم مثل الذي لعبد الله بن أُبيٍّ بن سلول؛ إذ عندما رأى ما سلكه هؤلاء من

---

(١) الواقدي: جـ١ ص١٧٦، ١٧٧. (٢) المصدر نفسه: جـ١ ص١٧٧.

(٣) ظللاً، جمع ظلة وهي السحابة، واستُعملت هنا استعارة لتغيير الوجه عند الغضب.

المشاقَّة لرسول الله ﷺ تبرَّأ منهم ومن حلفهم، فجاء رسول الله ﷺ، فقال: «يا رسول الله! إني أبرأ إلى الله من حلف يهود وولائهم ولا أوالي إلا الله ورسوله»، فقال عبد الله بن أبيّ بن سلول: «إني رجل أخاف الدوائر، لا أبرأ من ولاية مواليَّ».

وخلَّى رسول الله ﷺ سبيلهم، ثم أمر بإجلائهم عن المدينة[1] إلى أيّ مكان يشاؤون، من دون أن ينزل أي عقوبة أخرى بهم، فخرجوا إلى أذرعات من بلاد الشام. وتخلَّص المسلمون من إحدى القبائل اليهودية الرئيسة الثلاث، فازدادت وحدة المسلمين تماسكاً، وفي المقابل ازداد اليهود تفرقاً وضعفاً. ويبدو أنه كان لإجلاء بني قينقاع وقع كبير في نفوس اليهود، فتوقفوا في أعقاب ذلك عن المجادلة الدينية، ومضايقة المسلمين بالدسِّ عليهم، ودخلت هيبة المسلمين في المشركين، وأُتيح للرسول ﷺ أن ينشر دعوته.

تحليل غزوة بني قينقاع

يستوقفنا في هذا التحليل موقف رسول الله ﷺ وتعامله مع عبد الله بن أبيّ بن سلول، وهو من الذين في قلوبهم مرض، وموقف عبادة بن الصامت من هذه القضية.

أما موقف رسول الله ﷺ، فكان على ضربين:

الأول: أمل ﷺ من خلال تصرفه مع عبد الله بن أبيّ بن سلول أن يلين قلبه، وتُزال الغشاوة عنه؛ لعله يتذكَّر أو يخشى، فيهديه الله، ويتبعه الذين يسيرون وراء زعامته.

الثاني: كان بعض الأنصار حديثي عهد بالإسلام، فخشي ﷺ أن يؤثر فيهم رأس المنافقين هذا، نظراً لمكانته الكبيرة ونفوذه في المدينة؛ لذلك استخدم معه أسلوب المداراة والصبر عليه وعلى إساءته تجنباً للفتنة التي ليست في صالح الدعوة الإسلامية، وإظهاراً لحقيقته من خلال تصرفاته؛ لعلَّ الناس ينفضُّون من حوله ولا يتعاطفون معه، وهذا من فقهه السياسي ﷺ، علماً بأن هذا الأسلوب حقَّق نجاحاً باهراً، فقد انكشفت حقيقة هذا الرجل أمام الناس جميعهم حتى أقرب الناس إليه، ومنهم ابنه عبد الله، فكانوا بعدها إذا تكلَّم أسكتوه، وتضايقوا من كلامه، وهمُّوا بقتله يوماً.

وفيما يتعلق بموقف الرجلين، عبد الله بن أُبيّ بن سلول وعبادة بن الصامت،

---

(1) ابن هشام: جـ٣ ص١٣٧، ١٣٨.

وهما سواء في التحالف مع بني قينقاع؛ أن الأول استمسك بحلفه معهم «إنني رجل أخشى الدوائر وأن تصيبنا الشدة، وأن تنزل بنا الضائقة». والواقع أن هذه الحجة هي علامة مرض القلب، وضعف الإيمان، فالولي هو الله، والناصر هو الله، والاستنصار بغيره ضلالة، لكن تبقى حجته تسري على مدار الزمن، وهي حجة كل منافق مريض القلب. وفي المقابل نفر قلب الثاني من ولاء بني قينقاع بفعل ما بدا منهم من الشقاق؛ لأنه قلب مؤمن تربى على المنهج النبوي، فتخلص من آثار العصبية الجاهلية والأهواء والمصالح الذاتية، وقدَّم مصلحة الإسلام على كل مصلحة، فكان صاحبه مثلاً حياً للمسلم الصادق، المخلص لعقيدته.

إنهما نهجان ناشئان عن تصورين مختلفين وعن شعورين متباينين، ومثل هذا الاختلاف قائم على مدار الزمان بين قلب مؤمن، وقلب لا يعرف الإيمان.

ونزلت آيات بيِّنات في موالاة عبد الله بن أُبيّ بن سلول لليهود، وبراءة عبادة بن الصامت منهم[1]، وتشير إلى تلك الحال التي كانت واقعة في المجتمع المسلم والموروثة عن الأوضاع التي كانت قائمة في المدينة قبل الإسلام، والتصورات التي لم تكن قد حُسِمت في قضية العلاقات التي يمكن أن تقوم بين المسلمين واليهود، والتي لا يمكن أن تقوم، والقرآن الكريم بصدد إقامة تصور دائم وعلاقة دائمة بين المسلمين وأهل الكتاب بعامَّة؛ يهود ونصارى، مع اختلاف مواقف اليهود من المسلمين عن مواقف النصارى في جملتها في العهد النبوي، ويُسوِّي النص القرآني بينهم جميعاً؛ يهود ونصارى، وبين الكفار فيما يختص بقضية المحالفة والولاء، ذلك أن هذه القضية ترتكز على قاعدة أخرى ثابتة هي أن ليس للمسلم ولاء ولا حلف إلا مع المسلم، وليس للمسلم ولاء إلا لله ولرسوله وللمسلمين.

وجرى في هذا الوقت تصفية المحرِّضين على الدولة الإسلامية، مثل عصماء بنت مروان، وأبي عفك اليهودي، وكعب بن الأشرف اليهودي[2].

الأحكام الفقهية المستنبطة من غزوة بني قينقاع

تتضمن غزوة بني قينقاع بعض الأحكام الفقهية، نذكر منها:

ـ ستر وجه المرأة. ذكرنا أن سبب الحادثة هو محاولة اليهود إجبار المرأة المسلمة على كشف وجهها[3]؛ وذلك عندما دخلت سوقهم من أجل بيع بضاعة

(١) سورة المائدة/ ٥١ ـ ٥٦.

(٢) ابن هشام: جـ٣ ص١٣٩. الواقدي: جـ١ ص١٧٤، ١٧٥.

(٣) تفرَّد ابن هشام بهذه الرواية، جـ٣ ص١٣٧.

جلبتها معها، ويدل ذلك على أن الحجاب الذي شرعه الإسلام للمرأة يشمل الوجه أيضاً، ولكن لا تقوى دلالة ذلك على مثل هذا الحكم[1].

ـ دلَّ دفاع عبد الله بن أُبيّ بن سلول المستميت عن يهود بني قينقاع إلى نفاق هذا الرجل، الذي كان يتظاهر بالإسلام ويضمر في أعماق قلبه شراً به وبأهله، غير أن رسول الله ﷺ عامله مع ذلك على أنه مسلم وأجابه على ما أصرَّ عليه من إطلاق حلفائه اليهود، والواضح أن لهذه المسألة وجهين:

الأول: جانب ظاهري دنيوي يُكلَّف المسلمون بتطبيقه على مجتمعاتهم وفيما بينهم، ويُشرف الخليفة أو رئيس الدولة على ذلك.

الثاني: جانب باطني أُخروي يعود أمره إلى الله تعالى.

ـ لا يجوز للمسلم أن يتخذ من غير المسلم ولياً له، ويُستثنى من هذا الحكم عندما يكون المسلمون في حال الضعف التي قد تحملهم كرهاً على ذلك. يقول ﷻ: ﴿لَّا يَتَّخِذِ ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلْكَٰفِرِينَ أَوْلِيَآءَ مِن دُونِ ٱلْمُؤْمِنِينَ ۖ وَمَن يَفْعَلْ ذَٰلِكَ فَلَيْسَ مِنَ ٱللَّهِ فِى شَىْءٍ إِلَّآ أَن تَتَّقُوا۟ مِنْهُمْ تُقَىٰةً ۗ وَيُحَذِّرُكُمُ ٱللَّهُ نَفْسَهُۥ ۗ وَإِلَى ٱللَّهِ ٱلْمَصِيرُ﴾ [آل عمران/٢٨].

غزوة بني النضير

أسبابها

ذُعِرَ اليهود في المدينة على أثر إجلاء بني قينقاع، ولكن الهزيمة التي حلَّت بالمسلمين في أُحد، والكارثة التي أصابت أصحاب الرجيع وبئر معونة؛ أزالت الهلع من قلوبهم، وأحيت لديهم الأمل بالقضاء على الدولة الإسلامية، وشاركهم المشركون والمنافقون في ذلك، فعادوا إلى أساليب الدس والخداع، وشرعوا في تخزين السلاح والعتاد في حصونهم تمهيداً للانقضاض على المسلمين ودولتهم، ثم قرَّروا القضاء على الرسول ﷺ بالقتل.

أقدم بنو النضير على نقض عهدهم مع رسول الله ﷺ، الذي حتَّم عليهم ألا يؤووا عدواً للمسلمين، ولا يرشدوا الأعداء إلى مواطن الضعف في المدينة. وحدث في غزوة السويق بعد معركة بدر أن خرج أبو سفيان بن حرب من مكة على رأس مائتي مقاتل لغزو المدينة، وكان قد نذر ألا يمس رأسه ماء من جنابة حتى يفعل ذلك، فاستضافه سلام بن مشكم، سيد بني النضير، وأخفى خبره عن الناس، لكن عيون المسلمين في المدينة لم تكن بغافلة عن ذلك، ودلَّه على عورات المدينة.

---

(١) يورد البوطي أحاديث تشهد على هذا الحكم. **فقه السيرة النبوية**: ص٢٤٩، ٢٥٠.

وحدث في (ربيع الأول ٤هـ/آب ٦٢٥م)[1] أن خرج رسول الله ﷺ ومعه نفر من أصحابه من المهاجرين والأنصار وتوجَّه إلى منازل بني النضير بناحية الغرس عن طريق قباء، ليكلِّمهم في أن يُعِينوه في دية القتيلين من بني عامر اللذين قتلهما عمرو بن أُمية الضمري في بئر معونة، وكان النبي ﷺ قد أمَّنهما، وكان بين بني النضير وبين بني عامر عقد وحلف. فلما وصل إليهم واستعانهم على دية ذينك القتيلين استقبلوه بكثير من البشاشة والكياسة، وقالوا: «نعم يا أبا القاسم! نُعينك على ما أحببت مما استعنت بنا عليه»[2]. وخلا بعضهم إلى بعض وهمُّوا بالغدر، فقالوا: «إنكم لن تجدوا الرجل على مثل حاله هذه ـ ورسول الله ﷺ إلى جانب جدار من بيوتهم قاعد ـ فمَن رجل يعلو على هذا البيت فيُلقي عليه صخرة فيريحنا منه؟»[3]. فانتُدب لذلك عمرو بن جحاش بن كعب، فصعد ليلقي صخرة، ورسول الله في نفر من أصحابه، فأتى الخبر من السماء بما عزم القوم عليه من الشر، فنهض رسول الله ﷺ سريعاً، وكأنه يريد حاجة، وتوجَّه إلى المدينة، وعندما استبطأه أصحابه نهضوا ولحقوا به، ولما سألوه عن سبب ذلك، قال: (**همَّت يهود بالغدر، فأخبرني الله بذلك، فقمت**)[4].

ويبدو أن مشكم بن سلام نهاهم عن فعل ذلك؛ لأنه نقضٌ للعهد الذي بينهم وبين رسول الله ﷺ، وحذَّرهم من أنه سيُخبَر بما همُّوا به من السماء[5].

لم تكن مؤامرة بني النضير تستهدف شخص النبي ﷺ فحسب، بل كانت تستهدف كذلك دولة المدينة والدعوة الإسلامية، لذا قرَّر ﷺ محاربة بني النضير الذين نقضوا العهد والمواثيق معه، وأمر أصحابه بالتهيؤ للمسير إليهم وقتالهم.

إنذار بني النضير بالجلاء عن المدينة

أرسل النبي ﷺ محمَّد بن مسلمة إلى بني النضير، وقال له: (**اذهب إلى يهود بني النضير وقل لهم: إن رسول الله ﷺ أرسلني إليكم أن اخرجوا من بلادي، لقد نقضتم العهد الذي جعلت لكم مما هممتم به من الغدر، وقد أجَّلتكم عشراً، فمن رُئي بعد منكم ضربت عنقه**)[6]. فتدخل عبد الله بن أُبيٍّ بن سلول، وطلب منهم أن يثبتوا ويمتنعوا في حصونهم وأبدى استعداده لمساعدتهم، «اثبتوا وتمنَّعوا فإنَّا لن نسلمكم،

---

(١) ابن سعد: جـ٢ ص٥٧.
(٢) ابن هشام: جـ٣ ص٢٤٠.
(٣) المصدر نفسه.
(٤) المصدر نفسه.
(٥) الواقدي: جـ١ ص٣٦٥. ابن سعد: جـ٢ ص٥٧.
(٦) الواقدي: جـ١ ص٣٦٦، ٣٦٧.

وإن قوتلتم قاتلنا معكم، وإن أُخرجتم خرجنا معكم، ولا تخرجوا فإن معي من العرب وممن انضوى إلى قومي ألفين، فأقيموا، فهم يدخلون معكم حصونكم ويموتون عن آخرهم قبل أن يصلوا إليكم»[1].

أعاد موقف عبد الله بن أُبيٍّ بن سلول بعض الثقة إلى نفوس يهود بني النضير، وتشجَّع كبيرهم، حيي بن أخطب، فأرسل إلى النبي ﷺ جدي بن أخطب يقول له: «إنَّا لن نريم (نبرح) دارنا، فاصنع ما بدا لك. فكبَّر رسول الله ﷺ وكبَّر المسلمون، وقال: (حاربت يهود)»[2].

حصار بني النضير وإجلاؤهم

انقضت الأيام العشرة التي منحها الرسول ﷺ لبني النضير للخروج من المدينة، من دون أن يفعلوا ذلك، فتحرك النبي ﷺ على رأس الجيش صوبهم وضرب الحصار عليهم، وقد استمروا خمسة عشر يوماً[3] لم يتلقوا خلالها أي مساعدة خارجية من حليفهم عبد الله بن أُبيٍّ بن سلول، والواضح أن الظروف السياسية والعسكرية كانت وراء إحجامه عن تقديم المساعدة.

وأمر رسول الله ﷺ أثناء عملية الحصار بحرق نخيل بني النضير في محاولة للضغط عليهم؛ ما قضى على أسباب تعلقهم بأموالهم وزروعهم، وضَعُف حماسهم للقتال وجزعوا وتصايحوا: «يا محمَّد! قد كنت تنهى عن الفساد وتُعيبه على من يفعله، فما بال قطع النخيل وتخريبها؟». وقد أنزل ﷻ في ذلك قوله: ﴿مَا قَطَعْتُم مِّن لِّينَةٍ[4] أَوْ تَرَكْتُمُوهَا قَآئِمَةً عَلَىٰٓ أُصُولِهَا فَبِإِذْنِ ٱللَّهِ وَلِيُخْزِيَ ٱلْفَـٰسِقِينَ﴾ [الحشر/ ٥].

وقذف الله الذعر في قلوب بني النضير، وأدركوا أن لا مفرَّ من الجلاء، فأرسلوا إلى النبي ﷺ يلتمسون منه أن يؤمنهم حتى يخرجوا من ديارهم، فأجابهم إلى التماسهم، واشترط عليهم أن يخرجوا بدمائهم وما حملت الإبل إلا الحلقة (السلاح)، فرضوا بذلك[5]. وكان هذا التصرف من النبي ﷺ حتى لا يكون السلاح عوناً لهم إذا ما أرادوا محاربة المسلمين في المستقبل. وعمدوا إلى هدم بيوتهم عن نجاف (عتبات) الأبواب لكي لا ينتفع بها المؤمنون، وحملوا معهم كميات كبيرة من الذهب والفضة، وحملوا أمتعتهم على ستمائة بعير وخرجوا ومعهم الدفوف والمزامير

---

(١) الواقدي: جـ١ ص٣٦٨. ابن هشام: جـ٣ ص٢٤٠، ٢٤١.

(٢) ابن كثير: جـ٤ ص٧٥. (٣) الواقدي: جـ١ ص٣٧٤.

(٤) لينة: كل شيء من النخل سوى العجوة، فهو من اللين، واحدته: لينة.

(٥) ابن هشام: جـ٣ ص٢٤٠، ٢٤١.

والقيان يعزفن خلفهم حتى لا يشمت بهم المسلمون، فقصد بعضهم خيبر وسار آخرون إلى أذرعات ببلاد الشام[١]، وخلُّوا الأموال لرسول الله، فكانت له خاصة يضعها حيث يشاء، فقسَّمها على المهاجرين الأولين من دون الأنصار، إلا سهل بن حنيف وأبا دجانة سماك بن خرشة لأنهما كانا فقيرين. وأسلم من بني النضير رجلان: يامين بن عمير أبو كعب بن عمرو بن جحاش، وأبو سعد بن وهب، فخلَّى لهما أموالهما[٢].

غزوة بني النضير في القرآن الكريم[٣]

هذه صورة ثانية من طبيعة الغدر والخيانة المتأصلة في نفوس اليهود، وقد رأينا صورة أخرى قبلها من خيانتهم فيما أقدم عليه بنو قينقاع، وتلك حقيقة تاريخية أثبتتها الوقائع، وذلك هو سر اللعنة الإلٰهية التي حاقت بهم وسجلها القرآن الكريم[٤]: ﴿لُعِنَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ مِنۢ بَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ عَلَىٰ لِسَانِ دَاوُۥدَ وَعِيسَى ٱبۡنِ مَرۡيَمَۚ ذَٰلِكَ بِمَا عَصَواْ وَّكَانُواْ يَعۡتَدُونَ﴾ [المائدة/٧٨].

وتحدث القرآن الكريم في سورة كاملة عن غزوة بني النضير، هي سورة الحشر، وسمّاها عبد الله بن عباس سورة النضير[٥]، وقد بيَّنت ملابساتها، وفصَّلت القول فيها، وبيَّنت أحكام الفيء ومن هم مستحقوه، وكشفت عن نفسيات اليهود، وأوضحت موقف المنافقين منهم، وخاطب ﷺ المؤمنين من خلالها، فأمرهم بتقواه وحذَّرهم من معصيته، ووصف ما كان في أعقابها من تنظيمات المجتمع المسلم، وأتبعها بتوجيهات الجماعة المسلمة. ويمكننا استخراج بعض الأحكام والتوجيهات من حيثياتها، وأهمها:

الثناء على الله: افتتحت السورة بالثناء على الله، وأبرزت حقيقة أن كل شيء في السماوات والأرض من مخلوقات، من إنسان وحيوان ونبات وجماد؛ يُسبِّح لله ويشهد بوحدانيته وبسلطانه، ويُنزِّهه عما لا يليق بجلاله، ويخضع لعظمته؛ لأنه العزيز الذي قهر كل شيء، فلا يمتنع عليه شيء، ولا يستعصي عليه عسير، ولأنه الحكيم في خلقه وأمره فلا يخلق شيئاً عبثاً ولا يُشرِّع ما لا مصلحة فيه، ولا يفعل إلا ما هو مقتضى حكمته، ومن ذلك نصره لرسوله ﷺ على الذين كفروا من أهل

(١) ابن هشام: جـ٣ ص٢٤٠. ابن سعد: جـ٢ ص٥٨.
(٢) ابن هشام: جـ٣ ص٢٤١.
(٣) انظر: في ظلال القرآن: جـ٢٨ ص٣٢ ـ ٥١.
(٤) البوطي: ص٢٨٢.
(٥) صحيح البخاري، كتاب المغازي، باب حديث بني النضير، رقم الحديث (٤٠٢٩)، ص٧٣٠.

الكتاب من بني النضير حين غدروا برسوله، فأخرجهم من ديارهم التي ألفوها وأحبوها ﴿سَبَّحَ لِلَّهِ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلْأَرْضِ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ﴾ [الحشر/١].

دور العناية الإلٰهية في إخراج بني النضير: يقصُّ ﷻ نبأ الحادث الذي نزلت فيه السورة، ونعلم يقيناً من الآيات الخاصة بهذه الوقائع أن الله هو الذي أخرج الذين كفروا من يهود بني النضير من ديارهم لأول الحشر ﴿هُوَ ٱلَّذِيٓ أَخْرَجَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ مِنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ مِن دِيَٰرِهِمْ لِأَوَّلِ ٱلْحَشْرِ﴾، في حين أن كل الأسباب المادية كانت متوفرة لهم، مثل: القوة، والمنعة في حصونهم، فالله هو فاعل كل شيء، وتُقرِّر صيغة التعبير هذه الحقيقة بشكل مباشر، وهو أن الله تولى هذا الإخراج من غير ستار لقدرته من قِبل البشر، لكن الله فاجأهم من حيث لم يحتسبوا، ﴿مَا ظَنَنتُمْ أَن يَخْرُجُواْ وَظَنُّوٓاْ أَنَّهُم مَّانِعَتُهُمْ حُصُونُهُم مِّنَ ٱللَّهِ فَأَتَىٰهُمُ ٱللَّهُ مِنْ حَيْثُ لَمْ يَحْتَسِبُواْ وَقَذَفَ فِي قُلُوبِهِمُ ٱلرُّعْبَ﴾، فقد أتاهم من داخل أنفسهم، ومن داخل قلوبهم، فقذف فيها الرعب وهو جند من جند الله.

لقد تحصَّن بنو النضير بحصونهم وامتنعوا بها وبِدُورهم وبيوتهم، فسلَّطهم الله على هذه الدور والبيوت يخربونها بأيديهم، ويُمكِّنون المؤمنين من المشاركة في ذلك ﴿يُخْرِبُونَ بُيُوتَهُم بِأَيْدِيهِمْ وَأَيْدِي ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾، وفي ذلك عبرة لأُولي الأبصار المهيَّأة قلوبهم للاعتبار ﴿فَٱعْتَبِرُواْ يَٰٓأُوْلِي ٱلْأَبْصَٰرِ﴾.

﴿وَلَوْلَآ أَن كَتَبَ ٱللَّهُ عَلَيْهِمُ ٱلْجَلَآءَ لَعَذَّبَهُمْ فِي ٱلدُّنْيَا وَلَهُمْ فِي ٱلْأٓخِرَةِ عَذَابُ ٱلنَّارِ﴾، إنه أمرٌ مُقرَّر أن ينالهم العقاب والجزاء من الله، ولولا أن اختار الله جلاءهم؛ لعذَّبهم عذاباً آخر غير عذاب النار الذي ينتظرهم في الآخرة، وقد استحقوه على أيِّ حال.

طمأنة المؤمنين: طمأن القرآن الكريم المؤمنين على صواب ما فعلوه بهؤلاء الذين كفروا، وشاقُّوا الله ورسوله؛ من تقطيع نخلهم وتحريقها أو تركها كذلك قائمة على أصولها، وبيَّن الحكم في هذه المسألة ﴿مَا قَطَعْتُم مِّن لِّينَةٍ أَوْ تَرَكْتُمُوهَا قَآئِمَةً عَلَىٰٓ أُصُولِهَا فَبِإِذْنِ ٱللَّهِ وَلِيُخْزِيَ ٱلْفَٰسِقِينَ﴾. ويبدو أن المسلمين تحرَّجت صدورهم من الفعل ومن الترك، وكانوا منهيين قبل ذلك وبعده عن مثل هذا العمل في التخريب والتحريق، والواضح أن الأصل هو عدم قطع الشجر وعدم تخريب البناء؛ لأن الهدف من الحرب ليس إيذاء الرعية، ولكن دفع أذى الظالم. أما إذا تبيَّن أن قطع الشجر وهدم البناء ضرورة عسكرية كأن يستتر العدو به، فإنه لا مناص من قطع الأشجار وهدم البناء كما فعل النبي ﷺ.

واحتاج هذا الاستثناء إلى بيان خاص يُطمئن القلوب، فجاء هذا البيان يربط الفعل والترك بإذن الله، فهو الذي أدار المعركة، وأنفذ فيها قدره، وأراد فيها ما أراد

به أن يُخزي الفاسقين؛ إذ أن قطع النخيل يخزيهم بالحسرة على قطعه، وتركه يخزيهم بالحسرة على فوته، وإرادة الله وراء هذا وذاك، وبذلك تستقر قلوب المؤمنين المتحرِّجة وتطمئن.

حكم الفيء: بيَّن ﷺ حكم الأموال التي أخذها المسلمون من بني النضير بعد أن تمَّ إجلاؤهم، فقال تعالى: ﴿وَمَآ أَفَآءَ ٱللَّهُ عَلَىٰ رَسُولِهِۦ مِنْهُمْ فَمَآ أَوْجَفْتُمْ عَلَيْهِ مِنْ خَيْلٍ وَلَا رِكَابٍ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يُسَلِّطُ رُسُلَهُۥ عَلَىٰ مَن يَشَآءُ ۚ وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ﴾. تُذكِّر الآية المسلمين أن هذا الفيء الذي خلفه وراءهم بنو النضير تفضَّل به عليهم بدون قتال، فلم يركضوا عليه خيلاً، ولم يُسرعوا إليه ركباً، فحكمه ليس حكم الغنيمة التي أعطاهم الله أربعة أخماسها، واستبقى خمسها لله وللرسول ولذوي القربى واليتامى والمساكين وابن السبيل، كما حكم الله في غنائم بدر، إنما حُكم هذا الفيء كله لله وللرسول ولذي القربى واليتامى والمساكين وابن السبيل، ويتصرف الرسول به في هذه الوجوه.

إن الحكمة من هذا التوزيع للفيء كي لا يكون دولة بين الأغنياء، وهذه إحدى قواعد التنظيم الاقتصادي والاجتماعي في المجتمع الإسلامي. ﴿مَّآ أَفَآءَ ٱللَّهُ عَلَىٰ رَسُولِهِۦ مِنْ أَهْلِ ٱلْقُرَىٰ فَلِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ وَلِذِى ٱلْقُرْبَىٰ وَٱلْيَتَٰمَىٰ وَٱلْمَسَٰكِينِ وَٱبْنِ ٱلسَّبِيلِ كَىْ لَا يَكُونَ دُولَةًۢ بَيْنَ ٱلْأَغْنِيَآءِ مِنكُمْ ۚ وَمَآ ءَاتَىٰكُمُ ٱلرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَىٰكُمْ عَنْهُ فَٱنتَهُوا۟ ۚ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ ۖ إِنَّ ٱللَّهَ شَدِيدُ ٱلْعِقَابِ﴾ وهذه قاعدة عامة تتجاوز الحادث الواقع إلى آماد طويلة في أسس النظام الاجتماعي الإسلامي.

ويُمثِّل تلقي الشريعة من مصدر واحد ﴿وَمَآ ءَاتَىٰكُمُ ٱلرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَىٰكُمْ عَنْهُ فَٱنتَهُوا۟﴾ النظرية الدستورية الإسلامية، فسيادة القانون في الإسلام مستمدَّة من أن هذا التشريع جاء به الرسول قرآناً أو سنَّة، ولا يملك المسلمون أن يخالفوه. لقد كان توزيع الفيء على المهاجرين وحدهم، باستثناء رجلين من الأنصار، إجراءً خاصاً بهذا الفيء تحقيقاً لقاعدة ﴿كَىْ لَا يَكُونَ دُولَةًۢ بَيْنَ ٱلْأَغْنِيَآءِ مِنكُمْ﴾، أما الحكم العام، فهو أن يكون للفقراء بعامة من المهاجرين والأنصار، وممن يأتي بعدهم من الأجيال.

أهم الملامح المميزة للمهاجرين والأنصار والتابعين: بيَّنت الآيات في سورة الحشر أهم الملامح المميزة لهؤلاء الفئات من المسلمين، ورسمت صورة مشرقة لهم ﴿لِلْفُقَرَآءِ ٱلْمُهَٰجِرِينَ ٱلَّذِينَ أُخْرِجُوا۟ مِن دِيَٰرِهِمْ وَأَمْوَٰلِهِمْ يَبْتَغُونَ فَضْلًا مِّنَ ٱللَّهِ وَرِضْوَٰنًا وَيَنصُرُونَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥٓ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلصَّٰدِقُونَ﴾، كذلك صوَّرت موقف الأنصار من الإيمان ﴿وَٱلَّذِينَ تَبَوَّءُو ٱلدَّارَ وَٱلْإِيمَٰنَ مِن قَبْلِهِمْ﴾؛ أي دار الهجرة يثرب مدينة الرسول ﷺ، وقد تبوَّأها الأنصار قبل المهاجرين كما تبوَّأوا فيها الإيمان ﴿يُحِبُّونَ مَنْ هَاجَرَ إِلَيْهِمْ وَلَا

﴿يَجِدُونَ فِي صُدُورِهِمْ حَاجَةً مِّمَّآ أُوتُواْ﴾. الواقع أنه لم يشهد التاريخ وضعاً جماعياً كحادث استقبال الأنصار للمهاجرين المفعم بالحب الكريم، والبذل السخي، والمشاركة الرضية، والتسابق إلى الإيواء، واحتمال الأعباء، ولا يجدون في صدورهم حاجة مما يناله المهاجرون من مال يختصون به كهذا الفيء ﴿وَيُؤْثِرُونَ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ﴾، وهو الإيثار على النفس مع الحاجة، وهذا مما لم يشهد التاريخ له نظيراً.

﴿وَالَّذِينَ جَآءُو مِنۢ بَعْدِهِمْ يَقُولُونَ رَبَّنَا اغْفِرْ لَنَا وَلِإِخْوَٰنِنَا الَّذِينَ سَبَقُونَا بِالْإِيمَٰنِ وَلَا تَجْعَلْ فِي قُلُوبِنَا غِلًّا لِّلَّذِينَ ءَامَنُواْ رَبَّنَآ إِنَّكَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ﴾. يتجلّى هذا النص ربط أول الأُمة الإسلامية بآخرها، وآخرها بأولها في تضامن وتكافل وتوادٍّ وتعاطف تحت راية الله على مرِّ الأزمان. إنها مسيرة الإيمان، ودعاء الإيمان، وإنها لدعاء كريم.

أهم الملامح المميزة للمنافقين: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ نَافَقُواْ يَقُولُونَ لِإِخْوَٰنِهِمُ الَّذِينَ كَفَرُواْ مِنْ أَهْلِ الْكِتَٰبِ لَئِنْ أُخْرِجْتُمْ لَنَخْرُجَنَّ مَعَكُمْ وَلَا نُطِيعُ فِيكُمْ أَحَدًا أَبَدًا وَإِن قُوتِلْتُمْ لَنَنصُرَنَّكُمْ وَاللَّهُ يَشْهَدُ إِنَّهُمْ لَكَٰذِبُونَ * لَئِنْ أُخْرِجُواْ لَا يَخْرُجُونَ مَعَهُمْ وَلَئِن قُوتِلُواْ لَا يَنصُرُونَهُمْ وَلَئِن نَّصَرُوهُمْ لَيُوَلُّنَّ الْأَدْبَٰرَ ثُمَّ لَا يُنصَرُونَ﴾، وهي إشارة إلى موقف رأس المنافقين عبد الله بن أُبيّ بن سلول الذي خذل حلفاءه من بني النضير. ويُقرِّر القرآن حقيقة قائمة في نفوس المنافقين وحلفائهم من أهل الكتاب، وهي أنهم يَرهبون المؤمنين أشدَّ مما يرهبون الله ﴿لَأَنتُمْ أَشَدُّ رَهْبَةً فِي صُدُورِهِم مِّنَ اللَّهِ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَّا يَفْقَهُونَ﴾، ولو خافوا الله ما خافوا أحداً من عباده، فإنما هو خوف واحد، ورهبة واحدة.

وتبقى الملامح النفسية الأخرى ﴿بَأْسُهُم بَيْنَهُمْ شَدِيدٌ تَحْسَبُهُمْ جَمِيعًا وَقُلُوبُهُمْ شَتَّىٰ﴾ على خلاف المؤمنين الذين تتضامن أجيالهم وتجمعهم أواصر الإيمان مع اختلاف المكان والجنس والوطن والعشيرة على مدى الأزمان، ولكن عندما تتفرّق قلوب المسلمين ويفقدون تمثيلهم لحقيقة المؤمنين كما عرضتها الآيات، عندئذ ينال منهم المنافقون والذين كفروا من أهل الكتاب.

الفَصْلُ الخامِسَ عَشَرَ

تصفية يهود بني قريظة ويهود خيبر

غزوة بني قريظة

أسبابها

إن السبب الحقيقي لغزوة بني قريظة هو تصفية اليهود بعامة، وإجلاؤهم عن المدينة، وجاء الآن دور بني قريظة في هذا المحيط بعد بني قينقاع وبني النضير. أما الذي أشعل هذه الغزوة، فهو نقض بني قريظة العهد الذي كان بينهم وبين رسول الله ﷺ من واقع دورهم المعادي للدولة الإسلامية وتعاونهم مع الأحزاب الذين غزوا المدينة في (شوال ٥هـ/آذار ٦٢٧م)؛ ذلك عندما حاصرت قريش رسول الله ﷺ والمسلمين في غزوة الأحزاب ذهب أحد زعماء بني النضير، وهم حلفاء قريش في حربها لرسول الله ﷺ، واتفق مع بني قريظة على نقض العهد مع رسول الله ﷺ ومهاجمة المدينة من الخلف كما ذكرنا، ولذلك ما إن انتهت هذه الغزوة بانسحاب الأحزاب وانتصار المسلمين، حتى هاجم رسول الله ﷺ بني قريظة لنقضها العهد.

المسير إلى بني قريظة

عندما وضعت الحرب أوزارها بانسحاب الأحزاب؛ حان الوقت لإنزال العقاب ببني قريظة الذين نقضوا العهد في أخطر ساعة عاشها المسلمون، ووضع الرسول ﷺ آنذاك السلاح، وعاد المسلمون ضحى إلى المدينة، فجاءه جبريل وسأله: «أوَقد وضعت السلاح يا رسول الله؟ أجاب الرسول: (نعم). فقال جبريل: فما وضعت الملائكة السلاح بعد، وما رجعت الآن إلا من طلب القوم، إن الله ﷻ يأمرك يا محمَّد بالمسير إلى بني قريظة، فإني عامد إليهم فمزلزل بهم»[1]. فأمر رسول الله ﷺ بلالاً أن يؤذن في الناس: (**إن رسول الله ﷺ يأمركم ألا تُصلُّوا العصر إلا ببني قريظة**)[2]. وذلك لاستنهاض هِممهم بعد الجهد والعناء الذي أصابهم خلال أيام الحصار الشاقة.

---

(١) ابن هشام: جـ٣ ص٢٦٧.
(٢) الواقدي: جـ٢ ص٤٩٧.

الواقع أن الرسول ﷺ أدرك أهمية الوقت في مباغتة القوم والحصول على نتائج إيجابية، فإذا استبطأ في مسيرته إليهم؛ استفادوا من عامل الوقت للتجهز والتماس المساعدة من حلفائهم، واتخاذ التدابير لمقاومة حصار قد يفرضه المسلمون، والواضح أن التحرك السريع لهؤلاء لم يُتح لهم الوقت الكافي لتنظيم خطة دفاعية، كما أنه شلَّ معنوياتهم، وقضى على روح المقاومة فيهم، هذا على الرغم من أن المسلمين كانوا منهوكي القوى لسهرهم على حراسة مواقعهم مدة شهر تقريباً، في موقف عصيب.

وأثناء سير المسلمين إلى بني قريظة أدرك بعضهم العصر في الطريق، فقال بعضهم: «لا نُصلي حتى نأتيها، وقال بعضهم: بل نصلي، لم يُرد منا ذلك، فذُكر ذلك للنبي ﷺ، فلم يُعنِّف واحداً منهم»[1]؛ لأنهم لم يُخطئوا التصرف.

حصار بني قريظة

حاصر رسول الله ﷺ بني قريظة مدة خمسة وعشرين يوماً[2]، وفي رواية: خمسة عشر يوماً[3]، حتى أجهدهم، وقذف الله في قلوبهم الرعب. وعندما اشتدَّ عليهم الحصار، وأيقنوا بأن رسول الله ﷺ غير منصرف عنهم حتى يُناجزهم، قال كعب بن أسد لهم: «يا معشر يهود! قد نزل بكم من الأمر ما ترون، وإني عارض عليكم خلالاً ثلاثاً فخذوا أيها شئتم. قالوا: وما هي؟ قال: نتابع هذا الرجل ونُصدِّقه، فوالله لقد تبيَّن لكم أنه نبي مرسل، وأنه للذي تجدونه في كتابكم، فتأمنون على دمائكم وأموالكم وأبنائكم ونسائكم. قالوا: لا نفارق حكم التوراة أبداً ولا نستبدله غيره. قال: فإذا أبيتم عليَّ هذه، فهلمَّ فلنقتل أبناءنا ونساءنا ثم نخرج إلى محمَّد وأصحابه رجالاً مصلتين السيوف، لم نترك وراءنا ثقلاً حتى يحكم الله بيننا وبين محمَّد، فإن نهلك؛ نهلك ولم نترك وراءنا نسلاً نخشى عليه، وإن نظهر فلعمري لنجدن النساء والأبناء. قالوا: نقتل هؤلاء المساكين، فما خير العيش بعدهم؟ قال: فإن أبيتم عليَّ هذه، الليلة ليلة السبت، وإنه عسى أن يكون محمَّد وأصحابه قد أمنونا، فانزلوا لعلنا نصيب من محمَّد وأصحابه غرة. قالوا: نفسد سبتنا علينا، ونحدث فيه ما لم يحدث من كان قبلنا إلا من قد علمت، فأصابه ما لم يخف عليك من المسخ. وقال أحد زعمائهم ويُدعى نبَّاش بن قيس: وكيف نصيب منهم غرة

---

(١) صحيح البخاري، كتاب المغازي، باب مرجع النبي ﷺ من الأحزاب ومخرجه إلى بني قريظة... رقم الحديث (٤١١٩)، ص٧٤٧.

(٢) ابن هشام: جـ٣ ص٢٦٧.

(٣) ابن سعد: جـ٢ ص٧٤.

وأنت ترى أمرهم كل يوم يشتد، كانوا أول ما يحاصروننا إنما يقاتلون بالنهار ويرجعون بالليل... فهم الآن يبيتون الليل ويظلون النهار، فأي غرة نصيب منهم؟ قال كعب: ما بات رجل منكم منذ ولدته أُمه ليلة واحدة من الدهر حازماً»[1].

بنو قريظة يفاوضون الرسول ﷺ: الواضح أن يهود بني قريظة خشوا قوة المسلمين، فخارت قواهم ومالوا إلى التفاوض مع النبي ﷺ، في الوقت الذي شدَّد فيه الحصار عليهم، فأرسلوا نبَّاش بن قيس يفاوض الرسول ﷺ، ويعرض عليه أن ينزلوا على الحكم الذي نزل عليه بنو النضير في ترك العتاد والسلاح والخروج بالذراري والنساء وما حملت الإبل، فأبى رسول الله ﷺ ذلك، فعرض نباش بن قيس أن تُحقن دماء بني قريظة ويُسلمون للدولة الإسلامية جميع ممتلكاتهم المنقولة وغير المنقولة، فأبى رسول الله ﷺ إلا أن ينزلوا على حكمه، فعاد إليهم نبَّاش وأخبرهم بذلك[2]. ثم إنهم بعثوا إلى رسول الله ﷺ «أن ابعث لنا أبا لبابة بن عبد المنذر لنستشيره في أمرنا»، وكانوا حلفاءه، فاستشاروه في النزول على حكم رسول الله ﷺ، فأجابهم بـ«نعم»، وأشار بيده إلى حلقه، إنه الذبح. وأدرك هذا الصحابي فوراً أنه خان الله ورسوله، فربط نفسه بإحدى عُمد المسجد حتى يتوب الله عليه، وقد ظل كذلك مدة ست ليالٍ كانت امرأته تأتيه في وقت كل صلاة فتحله للصلاة ثم يعود فيرتبط في الجذع، حتى تاب الله عليه، فأنزل ﷻ: ﴿إِنَّمَا ٱلتَّوْبَةُ عَلَى ٱللَّهِ لِلَّذِينَ يَعْمَلُونَ ٱلسُّوٓءَ بِجَهَٰلَةٍ ثُمَّ يَتُوبُونَ مِن قَرِيبٍ فَأُوْلَٰٓئِكَ يَتُوبُ ٱللَّهُ عَلَيْهِمْۗ وَكَانَ ٱللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا﴾ [النساء/١٧]، وأنزل الله في أبي لبابة قوله: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَخُونُواْ ٱللَّهَ وَٱلرَّسُولَ وَتَخُونُوٓاْ أَمَٰنَٰتِكُمْ وَأَنتُمْ تَعْلَمُونَ﴾ [الأنفال/٢٧].

الحكم على بني قريظة وعقابهم: وتشاوَرَ بنو قريظة فيما بينهم، وقد أحكم المسلمون عليهم، وأدركوا أن لا مفرَّ لهم من النزول على حكم رسول الله ﷺ، فاتصلوا سراً بغوغاء الأوس وبمن لم يَنْمُ الإيمان في قلوبهم بعد؛ علماً بأنه كان بين بني قريظة وبين الأوس حلف وولاء، وطلبوا منهم النصرة والمساعدة، فجاء هؤلاء إلى رسول الله ﷺ قالوا له: «يا رسول الله! إنهم موالينا من دون الخزرج، وإنك قد سبق لك أن عفوت عن بني قينقاع موالي الخزرج عندما طلب منك ذلك عبد الله بن أُبيٍّ بن سلول، ونحن نرجو ألا يكون حظنا أقلَّ من حظِّهم»[3]. وللتخلص من هذه الأزمة أوْكل رسول الله ﷺ أمر الحكم إلى زعيم الأوس سعد بن معاذ، وقال

---

(١) ابن هشام: جـ٣ ص٢٦٧، ٢٦٨.

(٢) الواقدي: جـ٢ ص٥٠١. وفي رواية: شاس بن قيس.

(٣) ابن هشام: جـ٣ ص٢٦٩. الواقدي: جـ٢ ص٥١٠، ٥١١.

للأوس: (يا معشر الأوس! ألا ترضون أن يحكم فيهم رجل منكم؟). قالوا: بلى، قال رسول الله ﷺ: (فذاك إلى سعد بن معاذ)[1].

وكان رسول الله ﷺ قد أمر بأن يُمرَّض سعد بن معاذ في خيمة الممرضة رفيدة الأسلمية بفعل سهم أصابه يوم الخندق، وجرحه جرحاً بليغاً. فلما حكَّمه رسول الله ﷺ في بني قريظة أتاه قومه فوضعوه في محفة وحُمل على حمار ثم أقبلوا معه، وهم يقولون: «يا أبا عمرو! أحسن في مواليك، فإن رسول الله ﷺ إنما ولّاك ذلك لتحسن فيهم». فلما أكثروا عليه قال: «آن لسعد ألا تأخذه في الله لومة لائم»[1]. فرجع بعض من كان معه مِن قومه إلى دار بني عبد الأشهل، فنعى لهم رجال بني قريظة قبل أن يصل إليهم سعد. فلما انتهى سعد إلى رسول الله ﷺ والمسلمين، قال ﷺ: (قوموا إلى خيركم، أو سيدكم)[2]. وقضى سعد أن تُقتل المقاتلة، وأن تُسبى النساء والذرية، وأن تُقسم أموالهم، فأقرَّه رسول الله ﷺ، وقال: (قضيت بحكم الله، أو بحكم الملك)[3]. وفي رواية: (لقد حكمت بحكم الله من فوق سبعة أرقعة)[4].

أمر رسول الله ﷺ بتنفيذ الحكم على بني قريظة، فأنزلهم من حصونهم وحبسهم في المدينة في دار كيسة بنت الحارث، ثم خرج إلى سوق المدينة، فخندق بها خنادق، ثم أتى بالرجال فضرب أعناقهم في تلك الخنادق وفيهم حيي بن أخطب، وكعب بن أسد - وهو رأس القوم - وبلغ عددهم بين الستمائة والتسعمائة، ولم يقتل من النساء إلا واحدة، تلك التي طرحت على خلاد بن سويد فقتلته، وقُسِّمت نساؤهم وأطفالهم بين المسلمين، واصطفى ﷺ لنفسه من نسائهم ريحانة بنت عمرو بن خنافة، فكانت عنده ﷺ حتى توفي عنها، وهي ملكه.

استشهد في حصار بني قريظة من المسلمين خلاد بن سويد، طُرحت عليه رحى فقُتل، وأبو سنان بن محصن، ودُفنا في مقبرة بني قريظة.

وأنزل ﷻ من القرآن في أمر بني قريظة: ﴿وَأَنزَلَ ٱلَّذِينَ ظَٰهَرُوهُم مِّنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ مِن صَيَاصِيهِمْ وَقَذَفَ فِى قُلُوبِهِمُ ٱلرُّعْبَ فَرِيقًا تَقْتُلُونَ وَتَأْسِرُونَ فَرِيقًا ۞ وَأَوْرَثَكُمْ أَرْضَهُمْ وَدِيَٰرَهُمْ وَأَمْوَٰلَهُمْ وَأَرْضًا لَّمْ تَطَـُٔوهَا ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرًا﴾ [الأحزاب/٢٦، ٢٧].

---

(١) ابن هشام: جـ٣ ص٢٦٩. الواقدي: جـ٢ ص٥١٠، ٥١١.

(٢) **صحيح البخاري**، كتاب مناقب الأنصار، باب مناقب سعد بن معاذ، رقم الحديث (٣٨٠٤)، ص٦٩٠.

(٣) المصدر نفسه.

(٤) ابن سعد: جـ٢ ص٧٥. وأرقعة: جمع رقيع، وهي السماء.

خلت المدينة من الوجود اليهودي بعد القضاء على بني قريظة، وصارت خالصة للمسلمين، كما خلت الجبهة الداخلية من عنصر خَطِر لديه القدرة على التآمر والكيد والمكر، واضمحلَّ حلم قريش لأنها كانت تُعوِّل على يهود المدينة باتخاذ موقف ضد المسلمين، وابتعد خطر اليهود الذي كان يمدُّ المنافقين بأسباب التحريض والقوة. والواضح أن حماية الجبهة الداخلية للدولة الإسلامية من العابثين، هو منهج نبوي كريم رسمه الرسول ﷺ للأُمة الإسلامية[1].

الأحكام الفقهية المستنبطة من غزوة بني قريظة

استنبط علماء الحديث والسير بعض الأحكام من غزوة بني قريظة، أهمها:

جواز قتال من نقض العهد: وقد جعل الإمام مسلم هذا الحكم عنواناً لغزوة بني قريظة[2]. فالواجب أن الصلح والمعاهدة والاستئمان بين المسلمين وغيرهم ينبغي احترامها من الجانبين، وإذا ما نقضها الآخرون فحينئذ يجوز للمسلمين قتالهم إن رأوا المصلحة في ذلك، وإنزال العقاب العادل بمن غدر وتبرَّأ من حلفه معهم. وكان جزاء بني قريظة من جنس عملهم، بل من قاعدة المعاملة بالمثل، وهذا هو حكم اليهود في أعدائهم إذا ظفروا بهم، ومن أعدل العدل أن يحكم على الإنسان بما يحكم به على غيره، فقد جاء في العهد القديم: «وإذا تقدمت إلى مدينة لتقاتلها، فادعها أولاً إلى السلم. فإذا أجابتك بالسلم وفتحت لك أبوابها، فكل القوم الذي فيها يكون لك تحت الشجرة ويخدمك. وإن لم تُسالمك بل حاربتك، فحاصرتها. وأسلمها الرب إلٰهك إلى يدك، فاضرب كل ذكر بحد السيف. وأما النساء والأطفال والبهائم وجميع ما في المدينة من غنيمة، فاغتنمها لنفسك، وكل غنيمة أعدائك التي أعطاك الرب إلٰهك إياها»[3].

جواز التحكيم في أمور المسلمين: يجوز التحكيم في أُمور المسلمين وفي مهماتهم العظام، وقد أجمع العلماء عليه ولم يخالف فيه إلا الخوارج، فإنهم أنكروا على عليٍّ التحكيم، وأقام الحجة عليهم، وفيه جواز مصالحة أهل قرية أو حصن على حكم حاكم مسلم عدل صالح للحكم أمين على هذا الأمر، وعليه الحكم بما فيه مصلحة المسلمين، وإذا حكم بشيء لزم حكمه، ولا يجوز للإمام ولا لهم الرجوع عنه، ولهم الرجوع قبل الحكم»[4].

---

(١) الصلّابي: جـ٢ ص٢٤٢.

(٢) شرح النووي في هامش صحيح مسلم: جـ١٢ ص٩٢.

(٣) سفر تثنية الاشتراع، الفصل ٢٠، الآية ١٠ ـ ١٤.

(٤) شرح النووي في هامش صحيح مسلم: جـ١٢ ص٩٢.



الاجتهاد في الفروع: إن في اختلاف الصحابة في فهم كلام رسول الله ﷺ: **(لا يصلين أحد العصر إلا في بني قريظة)**. فبعضهم فهم منه المراد الاستعجال، فصلى العصر لما دخل وقته، وبعضهم أخذ بالظاهر فلم يُصلِّ إلا في بني قريظة، ولم يُعنِّف النبي ﷺ أحداً منهم أو عاتبه؛ ففي ذلك دليل على أصل من الأصول الشرعية، وهو تقرير مبدأ الخلاف في مسائل الفروع، ويكون كل من المتخالفين معذوراً ومثاباً، كما أن فيه تقريراً لمبدأ الاجتهاد وفي استنباط الأحكام الشرعية، واستئصال الخلاف في مسائل الفروع التي تنبع من دلالات ظنية[1].

والواضح أن السعي في محاولة القضاء على الخلاف في مسائل الفروع، معاندة للحكمة الربانية والتدبير الإلٰهي في تشريعه، عدا أنه ضرب من العبث الباطل؛ إذ كيف تضمن انتزاع الخلاف في مسألة ما دام دليلها ظنياً محتملاً[2]؟ وفي المسألة المبحوثة من الفقه أنه لا يُعاب على من أخذ بظاهر حديث نبوي أو آية من كتاب الله، كما لا يعاب من استنبط من النص معنى يخصُّه، وفيه أيضاً أن المختلفين في الفروع من المجتهدين لا إثم على المخطىء منهم؛ على أن تكون الاجتهادات المختلفة في مسألة ما، كلها وثيقة الصلة بالأدلة المعتبرة شرعاً. فقد قال ﷺ: **(إذا حكم الحاكم فاجتهد ثم أصاب، فله أجران، وإذا حكم فاجتهد ثم أخطأ، فله أجر)**[3].

توبة المسلم الذي يعترف بالإثم: إن في قصة أبي لبابة التي ذكرت لعبرة، ذلك أن الاعتراف بالذنب والتوبة النصوح بعد الوقوع في الزلَّة؛ تُفضي إلى توبة الله، وهي من آثار الإيمان العميق الراسخ. فقد أفشى أبو لبابة سراً عسكرياً خطيراً، لكنه لم يحاول التكتم على ما بدر منه، وكان بإمكانه أن يُخفي هذا الأمر حيث لم يطلع عليه أحداً من المسلمين، وأن يستكتم اليهود أمره، ولكنه تذكَّر رقابة الله عليه وعلمه بما يُسر ويُعلن، وتذكَّر حق رسول الله ﷺ عليه وهو الذي ائتمنه على ذلك السر، ففزع لهذه الزلة فزعاً عظيماً، وأقرَّ بذنبه واعترف به وبادر إلى العقوبة الذاتية التلقائية، بدون انتظار التحقيق وتوقيع العقوبة الواجبة، وقد فرح الصحابة وفرح النبيُّ بتوبته[4].

تأكد اليهود من نبوَّة محمَّد ﷺ: يتضح من النقاش الذي دار بين يهود بني قريظة

---

(١) البوطي: ص٣٣٢.	(٢) المرجع نفسه.

(٣) **صحيح البخاري**، كتاب الاعتصام بالكتاب والسُّنَّة، باب أجر الحاكم إذا اجتهد فأصاب أو أخطأ، رقم الحديث (٧٣٥٢)، ص١٣٢٩.

(٤) الحميدي، عبد العزيز: **التاريخ الإسلامي مواقف وعبر**، جـ٦ ص١٦٥.

بشأن إيجاد مخرج لمسألة حصار المسلمين لهم؛ أنهم كانوا على يقين من نبوَّة محمَّد ﷺ، من خلال ما أثبته العهد القديم عنه ﷺ، وعن علاماته وبعثته، ولكنهم كانوا أسيري عصبيتهم وتكبُّرهم.

من فضائل سعد بن معاذ: نقف من وقائع غزوة بني قريظة على مزية كبيرة لسعد بن معاذ وفضائله، نذكر منها:

ـ استجابة الله تعالى لدعائه، فعندما جُرح في غزوة الخندق، أو الأحزاب؛ رفع يديه إلى السماء يدعو الله: «اللهمَّ إنك تعلم أنه ليس أحد أحب إليَّ أن أجاهدهم فيك من قوم كذبوا رسولك ﷺ وأخرجوه[1]، اللهمَّ فإن بقي من حرب قريش شيء، فأبقني له حتى أُجاهدهم فيك». وقد استُجيب دعاء سعد فتحجر جرحه وتماثل للشفاء، حتى كانت غزوة قريظة، وجعل رسول الله ﷺ الحكم فيهم إليه. وبعد أن انتهى من لفظ الحكم وتطهَّرت المدينة من اليهود؛ رفع سعد يده يدعو الله ثانية: «اللهمَّ فإني أظن أنك قد وضعت الحرب بيننا وبينهم (قريش واليهود)، فإن كنت قد وضعت الحرب بيننا وبينهم، فافجرها واجعل موتي فيها». فاستجاب الله دعاءه، فانفجر جرحه ومات. وكان ظن سعد مصيباً، وأن دعاءه في هذه القصة كان مجاباً؛ ذلك أنه لم يقع بين المسلمين وبين قريش بعد غزوة الخندق أو الأحزاب حرب حتى كان فتح مكَّة.

ـ إعطاء النبي ﷺ لسعد صلاحية الحكم بما يشاء على بني قريظة، وأبدى استعداده للموافقة على ما يحكم به.

ـ من إكرام رسول الله ﷺ قوله للأنصار عندما جاء سعد للحكم في بني قريظة: **(قوموا إلى سيدكم)**. وهذا تكريم له وتقدير لشجاعته، حيث سماه سيداً وأمر بالقيام له. وقد استدلَّ عامة العلماء بهذا وغيره على مشروعية إكرام الصالحين والعلماء بالقيام إليهم في المناسبات الداعية إلى ذلك عُرفاً[2]، وفيه إكرام أهل الفضل وتلقِّيهم بالقيام لهم إذا أقبلوا، وليس هذا من القيام المنهي عنه، وإنما ذلك فيمن يقومون عليه وهو جالس ويمثلون قياماً طول جلوسه، والقيام للقادم من أهل الفضل مستحب، ولم يصح في النهي عنه شيء صريح[3]. ولا يتنافى ذلك مع ما صحَّ عن رسول الله ﷺ، أنه قال: **(من أحب أن يتمثل له الناس قياماً فليتبوأ مقعده من النار)**؛ لأن مشروعية إكرام الفضلاء وتوقيرهم لا تستدعي السعي منهم إلى ذلك أو تعلق قلوبهم بمحبَّته، بل إن من أبرز صفات الصالحين والفضلاء أن يكونوا متواضعين لإخوانهم[4].

---

(١) يعني بذلك: قريش. (٢) البوطي: ص٣٣٣.

(٣) **شرح النووي في هامش صحيح مسلم**: جـ١٢ ص٩٣.

(٤) المصدر نفسه.

غـزوة خيـبر

أسبابها

لم يُعادِ يهود خيبر المسلمين حتى نزل فيهم زعماء بني النضير الذين حقدوا على الرسول ﷺ لإجلائهم عن المدينة. ويبدو أن ذلك لم يكسر شوكتهم، فقد غادروا المدينة ومعهم النساء والأبناء والأموال، وخلفهم القيان تضرب بالدفوف والمزامير زهواً وخيلاء، وعلى رأسهم زعماؤهم أمثال: سلام بن أبي الحقيق، وكنانة بن أبي الحقيق، وحيي بن أخطب، فسادوا ودان لهم أهل خيبر، وكان هذا كافياً لجرِّهم إلى الصراع والانتقام من المسلمين. فقد دفع حيي بن أخطب بني قريظة إلى نقض عهدهم مع رسول الله ﷺ، وساندوا الأحزاب الذين كانوا يحاصرون المدينة، وغدت خيبر بمرور الزمن ملجأ للمبعدين من اليهود، وقد راحوا ينتظرون الفرصة للانقضاض على المسلمين.

واتصل بعض اليهود بزعيمهم سلام بن مشكم، وسألوه الرأي، فأجابهم: «. . .نسير إلى محمَّد بما معنا من يهود خيبر، فلهم عدد، ونستجلب يهود تيماء وفدك ووادي القرى، ولا نستعين بأحد من العرب، فقد رأيتم في غزوة الخندق ما صنعت بكم العرب. . . ثم نسير إليه في عقر داره. . .»[1]. فقالوا: «هذا الرأي». فقد كان يدفعهم حقد دفين ورغبة قوية في العودة إلى ديارهم داخل المدينة، وعارض بعض زعمائهم هذا التوجه الذي ينطوي على المجازفة[2]. وأضحت خيبر مصدر خطر كبير على المسلمين.

وعندما علم الرسول ﷺ بما يُدبِّرون أخذ يتجهَّز لقتالهم، ومهَّد لذلك بإرسال مجموعات لاغتيال بعض زعمائهم، مثل: سلام بن أبي الحقيق، وأسير بن رزام الذي كان على اتصال دائم مع غطفان التماساً لمساندتها لهم، وكان رسول الله ﷺ قد عقد صلح الحديبية مع قريش، فتفرَّغ لتصفية خطرهم الذي أخذ يُهدِّد المسلمين.

وتعد غزوة خيبر أول غزوة هجومية يقوم بها رسول الله ﷺ، بعد أن كان يتخذ موقع الدفاع حتى صلح الحديبية، وتدل على أن الدعوة الإسلامية دخلت مرحلة جديدة[3].

المسير إلى خيبر

بعد أن أتمَّ النبي ﷺ استعداداته لغزو خيبر، خرج من المدينة في (محرم ٧هـ/ أيار ـ

(١) الواقدي: جـ٢ ص٥٣٠، ٥٣١. (٢) المصدر نفسه: ص٥٣١.

(٣) ابن هشام: جـ٤ ص٣٩.

حزيران ٦٢٨م)، واستنفر الراغبين في الجهاد فقط بدون الغنائم، ذلك أن يهود خيبر كانوا أقوى الطوائف اليهودية بأساً وأعظمها دراية في القتال، واشتهرت حصونهم بمناعتها. ووقفت قبائل الجزيرة العربية متطلعة إلى هذه الغزوة التي ستحدد مصير الصراع مع المسلمين، وظنَّ كثير منها أن الدائرة ستدور عليهم[١]. وكان النبي ﷺ يُدرك أنه لو فشل أمام خيبر، فسيتغير ميزان القوى لغير صالحه، وربما حدثت نكسة أعادت لأعدائه الثقة بالنفس والحماس لقتاله، وحالت دون إتمام الوحدة التي يعمل لها ويسعى إليها[٢]؛ لذلك كان يريد جيشاً مؤمناً بأهدافه، مقدراً للظروف، وبروح إيمانية عالية.

وعندما وصل الجيش إلى الصهباء من أدنى خيبر، أرسل النبي ﷺ عباد بن بشر في سرية استطلاعية، وهذا ما يفعله العسكريون عادة للوقوف على جهوزية العدو، فلقي عيناً لليهود من أشجع، وعرف منه أن القوم خائفون من المسلمين، ووجلون بما صنعوا بيهود المدينة[٣].

ووصل الجيش الإسلامي إلى مشارف خيبر، فوقف الرسول ﷺ ودعا ربَّه بهذا الدعاء الذي كان يدعو به أمام كل قرية يدخلها: (**اللهمَّ رب السماوات وما أظللن، ورب الأرضين وما أقللن، ورب الشياطين وما أضللن، ورب الرياح وما أدرين، فإنا نسألك خير هذه القرية وخير أهلها وخير ما فيها، ونعوذ بك من شرها وشر أهلها وشر ما فيها، أقدموا بسم الله**)[٤]. وعسكر في وادي الرجيع الذي يقع بين خيبر وغطفان بهدف قطع المدد عن يهود خيبر من قبيلة غطفان؛ علماً بأن أفراد هذه القبيلة قد خرجوا لمساعدة أهل خيبر مقابل منحهم نصف ثمار خيبر لذلك العام، فاضطروا للعودة إلى ديارهم، كما أن النبي ﷺ بعمله هذا يكون قد أوهمهم بأنه متوجه إليهم ما دعاهم إلى التخلي عن مساعدتهم ليهود خيبر، ومن ثم انفرد ﷺ بخيبر وباغتها فجراً، وكان رجالها قد خرجوا إلى مزارعهم بمساحيهم ومكاتلهم، فلما رأوا الرسول ﷺ يقود جيش المسلمين؛ فوجئوا، وكانوا لا يظنون أن رسول الله ﷺ يغزوهم لمنعتهم وحصونهم وسلاحهم وعددهم، فتمالكهم الخوف، وهربوا، فدخلوا حصونهم يمتنعون بها، ويستعدون لحصار قد يكون طويلاً[٥].

حصار خيبر وفتح حصونها

اشتهرت خيبر بمناعة حصونها المتعددة، فوضع رسول الله ﷺ خطة عسكرية

---

(١) الواقدي: جـ٢ ص٦٤١.
(٢) خليل: ص٣٥١، ٣٥٢.
(٣) الواقدي: جـ٢ ص٦٤٠، ٦٤١.
(٤) ابن هشام: جـ٤ ص٤٠.
(٥) الواقدي: جـ٢ ص٦٣٧، ٦٤٢، ٦٤٣.

تقضي بالتركيز على الحصن الرئيس وإشغال الحصون الأخرى بالمناوشات، حتى إذا تمَّ له فتحه ينتقل إلى الحصون الأخرى ليفتحها حصناً بعد آخر، وقسَّم قواته تبعاً لهذه الخطة ووفقاً لقبائلها وبطونها كي تتنافس فيما بينها، على أن يقوم بعضها بالقتال ويستريح البعض الآخر ليستأنف القتال مرتاحاً، وتجنَّب تنفيذ أسلوب الكرّ والفر في القتال لأنه لا ينجح في مثل هذا الموقف في قتال المدن، وهذا تفكير عسكري سليم كفل النصر للمسلمين.

بدأ الهجوم الإسلامي، وأخذت حصون خيبر الممتدَّة على شكل سلاسل والموزعة على ثلاث مناطق، هي: النطاة والشق والكتيبة، ويدافع عنها عشرة آلاف مقاتل؛ تتعرَّض للضغط وتسقط في أيدي المسلمين حصناً بعد حصن، فسقط حصنا ناعم والصعب بن معاذ بمنطقة النطاة، وأبي النزر في منطقة الشق، وتقع هاتان المنطقتان في الشمال الشرقي من خيبر، ثم سقط حصن القموص المنيع في منطقة الكتيبة وهو حصن ابن أبي الحقيق، ثم سقط حصنا الوطيح والسلالم وقلعة الزبير، بعد مقاومة دامت بضعة عشر ليلة جرت خلالها مبارزات فردية بين فرسان الفريقين، وهجمات عديدة قادها كبار الصحابة أمثال علي بن أبي طالب، وأبي بكر الصديق والحباب بن المنذر[١].

وهكذا سقطت جميع حصون خيبر عنوة في يد رسول الله ﷺ، وطلب أهلها الصلح.

صلح خيبر

لما أيقن اليهود بالهلكة أرسلوا محيصة بن مسعود، أخا بني حارثة، إلى رسول الله ﷺ، وعرضوا عليه أن:

- يحق دماءهم.
- يجليهم عن خيبر.

فقبل رسول الله ﷺ، ولكنهم ما إن نزلوا من حصونهم وأمنوا حتى طلبوا منه ﷺ أن يعاملهم في الأموال على النصف، وقالوا: «نحن أعلم بالزراعة منكم، أعمر للأرض». فصالحهم رسول الله ﷺ على:

- البقاء في الأراضي التي غنمها المسلمون منهم على أن يقوموا بزراعتها، ويرعوا أشجارها وثمارها.
- تتقاسم الدولة الإسلامية واليهود حاصلاتها مناصفة.

---

(١) الواقدي: جـ٢ ص٦٥٧ ـ ٦٦٤.

ـ أن يخرجوا منها متى طلبت الدولة الإسلامية منهم ذلك[١].

وقد ضمن رسول الله ﷺ، بشرط إجلائهم متى شاءت الدولة الإسلامية؛ إخضاعهم وكسر شوكتهم، لأنهم يعلمون إذا أقدموا على فعل شيء يضر بالمسلمين ستطردهم منها، ولا يعودون إليها أبداً.

توزيع غنائم خيبر

كانت غزوة خيبر من أكثر غزوات الرسول ﷺ غنيمة، من حيث الطعام والثياب والأثاث والإبل والبقر والغنم والسبي والأراضي والنخيل وغير ذلك، فوزَّعها رسول الله ﷺ على المسلمين على الشكل التالي:

الطعام: فقد غنم المسلمون كثيراً من الأطعمة من حصون خيبر، فوجدوا فيها الشحم والزيت والعسل والسمن، فأباح رسول الله ﷺ الأكل من تلك الأطعمة ولم يُخَمِّسْها.

الثياب والأثاث والمواشي: لقد أخذ الرسول ﷺ خمساً، ووضعه فيما وضعه الله فيه، ووزع أربعة أخماسها على المقاتلين.

السبي: لقد سبى المسلمون كثيراً من نساء اليهود، فوزَّعها رسول الله ﷺ على المسلمين بوصفها غنيمة، وتأخذ حكم الغنيمة.

الأرض والنخيل: قسَّمها رسول الله ﷺ إلى ستة وثلاثين سهماً، جمع لكل سهم مائة سهم، فكانت ثلاثة آلاف وستمائة لهم، فكان للرسول ﷺ وللمسلمين النصف من ذلك، وهو ألف وثمانمائة سهم، ووزَّع النصف الآخر لنوائبه وما ينزل به من أُمور المسلمين. وكان مما غنم المسلمون صحف عدة من العهد القديم، فطلب اليهود استردادها، فوافق رسول الله ﷺ، وأمر بإعادتها إليهم[٢].

وقدم على رسول الله ﷺ من الحبشة، وهو في خيبر، جعفر بن أبي طالب ومن معه، وهم ستة عشر رجلاً وامرأة، وجمع آخر كانوا في اليمن، فأسهمهم رسول الله ﷺ من الغنائم بعد أن استأذن المسلمين[٣]. وفرح رسول الله ﷺ بقدوم جعفر بن أبي طالب، فقبَّله بين عينيه والتزمه وقال: **(ما أدري بأيهما أُسر: بفتح خيبر**

---

(١) ابن هشام: جـ٤ ص٤٣، ٤٤.

(٢) الواقدي: جـ٢ ص٦٦٤ ـ ٦٦٦، ٦٧١. ابن هشام: جـ٤ ص٤٨، ٤٩. الصلَّابي: جـ٢ ص٣٤٥.

(٣) **صحيح البخاري**، كتاب فرض الخمس، باب ومن الدليل على أن الخمس لنوائب المسلمين... رقم الحديث (٣١٣٦)، ص٥٧٥. علماً بأن رواية البخاري خالية من التقييد باستئذان المسلمين.

أم بقدوم جعفر؟)[1].

زواج رسول الله ﷺ من صفية

لما فتح المسلمون حصن القموص، وهو حصن بني أبي الحقيق، كانت صفية بنت حيي بن أخطب في السبي، فأعطاها رسول الله ﷺ دحية الكلبي، فأشار عليه أحد المسلمين أن يصطفيها لنفسه ويتزوجها بوصفها سيدة قومها، فاستحسن ما أشار به الرجل، فأخذها من دحية الكلبي وأعطاه جارية غيرها، وتزوجها رسول الله ﷺ بعد أن أسلمت[2].

محاولة يهود قتل الرسول ﷺ بالسم

تناسى اليهود بعد قليل من الوقت المواقف السمحة لرسول الله ﷺ في تعامله معهم، فسعوا إلى الثأر لأنفسهم، وكان ما تمَّ على يد زينب بنت الحارث اليهودية، زوجة سلام بن مشكم، إذ أهدت إلى الرسول ﷺ شاة مشوية نثرت فيها السم، وأكثرت منه في الذراع الذي كان ﷺ أكثر ما يحب في الشاة، فلما مضغ منها مضغة لم يسغها ولفظها وقال: (**إن هذا العظم ليخبرني أنه مسموم**). وكان بشر بن البراء قد أكل منها أيضاً، فمات بعد قليل. وجيء بزينب، فاعترفت بفعلتها، وقالت للرسول ﷺ: «بلغت من قومي ما لم يخف عليك، فقلت: إن كان ملكاً استرحت منه، وإن كان نبياً فسيُخبَر». فتجاوز عنها في بادىء الأمر ثم قتلها[3]، ويبدو أن لذلك علاقة بموت بشر.

وفي رواية أن الرسول ﷺ اختبر صدق اليهود في نبوَّته، فجمعهم وسألهم عن أشياء منها قصة الشاة المسمومة، فاعترفوا، ولما سألهم عما حملهم على ذلك قالوا: أردنا إن كنت كاذباً نستريح، وإن كنت نبياً لم يضرك[4].

الأحكام الفقهية المستنبطة من غزو خيبر

تضمَّنت غزوة خيبر بعض الأحكام الفقهية، نذكر منها:

تحريم أكل لحوم الحُمُر الأهلية: عن ابن عمر رضي الله عنهما؛ أن رسول الله ﷺ نهى يوم خيبر عن أكل الثوم، وعن لحوم الحُمُر الأهلية[5]. وعن جابر بن عبد الله يقول:

---

(١) ابن هشام: جـ٤ ص٥٢. (٢) المصدر نفسه: ص٤٣.

(٣) المصدر نفسه: ص٤٤. ابن سعد: جـ٢ ص١٠٧.

(٤) انظر نص الحديث كاملاً في صحيح البخاري، كتاب الجزية والموادعة، باب إذا غدر المشركون بالمسلمين هل يُعفى عنهم؟ رقم الحديث (٣١٦٩)، ص٥٨٢.

(٥) المصدر نفسه: كتاب المغازي، باب غزوة خيبر، رقم الحديث (٤٢١٥)، ص٧٦٣.

أكلنا زمن خيبر الخيل وحُمُر الوحش، ونهانا النبي ﷺ عن الحمار الأهلي[١].

اختلف العلماء في مسألة النهي عن أكل لحوم الحُمُر الأهلية، فقال جمهور من الصحابة والتابعين ومَن بعدهم بتحريم لحومها لهذه الأحاديث الصريحة، وقال ابن عباس: ليست بحرام. وعن مالك ثلاث روايات أشهرها أنها مكروهة كراهية تنزيه شديدة، والثانية حرام، والثالثة مباحة، والصواب التحريم[٢]. أما حُمُر الوحش، فمباحة.

الترخُّص في أكل لحوم الخيل: عن جابر بن عبد الله ﵄؛ أن رسول الله ﷺ نهى يوم خيبر عن لحوم الحُمُر الأهلية، ورخَّص في الخيل[٣].

واختلف العلماء كذلك في إباحة لحوم الخيل، فمذهب الشافعي والجمهور من السلف والخلف أنه مباح لا كراهة فيه، وكرهها طائفة، منهم ابن عباس والحكم ومالك، وعند أبي حنيفة يأثم بأكله ولا يُسمَّى حراماً، واحتجوا بقوله تعالى: ﴿وَٱلۡخَيۡلَ وَٱلۡبِغَالَ وَٱلۡحَمِيرَ لِتَرۡكَبُوهَا وَزِينَةٗ﴾ ولم يذكر الأكل، وذكر الأكل من الأنعام[٤].

حرمة وطء السبايا الحوامل وغير الحوامل قبل استبراء الرحم: قال رسول الله ﷺ يوم خيبر: (**من كان يؤمن بالله واليوم الآخر، فلا يسقي ماءه زرع غيره**)[٥]. وقال أيضاً: (**ولا يحل لامرىء يؤمن بالله واليوم الآخر أن يقع على امرأة من السبي حتى يستبرئها**)[٦].

ويكون الاستبراء أن تطهر من حيضة واحدة فقط، ولا تجب عليها العدة، وإن كانت متزوجة من كافر؛ سواء مات أو بقي حياً، لأن العدة وفاء للزوج الميت وحداداً عليه، ولا يُحد على الكافر[٧].

تحريم نكاح المتعة: عن علي بن أبي طالب ﵁؛ أن رسول الله ﷺ نهى عن متعة النساء يوم خيبر، وعن أكل الحُمُر الإنسية[٨].

جواز إشراك غير المقاتلين في الغنيمة ممن حضر مكان القتال: وذلك بعد

---

(١) **صحيح مسلم على شرح النووي**، كتاب الصيد والذبائح، باب إباحة أكل لحم الخيل، جـ١٣ ص٩٥.

(٢) **شرح النووي في هامش صحيح مسلم**: جـ١٣ ص٩١.

(٣) **صحيح البخاري**: كتاب المغازي، باب غزوة خيبر، رقم الحديث (٤٢١٩)، ص٧٦٣.

(٤) **شرح النووي في هامش صحيح مسلم**: جـ١٣ ص٩٥، ٩٦.

(٥) ابن سعد: جـ٢ ص١١٥. (٦) ابن هشام: جـ٤ ص٤١.

(٧) أبو فارس، محمد: **الصراع مع اليهود**، جـ٣ ص١٣٤. دار الفرقان، طـ١، ١٤١١هـ/ ١٩٩٠م.

(٨) **صحيح البخاري**: كتاب المغازي، باب غزوة خيبر، رقم الحديث (٤٢١٦)، ص٧٦٣. وانظر الفصل الثاني عشر بشأن هذه المسألة.

استئذان أصحاب الحق فيها، فقد أشرك رسول الله ﷺ جعفر بن أبي طالب ومن معه في الغنائم بإذن من الصحابة، عندما عادوا من الحبشة.

تقسيم الغنائم على الأساس الذي ورد ذكره: وهو تقسيم أربعة أخماسها بين الغانمين؛ يُعطى للراجل سهم، وللفارس ثلاثة أسهم؛ سهمان له وسهم لفرسه. عن ابن عمر رضي الله عنهما، قال: «قسَّم رسول الله ﷺ يوم خيبر للفرس سهمين وللراجل سهماً. قال: فسَّره نافع فقال: إذا كان مع الرجل فرس فله ثلاثة أسهم، فإن لم يكن له فرس فله سهم»[1]. ويوزع الخمس الباقي أخماساً على من نصَّت عليهم الآية القرآنية ﴿وَٱعۡلَمُوٓاْ أَنَّمَا غَنِمۡتُم مِّن شَيۡءٖ فَأَنَّ لِلَّهِ خُمُسَهُۥ وَلِلرَّسُولِ وَلِذِي ٱلۡقُرۡبَىٰ وَٱلۡيَتَٰمَىٰ وَٱلۡمَسَٰكِينِ وَٱبۡنِ ٱلسَّبِيلِ﴾ [الأنفال/٤١]، ويوزع سهم رسول الله ﷺ من بعده على مصالح المسلمين أو يختص به الخليفة، فيصرفه فيما يراه.

مشروعية عقد المساقاة والمزارعة: وهي أن يعهد مالك الأرض لغيره على ما فيها من شجر بالسقي والاعتناء، على أن تكون الثمار بينهما. عن عبد الله بن جابر رضي الله عنهما، قال: «أعطى النبي ﷺ خيبر لليهود أن يعملوها ويزرعوها، ولهم شطر ما يخرج منها»[2]. وجاءت أحكام هذه البيوع في خيبر لأن فتحها كان أول الفتوح، جديداً على المسلمين وعلى العلاقات المالية التي يجري في ظلها التبادل المالي، فكانت فيها شرعية المزارعة والمساقاة التي لم تكن تجري كثيراً في المدينة[3].

حرمة ربا الفضل: وهو أن يُتبادل مطعومان من جنس واحد مع تفاضل بينهما، وقد نهى عنه رسول الله ﷺ. عن أبي سعيد الخدري وأبي هريرة رضي الله عنهما: «أن رسول الله ﷺ استعمل رجلاً على خيبر، فجاءه بتمر جنيب[4]، فقال رسول الله ﷺ: **(أكل تمر خيبر هكذا؟)** فقال: لا والله يا رسول الله، إنا لنأخذ الصاع من هذا بالصاعين والثلاثة. فقال: **(لا تفعل، بعِ الجمع بالدراهم ثم ابتع بالدراهم جنيباً)**[5]. فالتفاضل مع اتحاد الجنس هو ربا الفضل. إذا اشترى صاعاً بأكثر من صاع، فالزيادة هنا هي الربا، وقد تدفع الحاجة صاحبها إلى قبول الربا، وأرشد

(١) **صحيح البخاري**: كتاب المغازي، باب غزوة خيبر، رقم الحديث (٤٢٢٨)، ص٧٦٤.

(٢) المصدر نفسه: باب معاملة النبي ﷺ أهل خيبر، رقم الحديث (٤٢٤٨)، ص٧٦٧.

(٣) أبو زهرة، الشيخ محمد: **خاتم النبيين**، جـ٢ ص١١٠٤.

(٤) جنيب: نوع جيد من التمر.

(٥) **صحيح البخاري**: كتاب المغازي، باب استعمال النبي ﷺ على أهل خيبر، رقم الحديث (٤٢٤٤، ٤٢٤٥)، ص٧٦٦، ٧٦٧.

رسول الله ﷺ من يريد أن يستبدل تمراً جيداً بتمر رديء أو غيره من المطعومات بمثله إلى وسيلة لا ربا فيها، وهي أن يبيع الرديء بالدراهم ثم يشتري بها الجيد الذي يبتغيه، وهذا حل سليم.

حرمة بيع تبر الذهب بالذهب العين، وتبر الفضة بورق العين: رُوي عن عبادة بن الصامت، قال: نهانا رسول الله ﷺ يوم خيبر أن نبيع أو نبتاع تبر الذهب بالذهب العين، وتبر الفضة بالورق العين، وقال: **(ابتاعوا الذهب بالورق العين، وتبر الفضة بالذهب العين)**[1]. والمراد من الحديث أن يُباع الذهب بالذهب مثلاً بمثل، والفضة بالفضة مثلاً بمثل، بلا زيادة ولا نقص؛ إذ عندما يقابل الذهب بالفضة لا تشترك المماثلة[2].

نتائج فتح خيبر

ـ تمَّ بفتح خيبر تصفية آخر تجمع يهودي قوي في الجزيرة العربية الذي واجهه الإسلام والمسلمون، وقضى رسول الله ﷺ بذلك على القوة السياسية والاقتصادية والعسكرية ليهود الحجاز، وغدت كلمة المسلمين هي العليا في معظم أنحاء الجزيرة العربية.

ـ أحدث فتح خيبر دوياً هائلاً في الجزيرة العربية، فقد اهتزَّت قريش لهذا الحدث، وأُصيبت بالغيظ والكآبة؛ إذ لم يتوقع القرشيون ذلك نظراً لقوة يهود خيبر ومناعة حصونهم وكثرة مقاتليهم ووفرة سلاحهم ومؤونتهم، وأدهش هذا الفتح القبائل العربية، فاضطرت إلى التفاهم مع المسلمين ومسالمتهم، وقد أدركت عدم جدوى الاستمرار في عدائهم؛ ما فتح الباب واسعاً لنشر الإسلام في أرجاء الجزيرة العربية.

ـ تعزَّزت مكانة المسلمين في الجزيرة العربية، وتحسَّن وضعهم الاقتصادي.

ـ كان فتح خيبر دافعاً لباقي اليهود في الجزيرة العربية لطلب الصلح وموادعة المسلمين. فقد سارع أهل فدك في شمال خيبر إلى طلب الصلح مقابل أن يُسيرهم ويحقن دماءهم، وبذلوا الأموال من أجل ذلك، فوافق رسول الله ﷺ على طلبهم، فكانت فدك خالصة له ﷺ؛ لأنه لم يوجف عليها خيل ولا ركاب[3].

وحاصر المسلمون وادي القرى، وهي مجموعة قرى بين خيبر وتيماء، حتى

---

(١) ابن هشام: جـ٤ ص٤١.

(٢) فيض الله، محمد فوزي: صور وعبر من الجهاد النبوي في المدينة، ص٣٢١، دار القلم، دمشق ـ الدار الشامية، بيروت، ط١، ١٤١٦هـ/١٩٩٦م.

(٣) الواقدي: جـ٢ ص٧٠٦، ٧٠٧.

استسلمت. فغنم المسلمون أموالاً كثيرة، وتركوا الأرض والنخيل بيد اليهود، وعاملهم ﷺ عليها مثل خيبر. وصالحت تيماء على مثل صلح خيبر[1].

ـ كتب رسول الله ﷺ إلى بقايا التجمعات اليهودية في أقصى الشمال لتحديد موقفها من الدعوة الإسلامية، نذكر منها:

بنو حنيفة في مقنا، القريبة من أيلة على خليج العقبة **(أما بعد، فقد نزل عليَّ أيَتكم (رسلكم) راجعين إلى قريتكم، فإذا جاءكم كتابي هذا فإنكم آمنون، لكم ذمة الله وذمة رسوله، وإن رسول الله غافر لكم سيئاتكم وكل ذنوبكم... لا ظلم عليكم ولا عِدًى، وإن رسول الله جار مما منع منه نفسه... وإن عليكم... ربع ما أخرجتم نخلكم، وربع ما صادت عرككم[2]، وربع ما اغتزل نساؤكم، وإنكم بُرِئتم بعد من كل جزية أو سخرة؛ فإن سمعتم وأطعتم فإن على رسول الله أن يُكرم كريمكم، ويعفو عن مسيئكم... وأن ليس عليكم أمير إلا من أنفسكم، أو من أهل رسول الله...)**[3].

بنو غاديا: **(هذا كتاب من محمد رسول الله ﷺ لبني غاديا أن لهم الذمة وعليهم الجزية، ولا عداء ولا جلاء...)**[4].

بنو عريض، كتب إليهم يُحدد ما عليهم أن يدفعوه للمسلمين لقاء حمايتهم لهم **(... عشرة أوسق قمحاً وعشرة أوسق شعيراً في كل حصاد، وخمسين وسقاً تمراً؛ يوفون في كل عام لحينه...)**[5].

أهل جرباء وأذرح من اليهود: **(أنهم آمنون بأمان الله وأمان محمد، وأن عليهم مائة دينار في كل رجب وافية طيبة، والله كفيل عليهم)**[6] بالنصح والإحسان للمسلمين ومن لجأ إليهم من المسلمين.

وبذلك تمكَّن الرسول ﷺ من تحويل هذه التجمعات اليهودية في أقصى الشمال إلى مواطنين في الدولة الإسلامية، يدفعون لها ما تفرضه عليهم من ضرائب نقدية وعينية، ويحتمون بقوتها، ويتمتعون بعدلها.

---

(١) الواقدي: جـ٢ ص٧٠٩ ـ ٧١١.

(٢) العروك: خشب تلقى في البحر يركبون عليها فيلقون شباكهم يصيدون السمك.

(٣) ابن سعد: جـ١ ص٢٧٦، ٢٧٧.

(٤) المصدر نفسه: ص٢٧٩.

(٥) المصدر نفسه.

(٦) المصدر نفسه: ص٢٩٠.

القسم الثالث

العلاقة مع الروم البيزنطيين

النبي محمّد ﷺ وبيزنطية

أوضاع بيزنطية الخارجية

لم يمض على ظهور الإسلام، في أوائل القرن السابع الميلادي، إلا مدَّة وجيزة حتى بدأ الصراع بين الإسلام وبين الامبراطورية البيزنطية، التي تذكرها روايات المصادر باسم دولة الروم، والذي انتهى بسقوط القسطنطينية على يد محمد الفاتح العثماني في عام (٨٥٧هـ/ ١٤٥٣م).

والواقع أن هذا الصراع بين الطرفين أضحى جزءاً لا يتجزأ من التاريخ الإسلامي خلال ثمانية قرون، بحيث أضحى من المتعذر على الباحث استيعاب كثير من جوانب تاريخ الإسلام من دون الإلمام ببعض جوانب التاريخ البيزنطي خلال تلك المدة. من هنا لا بدَّ من التعرف الموجز على تطور الأوضاع السياسية في الدولة البيزنطية في الشرق الأدنى في بداية عصر الرسالة، والتي اتَّسمت بالصراع المرير بينها وبين الفرس.

لقد ورث الساسانيون العداوة القديمة بين فارس واليونان مع اختلاف الخصم، بعد أن حلَّ الرومان في ربوع الشرق الأدنى، وكان التنازع على مناطق الأطراف وأهمية أرمينية لكلا الطرفين، بالإضافة إلى السيطرة على طرق القوافل التجارية بين الشرق والغرب من أهم أسباب النزاع.

وشهدت الامبراطورية الرومانية في بداية القرن الرابع الميلادي تحولاً نوعياً في سياستها الدينية تمثَّل باعتراف الامبراطور قسطنطين الأول بالديانة النصرانية في عام (٣١٣م)، بموجب مرسوم ميلان[(١)]، واعتناقه النصرانية فيما بعد. وانتشرت هذه الديانة في الربوع الأرمنية، واعتنقها الفرس في بابل وجنديسابور[(٢)] وآشور وغيرها من المدن. ومن بين الأسباب التي دفعت الامبراطور قسطنطين الأول إلى نقل

---

(١) انظر فيما يتعلق بمرسوم ميلان: العريني، السيد الباز: **تاريخ أوروبا**، ص٥٠، ٥١.

(٢) جنديسابور: مدينة بخوزستان بناها سابور بن أردشير، فنُسِبت إليه، وأسكنها الروم وطائفة من جنده، وخوزستان اسم جامع لبلاد الخزر. الحموي: جـ٢ ص١٧٠.

عاصمته من روما إلى القسطنطينية التي أسَّسها على ضفاف البوسفور في عام (٣٣٠م)؛ اعتزامه أن يقاوم الخطر الفارسي من مكان قريب. وانقسمت الامبراطورية الرومانية بعد وفاة الامبراطور جوفيان في عام (٣٦٤م) إلى قسمين: شرقي، وعاصمته القسطنطينية، وغربي، وعاصمته روما، فورث أباطرة القسم الشرقي الذي دُعي بيزنطية الصراع مع الساسانيين الذي انتهى في عام (٧هـ/ ٦٢٨م) بانتصار الامبراطور هرقل على الملك كسرى الثاني في معركة نينوى.

ولا شكَّ بأن الحروب المتطاولة في المدى الزمني بين الجانبين أنهكت الدولتين واستنفدت طاقاتهما.

أوضاع بيزنطية الداخلية

تغيير النظام الإداري: عندما تسلَّم الامبراطور هرقل الحكم في القسطنطينية في عام (٦١٠م)، كان الخراب والدمار قد حلَّا بالامبراطورية، وساءت أحوال البلاد الاقتصادية والمالية، وأصاب الشلل أجهزة الإدارة الحكومية، وأضحى النظام العسكري الذي يستند على تجنيد المرتزقة عديم الفائدة، بعد أن عجزت الدولة عن تجنيد المرتزقة بفعل فراغ الخزانة من الأموال، ويكمن دور المال هنا في تجنيد العرب للخدمة في الجيش البيزنطي وضمان استمرارهم فيه، وازدادت أهميته مع تنامي الدولة الإسلامية في المدينة وتهديدها المناطق الجنوبية من بلاد الشام. وتعرَّضت الأقاليم الكبيرة الواقعة في وسط الامبراطورية لغارات الأعداء. فاستقرَّ الصقالبة والآفار في البلقان، في حين وطَّد الفرس وجودهم في قلب آسيا الصغرى، ولم يكن ثمة وسيلة لإنقاذ الامبراطورية التي أضحت بحاجة ماسة للدفاع عن نفسها، سوى قيام حركة إصلاح داخلية.

وفي الوقت الذي كانت فيه الامبراطورية تتعرَّض للضغط الخارجي، وسوء الأحوال الداخلية، انصرف الامبراطور هرقل إلى القيام بإصلاحات بالغة الأهمية وهبتها قوة جديدة، وشملت إصلاح النظام الإداري، فأعاد تنظيم أقاليم الدولة بما أدخله من نظام الأجناد. وجرى تقسيم الأراضي التي لم يمسَّها العدو بالضرر إلى أقاليم عسكرية كبيرة، وهي المعروفة بالأجناد، يتولى حكم كل منها قائد عسكري. وبذلك اتخذت التنظيمات الإدارية الجديدة طابعاً عسكرياً خالصاً[١]، ويتمثل هذا النظام في استقرار الجند في أقاليم آسيا الصغرى وبلاد الشام.

ويُعدُّ نظام الإقطاع العسكري الأساس الذي قام عليه جيش وطني قوي، وهو

---

(١) Vasiliev, A: The Byzantine Empire, p. 227. Ostrogorsky, G: **History of the Byzantine State**, p.86.

الذي حرَّر الامبراطورية مما تفتقر إليه من الجند المرتزقة الذين يُكلِّفون الدولة أموالاً طائلة، وغدا الجند الفلاحون الذين حصلوا على إقطاعات مقابل الالتزام بالخدمة العسكرية والنازلون في الإقطاعة؛ عنصراً ثابتاً في قوات الجيش البيزنطي، وأمدَّتهم إقطاعاتهم بالوسائل الاقتصادية التي تكفل لهم سبل العيش، فكان كل منهم يخرج إلى الحرب بسلاحه وفرسه. ومن النتائج التي ترتبت على هذا النظام أيضاً؛ أن أضحى من اليسير تجنيد جيش من داخل الامبراطورية يتراوح عديده بين مائة وثلاثة عشر ألفاً، ومائة وثلاثين ألفاً موزعين على مختلف المناطق التي تُشكل الامبراطورية[1].

وحلَّ نظام الأجناد محل نظام حكومات الأقاليم الذي فَقَدَ أهميته، والذي كان يُعدُّ من أهم مظاهر الإدارة البيزنطية، ونتج عن ذلك أن تغلَّبت الصفة العسكرية على إدارة الامبراطورية، وأُعيد النظر بتنظيم القوات المسلحة، وأتاح هذا التغيير إلى قلب المعادلة العسكرية لصالح البيزنطيين أمام الفرس[2].

غير أن هذا النظام الجديد لم يترسَّخ في بلاد الشام بفعل قصر المدة بين إقراره ووقوع هذه البلاد بأيدي المسلمين، وبالتالي لم يُتح لهذا الإقليم أن يستفيد من إيجابياته، وفوجىء البيزنطيون بالزحف الإسلامي باتجاه بلاد الشام، وهم في حال انتقال من النظام القديم إلى النظام الجديد المستحدث.

تغيير النظام الضريبي: تعود أسس النظام الضريبي في الدولة البيزنطية إلى أيام دقلديانوس (ت ٣٠٥م)، وقسطنطين الأول (ت٣٣٧م). وكانت الضرائب المفروضة على المدن والقرى في بلاد الشام على نوعين: ضرائب نظامية، وضرائب طارئة لمواجهة حالات خاصة، وأهم الضرائب النظامية اثنتان:

الأولى: ما يُفرض على الأرض، وتُقدَّر بنسبة معينة من قيمتها ثم قُدِّرت بنسبة (١٢،٥٪) من المحصولات الزراعية.

الثانية: ضريبة الرأس.

وتُعدُّ الضرائب الطارئة أكثر إرهاقاً لطبقة الشعب، مثل ضريبة الحرب، وضريبة التاج، وضريبة الطعام لسد الحاجات المتغيرة للحاميات وللإدارة. وأُضيفت ضريبة الأرض إلى ضريبة الرأس في عهد قسطنطين الأول، فأضحى مجموع الوحدات التي تجمع بين الناس والأرض؛ أساساً للتقدير، وهذا يعني ربط الإنسان بالأرض[3].

(١) العريني: الدولة البيزنطية ص١٢١ ـ ١٢٣. (٢) المرجع نفسه: ص١٢٣.

(٣) الدوري، عبد العزيز: **تنظيمات عمر بن الخطاب، الضرائب في بلاد الشام**، ص٤٥٧، ٤٥٨. وهو بحث قُدِّم في المؤتمر الدولي الرابع لتاريخ بلاد الشام.

ويبدو أن هذا النظام الضريبي لم يعد يفي بسدِّ حاجات الدولة بسبب كثرة النفقات العسكرية والإدارية. وسبَّب عيوب النظام الإداري انتشار الفساد، وتفشي السرقة، وابتزاز الأموال، وأدَّى ذلك إلى الفقر والخراب، وأثار الاضطرابات الداخلية وفقدان الأمن.

وما حدث في الامبراطورية بعد ذلك، من مشكلات اجتماعية، وتراجع الزراعة بفعل الحروب المتواصلة في الخارج، والثورات الداخلية؛ دفع الامبراطور جستنيان الأول (٥٢٧ ـ ٥٦٥م) إلى حلِّ المشكلات المالية من خلال إصلاح النظام الضريبي، ففرض على رعاياه أن يدفعوا كل ما للحكومة من ضرائب، وأمر بمسح الأرض، وقسَّمها إلى وحدات متساوية في قيمة الإنتاج بغضِّ النظر عن مساحتها، تدفع كل وحدة منها ضريبة ثابتة، ثم أحصى عدد السكان في القرى وفرض عليهم ضريبة الرأس. وتحدَّدت الضريبة في بلاد الشام على الذكور من ١٤ إلى ٦٥ عاماً، وعلى الإناث من ١٢ إلى ٦٥ عاماً[١].

وحصل الملَّاكون الكبار على حق جباية الضرائب المستحقة على ضياعهم ودفعها إلى الخزانة المركزية مباشرة؛ ما جعل سلطة الجباة عليهم منعدمة، وكُلِّف المجلس البلدي في كل قرية بجمع الضرائب من القرى التابعة للمدينة.

نتج عن هذا النظام أن تحمَّل الفلاحون والمزارعون العبء الأكبر من الضريبة، ورُبطوا هم وأُسرهم بالأرض التي سُجِّلوا عليها، وذلك بهدف تيسير جمع الضرائب ولضمان زراعة الأرض. ودفع سوء الجباية وتعسف الجباة، صغار الملاكين إلى طلب حماية كبار الملاكين ليتولوا مسؤولية دفع الضرائب عنهم مقابل تنازلهم لهم عن أملاكهم، فأصبحوا بذلك مزارعين مرتبطين بالأرض. وعمد الملاكون الكبار من جهتهم إلى مضايقة الملاكين الصغار ودفعهم إلى طلب حمايتهم بهدف توسيع ملكياتهم، وعلى الرغم من أن السلطات الامبراطورية لم تكن تشجِّع الحماية، فقد حدَّت منها، إلا أنها اعترفت بها في أوائل القرن الخامس الميلادي كأمر واقع، وكحل لمشكلة الضائقة الاقتصادية[٢].

الجيش البيزنطي: في محاولة لدراسة القوى العسكرية التي واجهها النبي محمَّد ﷺ، خلال تنفيذ سياسته الشمالية؛ نبحث هنا أوضاع الجيش البيزنطي.

لقد وضع الامبراطور موريس (٥٨٢ ـ ٦٠٢م) والقائد بلزاريوس أساس الجيش البيزنطي، وزاد الامبراطور هرقل من كفاءته وقدرته القتالية، وانتصر به على الفرس والصقالبة والآفار.

---

(١) الدوري: ص٤٥٨.

(٢) المرجع نفسه: ص٤٥٨، ٤٥٩.

أعاد الامبراطور موريس تنظيم الهيكل العام للجيش، ووضع أسس التجنيد، ورفع عديد الوحدة القتالية إلى أربعمائة، وجعلها الوحدة الأساس للجيش، ثم جمع عدداً من هذه الوحدات في مجموعة واحدة يتراوح عديدها بين ستة وثمانية آلاف، وسماها الفرقة.

وتُشكِّل فرقة الفرسان الثقيلة عماد الجيش البيزنطي بما لها من أهمية كبيرة، ويرتدي الفارس قميصاً معدنياً من رقبته حتى الفخذين، ويحمل درعاً مستديراً، كما يرتدي قلنسوة على رأسه وقفازاً طويلاً يُغطي اليدين إلى ما بعد الرسغ، وينتعل حذاء من الصلب، وزُوِّدت جياد الضباط وقوات الخط الأمامي بمقدمة حديد لحمايتها، وجُهِّزت الجياد بسروج مريحة، وركاب حديدي.

يستخدم الفارس أثناء القتال سيفاً عريضاً وخنجراً وقوساً، ويحمل جعبة مملوءة بالسهام، وحربة طويلة، ويُثبِّت بلطة في سرج جواده أحياناً، وكان الزي العسكري مُوحداً يشتمل على معطف وعلم مثلث على رأس الرمح، وخصلة من الشعر على الخوذة.

والواقع أن هذا اللباس العسكري للفرسان الذي اتصف بثقل الوزن؛ شكَّل عائقاً أثناء العمليات العسكرية القتالية أمام القوى الإسلامية التي اتصف مقاتلوها بخفة الحركة؛ إذ حدَّ من حرية حركة الفارس، وحرمه من الاستفادة من كفاءته القتالية ولياقته البدنية.

وانقسمت فرقة المشاة إلى قسمين:

الأولى: فرقة المشاة الثقيلة، يرتدي أفرادها رداء معدنياً وقفَّازات طويلة ودروعاً للساق وخوذة حديدية من الأمام ويحملون دروعاً مستديرة كبيرة. وشكَّل الرمح والسيف والبلطة سلاحهم الهجومي. وكان هذا اللباس عائقاً ميدانياً لهذه الفرقة من المشاة تماماً مثل فرقة الفرسان الثقيلة.

الثانية: فرقة المشاة الخفيفة، اقتصرت مهماتها العسكرية على الدفاع عن الممرات والمناطق الجبلية، وحماية القلاع والمدن المهمة، وشكَّل الرماة عماد هذه الفرقة.

ويتناسب تنظيم الوحدات العسكرية مع التكتيل الذي يُنفذونه أثناء القتال، وهو أسلوب مرن يتغيَّر من معركة إلى أخرى، ويُحدَّد من قِبَل القادة بالاستناد إلى أسلوب العدو القتالي.

وعرفت بيزنطية نظام الكتائب في التكتيك القتالي القائم على سلاحي الفرسان والمشاة، وذلك بعد أن أخذته عن اليونان، إلا أن في العصر الإسلامي الأول كانت جيوش بيزنطية تُقسم إلى فرق تُسمى كراديس يضم كل منها زهاء ستمائة جندي.

سياسة النبي محمَّد ﷺ الشمالية

تدفعنا الدراسة الموضوعية لسياسة النبي ﷺ الشمالية مع بلاد الشام الخاضعة للحكم البيزنطي، إلى استعراض سياسة الامبراطورية البيزنطية في بلاد الشام، ثم التواجد القبلي في مناطق الحدود مع الجزيرة العربية، والغزوات والسرايا التي نفَّذها ضدها.

سياسة بيزنطية في بلاد الشام

يتحدث المؤرخون عن خصائص الامبراطورية البيزنطية وأسباب ضعفها في العهد النبوي. والواقع أن البيزنطيين نجحوا في حلِّ المشكلة العربية على حدودهم الجنوبية، من خلال نظام الأحلاف التي عقدوها مع القبائل الضاربة على مشارف بلاد الشام، لحراسة هذه البلاد من هجمات قد تنطلق من الجزيرة العربية. وقامت القبائل المعنية بدور ناجح، واقتصرت مهمة الفِرَق البيزنطية النظامية المتواجدة في قواعد ثابتة ومتفرقة، على الإشراف على تنقلات القبائل، ومساعدتها في التصدي لغزوات البدو عند الحاجة، ثم نسي البيزنطيون بعد ذلك عرب الجزيرة، وما قد يُشكِّلونه من خطر عليهم في المستقبل.

والحقيقة أن الامبراطور هرقل لم يُدرك مدى خطورة الوضع على جبهته الجنوبية بعد تنامي قوة الدولة الإسلامية في المدينة، حتى وجد نفسه يواجه فجأة زحف المسلمين باتجاه بلاد الشام، ولم تنفع تدابيره التي اتخذها على عجل في وقفهم، حيث كان من الصعب تجريد الحدود مع فارس في الشرق، والصقالبة والآفار في الغرب؛ المعرَّضة للخطر، من الجنود ونقلهم للدفاع عن بلاد الشام في ظل محدودية نقلهم واختيار مواقعهم. وكانت أي محاولة لتدريب السكان المدنيين في هذه البلاد وتسليحهم قضية معقدة وبطيئة، ولا يمكنها أن تواجه التهديدات الخارجية المفاجئة والعنيفة. ويُعدُّ المدى الذي يمكن للقوات النظامية أن تتكيف فيه مع الأوضاع الطبيعية والمناخية، قضية أخرى. ورأى الامبراطور هرقل أن أفضل وسيلة للدفاع عن بلاد الشام في أوائل القرن السابع الميلادي تكمن في:

- تجنيد البدو العرب المقيمين على أطراف الامبراطورية، وبخاصة أنهم يتمتعون بصفة إضافية هي معرفة طبيعة الأرض ومناخها، بالإضافة إلى أساليب القتال. وتبنَّى النظرية القائلة إن خير وسيلة لقتال العرب هي استخدام عرب آخرين إزائهم، لذلك كان من الضروري لبيزنطية أن تحتفظ بصداقة بعض القبائل، وتنويع صلاتها بالعرب.
- تجنيد الأرمن، والمعروف أن عديد الجيش البيزنطي النظامي في بلاد الشام لم يكن كبير الحجم، ولا يمكن للإدارة العسكرية البيزنطية توفير أكثر من عشرين ألف جندي للدفاع عن هذه البلاد في ظل الأخطار التي تتعرَّض لها الولايات الأخرى في

آسيا وأوروبا ومصر، ولا يمكن الحصول على جنود منها، ولم يكن ثمة مجال في البحث عن قوى عسكرية لبلاد الشام سوى أرمينية القريبة التي يمكن الاعتماد عليها.

التواجد القبلي في مناطق الحدود مع الجزيرة العربية

انتشرت بعض القبائل العربية في مناطق الحدود الفاصلة بين الجزيرة العربية وبلاد الشام؛ مُشكِّلة سدّاً استغلّته بيزنطية لصدِّ غارات البدو على المناطق الزراعية.

فقد سكن بنو عذرة وبنو سعد هزيم على الطريق الممتد من شمالي الحجاز إلى بلاد الشام، وامتد بعض أفخاذهم وبطونهم إلى وادي القرى في الشمال، واتصلوا بالمسلمين في أواخر حياة النبي ﷺ، واعتنق بعض بني عذرة الإسلام قبل غزوة تبوك في السنة التاسعة للهجرة(١).

وسكنت إراشة، وهي فرع من بلي، في منطقة البلقاء في الشمال، فجاورت البيزنطيين وأقامت حلفاً معهم، وساهمت في قتال المسلمين في معركة مؤتة(٢)، فأرسل إليهم النبي ﷺ سرية بقيادة عمرو بن العاص، فقاتلهم وفرَّقهم، وهي الغزوة التي عُرفت بذات السلاسل(٣)؛ اضطرت إراشة بعدها إلى الدخول في الإسلام، ثم ارتدَّت بعد وفاة الرسول ﷺ(٤).

وأشارت روايات المصادر إلى نزول لخم بين مدين(٥) وتبوك امتداداً إلى أذرح، وانتشر اللخميون في المنطقة الواقعة غرب البحر الميت ونهر الأردن(٦)، وسكنت قبيلة جذام في المنطقة الممتدة من تبوك إلى شرق وادي عربة والبحر الميت حتى منطقة البلقاء حول عمَّان، فتداخلت مع سكن بعض فروع لخم. وشكَّلت هاتان القبيلتان جزءاً من التحالف القبلي الخاضع لبيزنطية الذي حارب المسلمين في معركة مؤتة، وكانت غزوة تبوك ردّاً على تحرك القبائل العربية والبيزنطيين باتجاه المناطق الجنوبية(٧).

---

(١) تذكر روايات المصادر أن أحد قادة المسلمين في معركة مؤتة كان رجلاً من بني عذرة، يُقال له قحطبة بن قتادة. ابن هشام: جـ٤ ص٧٢. وتبوك: موضع بين وادي القرى والشام، وهو بين الحِجْر وأول الشام. الحموي: جـ٢ ص١٤.

(٢) مؤتة: قرية من قرى البلقاء في حدود الشام، وقيل: مؤتة من مشارف الشام. الحموي: جـ٥ ص٢١٩، ٢٢٠.

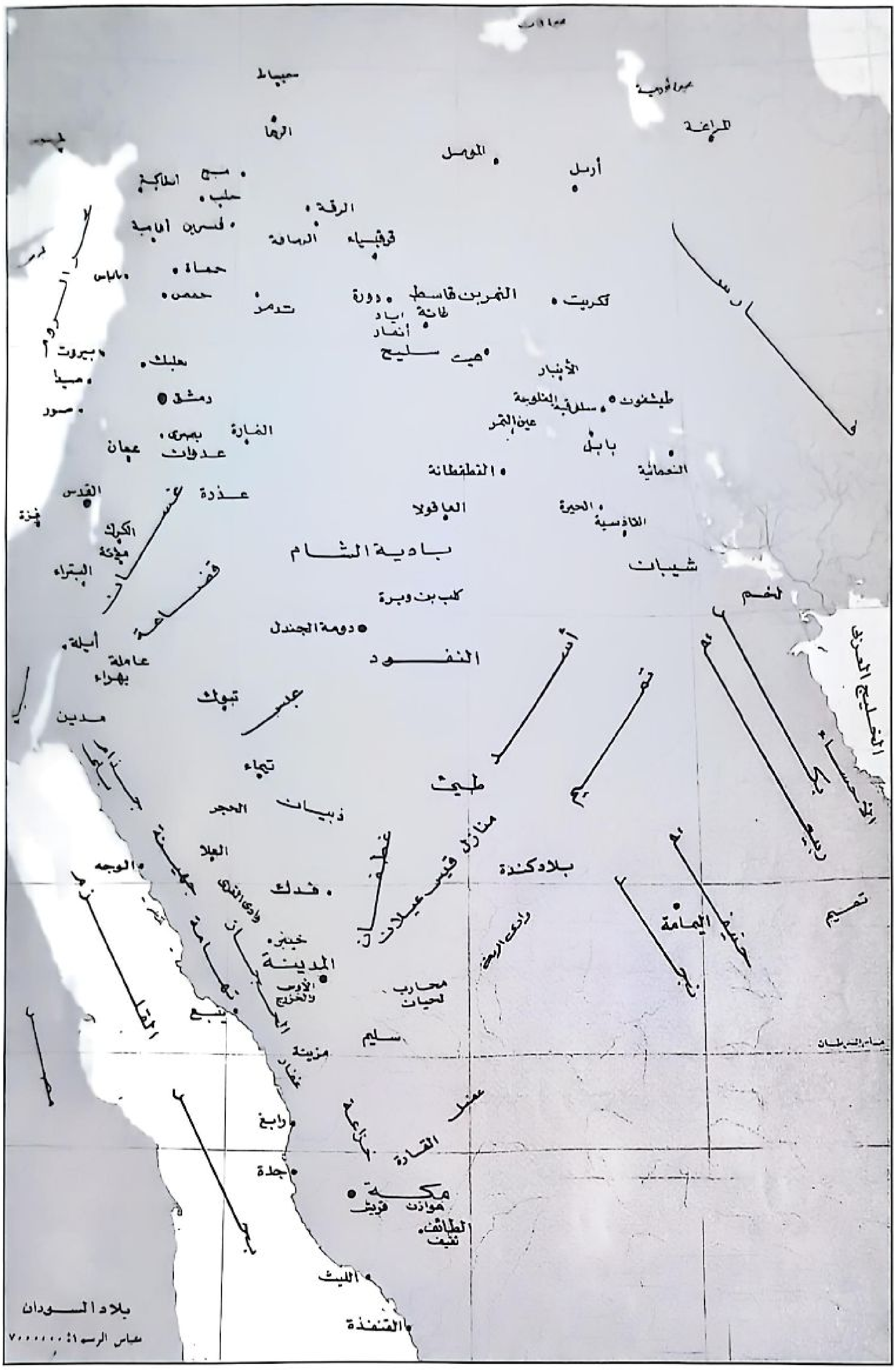
(٣) ابن هشام: جـ٤ ص٢٣٩.

(٤) تتحدث روايات المصادر عن غارة قام بها عمرو بن العاص أثناء حروب الرِّدَّة على بلي وبعض القبائل الأخرى. الطبري: جـ٣ ص٣٠٥.

(٥) مدين: قرية تجاه تبوك بين المدينة والشام. الحموي: جـ٥ ص٧٧.

(٦) الهمذاني، أبو محمد الحسن بن أحمد: صفة جزيرة العرب، ص٢٧١، ٢٧٢، الرياض ١٩٧٤م.

(٧) الواقدي: جـ٣ ص١٠١٥.



منازل القبائل العربية في وسط وشمالي الجزيرة العربية وبلاد الشام في العصر النبوي

[عن أطلس تاريخ الإسلام]

ويبدو أن بعض بطون لخم هالهم قيام تحالف قبلي - بيزنطي موجَّه ضد إخوان لهم من العرب، فأسلم نفر منهم في السنة التاسعة للهجرة[١]. واعتزلت حدس، وهي إحدى بطون لخم؛ القتال في مؤتة، لكن هذين الحدثين لا يكفيان لإقامة الدليل على قيام علاقات طيبة بين المسلمين وقبيلة لخم.

وأغرى تعاظم قوة المسلمين بعد فتح مكة، بعض الجذاميين، فاعتنقوا الإسلام وأقاموا علاقات طيبة مع المسلمين، مثل فروة بن عمرو الجذامي، حاكم معان[٢] من قِبَل بيزنطية[٣]. وساند بنو الضُّبَيْب، وهم رهط من جذام اعتنقوا الإسلام؛ زيداً بن حارثة عندما هاجم الجذاميين الذين اعتدوا على دحية بن خليفة الكلبي، مبعوث النبي ﷺ إلى الامبراطور البيزنطي هرقل[٤].

ونزلت قبيلة القين - بلقين - في المنطقة الواقعة شرق ديار لخم وجذام؛ أي: في المنطقة الممتدة من وادي ثَجْر شمال تيماء بمحاذاة وادي السرحان، وباتجاه الشمال إلى تخوم حوران، وجاورت بلي وعذرة. وكان بنو القين من ضمن التحالف القبلي الذي حارب المسلمين في معركة مؤتة[٥]. ويبدو أن جماعة منهم اعتنقت الإسلام قبل وفاة النبي ﷺ، في السنة الحادية عشرة للهجرة، وأن النبي ﷺ ولَّى عليهم عمرو بن الحكم[٦].

وفرض الغساسنة، وهم من الأزد، وجودهم في مناطق حوران وشرق الأردن وبعض فلسطين بعد أن تغلَّبوا على بني سليح الضجاعمة وكلاء البيزنطيين[٧]. وشعر البيزنطيون بمدى قوتهم، فخشوا أن ينضموا إلى الفرس، فاستقطبوهم، وأحلوهم محل السليحيين، وعقدوا معهم حلفاً دفاعياً هجومياً موجهاً ضد غارات البدو وهجمات اللخميين. وقام الغساسنة بتنفيذ الدور الذي حدَّدته لهم بيزنطية، على الرغم من أن الطرفين كانا على خلاف مذهبي[٨]، إلا أن ذلك لم يؤثِّر على العلاقة السياسية بينهما. وتمتَّع أُمراء الغساسنة بلقب فيلارك (ملك) الذي أضفاه عليهم الأباطرة البيزنطيون.

---

(١) الطبري: جـ٣ ص٩٦.

(٢) **معان**: مدينة في طرف بادية الشام تلقاء الحجاز من نواحي البلقاء. الحموي: جـ٥ ص١٥٣.

(٣) ابن هشام: جـ٤ ص٢١٦، ٢١٧.

(٤) المصدر نفسه: جـ٤ ص٢٣٥.

(٥) المصدر نفسه: ص٧١.

(٦) الطبري: جـ٣ ص٢٤٣.

(٧) المسعودي، أبو الحسن علي: **مروج الذهب ومعادن الجوهر**، جـ٢ ص١٠٦، ١٠٧.

(٨) كان الغساسنة على المذهب المونوفيزي، أي مذهب الطبيعة الواحدة المناهض للمذهب الملكاني مذهب الدولة الرسمي.

شكَّل الغساسنة عماد التجمع القبلي اللخمي والجذامي المعادي للمسلمين في غزوة تبوك، وقد رفض الحارث بن أبي شمر الغساني دعوة النبي ﷺ إلى اعتناق الإسلام، واستمر في تحالفه مع البيزنطيين. والراجح أنه كان يخشى خطر التمدُّد الإسلامي باتجاه الشمال على وضع القبيلة الديني والسياسي وعلاقتها ببيزنطية.

وسكنت بعض جماعات من الغساسنة في الجنوب، في تيماء[1] والمدينة، وقد تأثروا بالدعوة الإسلامية. وربما كان الوفد الغساني الذي قدم إلى المدينة في العام العاشر للهجرة ليبايع النبي ﷺ هو من هذه الجماعات[2].

وَوُجِدت قبائل أخرى في بلاد الشام، لكنها لم تكن على قدر من القوة والمنعة والأهمية حتى تعيرها المصادر اهتماماً، مثل تنوخ، وقد نزلت في أواسط بلاد الشام على تخوم البادية الممتدة شمالاً حتى قنسرين[3] وحلب، وساند التنوخيون البيزنطيين في معركة مؤتة. وسكنت بهراء في أواسط وشرق بادية الشام وامتدت ديارها حتى نهر الفرات، والراجح أنها كانت موالية لبيزنطية، وأن فئة من رجالها حاربوا إلى جانب البيزنطيين في معركة مؤتة.

الغزوات والسرايا الموجَّهة إلى الشمال

سياسة النبي ﷺ الشمالية قبل صلح الحديبية

اتخذت بلاد الشام منذ العام السادس للهجرة حيِّزاً بارزاً في سياسة النبي ﷺ الخارجية، بعد أن حسم الوضع السياسي الداخلي في الحجاز لصالحه إثر صلح الحديبية، وكان اهتمامه بتلك البلاد كهدف حيوي:

- بوصفها أرضاً عربية، مثل الحجاز.

- إقامة مراكز إسلامية على الأطراف الشامية لنشر الدعوة بين القبائل العربية الوثنية منها والمتنصِّرة واحتوائها تحت راية الدولة الإسلامية في المدينة، أو عقد صلح معها لتمتين النفوذ الإسلامي في تلك الربوع.

- فك تحالفها مع الدولة البيزنطية.

- السيطرة على طريق التجارة؛ إذ أن مضاربها تُعدُّ بمثابة معابر مهمة بين بلاد الشام وأنحاء الجزيرة العربية في الوقت الذي وصلت فيه تجارة القوافل إلى ذروة النشاط والاستقرار.

---

(١) تيماء: بليد في أطراف الشام، بين الشام ووادي القرى. الحموي: جـ٢ ص٦٧.

(٢) الطبري: جـ٣ ص١٣٠.

(٣) قنسرين: كورة بالشام ومنها حلب، وكانت قنسرين مدينة بينها وبين حلب مرحلة من جهة حمص. الحموي: جـ٤ ص٤٠٤.

وأخذ النبي ﷺ يراقب الوضع في تلك المناطق من خلال السرايا المبكرة التي كان يُرسلها، والرسائل الموجهة إلى الامبراطور البيزنطي هرقل والأمير الغساني شرحبيل بن عمرو صاحب بصرى قصبة حوران، وسائر رؤساء القبائل العربية.

وبتنامي القوة الإسلامية، شعرت القبائل الموالية لبيزنطية في جنوبي بلاد الشام، بحدوث تغير ديني وسياسي في الحجاز على مقربة منها تمخَّض عن قيام حكومة مركزية قوية في المدينة، ودخلت معظم قبائل الجزيرة العربية في طاعتها، وراحت تتطلع نحو الشمال، ورأت في هذا التطور خطراً يُهدِّد كيانها الديني والسياسي، لذلك وثَّقت علاقاتها مع بيزنطية.

ورأى الامبراطور هرقل في هذا التنامي تدخلاً في شؤونه واختراقاً لسيادته بعد انتصاره الكبير على الفرس، ومع ذلك فقد عدَّه مجرد اندفاع قبلي أو محاولة إمارة عربية ناشئة توسيع رقعتها الجغرافية من ذلك النوع الذي اعتاد بدو الصحراء أن يشنُّوه بين وقت وآخر على أطراف الدولة، ولا تلبث أن تتوقف تلقائياً عندما يتصدَّى لها حراس الحدود من فِرق الجيش الامبراطوري أو القبائل العربية الموالية لبيزنطية التي تعيش على تخوم بلاد الشام.

غزوة دومة الجندل

هي أولى غزوات الرسول ﷺ ضد القبائل العربية المتحالفة مع بيزنطية، والحلقة الأولى في سلسلة الصراع على بلاد الشام بين المسلمين والقبائل الضاربة على تخوم هذه البلاد بخاصة، وبين المسلمين والبيزنطيين بعامة؛ لأن هؤلاء كانوا مصدر هذا التهديد. يؤكد ذلك ما ذكره الواقدي من أنه قيل للنبي ﷺ وهو بصدد مهاجمة دومة الجندل «إنها طرف من أفواه الشام، فلو دنوت لها كان ذلك مما يُفزع قيصر»[(١)].

ويبدو أن لهذه الغزوة سببين:

الأول: ما كان يتعرَّض له التجار[(٢)] بين الشام والمدينة من أذى على يد العرب المقيمين بدومة الجندل من قبيلة كلب القضاعية، والمعروف أن تجارة الشام كانت أحد شرايين الحياة الرئيسة للحجاز.

الثاني: نُمي إلى النبي ﷺ أن القبائل القاطنة في دومة الجندل تستعد للقيام بتحرك

---

(١) المغازي: جـ١ ص٤٠٣.

(٢) يُطلق على هؤلاء اسم الضافطة، وهم قوم من الأنباط يحملون الدقيق والزيت إلى المدينة. انظر: الواقدي: جـ١ ص٤٠٣.

ضد المدينة بزعامة أكيدر بن عبد الملك الكندي النصراني الموالي لبيزنطية، وقد تزعَّم تحالفاً قبلياً من قضاعة وغسان، وراح يتهيأ للزحف إلى المدينة[1]، ما يُهدِّد فعلياً قاعدة الدولة الإسلامية.

خرج النبي ﷺ من المدينة في (٢٥ ربيع الأول ٥هـ/ ٢٤ آب ٦٢٦م) على رأس ألف مقاتل، وتقدم بهذا الجيش إلى دومة الجندل مستبقاً قوى التحالف، ولما وصل إليها لم يجد من يصطدم به[2]. ويبدو أن أُكيدر تهيَّب الموقف فانسحب باتجاه الشمال. ونزل النبي ﷺ بساحة القوم، واستغلَّ وجوده في المنطقة، فقام بعمليات استطلاعية، ثم عاد إلى المدينة بعد أن أكد هيبة الدولة الإسلامية وقدرتها على التعامل الحاسم مع المتربصين بها، وقد بات من المؤكد بعد هذه الغزوة أن هناك جبهة تهديد خطيرة فُتحت أمام المسلمين، هي جبهة بلاد الشام.

سرية زيد بن حارثة إلى حِسمى[3]

تكثَّفت هجمات المسلمين على المناطق الحدودية مع بلاد الشام في العام السادس للهجرة، نذكر منها سرية زيد بن حارثة التي انتهت إلى العِيص[4]، وقد وُجِّهت لاعتراض قافلة لقريش، وتلك التي انتهت إلى حِسمى وراء وادي القرى في (رجب ٦هـ/ تشرين الثاني ـ كانون الأول ٦٢٧م)، وقد ارتبطت كسبب بدحية بن خليفة الكلبي، وكان عائداً من بلاد الشام بعد أن اجتمع بالامبراطور البيزنطي هرقل، فهاجمته جماعة من جذام بقيادة الهنيد بن عارض ومعه ابنه. ولا تشير الرواية إلى دور هذا الرجل أو علاقته بالنبي ﷺ، إلا أن اسمه يتردد فيما بعد كمبعوث له إلى بلاد الشام حاملاً رسالته إلى الامبراطور البيزنطي. وتدل قرائن هذه المهمة الثانية أن لها علاقة بمهمة دحية الأولى، أو هي استكمال لها؛ بدليل أن النبي ﷺ لم يتردَّد في إرسال قوة عسكرية للانتقام له بقيادة زيد بن حارثة قوامها خمسمائة رجل، فاجأت بني جذام، وقتل زيد الهنيد وابنه[5].

ويبدو أن هذه السرية لم تكن محصورة بنتائجها الثأرية، ولكنها مهَّدت لقيام علاقة

---

(١) الواقدي: جـ١ ص٤٠٣. (٢) ابن سعد: جـ٢ ص٦٢.

(٣) **حسمى**: أرض ببادية الشام بإقليم الأردن على مشارف الحجاز، وهي أرض غليظة، وكذلك ماؤها وخيراتها، وكانت موطناً لقبيلة جذام، وساكنهم بعض بني لخم. الحموي: جـ٢ ص٢٥٨، ٢٥٩.

(٤) **العِيص**: موضع في بلاد بني سُلَيْم من ناحية ذي المروة على ساحل البحر بطريق قريش التي كانوا يأخذون منها إلى الشام. المصدر نفسه: جـ٤ ص١٧٣.

(٥) الواقدي: جـ٢ ص٥٥٥ ـ ٥٦٠.

وثيقة بين المدينة وقبيلة جذام سيكون لها أثر في مسار السياسة التي انتهجها رسول الله ﷺ تجاه القبائل العربية(١). فقد تحدَّثت روايات المصادر عن قدوم رفاعة بن زيد الجذامي في رهط من قومه إلى المدينة معتنقاً الإسلام، وأجرى مباحثات مع الرسول ﷺ تمخَّض عنها ما يشبه المعاهدة، لم تصلنا بنودها إنما عُرفت بنتائجها. فقد وافق الرسول ﷺ على إطلاق سراح الأسرى والأموال التي غنمها زيد، وأرسل علياً بن أبي طالب مع الوفد لتنفيذ الاتفاق(٢). وستهيمن روح هذه المعاهدة على المعاهدات التي سوف يعقدها الرسول ﷺ في المستقبل مع القبائل العربية المتنصرة.

سرية زيد بن حارثة إلى وادي القرى

وثمة سرية أخرى خرجت في (رجب ٦هـ/ كانون الأول ٦٢٧م) باتجاه وادي القرى بقيادة زيد بن حارثة حيث تجمَّع هناك قوم من مذحج وقضاعة(٣)، وقد أغفلت روايات المصادر دوافعها ونتائجها، إنما يمكن القول بأنها تتعلق بسياسة رسول الله ﷺ الشامية، إما بنشر الإسلام مع هؤلاء القوم أو بعقد التحالف معهم.

سرية عبد الرحمٰن بن عوف إلى دومة الجندل

هي ثاني حملة إسلامية إلى دومة الجندل في تلك المرحلة من حياة النبي ﷺ في المدينة، وكان قوم من قبيلة كلب من قضاعة ينزلون فيها وهم على النصرانية، فوجَّه عليه الصلاة والسلام عبد الرحمٰن بن عوف على رأس سرية من سبعمائة مقاتل في (شعبان ٦هـ/ كانون الثاني ٦٢٨م) لقتال قبيلة كلب، وقد شغلت هذه السرية حيِّزاً مهماً في سياسة النبي ﷺ الشامية، وقد أمره أن يدعوهم أولاً إلى الإسلام، فأسلم زعيمهم الأصبغ بن عمرو الكلبي، وكان نصرانياً، فكتب عبد الرحمٰن إلى النبي ﷺ يخبره بذلك، فأمره أن يتزوج تماضر بنت الأصبغ، وذلك بهدف استقطابهم وتعزيزاً للعلاقات بين الطرفين، ففعل عبد الرحمٰن، وقد أسلم مع الأصبغ ناس من قومه، وأذعن الباقون بأداء الجزية(٤).

ويوضح هذا الأهمية التي يُعلقها النبي ﷺ على كسب قبيلة كلب إلى جانبه، فقد كانت هذه القبيلة أهم مجموعة عربية في بلاد الشام حين ظهر الإسلام، كقوة سياسية.

---

(١) بيضون، إبراهيم: **دولة الرسول في المدينة**، بحث في كتاب **تاريخ بلاد الشام**، ص٨٦، ٨٧.

(٢) الواقدي: جـ٢ ص٥٥٧.

(٣) ابن سعد: جـ٢ ص٨٩.

(٤) الواقدي: جـ٢ ص٥٦١. ابن سعد: جـ٢ ص٨٩.

وتكمن أهمية هذه السرية في الدلالة على سياسة النبي ﷺ التوسعية في اتجاه بلاد الشام، نظراً لما تُمثله دومة الجندل من موقع حيوي في التجارة مع هذه البلاد لا ينافسها فيه سوى بصرى[1]. ويُذكر بأن هذا الموقع لفت نظر النبي ﷺ من قبل، فقام بغزوه في مطلع السنة الخامسة للهجرة.

حقَّقت سرية عبد الرحمٰن بن عوف إلى دومة الجندل أهدافها، فقد ترتب عليها:

- إسلام الكثير من أهلها، وعلى رأسهم زعيمهم الأصبغ.
- إقرار من بقي على نصرانيته بدفع الجزية.

سرية زيد بن حارثة إلى أم قِرفة[2]

وتميَّزت السرية المعروفة بأم قِرقة بدوافعها الاقتصادية، فقد خرج زيد بن حارثة في(رمضان ٦هـ/ كانون الثاني ٦٢٨م) في تجارة إلى بلاد الشام، فتعرَّض لاعتداء من قِبل جماعة من فزارة من بني بدر في مكان قريب من وادي القرى وأخذوا ما معه، وعاد إلى المدينة، بيد أنه عاد مجدداً إلى استئناف مهمته بعد إصرار النبي ﷺ، ونزل في المكان نفسه، واصطدم مع الجماعة التي اعترضته، فقتل وأسر وعاد إلى المدينة[3]. ويُعدُّ هذا الاختراق لقبيلة كبيرة كفزارة ما تزال غير مكترثة حتى ذلك الحين بالقوة الإسلامية النامية في المدينة؛ عملاً ناجحاً كان له وقع حسن بين المسلمين.

تحليل سياسة النبي ﷺ الشمالية قبل صلح الحديبية

الواضح أن النبي ﷺ لم يتمكَّن في العام السادس للهجرة من حسم الوضع لصالحه على الحدود الشمالية للحجاز، على الرغم من عدم تدخل الدولة البيزنطية مباشرة في المواجهات التي اقتصرت مع القبائل العربية، وبخاصة كلب وجذام ولخم، وهذا ما دفعه إلى استئناف حملاته، وأتاح له صلح الحديبية التحول نحو هدفه الخارجي، وهو مطمئن على وضعه الداخلي. ومن جهة أخرى، شهدت الجبهة القبلية ـ البيزنطية بعض الارتباك؛ إذ تزعزعت ثقة القبائل العربية ببيزنطية بفعل محاولتها تغيير المعادلة في العلاقات الثنائية، من واقع فرض سيطرتها المباشرة عليها، وتخفيف مساعداتها المالية لها؛ ما أسهم في تراجع الروح المعنوية لدى القبائل التي نشأت على الاستقلال ورفض التدخل الخارجي في شؤونها، باستثناء ما

---

(١) بيضون: ص٨٨.

(٢) أم قرفة، هي: فاطمة بنت ربيعة بن بدر.

(٣) الواقدي: جـ٢ ص٥٦٤، ٥٦٥.

كان في إطار التحالفات والمصالح الخاصة، كما أن الاختلاف المذهبي أسهم في خلق وعي لديها تجاه الإسلام، على الرغم من أنها وجدت فيه تحدياً عقائدياً يفوق - مبدئياً - التحدي البيزنطي. من هذا المنطلق، تكتسب غزوات المسلمين في الشمال بعد صلح الحديبية، تلك الأهمية التي فرضتها إعادة ترتيب مواقع النفوذ البيزنطي في الأطراف الشمالية[1].

سياسة النبي ﷺ الشمالية بعد صلح الحديبية

استأنف النبي ﷺ نشاطه الجهادي في الشمال بعد صلح الحديبية، فأرسل كتابين، أحدهما إلى الامبراطور البيزنطي هرقل، والآخر إلى الحارث بن أبي شمر الغساني ملك تخوم بلاد الشام. وتطرق في الكتاب الذي أرسله إلى الامبراطور البيزنطي إلى أوضاع القبائل العربية الموالية لبيزنطية، الأمر الذي أثاره ودفعه إلى استنفار قواته وحلفائه من العرب: (**فلا تحل بين الفلاحين وبين الإسلام أن يدخلوا فيه أو يعطوا الجزية**). وقد وردت أيضاً عبارة الأريسيين محل الفلاحين؛ أي أتباع آريوس، وهم أصحاب المشيئة الواحدة المعارضة للمذهب الملكاني الذي اعتنقه البيزنطيون؛ إذ كانت القبائل العربية المتنصرة على مذهب الآريوسية الذي حمل اسم اليعقوبية فيما بعد، كما وردت لفظة الأكارين للدلالة على أولئك الذين يعملون بحراثة الأرض وزراعتها.

وهكذا ستحمل هذه المرحلة الجديدة اهتماماً أكبر من جانب النبي ﷺ بأُمور بلاد الشام، وستتوج سياسته هذه بغزوتي مؤتة وتبوك في العامين الثامن والتاسع الهجريين.

سرية كعب بن عمير إلى ذات أطلاح[2]

الواقع أن القبائل العربية الضاربة على تخوم بلاد الشام كانوا المسؤولين عن إشعال الشرارة الأولى في أتون الصراع بين المسلمين والبيزنطيين، ذلك أن الحارث بن عمير الأزدي، مبعوث الرسول ﷺ إلى أمير بصرى، لقي مصرعه على يد شرحبيل بن عمرو الغساني، وكانت مهمة الحارث سلمية هي الدعوة إلى الإسلام، ويُعدُّ مقتله جريمة واضحة لم تكن موجَّهة ضده بقدر ما كانت جريمة ضد الدولة الإسلامية التي ذهب بوصفه ممثلاً لها، لذلك كانت هذه الجريمة بحاجة إلى عقاب يتناسب مع حجمها.

---

(١) بيضون: **حملة مؤتة**. المؤتمر الدولي الرابع لبلاد الشام، عام ١٩٨٧م، ص٦٢، ٦٣.

(٢) **ذات أطلاح**: تقع وراء وادي القرى بين تبوك وأذرعات من بلاد دمشق بأرض الشام.

والواضح أن جريمة شرحبيل بن عمرو لم تكن فردية، بل تعكس موقف الغساسنة بصفة عامة تجاه الدعوة الإسلامية، بدليل ردِّ الحارث بن أبي شمر الغساني حاكم دمشق على كتاب الرسول ﷺ، وقد هدَّد بإعلان الحرب على المدينة.

وبعد مضيِّ عام ونيف على هذه الجريمة حدث أمر آخر أكَّد للمسلمين أن القبائل العربية الضاربة على تخوم بلاد الشام، رفضت التعايش السلمي مع الدولة الإسلامية، واختارت أسلوب المواجهة المسلحة. ففي (ربيع الأول ٨هـ/ تموز ٦٢٩م) بعث الرسول ﷺ كعب بن عمير الغِفاري في خمسة عشر رجلاً إلى موضع يُقال له ذات أطلاح بأرض الشام للدعوة إلى الإسلام، فخرجت عليهم قضاعة بجموعها، فأحاطوا بهم وقاتلوهم. وكانت معركة غير متكافئة بفعل الفارق العددي، فاستشهدوا جميعاً باستثناء واحد تحامل على جراحه وأتى المدينة وأخبر الرسول ﷺ بذلك، وقد شقَّ عليه ﷺ ولكنه لم يتمكَّن من أن يثأر لأصحابه من قضاعة في ذلك الوقت، حيث علم بأنها بدَّلت موقع منازلها[1].

(١) الواقدي: جـ٢ ص٧٥٢، ٧٥٣.

الفصل السابع عشر

غزوة مؤتة[1]

أسبابها

أثبتت السرايا الصغيرة التي أرسلها النبي ﷺ إلى الشمال أنه كان يتطلع إلى بلاد الشام كهدف حيوي لدولته، وتُعدُّ مقدمة لغزوة مؤتة. وترتبط أسباب هذه الغزوة بالتحولات التي أسفرت عنها عودة البيزنطيين إلى بلاد الشام، من واقع سياسة الامبراطور هرقل الجديدة نحو القبائل العربية، والعمل على احتوائها بصورة مباشرة. وكان احتكاك المسلمين بعدد من هذه القبائل، وبخاصة كَلْب وجذام وقضاعة وفزارة، قد أثار حفيظة الامبراطور البيزنطي وعدَّه تحريضاً لها على الخروج على السيادة البيزنطية، كما أن مواقف هذه القبائل المعادية للنبيِّ ﷺ وللمسلمين، والتي اتخذت صفة الغدر برسله إلى بلاد الشام؛ دفعته للعمل على تأديبها.

وكان حادث اعتراض شرحبيل بن عمرو الغساني لمبعوث النبي ﷺ الحارث بن عمير الأزدي إلى ملك بصرى، وقتله عند قرية مؤتة، هو الذي فجَّر الوضع العسكري في وقت بلغ التوتر ذروته بين الطرفين، وتجلَّى ذلك في سرعة المبادرة في إعداد حملة لتأديب القبائل العربية إن لم تستجب لدعوة الإسلام، وإشعارها بقوة الدولة الإسلامية، وقدرتها على ردع المعتدين والغادرين.

في الطريق إلى مؤتة

أمر الرسول ﷺ المسلمين للتجهُّز للقتال، وأعدَّ جيشاً بلغ تعداده ثلاثة آلاف مقاتل أسند قيادته إلى زيد بن حارثة، فإن استُشهد فجعفر بن أبي طالب، فإن استُشهد فعبد الله بن رواحة، فإن استُشهد **(فليرتضِ المسلمون بينهم رجلاً، فيجعلوه عليهم)**[2].

---

(١) أوردت روايات المصادر التاريخية اسم معركة مؤتة بأربع صور، هي: سرية، وهي الأكثر وروداً، وبعث، وغزوة، ويوم، وغزوة مرة وسرية مرة أخرى. وسنعتمد في هذا البحث اسم غزوة نظراً لضخامة عدد القوات التي اشتركت فيها، ثلاثة آلاف، بالمقارنة مع عدد أفراد السرية، وهي قطعة من الجيش تتكون من خمسة أفراد إلى أربعمائة نفر.

(٢) الواقدي: جـ٢ ص٧٥٦.

وأوصى الرسول ﷺ زيد بن حارثة ورجاله **(أن يأتوا مقتل الحارث بن عمير وأن يدعوا مَن هناك إلى الإسلام، فإن أجابوا وإلا استعانوا عليهم بالله وقاتلوهم)**[1].

خرج زيد بن حارثة من المدينة في اتجاه بلاد الشام في (جمادى الأولى ٨هـ/ أيلول ٦٢٩م)، وعسكر أولاً بالجرف على بُعد حوالي خمسة كيلومترات إلى الشمال من المدينة، ثم انطلق مع جيشه في مهمتهم، وشيَّعهم الرسول ﷺ حتى ثنية الوداع المشرفة على المدينة ثم أوصاهم وودعهم[2].

علمت القبائل العربية، على تخوم بلاد الشام، بأنباء الزحف الإسلامي، فتملَّكها الفزع، فالتمست المساعدة من الامبراطور البيزنطي هرقل. وشكَّل طلب المساعدة انعطافة خطيرة؛ لأن القضية اتخذت بذلك بُعداً إقليمياً، ولم يضع المسلمون في اعتبارهم، عندما خرجوا من المدينة، أنهم ذاهبون لحرب البيزنطيين، بل لتأديب عرب الشام.

تقدَّم الجيش الإسلامي حتى وصل إلى وادي القرى، فأقام أفراده بها أياماً ثم تقدموا حتى نزلوا في معان في طرف بادية الشام من أرض البلقاء. كان الامبراطور البيزنطي آنذاك في أنطاكية، ولما علم بزحف المسلمين؛ جهَّز قوة عسكرية على عجل بقيادة أخيه ثيودوروس، وأرسلها إلى الجنوب للتصدي للزحف الإسلامي، فعسكرت في موآب، وانضمت إليها في هذا المكان قوات عربية موالية من بهراء والقين وبلي ولخم وجذام، بحيث بلغ عدد أفراد جيش المتحالفين مائة ألف مقاتل[3].

وترامت إلى مسامع قادة المسلمين أنباء الحشود الضخمة التي حشدها هرقل، فعقدوا مجلساً حربياً للتشاور في أمر الحرب، وقرَّروا المضي في مهمتهم، فانحازوا إلى قرية مؤتة ليتحصَّنوا بها، وجرى اللقاء بين الطرفين في هذه القرية[4].

أحداث معركة مؤتة

اختار المسلمون منطقة مؤتة مسرحاً للقتال لوجود الحواجز الطبيعية التي يستطيعون

---

(١) ابن سعد: جـ٢ ص١٢٨. (٢) الواقدي: جـ٢ ص٧٥٦، ٧٥٧.

(٣) المصدر نفسه: جـ٢ ص٧٥٦. وقارن بابن هشام الذي يذكر أن عدد أفراد جيش المتحالفين بلغ مائتي ألف نصفهم من الروم، ونصفهم من العرب. **السيرة النبوية**: جـ٤ ص٧١. ويبدو أن هذه الأعداد مبالَغ فيها، والمعروف أن عديد الجيش البيزنطي النظامي في بلاد الشام لم يكن كبير الحجم، ولا يمكن للإدارة العسكرية البيزنطية توفير أكثر من عشرين ألف جندي للدفاع عن هذه البلاد، وينطبق ذلك على القبائل العربية.

(٤) ابن هشام: جـ٤ ص٧٢.

التحصن بها إزاء التفوق العددي للعدو. والتحم الجيشان، «فقاتل زيد بن حارثة براية رسول الله ﷺ حتى شاط في رماح القوم»[1]، ثم أخذها جعفر بن أبي طالب فقاتل مستبسلاً حتى خرَّ شهيداً، ثم أخذها عبد الله بن رواحة، فكان مصيره كمصير صاحبيه، ثم اتفق المسلمون على تسليم الراية لخالد بن الوليد، وكانت هذه الغزوة أول مشاهده في الإسلام، ولم تكن مهمته سهلة، فقد كان عليه أن يُنقذ المسلمين من ذلك المأزق الصعب الذي وضعهم فيه تفوق عدوهم في العدد والعدة، وقد أظهر براعة عسكرية، فوضع خطة تقضي بانسحاب الجيش من المعركة على الأسس التالية:

- الحؤول بين جيش المسلمين وأعدائهم ليضمن لأفراده سلامة الانسحاب.
- تضليل العدو بإيهامه أن مدداً قد ورد إلى جيش المسلمين، فيخفف من ضغطه وهجماته فيتمكَّن المسلمون من الانسحاب.
- بدَّل في ظلام الليل مراكز المقاتلين في جيشه، فاستبدل الميمنة بالميسرة ومقدمة القلب بالمؤخرة.
- اصطنع ضجة صاخبة وجلبة قوية أثناء عملية الاستبدال، ثم حمل على العدو عند الفجر بهجمات سريعة متتالية وقوية ليُدخل في روعه أن إمدادات كثيرة وصلت إلى المسلمين[2].

نجحت خطة خالد بن الوليد، إذ بدا للعدو صباحاً أن الوجوه والرايات جديدة لم يرها من قبل، وأن المسلمين يقومون بهجمات عنيفة، فأيقنوا أنهم تلقوا إمدادات وأن جيشاً جديداً نزل إلى الميدان، ففتَّ بذلك عضدهم، وضعف اندفاعهم، فخفَّ الضغط عن جيش المسلمين، فانتهز خالد بن الوليد الفرصة وباشر بعملية الانسحاب، فعمد إلى سحب الجناحين بحماية القلب، ولما أصبح الجناحان بمنأى عن العدو، وفي مأمن منه؛ عمد إلى سحب القلب بحماية الجناحين، إلى أن تمكَّن وضمن سلامة الانسحاب كلياً[3].

وبلغت خسائر المسلمين بين ثمانية واثني عشر قتيلاً[4].

تحليل غزوة مؤتة

- كانت الحملة الإسلامية أقرب إلى أن تكون حملة استطلاعية منها إلى حملة

---

(١) الطبري: جـ٣ ص٣٩. يقال: شاط الرجل: إذا سال دمه، فهلك.

(٢) الواقدي: جـ٢ ص٧٦٤. ابن كثير: جـ٤ ص٢٤٧.

(٣) سويد، ياسين: معارك خالد بن الوليد، ص١٧٣.

(٤) الواقدي: جـ٢ ص٧٦٩. ابن هشام: جـ٤ ص٧٦.

هدفها الدخول في صدام مسلح غير متكافىء، على الرغم من وصية الرسول ﷺ لقادتها بقتال المشركين، وأن المواجهة كانت أقرب إلى أن تكون مناوشة، بدليل قِلَّة الخسائر وانعدام تفاصيل تتعلق بسير القتال وطبيعته.

ـ لا يعني ما ذكرنا أعلاه التقليل من أهمية المواجهة من جانب المسلمين، حيث كان لاستشهاد القادة الثلاثة تأثير عميق في المدينة، كما شكَّلت حافزاً جديداً للاستمرار في هذه السياسة، ولم ير النبي ﷺ فيها إخفاقاً أو تراجعاً لمشروعه، (**ليسوا بالفرَّار ولكنهم الكرَّار إن شاء الله**)[١].

ـ كانت عملية الانسحاب التي قام بها خالد بن الوليد من أكثر العمليات في التاريخ العسكري مهارة ونجاحاً، وتتلاءم مع التكتيك الحديث للانسحاب.

ـ أنقذ الله المسلمين بخالد بن الوليد من هزيمة محقَّقة، ويُعدُّ انسحابه قمة النصر بالنسبة إلى ظروف المعركة، حيث يكون الانسحاب، في ظروف مماثلة؛ أصعب حركات القتال، بل أجداها وأنفعها[٢].

ـ تعدُّ معركة مؤتة من المعارك المهمة التي وقعت بين المسلمين في بداية حياتهم السياسية وبين النصارى من عرب وعجم؛ لأنها أول صدام مسلح ذي أهمية بين الفريقين.

ـ كانت معركة مؤتة بالنسبة للبيزنطيين جزءاً من عملية استطلاع تنظيمي لمناطق خلت من عمليات عسكرية مدة عقدين، كان البيزنطيون خلالها يحاولون تثبيت سلطتهم في مناطق تخلَّى عنها الفرس على امتداد التخوم الجنوبية لبلاد الشام، معتمدين على مساعدة القبائل العربية المتحالفة معهم. وكان ثيودوروس هو الذي أقنع الامبراطور بإرسال وحدات قتالية إلى هناك كإجراء احترازي إزاء تهديد المسلمين الوشيك.

ـ تشير الروايات الواردة عن معركة مؤتة إلى أن البيزنطيين استعادوا نوعاً من السلطة في تلك المناطق البعيدة نسبياً، الواقعة شرق نهر الأردن من أجل:

١ ـ المحافظة على جناح فلسطين.

٢ ـ الاستجابة لمطالب السكان المحليين بالحماية.

٣ ـ عودة الامبراطورية إلى الحدود السابقة.

٤ ـ حماية الحجاج النصارى إلى بيت المقدس وإلى جبل نبو، وهو المكان الوحيد الذي يقصده الحجاج في شرق الأردن.

٥ ـ تأمين طرق التجارة مع البدو وسكان سواحل البحر الأحمر بفعل تذمر التجار الذين كانوا يتأذون من انعدام الأمن.

---

(١) ابن هشام: جـ٤ ص٧٤.

(٢) سويد: ص١٧٥.

- أثارت هذه التطلعات البيزنطية النبي محمَّد ﷺ، ودفعته إلى اتخاذ قرار بإرسال حملة إلى تبوك في شمالي الحجاز وواحة دومة الجندل.

- إن حتمية مواجهة الخطر الذي فرضته التعبئة البيزنطية الواسعة في البلقاء، كانت أبرز دوافع هذا التحرك الإسلامي المضاد؛ تفادياً لإثارة المشكلات الداخلية في الجزيرة العربية، وحفاظاً على انتصارات المسلمين في الداخل، وشمولية الدعوة الإسلامية.

- ظهرت معجزة النبي ﷺ في أمر هذه السرية، فقد نعى المسلمين في المدينة زيداً وجعفراً وابن أبي رواحة قبل أن يصل خبرهم من أرض المعركة، وحزن لما وقع للسرية وذرفت عيناه الدموع، ثم أخبرهم بتسلم خالد للراية، وبشَّرهم بالفتح على يديه وأسماه سيف الله[1].

تتضمَّن غزوة مؤتة بعض الدلالات، نذكر منها:

- دلَّت توصية النبي ﷺ على أنه يجوز للخليفة أو الحاكم أن يُعلِّق إمارة أحد الأشخاص بشرط، وأن يولي المسلمين أمراء عدة بالترتيب، كما فعل ﷺ في تولية زيد بن حارثة ثم جعفر بن أبي طالب ثم عبد الله بن رواحة، وتنعقد ولاية الكل في ذلك مُرتَّبة[2].

- دلَّت توصية الرسول ﷺ أيضاً على مشروعية اجتهاد المسلمين في اختيار أمير إذا غاب أميرهم أو منحهم الخليفة حق اختيار من يرون، وهذا أصل يُستنبط منه أن يُقدِّم المسلمون رجلاً إذا غاب الإمام يقوم مقامه إلى أن يحضر، كما دلَّت هذه التوصية على مشروعية اجتهاد المسلمين في حياة النبي ﷺ[3].

- يدل نعي النبي ﷺ للقادة الثلاثة على أن الله تعالى قد طوى الأرض لرسوله ﷺ، فأضحى يرى من شأن المسلمين الذين يقاتلون على مشارف الشام، ما حدَّث أصحابه به، وهي من جملة المعجزات الكثيرة التي أكرمه الله بها.

- لا يتنافى ذرفه ﷺ للدموع وهو يُخبر أصحابه في المدينة باستشهاد القادة مع الرضى بقضاء الله تعالى وقدره، فإن العين لتدمع والقلب ليحزن، كما قال عليه الصلاة والسلام، وتلك رقة طبيعية ورحمة فطر الله الإنسان عليها[4].

- عندما أخبر رسول الله ﷺ أسماء بنت عميس بمقتل زوجها جعفر بن أبي طالب

---

(١) **صحيح البخاري**: كتاب المغازي، باب غزوة مؤتة من أرض الشام، رقم الحديث (٤٢٦٢)، ص٧٦٩.

(٢) ابن حجر العسقلاني: **فتح الباري في هامش صحيح البخاري**، جـ٩ ص٥٤.

(٣) البوطي: ص٣٨٥. (٤) المرجع نفسه.

بكت وصاحت، فلم ينكر عليها رسول الله ﷺ ولم ينهها، ويدل ذلك على جواز بكاء المرأة على زوجها المتوفى.

العبر والدروس المستنبطة من غزوة مؤتة

ـ إن الصبر والثبات والتضحية التي تجلَّت في كل واحد من الأُمراء الثلاثة وسائر الجند، كان مبعثها الحرص على نيل الشهادة وثوابها.

ـ تميزت غزوة مؤتة بميزتين:

الأولى: أنها الغزوة التي اختار لها ﷺ ثلاثة أُمراء على الترتيب.

الثانية: أنها الغزوة الوحيدة التي جاء خبرها من السماء، من واقع نعي الرسول ﷺ القادة الثلاثة قبل أن يصل الخبر من أرض المعركة.

ـ قال رسول الله ﷺ: (**... لا تغفلوا آل جعفر من أن تصنعوا لهم طعاماً، فإنهم قد شُغلوا بأمر صاحبهم**)[1]. وفي هذا مواساة لأهل المتوفى وتخفيف مصابهم وتكافل بينهم في الوقت نفسه.

ـ نهى رسول الله ﷺ عن البكاء بعد ثلاثة، فقد دخل على أسماء بنت عميس وقال لها: (**لا تبكوا على أخي بعد اليوم**)[2].

ـ رعى رسول الله ﷺ أولاد جعفر بن أبي طالب، فقال: (**ادعوا لي بني أخي**)، فجيء بهم كأنهم أفرخ، فدعا الحلاق فحلق لهم رؤوسهم ثم ضمَّهم إليه، ولما ذكرت له أُمهم تيتُّمهم وضعفهم، قال لها: (**العيلة لا تخافين عليهم، وأنا وليهم في الدنيا والآخرة**)[3]. وهذا منهج نبوي كريم خطه رسول الله ﷺ لرعاية وتكريم أبناء الشهداء، لتقتدي الأُمة بنهجه.

ـ قدَّم الصحابي ثابت بن أرقم العجلاني درساً في فقه القيادة؛ فبعد استشهاد عبد الله بن رواحة آخر الأُمراء، أخذ اللواء من أن يقع؛ لأن وقوع اللواء معناه هزيمة الجيش، وقد رأى ذلك واجباً عليه، ثم نادى المسلمين أن يختاروا لهم قائداً، فرشحوه لاستلام القيادة فرفض، فاصطلح الناس على خالد بن الوليد[4].

ـ كان باستطاعة ثابت تولي قيادة المسلمين، ولكنه رأى من الظلم أن يتولى عملاً وفي المسلمين من هو أجدر به منه، حتى ولو لم يمض على إسلامه أكثر من ثلاثة أشهر؛ لأن الغاية هي السعي لتنفيذ أوامر الله على الوجه الأحسن والطريقة الأمثل[5].

---

(١) ابن هشام: جـ٤ ص٧٣.
(٢) ابن كثير: جـ٤ ص٢٥٢.
(٣) المصدر نفسه.
(٤) الواقدي: جـ٢ ص٧٦٣، ٧٦٤.
(٥) الشامي، صالح أحمد: من معين السيرة، ص٣٧٨.

- توقف الجيش الإسلامي في معان، فناقش قادته كثرة عدوهم، وكانت الظروف المادية في غير صالحهم، ولا تشجعهم على خوض المعركة، لكنهم استمدُّوا القوة من إيمانهم العميق بهذا الدين، فهم خرجوا يطلبون الشهادة، فلماذا إذن يفرُّون مما خرجوا لطلبه؟.

سرية ذات السلاسل[1]

أدرك النبي ﷺ بعد غزوة مؤتة أنه كُتب عليه الصدام مع القبائل العربية الضاربة على تخوم بلاد الشام أو استقطابها، وأن الصدام مع البيزنطيين آتٍ لا محالة، وأضحى التهيؤ لهذا التحول واجباً تمليه عليه ضرورة تأمين دولته. وقد حدثت في المدة بين غزوة مؤتة وغزوة تبوك سرية ينبغي أن يُنظر إليها في هذا الإطار.

لقد أثبتت غزوة مؤتة أن التجمع القبلي العربي على تخوم بلاد الشام والمعادي للمسلمين شكَّل حاجزاً للولوج إلى بلاد الشام، فأراد رسول الله ﷺ أن يخترقه من خلال تألف بعض القبائل المهمة هناك أو استقطابها إلى الإسلام؛ لأن استعمال القوة معها دونه محاذير، فيُحقِّق بذلك أمرين:

الأول: امتداد النفوذ الإسلامي إلى تلك المناطق.

الثاني: تأمين الجبهة المعادية للإسلام على حدود بلاد الشام.

وبلغ النبي ﷺ أن حشوداً من بلي وقضاعة قد تجمَّعت بهدف غزو المدينة، فجهَّز قوة عسكرية من المهاجرين والأنصار قوامها ثلاثمائة مقاتل بقيادة عمرو بن العاص، وأرسله إلى ذات السلاسل، وأمره باستنفار العرب إلى الإسلام وتألفهم[2]. وقد اختار هذا الصحابي على الرغم من حداثته في الإسلام[3]؛ لأن والدة العاص بن وائل، وهي جدة عمرو، كانت امرأة من بلي، فكان ذا رحم فيهم، وأن اختياره يُحقِّق الهدف.

خرج عمرو بن العاص من المدينة في (جمادى الآخرة ٨هـ/تشرين الأول ٦٢٩م)، ولما وصل إلى المنطقة؛ علم بأن حشوداً قبلية كبيرة من بلي وقضاعة وعاملة وكَلْب وغسان ولخم وجذام، قد احتشدت فالتمس المساعدة من الرسول ﷺ،

(١) **السلاسل:** ماء بأرض جذام بينها وبين المدينة عشرة أيام، وبذلك سُمِّيت بسرية ذات السلاسل. وقد دعا كل من ابن هشام والواقدي هذه الحملة بغزوة، وسماها ابن سعد بسرية. انظر: **السيرة النبوية:** جـ٤ ص٢٣٩. **المغازي:** جـ٢ ص٧٦٩. **طبقات ابن سعد:** جـ٢ ص١٣١. واعتمدنا اسم سرية.

(٢) **الواقدي:** جـ٢ ص٧٧٠. ابن هشام: جـ٤ ص٢٣٩.

(٣) أسلم عمرو بن العاص في شهر صفر، عام (٨هـ).

فأمدَّه بأبي عبيدة بن الجراح مع مائتين من المهاجرين والأنصار، فيهم أبو بكر وعمر بن الخطاب. ويُعدُّ هذا المدد نوعاً من التأمين؛ لأن السرية لم تُرسل أصلاً للقتال. وأدرك الرسول ﷺ بفطنته السياسية أن بعض قدامى المهاجرين والأنصار المشتركين في السرية قد لا يرضون بإمارة عمرو مع وجود رجال كأبي عبيدة وأبي بكر وعمر، لكن تعيين أحدٍ منهم قد يلغي الهدف الأساس للحملة، لذلك أوصى أبا عبيدة بألا يختلف معه، ولما اجتمعا أراد أبو عبيدة أن يؤمهم بالصلاة، فقال له عمرو: «أنت جئت مدداً لي وأنا الأمير»، وكان أبو عبيدة حليماً كريماً، فسلَّم لعمرو بالإمارة(١).

نجح عمرو بن العاص في مهمته، فقد انضمَّ إليه بعض القبائل، لكن واجه مقاومة من بعضها الآخر، فاضطر إن يصطدم بها في مناوشات خفيفة لأنها تفرقت عنه، وانتهى إلى أقصى بلاد عذرة وبلقين(٢).

غطَّت هذه الحملة بنتائجها الإيجابية المتمثلة بفرض الوجود الإسلامي بعد الانتشار الواسع للمسلمين في هذه المناطق، وتهديد بلاد الشام، وإن بشكل غير مباشر؛ النتائج السلبية لغزوة مؤتة، وأعادت الثقة إلى نفوس المسلمين في المدينة.

العبر والدروس المستنبطة من سرية ذات السلاسل

تتضمن سرية ذات السلاسل بعض العبر والدروس أهمها:

ـ ضرورة استيعاب أي هزيمة بسرعة وامتصاص نتائجها والانطلاق لاستعادة الهيبة والثقة، وهذا ما هدف إليه الرسول ﷺ من هذه السرية، بعد ما حلَّ بالمسلمين في مؤتة.

ـ أهمية وحدة القيادة، وهذ ما أدركه أبو عبيدة وعمرو، فقد أصرَّ عمرو على أنه القائد، وعرض بعض من في الجيش أن يكون كل منهما أميراً على من معه، ولكن أبا عبيدة سارع إلى حسم الأمر، فتنازل لعمرو، لتقديره أهمية الوحدة وعاقبة التنازع بفعل تعدُّد القيادات.

ـ حِرص عمرو بن العاص على سلامة قواته، ويتجلَّى ذلك من خلال:

١ ـ أنه كان يسير في الليل ويكمن في النهار. لقد كان يُدركُ ببعد نظره أن العدو يمكن أن يسعى إلى معرفة أخباره والوقوف على تحركاته ما يمنحه فرصة الاستعداد قبل الصدام، ولهذا رأى أن السير ليلاً والاختفاء نهاراً هو أفضل أسلوب للمحافظة على سلامة قواته، فحقَّق بذلك أمرين: إخفاء تحركاته عن عدوه، وحماية جنده من شدة الحر، فيحافظون بذلك على نشاطهم، ويصلون إلى مكان المواجهة وهم

(١) الواقدي: جـ٢ ص٧٧١.
(٢) المصدر نفسه.

أقوياء[1].

٢ ـ منع قواته من إيقاد النيران لحاجتهم الماسة إلى التدفئة، معتمداً في ذلك على خبرته العسكرية وعمق تفكيره العسكري، وذلك خوفاً من أن يكشف العدو أمرهم فينقض عليهم، فلما عادوا إلى المدينة ذكروا ذلك لرسول الله ﷺ، فاستدعاه وسأله عن تصرفه فأجابه: «كرهت أن آذن لهم أن يوقدوا ناراً فيرى عدوهم قِلَّتهم». فأقرَّه النبي ﷺ على تصرفه[2].

٣ ـ عندما هزم المسلمون أعداءهم طمعوا في الحصول على الغنائم، فهمُّوا بمطاردتهم، فمنعهم عمرو بن العاص من ذلك؛ تحسباً من وقوعهم في كمين قد يُعدُّونه لهم، فأقرَّه ﷺ على هذا التصرف الحكيم الذي أمَّن الجيش وحقَّق الحماية للجند[3].

ـ احتلم عمرو بن العاص في ليلة باردة، خلال هذه السرية، فأشفق إن اغتسل هلك، فتيمَّم ثم صلى بأصحابه الصبح، فذكروا ذلك لرسول الله ﷺ، فلما عاد إلى المدينة سأله عن تصرفه هذا، فأخبره بالذي منعه من الاغتسال، وقال: قد قال تعالى: ﴿وَلَا تَقْتُلُوٓاْ أَنفُسَكُمْۚ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ بِكُمْ رَحِيمًا﴾ [النساء/ ٢٩]. فضحك رسول الله ﷺ، ولم يقل شيئاً[4].

نستنبط من هذه الحادثة أموراً عدة منها:

١ ـ إن التيمم يقوم مقام الغسل بالنسبة للجنب مع وجود الماء، إذا خشي أن يؤدي استخدامه إلى الهلاك.

٢ ـ جواز الاجتهاد في عهد رسول الله ﷺ؛ فقد اجتهد عمرو بن العاص، ولم ينكر عليه رسول الله ﷺ، بل أقرَّه على أمرين: جواز الاجتهاد، وصحة اجتهاده.

٣ ـ من الأعذار المبيحة للتيمم تعذر استخدام الماء مع وجوده، كالبرد الشديد.

٤ ـ جواز إمامة المتيمم للمتوضىء.

٥ ـ يدل اجتهاد عمرو بن العاص على فقهه، ووفور عقله، ودقة استنباطه الحكم من دليله. ولئن وقف الفقهاء عند هذه الحادثة يُفرِّعون عليها الأحكام، فإن الذي يستوقفنا تلك السرعة في وقوف عمرو على استيعاب كنه الآيات القرآنية، بحيث بات قادراً على استنباط فقه الأمور من خلالها، وهو لم يمض على إسلامه أربعة أشهر[5].

---

(١) الصلَّابي: جـ٢ ص٣٨٨، ٣٨٩.

(٢) العمري، أكرم: **السيرة النبوية الصحيحة**، جـ٢ ص٥٠٩.

(٣) المرجع نفسه.

(٤) الواقدي: جـ٢ ص٧٧٣، ٧٧٤.

(٥) الشامي: ص٣١٨.

الفَصْل الثَامِن عَشَر

غـزوة تبوك[1]

أسبـابـها

عندما رأى الامبراطور البيزنطي هرقل أن جزيرة العرب دانت بالإسلام؛ أدرك الخطر القادم من الجنوب الذي يُهدِّد بلاده بالاجتياح، ومُلكه بالزوال، وبخاصة أن الإسلام دعوة للناس كافة، وسيعمل المسلمون على تأمين حرية انتشاره. وقد خشي أن تستهوي سكان تلك المناطق، الذين كانوا يُعانون من الظلم والاضطهاد، وينوؤون تحت ثقل الضرائب المفروضة عليهم، فقرَّر التحرك للقضاء على الخطر قبل استفحاله، فحشد أعداداً هائلة من المقاتلين في بلاد الشام، وانضمَّت إليهم قبائل لخم وجذام وعاملة وغسان، دفع لهم أُعطيات عام كامل؛ تحرَّكوا في الموعد المحدد إلى البلقاء[2].

وصلت أنباء الزحف البيزنطي - القبلي إلى مسامع الرسول ﷺ من الأنباط، الذين كانوا يتنقلون بين الشام والمدينة للتجارة[3]؛ فقرَّر أن يغزوهم قبل أن يغزوه في

---

(1) لهذه الغزوة اسم آخر هو غزوة العسرة، وقد ورد في القرآن الكريم عندما تحدث عن هذه الـغـزوة، قـال تـعـالـى: ﴿لَّقَد تَّابَ ٱللَّهُ عَلَى ٱلنَّبِيِّ وَٱلْمُهَٰجِرِينَ وَٱلْأَنصَارِ ٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُوهُ فِى سَاعَةِ ٱلْعُسْرَةِ مِنۢ بَعْدِ مَا كَادَ يَزِيغُ قُلُوبُ فَرِيقٍ مِّنْهُمْ ثُمَّ تَابَ عَلَيْهِمْ إِنَّهُۥ بِهِمْ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ﴾ [التوبة/ ١١٧]، وقد سُمِّيت بهذا الاسم لشدَّة ما لاقى المسلمون فيها من الضَّنك، فقد كان الجو شديد الحرارة، والمسافة بعيدة، والسفر شاقاً، والمؤونة قليلة، وكذلك الدواب التي تحمل أفراد الجيش، والماء، والمال الذي يُجهَّز به الجيش ويُنفق عليه.
وللغزوة اسم ثالث هو الفاضحة، لأنها كشفت عن حقيقة المنافقين، وفضحت أساليبهم العدائية، وأحقادهم الدفينة، ونفوسهم الخبيثة، وجرائمهم البشعة بحق رسول الله ﷺ والمسلمين.
انظر: الزرقاني، **شرح المواهب اللدنية**، جـ٣ ص٦٢.
وكانت تبوك منهلاً من أطراف الشام من ديار قضاعة تحت سلطة البيزنطيين بين وادي القرى والشام، وهي اليوم إحدى مدن شمالي الحجاز الرئيسة، لها إمارة تُعرف بإمارة تبوك، تبعد عن المدينة شمالاً (٧٧٨ كلم) تمر عبر خيبر وتيماء.

(2) الواقدي: جـ٣ ص٩٩٠. (3) المصدر نفسه.

خطوة استباقية، فندب الناس إلى الخروج، وهذه استجابة طبيعية لفريضة الجهاد. وفي رواية[1] أن رسول الله ﷺ عزم على قتالهم؛ لأنهم أقرب الناس إليه وأولى الناس بالدعوة إلى الحق لقربهم من الإسلام وأهله ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ قَٰتِلُوا۟ ٱلَّذِينَ يَلُونَكُم مِّنَ ٱلْكُفَّارِ وَلْيَجِدُوا۟ فِيكُمْ غِلْظَةً وَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلْمُتَّقِينَ﴾ [التوبة/١٢٣]. ولا يتنافى ذلك مع ما ذكره المؤرخون من أن سبب الغزوة هو عزم البيزنطيين على غزو المسلمين في عُقر دارهم، أن يكون حافزاً للخروج إليهم؛ لأن أصل الخروج كان وارداً[2]، وأن السكوت على التحرك البيزنطي معناه الاندحار، وانتظارهم لكي يُوَجِّهوا هم ضربتهم معناه الانتحار، فلا بد إذن من التجهز بسرعة، وتولي زمام المبادرة[3].

الاستعداد والتجهيز

أعدَّ رسول الله ﷺ لغزوة تبوك ما لم يُعدَّه لأي غزوة قبلها، سواء من حيث العدد أم العتاد. لقد استنفر قبائل العرب في كل منطقة انتشر فيها الإسلام في الجزيرة العربية، وحضَّ المسلمين على الإنفاق على هذه الغزوة، ووعد المنفقين بالأجر العظيم من الله، فأنفق كل منهم قدر سعته. واستطاع أن يحشد ثلاثين ألف مقاتل من المهاجرين والأنصار وأهل مكة والقبائل العربية الأخرى، بينهم عشرة آلاف فارس[4]. وأعلن على غير عادته في غزواته عن هدفهُ ووجهته، وأنه يريد قتال بني الأصفر (الروم البيزنطيين)، وقد أراد إجلاء الأمر للمُسلمين ليكونوا على بيِّنة ويستعدوا لهذه الغزوة، نظراً لبُعد المسافة، وما ستتعرض له الحملة من سفرٍ شاق، ومفازٍ، وعدو قوي كثير العدد، وشدَّة الزمان؛ إذ أن الفصل كان صيفاً وقد بلغ أقصاه والناس في عسرة، وثمار المدينة قد أينعت وحان قطافها، والناس يحبون المقام في ثمارهم وظلالهم، ويكرهون الشخوص لقطع آلاف الأميال عبر الصحراء، وقتال قوم هم سادة العالم المعروف آنذاك، ومحنة مؤتة ليست بعيدة عن الأذهان، لكن منطق الرسول ﷺ يفوق التحدِّيات ويتجاوز الصعوبات[5].

الواضح أن الرسول ﷺ أخذ بمبدأ المرونة عندما وضع خطته العسكرية، ومراعاة المصلحة العامة في حالتي الكتمان والتصريح، ونتج عن ذلك استبداد الخوف ببعض من عرض عليهم الاشتراك بالحملة؛ ما جعلهم يتثاقلون ولا يخفُّون لداعي الجهاد،

---

(١) ابن كثير: جـ٥ ص٣.
(٢) الصلَّابي: جـ٢ ص٤٦٥.
(٣) خليل: ص٣٠١.
(٤) ابن سعد: جـ٢ ص١٦٦.
(٥) الواقدي: جـ٣ ص٩٩٠.

بل إن الخوف من البيزنطيين وصل ببعض المنافقين إلى درجة جعلتهم يخشونهم وهم في منازلهم.

أحداث الغزوة

خرج الرسول ﷺ من المدينة على رأس الجيش في (رجب ٩هـ/ تشرين الأول ٦٣٠م)[١]، واستخلف عليها محمد بن مسلمة الأنصاري، وعلياً بن أبي طالب على أهله. تجمَّع الجيش في ثنية الوداع، فعبَّأه الرسول ﷺ، فاختار الأمراء والقادة، وعقد الألوية، ووزَّع الرايات[٢]، ثم انطلق إلى وجهته باتجاه الشمال، وكان «أقصى أثره تبوك»[٣]، ولما وصل إليها لم يجد أحداً من هؤلاء الذين قيل إنهم تجمَّعوا يريدون غزو المدينة، ويبدو أنهم حين سمعوا بخروج الرسول ﷺ إليهم على رأس هذه القوة الضخمة؛ هالهم الأمر، وهابوا مواجهته. وأقام الرسول ﷺ عشرين ليلة في تبوك من دون أن يلقى كيداً، وقبع الامبراطور البيزنطي هرقل بحمص[٤]. ومع ذلك، فقد رأى ﷺ أنه يمكن تحقيق نتيجة مهمة تتمثل بكسب ولاء القبائل والتجمعات الدائرة في فلك البيزنطيين والضاربة على تخوم الشام أو تحييدها في ذلك الصراع الدائر بين المسلمين والبيزنطيين، فعقد في هذا الإطار أثناء إقامته في تبوك معاهدات مع حكام المدن في أطراف الشام، الذين آثروا الصلح ودفع الجزية.

فقد أرسل ملك أيلة للنبي ﷺ هدية، وهي بغلة بيضاء وبُرد، فصالحه على الجزية، وأرسل خالد بن الوليد على رأس سرية بلغ عديدها أربعمائة وعشرين فارساً إلى دومة الجندل، فاستطاع خالد أن يأسر ملكها أكيدر بن عبد الملك الكندي، وكان في الصيد خارج المدينة، فصالحه على الجزية. وعقد رسول الله ﷺ معاهدات مع أهل جرباء وأذرح ومقنا، يؤدي هؤلاء بموجبها الجزية، وتخضع لسلطان المسلمين[٥]، ففصلها بذلك عن البيزنطيين. والمعروف أن هذه المستوطنات على الرغم من ارتباطها مصلحياً وجغرافياً ببيزنطية، إلا أنها كانت تتمتع بنوع من الاستقلال الذاتي، الأمر الذي أتاح لها الفرصة لأن تعقد معاهدات صلح مع الرسول ﷺ، من دون تدخل مباشر من الدولة البيزنطية.

والراجح أن الوهن الذي حلَّ بالدولة البيزنطية نتيجة حروبها الطويلة مع الفرس جعل قبضتها تخف تدريجاً عن تلك الأماكن التي كانت تقع تحت حمايتها المطلقة،

---

(١) ابن هشام: جـ٤ ص١٧٣. (٢) الواقدي: جـ٣ ص٩٩٦.

(٣) ابن قتيبة الدينوري، أبو محمد عبد الله بن مسلم: **المعارف**، ص٩٦.

(٤) الواقدي: جـ٣ ص١٠١٥. (٥) ابن هشام: جـ٤ ص١٧٨.

بالإضافة إلى ما قامت به هذه الدولة من قطع مساعداتها السنوية التي كانت تدفعها لسكان تلك المستوطنات؛ فأمَّن الرسول ﷺ بذلك حدود الدولة الإسلامية الشمالية، وحجَّم النفوذ البيزنطي في تلك المناطق، وهذه سياسة نبوية حكيمة اختطها رسول الله ﷺ في بناء الدولة ودعوة الناس إلى دين الله.

عاد الرسول ﷺ إلى المدينة في (رمضان/كانون الأول) بعد أن أنجز مهمته وحقَّق هدفه، وقد أمر بهدم مسجد الضرار الذي بناه المنافقون أثناء عودته، ولما وصل إلى المدينة خرج الصبيان إلى ثنية الوداع يتلقونه، ودخل المدينة، فصلَّى في مسجده ركعتين ثم جلس للناس، وقد بدا واضحاً لديه ولدى البيزنطيين أن الصراع الإسلامي - البيزنطي بدأ يدخل طوراً جديداً.

غزوة تبوك في القرآن الكريم

الإنفاق على الغزوة: حضَّ رسول الله ﷺ الصحابة على الإنفاق في هذه الغزوة، فأنفق كلٌّ على قدر سعته، فقدَّم عثمان بن عفَّان ثلاثمائة بعير بأحلاسها[(١)] وأقتابها[(٢)]، بمعنى أنها كاملة التجهيز. وفي رواية أنه جهَّز ثلث ذلك الجيش، فكان من أكثر المسلمين نفقة حتى كفى ذلك الجيش مؤونتهم، فقال رسول الله ﷺ يومئذ: **(ما يضر عثمان ما فعل بعد هذا)**[(٣)]. وأتى أبو بكر بكل ماله، وهو أربعة آلاف درهم، فقال له رسول الله ﷺ: **(ما أبقيت لأهلك؟)**. قال: أبقيت لهم الله ورسوله. وجاء عمر بن الخطاب بنصف ماله، فقال له رسول الله ﷺ: **(ما أبقيت لأهلك؟)** قال: نصف ما جئت به[(٤)]. وقدَّم بعض الصحابة نفقات عظيمة، منهم: العباس بن عبد المطلب، وطلحة بن عبيد الله، ومحمد بن مسلمة.

وهكذا برهن أغنياء الصحابة أن مالهم في خدمة هذا الدين، يدفعونه عن طواعية ورغبة، وكما أن الجهاد بالنفس فكذلك هو بالمال، ثم إن مسارعة الموسرين من الصحابة إلى البذل والإنفاق دليل على ما يفعله الإيمان في نفوس المؤمنين من مسارعة إلى فعل الخير.

وقدَّم فقراء المسلمين جهدهم من النفقة على استحياء، فقد جاء أبو عُقيل بصاع تمر، فقال: يا رسول الله! «أصبت صاعين من تمر، صاع أقرضه لربي، وصاع لعيالي». فتعرَّضوا لسخرية وغمز ولمز المنافقين، فقالوا: إن الله لغني عن صدقة

---

(١) الحلس: ما يوضع على ظهر الدابة تحت الرجل أو السرج.

(٢) قِتب: ما استدار من البطن أو رحل صغير. (٣) الواقدي: جـ٣ ص٩٩١.

(٤) المصدر نفسه.

هذا. كذلك تعرَّض الأغنياء لِلَمْز المنافقين، فاتَّهموهم بالرياء، فنزلت الآية: ﴿ٱلَّذِينَ يَلۡمِزُونَ ٱلۡمُطَّوِّعِينَ مِنَ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ فِي ٱلصَّدَقَٰتِ وَٱلَّذِينَ لَا يَجِدُونَ إِلَّا جُهۡدَهُمۡ فَيَسۡخَرُونَ مِنۡهُمۡ سَخِرَ ٱللَّهُ مِنۡهُمۡ وَلَهُمۡ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ [التوبة/٧٩]. وعلى هذا الشكل تقوَّل المنافقون على المؤمنين الذين بذلوا الصدقة عن طواعية نفس ورغبة في المساهمة في الجهاد كلٌّ على قدر طاقته، وهم لا يدركون المشاعر الرقيقة التي تنبعث انبعاثاً ذاتياً لتُلبِّي دواعي الإيمان والتضحية والمشاركة، فيُقوِّلون على المكثر أنه يبذل رياء، وعلى المقلِّ أنه يُذكِّر بنفسه، فيحرجون الأول ويحتقرون الثاني، فلا يسلم من تجريحهم وعيبهم أحد من الخيِّرين، ذلك وهم قاعدون متخلفون شحيحو الأنفس لا ينفقون إلا رياء، ولا يدركون من بواعث النفوس إلا مثل هذا الباعث الصغير الحقير، ثم يجيئهم الرد الحاسم المتمثل بسخرية الخالق الجبار تنصب عليهم، وعذابه يترقبهم.

وحزن الفقراء من المؤمنين لأنهم لا يملكون نفقة الخروج إلى الجهاد. فهذا واثلة بن الأسقع تنازل في بداية الأمر عن غنيمته ليكسب الغنيمة الأخروية أجراً وثواباً يجده عند الله يوم لقائه، فنادى في المدينة: «ألا من يحمل رجلاً له سهمه؟»، فإذا شيخ من الأنصار فقال: «لنا سهمه على أن نحمله عقبة (بالتعاقب) وطعامه معنا».

وأفاء الله على واثلة غنيمة من القلائص (الإبل)، فجاء صاحبه يُقدمها إليه، فامتنع الأنصاري عن قبولها، وقال له: «خذ قلائصك يا ابن أخي، فغير سهمك أردنا»[(١)]؛ أي أنه أراد ثواب الآخرة.

إنها مفاهيم تنبع من المجتمع الذي تربَّى على كتاب الله وسنَّة رسوله ﷺ، لها الخاصية نفسها في الإضاءة، وتحمل البريق نفسه، متمِّمٌ بعضها لبعضها الآخر.

البكاؤون من المؤمنين: بلغ بالضعفاء والعجزة من المؤمنين ممن أقعدهم المرض أو النفقة عن الخروج، إلى حدِّ البكاء حرصاً وشوقاً على الجهاد، وتحرجاً من القعود، حتى نزل فيهم قرآن: ﴿لَّيۡسَ عَلَى ٱلضُّعَفَآءِ وَلَا عَلَى ٱلۡمَرۡضَىٰ وَلَا عَلَى ٱلَّذِينَ لَا يَجِدُونَ مَا يُنفِقُونَ حَرَجٌ إِذَا نَصَحُواْ لِلَّهِ وَرَسُولِهِۦۚ مَا عَلَى ٱلۡمُحۡسِنِينَ مِن سَبِيلٖۚ وَٱللَّهُ غَفُورٞ رَّحِيمٞ ۞ وَلَا عَلَى ٱلَّذِينَ إِذَا مَآ أَتَوۡكَ لِتَحۡمِلَهُمۡ قُلۡتَ لَآ أَجِدُ مَآ أَحۡمِلُكُمۡ عَلَيۡهِ تَوَلَّواْ وَّأَعۡيُنُهُمۡ تَفِيضُ مِنَ ٱلدَّمۡعِ حَزَنًا أَلَّا يَجِدُواْ مَا يُنفِقُونَ﴾ [التوبة/٩١، ٩٢].

ليس على الضعفاء العاجزين عن القتال لعلَّة في جسدهم، أو لشيخوخة تُقعدهم،

---

(١) ابن الأثير، المبارك بن محمد الجزري: **جامع الأصول في أحاديث الرسول ﷺ**، رقم (٦١٨٨)، جـ٨ ص٣١٣، ٣١٤.

ولا على المرضى الذين لا يستطيعون الحركة والجهد، ولا على المعدمين الذين لا يجدون ما يتزوَّدون به؛ ليس على هؤلاء حرج إذا تخلَّفوا عن الجهاد، وقلوبهم مخلصة لله ورسوله، لا يخدعون ولا يغشُّون، ويقومون بعد ذلك بما يستطيعونه من دون القتال.

ولا جناح كذلك على القادرين على الاشتراك في الجهاد، ولكنهم لا يجدون الرواحل التي تحملهم إلى أرض المعركة، فألمت نفوسهم حتى لتفيض أعينهم دموعاً؛ لأنهم لا يجدون ما ينفقون.

إنها صورة مؤثرة للرغبة الصحيحة في الجهاد، والألم الصادق للحرمان من نعمة الله، وكان هؤلاء المعوزون وغيرهم ممن عذر الله، لمرض أو كبر سن أو غيرهما؛ يسيرون بقلوبهم مع المجاهدين، وهم الذين عناهم رسول الله ﷺ عندما قال: **(إن بالمدينة أقواماً ما سرتم مسيراً ولا قطعتم وادياً إلا كانوا معكم)**، قالوا: يا رسول الله! وهم بالمدينة؟. قال: **(وهم بالمدينة؛ حبسهم العذر)**(١). قال ابن إسحاق: «ثم إن رجالاً من المسلمين أتوا رسول الله ﷺ، وهم البكاؤون، وهم سبعة نفر من الأنصار وغيرهم من بني عمرو بن عوف... فاستحملوا رسول الله ﷺ، وكانوا أهل حاجة، فقال: **(لا أجد ما أحملكم عليه)**، فتولوا وأعينهم تفيض من الدمع حزناً ألا يجدوا ما ينفقون»(٢).

المخلَّفون من دون عذر وتاب الله عليهم: كان التردد والتخلف ظاهرة لا بد من تتبعها والتركيز عليها. إن فضل الله ورحمته بالمؤمنين أن يتجاوز عما بدا من التردد والتخلف من المخلصين، ويتوب عليهم فيما وقع منهم من أخطاء؛ صغرت أم كبرت. فبالإضافة إلى الضعفاء والمرضى والعاجزين الذين ذكرنا، تخلَّف أناس من غير عذر، ثم تاب الله عليهم، نزلت ثلاث آيات تتحدث عنهم، وكانوا قد تخلفوا لأمر ما مع الهمِّ باللحاق به عليه الصلاة والسلام، فلم يتيسر لهم، ولم يكن تخلفهم عن نفاق.

الأولى: قوله تعالى: ﴿وَءَاخَرُونَ ٱعْتَرَفُوا۟ بِذُنُوبِهِمْ خَلَطُوا۟ عَمَلًا صَٰلِحًا وَءَاخَرَ سَيِّئًا عَسَى ٱللَّهُ أَن يَتُوبَ عَلَيْهِمْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ [التوبة/١٠٢].

إن هؤلاء الجماعة تخلفوا عن الغزو من دون عذر مُبرَّر ثم ندموا على ذلك، ولم يعتذروا بالأعذار الكاذبة، كما اعتذر المنافقون، بل تابوا واعترفوا بالذنب، ورجوا أن يتوب الله عليهم، فكان منهم التخلف وهو العمل السيء، وكان منهم الندم والتوبة وهو العمل الصالح.

---

(١) صحيح البخاري: كتاب المغازي، الحديث (٤٤٢٣)، ص٧٩٨.

(٢) السيرة النبوية، لابن هشام: جـ٤ ص١٧٤.

وفي قوله: ﴿عَسَى ٱللَّهُ أَن يَتُوبَ عَلَيْهِمْ﴾ دليل على وقوع الاعتراف منهم ما يُفيد التوبة، وحرف الترجي وهو عسى؛ يُفيد في كلام الله تحقيق الوقوع، وهو من الله واجب لكونه أكرم الأكرمين، يغفر الذنوب ويتفضل على عباده.

الثانية: قوله تعالى: ﴿وَءَاخَرُونَ مُرْجَوْنَ لِأَمْرِ ٱللَّهِ إِمَّا يُعَذِّبُهُمْ وَإِمَّا يَتُوبُ عَلَيْهِمْ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ﴾ [التوبة/١٠٦].

الثالثة: قوله تعالى: ﴿وَعَلَى ٱلثَّلَٰثَةِ ٱلَّذِينَ خُلِّفُوا۟ حَتَّىٰٓ إِذَا ضَاقَتْ عَلَيْهِمُ ٱلْأَرْضُ بِمَا رَحُبَتْ وَضَاقَتْ عَلَيْهِمْ أَنفُسُهُمْ وَظَنُّوٓا۟ أَن لَّا مَلْجَأَ مِنَ ٱللَّهِ إِلَّآ إِلَيْهِ ثُمَّ تَابَ عَلَيْهِمْ لِيَتُوبُوٓا۟ إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلتَّوَّابُ ٱلرَّحِيمُ﴾ [التوبة/١١٨].

نزلت هذه الآيات الثلاث في ثلاثة من الصحابة تخلَّفوا عن رسول الله ﷺ لأمر ما مع الهمِّ باللحاق به عليه الصلاة والسلام، فلم يتيسر لهم، ولم يكن تخلفهم عن نفاق، وهؤلاء الثلاثة هم: هلال بن أُمية، وكعب بن مالك، ومرارة بن الربيع، ووردت قصتهم على لسان الثاني في كتب السيرة والحديث والتفسير، بروايات متقاربة في ألفاظها[١].

لقد أدرك الضعف البشري هؤلاء الثلاثة، فأحبوا البقاء في الظل والراحة، على الحرِّ والشدة والسفر الطويل والكد، ولكن كعباً لا يلبث، بعد خروج رسول الله ﷺ والمسلمين، أن شعر من خلال كل ما حوله: «فطفقت إذا خرجت في الناس بعد خروج رسول الله ﷺ يحزنني أنني لا أرى لي أسوة إلا رجلاً مغموصاً عليه في النفاق، أو رجلاً ممن عذر الله»، من الضعفاء والمرضى والذين لا يجدون ما يُنفقون.

والواقع أنه لم تحل العسرة بين المسلمين وبين تلبية دعوة رسول الله ﷺ إلى الغزوة البعيدة الشاقة، ولم يتخلَّف عنها إلا المنافقين والعاجزين الذين عذرهم الله، وبرهنت الجماعة الإسلامية أنها قاعدة صلبة حيث كانت أقوى روحاً من العسرة، وأصلب عوداً من الشدة.

لقد ملأ كعب بن مالك قلبه الحزن بفعل تصرفه، فدفعته تقواه إلى قول الصدق والإقرار، والأمر بعد ذلك لله، فقال لرسول الله ﷺ بعد عودته من الغزوة: «والله لو جلست عند غيرك من أهل الدنيا لرأيت أني سأخرج من سخطه بقدر، لقد أُعطيت جدلاً، ولكني والله لقد علمت لئن حدثتك اليوم حديث كذب ترضى عني به، ليوشكن الله أن يسخطك عليَّ، ولئن حدثتك بحديث صدق تجد عليَّ فيه، إني

---

(١) ابن هشام: جـ٤ ص١٨٠ ـ ١٨٣. **صحيح البخاري**: كتاب المغازي، باب حديث كعب بن مالك. . .، رقم الحديث (٤٤١٨)، ص٧٩٥. تفسير ابن كثير: جـ٢ ص٣٩٦ ـ ٣٩٩.

لأرجو فيه عقبى من الله، والله ما كان لي عذر، والله ما كنت أقوى ولا أيسر مني حين تخلفت عنك».

لقد أدرك كعب بن مالك خطورة الكذب، فعزم على التصرف بحكمة وسلوك طريق الصراحة والصدق، وإن عرَّضه ذلك للمضايقات والتعب، وكان أمله بالله تعالى كبيراً في أن يقبل توبته، فالله حاضر في ضميره، وفي ضمير رفيقيه، وفي ضمير المؤمن المخطىء، ومع حرصه البالغ على رضى رسول الله ﷺ، وهو (الرضى) يومئذ يعز ويذل، ويرفع ويخفض، ويترك المسلم مرموقاً بالأنظار أو مهملاً لا ينظر إليه إنسان، لكن مراقبة الله أقوى، وتقوى الله أعمق، والرجاء في الله أوثق[1].

«ونهى رسول الله ﷺ المسلمين عن كلامنا أيها الثلاثة من بين من تخلَّف عنه، فاجتَنَبَنا الناس حتى تنكَّرت لي نفسي في الأرض، فما هي بالأرض التي كنت أعرف، فلبثنا على ذلك خمسين ليلة. فأما صاحباي فاستكانا وقعدا في بيوتهما، وأما أنا، فكنت أشد القوم وأجلدهم، فكنت أخرج فأشهد الصلاة مع المسلمين، وأطوف بالأسواق، فلا يكلِّمني أحد، وآتي رسول الله ﷺ فأُسلم عليه في مجلسه بعد الصلاة، وأقول في نفسي: هل حرَّك شفتيه بردِّ السلام، أم لا؟ ثم أصلي قريباً منه، وأُسارقه النظر، فإذا أقبلت على صلاتي؛ نظر إليَّ، فإذا التفت نحوه أعرض عني».

هكذا كانت الطاعة في الجماعة المسلمة، فقد نهى رسول الله ﷺ عن التكلم مع هؤلاء الثلاثة، فما يفتح أحد فمه بكلمة، ولا يأخذ منه أو يعطي، حتى أن ابن عم كعب، أبا قتادة، وهو أحب الناس إليه، وقد تسوَّر عليه داره؛ لا يردُّ عليه السلام، وإنما كان يقول: «الله ورسوله أعلم».

الواضح أن هذا الهجر الديني مطلب شرعي، يُثاب عليه فاعله، لذلك استجاب له المسلمون، وامتنعوا جميعاً عن التكلم مع هؤلاء الثلاثة. وقد بلغ بالالتزام النبوي في الهجر التربوي ذروته عندما أمر رسول الله ﷺ هؤلاء باعتزال زوجاتهم حتى يقضي الله أمراً كان مفعولاً، فالتزم الجميع بذلك.

وأتى كعب بن مالك في هذه الشدَّة كتاب من ملك غسان وقد علم بمحنته، يستدعيه إليه، ويبدو أنه كانت تربطهما صلات تجارية، يُمنِّيه بالعزة والكرامة، والمجد والجاه، ولكنه أعرض عن ذلك وعدَّه من البلاء، فأحرق الكتاب.

الواضح أن الملك الغساني النصراني كان يراقب أوضاع المسلمين ويتحين

---

(١) قطب: جـ١١ ص٦٧.

الفرصة لكي يمزق الجبهة الداخلية، ويُشعل نار الفتنة بين المسلمين، فيُقوّض بذلك أركان الدولة، فاستغل هجر المسلمين لكعب بن مالك وعقوبة رسول الله ﷺ له، فأرسل إليه سفيراً يحمل كتاباً خاصاً منه إليه؛ يغريه فيه بالقدوم إليه، فكان تعليق كعب بن مالك «وهذا من البلاء أيضاً، قد بلغ مني ما وقعت فيه أن طمع فيَّ رجال من أهل الشرك. ثم أحرق الكتاب». ويدل موقفه هذا على شدَّة ولائه لله ورسوله، وقوة إيمانه، وعظمة نفسه. فقد أدرك أنها محنة جديدة أقسى من الأولى، فلم يرض أن يلبي طلب الملك الغساني، ولم يُرد أن يرمي بالكتاب ويمزقه، ولكنه رمى به في النار ليتحول إلى رماد ودخان يتبدَّد في الهواء.

وجاءت بشرى التوبة من الذنب، والعودة إلى الحياة بعد خمسين ليلة: «فبينما أنا جالس على الحال التي ذكر الله ﷻ منا، قد ضاقت عليَّ نفسي، سمعت صارخاً أوفى على جبل سلع يقول بأعلى صوته: يا كعب بن مالك! أبشر. فخررت ساجداً وعرفت أنه قد جاء الفرج. فآذن رسول الله ﷺ بتوبة الله علينا حين صلى الفجر، فذهب الناس يبشروننا... فانطلقت أؤم رسول الله ﷺ... حتى دخلت المسجد، فإذا رسول الله ﷺ جالس في المسجد وحوله الناس، فقام إليَّ طلحة بن عبيد الله يهرول حتى صافحني وهنَّأني». وخرَّ الرجل ساجداً من فوره شكراً لله، وهذه عادة الصحابة أن يسجدوا شكراً لله كلما تجدَّدت لهم نعمة أو انصرفت عنهم نقمة، وقد تعلَّموا ذلك من رسول الله ﷺ.

كان ذلك اليوم من أيام الفرحة عند المسلمين ظهرت ملامحها على وجه رسول الله ﷺ، حتى استنار كأنه قطعة قمر، وظهرت تعابيرها على وجوه الصحابة حتى صاروا يتلقون كعباً وصاحبيه أفواجاً يهنِّئونهم بما تفضَّل الله به عليهم من التوبة. وجاء كعب بن مالك إلى رسول الله ﷺ ووجهه يبرق من السرور، فبشَّره بخير يوم مرَّ عليه منذ ولدته أُمه.

إن التوبة تعني عودة العبد إلى الدخول تحت رضوان الله تعالى، الذي هو أعلى هدف ينشده المسلم. لقد كانت توبة كعب بن مالك كبيرة؛ عبَّر عنها بنزع ثوبيه اللذين لا يملك يومئذ غيرهما وإهدائهما إلى من بشَّره، وعدم نسيانه لطلحة بن عبيد الله قيامه وتهنئته له. وخرج الرجل من محنته وهو أقوى إيماناً، وأصفى روحاً، وأكرم ما يكون أخلاقاً.

تلك هي قصة الثلاثة الذين تخلَّفوا عن الاشتراك في غزوة تبوك، ثم تاب الله عليهم، وهي توبة عامَّة عن كل ما مضى، وإنابة كاملة إلى اللهِ تنفيذاً لأمر المقاطعة والهجر الذي صدر عن رسول الله ﷺ.

موقف المنافقين من غزوة تبوك: يفضح القرآن الكريم المنافقين وتصرفاتهم في المجتمع المسلم، ويصف أحوالهم النفسية والعملية، ومواقفهم من غزوة تبوك؛ قبلها وأثناءها وما تلاها، ويكشف حقيقة نواياهم وحيلهم وأعذارهم في التخلف عن الجهاد، وبثّ الضعف والفتنة والفرقة في الصف، وإيذاء الرسول ﷺ والمؤمنين.

لقد وجد المنافقون في هذه الغزوة فرصة للتخذيل، فقالوا: «لا تنفروا في الحر»، وخوَّفوا الناس بُعد المسافة، وحذَّروهم من بأس البيزنطيين، وقد بلغ رسول الله ﷺ أن ناساً منهم يجتمعون في بيت سويلم اليهودي يُثبطون الناس عن رسول الله ﷺ، فأرسل إليهم من أحرق عليهم بيت سويلم[1]. وقد أثَّرت هذه العوامل المختلفة في تثاقل بعض المسلمين عن النفرة، ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مَا لَكُمْ إِذَا قِيلَ لَكُمُ ٱنفِرُواْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ ٱثَّاقَلْتُمْ إِلَى ٱلْأَرْضِۚ أَرَضِيتُم بِٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا مِنَ ٱلْآخِرَةِۚ فَمَا مَتَٰعُ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا فِي ٱلْآخِرَةِ إِلَّا قَلِيلٌ ۞ إِلَّا تَنفِرُواْ يُعَذِّبْكُمْ عَذَابًا أَلِيمًا وَيَسْتَبْدِلْ قَوْمًا غَيْرَكُمْ وَلَا تَضُرُّوهُ شَيْـًٔاۗ وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ [التوبة/ ٣٨، ٣٩].

لقد تخلَّف المنافقون أنفسهم عن النفير، ففرحوا بالسلامة والراحة وتركوا المجاهدين يلاقون الحر والجهد، وظنوا أن السلامة غاية يحرص عليها الرجال. ويمثل هؤلاء نموذجاً لضعف الهمَّة، وطراوة الإرادة ويؤثرون الراحة على الكدح والجهاد: ﴿فَرِحَ ٱلْمُخَلَّفُونَ بِمَقْعَدِهِمْ خِلَٰفَ رَسُولِ ٱللَّهِ وَكَرِهُوٓاْ أَن يُجَٰهِدُواْ بِأَمْوَٰلِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ وَقَالُواْ لَا تَنفِرُواْ فِي ٱلْحَرِّۗ قُلْ نَارُ جَهَنَّمَ أَشَدُّ حَرًّاۚ لَّوْ كَانُواْ يَفْقَهُونَ﴾ [التوبة/ ٨١].

وبيَّن ﷻ سبب التخلف ببُعد المسافة وشدتها، ولو كان الأمرُ أمْرَ عرض قريب من أعراض الدنيا، وأمرَ سفر قصير الأمد، مأمون العاقبة؛ لاتبعوا الرسول ﷺ، ولكنهم تخلَّفوا ولم يخرجوا. ﴿لَوْ كَانَ عَرَضًا قَرِيبًا وَسَفَرًا قَاصِدًا لَّٱتَّبَعُوكَ وَلَٰكِنۢ بَعُدَتْ عَلَيْهِمُ ٱلشُّقَّةُۚ وَسَيَحْلِفُونَ بِٱللَّهِ لَوِ ٱسْتَطَعْنَا لَخَرَجْنَا مَعَكُمْ يُهْلِكُونَ أَنفُسَهُمْ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ إِنَّهُمْ لَكَٰذِبُونَ﴾ [التوبة/ ٤٢]. تشرح هذه الآية وتوضح ملابسات موقفهم قبل الخروج إلى الغزوة وأسباب هذا الموقف. وسيحلف هؤلاء المنافقون بالله كذباً وزوراً؛ أن لو استطاعوا أن يخرجوا مع المؤمنين للجهاد في تبوك، لخرجوا ولم يتخلَّفوا؛ مهلكين أنفسهم، والله يعلم أنهم لكاذبون، فهو الكذب المصاحب للضعف أبداً، ولا يكذب إلا الضعيف، ولا يداور إلا الضعيف. ثم عاتب ﷻ نبيَّه محمَّد ﷺ ﴿عَفَا ٱللَّهُ عَنكَ لِمَ أَذِنتَ لَهُمْ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَكَ ٱلَّذِينَ صَدَقُواْ وَتَعْلَمَ ٱلْكَٰذِبِينَ﴾ [التوبة/ ٤٣]. إنه لطف الله برسوله، فهو يعجل له بالعفو قبل العقاب. فقد تدارى المتخلفون خلف إذن الرسول ﷺ لهم بالقعود حين قدَّموا له الأعذار، وقبل أن ينكشف صدقهم من

---

(١) ابن هشام: جـ٤ ص١٧٤.

كذبهم في هذه الأعذار، وكانوا سيتخلفون عن الجهاد حتى ولو لم يأذن لهم، فعندئذ تنكشف حقيقتهم.

وهؤلاء هم فريق من المنافقين، منهم الجد بن قيس، وعبد الله بن أُبيّ بن سلول، وكانوا تسعة وثلاثين، واعتذروا بأعذار كاذبة.

قال رسول الله ﷺ، وهو يتجهَّز لتبوك للجد بن قيس، وكان من أغنياء المدينة: (**يا جد! هل لك العام في جلاد بني الأصفر؟**). فقال: يا رسول الله! أوَتأذن لي ولا تفتني؟ فوالله لقد عرف قومي أنه ما من رجل أشد عجباً بالنساء مني، وإني أخشى إن رأيت نساء بني الأصفر أن لا أصبر. فأعرض عنه رسول الله ﷺ، وقال: (**قد أذنت لك**)[1]. ففيه نزلت الآية ﴿وَمِنْهُم مَّن يَقُولُ ٱئْذَن لِّي وَلَا تَفْتِنِّيٓ أَلَا فِي ٱلْفِتْنَةِ سَقَطُوا۟ وَإِنَّ جَهَنَّمَ لَمُحِيطَةٌۢ بِٱلْكَٰفِرِينَ﴾ [التوبة/ ٤٩].

وتخلَّف عبد الله بن أُبيّ بن سلول، فيمن تخلَّف من المنافقين وقال: «يغزو محمَّد بني الأصفر، مع جهد الحال والحر والبلد البعيد، إلى ما لا قِبَل له به، يحسب محمَّد أن قتال بني الأصفر اللعب؟... والله لكأني أنظر إلى أصحابه غداً مُقرَّنين في الحبال. إرجافاً برسول الله ﷺ وأصحابه»[2].

كانت غزوة تبوك منذ بداية الإعداد لها مناسبة للتمييز بين المؤمنين والمنافقين، وضحت من خلالها الحواجز بين الطرفين، ولم يعد هناك أي مجال للتستر على المنافقين أو مجاملتهم، وأضحت مواجهتهم أمراً ملحاً بعد أن عملوا كل ما في وسعهم لمواجهة الرسول ﷺ والدعوة وتثبيط المسلمين عن الاستجابة للنفير الذي أعلنه ﷻ ورسوله ﷺ، والذي نزل فيه قرآن كريم، وأضحى الكشف عن نفاق المنافقين وإيقافهم عند حدِّهم واجباً شرعياً[3].

أحداث حصلت في الطريق إلى تبوك

قصة **أبي ذر**: بعد إتمام التجهيزات وتنفيذ التعبئة؛ انطلق الجيش الإسلامي إلى وجهته تبوك، ولم ينتظر أحداً قد تأخر من المسلمين الذين يُظن فيهم خيراً، وكان كلما ذُكر لرسول الله ﷺ اسم رجل قد تأخر، قال: (**دعوه، إن يك فيه خير فسيلحقه الله تعالى بكم، وإن يك غير ذلك، فقد أراحكم الله منه**)[4]، حتى تخلَّف

---

(١) الواقدي: جـ٣ ص٩٩٢. (٢) المصدر نفسه: جـ٣ ص٩٩٥، ٩٩٦.

(٣) ابن حميد، صالح: **نضرة النعيم في مكارم أخلاق الرسول الكريم**، إعداد مجموعة من المختصين، بإشراف صالح بن حميد، جـ١ ص٣٨٩.

(٤) الواقدي: جـ٣ ص١٠٠٠.

أبو ذر وأبطأ به بعيره، فأخبروا الرسول ﷺ فقال: **(دعوه، فإن يك فيه خير فسيلحقه الله بكم، وإن غير ذلك فقد أراحكم الله منه)**(١). وتمهَّل أبو ذر على بعيره، فلما أبطأ عليه أخذ متاعه فحمله على ظهره ثم خرج يتبع أثر رسول الله ﷺ ماشياً. ونزل ﷺ في بعض منازله، فنظر ناظر من المسلمين فقال: «يا رسول الله! إن هذا الرجل يمشي على الطريق وحده». فقال رسول الله ﷺ: **(كن أبا ذر)**(٢). فلما تأمّله القوم قالوا: يا رسول الله! هو أبو ذر. فقال رسول الله ﷺ: **(رحم الله أبا ذر، يمشي وحده، ويموت وحده، ويُبعث وحده)**(٣).

قصة أبي خيثمة: ورجع الصحابي أبو خيثمة بعد أن سار الجيش أياماً، إلى أهله في يوم حار، فوجد امرأتين له في عريشين لهما في بستانه وقد رشَّت كل واحدة منهما عريشها، وبرَّدت له ماء، وهيَّأت له فيه طعاماً، فلما دخل قام على باب العريش، فنظر إلى امرأتيه وما صنعتا له، فقال: رسول الله ﷺ في الضح(٤) والريح والحر، وأبو خيثمة في ظل بارد، وطعام مُهيَّأ، وامرأة حسناء في ماله مقيم، ما هذا بالنَّصَف. ثم قال: «والله لا أدخل عريش واحدة منكما حتى ألحق برسول الله ﷺ، فهيِّئا لي زاداً. ففعلتا، ثم قدَّم ناضحه (جمله) فارتحله، ثم خرج في طلب رسول الله ﷺ، حتى أدركه حين نزل تبوك... حتى إذا دنا من رسول الله ﷺ، وهو نازل بتبوك قال الناس: هذا راكب على الطريق مقبل، فقال رسول الله ﷺ: **(كن أبا خيثمة)**. فقالوا: يا رسول الله! هو والله أبو خيثمة. فلما أناخ أقبل فسلَّم على رسول الله ﷺ، فقال له ﷺ: **(أولى لك يا أبا خيثمة)**(٥). ثم أخبر رسول الله ﷺ الخبر، فقال له رسول الله ﷺ خيراً ودعا له بخير»(٦).

وصية رسول الله ﷺ أثناء مرور الجيش بحجر ثمود: عندما وصل الجيش إلى أرض ثمود، الحجر؛ سجَّى رسول الله ﷺ ثوبه على وجهه واستحثَّ راحلته، ونزل أفراد من الجيش فاستقوا من بئرها، واعتجنوا به، فأمرهم رسول الله ﷺ أن يهريقوا ما استقوا من بئرها، وأن يعلفوا الإبل العجين، وأمرهم أن يستقوا من البئر التي كانت تردها ناقته، وقال ﷺ: **(لا تدخلوا مساكن الذين ظلموا أنفسهم، إلا أن تكونوا باكين حذراً أن يصيبكم مثل ما أصابهم)**. ثم ساق ناقته سوقاً شديداً حتى جاوز مساكنها(٧).

---

(١) ابن هشام: جـ٤ ص١٧٧.
(٢) المصدر نفسه. كن لفظة الأمر ومعنى الدعاء: أرجو أن تكون أبا ذر.
(٣) المصدر نفسه.
(٤) الضح: أي في الشمس.
(٥) أي: أجدر بك.
(٦) ابن هشام: جـ٤ ص١٧٥، ١٧٦.
(٧) صحيح البخاري: كتاب أحاديث الأنبياء، باب قول الله تعالى: ﴿وَإِلَىٰ ثَمُودَ أَخَاهُمْ صَٰلِحًا﴾، =

بعض المعجزات التي حدثت في غزوة تبوك

١ ـ عندما جاوز الجيش حجر ثمود أصبح ولا ماء للناس، فشكوا ذلك إلى رسول الله ﷺ، فدعا ﷺ ربَّه واستسقى لمن معه، فأرسل الله ﷻ سحابة أمطرت حتى ارتوى الناس، واحتملوا حاجتهم من الماء[١].

٢ ـ أثناء سير الجيش إلى تبوك ضلَّت ناقة رسول الله ﷺ، فخرج أصحابه في طلبها، وكان عنده عمارة بن حزم، وفي رحله زيد بن اللصيت القينقاعي، وكان منافقاً، فقال: «أليس محمَّد يزعم أنه نبي، ويخبركم عن السماء وهو لا يدري أين ناقته؟». فقال رسول الله ﷺ، وعمارة عنده: **(إن رجلاً قال: هذا محمَّد يزعم أنه يخبركم بأمر السماء ولا يدري أين ناقته؟ وإني والله ما أعلم إلا ما علمني الله، وقد دلني الله عليها، وهي في هذا الوادي في شعب كذا وكذا، وقد حبستها شجرة بزمامها، فانطلقوا حتى تأتوني بها)**. فذهبوا فجاؤوا بها، فأقبل عمارة على زيد يطعنه في عنقه ثم طرده من رحله، واختُلف هل تاب أم لم يزل متهماً بشرٍّ حتى هلك[٢].

٣ ـ أخبر رسول الله ﷺ أصحابه في تبوك بأن ريحاً شديدة ستهب عليهم الليلة، وأمرهم بالحيطة لأنفسهم ودوابهم. وتحقَّق ما أخبر رسول الله ﷺ، فهبَّت الريح الشديدة، وحملت من قام فيها إلى مكان بعيد[٣]. وعقَّب النووي على هذا الحديث: هذا الحديث فيه هذه المعجزة الظاهرة من أخباره ﷺ بالمغيب، وخوف الضرر من القيام وقت الريح[٤].

٤ ـ أخبر النبي أصحابه قائلاً: **(إنكم ستأتون غداً، إن شاء الله، عين تبوك، وإنكم لن تأتوها حتى يضحى النهار، فمن جاءها فلا يمس من مائها شيئاً حتى آتي)**. ولما وصل إليها، وكانت العين مثل الشراك[٥]؛ غرفوا بأيديهم من العين قليلاً قليلاً حتى اجتمع في شيء، وغسل رسول الله ﷺ فيه يده ووجهه، ثم أعاده فيها، فجرت العين بماء منهمر حتى استقى الناس[٦].

وقال رسول الله ﷺ لمعاذ بن جبل: **(يوشك يا معاذ إن طالت بك حياة أن ترى**

= رقم الحديث (٣٣٧٨ و٣٣٧٩)، ص٦١٩، ٦٢٠. ابن هشام: جـ٤ ص١٧٦.

(١) ابن هشام: جـ٤ ص١٧٦. (٢) المصدر نفسه: ص١٧٧.

(٣) **صحيح مسلم على شرح النووي**: كتاب الفضائل، باب في معجزات النبي ﷺ، جـ١٥ ص٤٢، ٤٣.

(٤) **شرح النووي**، المصدر نفسه: ص٤٣.

(٥) الشراك: هو سير النعل، ومعناه: ماء قليل جداً.

(٦) **صحيح مسلم**، مرجع سابق: ص٤١.

هاهنا قد مُلىء جناناً)[1].

لقد كانت منطقة تبوك والوادي الذي كانت فيه العين، منطقة جرداء بفعل قِلّة الماء، ولكن أضحى بعد هذه المعجزة يسيل بغزارة وبصورة مستمرة، وتحقَّق بعد مرور الزمن ما أخبر الرسول ﷺ، فأضحت تبوك جناناً وبساتين مملوءة بالأشجار المثمرة، ولا زالت حتى اليوم.

٥ ـ لما كانت غزوة تبوك أصاب الناس مجاعة، فطلبوا من رسول الله ﷺ أن يأذن لهم فينحروا إبلهم التي يُسقى عليها، فأجاز لهم. فجاء عمر فقال: «يا رسول الله! إن فعلوا قلَّ الظهر، ولكن ادعهم بفضل أزوادهم، ثم ادع لهم بالبركة لعلَّ الله أن يجعل في ذلك. فدعا رسول الله ﷺ بنطع[2] فبسطه ثم دعاهم بفضل أزوادهم... حتى إذا اجتمع على النطع في ذلك شيء يسير، ثم دعا عليه بالبركة، ثم قال لهم: (خذوا في أوعيتكم). فأخذوا في أوعيتهم حتى ما تركوا من المعسكر وعاء إلا ملؤوه، وأكلوا حتى شبعوا، وفضلت منه فضلة، فقال رسول الله ﷺ: **(أشهد أن لا إلـه إلا الله وأني رسول الله، لا يلقى الله بهما عبد غير شاك فتحجب عنه الجنة)**»[3].

أحداث حصلت في طريق العودة من تبوك

نزل على الرسول ﷺ أثناء عودته من تبوك إلى المدينة هذه الآيات: ﴿وَالَّذِينَ اتَّخَذُوا مَسْجِدًا ضِرَارًا وَكُفْرًا وَتَفْرِيقًا بَيْنَ الْمُؤْمِنِينَ وَإِرْصَادًا لِمَنْ حَارَبَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ مِن قَبْلُ وَلَيَحْلِفُنَّ إِنْ أَرَدْنَا إِلَّا الْحُسْنَىٰ وَاللَّهُ يَشْهَدُ إِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ ۞ لَا تَقُمْ فِيهِ أَبَدًا لَمَسْجِدٌ أُسِّسَ عَلَى التَّقْوَىٰ مِنْ أَوَّلِ يَوْمٍ أَحَقُّ أَن تَقُومَ فِيهِ فِيهِ رِجَالٌ يُحِبُّونَ أَن يَتَطَهَّرُوا وَاللَّهُ يُحِبُّ الْمُطَّهِّرِينَ﴾ [التوبة/١٠٧، ١٠٨].

إن قصة مسجد ضرار قصة بارزة في غزوة تبوك، لذلك أُفرد المنافقون الذين قاموا بها من بين سائر المنافقين، وخُصِّص لهم حديث مستقل.

الواضح أن سبب نزول الآيات المتعلقة بمسجد ضرار؛ أنه كان في المدينة، قبل مقدم رسول الله ﷺ إليها، رجل من الخزرج يقال له: أبو عامرالراهب، وكان قد تنصر في الجاهلية، وقرأ علم أهل الكتاب، وله شرف كبير في الخزرج. فلما قدم رسول الله ﷺ مهاجراً إلى المدينة، واجتمع المسلمون عليه، وصارت للإسلام كلمة

---

(١) **صحيح مسلم**، مرجع سابق: جـ١٥ ص٤١. (٢) النطع: بساط من الجلد.

(٣) البنا، أحمد عبد الرحمٰن، الشهير بالساعاتي: **الفتح الرباني في ترتيب مسند الإمام أحمد**: جـ٢١ ص١٩٦، ١٩٧.

عالية، وأظهر الله المسلمين يوم بدر؛ ظاهر بالعداوة، فخرج إلى مكة يحرّض أهلها على حرب رسول الله ﷺ، فكانت معركة أُحد، فتقدم في بداية المعركة إلى قومه من الأنصار يستقطبهم لنصرته، فلما عرفوا كلامه قالوا: «لا أنعم الله بك عيناً يا فاسق، يا عدو الله، ونالوا منه». وكان رسول الله ﷺ قد دعاه إلى الله قبل فراره، وقرأ عليه القرآن، فأبى أن يُسلم وذهب إلى الامبراطور البيزنطي هرقل يلتمس منه المساعدة ضد المسلمين، فأقام عنده، وكتب إلى جماعة من قومه من الأنصار ممن هم على النفاق يعدهم ويُمنِّيهم أنه سيقدم بجيش يقاتل به محمَّد، وأمرهم أن يتخذوا له معقلاً يقدم عليهم فيه من يُقدم من عنده لأداء كتبه، ويكون مرصداً له إذا قدم عليهم بعد ذلك. فشرعوا في بناء مسجد مجاور لمسجد قباء، وفرغوا منه قبل خروج النبي ﷺ إلى تبوك، فطلبوا منه أن يأتي إليهم فيصلي في مسجدهم، فيحتجوا بصلاته فيه على تقريره وإثباته، وذكروا أنهم إنما بنوه للضعفاء منهم وأهل العلة في الليلة الشاتية، فعصمه الله من الصلاة فيه، فقال: (**إنا على سفر، ولكن إن رجعنا، إن شاء الله**)، فلما قفل راجعاً إلى المدينة من تبوك، ولم يبق بينه وبينها إلا يوم أو بعض يوم؛ نزل جبريل بخبر مسجد ضرار وما اعتمده بانوه من الكفر والتفريق بين جماعة المؤمنين في مسجدهم، مسجد قباء، الذي أُسِّس من أول يوم على التقوى، فبعث رسول الله ﷺ إلى ذلك المسجد مَن هدمه قبل مقدمه إلى المدينة[1].

هذه قصة مسجد ضرار الذي أمر الله رسوله ﷺ ألا يقوم فيه، وأن يقوم في المسجد الأول قباء، الذي أُقيم على التقوى من أول يوم، والذي يضم رجالاً يحبون أن يتطهَّروا، هذا المسجد الذي اتُّخذ على عهد رسول الله ﷺ مكيدة للإسلام والمسلمين، لا يُراد به إلا الإضرار بالمسلمين، والكفر بالله، وستر المتآمرين على الجماعة الإسلامية الكائدين لها في الظلام، والتعاون مع أعداء هذا الدين على الكيد تحت ستار الدين[2].

حاول المنافقون أن يُضفوا الشرعية على مسجدهم الذي بنوه لأسباب مقنعة ظاهرياً، ولكن لا حقيقة لها في نفوس أضحابها. فقد جاؤوا يطلبون من الرسول ﷺ أن يُصلي فيه ليكون مسجداً قد باركه، فإذا حدث هذا، فقد استقر قرارهم في تحقيق أهدافهم، وهذا أسلوب ماكر خبيث قد ينطلي على كثير من الناس.

ويُلاحظ مدى العناية الإلٰهية بالنبيِّ ﷺ، فقد أطلعه الله على أسرار هؤلاء المنافقين، وما أرادوه من تأسيس هذا المسجد، ولولا ذلك لما أدرك رسول الله ﷺ حقيقة نواياهم، ولصلَّى فيه مضفياً عليه الشرعية، ويقبل الناس يصلون فيه؛ لأنه ﷺ

(١) تفسير ابن كثير: جـ٢ ص٣٨٧، ٣٨٨ (٢) قطب: جـ١١ ص٣٥.

صلَّى فيه، فيحدث الاختلاط بين المنافقين وضعاف المسلمين، فينفردون بهم وقد يؤثرون عليهم الإشاعات.

إن ما قام به رسول الله ﷺ هو التصرف الأمثل، وهذا منهج نبوي كريم سنَّه لقادة الأُمة في القضاء على أي عمل يُراد منه الإضرار بالمسلمين وتفريق كلمتهم؛ إذ أن كل مسجد بني على ضرار أو رياء وسمعة، فهو في حكم مسجد ضرار؛ لا تجوز الصلاة فيه[1].

الدلالات والعبر والأحكام المستفادة من غزوة تبوك

حفلت غزوة تبوك بالدلالات والعبر والأحكام، نذكر منها:

ـ لا ينحصر الجهاد بالخروج للغزو، فالجيش بحاجة إلى المادة للتجهُّز بالعتاد والسلاح والمؤن، فواجب على المسلمين، كُل بقدر سعته، المساهمة في تأمين الأموال الخاصة بذلك شرط أن تكون الأموال التي تقدمها الدولة غير كافية، وللدولة أن تفرض على الناس حاجتها من ذلك.

ـ لقد قدَّم عثمان بن عفان ثلاثمائة بعير كاملة التجهيز، فكان أكثر المنفقين، فقال فيه رسول الله ﷺ: **(ما يضر عثمان ما فعل بعد هذا)**. وفي ذلك بيان واضح لفضل عثمان ورداً على منتقديه في سياسته أيام خلافته.

ـ لقد نال المنافقون في هذه الغزوة من الآيات القرآنية ما لم ينالوه في أي غزوة أخرى؛ حفلت بها سورة التوبة، وتركَّز معظمها على بيان أهمية الجهاد بالنفس والمال في سبيل الله، وأنها الدليل الوحيد على صدق إسلام المسلم، والفارق المهم بين المؤمنين والمنافقين، وأن المسلمين لا يركنون إلى الدِّعة والراحة ولا يستهينوا بما قد يتعرضون له من عذاب وشدَّة في سبيل الله، وفضحت نوايا المنافقين الخفية، وفي ذلك بيان خطورة أمر النفاق والمنافقين على المسلمين في كل عصر[2].

ـ مشروعية أخذ الجزية من أهل الكتاب مقابل تأمين دمائهم وأموالهم. فقد صالحت القبائل المتنصِّرة على حدود بلاد الشام، رسول الله ﷺ على الجزية، وكتب رسول الله ﷺ لها كتاباً بذلك. ويُعدُّ الخاضعون لهذه الجزية داخلين في حكم الإسلام القضائي في المجتمع المسلم، وأن عليهم ألا يجاهروا في مخالفة أحكامه.

ـ يُكره للمسلم أن يدخل ديار الأمم الخالية ممن أهلكهم الله بكفرهم، أو أن يمر على شيء من آثارهم إلا وهو معتبر بحالهم، يتأمل في مصيرهم، ويسأل الله العافية

---

(١) تفسير القرطبي: جـ ٨ ص٢٥٤.
(٢) البوطي: ص٤٤٦، ٤٤٧.

والرحمة له وللمسلمين، بفعل أنها منازل شهدت مظهراً من غضب الله[1].

- إن في حديث كعب بن مالك الذي ذكرنا بعض الدلالات والعبر، منها:

١ ـ مشروعية الهجر لسبب ديني.

٢ ـ رد السلام على من يستحق الهجر ليس بواجب.

٣ ـ التأمل فيما امتحن الله به كعباً وموقفه من ذلك للدلالة على ولاء المسلم التام لربه. فقد رفض دعوة الملك الغساني وأحرق كتابه، وهو في أشد الأوقات كرباً، فكشف هذا الابتلاء عن قوة إيمانه بربِّه، وشدَّة إخلاصه ومحبته له.

٤ ـ دلَّ سجود كعب عندما سمع صوت البشير بتوبة الله عليه، جواز سجود الشكر لله تعالى، وهي عبادة مشروعة، فقد سجد رسول الله ﷺ عندما بشَّره جبريل أنه من صلَّى عليه مرة؛ صلَّى الله عليه بها عشراً.

- إن في قصة أبي ذر الغفاري التي ذكرنا بعض الدلالات والعبر، منها:

١ ـ لقد بذل أبو ذر الغفاري جهداً كبيراً في السير على قدميه، وهو يحمل متاعه على ظهره حتى لحق بالنبي ﷺ والمسلمين لكي ينال شرف الجهاد في سبيل الله، فقد نجَّاه الله من الصعوبات والمخاطر، وقوَّاه بالصبر عليها، وهذا حال المؤمن ما دام مع الله.

٢ ـ إن في قول النبي ﷺ **(رحم الله أبا ذر، يمشي وحده، ويموت وحده، ويُبعث وحده)** دلالة واضحة على صدق نبوته وعلى معجزة وتكريم الله له ﷺ، فقد مضى الزمان حتى جاء عهد عثمان بن عفان، فسُيِّر أبو ذر إلى الربذة، فلما حضره الموت أوصى امرأته وغلامه: «إذا مت فاغسلاني وكفناني ثم احملاني على قارعة الطريق، فأول ركب يمرون بكم فقولوا: هذا أبو ذر». فلما مات فعلوا به ذلك، فطلع ركب، فما علموا به حتى كادت ركائبهم تطأ سريره، فإذا ابن مسعود في رهط من أهل الكوفة، فقال: «ما هذا؟». فقيل: أبو ذر، فاستهل ابن مسعود يبكي، وقال: «صدق رسول الله ﷺ، يرحم الله أبا ذر، يمشي وحده، ويموت وحده، ويُبعث وحده». فنزل فوليه بنفسه حتى دفنه[2].

٣ ـ وفي القصة دلالة على علم ابن مسعود وقوة ذاكرته، وسرعة استحضاره لما حفظ بعد سنوات عديدة من وفاة النبي ﷺ، عما سيؤول أمر أبي ذر في آخر حياته.

نتائج غزوة تبوك

تضمنت غزوة تبوك بعض النتائج التي كانت لصالح المسلمين، نذكر منها:

---

(١) البوطي: ص٤٤٨. (٢) ابن هشام: جـ٤ ص١٧٧.

ـ لم تكن غزوة تبوك تنفيذاً لخطة توسعية رسمها رسول الله ﷺ ليتمكّن بواسطتها من احتلال بلاد البيزنطيين، بل كانت حملة أملتها ضرورة الدفاع عن النفس وحماية دار الإسلام من هجوم بيزنطي وشيك ترامت أنباؤه إلى المدينة.

ـ أدّت غزوة تبوك، على الرغم من أنها لم تُسفر عن مواجهة مباشرة مع البيزنطيين، إلى بسط نفوذ الدولة الإسلامية على مناطق معظم سكانها من العرب، وكانت تخضع تقليدياً للسيطرة البيزنطية، وتدين بالولاء لبيزنطية، ويُعدُّ هذا في الواقع انعطافة للسيطرة الإسلامية على بلاد الشام بعد وفاة الرسول ﷺ.

ـ أظهرت غزوة تبوك للبيزنطيين قوة المسلمين، وزرعت الخوف في قلوب القبائل العربية الذين كانوا لا يزالون على شركهم، فقد رأوا قوة المسلمين بأم أعينهم، في الوقت الذي أحجمت بيزنطية عن الدخول معهم في معركة سافرة.

ـ شكّلت غزوة تبوك عامل ردع منع البيزنطيين من تحقيق أهدافهم المتمثلة في غزو المدينة، وضرب الدين الإسلامي في عقر داره، ومنع انتشاره، ويُعدُّ هذا وحده نصراً كبيراً.

ـ وضعت غزوة تبوك القبائل العربية التي لم تخضع للنفوذ الإسلامي في موقف حرج؛ إذ راحت تتعرَّض بشدة للتأثير الإسلامي، وبدأ الكثير منها يفكر ويقارن بين جدوى الاستمرار في الولاء للدولة البيزنطية أو تحويل هذا الولاء إلى الدولة الإسلامية الناشئة(١)، قبل أن تحسم أمرها الدخول في الإسلام، فأخذت وفودها تؤم المدينة خاضعة مُذعنة، مُعلنة إسلامها وتأييدها، وشكّل ذلك أحد العوامل التي مهّدت للفتح الإسلامي لبلاد الشام بعد وفاة الرسول ﷺ.

ـ رفعت غزوة تبوك معنويات المسلمين الذين كانوا يتحاشون حرب البيزنطيين.

ـ أدَّت غزوة تبوك إلى إقامة نقاط تماس وارتكاز مع البيزنطيين ما يجعل الصدام بين الطرفين حتمياً.

العلاقة بين النبي محمَّد ﷺ وبين البيزنطيين بعد تبوك

على الرغم من أن غزوة تبوك كانت آخر غزوات الرسول ﷺ ضد البيزنطيين وحلفائهم من العرب المتنصرة، فإن هناك بعثاً ينبغي بحثه لارتباطه المباشر بتخطيط الرسول ﷺ، لكن حالت وفاته دون إتمامه في ذلك الوقت.

لقد حافظ الرسول ﷺ على الإمساك بزمام المبادرة ضد البيزنطيين. فهو لم يزل يذكر مقتل زيد بن حارثة وأصحابه في مؤتة، وقد حزن حزناً شديداً، فلما سنحت له

---

(١) سالم، عبد الرحمٰن أحمد: المسلمون والروم في عصر النبوة، ص١٢٠.

الفرصة للثأر وتأديب القتلة؛ دعا يوم الاثنين (٢٦ صفر ١١هـ/ ٢٣ أيار ٦٣٢م) للتهيؤ لغزو البيزنطيين، فاستدعى أسامة بن زيد في اليوم التالي وقال له: (**سر على اسم الله وبركته حتى تنتهي إلى موضع مقتل أبيك، فأوطئهم الخيل، فقد وليتك على هذا الجيش، فاغز صباحاً على أهل أبنى**[١] **(يبنى) وحرِّق عليهم، وأسرع السير تسبق الخبر، فإن أظفرك الله فأقلل اللبث فيهم، وخذ معك الأدلَّاء، وقدِّم العيون أمامك والطلائع**)[٢]. وفي رواية أنه أمره أو يوطىء الخيل تخوم الداروم من أرض فلسطين[٣]. ويبدو أن الحملة كانت موجهة ضد شرحبيل بن عمرو الغساني بمؤتة.

وبدَّل البيزنطيون في غضون ذلك سياستهم تجاه الدولة الإسلامية، فبدلاً من المواجهة المباشرة اعتمدوا سياسة تقوم على قاعدتين:

الأولى: محاولة مقاومة أي تأثير إسلامي قد يمتد إلى عرب الشام، وهم الحلفاء التقليديون لبيزنطية.

الثانية: محاولة تمزيق الجبهة الإسلامية الداخلية عن طريق تشجيع حركات الانشقاق في الصف الإسلامي، وإغراء المنشقين بالانضمام إليهم، ولكن هذه المحاولة باءت بالفشل.

ومرض رسول الله ﷺ يوم الأربعاء، وعقد يوم الخميس لأسامة بيده لواء وقال له: (**أغز بسم الله في سبيل الله، فقاتلوا من كفر بالله، اغزوا ولا تغدروا، ولا تقتلوا وليداً ولا امرأة...**)[٤]. وأمره أن يُعسكر بالجُرف حيث أخذ المسلمون يجدُّون بالخروج، فاجتمع لديه جيش قوامه المهاجرون والأنصار، فيهم أبو بكر الصديق وعمر بن الخطاب، وأبو عبيدة بن الجراح[٥].

لا يمكن النظر إلى بعث أسامة بن زيد بمعزل عن غزوه مؤتة وملابساتها ونتائجها، وجاء اختياره كقائد من قِبَل الرسول ﷺ ليلقي مزيداً من الضوء على ذلك الهدف، على الرغم من صغر سنِّه[٦] الذي أثار الاعتراضات من جانب بعض

---

(١) **أبنى، أو يبنى**: بليد قرب الرملة. الحموي: جـ٥ ص٤٢٨.

(٢) الواقدي: جـ٣ ص١١١٧. (٣) ابن هشام: جـ٤ ص٢٤٦.

(٤) الواقدي: جـ٣ ص١١١٧، ١١١٨.

(٥) يذكر الواقدي أن عدد أفراد الجيش يبلغ ثلاثة آلاف مقاتل. **المغازي**: جـ٣ ص١١٢٢. ويذكر ابن كثير أن عدد أفراد الجيش يبلغ سبعمائة، **البداية والنهاية**: جـ٦ ص٣٠٥. والراجح أن العدد تراوح بين الثلاثمائة والسبعمائة استناداً إلى مهمة أسامة التأديبية.

(٦) كان عمر أسامة بن زيد آنذاك عشرين سنة، وقيل: ثماني عشرة سنة. انظر: العسقلاني ابن حجر: **الإصابة في تمييز الصحابة**، جـ١ ص٤٦. وفي رواية للواقدي تسع عشرة سنة. **المغازي**: جـ٣ ص١١٢٥.

الصحابة، نظراً لوجود من هم أكثر خبرة بالقتال منه، فغضب الرسول ﷺ غضباً شديداً، وخرج وقد عصب رأسه، فصعد المنبر فحمد الله وأثنى عليه، ثم قال: (**أما بعد أيها الناس! ما مقالة بلغتني عن بعضكم في تأميري أسامة، ولئن طعنتم في إمارتي أسامة لقد طعنتم في إمارتي أبيه من قبله، وأيم الله إنه كان للإمارة لخليقاً، وأن ابنه من بعده لخليق للإمارة، وإن كان لَمِن أحب الناس إليَّ، وإنهما لمخيلان (خليقان) لكل خير، واستوصوا به خيراً فإنه من خياركم**)[١]. ثم دخل بيته، وتوالى المسلمون يودعونه ويمضون إلى المعسكر في الجرف.

الواضح أن تأمير أسامة بن زيد كان له مغزى عميق في نفس الرسول ﷺ؛ لأن هذا البعث كان شديد الارتباط بغزوة مؤتة التي قُتل فيها زيد بن حارثة، والد أُسامة، وأن اختياره لقيادة البعث يُجسِّد فكرة الثأر التي كان وراءها، ويدفع المقاتلين المسلمين إلى بذل أقصى الجهد لتأديب العدو الذي قتل خيار المسلمين في مؤتة. ولا ينبغي أن يُشكِّل صغر السن عقبة أمام الإنجاز العسكري، وبخاصة أن جيش أُسامة بن زيد يضم العديد من خيرة أصحاب رسول الله ﷺ، من ذوي الخبرة العسكرية والسن، ممن كان أسامة بن زيد لا يستطيع أن يقطع أمراً من دونهم، يضاف إلى ذلك أن أسامة نفسه كان له رصيد قتالي معروف، فقد كان أحد القلائل الذي ثبتوا مع رسول الله ﷺ في غزوة حنين بعد أن فرَّ عامة أصحابه[٢]. وأثبتت نتائج هذا البعث أن اختياره كان صائباً، وأن هذا القائد أدَّى مهمته التي أُنيطت به خير أداء، وكان موضعاً للثقة التي أولاها به الرسول ﷺ.

واشتدَّ في هذه الأثناء مرض الرسول ﷺ، وهو يقول: (**أنفذوا بعث أسامة**). فلما كان يوم الأحد تفاقم مرضه، فجاءه أسامة فقبَّله ورسول الله ﷺ لا يتكلَّم، ويرفع يديه إلى السماء، يدعو لأُسامة، ثم يضع يديه عليه[٣].

ودخل يوم الاثنين، فأصبح رسول الله ﷺ صاحياً، فقال لأسامة: (**اغد على بركة الله**). فودَّعه أُسامة وخرج إلى معسكره، فأمر الناس بالرحيل[٤]. وفي الوقت الذي كان يهم بالركوب جاءه الخبر باحتضار رسول الله ﷺ، فعاد هو وعمر وأبو عبيدة، وتوفي رسول الله ﷺ حين زاغت الشمس يوم الاثنين (١٢ ربيع الأول ١١هـ/ ٧ حزيران ٦٢٣ م)، كما ذكرنا.

---

(١) الواقدي: جـ٣ ص١١١٧.

(٢) كان النبي ﷺ حريصاً على أن يوصي بأسامة أصحابه، فيُروى عنه أنه قال: (**فاستوصوا به خيراً، فإنه من خياركم...**). المصدر نفسه: ص١١١٩.

(٣) المصدر نفسه: جـ٣ ص١١١٩، ١١٢٠.   (٤) ابن سعد: جـ٢ ص١٩١.

ولما بويع أبو بكر، أرسل أسامة بن زيد إلى وجهته تنفيذاً لوصية الرسول ﷺ، وقد شقَّ على بعض الصحابة أن يغادر بجيشه إلى بلاد الشام في وقت كانت حركة الردَّة تمثل تهديداً خطيراً لكيان الدولة الإسلامية، فكلموا أبا بكر في تأجيل إرساله حتى يزول ذلك التهديد، ولكن أبا بكر رفض ذلك وأصرَّ على تنفيذ وصية رسول الله ﷺ، وكان حريصاً على أن يشترك في هذا الجيش كل الذين احتشدوا له قبل وفاة الرسول ﷺ، فلم يتخلف أحد باستثناء عمر بن الخطاب، وقد استأذن أبو بكر أسامة في أن يعفيه من الاشتراك في هذا البعث، مبرراً ذلك بقوله: «فإنه لا غناء بنا عنه»(١).

كانت وجهة أُسامة بن زيد تلك الأماكن الجنوبية في منطقة الأردن وفلسطين، حيث تتركز القبائل العربية التي دأبت على إلحاق الأذى بالمسلمين، ولم تنل ما تستحق من العقاب، وكانت قبيلة قضاعة على رأس هذه القبائل، وأهم الأماكن التي توجَّه إليها أبنى وآبل الزيت(٢) ومؤتة. وقد أغار أسامة بن زيد على قبائل قضاعة وجذام ولخم وأصاب منها ثم رجع سالماً غانماً إلى المدينة، بعد أن غاب عنها أربعين يوماً، وقيل: ستين يوماً، وسبعين(٣). والملفت في هذا البعث أن جيش أسامة بن زيد لم يُصب، ويبدو أن لذلك علاقة بعنصر المفاجأة وسرعة تنفيذ الغارة، وعدم مطاردة الفارين، وإحجام البيزنطيين عن مساعدة القبائل العربية، وربما لم تُتَح لهم الفرصة لإعداد أنفسهم بفعل سرعة الهجوم الخاطف، بالإضافة إلى أن القوة الميدانية البيزنطية كانت مبعثرة؛ لأن البيزنطيين كانوا قد خرجوا حديثاً من حرب طويلة مع الفرس، وليسوا على استعداد للدخول في مواجهات أخرى تستنفد مزيداً من طاقاتهم، ولعلهم ظنوا أن حملة أسامة بن زيد كانت بمثل خطورة غزوة تبوك، أو أنها كانت طليعة لحملة ضخمة(٤).

وهكذا حقَّقت حملة أسامة بن زيد نتيجة إيجابية لم تحققها حملة مؤتة، فقد لفتت أنظار البيزنطيين إلى حقيقة الخطر الذي يُهدِّد حدودهم، وإلى أن المواجهة الحاسمة لا بدَّ آتية، لذلك اتخذوا الإجراءات التي تكفل حماية الحدود. فأمر الامبراطور هرقل بوضع حاميات بيزنطية في البلقاء لحماية حدود بلاد الشام من الهجمات الإسلامية، وقال لبطارقته: «قد صارت العرب تأتي من مسيرة شهر فتُغير عليكم ثم تخرج من ساعتها ولم تُكْلَم (تتكلم)»(٥).

---

(١) الواقدي: جـ٣ ص١١٢١.

(٢) آبل الزيت: بالأردن من مشارف الشام. الحموي: جـ١ ص٥٠.

(٣) ابن كثير: جـ٦ ص٣٠٤.

(٤) سالم: ص١٣٦.

(٥) الواقدي: جـ٣ ص١١٢٤.

واستمرَّت الحامية البيزنطية في البلقاء حتى قدمت جيوش المسلمين إلى بلاد الشام في خلافة أبي بكر وعمر، ليبدأ فصل جديد مختلف في تاريخ الصراع الإسلامي - البيزنطي.

الخاتمة

أدَّت وفاة النبي محمَّد ﷺ إلى انتهاء عهد الرسالة وقيام عهد جديد هو عهد الخلفاء الراشدين الذي يُشكِّل استمراراً لانتقال الأمة الإسلامية من مرحلة التحالف القبلي إلى مرحلة الدولة الإسلامية، التي ابتدأت في حياة النبي ﷺ، ويُحدِّد النهج لمرحلة ما بعد عهد الرسالة، ويتضمن ملابسات تكوينه وتطوره في ضوء ما حدث في صدر الإسلام من فتوح، وما ارتبط بها ونتج عنها من صراعات سياسية ونقاشات دينية حادَّة ونزاعات حزبية وتطورات اجتماعية.

لقد تفاعلت عوامل مختلفة داخلية وخارجية، سياسية واجتماعية، اقتصادية ودينية؛ ساهمت بشكل متفاوت في رسم مسار الأحداث التاريخية وتحديد غاياتها، ولا يمكننا استيعاب هذا التطور إلا من واقع متابعة الأحداث التي تشكل انعطافة، وتعقُّب نشاط الشخصيات التاريخية البارزة، وتتبُّع نشاط مختلف شرائح المجتمع.

كانت مشكلة نظام الحكم هي الأولى التي واجهت المسلمين بعد وفاة النبي ﷺ، الذي لم يعهد لأحد بتدبير أمور المسلمين من بعده، سياسياً بشكل خاص، فأضحى لزاماً على المسلمين أن يتصرفوا ضمن حدود القرآن والسنة، ويُنشئوا نظاماً يقيهم الاختلاف والفرقة، فأنشأوا نظام الخلافة.

واجه أبو بكر الصديق خلال حياته السياسية، بعد أن انتُخب أول خليفة على المسلمين، مشكلتين كبيرتين تمثَّلتا بردَّة العرب عن الدين الإسلامي بعد وفاة النبي ﷺ، وبالفتوح خارج الجزيرة العربية، ولكنه ما لبث أن تغلَّب عليهما، فاستعادت الجزيرة العربية وحدتها، ودانت بالطاعة للحكومة المركزية في المدينة؛ ما سمح ببدء عمليات الفتوح والتوسع في العراق وبلاد الشام التي وضع أساسها النبي ﷺ لنشر الدين الإسلامي بين القبائل العربية خارج الجزيرة العربية.

وواصل عمر بن الخطاب، بعد انتخابه خليفة على أثر وفاة أبي بكر الصديق وبعهد منه؛ عَمَلَ الأخير، فاستكمل الفتوح في العراق وبلاد الشام بالإضافة إلى بلاد فارس ومصر. وأضحى المسلمون في عهده عاملاً مهماً في التاريخ العام بعد أن فتحوا البلاد المشار إليها وقضوا على الامبراطورية الفارسية وانتزعوا أراضٍ واسعة

من الامبراطورية البيزنطية، وهو الحدث الملفت الذي تمَّ إنجازه في أعوام معدودة وتميز بطول المسافة واتساع الرقعة وعمق الأثر ودوامه. وشهد عهده نقلة نوعية من واقع استكمال خطوات النبي ﷺ في الانتقال من مرحلة التحالف القبلي إلى مرحلة الدولة الإسلامية، وذلك بما وضع من تنظيمات سياسية واجتماعية واقتصادية نظَّمت العلاقات بين مختلف أفراد المجتمع الإسلامي من جهة، وبينهم وبين الدولة المركزية من جهة أخرى، بالإضافة إلى تنظيم العلاقات بين الدولة الإسلامية وسكان البلاد المفتوحة. والواقع أن هذه العملية تتميز بالتعقيد لأنها خرجت إثر انقلاب شامل في جميع مجالات الحياة وترافقت مع انتشار الإسلام.

وفي الوقت الذي كانت فيه الدولة الإسلامية تسير بخطى واسعة وثابتة نحو الاستقرار، تعرَّضت لنكسة داخلية نتيجة تنامي النفوذ السياسي والاقتصادي «للارستقراطية» القرشية، من واقع تجدُّد التنافس، بعد مقتل عمر بن الخطاب، بين بني هاشم وبني أُمية؛ تجلَّى منذ اختيار عثمان بن عفان خليفة للمسلمين. وتعرَّضت سياسة هذا الخليفة للنقد من جانب بعض الشخصيات الإسلامية، فانقسم المجتمع الإسلامي على نفسه بين مؤيد لبني هاشم ومؤيد لبني أُمية، بالإضافة إلى الفرز الاجتماعي الناتج عن عمليات الفتوح والمتمثل بتحديد العطاء وتوزيع الثروات المحصَّلة من الغنائم، وتنامي قوة الأمصار على حساب القوة المركزية في المدينة، وقد أدَّى كل ذلك إلى مقتل عثمان بن عفان.

ودُفع علي بن أبي طالب إلى تسلُّم الخلافة في خطوة تكاد تكون انقلابية ضد سياسة سلفه، لكنه ما لبث أن واجه معارضة سياسية مغلَّفة بإطار الثأر لمقتل عثمان، وبدا التنافس السياسي على السلطة واضحاً بين بعض قادة المسلمين ما انعكس سلباً على الوضع العام والقدرة على متابعة الفتوح.

وواجه علي بن أبي طالب حركتين معارضتين لحكمه، تمثَّلت الأولى بخروج طلحة بن عبيد الله والزبير بن العوام وعائشة أُم المؤمنين، وانتهت هذه الحركة بانتصاره في معركة الجمل. وتمثَّلت الثانية بمعارضة بني أُمية بزعامة معاوية بن أبي سفيان والي الشام، وقد تطورت إلى حرب دارت رحاها في صفِّين وانتهت باتفاق الطرفين على التحكيم، لكن هذه الخطوة لم تُنهِ الصراع، وأخذت الصعاب تلاحق علياً في دولته حتى قُتل على يد الخوارج، وانتهى بمقتله عصر صدر الإسلام.

ثبت المصادر والمراجع

أولاً: المصادر والمراجع باللغة العربية

أ ـ المصادر:

□ ابن الأثير، أبو الحسن علي . . .بن عبد الواحد الشيباني، المعروف بابن الأثير الجزري.

ـ **الكامل في التاريخ**، تحقيق عمر عبد السلام تدمري، دار الكتاب العربي، بيروت، طـ١، ١٩٩٧م.

□ ابن الأثير، المبارك بن محمد الجزري:

ـ **جامع الأصول في أحاديث الرسول**، دار الكتب العلمية، طـ١، ١٩٩٨م.

□ الأزرقي، أبو الوليد محمد بن عبد الله بن أحمد:

ـ **أخبار مكة وما جاء فيها من الآثار**، تحقيق رشدي الصالح ملحس، دار الأندلس، بيروت، طـ٣، ١٣٨٩هـ/ ١٩٦٩م.

□ الأصفهاني، أبو الفرج علي بن الحسن:.

ـ **الأغاني**، مؤسسة جمَّال للطباعة والنشر، بيروت.

□ البخاري، الإمام أبو عبد الله محمد بن إسماعيل:

ـ **صحيح البخاري**، دار الكتب العلمية، بيروت، طـ٦، ١٤٣٠هـ/ ٢٠٠٩م.

□ البغدادي، محمد بن حبيب:

ـ **المنمق في أخبار قريش**، تعليق وتصحيح خورشيد أحمد فارق، عالم الكتب، بيروت، طـ١، ١٩٨٥م.

□ البلاذري، أحمد بن يحيى:

ـ **أنساب الأشراف**، تحقيق سهيل زكار ورياض الزركلي، دار الفكر، بيروت، طـ١، ١٤١٧هـ/ ١٩٩٦م.

□ البلخي، أبو زيد أحمد بن سهل:

ـ **كتاب البدء والتاريخ**، تحقيق خليل المنصور، دار الكتب العلمية، بيروت، طـ١، ١٩٩١م.

- البنا، أحمد عبد الرحمٰن، الشهير بالساعاتي:
- **الفتح الرباني في ترتيب مسند الإمام أحمد**، دار إحياء التراث العربي، بيروت، ط٢.
- البيضاوي، ناصر الدين أبو سعيد عبد الله:
- **تفسير البيضاوي المسمى أنوار التنزيل وأسرار التأويل**، دار الكتب العلمية، بيروت، ط١، ١٤٠٨هـ/ ١٩٨٨م.
- البيهقي، أبو بكر أحمد بن الحسين:
- **دلائل النبوة ومعرفة أحوال صاحب الشريعة**، تحقيق عبد المعطي قلعجي، دار الكتب العلمية، بيروت، ط١، ١٤٢٠هـ/ ١٩٩٩م.
- الجاحظ أبو عثمان، عمرو بن بحر:
- **كتاب الحيوان**، تحقيق عبد السلام هارون، دار إحياء التراث العربي، بيروت.
- الحلبي، علي برهان الدين:
- **السيرة الحلبية المسماة إنسان العيون في سيرة الأمين المأمون**، دار المعرفة، بيروت.
- الحموي، شهاب الدين أبو عبد الله ياقوت:
- **معجم البلدان**، دار صادر، بيروت، ١٩٧٩م.
- ابن حنبل، أحمد:
- **مسند أحمد بن حنبل**، إشراف سمير طه المجذوب، المكتب الإسلامي، بيروت، ط١، ١٤١٣هـ/ ١٩٩٣م.
- ابن خلدون، عبد الرحمٰن بن محمد:
- **العبر وديوان المبتدأ والخبر... المعروف بتاريخ ابن خلدون**، مؤسسة جمَّال للطباعة والنشر، بيروت، ١٩٧٩م.
- أبو داوود، الحافظ سليمان بن الأشعث السجستاني:
- **سنن أبي داود**، تحقيق محمد محي الدين عبد الحميد، المكتبة العصرية، بيروت ـ صيدا.
- الذهبي، الحافظ شمس الدين أبو عبد الله محمد بن أحمد:
- **سير أعلام النبلاء**، مؤسسة الرسالة، بيروت، ط١، ١٤٠٣هـ.
- **تجريد أسماء الصحابة**، تحقيق محمد علي البجاوي، دار النهضة، مصر.
- الزرقاني، محمد بن عبد الباقي:
- **شرح المواهب اللدنية**، دار المعرفة، بيروت.
- ابن سعد، محمد:
- **الطبقات الكبرى**، دار صادر، بيروت.
- السهيلي، أبو القاسم عبد الرحمٰن:
- **الروض الأنف في تفسير السيرة النبوية لابن هشام**، تقديم طه عبد الرؤوف سعد، مكتبة الكليات الأزهرية، القاهرة.

❑ السمهودي، أبو الحسن محمد بن عبد الله:
- **وفاء الوفا في أخبار دار المصطفى**، القاهرة، ١٣٢٦هـ.

❑ ابن سيد الناس، فتح الدين أبو الفتح:
- **عيون الأثر في فنون المغازي والشمائل والسير**، دار المعرفة، بيروت.

❑ الطبري، محمد بن جرير:
- **تاريخ الرسل والملوك**، تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم، دار المعارف، مصر، ١٩٦٠م.

❑ العسقلاني، الحافظ شهاب الدين أبو الفضل، المعروف بابن حجر:
- **الإصابة في تمييز الصحابة**، دار الكتاب العربي، بيروت.
- **فتح الباري بشرح صحيح البخاري**، شركة ومكتبة مصطفى البابي الحلبي، القاهرة، ١٩٥٩م.

❑ القرطبي، أبو عبد الله محمد بن أحمد:
- **الجامع لأحكام القرآن**، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة، ١٩٨٧م.

❑ ابن قتيبة الدينوري، أبو محمد عبد الله بن مسلم:
- **المعارف**، دار الكتب العلمية، بيروت، ط٢، ٢٠٠٣م.

❑ ابن قيم الجوزية، محمد بن أبي بكر:
- **زاد المعاد في هدي خير العباد**، تحقيق مصطفى عطا، دار الكتب العلمية، بيروت.

❑ ابن كثير، الحافظ عماد الدين أبو الفداء:
- **تفسير القرآن العظيم**، دار المعرفة، بيروت، ١٤٠٠هـ/ ١٩٨٠م.
- **البداية والنهاية**، مكتبة المعارف، بيروت، ج٢، ١٩٧٧م.

❑ الكلبي، هشام بن محمد السائب:
- **كتاب الأصنام**، تحقيق محمد عبد القادر أحمد وأحمد محمد عبيد، مكتبة النهضة المصرية، القاهرة.

❑ المسعودي، أبو الحسن علي بن الحسن:
- **مروج الذهب ومعادن الجوهر**، دار الأندلس، بيروت، ١٩٧٣م.

❑ مسلم، أبو الحسن مسلم بن الحجاج:
- **صحيح مسلم على شرح النووي**، القاهرة.

❑ ابن منظور، أبو الفضل جمال الدين محمد:
- **لسان العرب**، دار صادر، بيروت.

❑ النووي، أبو زكريا يحيى بن شرف:
- **شرح النووي في هامش صحيح مسلم**، القاهرة.
- **مغني المحتاج إلى معرفة ألفاظ المنهاج**، شرح محمد الشربيني الخطيب، مطبعة مصطفى البابي الحلبي، القاهرة، ١٣٧٧هـ/ ١٩٥٨م.

□ ابن هشام، عبد الملك بن هشام بن أيوب:
- **السيرة النبوية، على متن الروض الأنف للسهيلي**، مكتبة الكليات الأزهرية، القاهرة.

□ الهمداني، الحسن بن أحمد بن يعقوب:
- **صفة جزيرة العرب**، تحقيق محمد بن علي الأكوع، مركز الدراسات والبحوث اليمني، صنعاء، دار الآداب، بيروت.

□ الهيثمي، نور الدين علي بن أبي بكر:
- **مجمع الزوائد ومنبع الفوائد**، تحرير الحافظين العراقي وابن حجر، دار الكتاب العربي، بيروت، ط٣، ١٤٠٢هـ/ ١٩٨٢/ .

□ الواقدي، محمد بن عمر بن واقد:
- **كتاب المغازي**، تحقيق مارسدن جونز، عالم الكتب، بيروت.

□ اليعقوبي، أحمد بن أبي يعقوب:
- **تاريخ اليعقوبي**، تحقيق عبد الأمير مهنا، مؤسسة الأعلمي للمطبوعات، بيروت، ط١، ١٩٩٣م.

ب - المراجع:

□ الألوسي، محمود شكري:
- **بلوغ الأرب في معرفة أحوال العرب**، باعتناء محمد بهجت الأثري، دار الكتاب العربي، القاهرة، ١٩٢٤م.

□ إيمار، أندريه وجانين أوبوايه:
- **روما وامبراطوريتها**، الجزء الثاني من موسوعة تاريخ الحضارات العام، منشورات عويدات، بيروت، ط٣، ١٩٩٤م.

□ بودلي، ر.ف: **حياة محمد**، ترجمة عادل زعيتر، القاهرة، ١٩٤٩م.

□ البوطي، محمد سعيد رمضان:
- **فقه السيرة النبوية**، دار الفكر المعاصر - بيروت، دار الفكر - دمشق، ط١٠، ١٩٩١م.

□ بيضون، إبراهيم:
- **حملة مؤتة**، مقاربة للمشروع السياسي الأول للدولة الإسلامية في بلاد الشام، بحث في كتاب: المؤتمر الدولي الرابع لتاريخ بلاد الشام، عمان، ١٩٨٧م.
- **دولة الرسول في المدينة**، بحث في كتاب المؤتمر الدولي الرابع لتاريخ بلاد الشام، عمان، ١٩٨٧م.

□ الحميدي، عبد العزيز:
- **التاريخ الإسلامي مواقف وعبر**، دار الدعوة الإسكندرية، ط١، ١٩٩٧م.

□ الخربوطلي، علي حسني:
- **العرب واليهود في العصر الإسلامي**، سلسلة كتب قومية، العدد ٢٤٧.
□ الخضري، محمد:
- **تاريخ الأمم الإسلامية**، القاهرة.
□ خطّاب، محمود شيث:
- **الرسول القائد**، دار مكتبة الحياة ومكتبة النهضة، بغداد، ط٢، ١٩٦٠م.
□ رضا، محمد رشيد:
- **تفسير القرآن الحكيم**، دار المنار، القاهرة، ط٤، ١٣٧٣هـ.
□ أبو زهرة، الشيخ محمد:
- **خاتم النبيين**، دار الفكر العربي، ط١، ١٩٧٢م.
□ سالم، عبد الرحمٰن أحمد:
- **المسلمون والروم في عصر النبوة**، دار الفكر العربي، القاهرة، ١٩٩٧م.
□ الشامي، صالح:
- **من معين السيرة**، المكتب الإسلامي، بيروت، ط٢، ١٤١٣هـ/ ١٩٩٢م.
□ الشريف، أحمد إبراهيم:
- **مكة والمدينة، في الجاهلية وعصر الرسول**، دار الفكر العربي، القاهرة، ط٢، ١٩٦٥م.
□ الشقاري، عبد الله:
- **اليهود في السنة المطهرة**، دار طيبة، الرياض، ط١، ١٤١٧هـ/ ١٩٩٦م.
□ أبو شهبة، محمد:
- **السيرة النبوية في ضوء القرآن والسنة**، دار القلم، دمشق، ط٣، ١٩٩٦م.
□ ابن صالح، حميد:
- **نضرة النعيم في مكارم أخلاق الرسول الكريم**، إعداد مجموعة من المختصين، دار الوسيلة، ط١، ١٤١٨هـ.
□ الصالح، الشيخ صبحي:
- **مباحث في علوم القرآن**، دار العلم للملايين، بيروت، ط٥، ١٩٦٨م.
□ الصلّابي، علي محمد:
- **السيرة النبوية**، المكتبة العصرية، صيدا - بيروت، ١٤٣٠هـ/ ٢٠٠٩م.
□ الطرهوني، محمد بن رزق:
- **صحيح السيرة النبوية المسماة السيرة الذهبية**، مكتبة ابن تيمية، القاهرة، ط١، ١٤١٤هـ/ ١٩٩٣م.

□ آل عابد، محمد بكر:
- **حديث القرآن عن غزوات الرسول**، دار الغرب الإسلامي، بيروت، ط١.

□ عبده، الشيخ محمد:
- **رسالة التوحيد**، دار المنار، القاهرة، ط١٧، ١٣٧٦هـ.

□ عرجون، محمد الصادق:
- **محمد رسول الله**، دار القلم، دمشق، ط٢، ١٤١٥هـ/ ١٩٩٥م.

□ عرموش، أحمد راتب:
- **قيادة الرسول ﷺ السياسية والعسكرية**، دار النفائس، بيروت، ط٣، ١٤٢٣هـ/ ٢٠٠٢م.

□ العريني، السيد الباز:
- **الدولة البيزنطية**، دار النهضة العربية، بيروت، ١٩٨٢م.
- **تاريخ أوروبا**، دار النهصة العربية، بيروت، ١٩٦٨م.

□ العقاد، عباس محمود:
- **عبقرية خالد**، دار الهلال، القاهرة.

□ العلي، صالح أحمد:
- **دولة الرسول ﷺ في المدينة**، شركة المطبوعات للتوزيع والنشر، بيروت، ط١، ٢٠٠١م.

□ العمري، أكرم:
- **السيرة النبوية الصحيحة**، مكتبة العلوم والحكم بالمدينة المنورة، ط١، ١٤١٢هـ/ ١٩٩٢م.

□ العمري، بريك محمد بك أبو مايلة:
- **السرايا والبعوث النبوية حول مكة والمدينة**، دار ابن الجوزي، ط١، ١٤١٧هـ/ ١٩٩٦م.

□ الغزالي، محمد:
- **فقه السيرة**، دار الشروق، القاهرة، ط٣، ١٤٢٦هـ/ ٢٠٠٥م.

□ فرج، محمد:
- **العبقرية العسكرية في غزوات الرسول**، دار الفكر العربي، القاهرة، ط٣، ١٩٧٧م.

□ قطب، سيد:
- **في ظلال القرآن**، ط٥، ١٢٨٦هـ/ ١٩٦٧م.

□ قلعه جي، محمد رواس:
- **قراءة سياسية للسيرة النبوية**، دار النفاس، بيروت، ط٢، ١٤٢٠هـ/ ٢٠٠٠م.

□ كريستنسن، أرثر:
- **إيران في عهد الساسانيين**، دار النهضة العربية، بيروت.

□ مروة، حسين:
- **النزعات المادية في الفلسفة العربية الإسلامية**، دار الفارابي، بيروت، طـ٤، ١٩٨١م.

□ معطي، علي:
- **التاريخ السياسي والعسكري لدولة المدينة في عهد الرسول ﷺ**، مؤسسة المعارف، بيروت، طـ١، ١٤١٩هـ/١٩٩٨م.

□ مكي، أحمد:
- **وقعة أُحد**، مقال في دائرة المعارف بإشراف فؤاد أفرام البستاني، جـ٧.

□ المهيري:
- **الموسوعة في سماحة الإسلام**، الدار السعودية للنشر والتوزيع، جدة، طـ٢، ١٤٠٤هـ/١٩٨٤م.

□ النحوي، عدنان:
- **ملامح الشورى في الدعوة الإسلامية**، طـ٢.

□ الهوني، محمد فرج:
- **النظم الإدارية والمالية في الدولة العربية الإسلامية**، الشركة العامة للنشر والتوزيع، ليبيا، ١٣٩٦هـ/١٩٧٦م.

□ ولفنسون، إسرائيل:
- **تاريخ اليهود في بلاد العرب في الجاهلية وصدر الإسلام**، القاهرة، ١٩٢٧م.

□ يحيى، لطفي عبد الوهاب:
- **العرب في العصور القديمة**، دار النهضة العربية، بيروت، طـ٢، ١٩٧٩م.

ثانياً: المصادر والمراجع باللغات الأوروبية

- Canon, Sell: **Life of Mohammed**, Madras, 1913.
- Muir, Sir William: **Life of Mohammed**, Edinburgh, 1923.
- Ostrogorsky, G.: **History of the Byzantine State**. Trans by Joan Hussey, Oxford 1966.
- Philby: **The Empty Quarter in the Geographical Journal**. 81.
- Vasiliev, A: **The Byzantine Empire**, Madison 1952.
- Watt, M: **Mohammed at Mecca**, Oxford, 1953.

ثبت الخرائط الواردة في الكتاب

محتوى الكتاب

الموضوع	الصفحة

الموضوع	الصفحة

الموضوع	الصفحة

الموضوع	الصفحة

الموضوع	الصفحة

الموضوع	الصفحة

الموضوع	الصفحة

ISBN 978-9953-18-488-3

9789953184883

رقم: 558 - 12